الطبعة [٢] الثانية



فرسان تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم

- الجزء الأول -



بقلم الشيخ

أيمن الظواهري

- حفظه الله -



فرسان تحت راية النبي ﷺ

الجزء الأول

بقلم:

أيمن الظواهري

الطبعة الثانية

عن معاذ بن جبل ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"خذوا العطاء ما دام عطاءً، فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه. ولستم بتاركيه، يمنعكم الفقر والحاجة. ألا إن رحى الإسلام دائرة، فدوروا مع الكتاب حيث دار. ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان، فلا تفارقوا الكتاب. ألا إنه سيكون عليكم أمراء، يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم، إن عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم". قالوا: يا رسول الله كيف نصنع؟ قال: "كما صنع أصحاب عيسى بن مريم، نشروا بالمناشير، وحملوا على الخشب. موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله"[1].

(هذه كلمة حق وصيحة في واد، إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد)[2].

---

[1] قال الهيثمي رحمه الله: رواه الطبراني، ويزيد بن مرثد لم يسمع من معاذ، والوضين بن عطاء وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات. [مجمع الزوائد- باب لا طاعة في معصية ج: ٥ ص: ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٨].

[2] عبد الرحمن الكواكبي.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء الأول من الطبعة الثانية

ليس في أعواد غابي سقط ... هي للمنبر أو أعواد صلب[1]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿ ٧٠ ﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾.

وبعد فهذا هو الجزء الأول من الطبعة الثانية من كتاب (فرسان تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم) آثرت أن أخرجه أولاً، ولا أنتظر إتمام الطبعة الثانية، نظراً للظروف التي تمر بالمجاهدين، وإن مد الله سبحانه في العمر، وأمد بعون منه، ويسر الأحوال، فأرجو أن أتمم الطبعة الثانية.

وقد توسعت في هذه الطبعة في عدة مواضع من الكتاب، وخاصة فيما يتعلق بالغزوات المباركات على واشنطن ونيويورك وبنسلفانيا، وتوقفت عندها، وآثرت ألا أكمل التعرض للإحداث التي تلتها، لأن المعركة ما زالت محتدمة، والعدو يتسقط أية معلومة، كما أن العديد من الإخوة المسلمين في أسر العدو،

---

[1] محمد إقبال رحمه الله.

وربما يؤثر عليهم ما أذكره، ولهذا وغيره آثرت أن أكتفي في السرد بالغزوات المباركات، وكما ذكرت في مقدمة الطبعة الأولى:

"وقد يتوقع القارئ أن يجد في هذا الكتاب تأريخاً لفترة أو سرداً لأحداث مرحلة، وقد يتوقع أن يجد فيه تحليلاً لسياسات أو تقييماً لمناهج أو نقداً لنظم، ولكني أنبه القارئ الكريم أن الكتاب -وإن كان فيه شيء من ذلك- إلا أنه ما كتب لذلك، ولا يستطيع كاتبه أن يوفي بذلك.

أما أنه ما كتب لذلك فلأن هذا الكتاب -هو في حقيقته- رسالة من الكاتب إلى أمته، وليس شيئاً من ذلك الذي قد يتوقعه القارئ الكريم، حتى وإن تضمن تأريخاً أو تحليلاً.

وأما أن كاتبه لا يستطيع أن يوفي بذلك فلأسباب منها أن الكاتب لا يملك الاستقرار الذي يستطيع أن يجمع به كثيراً من الوثائق والأسانيد الضرورية لهذا النوع من الكتابة، فالكاتب -بصراحة- لا يملك إلا شهادته مع قليل من الوثائق والمصادر، وحتى هذه الشهادة لا يستطيع أن يقدمها مفصلة لأن كثيراً من أبطالها ما زالوا في خضم المعركة، وكثيراً من أحداثها لا زالت تتفاعل في الميدان. فليقبل القارئ هذا الكتاب (الرسالة) مني على حاله، وكفى بهذا هدفاً، وكفى بهذا نجاحاً".

فغايتي من هذا الكتاب توصيل رسالة وأداء أمانة، وليس مجرد التأريخ والتحليل، فلست بالمؤرخ ولا المحلل، ولا أستطيع أن أكونهما -في ظروفي- حتى وإن كنت أحدهما.

وأحمد الله أن المدة بين الطبعتين قد شهدت أحداثاً في غاية الخطورة والتأثير في تاريخ العالم والأمة المسلمة، فقد شهدت الغزوات المباركات، وشهدت غزو أفغانستان والعراق، وها هي تشهد تكسر الحملة الصليبية في كل منهما، وبوادر انسحاب الصليبيين منهما. وبزوغ الحركة الجهادية أقوى شوكة وأكثر حنكة وأوسع انتشاراً وأوضح بياناً بفضل الله وقوته.

وقد تعرضت الطبعة الأولى للتشويه والبتر على يد صحيفة الشرق الأوسط، التي تلقفتها من المخابرات الأمريكية، التي حصلت عليها من حاسوبي المحمول في أفغانستان، وحاولت المخابرات الأمريكية أن تخفي النص الكامل للطبعة الأولى، فقد ذكر ويليام ماكنتس وزميلاه من مركز مكافحة الإرهاب بالجيش الأمريكي عني:

"وقد نشر في ديسمبر ٢٠٠١ كتاب (فرسان تحت راية النبي [صلى الله عليه وسلم](١) يوضح فيه عقيدة القاعدة، وقد نشرت ترجمات إنجليزية لهذا الكتاب، ولكن يصعب تحديد مكانها الآن لظروف أمنية، ولكن مقتطفات منه موجودة على شبكة المعلومات"(٢).

(١) ما بين العلامتين [] من إضافتي وهي جزء من العنوان الأصلي للكتاب.

(٢) MILITANT IDEOLOGY ATLAS- RESEARCH COMPENDIUM, p: ٣٥٧.

والغريب أن الكتاب المذكور صادر عن مركز مقاومة الإرهاب التابع للجيش الأمريكي، وقد ورد به تقرير عني في قرابة صفحة ونصف [ص: ٣٥٨ و٣٥٩]، ورد فيه ثلاثة عشر خطأً، رغم أن مؤلفيه ثلاثة من الحاصلين على شهادة الدكتوراه، ورغم فخر الجيش الأمريكي بهذا المركز، ومن هذه الأخطاء قولهم أني قد التحقت بالإخوان المسلمين وعمري أربعة عشر عاماً، ولم التحق بالإخوان طيلة عمري، أما الإثنا عشر خطأً الأخرى فعليهم أن يكتشفوها بأنفسهم، وإلا فهل تنفق عليهم الميزانيات الطائلة؟ ثم أصححها لهم مجاناً، فليبحثوا، وليجهدوا.

ومن طرائف هذا المركز، الذي يعد نفسه متخصصاً في القاعدة؛ أنه أخرج كتاباً عن ثغرات القاعدة سماه (Harmony and Disharmony) أو التناسق وعدم التناسق، وتباهى بأنه قد أظهر فيه عدداً من الوثائق السرية للقاعدة، وهي خليط من أوراق حصلوا عليها في أفغانستان وباكستان، وتضخم الدراسة من أهمية الوثائق، وتخلط خلطاً شديداً من حيث نسبة الوثائق للقاعدة، ومن حيث الدعوة بأنها وثائق سرية تم الإفراج عنها. والأدهى أني وجدت بعض الكتاب المشهورين والمراكز المعروفة تنقل عن هذه الوثائق السرية الخطيرة!

أ- فمن حيث نسبة الرسائل للقاعدة: فثلاث عشرة وثيقة من الثماني والعشرين لا صلة لها بالقاعدة:

(١) فالوثائق الخمس للفيلق الأفريقي هي رسائل من أبي الوليد المصري، بل وفيها نقد للقاعدة، وهي الوثيقة رقم (AFGP-٢٠٠٢-٦٠٠٠٥٣).

(٢) أما الوثيقة رقم (٢RAD-٢٠٠٤-٦٠٠٤٥٧) فهي من موقع الإرهاب الإسلامي في التعريف بالظواهري.

(٣) واالوثيقتان (AFGP-٢٠٠٢-٦٠٠٠٨٠, AFGP-٢٠٠٢-٦٠٠٩٦٦) هما لأبي مصعب السوري فك الله أسره، كتبهما بصفته الشخصية، وليس باسم القاعدة.

(٤) والوثيقة (AFGP-٢٠٠٢-٦٠١٠٤١) هي رسالة الرد على الألباني، التي أصدرتها جماعة الجهاد منذ سنين طويلة قبل الالتحاق بالقاعدة.

(٥) أما الوثائق الأربع ذات الأرقام:

(AFGP-٢٠٠٢-٦٠١٣٤٦, AFGP-٢٠٠٢-٦٠١٦٩٣, AFGP٢٠٠٢-٦٠٢١٨١, AFGP-٢٠٠٢-٦٠٢١٨٧)

فهي مراسلات من ناس لا صلة لهم بالقاعدة، بل يعادونها، ومن يقرأ الرسائل يعرفهم.

ب- أما من حيث السرية:

(١) فالوثائق الثلاث عشرة المتصلة بالقاعدة منها ثلاث عبارة عن منشورات موزعة وهي الرسالة للملك فهد والرسالة لمؤتمر علماء ديوبند في بشاور ورسالة أخرجوا المشركين من جزيرة العرب.

(٢) أما الوثائق الخمس عشرة المنفصلة عن القاعدة فمنها أربع عبارة عن منشورات موزعة للجميع وهي رسالتان لأبي مصعب السوري ورسالة الرد على الألباني ونبذة عن الظواهري.

وفي هذا الكتاب نسبوا لي كتاب الرد على الشيخ الألباني ~، والكتاب ليس لي، بل من سلسلة كنت أشرف على إخراجها، والذي يضحك الثكلى؛ أنهم ذكروا؛ أن ذلك الكتاب فيه أحاديث عن ابن عباس {والملك الشجاعي (King Al-

وما أدري أية ظروف أمنية تلك التي تمنع نشر ترجمات لكتاب منشور!!

ثم قرأت في مقدمة الطبعة الإنجليزية لكتاب (أيمن الظواهري كما عرفته) لمنتصر الزيات، أن المترجم والمحررة يذكران أن منتصر الزيات قد:

"قابل أيمن الظواهري لأول مرة لما كان مسجوناً في قبضة السلطات المصرية كمشتبه به في اغتيال الرئيس المصري حينئذ؛ أنور السادات. وقد امتد مشروعه التاريخي إلى نشر كتاب أيمن الظواهري (فرسان تحت راية النبي [صلى الله عليه وسلم])[1] *الذي كتبه في مكان ما في الكهوف القريبة من (تورا بورا) أثناء الهجمات الأمريكية على أفغانستان، ثم نشر في ديسمبر ٢٠٠١"*[2].

فبحسب هذه الرواية من المترجم والمحررة -اللذين لا أحسبهما متحاملين على منتصر الزيات- يظهر أن لمنتصر الزيات أيضاً دور في نشر الكتاب بالصورة المشوهة والقصة الخرافية التي نسجت حوله في ديسمبر ٢٠٠١.

ومنتصر الزيات -كما سيجد القارئ في فصلي (عصام القمري) و(فتحي رضوان) ومبحث (حرب التشويه والكذب)- لم يكن في يوم من الأيام لا صديقي ولا زميلي في السجن ولا خارجه ولا وكيلاً عني، ولا قابلني يوماً في حياتي، ولم يدر بيني وبينه أي كلام سوى مكالمة هاتفية لدقيقة أو أكثر بناء على

(Shaj'ai) [ص: ٩١]، وقد فكرت كثيراً فيمن يكون هذا الملك الشجاعي؟ ثم بالبحث في الرسالة المذكورة وجدت أنهم يقصدون الصحابي الجليل عوف بن مالك الأشجعي >. فتأمل العلم والخبرة والتخصص!

وفي هذا الكتاب يعرفون الردة عند القاعدة بأنها: تضم كل أولئك الذين يختلفون مع تفسير القاعدة للإسلام! [ص: ٥٧] فتأمل الدجل!

وفي هذا الكتاب يعرفون الخوارج بأنهم: فرقة متطرفة من الشيعة [AFGP-٢٠٠٢-٦٠١٦٩٣-Trans, p: ٣]، أما المرجئة فهم أيضاً فرقة من الشيعة [AFGP-٢٠٠٢-٦٠١٦٩٣-Trans, p: ٤]، فتأمل التبحر في الفرق والنحل! أما حلف الفضول فيعرفونه بأنه: "مجلس شكله النبي محمد قبل انتشار الإسلام، وكان هذا المجلس مكوناً من زعماء القبائل في الجزيرة العربية ليعالج شؤون أقوامهم" [AFGP-٢٠٠٢-٦٠١٦٩٣-Trans, p: ٣]. وحلف الفضول لم يشكله سيدنا محمد @، إنما شكله بعض من زعماء قريش، وليس زعماء القبائل في الجزيرة العربية، وشهده النبي @، وهو غلام عليه الصلاة والسلام، قال النبي @: "شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ مَعَ عُمُومَتِي، وَأَنَا غُلَامٌ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنِّي أَنْكُثُهُ". [مسند أحمد- كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة- باب: حديث عبد الرحمن بن عوف الزهري- حديث رقم: ١٥٦٧]. ولم يكن هدفه النظر في شؤون القبائل العربية، بل تعاقدوا على نصرة أي مظلوم بمكة [تفسير القرطبي- تفسير قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ سورة المائدة الآية: ١- المسألة الثانية. ج: ٦ ص: ٣٣]، فتأمل التبحر في السيرة! وهذه أمثلة فقط، وغيض من فيض. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

[1] ما بين العلامتين [] من إضافتي وهي جزء من العنوان الأصلي للكتاب.

[2] The Road to Al Qaeda, The Story of Bin Laden's Right hand man, Preface, p: xi.

طلب منتصر الزيات من أحد الأصدقاء، سلمت عليه فيها، لأن منتصر أصر على الصديق المذكور أنه يرغب في سماع صوتي، ولكن يرجو ألا تتعدى المكالمة السلام، لأن هاتفه مراقب!!

ولذا كان أولى به أن يسمي كتابه (أيمن الظواهري كما لم أعرفه)، وقد هللت وسائل الإعلام الرسمية للكتاب، وأفسحت له محاضرة في معرض الكتاب الدولي بالقاهرة، لأنه جاء في بداية الحملة الأمريكية على أفغانستان، ويعد الكثيرون –ممن يعدون أنفسهم متخصصين في شؤون الحركات الإسلامية– كتاب منتصر الزيات على أنه مصدر تاريخي قيم لكون كاتبه كان أحد أعضاء الجماعات الإسلامية، ولصلته القديمة والمتواصلة بي. فيذكر مترجم ومحررة الترجمة الإنجليزية للكتاب أنه:

> *"في يناير ٢٠٠٣ أرسل الظواهري رسالة إلكترونية لموقع الإنترنت الخاص بمنظمة الزيات؛ مركز المستقبل للدراسات، أثنى فيها على هجمات ١١ سبتمبر، وأصدر ما أسمته (كايرو تايمز) نداء من شبكة المعلومات لمواصلة الحملات على الأمريكان.*
>
> *وعلاقة الزيات اللصيقة بالظواهري في أيامه المبكرة، واتصاله المتواصل به يجعلان ترجمته النفسية للظواهري مفتاحاً هاماً لفهم –ليس فقط– فلسفة ثاني أكثر الرجال المطلوبين في العالم، ولكن أيضاً الظاهرة العامة للإسلامية المقاتلة والاتجاه الجديد نحو استهداف الولايات المتحدة وحلفائها"[(١)].*

ويشهد الله أن هذا كله كذب وتلفيق، ولم يحدث منه شيء، ولكنها آلة الطباعة والدعاية والإعلام التي يزجيها ذهب أمريكا وبارودها.

وقد احتوى كتاب الزيات المذكور على سيل من الافتراءات والأكاذيب، منه ما يمسني شخصياً، ومنها ما يمس الحركة الجهادية عامة. ولعل القارئ أن يجد في صفحات هذه الطبعة الرد على كثير من تلك الشبهات والتلفيقات، أما ما يمس شخصي فأحتسب ما ألقاه بشأنه عند الله.

وبرغم حملة التشويه والهجوم على الطبعة الأولى من الكتاب فقد يسر الله لي أن أجد نسخة كاملة منها. وقد أرسلتها للنشر، ولكني أيضاً اكتشفت أن موقع (منبر التوحيد والجهاد) –مشكوراً– قد نشر نسخة من الطبعة الأولى، إلا أن المشرفين على الموقع ذكروا أن هذه النسخة لم تصلهم من (مصادر معروفة)، ولذا أرى أن نسخة الطبعة الأولى التي ستصدرها السحاب –إن شاء الله– هي الأوثق لأنها هي التي راجعتها بنفسي، ولا ينقص هذا من شكري وامتناني للمشرفين على منبر التوحيد والجهاد، الذين تجشموا مشقة إعداد ونشر النسخة التي وصلتهم من الطبعة الأولى.

---

(١) The Road to Al Qaeda, The Story of Bin Laden's Right hand man, Preface, p: xii.

وقد كنت أود في هذه المقدمة أن أشكر الكثيرين الذين قدموا لي العون ومدوا لي يد المساعدة في سبيل الله عز وجل في المدة بين الطبعتين، كما كنت أود أن أُعَرف بالكثيرين من الأبطال والصناديد، الذي قدموا ولا زالوا يقدمون في سبيل الله، لا يرجون من أحد جزاء ولا شكوراً.

فقد مرت بي بين طبعتي هذا الكتاب مرحلة تاريخية في غاية الخطورة في تاريخ الأمة المسلمة، بل وفي تاريخ الدنيا، شهدت فيها بطولات يتشرف التاريخ بذكرها، وفي نفس الوقت انكشفت كثير من الحقائق، وسقطت كثير من الأقنعة، وتبدت كثير من الوجوه على حقيقتها، وأبدت الكثير من النفوس سرائرها.

ولكن قد لا تسمح الظروف بشكر كل من يستحق الشكر، ولا بالإشادة بكل من يستحق الإشادة، فأرجو من أولئك الكرام الشرفاء النبلاء أن يعتبروا هذه الطبعة مهداة لكل منهم، وأن يعتبروا شكري المجمل هذا شكراً خاصاً لكل منهم.

وإن كنت لا أستطيع أن أشكر هؤلاء الأبطال واحداً واحداً، فإني أود أن أتوقف عند سمة بارزة من سماتهم لأؤكد عليها وأبشر بها أمتنا؛ بأنها لا زالت بخير ولا زال الخير فيها، تلك الصفة هي المبادرة لنصرة الإسلام، ونصرة المسلمين والتصدي للكافرين ومعاداتهم ومجاهدتهم باليد واللسان، وقد عاينت هذه الصفة النبيلة لدى الكثيرين ممن عاشرتهم في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ أمتنا، وأدركت كيف تمكنت في فطرهم عقيدة الولاء والبراء سليقة بلا تكلف ولا تصنع، وكنت أتعجب في نفس الوقت من أن كثيراً من هؤلاء -إن لم يكن أكثرهم- لم يكن حظهم من العلم الشرعي كثيراً، بل منهم -إن لم يكن أكثرهم- ممن يمكن أن يوصفوا بالعوام في العلم الشرعي، وكنت أتعجب من عمق الإيمان في قلوبهم، وتجذر الحمية للإسلام في نفوسهم، وتمييزهم الواضح بين أولياء الله وأعدائه، وكنت أتعجب أكثر إذا قارنتهم بكثير من الحاصلين على الدرجات والشهادات، والمتصدرين للدروس والدعاية والإعلام، والمتقلدين للمناصب والدرجات، وهم كما قال الأستاذ محمد ياسر فك الله أسره: بلغوا درجة الأستاذية في العلم، ولكنهم في الإيمان لم يرتفعوا عن درجة المنافقين!

فحري بأولئك الذين لم يرفعهم العلم مع كثرة تحصيلهم، أن يطرحوا شهاداتهم وتحصيلهم في البحر، ويعودوا لأول الطريق ليصححوا مسيرتهم.

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل   وعدت إلى تصحيح أول منزل

وأما عمن ساعدني في إخراج هذا الكتاب خاصة، فأود أن أتوجه بالشكر لمؤسسة السحاب لمجهودها في إخراجه، وكذلك أوجه الشكر لمنبر التوحيد والجهاد لإخراجه الطبعة الأولى منه، كما أخص بشكري الجزيل وتقديري وامتناني أخي آدم يحيى غدن المعروف بعزام الأمريكي على مجهوده الكبير في تصحيح الكتاب، وتتبع نصه حرفاً حرفاً، وآرائه القيمة التي أرسلها لي، وقد استفدت من تصحيحاته وملاحظاته،

وأحسب أني قد أدرجت معظمها في الكتاب، فجزاه الله عني خير الجزاء. كما أتوجه بالشكر لكثير من الجنود المجهولين الذين ساعدوا في إخراج هذا الكتاب، فأسأل الله أن يتولى جزاءهم عني.

كما أرجو من كل من وجد في هذا الكتاب نفعاً وفائدة أن ينشره ويوزعه، ومن وجد فيه غير ذلك فلينصح وليصوب، ومن وجد فيه خليطاً من هذا وذاك فلينشر الخير ولينصح فيما سواه، والله يجزيه عني -في كل حال- خير الجزاء.

وبعد فهاهو الجزء الأول من الطبعة الثانية، أسأل الله أن يجد فيه القارئ فائدة ونفعاً، وما كان فيه من خير فمن توفيق الله سبحانه، وما كان فيه من غير ذلك فمن نفسي ومن الشيطان.

إن سيل الزمان بالناس ماضٍ	جرية النهر مزبدًا بالهشيم
وسطور الأقوام تمحى وتنسى	بهزيم الرياح أو بالنسيم
ويخط الأطفال فوق رمالٍ	ثم تمحو الأمواج كل رقيم
غير أن الكريم يثبت في الدهر	رسوخ الأطواد غير مليم
وبذور الخيرات تنمو وتجني	ثم تنمو على طريق قويم
فكن الحر لا تزلزل منه	عصفة الريح أو هوي الرجوم
وافعل الخير جاهدًا لا تبالي	وتوكل على العزيز الرحيم[1]

وقد أجزت كل أحد أن ينشر هذا الكتاب أو يترجمه أو يختصره أو يقتبس منه ما لم يخل بمقصده. والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتبه احتساباً لأجر الله ورضوانه؛ أيمن الظواهري

شعبان ١٤٣١هجري- يوليو ٢٠١٠ ميلادي.

---

(١) الأبيات للعلامة عبد الوهاب عزام رحمه الله- قصيدة حديث النجوم-كتاب النفحات. والشطر الثاني من البيت الأخير يشير إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ {٢١٤} وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {٢١٥} فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ {٢١٦} وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.

الجزء الأول
التفاتة
للماضي

الباب الأول

صنم يتهاوى وطاقة تتحرر

الفصل الأول:

البدايـة

تُعَيِّرُنا أَنّا قَليلٌ عَديدُنا　　فَقُلتُ لَها إِنَّ الكِرامَ قَليلُ

وَما قَلَّ مَن كانَت بَقاياهُ مِثلَنا　　شَبابٌ تَسامى لِلعُلى وَكُهولُ

وَما ضَرَّنا أَنّا قَليلٌ وَجارُنا　　عَزيزٌ وَجارُ الأَكثَرينَ ذَليلُ[1]

أرى خللَ الرمادِ وميضَ جمرٍ　　ويوشكُ أن يكونَ له اضطرامُ

فإنَّ النَّارَ بالعودين تُذكى　　وإنَّ الحربَ أولُها كلامُ[2]

١- بدأت الحركة الجهادية في مصر مسيرتها الحالية ضد الحكومة بعد منتصف الستينيات حينما قام الحكم الناصري بحملته الشهيرة في سنة ١٩٦٥ ضد الإخوان المسلمين، وأودع السجون سبعة عشر ألفاً، وتم إعدام سيد قطب واثنين من رفاقه رحمهم الله، وظنت السلطات أنها بذلك قد قضت على الحركة الإسلامية في مصر بلا رجعة. ولكن شاء الله أن تكون هذه الأحداث هي شرارة البداية للحركة الجهادية في مصر ضد الحكومة.

والحركة الإسلامية في مصر وإن كانت قد مارست الجهاد ضد أعداء الإسلام من قبل، ولكن خطها العام لم يكن موجهاً ضد النظام الحاكم، بل كان موجهاً أساساً ضد العدو الخارجي، وبقي فكر الحركة

---

[1] الشعر للسموأل بن عادياء. الموسوعة الشعرية- السموأل، المستطرف- الباب الثامن والعشرون في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت ج: ١ ص: ٢٩٢.

[2] الشعر لعبد الله بن إسماعيل البجلي كتب به نصر بن سيار لمروان بن محمد عند خروج أبي مسلم بخراسان. البيان والتبيين ج: ١ ص: ٩٧، المثل السائر- الفصل العاشر: في الطريق إلى تعلم الكتابة- المقالة الثانية: في الصناعة المعنوية- النوع التاسع عشر: في الكناية والتعريض ج: ٢ ص: ١٨٥، البداية والنهاية- ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائة- أول ظهور أبي مسلم الخراساني ج: ١٠ ص: ٣٢، وفيات الأعيان- حرف العين- ترجمة رقم: ٣٧٢- أبو مسلم الخراساني ج: ٣ ص: ١٥٠.

وإعلامها يحاول قدر الإمكان أن يتقرب من رأس النظام الحاكم (الملك)، وأن يخاطبه بصفته السلطة الشرعية في البلاد[١].

وقد أدى هذا الفصل المتعسف بين الأعداء الخارجيين وعملائهم الداخليين إلى عديد من الكوارث والانتكاسات، لأن أبناء الحركة واجهوا بصدورهم عدواً، وتركوا ظهورهم عارية لحليفه، ليُطعنوا من خلفهم بأوامر من يواجهونه بصدورهم.

وقد تعمد عبد الناصر ومن خلفه أنصار الشيوعية قتل الأستاذ الشهيد -كما نحسبه- سيد قطب رحمه الله، لأنه أكد على مدى أهمية قضية التوحيد في الإسلام، وأن المعركة بين الإسلام وأعدائه هي في الأصل معركة عقائدية حول قضية التوحيد، أو حول لمن يكون الحكم والسلطان؟ لمنهج الله ولشرعه أو للمناهج الأرضية والمبادئ المادية أو لمدعي الوساطة بين الخالق وخلقه[٢].

وكان لهذا التأكيد أثره الواضح في معرفة الحركة الإسلامية لأعدائها وتحديدها لهم، وإدراكها أن العدو الداخلي لا يقل خطورة عن العدو الخارجي، بل إنه الأداة التي يستخدمها العدو الخارجي والستار الذي يحتمي وراءه في شن حربه على الإسلام.

وكانت المجموعة الملتفة حول سيد قطب قد قررت أن توجه ضرباتها ضد الحكومة القائمة باعتبارها نظاماً معادياً للإسلام خارجاً عن منهج الله رافضاً للتحاكم إلى شرعه.

وكان تخطيط هذه المجموعة بسيطاً فلم يكن يهدف لتغيير النظام ولا لإحداث فراغ به، ولكنه كان يهدف فقط لتوجيه ضربات وقائية أو دفاعية أو انتقامية إذا خطط النظام لحملة تنكيل جديدة ضد المسلمين.

ولكن المعنى في هذا التخطيط كان أكبر من قوته المادية، فقد كان يعني بوضوح أن الحركة الإسلامية قد بدأت خوض حربها ضد النظام باعتباره عدواً للإسلام، بعد أن كانت أدبياتها ومبادئها من قبل -والتي لا يزال بعضهم يرددها حتى اليوم- تؤكد على أن عدو الإسلام هو العدو الخارجي فقط.

ورغم أن مجموعة سيد قطب -رحمه الله- تم البطش بها والتنكيل بأفرادها على أيدي الحكم الناصري، إلا أن ذلك كان أعجز من أن يحد من تأثير هذه المجموعة المتعاظم في أوساط الشباب المسلم.

---

[١] لمزيد من التفصيل راجع: الحصاد المر- الإخوان المسلمين في ستين عاماً (الطبعة الثانية)- الباب الثاني: مواقف الإخوان مع الحكومات في مصر خلال ستين عاماً- الفصل الثاني: الإخوان والحكام- المطلب الأول: الإخوان والملك.

[٢] لمزيد من التفصيل حول هذه القضية راجع: الجزء الأول: التفاتة للماضي/ الباب الرابع: العودة لأفغانستان/ الفصل الرابع: الغزوات المباركات/ المطلب الثالث: المعاني السياسية والفكرية التي أبرزتها الغزوات/ الفرع الخامس: كيف يخطط الصليبيون لحرب المجاهدين فكرياً / المبحث الرابع: تحطيم صنم الهوى.

فلقد كانت وما زالت دعوة سيد قطب -إلى اخلاص التوحيد لله والتسليم الكامل لحاكمية الله ولسيادة المنهج الرباني- شرارة البدء في إشعال الثورة الإسلامية ضد أعداء الإسلام في الداخل والخارج، والتي ما زالت فصولها الدامية تتجدد يوماً بعد يوم.

تلك الثورة التي تزداد كل يوم ثباتاً في العقيدة ووضوحاً في المنهج وادراكاً لطبيعة الصراع وخبرة بمشاكل الطريق، طريق الأنبياء والمرسلين وأتباعهم إلى ان يرث الله سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها.

ذلك الطريق الذي كان للأستاذ سيد قطب -رحمه الله- دور كبير في توجيه الشباب المسلم اليه في النصف الثاني من القرن العشرين في مصر خاصة والمنطقة العربية والإسلامية عامة.

وبإعدام سيد قطب اكتسبت كلماته بعداً لم تكتسبه كثير من الكلمات، فلقد أصبحت هذه الكلمات -التي سُطرت بدماء صاحبها- في نظر الشباب المسلم معالم طريق مجيد طويل، واتضح للشباب المسلم مدى فزع الحكم الناصري وحلفائه الشيوعيين من دعوة سيد قطب -رحمه الله- إلى التوحيد.

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله:

"إنه ليست كل كلمة تبلغ إلى قلوب الآخرين فتحركها، وتجمعها، وتدفعها، إنها الكلمات التي تقطر دماء، لأنها تقتات قلب إنسان حي. كل كلمة عاشت قد اقتاتت قلب انسان، أما الكلمات التي ولدت في الأفواه، وقذفت بها الألسنة، ولم تتصل بذلك النبع الإلهي الحي، فقد ولدت ميتة، ولم تدفع بالبشرية شبراً واحداً إلى الإمام، إن أحداً لن يتبناها لأنها ولدت ميتة، والناس لا يتبنون الأموات" [1].

وأصبح سيد قطب -رحمه الله- نموذجاً للصدق في القول، وقدوة للثبات على الحق، فقد نطق بالحق في وجه الطاغية، ودفع حياته ثمناً لذلك، وزاد من قيمة كلماته موقفه العظيم عندما رفض التقدم بطلب للعفو من جمال عبد الناصر، وقال كلمته:

"إن إصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة ليرفض أن يكتب حرفاً واحداً يقر به حكم طاغية" [2].

وظن الحكم الناصري أن الحركة الإسلامية قد تلقت ضربة قاضية بقتل سيد قطب ورفيقيه -رحمهم الله- واعتقال الآلاف من أبناء الحركة الإسلامية، ولكن الهدوء الظاهري على السطح كان يخفي تحته تفاعلاً فواراً مع أفكار سيد قطب ودعوته، وبداية تشكل نواة الحركة الجهادية المعاصرة في مصر.

وهكذا تكونت النواة التي انتمى اليها كاتب هذه السطور.

---

[1] عملاق الفكر الإسلامي ص: ١٧.

[2] عملاق الفكر الإسلامي ص: ٦.

لقد صدمت حملة البطش الناصرية عام ١٩٦٥ المجتمع المصري كما لم تصدمه من قبل، فقد كانت أشد حملات البطش الناصرية التي وجهت للحركة الإسلامية، وأحدثت هذه الصدمة في المجتمع المصري تأثيرين متفاعلين:

التأثير الأول: هو الرعب من القصص التي كانت تتسرب من المعتقلات ومن أخبار المداهمات، وما يرتكب فيها من فظائع وجرائم، مما عمق الشعور بالسلبية والابتعاد عن التعرض للسلطة والانسحاب للاهتمام بتحصيل أسباب العيش لدى عامة المصريين.

والتأثير الثاني: الغضب المكتوم المتنامي والرغبة في الانتقام من هؤلاء الذين اعتدوا على الإسلام والمسلمين، واستباحوا كل محرم في سبيل شهوة السلطة، ذلك الشعور الذي جعل عامة المصريين -وهم في معظمهم متدينون- يتعاطفون مع الإخوان المسلمين، وخاصة عندما علموا بما يرتكبه النظام من تعد على النساء وحرمات البيوت.

وضاعف من هذا الغضب عند الشباب المسلم كتابات سيد قطب -رحمه الله- عن المقابلة بين الإسلام والجاهلية.

٢- ثم جاءت هزيمة عام ١٩٦٧ المخزية، ورأي الناس جميعاً مدى فساد النظام المجرم وعجزه، وكيف تبعثر جيشه في ست ساعات لفلول هائمة هاربة، فكان لا بد أن يسقط النظام في أعين المصريين الذين لم يجدوا إلا السخرية سلاحاً يواجهون به النظام المتجبر، ولا أحسب أن المصريين قد ألفوا فكاهات (نكات) أكثر مما ألفوها عن عبد الناصر عموماً وعن نكسته خاصة.

أما بالنسبة للحركة الجهادية في مصر فقد أضافت هزيمة عام ١٩٦٧ عاملاً خطيراً، أثّر في مسارها المتنامي، فقد سقط رمز البطش والجبروت جمال عبد الناصر، الذي حاول أتباعه أن يصوروه للشعب على أنه الزعيم الخالد الذي لا يقهر.

وتحول الزعيم الباطش بخصومه المهدد المتوعد في خطبه إلى إنسان يلهث وراء حل سلمي، يحفظ له شيئاً من ماء وجهه.

وأدركت الحركة الجهادية أن الصنم قد نخر فيه السوس حتى أوهنه، ثم مادت به الأرض من تحته بزلزال النكسة، فخر على أنفه منتكساً وسط ذهول كهنته وهلع عبّاده، فاشتد عزم الحركة الجهادية، وأدركت أن خصمها اللدود كان صنماً، صنعته آلة الدعاية الضخمة وحملة البطش والاستقواء على العزّل والأبرياء.

أمتي كم صنم مجدته   لم يكن يحمل طهر الصنم[1]

---

[1] الشعر لعمر أبو ريشة.

٣- ثم تلقى الحكم الناصري الضربة القاضية بموت جمال عبد الناصر بعد ثلاث سنوات من النكسة، عاشها وهو يعاني من آثار الهزيمة، بعد أن تحطمت أسطورة زعيم القومية العربية الذي سيلقي باسرائيل إلى البحر.

ولم يكن موت جمال عبد الناصر موتاً لشخص، وإنما كان أيضاً موتاً لمبادئه، التي أثبتت فشلها على أرض الواقع، وموتاً لأسطورته الشعبية التي تهشمت على رمال سيناء.

ولم تكن جنازة عبد الناصر الحاشدة إلا بقية من حالة الغيبوبة التي سيطرت على الجماهير المصرية بفعل إعلامه القوي، ونوعاً من وداع المصريين لفرعونهم الميت، الذين ما لبثوا أن استبدلوا به حاكماً جديداً، وجههم وجهة أخرى، وبدأ يبيع لهم وهماً جديداً.

ولم تمض سنوات حتى أصبح اسم جمال عبد الناصر لا يثير لدى عامة المصريين إلا خليطاً من مشاعر اللامبالاة والاستخفاف.

٤- وكان تولي أنور السادات للحكم بداية لتحول سياسي جديد في مصر، فقد انتهى العصر الروسي وبدأ العصر الأمريكي.

وككل تحول فإنه يبدأ وئيداً ضعيفاً، ثم لا يلبث أن يتقوى شيئاً فشيئاً، وتتضح معالمه أكثر فأكثر مع مرور الوقت.

وبدأ أنور السادات بإزاحة بقايا النظام القديم، وكانت أقوى أسلحته في مقاومة تلك البقايا هي إتاحة بعض من الحرية للشعب المكبوت.

وما أن ارتفع بعض الضغط عن الحركة الإسلامية حتى خرج المارد من القمقم، واتضح مدى النفوذ الشعبي الكاسح للإسلاميين. واكتسح الشباب المسلم مقاعد الغالبية الساحقة من مقاعد اتحادات طلاب الجامعات والمدارس الثانوية في سنوات معدودات. وبدأت الحركة الإسلامية زحفها نحو النقابات.

وبدأت دورة جديدة من النمو للحركة الإسلامية، ولكنها هذه المرة لم تكن تكراراً لما سبق، ولكنها كانت بناءً عليه واستفادةً من خبرته ودروسه وأحداثه.

فقد بدأت الحركة الإسلامية خوض هذه الحلقة الجديدة من حلقات نموها، وقد انتشر بين شبابها وعي عميق بأن العدو الداخلي لا يقل خطورة عن العدو الخارجي، وكان هذا الوعي يتنامى بقوة مستنداً إلى أدلة شرعية واضحة وخبرة عملية تاريخية مريرة.

وعبثاً حاولت -وما زالت تحاول- بعض الرموز القديمة أن تردد المفاهيم التي بليت، من أن القتال لا يكون إلا مع العدو الخارجي فقط، وأن الحركة الإسلامية لا صدام بينها وبين حكوماتها.

ولكن الوعي الجديد كان أرسخ في أسسه الشرعية، وأوضح في خبرته العملية التاريخية من كل هذه الأوهام.

٥- تنظيم الكلية الفنية العسكرية:

بدأ تكون هذا التنظيم بوصول صالح سرية إلى مصر، حيث بدأ في الاتصال برموز الإخوان من أمثال السيدة زينب الغزالي والأستاذ حسن الهضيبي رحمهما الله، ونشط في تكوين مجموعات من الشباب وحثهم على وجوب التصدي للنظام الحاكم.

ولقد كان صالح سرية محدثاً جذاباً ومثقفاً على درجة عالية من الاطلاع والمعرفة، وكان حاصلاً على درجة الدكتوراه في التربية من جامعة عين شمس، كما كان متضلعاً في عدد من العلوم الشرعية، وقد رأيته مرة واحدة أثناء إحدى المعسكرات الإسلامية في كلية الطب، حين دعاه أحد المشاركين في المعسكر إلى القاء كلمة في الشباب. وبمجرد استماعي لكلمة هذا الزائر أدركت أن لكلامه وقعاً آخر، وأنه يحمل معان أوسع في وجوب نصرة الإسلام. وقررت أن أسعى للقاء هذا الزائر، ولكن كل محاولاتي للقائه لم تفلح.

واتسعت المجموعة التي كونها صالح سرية، واستطاعت أن تجند عدداً من طلاب الكلية الفنية العسكرية وعلى رأسهم كارم الأناضولي.

وبدأ الشباب يضغطون عى صالح سرية من أجل البدء في المواجهة، فوافق تحت ضغطهم على القيام بمحاولة لقلب نظام الحكم، تتلخص في مهاجمة أفراد الجماعة لحرس بوابة الكلية الفنية العسكرية في صمت لادخال عدد كبير من الشباب إلى الكلية، ثم بعد ذلك الاستيلاء على الأسلحة والسيارات والمدرعات من الكلية الفنية العسكرية بمساعدة إخوانهم الطلبة داخل الكلية، مستغلين صلاحياتهم كقادة مناوبين أثناء الليل، ثم التوجه بما حصلوا عليه إلى مقر اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي لمهاجمة السادات وأركان حكمه أثناء اجتماعهم.

ولم تنجح محاولة الانقلاب لعدم مراعاتها للظروف الموضوعية للواقع ووجوب الاعداد الجيد له، فقد كانت تلك المحاولة تفتقر إلى التدريب في جانب الشباب المكلف بالهجوم على حرس بوابة الكلية، كما أن الخطة كانت تمر بعنق زجاجة في أكثر من مرحلة.

ولكن المعنى الذي أود التأكيد عليه هو أن الحركة الإسلامية -بعد ضربات عبد الناصر المتتالية- أثبتت أنها أكبر من أن تستأصل، وأقوى من أن تدفع إلى اليأس والعجز.

فها هي الحركة الإسلامية تفرز جيلاً جديداً بعد سنوات قلائل من محنة عام ١٩٦٥، تعود به إلى ميدان الجهاد مرة أخرى، شاهرة سلاحها في وجه النظام المعادي للإسلام والمتحالف مع أمريكا هذه المرة.

وأثبتت هذه العملية أن الشباب المجاهد لا يفرق بين العهد الناصري الروسي القديم والعهد الساداتي الأمريكي الجديد، وأنهما في العداء سواء.

ورغم أن هذه العملية قد أجهضت في بدايتها، إلا أنها كانت إرهاصاً بالتغير الجديد في المسار العام للحركة الإسلامية، فقد قررت الحركة الإسلامية أن تحمل السلاح في وجه الحكومة، لتثبت للحكومة -

بعد حملة البطش الناصرية- أن البطش لا يجدي معها، وأن ما ظنه أعوان عبد الناصر حملة اجتثاث للتيار الجهادي -في عام ١٩٦٥- لم يكن إلا شرارة الانطلاق.

وسيقت المجموعة إلى المحاكمة، وحكم على صالح سرية وكارم الأناضولي وطلال الأنصاري بالإعدام.

وبدأت الحكومة في مساومة الثلاثة على تقديم طلب للعفو إلى رئيس الجمهورية، أما طلال الأنصاري فقد قدم طلباً للعفو حصل بسببه على تخفيف للحكم إلى السجن المؤبد، أما صالح سرية وكارم الأناضولي فقد أبيا ذلك.

وفي يوم من الأيام تجمع المساجين السياسيون حول صالح سرية في فناء سجن الاستئناف في إحدى الفسحات القصيرة، التي كانت تسمح بها إدارة السجن له خلال حبسه الانفرادي المستمر، وألحوا عليه في تقديم طلب للعفو، فقال لهم في يقين المؤمن: وماذا يملك أنور السادات من أمره حتى يملك أن يطيل في عمري شيئاً؟ ثم قال لهم: انظروا إلى هذا السجن الكئيب، وهذا الطعام الرديء الذي يقدم فيه، وإلى هذه المراحيض المسدودة التي نفرغ فيها هذا الطعام، إن هذه هي الدنيا في حقيقتها، فلماذا نتمسك بها؟

وفي الزيارة الأخيرة قبل الإعدام جاءت زوجة صالح سرية ومعها أولادها التسعة لزيارته في السجن، فقال لها: إذا تقدمت بطلب للعفو فأنت طالق.

وفي يوم التنفيذ دخلت قوة من السجن والمباحث على كارم الأناضولي ليوثقوه، ويأخذوه إلى المشنقة، فطلب منهم أن يصلي ركعتي سنة الشهادة، فقال له عادل مجاهد ضابط مباحث أمن الدولة: صلهما عند الذي ستذهب إليه.

وكان عادل مجاهد من أكابر المجرمين الذين أذاقوا الشباب المسلم صنوف العذاب في مرحلة التحقيقات، وبلغ به الغرور والصلف أن دخل بعد انتهاء التحقيقات بمدة للقسم المحتجز فيه الشباب المسلم من تنظيم الفنية العسكرية وحده دون حراسة، فظفر به الأخوان المجاهدان التوأمان عادل فارس وصلاح فارس، فأوسعاه ضرباً وفقآ له عينه، ليترك بعدها العمل في مباحث أمن الدولة. أما عادل وصلاح فارس فقد هاجرا من مصر، ومضى عادل فارس إلى أفغانستان، حيث قتل شهيداً -كما نحسبه- في معركة نهرين في شمال أفغانستان.

٦- وبعد عدة سنوت حاول بعض من خرج من السجن من تنظيم الفنية العسكرية محاولة إحياء التنظيم مرتين، انتهت المحاولة الأولى بالقبض على المجموعة في سنة ١٩٧٧، وانتهت المحاولة الثانية بالقبض على الشباب في سنة ١٩٧٩ نتيجة وجود مرشد للمباحث بينهم.

٧- وكان محمد عبد السلام فرج -رحمه الله- من الذين لم يقبض عليهم من المجموعة الثانية، وبدأ محمد عبد السلام فرج في الحركة النشيطة في القاهرة والجيزة وشمال مصر.

وفي نفس الوقت كان التيار الجهادي السلفي يسيطر على اتحادات الطلاب في جامعات جنوب مصر، ويرفض محاولات الإخوان لاحتوائهم وإدخالهم في خط التهادن مع الحكومة[١].

وبدأ هؤلاء الشباب في جامعات جنوب مصر يتعرفون على الشيخ عمر عبد الرحمن، ويدعونه إلى محاضراتهم ومؤتمراتهم ومخيماتهم.

وأخذ نشاط هؤلاء الشباب ينتقل بعد السيطرة على الجامعة إلى العمل الجماهيري خارج الجامعة، وكان من أهم أنشطتهم المظاهرات والمؤتمرات الحاشدة اعتراضاً على الصلح مع اسرائيل وعلى استقبال السادات لشاه ايران في مصر.

والتقى محمد عبد السلام فرج وإخوانه بالشباب في جنوب مصر، وباتحاد هذين التيارين تكونت (الجماعة الإسلامية) بإمارة الشيخ عمر عبد الرحمن.

[١] لمزيد من التفصيل حول سعي الإخوان في تهدئة المعارضة الإسلامية لنظام أنور السادات، ومفاوضاتهم معه: راجع الحصاد المر (الطبعة الثانية)/ الباب الثاني: مواقف الإخوان مع الحكومات في مصر خلال ستين عاماً/ الفصل الأول: الإخوان ورفض الخروج على الحاكم مع الالتزام بالدستور والقانون ص: ٩٥ وما بعدها و الفصل الثاني: الإخوان والحكام/ المطلب الثالث: الإخوان وأنور السادات ص: ٢١٠ وما بعدها.

الفصل الثاني: يحيى هاشم- رائد على الطريق

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.

لم تكن عملية الفنية العسكرية هي الإرهاصة الوحيدة في ذلك الوقت، فعقب هذه العملية بأشهر معدودات قام يحيى هاشم ~ بمحاولة لبداية حرب عصابات من جبال المنيا. ورغم أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح، لأنها لم تراع الظروف الموضوعية اللازمة لنجاح هذه الحروب، إلا أنها كانت مؤشراً آخراً على أن التغير في فكر الحركة الإسلامية صار حقيقة ملموسة، وأن الشباب المسلم هذه المرة لم يعد كأسلافه في الأربعينيات.

ويحيى هاشم ~ رائد من رواد الجهاد في مصر، وحق له أن يكون كذلك. فقد أنعم الله عليه بنعمة عظيمة، وهي نفسه العزيزة وهمته العالية، التي حملته على أن يضحي بكل ما يملك غير مبال بحطام الدنيا، ولا ما يتكالب عليه الناس.

وكانت فيه خصلة أخرى حميدة وهي حماسته في سبيل ما يؤمن به، وكان أيضاً –رحمه الله– ذا نفس صافية تحسن الظن وتتعاطف مع إخوانه المسلمين.

وكان يحيى هاشم ~ وكيلاً للنيابة وهو منصب يتمناه كثير من الشباب، ولكن يحيى كان لا يعبأ بهذا المنصب، وكان دائماً على استعداد للتضحية به في سبيل الله، غير مبال بأرجاس الدنيا، التي يتقاتل عليها غيره.

تعرفت على يحيى هاشم ~ عقب انضمامه إلى مجموعتنا الناشئة في أعقاب نكسة عام ١٩٦٧، وكانت بداية انضمامه الينا حادثة فريدة.

ففي ذلك الوقت كانت البلد تموج بالمظاهرات -وخاصة في الجامعات وبين العمال- احتجاجاً على كارثة الحكم الناصري وتقهقر قواته أمام إسرائيل، فقد تبعثر أقوى جيش عربي، جيش زعيم الامة العربية الذي كان يعده -كما كان يكذب على شعبه- ليلقي بإسرائيل في البحر، وليحارب -كما كان يزعم- إسرائيل ومَنْ وراء اسرائيل، وتحول هذا الجيش الجرار إلى فلول تبحث عن مهرب في صحراء سيناء من مطاردة جيش الدفاع الإسرائيلي. وتحطم سلاح الطيران على الأرض قبل أن يتحرك.

وقررنا أن نحرك مظاهرة من مسجد الإمام الحسين >، ونخرج بها إلى شارع الأزهر ثم إلى وسط القاهرة، تضامناً مع مظاهرات الطلبة في الجامعة والعمال في منطقة حلوان الصناعية.

وقصدنا مسجد سيدنا الحسين > في صلاة الجمعة، ووزعنا أنفسنا في أنحاء المسجد، وبعد الصلاة وقف يحيى هاشم ~ يخطب في الناس موضحاً مدى النكبات التي حلت على الامة المسلمة، وجاوبناه بالتكبير، ولكن المباحث كانت مستعدة ومترقبة في هذه الأجواء المتوترة، فأحاط به المخبرون، وأخذوا يدفعونه إلى خارج المسجد، والناس مندهشون من هذه الجرأة، التي لم يعهدوها في ظل حكم عبد الناصر، ولكن يحيى لم يكف عن الصياح بأعلى صوته، وقد أحاط به المخبرون من كل جانب، يمسكون به ويدفعونه. ولما خرج إلى ميدان الإمام الحسين > استمر في الخطابة بصوت جهوري. فلجأ المخبرون إلى حيلة لإسكاته، فتقدم أحدهم، وأمسك بخناقه، وقال له: يا لص أنت سرقت محفظتي، وأخذ يصرخ بصوت أعلى من صوت يحيى، وتجمع عليه المخبرون، ودفعوا به إلى صيدلية قريبة، وأغلقوها عليه، وسرعان ما أتت سيارة حملته، وذهبوا به إلى مدير المباحث العامة -في ذلك الوقت- حسن طلعت.

وكان الحكم الناصري في ذلك الوقت مبهوتاً مترنحاً، وكانت أجهزة أمنه غير قادرة على التصرف، فقد كانت بين نارين، قيادة شلتها فضيحة الهزيمة، تقود حكماً نخر فيه السوس والعفن من ناحية، ومقاومة شعبية رافضة كسرت حاجز الخوف، وفاجأت هذه الأجهزة بظاهرة جديدة من المقاومة والرفض لم تعهدها من قبل.

وفي مبنى المباحث أوسعوا يحيى هاشم ~ ضرباً، ثم ساقوه إلى مكتب مدير مباحث أمن الدولة حسن طلعت.

وحكى لنا يحيى هاشم ~ عن المقابلة التي حدثت في مكتب حسن طلعت، ومدى الورطة التي وجد النظام نفسه فيها، فالغضبة الشعبية وصلت إلى سلك القضاء والنيابة، ووجد مدير مباحث أمن الدولة نفسه أمام وكيل نيابة يتمتع بالحصانة القضائية، والبلد تغلي كالبركان غلياناً، شل مدير مباحث أمن الدولة عن ممارسة أساليبه المعهودة وخاصة مع المسلمين.

وأخذ حسن طلعت يدافع عن نفسه أمام يحيى هاشم ~، ويردد أنه مسلم يدافع عن الإسلام، وهو الذي ترقى في خدمة الحكم على دماء المسلمين وأشلائهم، ولكن يحيى هاجمه كالأسد الحروب مسفهاً

مزاعمه، وكانت فوق رأس حسن طلعت على الحائط لوحة كبيرة مكتوب فيها اسم الجلالة، فصاح به يحيى: لماذا تضع هذه اللوحة فوق رأسك وانت لا تعرف الله؟

ولم يجد الحكم بداً من الانسحاب والتراجع في هذه الظروف العصيبة، فأفرج عن يحيى هاشم ~ صاغراً.

لقد كانت مظاهرة مسجد الإمام الحسين > فورة عاطفية متناسبة مع أعمارنا في تلك المرحلة.

وانطلق يحيى هاشم ~ لا يترك فرصة في الدعوة والتحريض على النظام ودعوة المسلمين إلى الجهاد، وتزامن نشاطه هذا مع موت عبد الناصر وخروج الأخوان على دفعات في بداية عهد السادات.

والتقى يحيى هاشم ~ بعدد من قيادات الإخوان، وبطبيعته الصافية وعاطفته الجياشة توجه إليهم بكل مشاعره، باعتبارهم القادة الشرعيين للحركة الإسلامية كما أقنعوه. وجاء إلينا يحمل تصورهم في العمل. كان تصورهم يقوم على أن تكون لهم القيادة من بُعد، ولكن لا يتحملون مسؤولية أية مشكلة تحدث لأية مجموعة. فقلت ليحيى: إن هذه هي عين الانتهازية، لهم حسنة القيادة وعلينا سيئتها. ولكن يحيى كان مندفعاً في حبه لهم وحسن ظنه بهم.

ولكن قدر الله الغالب كشف له عن الحقيقة في واقع عملي، فقد حدث أن أحد إخوانه حدثت له مشكلة أمنية، اضطرته إلى الاختباء من أجهزة الأمن، فذهب إلى الإخوان -وهم قادته- ليعينوه في حل المشكلة، ولكنه صدم بردهم، إذ أنهم قالوا له: عليك أن تتخلى عن هذا الأخ تماماً، ولا تقدم له أي عون. وكانت صدمة أدت إلى قطيعة بين يحيى هاشم والإخوان. واستمر يحيى هاشم ~ في إعانة أخيه ورعايته، حتى أوصله إلى مأمنه بفضل الله.

ثم جاءت قضية الفنية العسكرية في سنة ١٩٧٤، فتعاطف يحيى هاشم ~ معها تعاطفاً شديداً، وكان يتابع أخبارها بدقة.

وفي هذه الاثناء بدأت تختمر في ذهنه فكرة بدء الصدام المسلح مع الحكومة. وبدأ يدعو المقربين منه إلى الشروع في حرب العصابات، وفاتحني في هذه الفكرة فلم أوافقه عليها، وقلت له إن طبيعة البلد لا تصلح لهذا النوع من الحروب، وأعطيته كتاباً عن حرب العصابات. ولكن الفكرة كانت تختمر في رأسه وفي رأس عدد من إخوانه.

وأخذ يحيى هاشم ~ يتصل بعدد من الإخوة المتهمين في قضية الكلية الفنية العسكرية. وأخذ يدبر خطة لهروبهم يستغل فيها منصبه كوكيل للنيابة، وكان أساس الفكرة أن يستصدر أمراً مزوراً بترحيلهم من سجنهم، وفي أثناء الترحيل يتم الهروب. ولكن الخطة انكشفت، إذ أمسكت المباحث برسالة تهرب من قاعة المحكمة إلى قفص المتهمين.

وبعد وقوع الرسالة التي تحتوي على شرح للخطة، قرر يحيى هاشم الهروب، والشروع في مشروعه الخاص بحرب العصابات. ولجأ يحيى هاشم ~ ورفاقه إلى منطقة جبلية في محافظة المنيا على حافة

الصحراء، وتمركزوا فيها تحت غطاء أنهم وحدة عسكرية بعد أن اشتروا بضع قطع من السلاح. ولكن عمدة القرية المجاورة استراب في الأمر، فأبلغ الشرطة، التي هاجمت موقع الإخوة، وحدثت معركة قبضت فيها الشرطة على الإخوة بعد نفاد ذخيرتهم، وحاول يحيى الانقضاض على قائد القوة، فعاجله برصاصات أردته قتيلاً.

وكانت هذه بعضاً من سيرة هذا البطل، الذي كان -بحق- رائداً في الجهاد، مضحياً بكل ما يملك في سبيل إيمانه.

الباب الثاني

السادات مقتولاً ثم مداناً

الفصل الأول: في يوم زينته.. الفرعون مصروع

رويدك أم خالد علمينا ... إباء المجد ثم وخبرينا

وهزي في سبات الذل إنا ... كرهنا الذل كأس الخاضعينا

رويدك أم خالد لا تراعي ... فخالد لايزال يصول فينا

ويصرخ في سبات النائمينا ... لقد وجب الجهاد الحق دينا

رويدك أم خالد سوف تمضي ... مسيرة ألف خالد زاحفينا

ويقتحمون حصن الكفر جنداً ... ألا ما أقرب الفتح المبينا[1]

أتناول في هذا الفصل بإيجاز حادث قتل السادات وما اكتنفه من أحداث تحت العناوين التالية:

١- الأحداث التي سبقت قتل السادات:

أ- خذلان الجيش المصري وتهديد الأمن المصري في معاهدات فض الاشتباك.

ب- زيارة القدس ومعاهدتي السلام.

ج- اعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١م.

٢- انفجار قضية الجهاد في مصر.

٣- تمرد ذي الحجة ١٤٠١هـ الإسلامي.

---

[1] القصيدة لتوفيق علوان، وتوفيق علوان شاعر وجراح. اعتقل عقب اغتيال السادات بتهمة انتمائه لتنظيم جند الله بالأسكندرية.

٤- طاحونة التعذيب.

٥- مهزلة تحقيقات النيابة.

٦- المحكمة العسكرية.

****

١- الأحداث التي سبقت قتل السادات:

كان عصر السادات عصر حكم علماني كمن سبقه، ولكنه تميز بكونه مليئاً بالفساد والخيانات ومحاربة الإسلام والتمكين للأمريكان واليهود في منطقة قلب العالم الإسلامي[1]، وهي الأسباب التي أدت لقتله، وأنا هنا أوجز أهمها:

أ- خذلان الجيش المصري وتهديد الأمن المصري في معاهدات فض الاشتباك.

(١) المعاهدة الأولى في يناير عام ١٩٧٤:

ويقول عنها محمد عبد الغني الجمسي[2] مبيناً الطريقة التي تمت بها، ومبيناً لخطورة هذه الوقائع وآثارها المدمرة على مصالح الأمة في صراعها ضد إسرائيل، يقول الجمسي:

"بدأ الدور الحقيقي لعملي في أسوان، عندما دعيت لحضور اجتماع للمفاوضات بين الوفدين المصري والأمريكي.... وقبل هذا الاجتماع لم يخطرني الرئيس السادات بأي اتفاق مسبق تم بينه وبين كيسنجر -في المفاوضات التي تمت بينهما- عن أي موضوعات عسكرية بحثت بينهما سيتضمنها الاتفاق

....

جلسنا لإجراء محادثات جادة وسرية لمدة حوالي ساعتين، نوقشت فيها موضوعات سياسية وأخرى عسكرية، وأبلغ كيسنجر الحاضرين ببنود الاتفاق، الذي توصل إليه مع

---

[1] لن أتعرض في هذا الفصل الموجز لدور السادات في حرب أكتوبر ١٩٧٣، وهو الدور الذي أدى لخسائر عسكرية كبيرة أثناء الحرب، ولكني أشير لأمرين خطيرين: الأول: هو خداع السادات ووزير حربيته للسوريين، فقد كان السادات ووزير حربيته يعلمان أن السوريين لن يوافقوا على المشاركة في الحرب إلا إذا تضمنت الخطة عبور القناة والوصول لخط المضايق، وأعدت خطة تتضمن ذلك للعرض على السوريين فقط، وأخبر أحمد إسماعيل -وزير الحربية- سعد الدين الشاذلي -رئيس الأركان- بأن هذه الخطة لن تنفذ إلا إذا توفرت الظروف المناسبة، بينما كانت الخطة الحقيقية تتضمن العبور فقط والوصول لمسافة ١٠ إلى ١٥ كم غرب القناة. [حرب أكتوبر للشاذلي ص: ٢٤ و٢٥]. الأمر الثاني: وهو متماشٍ مع نفسية السادات الدنيئة، أنه كلف حافظ إسماعيل بالاتصال بهنري كسينجر يوم ٧ أكتوبر من وراء ظهر السوريين، وإبلاغه بأن الحكومة المصرية لا تنوي توسيع مجال الاشتباكات. الأمر الذي استغلته إسرائيل أسوأ استغلال لصد الهجوم السوري ثم الاستدارة لصد الهجوم المصري. [ولمزيد من التفاصيل حول هذا الاتصال وتداعياته الخطيرة راجع: مذكرات الجسمي ص: ٣٤٦ إلى ٣٥٠، أمن مصر القومي لحافظ إسماعيل ص ٣١٧ الى ٣١٩، مذكرات كسينجر في البيت الأبيض ترجمة خليل فرحات ج: ٤ ص: ٣١٦].

[2] وزير الحربية السابق، ورئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة عند توقيع تلك المعاهدة.

الرئيس السادات حول الموضوعات العسكرية، وهنا كانت المفاجأة لي وللحاضرين، عندما ذكر كيسنجر أن الرئيس السادات وافق على تخفيض حجم القوات على الضفة الشرقية لتصبح ٧٠٠٠ رجل و٣٠ دبابة وعدداً محدوداً من قطع المدفعية، في هذه اللحظة شعرت بمدى التخفيض الذي سيحدث في القوات، بعد أن كان لنا قوات جيشين يصل عدد رجالهما إلى أكثر من عشرة أمثال العدد الجديد، وكنا نقدر أن يكون لنا ٣٠٠ دبابة في شرق القناة، كما كان الوضع الطبيعي أن يكون لنا أعداد كبيرة من المدفعية لتدعيم القوات في سيناء، وأتذكر أني أبديت رفضي لتخفيض حجم القوات كما هو مقترح، وقلت للدكتور كيسنجر بحدة: "إنك تعطي لإسرائيل كل ما يضمن تأمين قواتها، وتحرمنا من كل ما يضمن تأمين قواتنا... إني لا أوافق على ذلك، ولا يمكن -كرئيس لأركان حرب القوات المسلحة- إيجاد المبرر له أمام القوات المسلحة".

قال كيسنجر: "إنه يضع استراتيجية للسلام مستقبلاً وهو موضوع هام، وفي سبيل ذلك تم الاتفاق على الأعداد المقترحة من القوات المصرية والأسلحة لتكون في شرق القناة".

قلت له: "إني لا أتحدث عن السلام، ولكني أتحدث عن تأمين قواتنا....وتركت غرفة الاجتماع بانفعال، بعد أن اغرورقت عيناي بالدموع... واتجهت إلى الحمام".

ويقول إسماعيل فهمي[1] أنه بعد أن غادرت الغرفة: "بدأ الجميع يتململون، وتأثرت مشاعر الوفد المصري، الذي كان يشعر بنفس شعور الفريق الجمسي، وكان يمكن أن يرى المرء بسهولة على وجوه الوفد الأمريكي أنهم أيضاً شعروا بالظلم الذي وقع على مصر.... غير أن كيسنجر كان لا يفكر إلا في نفسه، وقد شحب لونه، وظل يتمتم قائلاً "ما الخطأ الذي قلته؟".

عدت لغرفة الاجتماعات، لأكون صامتاً حتى نهاية الاجتماع.

....

وفي اليوم التالي استدعاني الرئيس إلى مكتبه في استراحة أسوان.

....

شرحت للسيد الرئيس وجهة النظر العسكرية قائلاً: إن الحجم المقترح لقواتنا شرق القناة لا يحقق أبداً الدفاع عن الأرض التي حررتها قواتنا بمواجهة حوالي مائة كيلو متر، وإن إسرائيل لن تنسى الهزيمة التي لحقت بها في حرب أكتوبر، ولذلك فإننا لا نستبعد مطلقاً

---

[1] وزير الخارجية في ذلك الوقت.

قيامها بالهجوم ضد قواتنا.

....

وفي نهاية حديثي اقترحت على السيد الرئيس استدعاء الفريق أول أحمد إسماعيل[1] إلى أسوان لمناقشته في الموضوع، والوقوف على رأيه.

ردّ الرئيس أنه لن يستدعي أحمد إسماعيل، وأن الاتفاق الذي تم مع كيسنجر يجب الالتزام به لصالح الاستراتيجية السياسية الجاري وضعها مع أمريكا، واستطرد قائلاً: "إنه يحملني مسئولية وضع الخطة المناسبة للدفاع شرق القناة بالقوات التي حددت"[2].

يستخلص مما سبق عرضه من أسلوب المفاضات ما يلي:

١- أول ما يستوقف المرء هو تلك الطريقة التي كان يعامل بها السادات وزراءه ومعاونيه، فقد كان يجتمع على انفراد بكيسنجر، ثم يترك كيسنجر بعد ذلك ليخبرهم بما اتفقا عليه.

٢- والأغرب من ذلك هو رضا هؤلاء الوزراء والمساعدين بكل هذه الإهانات المتكررة التي يوجهها لهم السادات.

٣- ثم بعد ذلك سكوتهم ورضوخهم لما يرونه تضييعاً لحقوق البلاد وتهديداً لأمنها، أي ما يرونه خيانة واضحة واستسلاماً لإسرائيل، ورغم كل ذلك يشاركون في تنفيذ هذه السياسات، ويوقعون على هذه الاتفاقيات، ويستمرون في مناصبهم، بل ويترقون فيها.

والجمسي هو أحد الأمثلة البارزة على هذا السلوك، فرغم شعوره بالظلم والقهر أثناء منصبه وبعد اعتزاله العمل العام وكتابته لمذكراته، إلا أن هذا الشعور لم يمنعه من الاستمرار في خدمة هذا النظام الذي انتقده مراراً، بل والاستمرار في الترقي، حتى وصل إلى منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الحربية ثم مستشار عسكري للسادات.

لقد بلغ الأمر بالجمسي -كما روى هو بنفسه- أنه خرج من المباحثات باكياً من شدة المهانة، مما يراه أمامه من استسلام لإسرائيل وخنوع للتكبر الأمريكي، الذي جاء كيسنجر ممثلاً له، ليعلم الوزراء المصريين ما يجب تنفيذه، وما اتفق مع السادات عليه. ورغم هذا الرفض فقد وقع الجمسي بصفته رئيساً للأركان على هذا الاتفاق، الذي ترك القاعة باكيا منه رافضاً له.

وهنا تثور أسئلة كثيرة: لماذا بلغ الأمر بنا كأمة إلى هذا الحد من الانصياع واجترار الهوان والرضا بالمذلة؟ لماذ تم تطهير الجيش المصري من كل الشرفاء المؤمنين المعتزين بربهم؟ حتى بقي كل من هو مستسلم أو مرغم لنفسه على الاستسلام من أجل الراتب ومزيد من الترقيات. هل يمكن أن يكون

---

[1] وزير الحربية في ذلك الوقت.

[2] مذكرات الجمسي ص: ٤٨٠ إلى ٤٨٣.

السبب إلا حملات البطش المستمرة، التي يقودها الحكام العلمانيون في مصر ضد كل مسلم مؤمن غيور على دينه وأمته وعرضه من الأربعينيات حتى اليوم؟

إن حملات البطش والتنكيل المستمرة لم تترك للشرفاء إلا خياراً واحداً؛ هو أن يحملوا سلاحهم ويقاتلوا، ويتحملوا تبعات مقاومتهم؛ الأسر أو القتل. أما البديل الذي لا يمكن أن يقبله أي شريف؛ فهو هذه الوقائع التي جرت، ولازالت تجري على أرض مصر. تباع فيها البلاد، ويطأطئ عباد الراتب رؤوسهم للصفقة تلو الصفقة، بل ويشاركون في إتمامها.

وعن نفس هذه الاتفاقية يقول محمود رياض الأمين العام السابق للجامعة العربية ووزير خارجية مصر من قبل :

"وكان هذا الاتفاق الخطوة الأولى في سلسلة الاتفاقات التي سيوقعها السادات باسم السلام، وكان كل اتفاق يحمل مزيداً من التنازلات"[1].

(٢) المعاهدة الثانية لفض الاشتباك في سبتمبر ١٩٧٥:

ويقول عنها محمد فوزي وزير الحربية الأسبق:

"وكان فض الاشتباك الأول في يناير ١٩٧٤ هو أكبر إنجاز قام به كيسنجر لصالح إسرائيل من الناحية العسكرية، عندما أنقذ الجيب الإسرائيلي، ومكن إسرائيل من التمسك بالمضايق، أما فض الاشتباك الثاني في سبتمبر ١٩٧٥ فكان أكبر إنجاز يحققه لصالح إسرائيل سياسياً وشمل:

من الجانب الإسرائيلي: تعهد بإجراء انسحاب محدود إلى خط شرق المضايق.

ومن الجانب المصري:

تعهد في المادة الأولى: بأن النزاع بين مصر وإسرائيل في الشرق الأوسط لا يتم حله بالقوة المسلحة وإنما بالوسائل السلمية.

وفي المادة الثانية: يتعهد الطرفان بعدم استخدام القوة أو التهديد بها أو الحصار العسكري ضد الطرف الآخر.

وفي المادة السابعة: تتعهد مصر بحرية مرور الشحنات غير العسكرية المتجهة إلى إسرائيل والصادرة منها بالمرور في قناة السويس[2].

---

[1] مذكرات محمود رياض ص: ١٠٩.

[2] ما كان يعتبره محمد فوزي عاراً وفضيحة على أنور السادات أصبح اليوم يعتبر عبقرية سياسية وحكمة، فقد مرت سفن العدوان الصليبي على العراق بكل عتادها من قناة السويس.

وهكذا أنهى السادات حالة الحرب مع إسرائيل استجابة لشروطها منذ بداية البحث حول الحل الجزئي، وبقيت القوات الإسرائيلية تحتل الأراضي المصرية، مع حرمان مصر من حقها في القيام بأي عمل عسكري لطردها.

وكان هذا الاتفاق الجزئي مطروحاً على مصر عام ١٩٧١، ورفض لعدم تعهد إسرائيل بالانسحاب إلى الحدود الدولية في مرحلة تالية، وبعد حرب أكتوبر -وكل ما تكبدته مصر فيها- وافق السادات على الحل الجزئي الذي كان قد رفض في ١٩٧١"[١].

ويقول محمود رياض[٢] عن نفس الاتفاقية:

"والغرابة في هذا الاتفاق السياسي أنه لم يكن هناك ما يرغم السادات على الاستسلام للشروط الإسرائيلية المجحفة، والتي تهدر حق مصر في السيادة على أراضيها، ولم يحقق السادات من هذا الاتفاق إلا مزيداً من الخسارة السياسية والعسكرية لمصر"[٣].

ويقول محمد حسنين هيكل عن هذه الاتفاقية:

"وبمقتضى التعهدات السرية التي ألحقت بالاتفاقية -وعددها ١٢ تعهداً- فإن السادات تعهد في الواقع بصلح منفرد مع إسرائيل، كما تعهد بالتعاون مع الولايات المتحدة لإخراج الاتحاد السوفييتي من أفريقيا وليس العالم العربي وحده"[٤].

ب- زيارة القدس ومعاهدتي السلام

لقد كانت زيارة السادات للقدس عام ١٩٧٧ واتفاقيتي كامب ديفيد عام ١٩٧٨ ثم اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل في ١٧ سبتمبر ١٩٧٩ من أخطر الأحداث في تاريخ الشرق الأوسط، وأنا هنا أورد تعليقاً لمحمد عبد الغني الجمسي وزير الحربية في مصر من ديسمبر ١٩٧٤ إلى أكتوبر ١٩٧٨، وهو رجل اشتهر بأنه عسكري محترف لا شأن له بالسياسة، بل هو من رجال النظام، ونال من النظام أعلى درجات التكريم، ومع ذلك فإن هذا الرجل لم يحتمل أن يسكت، فعبر عن المأساة بكلمات هادئة، يحاول ألا يصطدم فيها بالنظام، ولكنه في نفس الوقت لا يريد أن يكتم الحقيقة البارزة، التي يصطدم بها أي عسكري مصري، فقال في مذكراته:

"لقد كانت اتفاقية كامب ديفيد هي نهاية مرحلة من مراحل الصراع في الشرق الأوسط، فعلى المستوى الدولي حسم الصراع بين القوتين الأعظم لصالح الولايات المتحدة الأمريكية، هذا الصراع الذي انفجر في عام ١٩٥٦م وبلغ الذروة في عام ١٩٦٧م وحسم

---

[١] محمد فوزي: حرب أكتوبر (١٩٧٣) دراسة ودروس ص: ٢١٨ و٢١٩.

[٢] أمين عام سابق للجامعة العربية.

[٣] مذكرات محمود رياض ص: ٢٢٤.

[٤] المفاوضات السرية- الكتاب الثاني: عواصف الحرب وعواصف السلام ص:٢٨٣،٢٨٢.

في عام ١٩٧٨، وعلى المستوى العربي أدت هذه الاتفاقية إلى ***خروج مصر من ساحة الصراع العربي الإسرائيلي****، الأمر الذي يضعف موقف الدول العربية سياسياً وعسكرياً في هذا الصراع،* ***ويعطي لإسرائيل الموقف الاستراتيجي الأقوى في المنطقة، ويتيح لها حرية العمل لابتلاع باقي فلسطين في المرحلة الحالية، والتوسع على حساب الأرض العربية المجاورة في المراحل التالية****، وعلى المستوى الوطني فإن هذه الاتفاقية وما تلاها من معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل قد* ***أعادت لنا سيناء بقيود شديدة، تضع إسرائيل في الموقف العسكري الاستراتيجي الأقوى****، ووضعت نهاية لمرحلة من مراحل الصراع بين مصر وإسرائيل، هذه المرحلة التي بدأت بحرب أكتوبر ١٩٧٣م ثم زيارة القدس ١٩٧٧ وانتهت باتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٨، وقد كان واضحاً بعد إعلان الاتفاقية ثم المعاهدة بعد ذلك بنصوصها أن هناك مرحلة جديدة في تاريخ هذه المنطقة قد بدأت، مرحلة لها انعكاساتها العميقة في صراع القوتين الأعظم في الشرق الأوسط، ولها انعكاساتها في الوطن العربي ولها نتائجها ومتطلباتها، ولعل أهمها* ***تغيير نظام الأمن في المنطقة، ليكون نظام الأمن في الشرق الأوسط تلعب فيه الولايات المتحدة الأمريكية الدور الرئيسي****"*[(1)].

أي أن الجمسي يريد أن يقول أن الاتفاقية حققت لإسرائيل التفوق، وفرضت على مصر العجز عن مقاومتها، وباتفاق كامب ديفيد ثم بمعاهدة السلام التي تلته بدء عصر سيطرة الولايات المتحدة على بلادنا.

ج- اعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١م.

وهي الحملة الاعتقالات الواسعة التي أمر السادات بها، ووصل عدد المعتقلين فيها إلى ١٥٠٠ معتقل على حد زعم الحكومة. وكانت الأغلبية العظمى من هؤلاء المعتقلين من التيار الإسلامي.

وقد حاول السادات بهذه الاعتقالات أساساً أن يتخلص من كل معارضي سياسته تجاه إسرائيل، وكان منهم فضيلة الشيخ أحمد المحلاوي، الذي وصفه السادات بأنه (مرمي في السجن زي الكلب).

وكانت هذه الاعتقالات -وما تم فيها من تعديات وخاصة على الشيخ أحمد المحلاوي- من أهم الأسباب المباشرة في قتل أنور السادات.

وقد أودع المعتقلين سجناً جديداً هو سجن استقبال طرة، الذي خصص للمعتقلين السياسيين ومن التيار الإسلامي بالذات، مما يدل على أن هذه الاعتقالات كان السادات يخطط لها منذ مدة.

٢- انفجار قضية الجهاد في مصر:

---

(1) مذكرات الجمسي ص: ٥٦٤.

وبقتل أنور السادات انفجرت قضية الجهاد في مصر والعالم العربي، بل أصبحت ممارسة ميدانية يومية، وأضحت مواجهة النظام -المحارب للشريعة والمتحالف مع أمريكا وإسرائيل- معركة متصلة الفصول لم تتوقف حتى اليوم، بل على العكس تزيد حدتها يوماً بعد يوم، ويتسع ميدانها فترة بعد فترة، ويزيد أنصارها مرحلة بعد مرحلة، ويشتد تهديدها لأعدائها في واشنطن وتل أبيب طوراً بعد طور. وأصبحت القضايا التي فجرها قتل أنور السادات -وما صاحبه من أحداث- قضايا أساسية في فكر الشباب المسلم. وهكذا أصبحت قضايا حاكمية الشريعة، وردة النظام عن الإسلام، وعمالة الحكم لأمريكا وإسرائيل، مسلمات يقاتل عنها الشباب المسلم في الميدان، بعد أن فجرها محمد عبد السلام فرج وإخوانه رحمهم الله، وبعد أن أجاب خالد الإسلامبولي -رحمه الله- حينما سئل: لماذا قتلت أنور السادات؟ بقوله: لأنه لم يحكم بالشريعة، ولأنه عقد صلحا مع إسرائيل، ولأنه أهان علماء الإسلام.

٣- تمرد ذي الحجة ١٤٠١هـ الإسلامي:

دارت أحداث تمرد ذي الحجة ١٤٠١هـ الإسلامي (أكتوبر ١٩٨١م) في مصر على محورين:

المحور الأول: الهجوم على السادات وأركان حكمه خلال العرض العسكري يوم ٦ أكتوبر، في محاولة لقتل أكبر عدد من رؤوس الحكم، وما صاحب هذا الهجوم من محاولة للاستيلاء على الإذاعة. وقد نجح التحرك على هذا المحور في قتل أنور السادات، أما أركان الحكم فقد نجوا، كما لم تنجح محاولة الإستيلاء على الإذاعة.

المحور الثاني: القيام بانتفاضة مسلحة في مدينة أسيوط للاستيلاء عليها. تمت الانتفاضة بعد اغتيال أنور السادات بيومين، أي بعد أن نجح الجيش في السيطرة على البلد وتأمين النظام. وقد نجحت هذه المحاولة في الاستيلاء على بعض مراكز الشرطة، ولكن الحكومة استدعت القوات الخاصة التي بدأت في دك مواقع مقاومة الشباب المجاهد، فاضطروا إلى ترك هذه المراكز لما نفذت ذخائرهم.

لقد كان محكوماً على تمرد أسيوط المسلح بالفشل، فقد كانت انتفاضة عاطفية ذات نصيب متواضع من التخطيط، فقد جاءت متأخرة عن قتل السادات بيومين، إضافة لاستنادها لخطة غير واقعية، تهدف إلى السيطرة على مدينة أسيوط ثم التقدم شمالا نحو القاهرة لفتحها، متناسية أية أرقام عن قوة العدو وعتاده.

وهكذا انتهت انتفاضة ١٤٠١هـ (١٩٨١م) بمكسب أساسي وهو قتل أنور السادات، أما ما صاحبها من محاولات فلم يكتب لها التوفيق لعدم توفر الإعداد الكافي اللازم لها. ولكن الأمر يجب ألا ينظر إليه بنظرة محدودة تتعلق بمسارح هذه الأحداث الضيقة، بل يجب أن ينظر إلى تلك الانتفاضة بنظرة أوسع تتعدى مكانها وتمتد إلى آثارها التي تبعتها والحقائق التي أثبتتها. فمن الواضح أن هذه الانتفاضة أثبتت عدة حقائق:

أ- أظهرت هذه الانتفاضة مدى شجاعة المجاهدين الذين هاجموا قوات تتفوق عليهم أضعافاً مضاعفة في العدد والعتاد والخبرة العسكرية.

ب- وأظهرت الأحداث الطبيعة الهجومية للحركة الجهادية، التي قررت أن تهاجم النظام في محاولة للقضاء على رؤوسه في وسط جموعه وحشوده.

ج- كما أظهرت الأحداث أن تغيير النظام -البعيد عن الإسلام- أصبح الفكرة المحورية التي تشغل بال الشباب المسلم متخطين بذلك مناهج الإصلاح الجزئي وأساليب الترقيع ووسائل تجميل وجه النظام القبيح ببعض الإجراءات الإصلاحية.

د- أثبتت الأحداث أن مرحلة تفرد النظام الحاكم بضرب الحركة الإسلامية قد انتهت، وأن على أعداء الإسلام في البيت الابيض وتل أبيب ووكلائهم في القاهرة أن يتوقعوا ردود أفعال في غاية العنف على كل حملة قمع يقومون بها.

هـ- أثبتت الأحداث أن فكرة العمل من خلال القوانين الحكومية والخضوع للدستور العلماني المفروض بالاستفتاءات المزورة والاعتراف بشرعية الحكومة أصبحت أفكارا بالية في نظر المجاهدين، الذين قرروا حمل السلاح ليدافعوا عن العقيدة المغيبة والشريعة الممنوعة وحرماتهم المستباحة ووطنهم المحتل بالاستعمار الدولي الجديد، ومقدساتهم التي باعتها اتفاقيات الاستسلام مع إسرائيل.

و- كما أظهرت الأحداث الفشل الذريع لأجهزة الأمن، التي لم تكن على علم بأن البلد يموج بالتيار الجهادي، الذي استطاع اختراق القوات المسلحة، بل واستطاع إخراج كميات من الأسلحة منها، واستطاع الوصول إلى قوات العرض العسكري رغم إجراءات الأمن المشددة لتأمينه.

وأجهزة الأمن في بلادنا مجموعات من المرتزقة الذين باعوا دينهم في مقابل راتبهم، الذي يعبدونه من دون الله. ويتميزون بانحطاط في السلوك وفي القدرات العقلية، مع غرور وكبر بسبب ما أولاهم النظام من سلطة وحماية. وهم فاشلون على العموم، وما أشبههم بحفاري القبور الذين يصلون دائماً بعد وقوع المصيبة، أو كما شبه به المجرم محمد عبد الفتاح عمر طائفته، وهو يهددني بالتعذيب في بداية التحقيق: (إحنا كالطبيب الشرعي الذي يشرح الجثة ليصل إلى الحقيقة).

ووسيلتهم الأساسية في الوصول لأي معلومات هي التعذيب البشع والتعدي على الحرمات، والنظام ومن خلفه أمريكا يكفلان لهم الحماية التامة من أجل التصدي للمقاومة الإسلامية في منطقة العالم الإسلامي.

بل إن أمريكا ترسل لهم المعتقلين لكي يعذبوا بإشرافها في أرض غير أمريكية.

وبعد قتل أنور السادات كان المتوقع من النظام أن يتخلص من كل الطاقم القديم الفاشل، ولكن معظمهم ظل يقدم نفس الخدمات لنظام لا يقل عنهم غباءً ودناءةً.

ومن المضحكات المبكيات في تحقيقات المباحث في قضية الجهاد الكبرى، تلك التقارير المتناقضة التي كانت تمطر بها المباحث النيابة، ثم تحولها النيابة للمحكمة بكل ما فيها من تناقض.

ولم تقبل بها المحكمة حيث قالت في حيثيات حكمها:

"أن ما ورد بتقرير المباحث العامة من معلومات فقد سبق للمحكمة أن أوضحت رأيها في هذه التقارير بصفة عامة وعدم اطمئنانها إليها" [1].

ومن مضحكاتهم المبكيات أن أحد التقارير المقدمة بشأني من مباحث أمن الدولة لنيابة أمن الدولة: أني أعطيت أحد الأشخاص حقيبة سمسونايت للأوراق بها قاذف آر بي جي!!

ومررت النيابة التقرير بلا تعليق للمحكمة، حيث كان محل سخرية الدفاع.

ز- لقد كان قتل أنور السادات على -يد خالد الإسلامبولي ورفاقه الكرام- ضربة قوية للمخطط الأمريكي الإسرائيلي في المنطقة. الأمر الذي أثبت أن العداء لإسرائيل وأمريكا راسخ في قلوب المسلمين.

وهذا يثبت مدى الافتراء والكذب في ما تردده العلمانية العربية من أن كثيراً من الحركات الجهادية -وخاصة التي شاركت في الجهاد الأفغاني- هي صنيعة لأمريكا. وإن المرء ليعجب من هذه الجرأة في الافتراء من الكتاب العلمانيين، فإنهم لما أسقط في أيديهم حينما شاهدوا التأييد الشعبي الكاسح في العالم الإسلامي للحركات الإسلامية المجاهدة -بعد إنزالها ضربات موجعة بأمريكا- اختلقوا هذه الفرية، متناسين أن العميل السادات المقرب من أمريكا قد قتل على يد المجاهدين في عام ١٩٨١ أي في بداية الجهاد الأفغاني، وأن هؤلاء المجاهدين هم الذين شاركوا في ما بعد في الجهاد الأفغاني.

و- أما أهم ثمرات مقتل السادات في ظني والله أعلم؛ أنها أثبتت أن أهل مصر قد ثاروا على فرعونهم فقتلوه. وهذه سابقة خطيرة في التاريخ المصري والعربي، وهذه الجرأة -في التصدي لأعداء الإسلام الفاسدين المفسدين- لم تكن لتحدث لولا انتشار الصحوة الإسلامية، وانتشار مفاهيم العقيدة الصحيحة؛ مفاهيم الولاء والبراء والحاكمية، ولولا انتشار روح الجهاد بين الأمة.

إنه حدث تاريخي بكل المقاييس، وقد أثبتت الأحداث ذلك، فقد تصاعدت وقائع الجهاد بمقتل أنور السادات تصاعداً انفجارياً، وأذنت ببداية عهد جديد ومرحلة جديدة يحمل عبأها جيل جديد. وقد كنت أقول لزملائي في السجن إن قتل السادات حدث تاريخي ضخم بكل معنى الكلمة، وأننا جميعنا لو ذهبنا شهداء، أو قضينا بقية أعمارنا في السجن في مقابل هذا الحدث لكنا من الفائزين.

ولكن للأسف فإن عدداً ممن رافقوني في السجن لم يكونوا مستعدين نفسياً لأن يتقبلوا مثل هذه الآراء والاجتهادات، لقد كانت قدراتهم النفسية والمعنوية دون ذلك بكثير، وكنت أرى من معايشتي اللصيقة بهم بذور شيء ما ينخر كالسوس في داخل النفوس، وهو ما صاغه عصام القمري ~ في عبارة

---

[1] كلمة حق ص: ١٢٣.

(الإخوان الجدد). وللأسف فقد أثبتت الأحداث المتأخرة صدق الملاحظات المبكرة، ولذلك حديث آخر.

لقد كان هؤلاء أشبه بالطفل الصغير الذي أعطوه سيفاً ثقيلاً صقيلاً باتراً، وهو أضعف من مجرد حمله، فكيف يقاتل به؟ لقد حاول أن يتحامل ويتظاهر لفترة، ثم استسلم في النهاية وباع سيفه لعدوه بثمن بخس دراهم معدودات، وكان فيه من الزاهدين. وقرر في مقابل فتات ضئيل من فتات الدنيا، أن يتنازل ويعتذر، ويتخلى عن سبب قوته وإرعابه وإرهابه لأعدائه، تنازل في مقابل دنيا قليلة زهيدة، يتمتع الملايين بأرفه منها دون أن يتنازلوا، ولكن لأنه في داخله طفل صغير، تصرف كالطفل، الذي يفضل قطعاً من الحلوى على رشاش ثقيل.

وهذه الصور تتكرر في كل التجارب والملاحم الإنسانية الكبرى في التاريخ البشري، والمتأمل بإمعان في القرآن الكريم يجد وصف هذه الأمراض والنقائص في عدد من المواضع منها سورتي الأحزاب والتوبة. يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولًا﴾.

ثم ذكر الحق بعيد ذلك صفات أهل الصدق، فقال عز من قائل:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وفي نفس السياق يشعر المرء بمدى العجز والانكسار عندما يُسأل عمر التلمساني في حواره مع (المصور) عن قتل أنور السادات، فيجيب:

"المعتقد الديني بعيد كل البعد عن هذه الجرائم"[1].

٤- طاحونة التعذيب:

وكان رد فعل الحكومة على هذه الاحداث وحشياً في شدته وفي أسلوبه.

ودارت طاحونة التعذيب والتنكيل بأقصى سرعتها مرة أخرى، لتكتب فصلاً دامياً جديداً في تاريخ الحركة الإسلامية المعاصر في مصر.

وكانت طاحونة التعذيب وحشية في دورانها، فقد كسرت العظام، وسلخت الجلود، وصعقت الأعصاب، وأزهقت الأنفس.

وكانت دنيئة في أساليبها لأنها اتخذت من سب الدين والرب، واحتجاز النساء، والاعتداء الجنسي، وتسمية الرجال بأسماء النساء، والتجويع ورداءة الطعام، وقطع المياه، والإغلاق ومنع الزيارات، وسائل معتادة لإذلال المعتقلين.

ولقد وجدت على جدران أحد الزنازين في سجن القلعة بيتاً من الشعر محفوراً، يقول:

ما أطيب العيش لو أن الفتى حجر   تنبو الحوادث عنه وهو ملموم[2]

ووجدت أيضاً عبارة محفورة تقول:

"إذا سقطت المرأة أصبحت عاهرة، وإذا سقط الرجل أصبح شرطياً".

لقد تصورت هذه الحكومة كسابقاتها أنها بالتعذيب ستقضي على المقاومة الإسلامية المتصاعدة، ولكنها وإن انتزعت بالتعذيب أقوالاً، فقد خسرت خسارة لا حد لها، فمعظم من مر بهذه التجربة البشعة دخل السجن يطلب ثأراً واحداً، وخرج ليطلب ثأرين: ثأر عام ضد المجرمين المعادين للإسلام خدمة لأمريكا وإسرائيل، وثأر خاص ضد من عذبوه، وعذبوا إخوانه، واعتدوا على حرماته.

لقد ترك هذا التعذيب في الذاكرة أخاديد عميقة لا تنطمر، وفي الوجدان جروحاً دامية لا تندمل، وفي النفس جمراً متقداً لا ينطفئ إلا بالقصاص بإذن الله وقوته.

إنه ثأر حي متجدد ينتهز الفرصة للاستيفاء وإن طال الزمن، ويورث من جيل لجيل.

فَإِن كانَ باغٍ نالَ مِنكَ ظُلامَةً   فَإِنَّ شِفاءَ البَغي سَيفُكَ فَاقتُلِ[3]

وكانت طاحونة التعذيب هذه المرة مختلفة عن سابقاتها من ناحيتين: فقد دارت ولا زالت تدور حتى اليوم بلا توقف، كما أنها ابتلعت مئات الألوف من الضحايا منذ مقتل أنور السادات وحتى الآن.

وتتكتم الحكومة تماماً عن الرقم الحقيقي للمعتقلين في مصر، وسأتعرض لهذا الموضوع بإسهاب أكثر -إن شاء الله- عند الحديث عن النظام المصري.

---

[1] المصور، عدد ٢٩٨٩- ٢٧ ربيع الأول ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢/١/٢٢ م.

[2] البيت لتميم بن أبي بن مقبل. الموسوعة الشعرية- تميم بن أبي مقبل.

[3] البيت لعباس بن مرداس رضي الله عنه. الموسوعة الشعرية- عباس بن مرداس.

٥- مهزلة تحقيقات النيابة:

وأحالت مباحث أمن الدولة والمخابرات الحربية المتهمين إلى النيابتين المدنية والعسكرية. وكانت تحقيقات النيابة فصلاً آخر من فصول المهزلة، فقد كانت النيابة تسرب محاضر التحقيق إلى ضباط المباحث ليراجعوا فيها المتهمين، وليحاسبوهم على ما قالوه فيها، ثم يعاد تلقينهم ما يجب عليهم أن يقولوه.

وأذكر أني سألت رئيس النيابة محمود مسعود -الذي تولى معظم التحقيق معي- مرة:

أليس من حقي أن أستدعي محامياً؟

فأجابني بسخرية:

ومن هذا المحامي الذي تريده أن يعتقل معك في السجن؟

ولكن نيابة أمن الدولة كانت في هذه المرة مهتزة في ثقتها بالنظام، فقد رأت بعينها حدة الصراع بين النظام وخصومه، ولذلك حرصت على ألا يكون تواطؤها مع المباحث بالقدر الذي يورطها في أدلة مادية ضدها، إذا ما انقلبت الأحوال وسقط النظام.

فقد حدث أني ذكرت لرئيس النيابة محمود مسعود أنواع التعذيب الذي أتعرض له وصوراً من التعذيب الذي أشاهده يقع على غيري في سجن القلعة، وأن أقوالي في هذه التحقيقات هي نتيجة هذا التعذيب والإكراه، وأني أراجع في التحقيقات في سجن القلعة، ووصفت له إصاباتي بالتفصيل والآلات المستخدمة في إحداثها وتفاصيل حولها، وإني أطالب بعرضي على الطبيب الشرعي لإثبات هذه الإصابات، فأنهى التحقيق معي سريعاً بعد أن سجل أقوالي، ثم أمر بإحالتي للطبيب الشرعي.

ولما عدت لسجن القلعة استدعاني العميد محمد عبد الفتاح عمر والمقدم محسن حفظي، وهدداني بفتح قضية تجسس ضدي لحساب إيران، وأن معلوماتهما أني قد زرت إيران وتدربت فيها على التجسس، فأنكرت ذلك تماماً، فردا بأنهما رغم علمهما بأني جاسوس فإنهما لا يريدان إثارة هذا الأمر حرصاً على سمعتي، حتى لا يكون عاراً على أولادي بعد إعدامي!! ولذا فإن علي -حتى لا يفتحا قضية تجسس ضدي- أن أعود مرة أخرى للنيابة، لتغيير كل ما قلته في المحضر السابق، وقال لي محمد عبد الفتاح عمر: لقد كنت أرتب لك لتحصل على عفو من رئيس الجمهورية، ولكنك ألقيت تراباً في الطبخة، التي كنت أطبخها لك! ولا تتصور أن إصبعنا تحت ضرسك! فأنت وإن أفرج عنك ستظل على رأس قائمة الاعتقال في كل مرة. فتعجبت لمدى الرعب، الذي في قلوب هؤلاء المجرمين من أقوالي ومن شخصي الضعيف، الذي نزعت منه كل أسباب القوة إلا الاعتماد على الله والطمع في رحمته، فشجعني هذا على الاستمرار في فضح تعذيبهم للمسلمين، وأدركت أن النظام رغم جبروته غير واثق من مستقبله، وترتعد فرائصه من المعتقلين الأسرى، بعد الأحداث الهائلة التي عاينها.

وبعد قرابة يوم استدعاني المقدم محسن حفظي، وقال لي: نحن الدولة وأنت ضد الدولة، وحذار من أن تحارب الدولة، وأنا لا أريدك أن تلف حبل المشنقة حول عنقك، ولكن يجب أن تغير أقوالك في المحضر السابق، وسيذهب معك (محمد بك تاج) الآن لنيابة مباحث أمن الدولة لتغيير أقوالك، وفعلاً أخذني الرائد محمد تاج لمكتب المستشار رجاء العربي[١]، حيث أكد علي بوجوب تغيير الأقوال، ومن مكتب رجاء العربي أخذوني عبر باب لمكتب به رئيس النيابة محمود مسعود، الذي ابتسم بخبث، وقال:

هل ستعترف هذه المرة؟

فقلت له:

إن ضابط المباحث في الغرفة التي جئت منها، وقد صاحبني ليتأكد من تغيير أقوالي، وقد واجهوني في سجن القلعة بتفاصيل المحضر السابق، وأنا متهم، ومن حقوقي المحافظة على سرية التحقيق، وإن صوراً من محاضر تحقيق النيابة التي تجريها معي يواجهني بها ضباط المباحث في سجن القلعة، ويهددونني بتكرير التعذيب وبتهم جديدة إذا لم أغير أقوالي.

فانتفض مرعوباً، وقال أن صلته بالمحاضر تنتهي بانتهاء التحقيق، وأنه يسلمها لسكرتير النيابة، ولا يدري ما يحدث فيها بعد ذلك.

وخرج مسرعاً من الغرفة وعاد وفي صحبته المستشاران ماهر الجندي[٢] ورجاء العربي، أما ماهر الجندي فتصنع البراءة، وقال:

نحن ترد إلينا محاضر استدلالات من الشرطة، ونحقق فيها.

أما رجاء العربي فقد كلمني بطريقة أشبه بطريقة الغوغاء:

جرى إيه يا أيمن... عذبوني وضربوني.

فقلت له:

إني متهم ومن حقوقي المحافظة على سرية التحقيق.

فقال:

هم يعرفون كل حاجة حتى أكبر رأس في الدولة، وكما عرفوا ماذا فعلت، يعرفون أيضاً ماذا نفعل. المهم حتعترف ولا لأ؟

فقلت: لأ.

فأمر محمود مسعود بإنهاء التحقيق وإعادتي لسجن القلعة.

---

[١] عين بعد ذلك محامياً عاماً لنيابة أمن الدولة ثم نائباً عاماً مكافأة على خدماته، ولكن رفضت الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف قبوله قاضياً نظراً لسمعته السيئة.

[٢] عين بعد ذلك محافظاً لمحافظة الغربية، ثم اتهم بعد ذلك في قضية فساد مالي.

بل بلغ الأمر بالمدعي العام العسكري -الذي يتولى التحقيق في اغتيال أنور السادات- أنه تجاهل مسؤولياته، ولم يذهب إلى منصة العرض العسكري إلا بعد يوم كامل من وقوع الحادث، رغم أن الحادثة تقع بالكامل في دائرة اختصاصه، إذ أن المقتول هو القائد الأعلى للقوات المسلحة، والمهاجمون من أفراد القوات المسلحة، والحادث وقع على أرض عسكرية، ولكنه ترقب النتائج في أعقاب الزلزال الذي أصاب النظام، فأصابه بحالة من الشلل.

لقد كان المدعي العام العسكري ينتظر ليرى بأمر من سيحقق مع من؟ ومن سيتهم من؟ ومن سيدعي على من؟

ومن الطرائف أن العقيد محسن السرساوي مأمور سجن استقبال طره في ذلك الوقت عقب اغتيال السادات -وهو نموذج لراكبي الموجات ومنتهزي الفرص- دخل إلى عنبر السجن ذي الطوابق الأربعة والممتلئ بالمعتقلين السياسيين وصاح فيهم: (إخوة النضال، إخوة الكفاح لقد قتل الرئيس أنور السادات).

٦- المحكمة العسكرية:

وأسرعت النيابة العسكرية بتقديم المتهمين في واقعة اغتيال أنور السادات إلى القضاء العسكري. وتشكلت المحكمة العسكرية برئاسة اللواء محمد سمير فاضل. ودارت مهزلة جديدة من مهازل إقحام العلمانية العسكرية للجيش المصري في البطش بخصومها المسلمين، بعد أن أدار الجيش المصري ظهره لإسرائيل، ووجه سلاحه إلى شعبه.

وكانت المحاكمة العسكرية نموذجاً متكرراً من المواجهات بين الحركة الإسلامية وطليعتها المجاهدة بكل صفائها ونقائها وعطائها، وبين العلمانية العسكرية بكل زيفها ونفاقها وفسادها. لقد ادعت العلمانية العسكرية الديمقراطية وسيادة القانون، ولكن المحاكمة بإجماع كل من شاهدها كانت تمثيلية سخيفة فاسدة الإخراج لحكم أعد مسبقاً.

يا أيها القاضي المغفل هل تعي ... أني عرفت نهايتي فكفاني
أنا قد قتلت وسوف أقتل إن أعش ... الحاكمين بشرعة الشيطان[1]

لقد ادعت العلمانية العسكرية دائما أنها تحترم الإسلام، ولكن هذا الاحترام كان له عند العلمانية معنى واحد، ألا وهو توظيف طبقة من العلماء للتسبيح بحمدها لتبرير ما تفعله، وبالفعل فقد استندت المحكمة لفتوى الشيخ جاد الحق -مفتي الديار المصرية حينذاك، ثم شيخ الازهر لاحقاً- فذبحت بفتواه شباب المجاهدين.

---

[1] الشعر لأنور عكاشة على لسان خالد الإسلامبولي رحمه الله.

قال الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله:

وهل أفسد الدين إلا الملوك   وأحبار سوء ورهبانها

الفصل الثاني:
قضية الجهاد الكبرى

*"أيها المستشار رئيس محكمة أمن الدولة العليا: لقد أقيمت الحجة، وظهر الحق، وبان الصبح لذي عينين، فعليك أن تحكم بشريعة الله، وأن تطبق أحكام الله، فإنك إن لم تفعل **فأنت الكافر الظالم الفاسق**.*

. . . .

أيها القاضي المستشار: الحساب من ورائك سوط بسوط وغضب بغضب، والله بالمرصاد "[1].

ذكرنا فيما سبق ما قامت به النيابة العسكرية، أما النيابة المدنية (نيابة أمن الدولة) فبعد انتهاء تحقيقاتها حولت للقضاء ثلاثمائة واثنين متهماً باعتبارهم قيادات في تنظيم الجهاد، وهي القضية المعروفة (بقضية الجهاد الكبرى)، وهي أكبر قضية في تاريخ القضاء المصري، كما حولت للقضاء أيضاً مائة وثمانية وسبعين متهماً للقضاء بتهمة الانتماء لتنظيم الجهاد، وبدأت إجراءات المحاكمتين بعد قرابة سنتين من قتل أنور السادات.

أما المحاكمة في (قضية الجهاد الكبرى) فكانت فريدة في نوعها مليئة بالأحداث والمفاجآت، لكن كان أهم حدثين في هذه المحاكمة هما؛ إلقاء الدكتور عمر عبد الرحمن لبياناته الشهيرة على مدى ثلاثة أيام، بالاضافة للشهادة التاريخية التي أدلى بها الشيخ صلاح أبو إسماعيل ~.

---

[1] الشيخ الدكتور عمر عبد الرحمن -فك الله أسره- في بياناته أمام المحكمة في القضية ٤٦٢/ ٨١ أمن دولة عليا المعروفة بقضية الجهاد الكبرى. [كلمة حق ص: ١٠٤].

أما أهم مفاجئتين فيها فكانتا؛ اكتشاف القاضي أن مباحث أمن الدولة تتجسس عليه وعلى مداولاته مع القاضيين المشاركين له، وأثبت ذلك في أوراق القضية، أما المفاجأة الأكبر فكانت الحكم في القضية، وكانت حيثيات الحكم أقوى وأهم من الحكم.

وقد سجل الدكتور عمر عبد الرحمن بياناته ـ في ما بعد ـ في كتابه (كلمة حق).

وفي هذه البيانات، عرض الدكتور عمر قضية الحكم بالشريعة والجهاد من أجلها بأدلتها التفصيلية من الكتاب والسنة، وإجماع علماء الأمة، ورد على مرافعة النيابة وتقرير الأزهر الذي استعانت به. وقد مثلت هذه الشهادة خطراً على موقف الدكتور عمر عبد الرحمن القانوني، اذ أنها تقدم الأدلة على مناصرة الدكتور عمر للجهاد من أجل إقامة الشريعة، وقد حذره القاضي من أن كلامه قد يمثل خطراً عليه، وأن كلام المحامين عنه هو كلام الوكيل عن الأصيل، وهو كلام يمكنه أن يتراجع عنه، أما كلامه فهو مأخوذ به.

لكن الدكتور عمر عبد الرحمن، أصرّ على أن يدافع عن قضية الإسلام في المحاكمة، ولو أدى الأمر لإدانته.

بل لقد وضع القاضي في موضع المتهم وحمّله مسؤولية الظلم الذي قد يوقعه على المسلمين، وحذره من عذاب الله وقصاصه، ودعاه إلى الحكم بالشريعة، وحذره من مغبة ترك الحكم بها.

وكان اجتهاد الدكتور عمر عبد الرحمن، أن هذه فرصة لتبليغ قضية الحكم بما أنزل الله يجب أن لا تفوت، كما أن هذه البيانات هي أفضل دفاع يمكن أن يقدمه لإخوانه، خاصة المتوقع صدور الحكم عليهم بالإعدام، وذلك بإظهار عدالة قضيتهم ونبل مقصدهم.

وفعلاً، لم يصدر القاضي أي حكم بالإعدام في هذه القضية، وأعمل الظروف المخففة استناداً لنبل الغاية وشرف المقصد لدى المتهمين، كما بين في حيثيات حكمه.

ولا أستطيع أن أترك الحديث عن بيانات عمر عبد الرحمن في المحكمة، من دون أن أقتطف بعضاً من عباراتها القوية المدوية بالحق الراعدة بالصدق في موقف حرج، تطالب النيابة فيه باعدامه، وتحاسبه على كل كلمة، ولكنه عالم المجاهدين ومجاهد العلماء، والله حسيبه.

يقول الشيخ عمر:

"قالت النيابة: "إن أولئك الذين رفعوا شعار الحكم لله، وأرادوا به أن يكون الحكم لهم، قد وصفهم المسلمون ووصفهم التاريخ الإسلامي بأنهم (خوارج) على المجتمع".

نعم ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ كلمة حق وصدق، نادى بها من قبل الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم نبي الله يوسف بن اسحاق بن يعقوب بن ابراهيم، نادى بها من داخل

سجنه في مصر، ولم تمنعه قيود السجن من أن يعلن الحق الذي يدعو إليه، كما أعلنها سائر الرسل.

....

فهي إذن دعوة المسلمين عبر التاريخ كله.

....

إن الخوارج قالوها لإمام مصطبر بالحق يعطيه، لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أقامها وعمل بها.. قالوها لرابع الخلفاء الراشدين.

....

فإذا قيلت في العصر الأول فقائلوها خوارج، وإذا قيلت في هذا العصر فقائلوها مجاهدون" [(١)].

ويقول الشيخ عمر عبد الرحمن في بياناته:

"دافعت النيابة عن معاهدة الصلح بين مصر وإسرائيل، ولن أرد على النيابة، فقد كتبت في ردي على لجنة شيخ الأزهر ما هو كاف في ذلك، إنما أرد على استدلال العالم الجهبذ في النيابة الذي استدل على صحة المعاهدة بقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾*، وبقوله سبحانه:* ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾*، نقول: هل استقام اليهود لنا؟ وهل جنحوا للسلم؟ أم أننا الذين جنحنا واستقمنا؟ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين؟"* [(٢)].

ويقول أيضاً:

"وختاماً: فجريمتي أنني نقدت الدولة، وأظهرت ما في المجتمع من مفاسد ومعاداة لدين الله، ووقفت في كل مكان أصدع بكلمة الحق، التي هي من صميم ديني واعتقادي.

....

إنني مطالب أمام ديني وأمام ضميري أن أدفع الظلم والجبروت، وأرد الشبهة والضلالات، وأكشف الزيغ والانحراف، وأفضح الظالمين على أعين الناس، وإن كلّفني ذلك حياتي وما أملك.

أنا لا يرهبني السجن ولا الإعدام، ولا أفرح بالعفو أو البراءة، ولا أحزن حين يحكم عليّ بالقتل، فهي شهادة في سبيل الله، وعندئذ أقول: فزت وربّ الكعبة، وعندئذ أقول أيضاً:

---

(١) كلمة حق ص: ٦٤ و٦٥.

(٢) كلمة حق ص: ١٠٠.

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً   على أيّ جنب كان في الله مصرعي

إنني مسلم أحيا لديني، وأموت في سبيله، ولا يمكن بحال أن أسكت والإسلام يحارب في كل مكان" (1).

ويقول أيضاً فرج الله كربه:

"أيها المستشار رئيس محكمة أمن الدولة العليا: لقد أقيمت الحجة، وظهر الحق، وبان الصبح لذي عينين، فعليك أن تحكم بشريعة الله، وأن تطبق أحكام الله، فإنك إن لم تفعل فأنت الكافر الظالم الفاسق، لأنه يصدق فيك قول الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. وليس الحكم بمنته في هذه القاعة ولا في هذه الدنيا، بل الحكم هناك ينتهي أمره في الآخرة يحكم فيها الحكم العدل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وإننا لا نخشى سجناً ولا إعداماً، ولن نرهب بأي تعذيب ولا إيذاء. ونقول ما قاله السحرة لفرعون: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

واعلم أيها المستشار أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث، فكيف إذا أتاها من يليها؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟

واذكر أيها المستشار الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر، واعلم أيها المستشار أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحبابك، ويسلمونك إلى مقرك فريداً وحيداً، فتزود له ما يصحبك ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾" (2).

ويقول أيضاً فك الله أسره:

"أيها القاضي المستشار رئيس المحكمة: الموت طالب لا يمل الطلب، ولا يبطئ الخطى، ولا يخلف الميعاد، ولا يعجزه المقيم، ولا ينفلت منه الهارب.

---

(1) كلمة حق ص: ١٠١ و١٠٢.

(2) كلمة حق ص: ١٠٢ و ١٠٣.

....

وهو رحى دوارة بين الخلق، وكأس يدار بها عليهم.

....

الموت الذي يفرق الأحبة، ويمضي في طريقه، لا يتوقف، ولا يتلفت، ولا يستجيب لصرخة مقهور ملهوف ولا لحسرة مفارق ولا لرغبة راغب ولا لخوف خائف. الموت الذي لا حيلة للبشر فيه، وهم مع هذا لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجريه.

فكيف بك أيها المستشار إذا ورد عليك مذلل الملوك وقاهر الجبابرة وقاصم الطغاة"[1].

ويقول أيضاً فك الله أسره:

"أيها المستشار، رئيس المحكمة، ان الله يمنعك من الحكومة، وإن الحكومة لا تمنعك من الله، وإن أمر الله فوق كل أمر، وإنه لا طاعة في معصية الله، وإني احذرك بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

أيها القاضي المستشار: الحساب من ورائك سوط بسوط وغضب بغضب، والله بالمرصاد، والسلام عليكم ورحمة الله.

الاثنين

٢٥ جمادى الأولى ١٤٠٤هـ

٢٧ فبراير ١٩٨٤م"[2].

أما شهادة الشيخ صلاح أبو إسماعيل ~ التي استغرقت يومين كاملين فكانت شهادة خطيرة، لأنها تضمنت إجابات واضحة حول عدد من المسائل الخطيرة المتعلقة بالحكم في مصر وموقفه من الإسلام.

فقد أكد الشيخ صلاح أبو إسماعيل ~ في هذه الشهادة أن أنور السادات بإعلانه أن (لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة) قد نفض يده من الإسلام.

وسرد الشيخ صلاح أبو إسماعيل ~ في هذه الشهادة محاولاته لتقنين الأحكام الشرعية عبر مجلس الشعب، وانتهائه إلى اليأس من تطبيق الشريعة عبر طريق الانتخابات والمجالس النيابية نتيجة لمناورات الحكومة.

تلك الانتخابات التي كانت ومازالت درساً مؤلماً للذين سلكوا طريقها، بدعوى أنهم سيحققون مصلحة الإسلام والحكم بالشريعة عبر مخالفة الشريعة، بزعمهم أن الظروف الحاضرة تتطلب مرونة سياسية في التعامل مع النصوص، فخسروا الدين ولم يكسبوا الدنيا.

---

[1] كلمة حق ص: ١٠٣ و١٠٤.

[2] كلمة حق ص: ١٠٤.

أما أحكام المحكمة فجاءت مفاجئة للحكومة وأجهزة الأمن وللنيابة، فلم تصدر المحكمة أي أحكام بالإعدام، وقضت ببراءة ١٩٤ متهماً من مجموع ٣٠٢ متهم.

وكانت حيثيات الحكم أهم وأخطر من الحكم:

- فقد اعترفت المحكمة بأن مصر لا تحكم بالشريعة الإسلامية.
- واعترفت بأن الحكم بالشريعة واجب وهو أمل كل مسلم.
- كما اعترفت بمناقضة الدستور والقوانين المصرية لأحكام الإسلام.
- واعترفت بانتشار الخروج على الإسلام في المجتمع المصري تحت رعاية القانون.
- واعترفت بوقوع التعذيب الجسدي على المتهمين، مما أدى لإحداث عاهات مستديمة في بعضهم، وطالبت بإحالة المسؤولين عن هذا التعذيب للتحقيق.

وجاء في حيثيات حكم المحكمة في أكبر قضية في تاريخ القضاء المصري:

"بخصوص الموضوع الثاني: فالذي استقر في ضمير المحكمة أن أحكام الشريعة الإسلامية غير مطبقة في جمهورية مصر العربية، وهذه حقيقة مستخلصة من الحقيقة الأولى وهي وجوب تطبيق الشريعة".

ثم راحت المحكمة تسرد الأدلة على غياب الشريعة ومنها:

"وجود مظاهر في المجتمع المصري لا تتفق مع أحكام الشريعة الغراء، من ملاه ترتكب فيها الموبقات، ترخص بإدارتها من الدولة، إلى مصانع خمور ترخص بإنشائها من الدولة، إلى محال لبيع وتقديم الخمور ترخص بإدارتها من الدولة، إلى وسائل إعلام سمعية ومرئية ومقروءة تذيع وتنشر ما لا يتفق على أحكام الشريعة الإسلامية، إلى سفور للمرأة يخالف ما نص عليه دين الدولة الرسمي وهو الإسلام"[1].

كما قرر حكم المحكمة في مسودة الحيثيات في موضع آخر:

"حقيقة أن المادة الثانية من الدستور بعد تعديلها نصت على أن الإسلام دين الدولة الرسمي واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع، إلا أنه يكفي المحكمة تدليلاً على أن أحكام الدستور لا تتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية، ما قرره عمر أحمد عبد الرحمن - باعتباره من علماء المسلمين- أمام المحكمة بجلسة ٣ سبتمبر سنة ١٩٨٣م من أن الدستور يتصادم مع الشريعة الإسلامية ولا يتحاكم إليها فالمواد ٨٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٢، ١١٣، ١٨٩ تعطي لمجلس الشعب حق التشريع وسن القوانين، وهو في الإسلام لله وحده، كما أن المادة (٧٥) من الدستور لا

---

[1] مسودة حيثيات الحكم في القضية ٤٦٢/ ٨١ أمن دولة عليا طوارئ المشهورة بقضية الجهاد الكبرى ص: ٢٦٥ نقلاً عن: هؤلاء قتلوا السادات ص: ٢٦٠ و٢٦١، أيضاً: تنظيم الجهاد- جذوره وأسراره ص: ٩٥.

تشترط الإسلام والذكورة في رئيس الدولة وهو أمر يخالف إجماع الفقهاء، والمادة (١٦٥) تنص على أن الحكم في المحاكم بالقانون الذي لا يتفق في أسلوب إصداره ونصوصه مع الشريعة الإسلامية"[١].

كما قرر حكم المحكمة في موضع آخر في معرض بيان حالة المجتمع المصري قبل وقوع أحداث القضية:

"غياب شرع الله عن أرض جمهورية مصر العربية: وهو ما سبق للمحكمة أن دللت عليه بأدلة قاطعة لا ترى حاجة لتكرارها، ولكنها تشير إلى أن السلطة التشريعية لم تنته بعد من تقنين أحكام الشريعة الإسلامية، وكانت قد بدأت في هذا العمل منذ عام ١٩٧٩م، هذا إلى وجود مظاهر في المجتمع المصري لا تتفق بأي حال مع قواعد الإسلام، فلا يتصور أن دولة دينها الإسلام وترخص لملاهٍ ترتكب فيها موبقات، وترخص لمصانع لإنتاج الخمور أو محال لبيعها وشربها، أن تصرح لوسائل الإعلام المرئية أو السمعية أو المقروءة بنشر أو إذاعة ما لا يتفق مع شرع الله أو سفور المرأة بصورة تخالف ما نص عليه الإسلام"[٢].

وقد ادعت عليَّ جريدة (الشرق الأوسط) فيما نشرته مشوهاً مبتوراً من الطبعة الأولى لهذا الكتاب -الذي حصلت على نسخته من المخابرات الأمريكية- أنني أشدت بالمستشار عبد الغفار رئيس المحكمة، وقلت: إن أحكامه جاءت منصفة للإسلاميين! فقالت:

"وبينما يندد الظواهري في كتابه بالمحكمة العسكرية، ويعتبرها نموذجاً مكرراً من المواجهات بين الإسلاميين وما سماه بـ[العلمانية العسكرية]، إلا أنه يشيد بالمستشار عبد الغفار رئيس المحكمة قائلاً: إن أحكامه جاءت منصفة للإسلاميين".

وهذه واحدة من الافتراءات الكثيرة التي حشرتها (الشرق الأوسط) في سياق ما نقلته عني[٣]، وحاشا لله أن أشيد بقاضٍ علماني يحكم بقانون وضعي، وأصفه بالإنصاف، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. فالقاضي العلماني ظالم حتى لو أصاب الحق، لأنه لم يقر بالحاكمية للمولى سبحانه وتعالى.

---

[١] مسودة حيثيات الحكم في القضية ٤٦٢/ ٨١ أمن دولة عليا طوارئ المشهورة بقضية الجهاد الكبرى ص: ٣٦٣،٣٦٤ نقلاً عن: هؤلاء قتلوا السادات ص :١٨٠ و١٨١.

[٢] مسودة حيثيات الحكم في القضية ٤٦٢/ ٨١ أمن دولة عليا طوارئ المشهورة بقضية الجهاد الكبرى نقلاً عن: هؤلاء قتلوا السادات ص: ٢٧٢.

[٣] ومن ذلك أيضاً استبدالهم كلمة الانتحارية بالاستشهادية، عند ذكري لعبارة العمليات الاستشهادية، ومن ذلك استبدالهم لكلمة الأصولية بالجهادية، عند ذكري للحركات الجهادية، وحاشا لله أن أستخدم كلمة الانتحارية أو الأصولية، إنها الأمانة الصحفية، وشرف المهنة، ولكن أية مهنة؟

يقول الأستاذ الشهيد -كما نحسبه- سيد قطب ~:

"ولم يكن بد أن يكون "دين الله" هو الحكم بما أنزل الله دون سواه. فهذا هو مظهر سلطان الله. مظهر حاكمية الله. مظهر أن لا إله إلا الله.

وهذه الحتمية: حتمية هذا التلازم بين "دين الله" و"الحكم بما أنزل الله" لا تنشأ فحسب من أن ما أنزل الله خير مما يصنع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع وأنظمة وأوضاع. فهذا سبب واحد من أسباب هذه الحتمية. وليس هو السبب الأول ولا الرئيسي. إنما السبب الأول والرئيسي، والقاعدة الأولى والأساس في حتمية هذا التلازم هي أن الحكم بما أنزل الله إقرار بألوهية الله، ونفي لهذه الألوهية وخصائصها عمن عداه.

وهذا هو "الإسلام" بمعناه اللغوي: "الاستسلام"، وبمعناه الاصطلاحي كما جاءت به الأديان.. الإسلام لله.. والتجرد عن ادعاء الألوهية معه؛ وادعاء أخص خصائص الألوهية، وهي السلطان والحاكمية، وحق تطويع العباد وتعبيدهم بالشريعة والقانون.

ولا يكفي إذن أن يتخذ البشر لأنفسهم شرائع تشابه شريعة الله. أو حتى شريعة الله نفسها بنصها، إذا هم نسبوها إلى أنفسهم، ووضعوا عليها شاراتهم؛ ولم يردوها لله؛ ولم يطبقوها باسم الله، إذعانا لسلطانه، واعترافا بألوهيته؛ وبتفرده بهذه الألوهية. التفرد الذي يجرد العباد من حق السلطان والحاكمية، إلا تطبيقاً لشريعة الله"[1].

ولكن الإنصاف يقتضيني أن أذكر أن المستشار عبد الغفار محمد كان شجاعاً حينما رفض تقارير مباحث أمن الدولة، وحينما رفض أن يلبي دعوة للقاء وزير العدل أثناء نظر القضية، بل ورفض حتى أن يجيبه على الهاتف، واعتكف عن إحدى الجلسات احتجاجاً على محاولة وزير العدل التدخل في القضية، وقد أشار إلى هذا الشيخ عمر عبد الرحمن -فك الله أسره- في بياناته أثناء المحاكمة، وكان شجاعاً حينما أثبت أقوال كل المتهمين متهماً متهماً عن التعذيب الذي تعرضوا له في بداية المحاكمة، وكان شجاعاً حينما أمر بعرض جميع المتهمين على الطب الشرعي لفحص إصاباتهم من التعذيب، وكان شجاعاً حينما أمر بطرد ضباط مباحث أمن الدولة من القاعة، ولكنهم تسللوا للشرفات المطلة على القاعة، ودسوا بعضاً منهم في زي حرس المحكمة، وكان شجاعاً حينما أتاح الفرصة للدكتور عمر عبد الرحمن ليلقي بياناته التاريخية على مدى ثلاثة أيام، وكان شجاعاً حينما قبل استدعاء الشيخ صلاح أبو إسماعيل ~ للشهادة، وكان شجاعاً حينما منح الفرصة للمتهمين عشرات المرات لإلقاء كلمات في بداية الجلسات، وكان شجاعاً حينما أصدر حكماً كان بمثابة صفعة للنظام الحاكم ولأجهزته، وكان

[1] في ظلال القرآن- سورة المائدة- المقدمة ج: ٢ ص: ٨٢٨ و٨٢٩.

شجاعاً حينما قرر الحقائق الخطيرة التي أشرنا إليها آنفاً في حيثيات الحكم، وكان شجاعاً حينما طلب من النيابة -في حكمه- فتح تحقيق في التعذيب الذي تعرض له المتهمون.

كل هذا كان فيه عبد الغفار محمد شجاعاً، وكان متحدياً للنظام، ومبحراً ضد التيار، ومعرضاً نفسه للمشاكل والمصاعب، في وقت كانت كل أجهزة النظام تعد العدة للانتقام من الشباب المسلم في هذه القضية الخطيرة، تلك القضية التي تورطت فيها النيابة العامة -كعادتها- تورطاً مشيناً مع الجلادين.

لكن كل هذا لا يمكن أن يرقى به لأن يكون قاضياً عادلاً، لا من حيث مرجعية التحاكم ولا من حيث تطبيق الأحكام.

أما من حيث مرجعية التحاكم: فقد بينت أن القاضي العلماني الذي يحكم بقانون وضعي، هو بنص القرآن ظالم وفاسق وكافر.

ويتحمل عبد الغفار محمد وزر الأحكام التي أصدرها بسجن مائة وتسعة مسلماً بأشرف تهمة وهي الجهاد في سبيل الله، حتى وإن أعمل الظروف المخففة في هذه الأحكام مراعاة لنبل الغاية وشرف المقصد، كما نص على ذلك في حيثيات حكمه، وحتى وإن خلى أي حكم له في القضية من الحكم بالإعدام.

ولا ينفي المسؤولية عن عبد الغفار محمد ما قرره في حيثيات حكمه من أن المحكمة ملزمة شرعاً بالحكم بالشريعة مضطرة قانوناً للحكم بالقانون الوضعي. فهذا الكلام لا وزن له في ميزان الشريعة، لأنه لم يكن مكرهاً إكراهاً معتبراً في الشريعة، حتى يدعي الاضطرار!.

أما من حيث تطبيق الأحكام: فكان على الحكم انتقادات عدة، منها أن عبد الغفار محمد في كثير من الأحيان اعتمد في حكمه على محاضر ضبط وإحراز ومحاضر إرشاد يعلم يقيناً أنها بنيت على معلومات انتزعت بالإكراه والتعذيب، ومنها أنه في كثير من الأحيان اعتمد في حكمه على محاضر تحقيق أمام النيابة يعلم يقيناً أنها تمت في ظروف من الرعب والهلع من تواطؤ النيابة مع المباحث على إعادة تعذيب المتهمين.

ومن الأمثلة على ذلك ما حكاه لي أحد الإخوة الأفاضل من أنه اعترف تفصيلاً في النيابة، لأن التعذيب الذي تعرض له والمعاملة التي لقيها في السجن أقنعته إقناعاً تاماً أنه لا بد مقتول على أيدي الشرطة. وذكر لي -أنه على سبيل المثال- لما رحل مع آخرين لسجن استقبال طرة، رتبت لهم إدارة السجن ما يعرف (بحفلة استقبال)، حيث ظلوا لعدة ساعات يتعرضون للضرب أثناء مرورهم بين صفين من الجنود، وأن الجنود كانوا يضربونه على رأسه بالقيود الحديدية (الكلابشات)، مما أقنعه أنهم لابد قاتلوه.

ومن أبرز الأمثلة على مخالفة عديد من أحكام عبد الغفار محمد لقواعد القانون الوضعي حكمه على الشهيد -كما نحسبه- البطل عصام القمري ~ بحكمين أحدهما بعشر سنوات والآخر بخمسة سنوات،

لإدانته بالانضمام لتنظيم الجهاد وبمقاومة الشرطة. رغم أن الأوراق تخلو من أي دليل قطعي على إدانة عصام القمري ~.

قد يشعر البعض -ممن لا يزنون الأمر بميزان الشريعة- بالتعاطف مع عبد الغفار محمد، ولكن الأمر أجل من ذلك وأخطر، إنه أمر دعم النظام المحارب للإسلام، بقوانين وأحكام مخالفة للشريعة.

ولا يعذر عبد الغفار محمد -ما كان يشاع ولا أدري مدى صحته- قوله الذي كان ينقل عنه، من أنه إذا لم يحكم هو في هذه القضية فقد يحكم فيها قاض آخر ينكل بهؤلاء الشباب.

وبعد أن تقاعد عبد الغفار محمد امتهن المحاماة، وصار يدافع عن الشباب المسلم في المحاكم، هل تاب عن ماضيه كقاض علماني يحكم بقانون وضعي؟ ولكن أين حقوق المظلومين المحكوم عليهم؟؟

وبناء على حكم المحكمة بدأت النيابة تحقيقاً في التعذيب الذي أثبته الحكم، وكان هذا تعبيراً عن اهتزاز الحكومة أمام التيار الجهادي المتصاعد، وتعبيراً عن حرص حسني مبارك على النجاة بنفسه، حتى وإن أدى ذلك للتضحية بأكثر من خمسين من ضباط الشرطة والمباحث.

وبدأت النيابة تحقيقاً واسعاً في التعذيب، واستدعت المتهمين في قضية الجهاد الكبرى للتحقيق معهم في وقائع التعذيب الذي تعرضوا له، وحاولت الشرطة عدم توصيل استدعاء النيابة المتكرر لي عبر قسم الشرطة، ولكن قدر الله أن طلبني أحد الإخوة للشهادة عن وقائع تعذيبه، وعندما حضرت أمام المستشار المحقق، أخبرني أني أنا شخصياً مطلوب أمامه للتحقيق في وقائع التعذيب الخاصة بي، وأخرج لي من مكتبه حزمة من أوامر الاستدعاء الخاصة بي، وتعجب كيف لم أستجب لها، فأبلغته أني لم يصلني أي استدعاء، وأن هذا من مكر الشرطة.

وحدد لي المحقق موعداً للتحقيق معي بشأن تعذيبي، وذهبت، وفي أثناء التحقيق قلت للمحقق: ما فائدة هذا التحقيق؟ أنتم تحققون في وقائع حدثت منذ قرابة ثلاث سنوات، والنظام هو النظام والتعذيب لا زال قائماً، فما الجدوى من كل ذلك، فرد علي بخبرة المجرب المحنك وقال لي: هذه أول مرة في تاريخ مصر يحاكم رجال العهد في نفس العهد، فهذه فرصة فانتهزوها. وصارحني بأنه طالما ظلت الحكومات تمارس هذه الأساليب فلن يتوقف العنف في مصر.

وفعلاً انتهى -بفضل الله ثم بتضحيات المجاهدين- في مصر النظام الباطش المتبجح المتجبر، وجاء النظام المراوغ المتصنع للبراءة المتيح لهامش من النقد والحرية، وهذه خطوة هامة على الطريق، ما تحققت إلا بالدماء والتضحيات، وهي أيضاً درس للمجاهدين أن لا يسمحوا للنظام أن ينكل بهم في الظلام وهذا ما سنتعرض له لاحقاً بتفصيل إن شاء الله.

وبعد خروجي من السجن فرضت علي النيابة حكماً لمدة ثلاث سنوات بالمراقبة الجبرية، وهو نظام سيء يطبق على أرباب السوابق من اللصوص والمجرمين، حيث يوضعون تحت مراقبة الشرطة، وبمقتضى

هذا النظام يحق للشرطة أن تعتقل المَراقب في حجز الشرطة أو تلزمه منزله من الغروب للشروق، وعلى المراقب أن يراجع قسم الشرطة كل أسبوع، وعليه ألا يغادر مدينته ولا مقر سكنه إلا بإذن الشرطة.

أي هو بقية من سجن، وقد اكتشفت أن هذه مؤامرة أخرى من النيابة في تواطئها مع المباحث لتقييد حركة المفرج عنهم، واكتشفت أن حكم المحكمة لا يتضمن هذا الحكم، واكتشفت أيضاً أن التهمة التي أدنت فيها -وهي إحراز أسلحة وذخائر بدون ترخيص- لا ينطبق عليها نظام المراقبة الجبرية، ودعاني هذا للقراءة في كتب القانون حول هذا النظام فاكتشفت -وهو الأهم في الموضوع- أن هذا نظام فرضه الاحتلال البريطاني على مصر لمواجهة المجاهدين والمقاومين له، فأدركت أن هؤلاء تلامذة لأولئك، لا زالوا يترسمون نفس الخطى.

وبالإضافة لنظام المراقبة الجبرية فرضت علي مباحث أمن الدولة نظاماً من المراقبة السرية على مدار الساعة، ولكني -بفضل الله- قلبت عليهم المائدة، فعبر نظام من الرشاوى، أنشأت -بحول الله وقوته- نظاماً لمراقبتهم، فكانت تذهب إليهم أخباري، وتأتيني أخبارهم.

ورغم هذا الحصار قررت ألا أكف عن المقاومة، فبدأت حملة في التشهير العلني بالنظام، وصرت أمد الصحف المعارضة بوقائع التعذيب، كما حركت قضية تواطؤ أطباء السجون في تعذيب المعتقلين في النيابة وفي نقابة الأطباء.

وحدث ذات مرة وأنا أصور أخبار التعذيب من الصحف -في دكان بسيط يملك صاحبه آلة تصوير- أن سألني صاحب الدكان بفطرة المصري البسيط: إذا كان كل هذا قد حل بكم، فلماذا لا تنتقمون ممن اعتدى عليكم؟ فأجبته أن هذا جزء من المعركة، أما ثأرنا منهم فسنأخذه بأيدينا إن شاء الله. وأرجو أن أكون -بعون الله- قد صدقته.

الفصل الثالث: عصام القمري- شهامة وشجاعة وشهادة

فَتىً ماتَ بَينَ الضَربِ وَالطَعنِ ميتَةً — تَقومُ مَقامَ النَصرِ إِذ فاتَهُ النَصرُ

وَما ماتَ حَتّى ماتَ مَضرِبُ سَيفِهِ — مِنَ الضَربِ وَاِعتَلَّت عَلَيهِ القَنا السُمرُ

وَقَد كانَ فَوتُ المَوتِ سَهلاً فَرَدَّهُ — إِلَيهِ الحِفاظُ المُرُّ وَالخُلُقُ الوَعرُ

فَأَثبَتَ في مُستَنقَعِ المَوتِ رِجلَهُ — وَقالَ لَها مِن تَحتِ أَخمُصِكِ الحَشرُ

غَدا غَدوَةً وَالحَمدُ نَسجُ رِدائِهِ — فَلَم يَنصَرِف إِلّا وَأَكفانُهُ الأَجرُ

تَرَدّى ثِيابَ المَوتِ حُمراً فَما أَتى — لَها اللَيلُ إِلّا وَهيَ مِن سُندُسٍ خُضرُ

مَضى طاهِرَ الأَثوابِ لَم تَبقَ رَوضَةٌ — غَداةَ ثَوى إِلّا اِشتَهَت أَنَّها قَبرُ

عَلَيكَ سَلامُ اللَهِ وَقفاً فَإِنَّني — رَأَيتُ الكَريمَ الحُرَّ لَيسَ لَهُ عُمرُ[(١)]

١- كانت من أهم المجموعات الجهادية التي اكتشفتها أجهزة الأمن مجموعة عصام القمري ~.

وإذا ذكر عصام القمري ~، فلا بد من وقفة، فعصام القمري من القلائل الأفذاذ الذين لم يأخذوا حقهم في التعريف بفضلهم وجهادهم، لأن أجهزة الإعلام والدعاية في بلادنا في يد جماعات معادية للمسلمين، فهم يقصرون حق النشر عليهم، ويحرمونه على المسلمين، اقتداءً بسياسة الغرب الذي يسيطر فيه اليهود على وسائل الإعلام والتوجيه.

(١) الأبيات لأبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي. وقد قال الأمير أبو دلف لأبي تمام عن هذه الأبيات: "وددت والله أنها لك في". فقال له أبو تمام: بل أفدي الأمير بنفسي وأهلي. فقال له: "ما مات من رُثي بهذا الشعر". [الموسوعة الشعرية- أبو تمام وأخبار أبي تمام للصولي ص: ٦٣، الأغاني ج: ١٦ ص: ٤٢٢ و٤٢٣، تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الأول ص: ٢٨٦ و٢٨٧].

وعصام القمري ~ رجل جاد، أخذ -منذ بداية شبابه- قضية الإسلام مأخذ الجد. أخبرني ~ عن بدايات اقتناعه بضرورة خلع النظام، أنه -في أثناء فترة دراسته الثانوية- كان في حيه شاب مقعد، ولكنه كان بذيء اللسان يتعرض للفتيات بالكلام الساقط، فأمسكه عصام ~ وضربه، فجاء أبو الشاب يشكو عصاماً لأبيه، فأخذ أبوه يعنفه على ضربه لشاب مقعد، فأخبره عصام بفحشه، وكان في بيتهم زائر من أقربائهم، فقال لعصام: بدلاً من أن تضرب هذا المجرم الصغير عليك بالمجرم الكبير الذي يحكم البلد.

ولما تكونت عنده هذه القناعة قرر أن يدخل الكلية الحربية ليغير النظام الحاكم في مصر، هكذا كانت قناعته وهو لا يزال طالباً متخرجاً من المدارس الثانوية.

فَما الحَداثَةُ مِن حِلمٍ بِمانِعَةٍ قَد يوجَدُ الحِلمُ في الشُبّانِ وَالشيبِ[1]

وقد أخبرني ~ أنه سأل والده بعد دخوله للكلية الحربية: أتدري لماذا دخلت الكلية الحربية؟ فقال له والده: لماذا؟ فقال له: لكي أقوم بانقلاب عسكري في مصر، وذهل والده، لكنه لم يستطع شيئاً، فقد كان عصام قد قبل في الكلية الحربية.

وكان مجموع عصام القمري في امتحان الثانوية العامة يؤهله لدخول عدد من الكليات العملية كالطب والهندسة ونحوهما، وكانت عادة الناس وما زالت أن يفضلوا الالتحاق بالكليات العملية في الجامعة على الكليات العسكرية، لكن عصام خالف هذا العرف السائد لأمر في نفسه.

٢- وفي الكلية الحربية تعرّف عصام القمري ~ على محمد مصطفى عليوة شقيق علوي مصطفى عليوة، الذي ضم عصام مع شقيقه إلى مجموعتنا الجهادية، وهكذا انضم عصام القمري إلى المجاهدين في مصر، ومنذ انضمام عصام القمري ~ إلى هذا الطريق -وحتى مقتله- لم يتوقف عن العطاء المثمر والبذل الجاد في سبيل هذا الدين.

وأعانه على هذا المستوى السامي طبيعته وخلقه الراقي، فعصام القمري ~ رجل بكل ما تعنيه كلمة الرجولة من معان، وشهم بكل ما تدل عليه لفظة الشهامة من مدلولات. بل إن كثيراً من المتاعب التي عاناها والتضحيات التي قدمها -برضا واطمئنان- كانت بسبب ما انطوت عليه نفسه الكريمة من شهامة ونخوة.

حتى أنه حاول وهو هارب أن يسعى لفك أسر إخوانه الضباط المعتقلين أثناء نقلهم من محبسهم في المجموعة ٧٥ مخابرات حربية إلى المحكمة العسكرية، ولما أجبته بأن إمكانياتنا لا تسمح بذلك، رد عليّ بغضب أننا لو بعنا كل ما نملك حتى ملابسنا من أجل إنقاذ هؤلاء الإخوة لما وفيناهم حقهم.

[1] البيت للمتنبي في مدح كافور الأخشيد. الموسوعة الشعرية- المتنبي.

وكان من أهم ما يؤرقه في السجن العمل على تهريب الإخوة المتوقع أن يحكم عليهم بالإعدام، وبعد صدور الأحكام اشتكى لي من أنه يريد أن يسعى في تهريب كل الإخوة المحكوم عليهم بمدد طويلة، ولكن بعضهم متردد، فنصحته بأن يسعى في ترتيب الهرب، فإذا واتته الفرصة، فليهرب بمن يوافقه، وليدع من يتردد.

ومن شمائل عصام الكريمة ~ تواضعه ودماثة أخلاقه وحرصه على خدمة إخوانه والتودد إليهم، ولكنه كان شديد الصراحة وبحسم مع أي شخص يحاول أن يراوغ معه، أو يخادعه، أو يبرر للتنازل عن المبادئ.

كما كانت له فراسة ونظرة ثاقبة في الأمور ~، أخبرني من أثق به أنه قبيل شهادته كان يقول عن قيادات الجماعة الإسلامية في السجن: (هؤلاء هم الإخوان الجدد). هذا الكلام قاله في عام ١٩٨٨ تقريباً أي قبل ظهور أول مبادرة بثمان سنوات. وقد كنت أتكتم هذا الأمر، ولا أذيعه، أما الآن بعد أن وصلت مبادرة المبادرين لما وصلت فلا حرج.

ومن شمائل عصام المميزة أيضاً ثباته وهدوءه في أوقات الشدة والأزمات، أخبرني أخي نبيل نعيم — فك الله أسره- أن عصام ~ كان يتصرف في معركة الجمالية -وثلاثتهم محاصرون بكتيبة من الأمن المركزي وأطواق أخرى من قوات الشرطة- بمنتهى الهدوء وكأنه في عمل عادي وليس في معركة.

وقفت وما في الموت شك لواقف — كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة — ووجهك وضاح وثغرك باسم[(١)]

٣- وبعد تخرج عصام القمري من الكلية الحربية، انخرط في سلاح المدرعات، الذي أحبه وتفوق فيه، وكان يكرر لنا أن هذا السلاح يجب أن يكون سلاح المسلمين، لما يتوفر فيه من قدرة على حسم المعارك وردع للخصم، وكنت أداعبه في السجن قائلاً له: أنت تمدح المدرعات، بينما أحمد شوقي يمدح عمر المختار ~ بأنه فارس، لا يعرف ركوب الدبابات، فيقول:

بَطَلُ البَداوَةِ لَم يَكُن يَغزو عَلى — تَنَكٍ وَلَم يَكُ يَركَبُ الأَجواءَ

لَكِن أَخو خَيلٍ حَمى صَهَواتِها — وَأَدارَ مِن أَعرافِها الهَيجاءَ[(٢)]

فيسكت مبتسماً ~.

---

(١) يتيمة الدهر- القسم الأول في ذكر محاسن شعر آل حمدان وشعرائهم- الباب الثاني في ذكر سيف الدولة- فصل في انفجار ينابيع جوده على الشعراء ج: ١ ص: ٤٣.

(٢) من رائعة أحمد شوقي في رثاء عمر المختار رحمه الله. الموسوعة الشعرية- أحمد شوقي.

وكان تفوق عصام القمري في سلاح المدرعات تفوقاً ملحوظاً مميزاً، فقد انكبّ عصام على العلم العسكري دراسة وفهماً، وعلى الخبرة الميدانية ممارسة وعملاً، لأنه كان يحتسب هذا الجهد في سبيل الله، لذا لم يكن غريباً أن يتفوق عصام في كل دوراته التدريبية، وأن يكون الأول على زملائه فيها.

من أجل ذلك رشح -وهو رائد- لدورة قادة كتائب في أمريكا، وُعِد بعدها أن يعود قائداً لكتيبة مدرعات في الحرس الجمهوري، وكان عصام ينتظر هذا المنصب باهتمام.

ولم يثنه عن هذه الدورة إلا اجتهاد أحد الإخوة المبالغين سامحه الله، الذي أقنعه بأن عام ١٩٨١ سيكون عام التغيير في مصر، وبأنه قادر على أن يحشد عدداً ضخماً من الشباب المجاهد من الجماعات المجاهدة.

وبناء على هذا الزعم المهول قرر عصام ألا يسافر إلى أمريكا، فرشح بدلاً من ذلك لكلية أركان الحرب، وكان بذلك ضابطاً من الضباط النوادر في سلاح المدرعات، الذي يرشح لهذه الكلية وهو ما زال رائداً.

٤- وكانت لعصام نظرية في العمل الجهادي حاول جاهداً أن يوفر لها الإمكانات، لكن شاء الله أن لا تتوفر تلك الإمكانات.

قال البطل الفارس الشاعر محمود سامي البارودي رحمه الله:

عَلَيَّ طِلابُ الْعِزِّ مِنْ مُسْتَقَرِّهِ وَلا ذَنْبَ لِي إِنْ عَارَضَتْنِي الْمَقَادِرُ[١]

وهذه النظرية ما زالت تمثل اختياراً عملياً مناسباً إن توفرت لها مقوماتها، ومن سمات هذه النظرية:

أ- إن أنظمة الحكم في بلادنا قد فرضت من الاحتياطات الأمنية ما لا يمكن مواجهته إلا بقوة مسلحة تملك قوة نيران كبيرة وعدداً من الدروع، تستطيع به أن تفرض سيطرتها على العاصمة وخوض المعركة والصمود فيها من أسبوع إلى أسبوعين.

ب- إن الحركة الإسلامية تملك آلاف الشباب الذين يتسابقون إلى الشهادة، لكن هؤلاء الشباب بلا تدريب ولا خبرة قتالية.

ج- إن اختراق الحركة الإسلامية للجيش سيواجه دائماً بحملات التطهير، ومن العسير على الحركة الإسلامية أن تجند عدداً كبيراً من الضباط في صفوف الجيش، من دون أن ينكشف أمرهم نظراً للمتابعات الأمنية الدقيقة في صفوف القوات المسلحة.

د- فكانت فكرة عصام هي تدريب عدة مئات من الشباب المسلم على السلاح وعلى استخدام وقيادة الدبابات ولو بصورة مبدئية.

هـ- أما قوات الشرطة والأمن المركزي وما يتبع وزارة الداخلية، فكان عصام ينظر إليها باستخفاف.

---

[١] الموسوعة الشعرية- محمود سامي البارودي.

وكان عصام ينتقد انشغال الشباب المسلم بالشرطة والهجوم عليها، وعدم نظرتهم إلى الوضع العسكري نظرة عملية تحليلية مبنية على المعلومات.

وكان عصام يثق كثيراً بالشباب المسلم المتدرب ويقول: (إن الشرطة تستأسد علينا، لأن إخواننا غير مدربين، أما إذا دربناهم، وأعطيناهم قليلاً من السلاح، فلن يقف أمامهم أحد).

هذه النظرية ظلت مجال نقاش بيني وبينه لفترات طويلة قبل السجن وأثناءه، وأشهد أن كثيراً من توقعاته صدقتها الأحداث.

وهذه الخطة خطة جريئة تعتمد على الاستطلاع الدقيق والتحليل العلمي للمعلومات الواقعية، لذلك فهي تتوافق تماماً مع شخصية عصام التي تكاملت فيها هذه العناصر؛ القلب الجريء والعلم العسكري والعمل الدؤوب.

ولهذه النظرية تفاصيل كثيرة وجوانب متعددة، لكني فقط أشرت إلى فكرتها المحورية.

٥- وبناء على قناعة عصام بالرأي القائل بأن عام ١٩٨١ يمكن أن يكون عام التغيير، بدأ يجتهد - هو وإخوانه الضباط الذين جندهم- في إخراج -كل ما يمكنهم إخراجه- من أسلحة وعتاد من الجيش، وكنا نقوم بتخزين هذه الأسلحة.

وأثناء نقل آخر كمية من هذه الأسلحة من عيادتي إلى المخزن المعد لذلك، وكانت عبارة عن حقيبة أوراق بها بعض الأسلحة مع كتب ونشرات عسكرية، ألقي القبض على حامل الحقيبة، لكنه استطاع الفرار وترك الحقيبة، وعن طريق بعض النشرات التي في الحقيبة، وبعض الخرائط الموضح عليها مواقع الدبابات في القاهرة، أمكن الوصول إلى مجموعة الضباط التابعين لعصام القمري، وأدرك عصام الخطر قبل وصولهم إليه، فهرب، لكن قبض على بعض الضباط من إخوانه.

وظل عصام هارباً من فبراير حتى أكتوبر عام ١٩٨١، حتى قبض عليه عقب اغتيال أنور السادات، وطوال هذه المدة كان عصام صابراً كعادته، لا يشكو، ولا يتبرم، ولا يتذمر، ولا يلوم أحداً، بل يهون الأمر، ويشد من أزر إخوانه، ويقوي من عزيمتهم.

وأذكر في أحد المرات أن الظروف ضاقت به، فلم نجد له مكاناً إلا منزلي ريثما أعطي ممرض عيادتي إجازة، ثم نقلته لعيادتي، ولأننا زعمنا أن العيادة في إجازة فقد كان عليه ألا يوقد أي ضوء في الليل، ولا يحدث أية ضوضاء في النهار. وكنت أزوره في الليل بحجة تفقد العيادة لأحضر له طعاماً، وأطمئن عليه، فأجده صابراً راضياً لا يشتكي، ولا يتبرم.

ولم يتوقف عصام عن النشاط في فترة هربه، بل على العكس، كان رغم المشاكل الجمّة -التي يواجهها، والضغط العصبي والتوتر الذي يعيشه في كل دقيقة- لا يكف عن العمل وبذل الجهد.

فقد استطلع العديد من الأهداف ومواقع القوات ومقار الشرطة وأعد خططاً، وأجرى العديد من التجارب.

٦- وعقب اغتيال أنور السادات طلب مني عصام أن أوصله بالمجموعة التي نفذت الاغتيال، فقمت بتوصيله بعبود الزمر، وفي هذه اللحظات الحرجة تدارس عصام القمري الموقف مع عبود، وحاول أن ينقذ ما يمكن إنقاذه، لكن الوقت كان قد فات.

فقد كان عصام يفكر في محاولة ضرب جنازة أنور السادات بمن فيها من رؤساء أمريكا وقادة إسرائيل، كما كان يفكر في إمكانية الاستيلاء على بعض الدبابات وتحريكها لضرب هدف حيوي أو الهجوم على جنازة السادات، لكن الإمكانات المتاحة كانت أقل من طموحاته، وكان الوقت قد فات.

وانتهت لقاءاتنا بعبود الزمر بنصيحتنا له؛ أن يحاول الخروج من مصر في هذه المرحلة، ليواصل الهجوم في مرحلة أخرى، لكن عبود اعتذر عن هذا الرأي، لأنه كان قد تعاهد مع إخوانه على مواصلة المعركة، رغم أنه اعترف لي -في أثناء السجن- أنه كان مقتنعاً برأينا، لكن عهده مع إخوانه ألزمه بعدم قبوله.

٧- وشاء الله أن يقع عبود في الأسر، واكتشف المحققون من تعذيب الإخوة أنه قد التقى بي وبعصام القمري، وكانت المفاجأة ضخمة؛ أن الضابط الهارب منذ ثمانية أشهر قد ظهر مرة أخرى على سطح الأحداث، وبتكثيف المطاردات والتعذيب تم القبض عليّ، ثم الهجوم على مخبأ عصام في حي الجمالية بالقاهرة، حيث دارت معركة الجمالية المثيرة.

٨- وهذه المعركة تحتل أهمية مهمة في تاريخ الحركة الجهادية، لما أظهرت من حقائق خطيرة في المواجهة بين المجاهدين وقوات الحكومة، ولما أظهرت من صدق نظرة عصام وبعد نظره.

وهنا لا بد من وقفة لشرح بعض تفاصيل هذه المعركة:

أ- دارت هذه المعركة في منطقة منشية ناصر في حي الجمالية، وهي منطقة فقيرة تزدحم فيها بيوت الفقراء المتلاصقة تفصل بينها الحواري والأزقة الضيقة.

ب- وكان عصام مختبئاً في ورشة للخراطة -أنشأها أخونا محمد عبد الرحيم الشرقاوي، لتكون إحدى قواعدنا- مع إبراهيم سلامة ونبيل نعيم. وكانت هذه الورشة عبارة عن بيت متواضع يتكون من ممر غير مسقوف على يساره غرفتان وعن يمينه غرفتان، وفي بداية الممر باب حديدي.

وكانت الورشة تقع في زقاق ضيق، مسدود آخره، ويحيط بها عدد من المنازل، العديد منها مكون من أكثر من طابق.

ج- ولما علمت وزارة الداخلية بأن عصام مختبئ في هذه الورشة، حاصرت المنطقة كلها بالشرطة وقوات الأمن المركزي، واستخدمت في الهجوم على الورشة أفضل قواتها، وهي كتيبة مكافحة الإرهاب في الأمن المركزي، واستمرت الكتيبة تحاصر الورشة لعدة ساعات نشرت خلالها أطواقها حول الورشة، واحتلت أسطح المنازل المطلة وركزت عليها مدافعها الرشاشة. هذا بالإضافة لضباط مباحث أمن الدولة الذين كانوا ينتظرون الأسرى، ثم قوات الشرطة العادية التي أغلقت المنطقة بالكامل.

د- وقبيل الفجر، بدأ النداء من مكبر الصوت على الإخوة في الورشة، بأن الورشة محاصرة وعليهم أن يسلموا أنفسهم، وعقب ذلك مباشرة بدأت مجموعة الاقتحام وهي تتكون من أفضل ضباط الأمن المركزي المرتدين للدروع الواقية، في الهجوم على باب الورشة بإطلاق سيل لا ينقطع من الطلقات مع الصياح على الإخوة بالاستسلام، واستيقظ الإخوة على هذا الدوي المفزع.

لكن عصام ورفاقه كانوا مستعدين لهذا الاحتمال، لذا فقد ثبتوا سلكاً للكهرباء على بعد سنتيمترات من الباب الحديدي، وكان معهم رشاشان قصيران متهالكان ومسدسان وعدد من القنابل اليدوية.

ولما اقتحمت مجموعة الاقتحام الباب الحديدي، صعقوا بالكهرباء، فارتدوا للخلف مصدومين مفزوعين، وحينئذ لم يمهلهم عصام فعالجهم بقنبلة يدوية من فوق الباب سقطت في وسط مجموعة الاقتحام فسقطوا بين جريح وقتيل، وما أن سمع ضباط الكتيبة وجنودها -بعد ضوضاء الاقتحام- صراخ مجموعة الاقتحام حتى شلّهم الرعب، ولف الليل سكون مطبق. وهنا قفز عصام وزميلاه فوق الورشة وبدأوا يمطرون الأسقف المجاورة برصاص الرشاشين، اللذين ما لبثا أن توقفا عن العمل، لكن عصام ورفيقيه لم يتوقفا، فأمطروا القوة بعشر قنابل انفجرت فيهم تسع، وانقطعت مقاومة القوة، وهنا أدرك عصام أن الكتيبة قد ضعفت، فخرج الإخوة من باب الورشة، فوجدوا في مواجهتهم جندياً شاهراً سلاحه، لكنه استدار -من الرعب- كاشفاً ظهره لهم، فأرداه الأخ نبيل نعيم -فك الله أسره- برصاصة في رأسه.

ثم أمرهم عصام بأن يكمنوا، وينتظروا إلقاءه لقنبلة يدوية، وأن ينطلقوا عدواً في اتجاه انفجارها، وانطلق الإخوة يعدون وسط أطواق الحصار، وكأنهم يجرون وسط كتيبة من الموتى والأشباح.

وكان عصام ~ يكرر التأكيد لي في أثناء هروبه على أهمية القنابل اليدوية في قتال المدن وفك الحصار، وكنت أحياناً أعتبر أن كلامه فيه شيء من المبالغة، إلى أن جاءت الأحداث، فعلمت أنه رجل الحرب المجرب رحمه الله رحمة واسعة.

واستمر الإخوة في العدو حتى وصلوا لتلال المقطم القريبة، ومن بُعد جلسوا يراقبون الكتيبة المثخنة بالجراح، وهي تلملم جنودها لينسحبوا إلى سياراتهم. وهنا اقترح إبراهيم سلامة أن هذه أفضل فرصة للهجوم على الكتيبة بما تبقى لدى الإخوة من ذخيرة، لكن عصام قرر الاكتفاء.

أَبو شُجاعٍ أَبو الشُجعانِ قاطِبَةً ... هَولٌ نَمَتهُ مِنَ الهَيجاءِ أَهوالُ

....

كَأَنَّ نَفسَكَ لا تَرضاكَ صاحِبَها ... إِلّا وَأَنتَ عَلى المِفضالِ مِفضالُ

وَلا تَعُدُّكَ صَوّاناً لِمُهجَتِها ... إِلّا وَأَنتَ لَها في الرَوعِ بَذّالُ

لَولا المَشَقَّةُ سادَ الناسُ كُلُّهُمُ ... الجودُ يُفقِرُ وَالإِقدامُ قَتّالُ[(١)]

هـ- واستمر الإخوة في السير في تلال المقطم، وكان في يد إبراهيم سلامة قنبلة يدوية، كان قد نزع فتيلها، ثم أعاده مرة أخرى، لكن يبدو أنه قد اهتز من مكانه في أثناء العدو، وتوقف الإخوة قليلاً قرب إحدى المغارات. وأراد إبراهيم سلامة أن يقضي حاجته، فاستدار ليواجه مدخل الغار، وظهرا عصام ونبيل على بعد أمتار قليلة منه، وهنا سقطت منه القنبلة اليدوية، ويبدو أن الفتيل تزحزح بعد قليل من سقوطها، وسمع الإخوة صوت انفجار الصاعق، وهنا انكب إبراهيم فوراً فوق القنبلة، ليحمي أخويه منها، وتمزق سكون الليل بانفجار القنبلة، الذي مزق أحشاء إبراهيم، التي استوعبت كل انفجار القنبلة، فمزقته ~ إرباً.

لَم تُبقِ مِنهُ رَحى الوَقائِعِ أَعظُماً ... تَبلى وَلَم تُبقِ الرِماحُ دِماءَ
كَرُفاتِ نَسرٍ أَو بَقِيَّةِ ضَيغَمٍ ... باتا وَراءَ السافِياتِ هَباءَ[(٢)]

وكانت مفاجأة قدرية أخرى خارج أي توقع، فبعد أن يفر الإخوة سالمين من قوات الأمن المركزي التي تفوقهم قرابة مائة مرة، يسقط إبراهيم على موعد مع قدره، الذي لا يعلمه إلا علاّم الغيوب. ووقف عصام ونبيل مشدوهين مذهولين من هول المفاجأة.

فيارب إن حانت وفاتي فلا تكن ... على شرجعٍ يُعلى بخضرِ المطارفِ
ولكن قبري بطنُ نَسرٍ مقيلُهُ ... بجوِ السماء في نُسور عواكف
وأُمسي شهيداً ثاوياً في عصابةٍ ... يصابون في فج من الأرض خائف
عصائب أشتات يؤلف بينهم ... تقى الله نزالون[(٣)] عند التزاحف
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى ... وصارو إلى ميعاد ما في المصاحف[(٤)]

قال العلامة ابن القيم ~:

"إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

---

(١) أبو الطيب المتنبي في رثاء أبي شجاع فاتك. الموسوعة الشعرية- المتنبي.

(٢) أحمد شوقي في رثاء عمر المختار رحمه الله. الموسوعة الشعرية- أحمد شوقي.

(٣) والنِّزالُ في الحرب: أَن يَتنازَل الفريقان، وفي المحكم: أَن ينْزِل الفريقان عن إِبلهما إِلى خَيْلهما فيَتضاربوا. [لسان العرب- حرف اللام- نزل ج: ١١ ص: ٦٥٦].

(٤) الأبيات للطرماح بن حكيم. الأغاني- أخبار الطرماح ونسبه ج: ١٢ ص: ٥٧، الأشباه والنظائر ج: ١ ص: ٣٥٣.

ليس العجب من صحيح فارغ واقف مع الخدمة، إنما العجب من ضعيف سقيم، تعتوره الأشغال، وتختلف عليه الأحوال، وقلبه واقف في الخدمة، غير متخلف بما يقدر عليه"[1].

وروى لي عصام ~ أن الشرطة اصطحبته ليدلهم على جثة إبراهيم سلامة ~ ليدفنوها، وأنهم توقفوا في معسكر الأمن المركزي الذي انطلقت منه القوة التي حاصرته وأخويه في الجمالية، والتف حوله ضباط الأمن المركزي متعجبين مشدوهين من هذا المقاتل العنيد الذي قتل منهم وجرح، وسأله أحدهم: لماذا تقتل منا وتجرح؟ فرد عليه عصام: وبأي دليل استحللت قتلي؟ وماذا تعلم عني حتى تطيع أمر رؤسائك وتقاتلني؟ فسكت المخذول مفحماً.

وروى لي أيضاً ~ أنه كان معه –في البيت الذي هوجم فيه– حافظة تركها، فيها أوراق هامة ومبلغ من المال ليس بكبير، وأن هذه الحافظة لم يذكر له المحققون عنها أي شيء، وأن أغلب ظنه أن أحد ضباط الشرطة قد وجدها، وكتمها، ليأخذ المال الذي فيها، وهي عادة متواترة عنهم في سلب ونهب البيوت التي يفتشونها.

٩– ويشاء الله أن يقبض على عصام، وما أن ظفر به ضباط مباحث أمن الدولة حتى بدأوا حملة شرسة من التعذيب ضده، وكان كل همهم أن يعرفوا أكبر عدد من الضباط المتصلين به، حتى يحققوا سبقاً على المخابرات الحربية المنافسة لهم، وأخذ عصام يعطيهم أسماء كثيرة لضباط خدموا معه في وحدات مختلفة، كما نسج لهم قصة انقلاب وشيك من سلاح المدرعات، يشارك فيه كبار قادة المدرعات. وطار وزير الداخلية (النبوي إسماعيل) بهذه الأخبار إلى رئيس الجمهورية، واعتقل عدد من كبار ضباط سلاح المدرعات، وأمر رئيس الجمهورية بعقد مؤتمر يشارك فيه قيادات أجهزة الأمن الرئيسية الثلاثة (مباحث أمن الدولة والمخابرات الحربية والمخابرات العامة)، ويكون برئاسة مدير المخابرات العامة اللواء نصار –الذي كان مديراً سابقاً للمخابرات الحربية– للتحقيق مع عصام القمري.

وانعقد المؤتمر في إدارة مباحث أمن الدولة، وسأل اللواء نصار عصاماً ~ عن حقيقة هذه المعلومات، فأجابه عصام بأن هذه المعلومات قد أدلى بها ليدفع عن نفسه التعذيب، وأنه كلما ذكر لضباط مباحث أمن الدولة اسم ضابط طالبوه باسم ضابط آخر ذي رتبة أعلى. وأن كل هذه الأسماء هي مجرد أسماء لضباط من زملائه في الوحدات المختلفة، ويستطيع اللواء نصار أن يتأكد من ذلك.

فأمر اللواء نصار فوراً بتسليم عصام للمخابرات الحربية، وكانت صفعة على قفا مباحث أمن الدولة.

---

[1] الفوائد ج: ١ ص: ١٦٩.

ولم ينس ضباط مباحث أمن الدولة هذا لعصام ~، فكان المقدم محسن حفظي يسب الدين لعصام في التحقيق. ثم بناء على معلومات طرأت بعد ذلك أعيد عصام لسجن القلعة، حيث انتقم منه ضباط المباحث.

ومن الغرائب التي حكاها لي عصام القمري ~ عن هذه الفترة أن المقدم محسن حفظي استدعاه يوماً بعد انتهاء التحقيقات معه، ثم سأله عن رأيه فيه أمسلم هو أم كافر؟ وقال لي عصام ~ أنه تخوف من أن يكون هذا السؤال حيلة لمكيدة أو استدراجاً لشيء ما، فقال له: أنت أعلم بنفسك، فكرر عليه السؤال جاداً، فقال له عصام: لعلك تجهل الحكم الشرعي أو لا تفهم، فقال له محسن حفظي: أنا مطلع على كل الأدلة الشرعية، وأفهمها جيداً، فقال له عصام: إذن أنت كافر، لأنك باختيارك ضابط محارب للمسلمين في نظام مرتد، فقال له محسن حفظي: خيراً، وأمر بإعادته للزنزانة. وقال لي عصام ~: أنه لم يفهم حتى الآن –بعد مرور أكثر من سنة على هذه الواقعة– لماذا سأله محسن حفظي هذا السؤال؟

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، ويقول عز من قائل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾، ويقول الحق سبحانه: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ {١٤} وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾.

١٠- وأدرجت النيابة اسم عصام في قرار الاتهام في قضية الجهاد، ولكن لم تحضره النيابة لقاعة المحكمة –تواطؤً مع المباحث– في أول جلسة، وأحضروه هو ورفاعي طه من حبسهما –في سجن القلعة– في الجلسة الثانية.

وكشف عصام في المحكمة، هذه المكيدة، وأصر على شرح ما يعانيه في سجن القلعة من عدوان ضباط المباحث عليه.

وحاول القاضي أن يمرر الموضوع، لكن عصام أصر على الاستمرار في الكلام، وهدد القاضي عصاماً بالطرد، ولم يأبه عصام، ثم أمر بطرده فرفض عصام، وحاول ضباط الأمن المركزي أن يقتربوا من عصام في حذر، لكنه نهرهم، فخافوا وتراجعوا.

الأُسدُ تَزأَرُ في الحَديدِ وَلَن تَرى ... في السِجنِ ضِرغاماً بَكى اِستِخذاءَ[١]

وانفلت زمام الجلسة، وثارت ثائرة الإخوة المتهمين، وكنت وقتها مسؤولاً من قبل الإخوة عن إدارة الجلسة، فطلبت من الإخوة الصمت، ثم رفعت صوتي مهدداً بأنه إذا طرد عصام بالقوة، وكانوا يضعونه في قفص وحده، بعيداً عن أقفاص بقية الإخوة المتهمين، فلن تكون هناك محاكمة.

---

[١] أحمد شوقي في رثاء عمر المختار رحمه الله. الموسوعة الشعرية– أحمد شوقي.

وتوتر جو القاعة، وأدرك القاضي أنه ينظر في قضية لا سابق لها، وأنه قد ورط نفسه بالصدام مع المتهمين، وهنا تدخل المحامون لإنقاذ الموقف، فتقدموا إلى القاضي بالاعتذار وسط الصخب والضجيج، الذي حال دون سماع ما يقولون. فالتقط القاضي الخيط، وقال: إن المحكمة قبلت اعتذار المحامين، وقررت استمرار الجلسة[١].

١١– وطوال فترة السجن، لم يكف عصام عن التعلم والتعليم والتدريس، وكان أهم ما يفكر فيه هو كيف يدبر نجاة الإخوة المنتظر أن يحكم عليهم بالإعدام.

وشاء الله سبحانه وتعالى أن أتشرف بمرافقته لأشهر عديدة في سجن ليمان طره في زنزانة واحدة، وكان طوال هذه الفترة لا يكف عن إعداد التصورات للمرحلة المقبلة، ووضع الحلول العملية وإجراء الأبحاث لكثير من المشاكل الواقعية.

وقدر الله أن نفترق، فقد حكم عليّ بالسجن لمدة ثلاث سنوات، أمضيت أغلبها قبل صدور الحكم، وحكم عليه بعشر سنوات، استقبلها كالعادة بثباته وهدوئه الفريد، بل كان يثبتني ويشد من أزري ويقول لي: إني مشفق عليك مما ستحمله على كاهلك من عبء. ولم تكن هجرتي لباكستان إلا تنفيذاً للمراحل التي اتفقت عليها مع عصام ~ في السجن.

١٢– وبقي عصام في السجن لا يكف عن تدبير الخطط للهروب من السجن، وبعد عدة محاولات نجح أخيراً هو وخميس مسلم ومحمد الأسواني في إنجاز الهروب من سجن ليمان طره العتيد في ١٧ يوليو ١٩٨٨. ولم يكن هروباً عادياً، فقد سبقه إعداد طويل ومعقد، توج بالهروب، الذي اتخذ أسلوب معركة اقتحام أسوار السجن، واختراق أطواق الحراسة من حوله، ثم عبور النيل إلى الضفة الأخرى.

ودون الدخول في تفاصيل، فقد أسقط في يد وزارة الداخلية التي لم تتوقع أبداً مثل هذه الجرأة في عملية الهروب الصاخب، الذي بدأ بنزع قضبان نافذة الزنزانة، ثم أسر حراس العنبر، ثم اقتحام السور الذي يبلغ ارتفاعه قرابة أربعة أمتار بعد إلقاء القنابل الصوتية في اتجاهات متفرقة، ثم الاشتباك مع أحد حراس السور وانتزاع سلاحه منه، ثم الخروج من منطقة سجون طره في منتصف الليل وسط الحراسات المشددة.

---

[١] يذكر منتصر الزيات في بداية كتابه (أيمن الظواهري كما عرفته) عن هذه الجلسة: أنها كانت الجلسة الأولى في قضية الجهاد الكبرى، وأني كنت عائداً لتوي من سجن القلعة، وأني تحدثت للصحفيين عن مأساة منتصر في سجن القلعة، وأنه قابلني بعد ذلك في سجن ليمان طره، فشكرني على هذا الموقف. وللأسف فإن كل هذا لم يحدث. فلم تكن الجلسة الأولى، بل كانت الثانية، ولم أكن عائداً من سجن القلعة، ولكن حضرت للمحكمة من سجن ليمان طره، الذي أمضيت فيه قبل المحاكمة قرابة سنة، ولم أتحدث للصحفيين عن منتصر، لأني لم أكن أعلم أصلاً عن وجوده في سجن القلعة، وهذه الكلمة بالذات سجلتها وكالات الأنباء، ولا زالت تتكرر في المواد الإعلامية حتى الآن، ولم يرد فيها أي ذكر لمنتصر، ثم لم يقابلني في الليمان، بل لم أقابله في حياتي ولا مرة واحدة، ثم كيف يشكرني على شيء لم أفعله؟

وبعد هروب عصام القمري ورفيقيه من السجن، عبروا النيل إلى الضفة الغربية، ثم ساروا على أقدامهم وسط المزارع حتى وصلوا إلى وسط الدلتا.

ونظراً لكثرة المشي، فقد بدأت أقدام خميس مسلم في التشقق ثم التقيح، الذي أدى لإصابته بحمى ورعشة، وفي محاولة لعلاج خميس، لجأ الإخوة إلى الأخ خالد بخيت، الذي ترك لهم منزله بمنطقة مساكن إيديال بالشرابية.

ويقدر الله أن تهاجم قوة من مباحث أمن الدولة منزل خالد بخيت في فجر يوم ٢٥ يوليو ١٩٨٨ في حملة الاعتقالات الموسعة، التي أعقبت هروب الإخوة الثلاثة.

وهنا تدور معركة أخرى من معارك الشجاعة والبسالة، فبمجرد أن طرق قائد القوة -وهو عقيد بمباحث أمن الدولة- باب الشقة حتى انهارت عليه القنابل الصوتية، التي أعدها الإخوة، ثم هجم عليه عصام القمري بسكين المطبخ، ففر هارباً، وألقى مسدسه، كما ولى جنوده وضباطه الأدبار مذعورين، فالتقط عصام مسدس قائد القوة، وسارع الإخوة بالهرب من العمارة الى الشارع، وأخذوا في العدو.

وعلى ناصية الشارع وقف عصام القمري مشتبكاً بالنيران مع قوة الشرطة ليغطي انسحاب أخويه، فأصابته رصاصة في بطنه سقط فوراً على إثرها، فجاءه أخواه، يحاولان أن يحملاه، فنهاهما، وأعطاهما سلاحه، وأمرهما بمواصلة الانسحاب، وفاضت روحه إلى بارئها.

عَلَيكَ سَلامُ اللهِ قَيسَ بنَ عاصِمٍ   وَرَحمَتُهُ ما شاءَ أَن يَتَرَحَّما
فَما كانَ قَيسٌ هُلكُهُ هُلكُ واحِدٍ   وَلَكِنَّهُ بُنيانُ قَومٍ تَهَدَّما[١]

ويكفي للتدليل على مدى إحباط الوزارة، تلك الواقعة التي حكاها نبيل نعيم، حيث حدثني أنه قال لضابط المباحث بسجن ليمان طره، عقب الحادث، بسخريته المعهودة: طبعاً سينفونك إلى الصعيد الآن؟، فرد عليه الضابط بثقة: أبداً لن يستطيعوا، إن عليهم أن يعطوني وساماً، لأني قد حافظت على عصام القمري طوال هذه السنوات في هذا السجن، وفعلاً لم ينقل الضابط المذكور من وظيفته!

كان هذا بعضاً من سيرة هذا البطل، الذي لم يأخذ حقه في الدنيا، والذي أشهد أن الحركة الإسلامية لم ترزأ في مثله في الثلاثين سنة الأخيرة، وهذه شهادة رجل عايشه في أحلك الظروف، وشاركه لأشهر عديدة زنزانة واحدة، وهي أيضاً شهادة رجل تقلبت به الأحوال، ومرت عليه الأزمان، وتنقل في أرض الله الواسعة، والتقى وتعامل مع الناس، وخبرهم وعاينهم.

ومارست الرجال ومارسوني   فمعوج علي ومستقيم[٢]

---

[١] الشعر لعبدة بن الطبيب يرثي قيس بن عاصم. الموسوعة الشعرية- عبدة بن الطبيب.

[٢] ديوان الحماسة- وقال قيس بن زهير يرثي حذيفة وحملا ابني بدر الفزاريين ج: ١ ص: ١٦٤.

ومما شرفني -وأسأل الله أن يجعلني له أهلاً- ما أخبرني به أخي سيد موسى[1] ~، أن عصام القمري أرسل إليهم من السجن، وقال لهم: اذهبوا واعملوا مع أيمن الظواهري، فهو الشخص الوحيد الذي أثق به.

[1] الأخ سيد موسى ~ كان رائداً في القوات الخاصة، وأخرج من الخدمة العسكرية، لأنه كان من مجموعة عصام القمري ~، وقد هاجر لباكستان مهاجراً ومجاهداً ومرابطاً، إلى أن توفي بسرطان الطحال، تقبل الله منه هجرته وجهاده، وألحقنا به على خير.

الفصل الرابع: طه البوتلي- أصالة من الصعيد

دمنا لو مر ما كانت ولغت في الجرح الذؤبان
فجر أحزانك يا شعبي كم هد قواك الطغيان

طه البوتلي اسم لا يمحى من ذاكرتي. لا أزال أذكره بعفويته وبساطته ومرحه وضحكته الرنانة وخدمته للجميع ولهجته الصعيدية الأصيلة، ولكن كل هذا كان يخفي وراءه مأساة طه محمود حسين حسنين البوتلي من طما بمحافظة سوهاج.

قصة من ملايين القصص المؤلمة في مصر المتألمة، والتي هدها الظلم والعسف والتجبر على البسطاء والضعفاء.

كان طه في منتصف الثلاثينيات لما دخل السجن، أما لماذا دخل السجن فهذه المأساة المضحكة المبكية من مآسي مصر، التي وصفها أبو الطيب المتنبي بقوله:

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

كان طه قد أنهى خدمته الإلزامية الطويلة في الجيش المصري، حيث خدم في القوات الخاصة في أثناء حرب الاستنزاف ثم حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، ثم عمل موظفاً بالمجلس المحلي بطما، وانضم للحزب الوطني (حزب الحكومة) وكان أحد نشطاؤه، وكبقية الشباب التائه لم يكن يرى عيباً ولا عاراً في تعاطي الحشيش، ونظراً لما حباه به الله من قوة جسدية وبنيان رياضي، كان يدرب رياضة الكاراتيه في أحد النوادي الرياضية، ومن هنا بدأت مأساته.

وذلك لورود معلومات من مباحث أمن الدولة –بعد مقتل السادات– بأن أحد المشتبه في انتمائهم للجماعة الإسلامية طالب في كلية الهندسة وفي العشرينيات من عمره، ويدرب بعض الشباب على الكاراتيه في طما، وصدرت الأوامر لمركز الشرطة بالقبض على هذا المشتبه فيه.

ولم يجد مخبرو الشرطة مدرباً إلا طه البوتلي رغم الخلاف التام بين شخصيته وشخصية المشتبه فيه، فالمشتبه فيه طالب جامعي في العشرينيات وأعزب ولم يلتحق بالجيش ومنتم لجماعة إسلامية، وطه أنهي خدمته العسكرية، ولم يلتحق بالجامعة، وموظف حكومي ومتزوج وعضو في الحزب الوطني وغير ملتزم في سلوكه.

ورغم كل ذلك اعتقله مخبرو الشرطة، الذي كان يشاركه العديد منهم في تعاطي الحشيش، حتى لا يتهموا بالتقصير، وبدأت رحلة المتاعب لطه.

أخبروه أن المسألة بسيطة، وستحل في دقائق في مركز الشرطة، وفي مركز الشرطة أخبروه أن المسألة بسيطة، وستحل في مديرية الأمن في عاصمة المحافظة، وفي عاصمة المحافظة أخبروه أن الأمر بسيط، وسيحل في القاهرة، وبدأت رحلة طه البوتلي إلى العالم الآخر، الذي يسميه المصريون في دعاباتهم: وراء الشمس.

ولفقوا له محضر تحريات أن اسمه وإن كان طه محمود حسين حسنين البوتلي إلا أن له اسم شهرة رباعي، لا يمت لاسمه الأصلي بصلة، وهو اسم المشتبه فيه المطلوب.

وقد تبدو هذه دعابة سخيفة لمن يسمعها لأول مرة، ولكنها في مصر -بلد العجائب- أمر عادي جداً، حيث لا يساوي الإنسان إلا قيمة الحبر الذي يكتب به محضر التحريات. أما حقوق الإنسان وحرماته فهي للباشوات والبكوات -الذين لا يزالون يستخدمون هذه الألقاب حتى اليوم رغم إلغائها رسمياً- ولكنها ليست للمخلوقات الأخرى التي يجمعها اسم (الشعب المصري).

أذكر أنه في أثناء اعتقالي انفرادياً في سجن القلعة، أن أحضروا طياراً في القوات المسلحة في الزنزانة التي أمامي، لصلته بالشهيد -كما نحسبه- محمد عبد السلام فرج ~، وأخبرني هذا الطيار أنهم في التحقيق معه قالوا له: هل تريد أن تتعاون معنا؟ فنعاملك كالبشر (لأنه ضابط!)، أم تريد أن نعاملك كبقية المخلوقات الأخرى التي في السجن!!

المهم. نعود لطه البوتلي. مر طه البوتلي بدورة التعذيب كاملة، ولبنيانه الجسماني القوي فقد زادوا له من الجرعة. ورغم القبض على المشتبه فيه الأصلي، ورغم أن طه قابله بعد ذلك في السجن، إلا أن الوصمة الأولى لمخبري الشرطة في بلده بقيت ملتصقة به، وحول طه البوتلي لمحكمة أمن الدولة العليا طوارئ، التي تنظر في أكبر قضية في تاريخ القضاء المصري، بتهمة أنه من قيادات تنظيم الجهاد.

وفي السجن أفاق طه على حقيقة النظام وحقيقة الحزب الوطني، بل وعلى حقيقة ما يجري في مصر. وكان مظهر طه مختلفاً عن معظم المتهمين، فكان حليقاً ومدخناً، ولكنه كان محبوباً من الجميع، لرجولته وأخلاقه، وحتى لا يؤذي أحداً بتدخينه، فقد سكن في زنزانة وحده، إلا أن هذه الزنزانة كانت مخزن العنبر ومنتدى الجميع، نظراً لكرم طه وأريحيته.

وحاولت المباحث –التي جلبت المصائب على طه– أن تجنده في السجن، على اعتبار أنه ليس من الجماعات الإسلامية، ووعدوه، ومنوه، وطلبوا منه أن يطلق لحيته، ويكف عن التدخين، ويحاول أن يتخلل المعتقلين، وينقل أخبارهم لمباحث السجن، ولكن طه برجولته وشهامته، واجههم بشجاعة، ورفض في إباء هذا المسلك، وحتى لا يتهم من بقية إخوانه المساجين بالتجسس عليهم أبى أن يطلق لحيته، أو يكف عن التدخين، هكذا صور له تفكيره البسيط.

وتعرفت على طه في السجن، وبدأت معرفتي به عن قرب، حينما رحلت من عنبر التجربة في ليمان طرة إلى عنبر التأديب أنا وناجح إبراهيم بتهمة التحريض على الإضراب في عنبر التجربة، وحيث أن الزنزاين كلها كانت ممتلئة، فلم تكن هناك زنزانة فيها فراغ إلا زنزانة طه، فسكنا معه، وكان ذلك في رمضان، وكانت الزنازين مغلقة عقوبة لنا، فكان طه عند الإفطار يشعل لفافة تبغ، ويضع فمه على الفتحة الصغيرة في باب الزنزانة، وينفث منها دخان اللفافة، حتى لا يؤذي مشاعرنا.

ونمت بيني وبينه صداقة وأخوة، لما لمست فيه من رجولة وصدق وكرم، وكانت زنزانته مجلس الشاي لكثير من إخوانه، وكان يصفني بشيخ العرب، وكان يصارحني في أوقات صفائه، بأن السجن جاء عقوبة قدرية له على سلوكه قبل السجن، وأنه عاهد الله سبحانه على التوبة من كل ما سلف منه، وأنه اكتشف حقيقة الحزب الوطني وحقيقة دجله ونفاقه، وندم على انتمائه لأمثال هذه الأحزاب.

وفي أول جلسة للمحكمة تسلق طه البوتلي قضبان القفص الأول للمتهمين التي تمتد للسقف، وصرخ في القاضي: أنا المظلوم طه محمود حسين حسنين البوتلي، وقد قاتلت في سيناء دفاعاً عن مصر، وأريد إطلاق سراحي، فلم أرتكب أية جريمة.

وسمعت أحد الإخوة الذين لا يعرفونه، ينظر إليه مستغرباً، ويقول لأخ آخر: لماذا يتصرف هذا الأخ هكذا؟ فأجابه الآخر بأسى: اتركه يفعل ما يريد.

ورغم خلو أوراق القضية من أي شيء يدين طه البوتلي إلا ذلك المحضر السخيف، فلم يفرج عنه القاضي، وظل في السجن ثلاث سنوات كاملة، بعيداً عن بلده بمئات الكيلومترات.

وفي المحكمة طلب طه شهادة اثنين من أبناء عمومته، فجاءا للمحكمة مرتبكين وجلين، ليشهدا أغرب شهادة سمعت بها، جاءا ليشهدا أن هذا الماثل أمامهما هو طه البوتلي وليس له اسم شهرة بل ولا أي اسم آخر.. مضحكات مصر المبكيات!!

وأفرج عن طه البوتلي، وبقيت بعده في السحن أقل من شهر ثم أفرج عني، وفي أول زيارة لطه للقاهرة بعد الإفراج عني بمدة بسيطة، ذهب لسجن ليمان طرة، وعبر علاقاته بالحراس طلب منهم توصيل السلام لإخوانه المعتقلين وخاصة لي، فأخبره الرقباء على بوابة السجن أني قد أفرج عني، وفوجئت بأحد الرقباء يتصل بي بالهاتف من دكان مقابل للسجن، ويخبرني أن طه البوتلي يريد أن يحادثني، وقال لي لا بد أن ألقاك، وجاء لزيارتي في عيادتي. وكنت في هذه الفترة مراقباً –كما ذكرت– مراقبتين: أحدهما علنية

(المراقبة الجبرية) وأخرى سرية، وسألته: ألا تخشى يا طه من مغبة الاتصال بي؟ فقال لي بعفويته: يا عمي.. ضربوا الأعور على عينه، قال: خربانة خربانة. وأعجبت بوفائه وشهامته، وقلت له: يا طه أنا مراقب مراقبة جبرية ومحدد الحركة، فقال لي: إن شاء الله ستنتهي هذه الشدة، وستسافر، ولكن إذا سافرت فلا تنساني، وحاول أن تدبر لي عقد عمل في السعودية، فأحوالي ضيقة.

ولم أستطع، ولم أُرِد أن أوفر له ذلك، والآن -بعد خمسة وعشرين عاماً من هذا الطلب- أرجو من طه أن يسامحني، وأن يدرك أني لم ألب طلبه إلا حرصاً عليه، حتى لا تتجدد مأساته.

وأذكر أنه كان لطه صديق آخر معتقل في سجن استقبال طره، لا أذكر إلا أن اسمه عم أحمد، وكان تهمته الاتجار بالسلاح، وكانا يلتقيان في جلسات المحكمة، وقد انسجما فكلاهما صعيدي، وكلاهما لا ينتمي لجماعة إسلامية، وكان ينتحيان جانباً في ممر خلف أقفاص المتهمين، حيث يتجاذبان أطراف الحديث.

وفي مرة بعد عودتنا من المحكمة قال لي طه: أتدري ماذا قال لي عم أحمد اليوم؟ قلت له: ماذا قال لك؟ قال: لقد فوجئت بعم أحمد أثناء جلوسي معه، وقد امتلأت عيناه بالدموع، وقال لي: انظر لهذا الضابط الذي انتدب لحرس المحكمة اليوم، لقد مزق جسدي بالسياط في التحقيق.

وفي أثناء اعتقال عم أحمد حدث اشتباك بالأيدي بين بعض الإخوة وأحد الضباط الذين تعدى عليهم، وقررت إدارة سجن استقبال طره، القيام بحملة عقاب (تكدير) لكل المعتقلين في سجن استقبال طره، واستدعت مباحث السجن عم أحمد، وقالوا له نحن الآن سنخضع هؤلاء المعتقلين من الجماعات الإسلامية لحملة عقاب لمدة شهر، ونريد أن ننقلك من هنا، لأنك لست منهم، فقال لضابط المباحث ببساطة الصعيدي وذكائه وأخلاقه: إلى أين ستنقلونني؟ قال له الضابط: لسجن مزرعة طره، قال له عم أحمد: يعنى حاتنقلني من سجن لسجن، إحنا يا بيه عيب عندنا اللي يفوت ناسه اللي أكل معاهم عيش وملح.

وتحمل عم أحمد حملة التكدير والعقاب لمدة شهر، حتى لا يفارق إخوانه في السجن في وقت شدتهم!!

هل يمكن للذين اكتسحهم تيار التفاهمات والتراجعات وحساب المكاسب والخسائر والتماشي مع العولمة الأمريكية والتصالح مع أكابر المجرمين ومغازلة سفلة الجلادين، أن يتعلموا من هذه القيم والشمائل شيئاً؟

الفصل الخامس:
فتحي رضوان- عرفان في زمن الجحود

إِذا أَلفَيتَ حرّاً ذا وَفاءٍ   وَكَيفَ بِهِ فَدونك فَاِغتَنمهُ[١]

الأستاذ فتحي رضوان ~ من قيادات الحزب الوطني الذي أنشأه مصطفي كامل رحمه الله، وهو حزب كان يرى الوطنية بمعنى الانتماء لدولة الإسلام أي الخلافة العثمانية، وخليفة مصطفى كامل هو محمد فريد ~ صاحب كتاب (تاريخ الدولة العلية العثمانية) الذي يقول فيه عن سقوط الدولة العباسية في بغداد:

> *"ومن ثم لم يكن للإسلام بعدها دولة عظيمة، تحمي بيضته، وتضم أشتاته. بل ضاعت وحدته الملكية واستقل كل حاكم بما وكل إليه أمره من العمالات والأقاليم، واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن قيض الله للإسلام تأسيس الدولة العلية العثمانية، فجمعت تحت رايتها أغلب البلاد الإسلامية، وفتحت كثيراً من الأقاليم، التي لم يسبق تحليها بحلية الدين الحنيف، وأعادت للإسلام قوته، وأعلت بين الأنام كلمته"[٢].*

ولذا كان الحزب الوطني دائماً قريباً من التيار الإسلامي. وقد كان الأستاذ فتحي رضوان من معارضي أنور السادات، واعتقله في حملة الاعتقالات التي قام بها في سبتمبر عام ١٩٨١م، وقال عنه بمبالغاته المثيرة للسخرية: الرجل الذي ظل يخدعنا لمدة سبعين سنة!!

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يعتقل فيها الأستاذ فتحي رضوان، ولكنه كان هذه المرة قد تخطى السبعين عاماً. وأفرج حسني مبارك عن الأستاذ فتحي رضوان ضمن من أفرج عنهم بعيد مقتل أنور السادات.

---

[١] البيت لأمية الداني. الموسوعة الشعرية– أمية الداني.

[٢] تاريخ الدولة العلية العثمانية ج: ١ ص: ١١٤.

وتطوع الأستاذ فتحى رضوان ليترافع عنى وعن الدكتور صلاح ميهوب[١] في قضية الجهاد، وكان ثالث محام يترافع عني بعد الأستاذين محفوظ عزام ومحمد عماد الدين السبكي. وذلك نظراً لصلته الوثيقة بوكيلي وخالي الأستاذ محفوظ عزام[٢].

ولازلت أذكر حتى الآن مرافعته المتميزة. جاء الأستاذ فتحي رضوان لقاعة المحكمة يوم المرافعة، وقد بدت عليه آثار السنون، ونظرت إليه متعجباً كيف كان حاله بخطواته البطيئة وعمره المتقدم مع مصاعب الاعتقال؟

وما أن بدأ الأستاذ فتحي رضوان في الترافع حتى تحول إلى خطيب متدفق مفوه، يذكر بالرعيل الأول من خطباء مصر، قبل أن تتدهور حالة اللغة العربية، كما تميز كمحام متمكن ملم بتفاصيل القضية، يتدفق في الدفاع دون النظر لأوراق أو مذكرات، اللهم فقط إلا للاستشهاد ببعض أقوالي.

وتحدث الأستاذ فتحي رضوان عن الشق الموضوعي في القضية فأظهر بوضوح التناقضات والتخبط في الأدلة المقدمة في ملف القضية، ثم انثنى للحديث عني، فقال إنه جاء للدفاع عني متطوعاً، لأنه لا يترافع إلا في قضايا الرأي التي يؤمن بعدالتها، وأنه لا يعرفني شخصياً، ولكنه يعرف أخوالي من عائلة عزام، وإن كان النسب لا يعلي من شأن المرء، ولكن يعلي من شأنه عمله، إلا أن عائلة عزام هي إحدى عائلتين يعتز بمعرفتهما في مصر، أما الأخرى فهي عائلة علوبة.

ثم تحدث عن التعذيب الذي وقع على المتهمين، فقال: أنا لن أحدث المحكمة عن التعذيب الذي وقع على هؤلاء الشباب، ولكني سأتحدث عما وقع لي، وأنا شيخ قد تخطيت السبعين، وحينئذ يمكن للمحكمة أن تدرك ما وقع بهؤلاء الشباب. وذكر كيف أنه رغم شيخوخته ألقي في زنزانة وحده دون طعام ولا ماء لمدة يوم كامل، وأنه شاهد على وفاة عبد العظيم أبو العطا[٣] في مستشفى السجن لحرمانه من الدواء.

---

[١] الدكتور صلاح ميهوب كان وقتها مدرساً للرياضيات بكلية العلوم بجامعة القاهرة. وقد اتهمته النيابة بانتمائه لتنظيم يرأسه الاستاذ عصام العطار؛ المرشد العام الأسبق للإخوان المسلمين في سوريا، الذي أدرج اسمه أيضاً في قائمة المتهمين في قضية الجهاد!!

[٢] ادعى منتصر الزيات أنه موكل عني في بعض القضايا، ولم أوكل عني أحداً -بعد خروجي من السجن- سوى خالي الأستاذ محفوظ عزام، الذي يحمل توكيلاً عاماً مني. وللأسف فإن منتصر الزيات لم يكن لي صديقاً، ولا زميلاً في السجن ولا خارجه، ولا وكيلاً عني. ولم أناقشه بل لم أصافحه في حياتي مرة واحدة. وهذا يدعوني أن أنبه القراء الكرام؛ أن كثيراً يكتب عن العبد الفقير، أو يقال عنه، وليس من شأني أن أرد على كل ما يقال، أو أن أجعل من نفسي قضية، ولكني أنبه بل وأؤكد أن سكوتي عما يقال لا يعد إقراراً له بحال، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

[٣] عبد العظيم أبو العطا كان أميناً عاماً لحزب مصر الذي أنشأه السادات، ثم اختلف مع السادات، لما قرر السادات أن ينشأ حزباً آخر هو الحزب الوطني، وأهمل حزب مصر، وأصبح من معارضي السادات.

ثم انتقل الأستاذ فتحي رضوان –رحمه الله- للحديث عن الشق العام في المرافعة، فتحدث عن الأحوال السياسية في المنطقة، ثم انفعل، وصاح بصوت متهدج وقد أوشك على البكاء: لماذا تجري هذه الأحداث هنا وفي لبنان وفي إيران وفي كل مكان؟ لأن المارد قد استيقظ. إنه الإسلام يتحرك.

وسارع القاضي ليهدأ من روعه قائلاً: هل ترغب في الاستراحة يا أستاذ فتحي؟ هل نحضر لك مقعدا؟ ولكنه شكره، وأنهى المرافعة.

وتأثرت من هذه المرافعة من شخص لا يعرفني، يحمل كل هذه المشاعر نحو الصحوة الإسلامية الجهادية. فطلبت من أهلي أن يرسلوا إليه بهدية معنوية، واخترت كتاب (الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر) للدكتور محمد محمد حسين رحمه الله[١].

وبعد أن من الله علي بالإفراج، ذهبت للأستاذ فتحي رضوان –رحمه الله- في مكتبه لأشكره، فاستقبلني بكرم وحفاوة، وقال لي: إنه يشكرني على هديتي التي أرسلتها له، وأنه يعتبر أن مجرد شكري وامتناني له تقدير كبير له، وأنه هو في الحقيقة المدين لنا بالشكر، فقد أعد السادات سجن الاستقبال لمعارضيه، وكان ينوي أن يحبسهم فيه، ولا يخرجهم منه، وأنكم أنتم (يقصد خالد الإسلامبولي ورفاقه –رحمهم الله- والشباب المجاهد) الذين أخرجتمونا من السجن.

فتأثرت جداً من هذا العرفان من هذا السياسي المناضل المحنك، وقارنته –بمزيد من الأسف- بقادة حركات إسلامية أخرجهم خالد الإسلامبولي ورفاقه الأبرار –رحمهم الله- من السجن، ثم زعموا أن قتل السادات جريمة، وأن السادات قتل شهيداً. ثم أقارنه الآن بمن يتسول الإفراج من الحكومة بإظهار تأسفه على قتل السادات.

تَعالى اللهُ يا سَلمَ اِبنَ عَمرٍ — **أَذَلَّ الحِرصُ أَعناقَ الرِجالِ**
هَبِ الدُنيا تُساقُ إِلَيكِ عَفواً — أَلَيسَ مَصيرُ ذاكَ إِلى زَوالِ
فَما تَرجو بِشَيءٍ لَيسَ يَبقى — وَشيكاً ما تُغَيِّرُهُ اللَيالي[٢]

---

[١] هذا المرجع القيم قرأته مبكراً ربما في المرحلة الثانوية، واستفدت منه، وكان السبب في تعرفي عليه، أن أحد إخواننا عرض علينا قائمة بكتب كمنهج دراسي اختاره الأستاذ الشهيد –كما نحسبه- سيد قطب –رحمه الله- للشباب، وكان من ضمنها هذا الكتاب.

[٢] الشعر لأبي العتاهية مخاطباً سلماً الخاسر. الموسوعة الشعرية- أبو العتاهية، الأغاني- أخبار سلم الخاسر ونسبه ج: ١٩ ص: ٢٨٣.

الباب الثالث
العودة للميدان

الفصل الأول:
أفغانستان- الهجرة والإعداد

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

لك البشرى ترجل جوادك أيها الرجل

عن

فإن الإخوة للميدان قد وصلوا

الغياب

ومن بوابة للتاريخ قد

الأفغان دخلوا[1]

١- بعد أن أنعم الله -سبحانه وتعالي- علي بالخروج من السجن -بقوته وقدرته وحده- كان أول ما فكرت فيه هو الخروج من مصر وتأسيس قاعدة للعمل الجهادي بعيداً عن متناول النظام، بناء على المراحل التي اشتركت مع عصام القمري ~ في رسمها.

وتأكد لي ضرورة ذلك، لما وضعتني الحكومة تحت مراقبتين: أحدهما علنية، وهي المراقبة الجبرية، تقوم بها الشرطة العادية، والأخري سرية، تقوم بها مباحث أمن الدولة. وكان معنى ذلك واضحاً جداً بالنسبة

[1] الأبيات من قصيدة بعنوان (الفارس المصلوب) للدكتور يوسف محيي الدين أبو هلالة في مدح الشيخ عبد الله عزام ~.

لي؛ أنني على رأس قائمة الاعتقال في كل حملة اعتقالات. وهذه المراقبة هي وسيلتهم لضمان القبض علي فور صدور قرار الاعتقال.

وكان الرضوخ لذلك النظام معناه إما أن أهجر العمل الجهادي تماماً، حتى يتأكد النظام من مراقبته وتحقيقاته أنني قد رجعت عن الجهاد وتوليت عنه، وإما أن يُهدم كل ما أبنيه وإخواني مع كل حملة اعتقالات، قد تتلوها محاكمات ثم أحكام بالسجن.. إلى آخر القصة المعروفة.

أما إذا أبيت الرضوخ لذلك النظام وقررت مواصلة العمل الجهادي فكان أمامي واحد من أمرين: الأول أن أختفي، وأعيش تحت الأرض، وكان هذا التصرف سيثير أجهزة الأمن إثارة شديدة، ويستفزها لشن حملة بحث واسعة، قد تمتد لاعتقال كل من على صلة بي، وتعذيبهم إن استدعى الأمر، حتى يصلوا إلي ليعتقلوني، حتى ولو لم أفعل أي شيء. ناهيك عن عدم توفر وسائل هذا الاختفاء وأنا ما زلت حديث عهد بحرية. وكان الأمر الثاني وهو الحل المنطقي، وهو سنة الأنبياء والمرسلين والصالحين؛ الهجرة في سبيل الله.

لحى الله مجهود الفؤاد من الأذى   إذا هو لم يستخلص العزمَ شافيا

فما أحرزَ الآمالَ مثلُ مُهاجرٍ   إِلَيْهَا وفاتَ النُّجْحَ من بات ثاويا[١]

٢– وعزمت على التوجه لباكستان لخبرتي السابقة بها، ولم أستطع مغادرة مصر إلا بعد قرابة ستة أشهر، بعد أن يسر الله لي الإفلات من الحصار الذي ضربته المباحث حولي لمنعي من السفر، وتوجهت لجدة، حيث اضطررت للبقاء فيها سنة، ريثما أرتب بعض الأوضاع الخاصة بالعمل، ومنها توجهت لباكستان.

٣– بدأت صلتي بأفغانستان صيف عام ١٩٨٠ بغير ترتيب مني، حينما كنت أعمل بصفة مؤقتة مكان أحد زملائي في مستوصف السيدة زينب التابع للجمعية الطبية الإسلامية، وهي أحد أنشطة الإخوان المسلمين. ففي إحدى الليالي كلمني مدير المستوصف –وهو من الإخوان المسلمين– عن رأيي في السفر لباكستان للعمل في المساعدة الجراحية للمهاجرين الأفغان، فوافقت على الفور، إذ وجدت في هذا العرض فرصة ذهبية للتعرف على ميدان من ميادين الجهاد، التي يمكن أن تكون رافداً وقاعدة للجهاد في مصر والعالم العربي؛ قلب العالم الإسلامي، حيث تدور معركة الإسلام الإساسية.

٤– وكانت مشكلة إيجاد قاعدة آمنة للعمل الجهادي في مصر تشغلني كثيراً، بالنظر إلى الملاحقات الأمنية التي تتعرض لها الحركة الإسلامية، وطبيعة مصر الجغرافية التي يسهل التحكم فيها، حيث يجري نهر النيل بواديه الضيق بين صحرائين ممتدتين لا زرع فيهما ولا ماء، تلك الطبيعة التي جعلت نشوء حرب

---

[١] الشعر للحيص بيص. الموسوعة الشعرية– الحيص بيص.

عصابات في مصر أمراً غير ممكن، وبالتالي فرضت على سكان هذا الوادي الرضوخ للسلطة المركزية، التي فرضت عليهم نظأما صارماً بدءاً من تنظيم الري إلى السخرة والتجنيد الإجباري.

وكان المتنفس هو الانفجارات المتباعدة، كالبركان الخامد الذي لا يدري أحد متى سيقذف بحممه، أو كالزلزال الذي لا يعلم أحد متى ترتجف الأرض -بما عليها- من ضربته، لذا لم يكن غريباً أن يكون تاريخ الحركة الإسلامية المعاصرة في مصر هو تاريخ حملات القمع المتعاقبة منذ الأربعينيات حتى اليوم.

لذلك جاءت هذه الدعوة -للمشاركة في العمل الطبي للمهاجرين الأفغان- على قدر، ووافقت مني رغبة جادة في التعرف على الميادين المناسبة لإقامة قاعدة آمنة لاستمرار العمل الجهادي في مصر، وخاصة في عهد أنور السادات حينما ظهرت ملامح الحملة الصليبية الجديدة واضحة لكل ذي رأي، بادية لكل مهتم بشؤون أمته.

٥- وبالفعل سافرت إلى مدينة بشاور الباكستانية بصحبة زميل متخصص في التخدير، ثم ما لبث أن لحق بنا زميل آخر متخصص في جراحة التجميل، وكنا نحن الثلاثة أول عرب يصلون للعمل الإغاثي للمهاجرين الأفغان.

وكان قد سبقنا إلى بيشاور الأستاذ كمال السنانيري ~، وكانت بصماته تسبقنا حيث نذهب، فالمستشفى الذي بدأنا العمل فيه كان هو الرائد في إنشائه، وقادة المجاهدين الذين قابلناهم كانوا يحدثوننا عن مساعدته لهم وعن مجهوده في التوحيد بينهم. وكمال السنانيري رغم أني لم التق به، إلا أن أعماله وأنشطته كانت تدل على بذله وعطائه في سبيل الله.

٦- ولذلك لم يكن غريباً أن يقتل كمال السنانيري في حملة الاعتقالات التي بدأت بقرارات التحفظ في سبتمبر عام ١٩٨١. حيث قتل في سجن استقبال طره تحت التعذيب، الذي كان يمارسه عليه حسن أبو باشا -مدير إدارة مباحث أمن الدولة ثم وزير الداخلية- بنفسه. وقصة قتل كمال السنانيري ~ لا بد لها من وقفة.

اعتقل كمال السنانيري ~ في سبتمبر عام ١٩٨١، وبعد اغتيال أنور السادات -في أكتوبر عام ١٩٨١- أدرك النظام أن أجهزة مباحث أمن الدولة والمخابرات الحربية والمخابرات العامة كانت آخر من يعلم عما يدور داخل مصر من غضب مكتوم.

بل بلغ الأمر بجهل مباحث أمن الدولة بما يدور في مصر أنها طمأنت السادات بأن حملتها -لاعتقال المعارضين في سبتمبر عام ١٩٨١- قد أمنت البلد لصالحه من المعارضة السياسية عامة والإسلامية خاصة.

لذا سارعت المباحث إلى بدء تحقيق جديد مع الإخوان المسلمين، رغم قناعتها السابقة أنهم مسالمون، وركز التحقيق على مجموعة من الصف الثاني والثالث، وكان من أهمهم الأستاذ كمال السنانيري ~ لعدة اعتبارات، منها أن المرشد عمر التلمساني كان كهلاً لا يحتمل التعذيب بالإضافة لوضعه المعنوي كمرشد

عام للإخوان المسلمين، الأمر الذي قد يورط النظام في مشاكل، كما أن النظام كان يعلم أن مفاتيح الأمور وتفاصيل أنشطة الإخوان لم تكن بيد عمر التلمساني، ومنها النشاط الكبير الذي كان يقوم به كمال السنانيري في تحقيق الاتصال بين الإخوان في مصر والتنظيم الدولي في الخارج، ورحلاته المتكررة في هذا الصدد، ومنها تبنيه لقضية أفغانستان وريادته في دعم الجهاد الأفغاني والاتصال بقادته، ومنها موقع كمال السنانيري داخل تنظيم الإخوان المسلمين.

ومن الجدير بالذكر أن تركيبة الإخوان المسلمين تركيبة عجيبة، فالقيادة الظاهرة كان يمثلها المرشد العام (عمر التلمساني) أمام الناس والنظام، أما القيادة الحقيقية فقد كانت في يد مجموعة النظام الخاص من أمثال مصطفى مشهور والدكتور أحمد الملط والأستاذ كمال السنانيري رحمهم الله. ومن هنا اقتنعت مباحث أمن الدولة أن الإخوان المسلمين لو كان لهم تنظيم سري فسيكون سره عند الأستاذ كمال السنانيري ~.

وبدأ التحقيق مع كمال السنانيري وحشياً، وحكى لي الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح –وكان زميلاً لي في كلية طب القاهرة– أثناء حديث بيننا عبر نافذتي زنزانتينا في معتقل القلعة، كيف أن كمال السنانيري أخذ من بين إخوانه –ومنهم عبد المنعم أبو الفتوح– من إحدى الزنازين في سجن استقبال طرة، وكان يرتدي جلباباً وعباءة، ثم لم يره عبد المنعم أبو الفتوح بعد ذلك إلا في مبنى المدعي العام الاشتراكي، حيث كان جسمه متورماً، وتبدو عليه آثار التعذيب الشديد، وقال لهم إنه يتعرض لتعذيب لم يتعرض له إبان عهد عبد الناصر، ثم ذكر هذا التعذيب للمحقق التابع للمدعي العام الاشتراكي.

وبعد ذلك بمدة أخبر أحدُ الرقباء في السجن عبدَ المنعم أبو الفتوح: أن أحد إخوانهم قد قتل اليوم من التعذيب، وتبين له بعد ذلك أنه كمال السنانيري.

كما حكى لي الأستاذ حامد العدوي[١] –وكان موجوداً أثناء تعذيب الأستاذ كمال السنانيري ~ في آخر ليلة من عمره– أن حسن أبو باشا كان يعذب السنانيري ~ تعذيباً شديداً، ويسأله بإلحاح من هو المرشد السري؟ وكان السنانيري يجيب بصوت شديد الإنهاك: ليس هناك مرشد سري.

كما أن الأخ طلعت فؤاد قاسم[٢] –وكان يشغل الزنزانة المجاورة للسنانيري– في سجن استقبال طرة، أخبرني أنه سمع ضجة ذات ليلة، فتسلق باب الزنزانة لينظر من الفتحة التي أعلاه، فرأى مأمور سجن استقبال طره العقيد محسن السرساوي، وهو يقول في هلع: أين زنزانة الشهيد؟ ففتحوا زنزانة كمال السنانيري المجاورة لزنزانة طلعت فؤاد، وأدخلوا فيها جثة. وهذه الرواية تدل على أن السنانيري ~ قد قتل خارج زنزانته، وليس فيها كما تدعي رواية وزارة الداخلية.

---

[١] حامد العدوي كان من الناشطين الإسلاميين في العمل الدعوي بكلية الزراعة بجامعة القاهرة، وبعد تخرجه شملته اعتقالات المباحث بعد مقتل أنور السادات، وكان حسن أبو باشا يتولى التحقيق معه وتعذيبه.

[٢] طلعت فؤاد قاسم اختطفته أمريكا من كرواتيا، وسلمته إلى مصر عام ١٩٩٥.

وأعلنت وزارة الداخلية أنه انتحر بشنق نفسه في ماسورة تصريف حوض المياه في زنزانته الانفرادية بواسطة حبل (الروب)!! الذي كان يرتديه، بعد أن كتب على جدار الزنزانة:

"قتلت نفسي لأحمي إخواني" .

والعجيب أن الإخوان المسلمين –رغم يقينهم بكل تلك الحقائق المعروفة– لم يتحركوا للقصاص لدم السنانيري –ولا أظنهم سيتحركون– رغم علمهم التام بتفاصيل قتله، ولو حتى برفع دعوى قضائية ضد المسؤولين عن قتله، وهم معروفون، وإثبات الواقعة عليهم سهل، فقد دخل كمال السنانيري السجن على قدميه وخرج جثة هامدة، فمأمور السجن ومصلحة السجون ووزارة الداخلية مسؤولون عما حدث، والصفة التشريحية للجثة ستدحض بجلاء أي قصة كاذبة، كتلك التي اختلقتها وزارة الداخلية. أسأل الله أن يعيننا على الأخذ بثأره وثأر كل شهداء المسلمين من الأمريكان واليهود وحلفائهم وعملائهم.

٧– وباحتكاكي بساحة الجهاد الأفغاني تبين لي منذ عام ١٩٨٠ مدى ثراء هذه الساحة ومدى النفع الذي يمكن أن تقدمه للأمة المسلمة عامة وللحركة الجهادية خاصة، وأدركت ضرورة الاستفادة من هذه الساحة، ولذا بعد أن مكثت فيها –أول مرة– قرابة أربعة أشهر عدت مرة أخرى في مارس عام ١٩٨١، ومكثت قرابة شهرين، اضطررت بعدها إلى العودة لمصر نظراً للظروف الضاغطة هناك.

ثم شاء الله سبحانه –وهو المحمود على السراء والضراء– أن أمكث في السجن بمصر ثلاث سنوات، انتهت أواخر عام ١٩٨٤، ولكن نظراً لظروف خاصة بترتيب أوضاعي لم أتمكن من العودة إلى ساحة الجهاد الأفغاني إلا منتصف عام ١٩٨٦.

وخلال احتكاكي وتعاملي مع العاملين في هذه الساحة اتضحت لي حقائق في غاية الخطورة لا بد من تسجيلها:

أ– إن الحركة الجهادية في حاجة إلى ساحة جهادية، تكون لها بمثابة المحضن الذي تنمو فيه البذرة النابتة، وتكتسب فيها خبراتها العملية والقتالية والسياسية والتنظيمية.

وكان الاخ الشهيد –كما نحسبه– أبو عبيدة البنشيري ~ يقول:

"لقد زاد عمري في أفغانستان مائة عام" .

ب– خاض الشباب المسلم في أفغانستان معركة تحرير الأرض المسلمة تحت شعارات إسلامية خالصة، وهو أمر في غاية الخطورة، إذ أن كثيراً من معارك التحرير التي جرت على أرض عالمنا الإسلامي اختلطت فيها شعارات القومية الوطنية بالإسلام بل وأحيانا بشعارات اليسار والشيوعية.

مما أحدث لدى الشباب المسلم انفصاماً بين عقيدته الجهادية الإسلامية –التي يجب أن تقوم على أساس إخلاص الدين لله– وبين تطبيقها الواقعي.

وقضية فلسطين خير مثال على ذلك حيث اختلطت فيها الشعارات والعقائد تحت شعار التحالف مع الشيطان من أجل تحرير فلسطين، فتحالفوا مع الشيطان ولم يحرروا فلسطين، بل باعوا معظمها لإسرائيل.

ج- الأمر الآخر الهام هو أن هذه المعارك التي تعلوها رايات غير إسلامية أو رايات مختلطة قد أضاعت الحدود الفاصلة بين الأولياء والأعداء في منظور الشباب المسلم، فأصبح العدو مشكوكاً فيه، أهو العدو الخارجي الذي يحتل أرض المسلمين؟ أم هو العدو الداخلي الذي يمنع الحكم بالإسلام؟ ويبطش بالمسلمين، وينشر الفجور والانحلال تحت شعارات التقدم والحرية والقومية والتحرير، سائقاً الأوطان إلى هاوية الدمار الداخلي والاستسلام للعدو الخارجي. كما هو حال معظم بلادنا في ظل النظام العالمي الجديد.

د- أما في أفغانستان فقد كانت الصورة واضحة جداً: شعب مسلم يجاهد تحت راية الإسلام، وعدو خارجي معتد كافر يسانده نظام داخلي مرتد فاسد.

لذا كان انطباق النظرية على الواقع واضحاً وجلياً.

وهذا الوضوح أفاد أيضاً في دحض شبهات كثير من المتصدرين للعمل الإسلامي الهاربين من ساحة الجهاد بحجة غياب الساحة، التي يتميز فيها المسلمون عن أعدائهم.

هـ- كما كانت ساحة أفغانستان -وخاصة بعد انسحاب الروس- نموذجاً عملياً على جهاد الحكام العملاء المتحالفين مع أعداء الإسلام الخارجيين، فقد كان نجيب الله في أفغانستان أحد النماذج المتكررة لحكام البلدان الإسلامية، فهو يصلي ويصوم ويحج، وفي نفس الوقت يمنع الحكم بالإسلام، ويتحالف مع أعداء الإسلام، ويدخلهم لبلاده، ويبطش بالمسلمين المجاهدين. فإذا كان جهاد نجيب ونظامه متعيناً، فجهاد كل من على شاكلته متعين كذلك.

و- كما كانت أهمية معارك الجهاد في أفغانستان أنها حطمت وهم (القوة العظمى) في أذهان الشباب المسلم المجاهد، فالاتحاد السوفييتي -وهو القوة العظمى صاحبة أكبر قوة برية في العالم- تحطم، وفرت فلوله هاربة من أفغانستان أمام أعين الشباب المسلم وبمشاركته.

فكان ذلك الجهاد دورة تدريبية في غاية الخطورة لإعداد الشباب المسلم المجاهد لخوض معركته المنتظرة مع القوة العظمى التي تفردت بزعامة العالم الآن؛ أمريكا.

ز- كما وفرت مشاركة الشباب المسلم المجاهد -من العرب والباكستانيين والأتراك ومسلمي وسط آسيا وشرقها وغيرهم- فرصة كبيرة لتعارف الشباب المسلم من مختلف أرجاء العالم الإسلامي في ساحة الجهاد الأفغاني وعبر زمالة السلاح الموجه ضد أعداء الإسلام.

وهكذا تعارف الشباب المجاهد والحركات الجهادية مع بعضهم البعض تعارفاً وثيقاً، وتبادلوا الخبرات، وتفهموا مشاكل بعضهم.

ح- لقد كانت خطورة وجود الشباب المسلم -وخاصة العربي- في ساحة الجهاد الأفغاني هي في تحويل قضية أفغانستان من قضية إقليمية محلية إلى قضية إسلامية عالمية تشارك فيها الأمة كلها.

ط- وكانت أهمية المجاهدين من غير الأفغان أنهم شكلوا ظاهرة كانت مفتقدة لزمن طويل في واقع الأمة المسلمة، فهؤلاء الشباب أحيوا فريضة -طالما حرمت منها الأمة- بالقتال في أفغانستان وكشمير والبوسنة والشيشان.

ي- وفي معسكرات التدريب وجبهات القتال ضد الروس تكون لدى الشباب المسلم وعي واسع وإدراك أعمق بالمؤامرة المحاكة ضد الإسلام، وفهم شرعي تجاه أعداء الإسلام الخارجيين وعملائهم الداخليين.

٨- **وإذا كانت أمريكا قد دعمت باكستان وفصائل المجاهدين بالأموال والعتاد، فإن علاقة الشباب العربي المجاهد بأمريكا كانت على النقيض تماماً.**

بل إن وجود هؤلاء الشباب ونموهم وازدياد عددهم مثل إخفاقاً للسياسة الأمريكية ودليلاً متجدداً على الغباء السياسي الأمريكي الشهير. لقد كان تمويل نشاط المجاهدين العرب في أفغانستان **يأتي عبر الدعم الشعبي الإسلامي لأفغانستان**، وكان دعماً لا يستهان به.

ولم يتكفل المجاهدون العرب بتمويل أنفسهم من ذلك الدعم فقط، بل حملوا أيضا تبرعات المسلمين إلى المجاهدين والمهاجرين الأفغان.

وقد أخبرني الشيخ أسامة بن لادن -حفظه الله- بأنه يقدر الدعم الشعبي العربي للمجاهدين الأفغان -الذي نما إلى علمه- في الجانب العسكري فقط **بمائتي مليون دولار على مدى عشر سنوات**. فما بالك بالدعم الشعبي في المجالات غير العسكرية مثل الجانب الطبي والصحي والتعليمي والحرفي والغذائي والاجتماعي (مثل كفالات الايتام والأرامل والمعوقين)، ناهيك عن التبرعات التي كانت تأتي في المواسم مثل العيدين ورمضان.. الخ.

وعبر هذا الدعم الشعبي غير الرسمي أقام المجاهدون العرب مراكز التدريب والدعوة، وانشأوا الجبهات التي دربت وأعدت وجهزت الآلاف من المجاهدين العرب، ووفروا لهم الإعاشة والسكن والسفر والتنظيم.

وقد حاولت أمريكا وأبواقها والمعادين للحركات الإسلامية أن يبيعوا وهم صناعة أمريكا للمجاهدين في أفغانستان، حتى يقولوا لجماهير الأمة المسلمة إن هؤلاء وإن كانوا اليوم أعداء لأمريكا فقد كانوا عملاء لها من قبل، فلا تثقوا بهم.

ويحرص الإعلام العربي والغربي على تشويه صورة المجاهدين من غير الأفغان بتصويرهم في صورة أنصاف المجانين المهووسين، الذين تمردوا على أمريكا التي دربتهم ومولتهم من قبل. وزاد ترديد هذه الفرية بعد العودة الثانية للأفغان العرب إلى أفغانستان في النصف الثاني من التسعينيات، وخاصة بعد تفجير سفارتي الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام.

والهدف من حملة التشويه هذه واضح وجلي، وهو أن تحاول أمريكا حرمان الأمة المسلمة من شرف البطولة، وكأنها تقول للمسلمين: إن من تعدونهم أبطالاً هم في الحقيقة صنيعتي ومرتزقتي، تمردوا علي عندما أوقفت دعمهم.

وحاولت أمريكا بيع هذا الوهم حتى تهون من مرارة هزيمتها على يد المجاهدين العرب، التي بلغت ذروتها بغزوتي نيويورك وواشنطن، كمثل رجل تلقى ضربة على رأسه أفقدته توازنه، فاستدار للحاضرين وقال لهم: على كل حال هذا الذي ضربني تلميذي، وأنا الذي دربته. حتى ينسب لنفسه شيئاً من الفخر، حتى ولو كان هو المضروب. وهو منطق دعائي ساذج، يتناسب مع عقلية السينما الأمريكية التي أخرجت أفلام رعاة البقر ورامبو وغيرها من خرافات آلة الدعاية الأمريكية.

وأشهد الله أن أمريكا لم تدفع للمجاهدين العرب دولاراً واحداً، ولا أمدتهم برصاصة واحدة، ولا دربت منهم أحداً، وأتحدى أمريكا أن تثبت شيئاً من ذلك.

وما تشدق به البعض من أن السعودية كانت تمنح تذاكر مخفضة للمسافرين لأفغانستان، فهذه التذاكر لم تكن من أمريكا، ولكنها كانت من أموال **التبرعات الشعبية لأفغانستان**، التي سيطرت عليها الحكومة السعودية عبر هيئة الإغاثة الإسلامية والهلال الأحمر السعودي والهيئة الخيرية التابعة لسلمان بن عبد العزيز.

وأعود وأؤكد أن المجاهدين العرب هم الذين حملوا جزءاً كبيراً من الدعم الشعبي لإخوانهم الأفغان.

وعن هذه الكذبة يقول الشيخ أسامة بن لادن في حديثه مع قناة الجزيرة:

"سؤال: *ذكر في وسائل الإعلام العالمية عن دعم أمريكا للجهاد الأفغاني ضد الاتحاد السوفيتي الذي شاركتم أنتم في هذا الجهاد بنفسكم ومالكم وكما ذكر أيضا في وسائل الإعلام العالمية أنكم كنتم على صلة أو أن الاستخبارات الأمريكية كانت هي التي تمول نشاطكم وتدعمكم في هذا الجهاد ما هي حقيقة هذه الادعاءات وما صحة الصلة بينكم وبين أمريكا في ذلك الوقت؟*

أسامة:

"هذه محاولة للتشويه من الأمريكان. الحمد لله الذي رد كيدهم إلى الوساوس، وكل مسلم منذ أن يعي التمييز وفي قلبه بغض الأمريكان، وبغض اليهود والنصارى هو جزء من عقيدتنا وجزء من ديننا، ومنذ أن وعيت على نفسي وأنا في حرب وفي عداء وبغض وكره للأمريكان، وما حصل هذا الذي يقولونه قط. أما أنهم دعموا الجهاد أو دعموا القتال فهذا الدعم عندما تبين لنا، في الحقيقة هو دعم من دول عربية وخاصة الدول الخليجية لباكستان حتى تدعم الجهاد وهو لم يكن لوجه الله سبحانه وتعالى وإنما كان خوفا على عروشهم من الزحف الروسي، وأمريكا في ذلك الوقت كان كارتر لم يستطع أن يتكلم

بكلمة ذات شأن إلا بعد مرور بضع وعشرين يوماً في عام ١٣٩٩ هجرية الموافق من عشرين يناير ١٩٨٠ قال إن أي تدخل من روسيا إلى منطقة الخليج فإن أمريكا سوف تعتبره اعتداءً عليها، لأنه محتل لهذه المنطقة محتل للبترول فقال نحن نستخدم القوة العسكرية إذا حصل هذا التدخل، فالأمريكان يكذبون، إذا زعموا أنهم تعاونوا معنا في يوم من الأيام ونحن نتحداهم ليبرزوا أي دليل، وإنما هم كانوا عالة علينا وعلى المجاهدين في أفغانستان، ولم يكن أي اتفاق، وإنما كنا نحن نقوم بالواجب لنصرة الإسلام في أفغانستان وإن كان هذا الواجب يتقاطع بغير رضانا مع مصلحة أمريكية. عندما قاتل المسلمون الروم، ومعلوم أن القتال كان شديداً بين الروم والفرس وكان دائماً، ولا يمكن لعاقل أن يقول إن المسلمين عندما بدأوا بالروم في غزوة مؤتة كانوا هم عملاء للفرس، وإنما تقاطعت المصلحة، يعني قتلك الروم وهو واجب عليك كان يفرح الفرس، لكن بعد أن هم أنهوا الروم بعد عدة غزوات بدأوا بالفرس، فتقاطع المصالح لا يعني العمالة، بل نحن نعاديهم من تلك الأيام ولنا محاضرات بفضل الله سبحانه وتعالى منذ تلك الأيام في الحجاز ونجد بوجوب مقاطعة البضائع الأمريكية وبوجوب ضرب القوات الأمريكية وبوجوب ضرب الاقتصاد الأمريكي منذ أكثر من ١٢ سنة".

٩- وهذه الفرية تحمل في طياتها التناقض، فإذا كان المجاهدون من غير الأفغان من صنيعة أمريكا، فلماذا أصرت على مدى سنتين على طردهم من باكستان؟

وإذا كان المجاهدون العرب مرتزقة لأمريكا -تمردوا عليها كما تفتري- فلماذا تعجز الآن عن شرائهم مرة أخرى؟ ألا يعدون الآن -وعلى رأسهم أسامة بن لادن- الخطر الأول الذي يهدد مصالح أمريكا؟ أليس شراؤهم أوفر وأقل كلفة من ميزانيات الأمن والوقاية الخرافية التي تنفقها أمريكا دفاعاً عن نفسها ضدهم؟

إن الأمريكان بطريقتهم المعهودة في التضخيم والمبالغة والسطحية في التناول يحاولون بيع الوهم للناس، قافزين فوق أبسط الحقائق. هل يمكن أن يكون أسامة بن لادن الذي نادى في محاضراته عام ١٩٨٧ بضرورة **مقاطعة البضائع الامريكية تأييداً للانتفاضة في فلسطين**، عميلاً للأمريكان في أفغانستان؟

وأذكر -في حينها- أنه زارنا في مستشفى الهلال الكويتي في بشاور، وحدثنا عن هذه المحاضرات، وأذكر أني قلت له: منذ الآن يجب أن تغير طريقة حراستك ونظام أمنك، فإن رأسك منذ الآن أصبح مطلوباً من الأمريكان واليهود، وليس من الشيوعيين والروس فقط، فأنت الآن تضرب الأفعى على رأسها.

وهل يمكن أن يكون الشهيد -كما نحسبه- عبد الله عزام عميلاً لأمريكا؟ وهو الذي لم يكل عن **تحريض الشباب ضدها ودعم حركة (حماس)** بكل ما يملك.

وهل يمكن أن تكون الحركة الجهادية في مصر عميلة للأمريكان؟ وقد **قتل خالد الإسلامبولي ورفاقه -رحمهم الله- أنور السادات -عميل أمريكا الأول في العالم العربي- قبل نشوء ظاهرة المجاهدين العرب في أفغانستان**.

وهل يمكن أن تكون الحركة الجهادية في مصر عميلة لأمريكا؟ وهي تربي أبناءها منذ نشأتها على **رفض إسرائيل وكل اتفاقيات الاستسلام لها**، وتعتبر أن **الصلح معها متناقض مع شريعة الإسلام**.

إن أمريكا فوجئت بأن طبختها في أفغانستان قد أفسدها عليها المجاهدون العرب وأهل الصدق من المجاهدين الأفغان.

لقد أرادتها أمريكا حرباً بالوكالة ضد روسيا، فحولها المجاهدون العرب -بفضل الله- إلى دعوة لإحياء الفريضة الغائبة؛ الجهاد في سبيل الله.

ولذلك تنبهت أمريكا لهذا الخطر في البوسنة، فكان الشرط الأول قبل تطبيق اتفاقية دايتون هو طرد المجاهدين العرب من البوسنة.

وللأخ أبي مصعب السوري -فرج الله كربه- كلام نفيس في هذه المسألة يسجل فيه شهادته للتاريخ، أوردها في كتابه الموسوعي (دعوة المقاومة الإسلامية العالمية)، أرى للفائدة أن أورد مقتطفات منها:

"من العجيب اليوم؛ أن البرامج الإعلامية العالمية والعربية من أفلام ومقابلات وتحليلات وصحف وكتب وسواها. تمر بهذه (الكذبة) بسرعة مرور الكرام، وتنتقل لمواضيع أخرى على أنها شيء مسلم به معروف بديهي!!

فيقدمون للناس كذبة كبرى على أنها حقيقة مفادها :

أن المخابرات الأمريكية (CIA) هي التي صنعت (الأفغان العرب) وزعماءهم من أمثال الشيخ أسامة بن لادن، والشيخ عبد الله عزام، من أجل تدمير الاتحاد السوفيتي. وأن هذه الصنائع انقلبت عليها اليوم، ودمر بعضهم أبراجها في نيويورك وواشنطن، في حين عاد أكثرهم إلى بلادهم لضرب مصالحها وقتل رعاياها، ومحاربة أوليائها من حكام بلاد العرب والمسلمين.. وأن ظاهرة الجهاد المسلح في بلاد العرب هي إفراز للجهاد الأفغاني، وبالتالي صنيعة الاستخبارات الأمريكية، وقد خرجت عن الطوق. ويقولون أن أمريكا قد وقعت في حال المثل السائر عندهم: (من يصنع الأشباح تخرج له).

فما حقيقة هذه الفرية البالغة الخطورة على سمعة الجهاد و الجهاديين في هذا العصر.

أوضح ذلك من خلال النقاط الموجزة التالية بعون الله:

- *أما أن ظاهرة الجهاد المسلح في بلاد العرب والمسلمين هي إفراز لتجمع الأفغان العرب في الجهاد الأفغاني فالحقيقة هي العكس تماماً..*

والحقيقة هي أن الجهاد العربي في أفغانستان هو نتيجة للجهاد العربي قبله،وهو أحد إنجازات التيار الجهادي العربي في بلاد العرب وأحد إفرازاته ومراحل تطوره.

فكما مر سابقاً فإن التيار الجهادي المعاصر هو وليد الصحوة الإسلامية التي نشأت مطلع الثلاثينات، وقد انفصل عنها مطلع الستينات. وقد قامت كثير من التجارب الجهادية ما بين مطلع الستينات ومطلع الثمانينات. أي قبل من الجهاد الأفغاني بعشرين سنة. بل إن القيادات والكوادر والرموز وأركان الجهاد العربي في أفغانستان، هم من بقايا وكوادر ورموز وشيوخ التيار الجهادي العربي. فالشيخ عبد الله عزام من رموز و قدماء المجاهدين في فلسطين، وقد نفاه النظام الأردني من عمان لطروحاته الجهادية ومعارضته للنظام. والشيخ أسامة بن لادن تربي في الصحوة الإسلامية، ودعم أكثر من حركة للجهاد في بلاد العرب، وساهم في دعم الجهاد في سوريا مطلع الثمانينات، قبل أن يتوجه إلى أفغانستان. وكذلك فإن كثيراً من الكوادر -الذين يصعب حصرهم هنا، من المدربين والقادة الميدانين الأوائل الذين حملوا مهمة إنشاء المعسكرات وإقامة البنية الأساسية للجهاد العربي في أفغانستان- كانوا من كوادر تنظيمات الجهاد العربية ولا سيما من مصر وفلسطين وسوريا ولبنان واليمن.. وغيرها.. وهم الذين كانوا نواة التجمع العربي الذين تولوا العمل في مجالات التدريب والإعلام والعمل العسكري والعمل الإغاثي الميداني وسوى ذلك من الأعمال.. إلى أن تقاطر المجاهدون من البلاد العربية والإسلامية وتزايد الجمع الذي ابتدأ بكوكبة صغيرة سنة ١٩٨٤ ،فتصاعد منذ (١٩٨٧) وإلى (١٩٩١) ليبلغ زهاء أربعين ألفاً من المجاهدين العرب مع مطلع التسعينات.

- أما عن العلاقة المزعومة للجهاد العربي في أفغانستان بالأمريكان ومنظمتهم البائسة (CIA)، فإن كان لهؤلاء الأوغاد من دور فهو في الإجازة والضوء الأخضر الذي أعطوه لأزلامهم من حكام بلاد العرب والمسلمين، بأن يسمحوا للشباب المجاهدين بممارستهم حقهم الطبيعي وأوامر دينهم بأن يتوجهوا إلى أفغانستان. وأن تتركهم مخابرات تلك البلاد المجرمة في حال سبيلهم، ولا تعترضهم وهم يذهبون إلى أداء الفريضة الشرعية. وكذلك في الدور المحدود لأجهزة إعلام تلك البلاد العربية والإسلامية في الترويج للجهاد الأفغاني. وفي دور أمريكا بالإيعاز للسعودية في أن تفتي مؤسستها الدينية المأجورة، بأن الجهاد فرض عين في أفغانستان، وهي حقيقة، وفي أن تترك المجال للدعاة الصالحين من أئمة الدعوة والإصلاح في السعودية أن يجهروا بهذه الحقيقة الشرعية.. وأن تتيح للشعب في بلاد الحرمين أن يؤدي فريضة الجهاد بماله لنصرة أخوة العقيدة والدين .. وأن تشجع من أراد من الشباب الذهاب إلى هناك، حتى بلغ ذلك أن تخفض شركة الطيران السعودية

ثمن تذكرة الطائرة من السعودية إلى باكستان بنسبة (٧٥%) لمن يريد الذهاب للجهاد في أفغانستان ليصبح أقل من تكلفة رحلة داخلية. ولا شك أنه كان لآل سعود مصالحهم الدعائية وغير ذلك من هذه التسهيلات. كما ساهمت أمريكا بإيعازها لباكستان بأن تفتح سفاراتها لإعطاء إجازات الدخول (الفيزا) للشباب العربي والمسلم من كل مكان للذهاب عبر أراضيها إلى أفغانستان. وأن تسمح للعرب بحرية الحركة، التي بلغت حد فتح المعسكرات على الأراضي الباكستانية قرب أفغانستان للتدريب وتقديم الخدمات اللوجستية للجهاد الأفغاني.

ولا شك أنه كان لباكستان مصالحها الإقليمية و الوطنية في هذا، ولا محل لاستقصاء هذه الجزئيات هنا. بل كان هناك أيضا مصالح شخصية لمليونيرات الحروب من الضباط في الجيش والاستخبارات والشرطة الباكستانية من تحرك هذا الكم من البشر والأموال بين الخارج وأفغانستان عبر أراضيهم.

فإذا كانت الإجازات الأمريكية لعملائهم الصغار، تعتبر مساهمة في صناعة الجهاد العربي في أفغانستان فهو ذلك لا أكثر.. وكان لعملائهم الصغار من الحكام في السعودية و الباكستان ومصر وغيرها مصالحهم في ذلك ..

- *أما ما يزعم من تدريب الأمريكان للعرب أو ترتيب برامجهم أو معاونتهم على العمل العسكري أو أي علاقة عملية على الأرض، فهذا محض كذب وافتراء.*

ولقد عملتُ شخصيا في مجالات التدريب العسكري وكمحاضر في المجالات الفكرية والمنهجية. وكنت على تماس مع قيادات الجهاد العربي في أفغانستان. وأستطيع من خلال ذلك أن أشهد وأؤكد أن هذه الدعوى لا أساس لها من الصحة. ولست هنا في مجال التأريخ للجهاد العربي في أفغانستان، حتى أسرد وقائع التدريب وآلية العمل. ولقد كان بالمختصر مجموع جهود فردية مخلصة، ابتدأت بالكوادر الجهادية القديمة وبعض الكوادر العسكرية المحترفة من المتقاعدين أو المبعدين عن الخدمة في جيوش عدد من الدول العربية والإسلامية، والذين كان لمساهماتهم دور مفيد جداً، ثم بدأت تتراكم وتتجمع خبرات الكوادر الناشئة في الساحة.

والمطلع على الوضع الفكري والنفسي والمنهجي، وعلى المشاعر تجاه الأمريكان والغرب والكفار عموماً، بل وحتى تجاه حكامنا بل وصغار أعوانهم، لدى القيادة الجهادية العربية وقواعدها من الشباب في أفغانستان وسواها، يعلم أن هذه الدعوى غير واردة وغير ممكنة..

أما حقيقة أن مصالح وأهداف كافة أطراف الحلف غير المباشر الذي ذكرته، من أجل حرب الإتحاد السوفيتي، كلاً على حدة عملياً، ومجتمعين على هدف واحد، فحقيقة واقعة وكثيراً ما تكررت في دنيا السياسة وتقاطع المصالح عبر التاريخ. وما تزال تتكرر هنا وهناك وهذا من طبائع الأشياء..

فقد أرادت أمريكا هزيمة الاتحاد السوفيتي والانتصار في الحرب الباردة، بعد أن كال لها الإتحاد السوفيتي وحلف وارسو ضربات موجعة في أكثر من مجال.. وكانت قضية أفغانستان فرصة ذهبية للأمريكان، وقد استغلوها بصورة صحيحة، و حصلوا على ما أسماه نيكسون في كتابه الشهير (نصر بلا حرب)، فحققوه بكل جدارة يحسدون عليها...

وأرادت أوروبا الغربية ودول حلف الأطلسي تحقيق مكاسب ووضع موطئ قدم لها هناك، فشاركت في ذلك المولد لمصالحها الخاصة كدول أوربية، وكلاً لمصالحها منفردة .. وحصل لكل دولة ما أرادت بشكل نسبي .. واليوم تنتشر المؤسسات الأوروبية المختلفة تحت شعار الخدمات الإنسانية، لتقتطع المكاسب المغرية من الملعب الأفغاني، كلاً بحسب حضورها السابق واللاحق..

وأرادت الباكستان تحقيق مصالح قومية وإقليمية يضيق المكان عن حصرها هنا، بل إن ذكر ما حققته الباكستان يحتاج كتاباً مستقلاً. وقد قدمت لأمريكا في الملعب الأفغاني ما أرادت من خدمات؛ لدعم الجهاد الأفغاني أولاً، ثم لتمزيق مكتسباته ثانياً، ثم لتدمير أفغانستان في حرب أهلية ثالثاً، ثم لمواجهة طالبان وإسقاط دولتهم رابعاً، ثم لقتل المجاهدين العرب وتسليمهم لأعدائهم خامساً.. ثم تشرع الآن لبيع قضية كشمير سادساً.. ولتدمير البنية التحتية للإسلاميين داخل باكستان ذاتها سابعاً... والحبل على الجرار.. وهكذا نفذت الحكومات الباكستانية ما أرادت أمريكا دائماً... ولعنة الله على الظالمين والمنافقين..

وقل مثل ذلك عن باقي الأدوار في أفغانستان للسعودية.. ومصر.. وسواها.. وعن الهند ودول وسط آسيا وإيران والصين من دول الجوار.. التي لعبت لعبتها أيضاً..وصولاً إلى حركات الصحوة الإسلامية و الجهادية وكل من دخل اللعبة الأفغانية فكسب أو خسر....

و يصح هذا على مختلف التنظيمات العربية والإسلامية التي حضرت أفغانستان..

باختصار لقد صارت قضية الجهاد الأفغاني منطقة تقاطع مصالح عالمية وإقليمية ندر أن يتكرر مثلها. فاجتمع الجميع على الإتحاد السوفيتي، وكان لكل نيته وأهدافه.

أما عن مصالح الحركات الإسلامية غير الجهادية .. فكانت شتى، تتراوح بين النية الحسنة في خدمة أخوة العقيدة والدين ، وبين المصالح الذاتية لكل حركة من الحركات، من المكاسب الدعوية والتنظيمية والمادية، وصولاً إلى المصالح الذاتية والشخصية لبعض الأفراد.

فماذا كان هدف الجهاديين من الحضور إلى أفغانستان؟

لقد كان هدفهم منحصراً بعد نية الجهاد وأداء الفريضة، والبحث عن الشهادة في سبيل الله من قبل غالب قياداتهم وأفرادهم، كان هدفهم أمرين استراتجيين اثنين. أذكرهما بحسب أهميتهما و بحسب ما لمست شخصياً بسبب تماسي المباشر، بل عضويتي في التيار الجهادي، ومن ثم هذا الجمع الذي أطلقوا عليه الاسم (الدراماتيكي) الجميل، الذي أحبه، وأنتمي إليه، وهو (الأفغان العرب):

١ – أما الهدف الأول لمعظم الكيانات والتنظيمات والكوادر الجهادية، فكان الإعداد والتدريب وترتيب الصفوف وجمع الكوادر وتجنيد العناصر وإقامة العلاقات العامة واستقطاب أموال التبرعات وتدريب أفراد التنظيم من أجل قضيتهم الذاتية في بلادهم، وهو الهدف الذي سيطر على تفكير معظم –إن لم يكن كل– التنظيمات الجهادية العربية وسواها من الأعجمية. وهو: (إسقاط حكومات الردة القائمة في بلادها، كلاً بحسبه، وإقامة حكومات إسلامية تحكم بشرع الله).

٢ – العمل على تحرير أفغانستان وإقامة حكومات[1] *إسلامية شرعية فيها، تكون منطلقاً لإقامة شرع الله في الأرض وملاذاً آمناً وقاعدة خلفية للجهاد ضد مختلف أعداء الله وفي كل قضايا المسلمين، بدءا من فلسطين و انتهاء في كل قضية للإسلام فيها نصيب وهوية..*

ولقد تراوح الجميع في نيتهم بين هذين الهدفين بنسبة تقل أو تكثر، بحسب اختلافهم في توجهاتهم..

....

وأما على صعيد من ينسب الإعلام إليهم تهمة علاقتهم بـ (CIA) وأنها أنشأتهم من أجل تدمير الإتحاد السوفيتي.. فكلام باطل أيضاً. وعلى سبيل المثال فمن أشهر من تناولهم هذه التهمة:

الشيخ عبد الله عزام ~:

....

(١) لعله أراد (حكومة).

والناظر في أشرطة وكتب وخطب وتراث الشيخ الشهيد عبد الله عزام - أبو محمد- ~. يرى المساحة الهائلة التي زرعها في قلوب أتباعه وقرائه من الكراهية والحقد المقدس على أمريكا وأعوانها.. وعلى المرتدين و أزلامهم. كيف لا؛ وهو من ضحاياهم في فلسطين والأردن ثم باكستان حيث قتلوه بأوامر أمريكية في عهد (بنزير[1] بوتو) ووزير داخليتها (بابر)، الذين تبقى مهمة الاقتصاص منهم أمانة في أعناق أجيال المجاهدين[2]. قتل الله المجرمين، وتقبله في الشهداء.

وأما أنه أفتى في كتابه القيم (الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان) بجواز أخذ المساعدات من الأمريكان لجهاد الروس المعتدين أو العكس.. فهو صحيح. وهي حال الضرورة التي تلجئ إليها المسلمين، إذا دهمهم صائل وأشفوا على الهلكة... وهذا أمر معروف، يقدره الفقهاء بشروطه. وقد أفتى الشيخ للأفغان أن يأخذوا المساعدات من أمريكا ومن المرتدين من حكام العرب و من سواهم. وأما الجمع الجهادي العربي فقد كان جمعاً معطياً لا آخذًا، فقد انهالت عليه التبرعات بمئات الملايين من الدولارات من زكاة أموال المسلمين وتبرعاتهم. فأخذ الجمع حاجته من مصاريف الجهاد والإعداد و كفالات أسر المجاهدين والشهداء العرب، وأنفق أكثر المال على الجهاد الأفغاني ذاته. كما أوصل المجاهدون العرب بأمانة ما جاء وقفاً على الجهاد الأفغاني ذاته لأصحابه من المجاهدين والمهاجرين من أيتام وأرامل و محتاجين.. هذا عن دور الشيخ عبد الله عزام.

أما الشيخ أسامة بن لادن حفظه الله:

....

وأما أن هناك أمريكان قد دربوا المجاهدين العرب من جماعة القاعدة أو غيرها أو قدموا لهم أي دعم فمجرد كذبة تافهة. إذ لم يكن هذا ليكون مقبولاً ولا على سبيل المزاح، فالوسط الجهادي العربي -الذي تسيطر عليه أفكار الولاء والبراء والمدرسة السلفية الجهادية- كان متوتراً تجاه بعض الشخصيات الحكومية السعودية التي تأتي لتقديم الدعم، وربما دخلت بعض المضافات أو المعسكرات العامة المفتوحة (مثل الملحق العسكري في السفارة السعودية: أبي مازن) فكيف بمثل هذه الأفكار عن أجانب أو أمريكان.

---

[1] صوابها: بينظير.

[2] كشف الشهيد -كما نحسبه- أبو دجانة الخراساني -رحمه الله- عن دور المخابرات الأردنية في قتل الشيخ عبد الله عزام - رحمه الله- خدمة لأمريكا وإسرائيل، وأكد -رحمه الله- أن حملته الاستشهادية على مركز المخابرات الأمريكية في خوست من أهدافها؛ الثأر لمقتل الشيخ عبد الله عزام رحمه الله.

فزعمُ من افترى عليه أنه عمل مع الأمريكان أثناء جهاد الروس، ثم انقلب عليهم، هو زعم باطل مبني على التجني والحقد أو الجهل، بسبب دعاوى وسائل الإعلام المعادية.

والقصة باختصار أنه قد جمعه -وجميع المسلمين آنذاك- قاسم مشترك مع الأمريكان في ضرب الروس لعدوانهم على أفغانستان، فلما انتهت المعركة، تنبه الجميع إلى أن العدو المقبل هو القوة الوحيدة التي انفردت بإدارة العالم وإنشاء النظام العالمي الجديد، وغزت بلاد الحرمين، وراحت تجهز الحملات الصليبية على الشرق الأوسط.

فأكمل ابن لادن الواجب، وأعلن الجهاد بدوره على القوة التي جاءت للعدوان بدورها. وكذلك فعل معظم من أراد الجهاد معه أو مستقلين عنه، كما كان حالي وحال أمثالي" [١].

وفي ختام هذا التناول لشبهة أن أمريكا قد مولت ودربت المجاهدين العرب، أورد هنا شهادة من الكونجرس الأمريكي، في تقرير لجنة ١١ سبتمبر، الذي يؤكد على عدم مساعدة أمريكا للمجاهدين العرب فيقول:

"كان المحيط الدولي ممتازاً بالنسبة لجهود بن لادن، فقد دفعت العربية السعودية والولايات المتحدة بلايين الدولارات قيمة الدعم السري لجماعات الثوار في أفغانستان، الذين يقاتلون الاحتلال السوفيتي. وهذا الدعم –الذي يمر عبر إدارة استخبارات الخدمات المشتركة الباكستانية أو (ISID)- ساعد في تدريب الثوار وتوزيع الأسلحة.

ولكن بن لادن ورفاقه كانت لهم مصادرهم الذاتية للدعم والتدريب، وقد تلقوا قليلاً أو لم يتلقوا أي دعم من الولايات المتحدة" [٢].

وشهد شاهد من أهلها.

---

[١] دعوة المقاومة الإسلامية العالمية– الجزء الأول: الجذور والتاريخ والتجارب– الفصل السادس: مسار التيار الجهادي وتجاربه (١٩٦٠- ٢٠٠١م) ص: ٧٧٠ إلى ٧٨٢.

[٢] THE ٩/١١ COMMISSION REPORT, ٢- THE FOUNDATION OF THE NEW TERRORISM, p: ٥٦.

ثم علق التقرير على تلك الفقرة في التعليقات الختامية على الفصل الثاني فقال:

"رفض أيمن الظواهري بازدراء –في سيرته الذاتية– الزعم بأن الولايات المتحدة قد مولت (ولو بسنت واحد) أو دربت المجاهدين العرب [انظر: (فرسان تحت راية النبي) للظواهري– الشرق الأوسط– ٢ ديسمبر ٢٠٠١].

وقد اعتبر مسؤولو السي آي إيه الضالعين في مساعدة المقاومة الأفغانية بأن بن لادن و(عربه الأفغان) كانوا بلا قيمة عسكرية، وتذكروا بأنهم لم يكن لهم بينهم وبينه إلا القليل. [حوار جراي شروين– ٣ مارس ٢٠٠٣]".

[ص: ٤٦٧].

١٠- ولم يتوقف المكر الإعلامي الغربي على ادعاء عمالة المجاهدين المسلمين في أفغانستان لأمريكا، بل حتى التسمية التي أطلقت عليهم -وهي الأفغان العرب- كانت ماكرة أيضاً، لأنهم لم يكونوا عرباً فقط، بل كانوا من أرجاء العالم الإسلامي كافة، وإن كان العرب عنصراً متميزاً فيهم.

١١- وبالطبع لم يكن النظام العالمي ليقبل بوجود هذه الظاهرة المتنامية المتمردة عليه المهددة لوجوده من المجاهدين غير الأفغان، بعد أن بذل الاحتلال الغربي والشيوعي جهوداً متواصلة -على مدى قرابة قرن من الزمان- لإخضاع الشعوب المسلمة بالأنظمة والقوانين العلمانية والانتخابات المزورة وحالات الطوارئ وقوانين الهجرة والجنسية.

وقد بدأ رد الفعل ضد المجاهدين غير الأفغان بالسعي لطردهم من باكستان من بداية التسعينيات، وبلغ أوجه عام ١٩٩٢.

وكان لحكومة باكستان العلمانية العميلة نصيب الأسد في التنكر لهم، فقد طردت -بكل نذالة- من دافع عن حدودها إلى المجهول.

فعلى الجانب الأفغاني من منفذ طورخم الحدودي بين باكستان وأفغانستان توجد مقبرة تحوي رفات أكثر من مائة من المجاهدين العرب في أفغانستان، تقف شاهدة ناطقة على موقف الحكومة الباكستانية الخسيس ضد من دافع عن حدودها ضد التهديد الشيوعي. وتسطر في تاريخ المسلمين فصلاً عن خيانة حكام إسلام آباد للمسلمين ومدى تلهفهم على إرضاء الأمريكان.

١٢- وفي ختام هذا الفصل عن أفغانستان لا أستطيع أن أنسى الجهود الضخمة التي قام بها العديد من إخواني في جماعة الجهاد في الفترة من عام ١٩٨٦م إلى عام ١٩٩٢م. في القتال والدعوة والتدريب والإعداد والتوعية والإدارة والتنظيم.

ويؤسفني أني لا أستطيع أن أذكر هنا كل أسماء المخلصين الذين بذلوا في صمت، والله حسيبهم. لأن كثيراً منهم في قبضة الطواغيت، يحاسبونهم على دفاعهم عن كرامة أمتهم، ويعاقبونهم على تمردهم على الذل الذين يسعون في فرضه علينا إرضاءً لأمريكا.

الفصل الثاني:

عبد الله عزام- جرح القدس في ذرى الهندكوش

كفرت بكل من عذلوا ... وعن درب الفدى عدلوا
ومن لم يحسنوا في العيـ ... ش إلا النوم والكسل
ومن بنديهم والنا ... ر تزحف يكثر الجدل
ومن بالوهم رغم التيه ... ظنوا أنهم وصلوا
وأكبرت الذين مضوا ... وعما شق ما سألوا
وعن غاياتهم رغم اعـ ... تساف الدهر ما نكلوا
ومن دمهم أضيئت في ... دياجي الحيرة الشعل
أيا مهراً يجيد العدو ... لم يشمت به الكلل
رأيتك صافيًا والناس ... مغشوش ومنتحل
وزورق عزة رغم اشـ ... تداد الموج ينتقل
وسيفاً مثل ضوء البر ... ق يسطع حين ينتضل
وإعصاراً إذا ما هب ... ريع الحادث الجلل
لنا اسمح أن نقبل في ... يديك السيف يا بطل
وقول من أخي سفه ... توارى عنده الخجل[1]
تخوض القدس في دمها ... وتنهش نحرها الذبل
ورجلك دون ساحتها ... بها قد ضلت السبل
فهل كابول علتها ... تهون أمامها العلل
وهل من ناقة فيها ... لنا يا شيخ أو جمل
أجبهم يا رعاك الله ... حتى يخرس الجدل
وقل يا أيها النقاد ... من لاموا ومن عذلوا
أنا مازال جرح القدس ... في جنبي يعتمل
ووقد مصابها كالنا ... ر في الأحشاء يشتعل
أنا ما خنت عهد الله ... لما خانت الدول
وفي ساحاتها جاهدت ... إذ جل الورى خذلوا
فلما غل كف الفدي ... وانقطعت بنا الحيل
ولم يبق الطغاة لنا ... طريقاً نحوها يصل
ونحن بشرعنا كابول ... أخت القدس إن جهلوا
مضيت مجاهداً مع من ... بهم يتشرف المثل
بني الأفغان لا ميل ... اذا احتدمت ولا عزل
على نار الأسى شبوا ... وفوق جحيمها اكتهلوا
فتلك ربوعهم بالدا ... فق الموار تغتسل
وتحت صواعق الغارا ... ت بالنيران تشتعل
وتلك جماجم الأطفا ... ل تسحق وهي تبتهل
وأعراض النساء بها ... يعيث الملحد الثمل
فما ذل الإباء بهم ... وما بهم احتفى الفشل
ورأس الشعب مرتفع ... وموج البذل متصل

---

[1] يقصد الشاعر أن هناك جهال يعارضون الشيخ ~ في تركه للقتال في القدس، وانشغاله عنها بالجهاد في كابل، وهو ما ستفصله الأبيات التالية.

خوالف أمتي مهلاً بصيرتكم بها حول
جنود الروم نعرفها وإن ميدانها نقلوا
لهيب الشرك لايطفيـ ـه إلا الأحمر الهطل
وما سندت خطى التوحيد إلا البيض والأسل[1]

لا يستطيع إنسان أن يذكر الجهاد الأفغاني دون أن يذكر رائد الدعوة والجهاد الشهيد -كما نحسبه ولا نزكيه على الله- العالم العامل الشيخ عبد الله عزام ~. فقد كان عبد الله عزام ~ نموذجاً فريداً في البذل والعطاء والعمل الجاد من أجل خدمة الجهاد والمجاهدين.

وكان ~ يهدف لجعل الجهاد الأفغاني قاعدة لتحرير كافة أراضي المسلمين المحتلة وتطهيرها من الطواغيت العملاء.

وليس بوسعي في هذا الفصل أن أبرز كل معالم فكر الشيخ الرائد الشهيد -كما نحسبه- الشيخ عبد الله عزام، ولكني أحاول هنا أن أبرز بعض المعاني في فكر الشيخ، التي حاول بعض من ينسبون أنفسهم له أن يطمسوها أو يخفوها، ويصوروا للناس أن الشيخ كان يرى المجاهدين العرب ضيوفاً على الجهاد الأفغاني عليهم أن يرحلوا، وينصرفوا لتدبير أمور معاشهم بعد رحيل الشيوعيين عن أفغانستان. وكأنهم بهذه الدعوى المتهافتة يبررون لأنفسهم ما تورطوا فيه، ولعل في مجهودي المتواضع هذا بعضاً من الوفاء لسيرة هذا الرائد العملاق، الذي لم يعط حقه من الدراسة والاستفادة.

١- كان الشيخ ~ حريصاً على التأكيد على أن الجهاد فريضة عينية منذ سقوط الأندلس، وحتى تحرير كل أراضي المسلمين، وأن الجهاد لا يتوقف بتحرير أفغانستان.

يقول الشيخ ~:

"وكل المسلمين في الأرض اليوم آثمون ما دامت أي بقعة كانت إسلامية تحت حكم الكفار، وكل مسلم يحاسب عن الأندلس، ويحاسب عن أفغانستان، ويحاسب عن فلسطين، ويحاسب عن الفلبين، يحاسبون عن هذه الأراضي الضائعة"[2].

وقال أيضاً ~:

"وكذلك الجهاد لا يمكن أن يصبح مكروهاً لأن العالم الفلاني لا يفعله، الجهاد فرض من الله عز وجل في كل الأزمان، إما فرض عين كما هو الحال الآن منذ أن سقطت الأندلس ١٤٩٢م إلى يومنا هذا، والجهاد فرض عين على كل الأمة المسلمة، وكل الأمة المسلمة آثمة لأنها لم ترجع الأندلس، ولم ترجع بخارى، ولم ترجع فلسطين، ولم ترجع أفغانستان، ويبقى الجهاد فرض عين، حتى ترجع كل بقعة كانت إسلامية إلى يد المسلمين،

[1] الأبيات من قصيدة بعنوان (الفارس المصلوب) للدكتور يوسف محيي الدين أبو هلالة في مدح الشيخ عبد الله عزام ~.

[2] شريط الجهاد ماض ٢.

ليس بتحرير أفغانستان ولا بتحرير فلسطين فقط، بل بتحرير كل جزء في يوم من الأيام خضع تحت راية الإسلام، فالجهاد ليس اليوم فرض عين، وليس فرض عين في أفغانستان، بل منذ أن سقطت أول بقعة من الأراضي الإسلامية في يد الكفار، هذه قاعدة مسلمة بين العلماء جميعاً"[1].

وقال أيضاً ~:

"فلا تظن أن فرض العين في الجهاد يسقط عنك إذا جاهدت في أفغانستان سنة أو سنتين أو خمساً أو.. بعد أفغانستان تتحول إلى فلسطين، إذا استطعت أن تقاتلهم.. وإذا ما استطعت؛ على بخارى، ما استطعت؛ على الفلبين، ما استطعت، تجاهد في أية بقعة تستطيع أن تحمل فيها السلاح، لا يسقط عنك فرض العين إلا إذا مت؛ مثل الصلاة، كما أن الصلاة لا تسقط عن الإنسان إلا إذا مات؛ فالجهاد الآن في الوقت الحاضر لا يسقط عن الإنسان إلا إذا مات، أو مرض، أو أصبح صاحب عاهة؛ أعرج أو أعمى.. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾"[2].

٢- وبناء على ذلك كان يرى أن التخلف عن الجهاد فسق.

يقول ~:

"إن تركت أرض الجهاد فاحمل الشهادة من الله وعد، ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. تحمل شهادة الفسق، وإن قمت الليل وصمت النهار، وإن قمت الليل في بلدك وصمت النهار فأنت فاسق. <u>كل من لا يجاهد الآن</u> -<u>فوق الأرض</u>- <u>فهو فاسق</u>، وإن كان من حمائم المسجد، وإن كان من العباد والزهاد"[3].

وقال ~:

"ويعلم رسول الله T أن عدو الجهاد الأول هو الترف، هو الغرق في الشهوة. كيف لا؟ والقرآن يتنزل عليهم من فوق السبع الطباق يقول لهم: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾. أصحاب الغنى. ﴿أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ

[1] في التربية الجهادية والبناء- المجلد الثالث- نصائح جهادية ص: ٢٥١.

[2] في الجهاد فقه واجتهاد ص: ٤ و٥.

[3] شريط الجهاد ماض ٢.

فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾. ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ﴾. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾. ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾. ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾"[1].

وقال ~:

"إني أرى أنه لا يعفي عن مسئولية ترك الجهاد شيء سواء كان ذلك دعوة أو تأليفاً أو تربية، إني أرى أن كل مسلم في الأرض اليوم منوط في عنقه تبعة ترك الجهاد؛ القتال في سبيل الله، وكل مسلم يحمل وزر ترك البندقية، وكل من لقي الله -غير أولي الضرر- دون أن تكون البندقية في يده فإنه يلقى الله آثماً، لأنه تارك للقتال، والقتال الآن فرض عين على كل مسلم في الأرض"[2].

٣- وكان عداؤه ~ لأمريكا شديداً.

قال ~:

"إذاً: أعداء الله يدركون، من الذين يفهمون لا إله إلا الله ومن الذين لا يفهمون لا إله إلا الله، والذين يفهمون لا إله إلا الله اسمهم عند أعداء الله المتعصبون، والذين لا يفهمون لا إله إلا الله اسمهم عند أعداء الله المعتدلون، وهم يطلقونها صريحة : نحن لن نرضى عن الإسلام المتطرف، إنما نرضى عن الإسلام المعتدل، نحن لن نرضى عن الإسلام الأصولي، إنما نرضى عن الإسلام المرن، إنما نريد إسلاماً مرناً على الطريقة الأمريكية، يقال لهم الشيوعية فيقاتلونها، ويقال لهم الأمريكان فيقولون: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾"[3].

وقال أيضاً -~- عن زيارة نيكسون لباكستان:

"رجع إلى أمريكا عمل مؤتمراً صحفيا على التلفاز الأمريكي، الصحفي الأول قال له: أي شيء عملتم للمشكلة الفلانية؟ قال هذه مسألة سهلة.. المشكلة الفلانية. قال له: هذه سهلة... سهلة. قال له: إذن ما هي المشكلة؟ قال: المشكلة هي الإسلام، يجب

---

[1] من شريط تدمير المدمرة- جزء ٤.

[2] الشهيد عبد الله عزام بين الميلاد والاستشهاد ص: ١٨.

[3] في التربية الجهادية والبناء- المجلد الثالث ص: ١١ و١٢.

على أمريكا أن تتناسى خلافاتها مع روسيا ليوقفوا الزحف الإسلامي الذي بدأ ينمو ويمتد" [1].

ويقول ~:

"والحقيقة قد رأيت كما قلت لكم بالأمس؛ أن معظم أحكام الإسلام يعني الولاية تكوّن عموداً من أعمدة هذا الدين، وإذا نكس عمود الولاية أو انهار، انهار معظم الإسلام، أنا رأيت أن ضياع البلاد وفساد العباد معظمه من الولاية، من ولاية الكفار يأتي الأمريكان لواحد مثل ظاهر شاه يقولون له: إما أن تعمل كذا وكذا وإما أن تخرج المرأة عارية وسافرة أو يغير حكمك، فيأتي ويضع حجاب المرأة تحت قدمه، ويقول له: انتهى عهد الظلام، ويبدأ يفسد المرأة، ويأمر المرأة الأفغانية أن تكشف حجابها، وعندما رفضت نساء قندهار —معروف أهل قندهار بشدتهم والتزامهم وتمسكهم- عندما رفض أهل قندهار أن يعّروا نساءهم، أو أن يُسفروا عن وجوههن، سيّر الملك إليهم جيشا وقاتلهم، كان يقوده عمه شاه ولي، وقامت معركة بين جيش الملك وبين أهل قندهار، اسمها معركة الخمار، وسقط حوالي ألف شهيد من أهل قندهار" [2].

ويقول ~:

"يجب أن نعرف الحكم أن الذي يوالي الأمريكان كافر، والذي يوالي اليهود يهودي، والذي يوالي النصراني نصراني ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾. *وبعدها بآيتين قال:* ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾. *وبعدها بآيتين:* ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾. *أي أن ولاية اليهود والنصارى كفر يخرج من الملة وردة عن هذا الدين"* [3].

ويقول ~:

"أمريكا قالت لروسيا خلاص، قالت روسيا: وافقت على الانسحاب، أنا عندي شرط واحد؛ ابحثوا عن واحد ترتضونه أنتم يكون بديلاً عند ما أنسحب، خلاص يعني إيش واحد، قالوا : إسلام على الطريقة الأمريكية، إسلام أمريكاني، يعني مرن دينه مطاط يمط

---

(١) في التربية الجهادية والبناء- المجلد الثالث ص: ٤٧ و٤٨.

(٢) في التربية الجهادية والبناء- المجلد الثالث ص: ٢١.

(٣) في التربية الجهادية والبناء- المجلد الثالث ص: ٢٩.

حسب الأهواء الغربية، إيش على الأهواء الأمريكية؟ يعني الفتاوى جاهزة بجيبه، كيف جاهزة؟ نريد أن نحدد النسل يحضروا مشايخ ليقفوا على التلفاز، يقولوا "كنا نعزل والقرآن ينزل ولو كان شيئا مما نهانا عنه القرآن لنهانا"[1] نريد الاشتراكية يأتي الشيخ ويعلن أن الاشتراكية دين الله، والاشتراكيون أنت إمامهم، نريد القومية، يأتي شيخ ويفتي حب الوطن من الإيمان، وهكذا، أصدرت فتاوى على الجاهز بالجنب، مثل ما يسموه في أمريكا، الشباب المسلم يعني آلة الفتوى إضغط على زر تطلع بيبسى كولا، إضغط الزر تطلع ميرندا، إضغط على الزر تطلع فتوى جاهزة (فتوى ماشين)، دينه (فتوى ماشين) والآلة يجب أن تكون غربية، نعم تشتغل على النظام الغربي"[2].

ويقول ~:

"كان —هذا جونيجوا[3]— (جون إيجوا!!) مسروراً أن أمريكا والغرب والأمم المتحدة وعدته بمدالية اسمها مدالية —نوبل— اليهودية للسلام؛ لأنها جائزة يهودية ولا تعطى إلا لمن يخدمون اليهود، ولذلك نجيب محفوظ ما أعطيت له إلا لأنه خدم قضية تطبيع العلاقات بين اليهود وبين مصر، وأعطوه على أي فعل جائزة نوبل؟ على قصة مليئة بالطعن في الدين وبمحاربة الإسلام اسمها (أولاد حارتنا)"[4].

ويقول ~:

"أعظم قضية في الأرض الآن تشغل ذهن الأمريكان والروس والغربيين هي قضية أفغانستان، الكفر متخوف، والمسلمون متأمنون، المسلمون الصادقون الذين يدركون أبعاد المؤامرة العالمية على الإسلام، والهزائم التي مني بها، وتجرعوا مرارة هذا التاريخ وخاصة منذ بداية هذا القرن؛ أن كل مسئول —إلا من رحم الله— عبارة عن ألعوبة بيد الغرب أو الشرق، لا يستطيع أن ينقل خطوة، ولا أن ينبس ببنت شفه إلا ويستأذن من البيت الأبيض أو البيت الأحمر"[5].

ويقول ~:

"من خلال <u>الضغوط اليهودية</u> علينا هنا، من خلال <u>الضغوط اليهودية على الأمريكان والغرب لكي يخرجونا من داخل باكستان</u>، من خلال الضغوط اليهودية والغربية لمنع إعطاء

---

[1] حديث موقوف على جابر رواه البخاري في صحيحه.

[2] في التربية الجهادية والبناء- المجلد الثالث ص: ٤٩.

[3] جونيجو كان أحد رؤساء وزراء باكستان في عهد ضياء الحق.

[4] في التربية الجهادية والبناء- المجلد الثالث ص: ٥٢.

[5] في التربية الجهادية والبناء- المجلد الثالث ص: ١٣٧.

التأشيرات للعرب، وخاصة الفلسطينيين، كانوا يدركون أن الزلزال الذي حدث في جبال الهندكوش لا بد أن يتردد فوق المكبر في القدس" [1].

ويقول ~:

"انظروا يا إخوة حال المسلمين! الشيء عندما لا يوافق أهواء أمريكا، ليس له وجود شرعي ولا قانوني في الأرض، وإذا كان على أهواء أمريكا وبرغبتها ورأيها، فهو الشيء الشرعي والقانوني والأصولي وكل شيء" [2].

ويقول ~:

"لا يريدون أهل السنة والجماعة أن يصلوا إلى الحكم، يريدون (المودوريت)، الذين دينهم مطاط حسب المطاط الأمريكي، يفتون حسب الأهواء الأمريكية، طنجرة فتاوى جاهزة على جنبه، كلما طلبت منه أمريكا أن يفتي، يفتي؛ الصلح مع إسرائيل جائز ! قال الله عز وجل:﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾" [3].

٤- وكان عداؤه ~ لحكام بلاد العرب شديداً.

قال ~:

" اليهود، كيف أقيمت دولتهم؟ بولاية الكفار، يأتي الأمريكان، الإنجليز، يقولون للحكام (حكام العرب): إما أن توافقوا على إقامة حكم لليهود في فلسطين، أو نبعدكم عن الحكم، وقِّعوا. فيوقعوا، نعم هم مستعدون للتوقيع للأمريكان وللإنجليز وللروس على أي شيء يريدون" [4].

ويشير لملك الأردن فيقول ~:

"ولكن ماذا نفعل وقد وضعت في أيدينا القيود، وفرضت الحدود، وأقيمت الأصفاد، وأطلق الرصاص على ظهر كل من حاول أن يمس اليهود بسوء، أو يمد إليهم يداً، أو يحرك نحوهم ساكناً. نعم. لقد حاولنا في فلسطين أن نقاتل وقاتلنا سنة (١٩٤٨م)، ولم يشرفني الله -عز وجل- بالاشتراك معهم، ولكنه شرفني بالقتال مع الجماعة المسلمة سنة (١٩٦٩- ١٩٧٠م). ولكن عندما ضاقت الأرض بالطواغيت قرروا وأبوا إلا أن يمسحوا وجود المقاومة في أرضهم ولو بالطائرات والدبابات والقذائف والصواريخ" [5].

---

(١) في التربية الجهادية والبناء- المجلد الثالث ص: ١٤٣.

(٢) في التربية الجهادية والبناء- المجلد الثالث ص: ١٦٠.

(٣) في التربية الجهادية والبناء- المجلد الثالث ص: ١٦٠.

(٤) في التربية الجهادية والبناء- المجلد الثالث ص: ٢٢.

(٥) في الجهاد فقه واجتهاد ص: ٢٤٢.

ويشير لآل سعود فيقول ~:

"ثورة (١٩٣٦م) أطول إضراب في التاريخ من (١٥) إبريل حتى الثامن من أكتوبر من نفس العام، وقد كانت بريطانيا تحاول بستين جندي بريطاني يقاتلون مع اليهود أن تفك الإضراب ففشلت، وأخيرا وسطت الدول العربية، التي خدعت الشعب الفلسطيني، فأذيع البيان التالي من الحكومات العربية يوم الإسراء والمعراج: (لقد تألمنا كثيراً للحالة السائدة في فلسطين. فنحن -بالاتفاق مع إخواننا ملوك العرب والأمير عبد الله- ندعوكم للإخلاد للسكينة حقناً للدماء معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية)" [(١)].

ويقول ~ عن القذافي:

"تافه! حقير! ولد دمر البلد، والناس ينظرون إليه، أين محمد بن مسلمة؟ أين عبدالله بن عتيق؟ أحد يغتاله! ليس أحد؟! كل ينظر إلى الآخر، وإذا شاب منهم خرج للجهاد تجد مائة واحد يقول له: أنت مجنون، أنت...إلخ" [(٢)].

٥- وكان ~ كثير الثناء على الحركات الجهادية التي تعادي طواغيت العرب.

يقول ~ عن موقف بلال > وهو يعذب في مكة:

"الدعوات لا تنتصر إلا بهذا الوضوح الساطع أمام الجاهلية، "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله، أو أهلك دونه" . بمثل هذه النماذج تنتصر الدعوات، أما أن تنتصر بأناس يعيشون تحت الأرض، يفتحون كتاباً يقرأونه تحتها، هذا لا يفيد لنصر الدعوات، الدعوات إنما تنتصر بالدماء التي تراق، وبالأرواح التي تزهق، وبالأشلاء التي تتناثر، أما اللف والدوران، أما مخادعة الجاهلية، هذه لا تنصر الدعوات.

الناس يتأثرون بالنماذج المضحية ولا يتأثرون بالفلاسفة، الذي يلف من هنا وهنا.

الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- سألوه عن النظام الحاكم، قال: كافر. فسأله بعض تلاميذه: لماذا أنت كنت واضحاً بهذا الشكل أمام المحكمة؟ مع أن عنقك بين جلاديك. قال: لسببين، السبب الأول: أننا نتكلم في عقائد، والعقائد لا يجوز التورية فيها. لا تجوز التورية! لا يجوز التورية، التمويه يقول له ما رأيك في هذا الحكم؟ يقول: والله الحمد لله طيب. ويعني عن نفسه أنه طيب، أو يعني عن بعض ناس فيه طيب، لا هذه التورية لا تجوز في العقائد.

....

---

(١) حماس- الجذور التاريخية والميثاق ص: ٥.

(٢) في السيرة عبرة- معركة أحد- ٢ ص: ٥٢.

فسيد ~ كان يقول: لا يجوز التورية في العقائد. ثم الذي ينظر إليه الناس ويقلدونه لا يجوز له النطق بكلمة الكفر، أن يقر الجاهلية والاشتراكية والقومية على وضعها، هذا يجوز للتابع، ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾، لكن المتبوع لا يجوز له هذا.

....

وكانوا يقولون لسيد: يا سيد لو قدمت استرحاماً. قال: "إن إصبع السبابة التي تشهد لله بالوحدانية في الصلاة لترفض أن تكتب حرفاً واحداً تقر به حكم طاغية، فلماذا أسترحم؟ إن كنت محكوماً بحق فأنا أرتضي حكم الحق، وإن كنت محكوماً بالباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل".

بمثل هذه النماذج تتأثر الجماهير، وتتبع الأجيال، ويقلد الشباب، أما واحد لا تعرف رأسه من رجليه، ولا ظهره من بطنه، ولا تعرف إلى أي شيء يدعو الناس، كيف تقلده؟ كل يوم بلون، وكل يوم مع هذا الحاكم ومع هذا الأمير، ومع هذا المسؤول، كيف يمكن أن يقلده الناس؟ كيف؟ ولو كان عنده علم الأولين والآخرين، ويحفظ الحواشي والمتون والشروح والمعلقات والمسانيد، كيف يقلده الناس؟

يعني بالله عليكم من منكم سمع مرافعة كارم الأناضولي في المحكمة؟ سمعتموها؟ هذه المرافعة الصغيره تترك آثارا ًفي الأجيال لمدة عشرة قرون أو أكثر، أكثر من مؤلفات شيوخ الأزهر لمدة عشرة قرون .

أنا الحقيقة عندما أسمعها أهتز، شاب يقف أمام المحكمة، ويواجهها بهذه المواجهة، إن القضية ليست قضية الفنية العسكرية، وليست قضية صالح سرية، ولا كارم الأناضولي، إنها قضية الإسلام، الذي يذبح في مصر. إنها قضية أحمد بن حنبل والعز بن عبد السلام وحسن البنا وسيد قطب... إلخ.

مرافعة ما سمعت أقوى منها أبدا، شاب!! شاب!! وقتل كارم الأناضولي، ولكن بقيت كلماته تتردد في مسامعنا، أنا أثر في كارم الأناضولي أكثر من كل شيوخ الأزهر -مع أنني شيخ أزهري- أكثر بكثير.

من منكم تأثر أكثر؟ بكل مشايخ الأرض أم بخالد الإسلامبولي؟ خالد، لأن الإسلام لا ينتصر إلا بهذه النماذج، يا إخواني لا ينتصر إلا بالتضحيات، لا ينتصر بالفلسفة واللف والدوران والتضليل والتورية، وضحكت على المخابرات"[1].

وقال ~:

---

[1] في ظلال سورة التوبة ص: ١٨ إلى ٢٠.

"ثم جاءت أحداث سنة (١٩٨١م)، وقتل السادات، وتلاحقت قضايا تنظيم الجهاد، لا يكاد يمر عام إلا وعمليات السحق والإبادة تلاحق رؤوسه وتطحن قادته" [١].

ويقول عن الشيخ مروان حديدKوعن تلاميذه:

"وأنا واقف في الجامعة جاء شاب من تلاميذه، قال: تريد أن ترى الشيخ مروان؟ قلت: ماذا؟ على طول، أنا جئت لأحضر كرتونة!! عليه مباشرة، فذهبت إليه، ودخلت عنده، نظرت إلى وجهه، ليس من أهل الدنيا أبداً، صاف صفاءً عجيباً، النور يشع، أول كلمة قالها لي، هو يعرفني من أيام فلسطين، كان قد جاء معنا: يا أبا محمد. ألم تشتق إلى الجنة؟ كانت تلك آخر كلمات سمعتها منه.

....

وبعد هذا فعلاً حمل الراية شاب من الشباب، الذين كانوا تدربوا معنا في فلسطين، اسمه عبد الستار الزعيم، شاب كما في المثل التركي؛ يده على رجله.. صغير، طبيب أسنان وزنه خمسون كغم، فبدأ ينتقي كبار الرؤوس، ويغتالها واحداً تلو الآخر هو والشباب.

....

ثم تطورت القضية حتى حصلت حادثة المدفعية، وصل عدنان عقلة وهو من تلاميذ الشيخ مع إبراهيم اليوسف في يوم واحد، إبراهيم اليوسف هذا كان ضابطاً من الضباط في داخل المدفعية، وفي وقت آخر -إن شاء الله- قد يحصل وقت -في أثناء سورة التوبة وفي أثناء تفسيرها- نحدثكم بالتفصيل عن أمثال هذه النماذج، التي تحرك الأجيال .

إن الدعوات لا تنتصر إلا بأمثال هذه النماذج، ولا يمكن أن تعيش إلا على محك المحنة، هذه النماذج التي تصطلي بنار المحنة، هي التي تكو ن القاعدة الصلبة، التي ينتصر بها هذا الدين، وتصبح قطب الرحى في توجيه الأمم الكبيرة" [٢].

٦- وكان يرى أنه لا بد من تغيير الواقع القائم بالقوة، وأن الأمة قد عرفت طريق الذل لما تركت السيف، وأن عدم إكراه الناس على الإسلام يأتي بعد إزاحة الأنظمة والأوضاع الجاهلية بالقوة.

يقول ~:

"إن هذا الدين جاء إعلاناً عاماً للبشرية كافة. يؤذن أن مجال عمله هو الإنسان -كل إنسان- في الأرض كل الأرض، ومن ثم فإن الجهاد ضرورة حتمية تلازمه، كلما أردنا أن نبلغه للناس، أو ننشره في ربوع العالمين، لأنه سيقف في وجهه العقبات الكبرى التي يقوم عليها كيان الجاهلية.

---

[١] حماس الجذور التاريخية والميثاق ص: ١٥.

[٢] في ظلال سورة التوبة ص: ٢١ إلى ٢٥.

سيقف في وجهه عقبات كأداء: سياسية واجتماعية واقتصادية وعرقية وجغرافية، ولا يمكن لدين جاء لينقذ البشرية أن يقف مكتوف اليدين يبلغ باللسان، ويدع للجاهلية السلاح والسنان، لأن الجاهلية نفسها ستتحرك، لتحمي كيانها وتجتث الإسلام من الجذور.. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾.

وسواء تحركت الجاهلية أم لم تتحرك، فلا بد للإسلام أن ينطلق بحركته الذاتية، التي لا بد منها لقانون التدافع ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

إن قانون التدافع بين الحق والباطل هو الذي يحفظ الحياة صالحة، وإلا أسنت الحياة وتعفنت، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، يعني إن لم تحصل الموالاة بين المؤمنين والجهاد والهجرة في سبيل الله يعم الشرك الأرض.

وقانون التدافع: هو التفسير الإسلامي للتاريخ والأحداث، إن الإسلام لم يأت ليكون دين الجزيرة العربية فحسب، أو ليكون دين العرب فقط، ثم بعد ذلك يقبع في أرجاء الجزيرة، يدافع عن حدودها، ويحمي أطرافها، إن رسول الله T بعث للأحمر والأسود.

إن الجهاد ضرورة لحماية الشعائر وحفظ الفرائض التعبدية وأماكن أدائها ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ...﴾.

فالتمكين في الأرض ضرورة حتمية وفرض لازم لحماية العبادة ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ..﴾.

لقد بلغت الجرأة بأعداء الله أن يعلن أتاتورك تحويل مسجد آياصوفيا إلى متحف، ويمنع الأذان بالعربية، ويمنع الصلاة أمام الناس، ويفرض السفور على كل امرأة تتعامل مع الدولة، أو تدرس في مدارسها!!

ولقد وصل الصلف بعبد الحكيم عامر أن يوزع على خطباء المساجد أن يمتنعوا عن الكلام على فرعون سيدنا موسى!!

وبلغ الغرور بالنصيري أن يعلن حكم الإعدام عقوبة على من ثبت أنه من الإخوان المسلمين!!

ووصل الإستهتار والسخرية بالقيم عند أحدهم أن يؤسس نوادي للعراة يسميها (صفر في الأخلاق)!!

ويعلن جمال سالم هزأه بالقرآن الكريم، فيطلب من الأستاذ الهضيبي أن يقرأ الفاتحة معكوسة.

ويصرح حمزة البسيوني قائلاً لمن استغاثوا بالله أثناء التعذيب: (لو جاء الله لوضعته في الزنزانة)!!.

إنها مهزلة مضحكة قاتلة أن يقول قائل: إن وظيفة الإسلام أن يقف واعظاً لأمثال هؤلاء، ينصحهم باللسان، ولا شأن له بالسنان، لأنه لا إكراه في الدين!!

لا بد للإسلام من البيان باللسان وإزالة الحواجز أمام دعوته بالسنان.

نعم لا إكراه في الدين بعد تحطيم العقبات، التي تحول دون وصول الإسلام إلى الناس، وتمنع دخول الناس في هذا الدين، وتعبدهم لغير رب العلمين، إن الحق يأبى الحدود الجغرافية، ولا يرضى أن ينحصر في حدود ضيقة اخترعها علماء الجغرافيا، فالحق يتحدى العقول البشرية النزيهة، ويقول لها: ما بالكم تقولون إن القضية الفلانية حق في هذا الجانب من الجبل أو النهر، وهي باطل إذا تعدت هذا الشاطئ إلى الشاطئ الآخر؟" [١].

وقال ~:

"فهذا الدين جاء بالسيف، وقام بالسيف، ويبقى بالسيف، ويضيع إذا ضاع السيف، وهذا الدين دين هيبة.. دين رهبة، دين قوة، دين صولة، دين عزة، والضعف فيه جريمة يستحق صاحبها جهنم. **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾** *" [٢].*

٧- وكان يرى أنه لا بد من إقامة دولة مسلمة على بقعة من الأرض عبر جهاد شعبي عام، تتميز فيه القيادات بمقدار عطائها.

يقول ~:

---

[١] عبر وبصائر للجهاد في العصر الحاضر ص: ٦ و٧.

[٢] ذكريات فلسطين ص: ١٧.

"إن إقامة المجتمع المسلم فوق بقعة أرض ضرورية للمسلمين ضرورة الماء والهواء، وهذه الدار لن تكون إلا بحركة إسلامية منظمة، تلتزم الجهاد واقعاً وشعاراً، وتتخذ القتال لحمة ودثاراً.

وإن الحركة الإسلامية لن تستطيع إقامة المجتمع المسلم إلا من خلال جهاد شعبي عام، تكون الحركة الإسلامية قلبه النابض وعقله المفكر، وتكون بمثابة الصاعق الصغير الذي يفجر العبوة الناسفة الكبيرة، فالحركة الإسلامية تفجر طاقات الأمة الكامنة وينابيع الخير المخزونة في أعماقها.

فالصحابة -رضوان الله عليهم- كان عددهم قليلاً جداً بالنسبة لمجموع عامة المسلمين، الذين قوضوا عرش كسرى، و ثلوا مجد قيصر. بل إن القبائل المرتدة عن الإسلام في أيام الصديق قد سيرهم عمر بن الخطاب -بعد أن أعلنوا توبتهم- إلى قتال الفرس، ولقد أصبح طلحة بن خويلد الأسدي -الذي ادعى النبوة من قبل- أحد أبطال القادسية البارزين، واختاره سعد لمهمة استكشاف أخبار الفرس، فأبدى شجاعة فائقة.

أما الحفنة من الضباط التي يمكن أن يتوهم البعض أن بإمكانهم عمل مجتمع مسلم فهذا ضرب من الخيال، أو وهم يشبه المحال، لا يعدو[1] أن يكون تكراراً لمأساة عبد الناصر مع الحركة الإسلامية مرة أخرى.

والحركة الشعبية الجهادية -مع طول الطريق ومرارة المعاناة وضخامة التضحيات وفداحة الأرزاء- تصفي النفوس، فتعلو على واقع الأرض الهابط، وترتفع الاهتمامات عن الخصومات الصغيرة على دراهم، وعن الأغراض القريبة، وسفاف المتاع، وتزول الأحقاد، وتصقل الأرواح، وتسير القافلة صعداً من السفح الهابط إلى القمة السامقة بعيداً عن نتن الطين وصراع الغايات.

وعلى طول طريق الجهاد تفرز القيادات ، وتظهر الكفاءات من خلال العطاء والتضحية، ويبرز الرجال شجاعتهم وبذلهم.

....

فأبو بكر وعمر وعثمان وعلي } ما برزوا إلا من خلال الأعمال الجليلة والتضحيات الباهظة، ولذا لم يكن أبو بكر بحاجة إلى دعاية انتخابية عندما أجمعت الأمة على انتخابه، فما أن فاضت روح رسول الله T إلى الرفيق الأعلى في الجنة تطلعت العيون إلى الساحة، فلم تجد أفضل من أبي بكر > .

---

[1] لعل الصواب: لا يعدو إلا أن يكون..

والأمة التي تجاهد، تبذل الثمن غالياً، فتجني الثمرة الناضجة، ليس من السهل أن تفرط فيما جنته بالعرق والدم، وأما الذين يتربعون على صدور الناس من خلال البيان الأول في انقلاب عسكري، صنع وراء الكواليس في السفارات، يسهل عليهم التفريط بكل شيء.

ومن أخذ البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد

والأمة الجهادية -التي يقودها أفذاذ بروزا من خلال الحركة الجهادية الطويلة- ليس من السهل أن تفرط بقياداتها، أو تخطط للإطاحة بها، وليس من اليسير على أعدائها أن يشككوها بمسيرة أبطالها، والحركة الجهادية الطويلة تشعر الأمة بأفرادها جميعا أنهم قد دفعوا الثمن، وشاركوا في التضحية من أجل قيام المجتمع الإسلامي، فيكونون حراساً أمناء لهذا المجتمع الوليد، الذي عانت الأمة جميعها من آلام مخاضه.

لا بد للمجتمع الإسلامي من ميلاد ، ولا بد للميلاد من مخاض ، ولا بد للمخاض من آلام" [1].

وقال ~:

" إذا أردنا أن نسير من كابل إلى القدس، فهذا هو الطريق: دعوة إسلامية، تربي الشباب على الإسلام، يحملون السلاح، يدخلون المعركة بعقيدة، وعندئذ ينتصرون، بدون هذا سنبقى نحرث في الماء، ونزرع البذور في الهواء، وسيبقى ضياع في ضياع، وتبقى القضية إعلانات وشعارات، وجمل وعبارات، ولوك كلمات، ولا ننتهي إلى نهاية" [2].

٨- وكان ~ يدعو الشباب لعدم الاستسلام لسلطات الأمن ولمقاومتهم، حتى لو أدى ذلك لاستشهاد المطلوبين.

يقول ~:

"(من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد).

صحيح رواه أبو داوود والترمذي والنسائي وأحمد عن سعيد بن زيد، وهو في صحيح الجامع برقم (٦٣٢١).

وهذا يسمى في الفقه : دفع الصائل، والصائل هو الذي يسطو بالقوة على الأعراض والنفوس والأموال.

---

[1] الذخائر العظام ج: ١ ص: ١٧٩ إلى ١٩٤- نقلتها عن دعوة المقاومة الإسلامية العالمية ص: ١٥٩١ إلى ١٥٩٢.

[2] ذكريات فلسطين ص: ١٢ و١٣.

وقد اتفق الفقهاء الأربعة على وجوب دفع الصائل على الأعراض، أما الصائل على النفس أو المال فيجب دفعه عند جمهور العلماء، ويتفق مع الرأي الراجح في مذهبي مالك والشافعي، ولو أدى إلى قتل الصائل المسلم.

قال الجصاص:"لا نعلم خلافا أن رجلاً لو شهر سيفاً على رجل ليقتله بغير حق أن على المسلمين قتله" . وقال ابن تيمية: "فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه" .

وكم كلف جهل هذا الحكم الشرعي المسلمين من ضحايا، لأن المخبر كان يأخذ زوجته في منتصف الليل، ولا يقتله خوفا من سفك دم امرئ مسلم" [١].

ويقول ~:

"قد يسأل سائل : أو يجوز لنا أن نقتل شرطيا يصلي ويصوم، من أجل أنه يريد أن يأخذني إلى قسم البوليس؟

أما رأي الفقهاء بالإجماع على أنه لا يجوز لأحد أن يستسلم لإنسان يريد أن ينتهك عرضه، فإذا كان عبد الناصر يأخذ الأخ المسلم مدة عشرين عاماً في السجن، ويأتي بزوجته، وينتهك الشرطة عرضها أمامه، فالإجماع منعقد على أنه لا يجوز أبداً أن يستسلم حتى الموت.

اتفق الفقهاء جميعاً على أن دفع الصائل عن العرض واجب بالإجماع. فإذا أنت تركت الشرطة يقتحمون بيتك فى وهن من الليل، وزوجتك عارية فى ثياب النوم، يكشفون عنها غطاءها، ليبحثوا أنك نائم عندها، فعرضك منتهك، وأنت آثم عند رب العالمين، فهنا الظلم. والصلاة والصوم من قبل الشرطي هذه لا تمنع عنه قضية القتل" [٢].

٩- وكان ~ يدعو المسلمين وخاصة العلماء للجهر بالحق في وجه الطغاة الظالمين، حتى ولو أدى لاستشهاد الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

يقول ~:

"(إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه).

صحيح رواه أحمد والطبراني عن كعب بن مالك ، وهو في صحيح الجامع برقم/١٩٣٠

.

---

(١) إتحاف العباد بفضائل الجهاد ص: ٨.

(٢) في الجهاد فقه واجتهاد ص: ١٧٥ و١٧٦.

ومن الجهاد باللسان فتوى العلماء في وجوب الجهاد خاصة عندما تخالف هوى السلطان، فهنا تكون الفتوى شديدة على النفس، لأنها قد تكلف العالم وظيفته أو سجنه أو عنقه، ولذا لا يستفتى في أمور الجهاد إلا الصادقون العالمون العاملون.

قال ابن تيمية في الفتاوى الكبرى ١٨٥/٤: "والواجب أن يعتبر في أمور الجهاد برأي أهل الدين الصحيح، الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا، دون الذين يغلب عليهم النظر في ظاهر الدين فلا يؤخذ برأيهم، ولا برأي أهل الدين الذين لا خبرة لهم في الدنيا".

أي يشترط في الذي يفتي في أمور الجهاد: أن يكون قادراً على الاستنباط مخلصاً، وأن يعرف طبيعة المعركة وأحوال أهلها" (١).

ويقول ~:

"عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله). رواه الترمذي.

وهذا يدل على منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام.. وإنكار المنكر والظلم في المجتمع واجب، ولو في وجه الحاكم المسلم إذا كان ظالماً أو فاسقاً، أما الحاكم الكافر فلا يجوز السكوت عليه بحال، ولا تجوز ولايته، والخروج عليه فرض من قبل الأمة جميعاً" (٢).

وقال ~:

"أيها المسلمون: حياتكم الجهاد، وعزكم الجهاد، ووجودكم مرتبط ارتباطاً مصيرياً بالجهاد، أيها الدعاة: لا قيمة لكم تحت الشمس، إلا إذا امتشقتم أسلحتكم، وأبدتم خضراء الطواغيت والكفار والظالمين.

إن الذين يظنون أن دين الله يمكن أن ينتصر بدون جهاد وقتال ودماء وأشلاء، هؤلاء واهمون لا يدركون طبيعة هذا الدين" (٣).

١٠- وكان يرى ~ أن الالتزام ببيعة الجماعات لا يمكن أن تمنع المسلم عن عمل من أعمال الخير، ناهيك عن الجهاد.

يقول ~:

"والبيعة دائما على البر والتقوى، لأنه عهد على التعاون على البر والتقوى، ولا يجوز البيعة على الإثم والعدوان، كمن يتعاهدون عهداً خاصاً، ثم يطلب من المبايع بعد فترة أن

---

(١) إتحاف العباد بفضائل الجهاد ص: ٤٨.

(٢) إتحاف العباد بفضائل الجهاد ص: ٦.

(٣) الشهيد عزام بين الميلاد والاستشهاد ص: ١٥.

يعمل أعمالاً لا يرضاها الله، ولا تقرها الشريعة كمقاطعة فلان، والتجسس على فلان، وتتبع عورات الآخرين.

ويجوز للمسلم أن يعطي عدة بيعات لعدة أشخاص، فيعطي الشيخ بيعة أن يجاهد معه، والآخر بيعة أن يتلقى العلم على يديه، ويتربى على يديه، ولا معارضة بين هذه البيعات، ولا يجوز لأحد أن يفرض طاعته في كل شيء على من عاهد على شيء، ولا يجوز لأحد أن يحتج ببيعته ليمنع المبايع من عمل بر، نص عليه الكتاب والسنة كالجهاد في سبيل الله مثلاً. لأن البيعة عندئذ تنقلب إلى بيعة على الإثم (وإنما الطاعة بالمعروف) (ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق). حديثان صحيحان" [1].

١١- ونختم هذا الفصل بهذه الكلمات للشيخ الشهيد كما نحسبه، وكأنه ~ يقرأ فيها الغيب:

" يا أيها الإخوة: نحن مظلومون... ظلمنا... منعنا أن ندفع الصائل عن أعراضنا، منعنا أن نمنع الصائل في داخل بيوتنا، حرمنا أن نمد يداً إلى السارق، الذي دخل إلى حجرة نومنا، ماذا بعد ذلك إلا أن تسألنا الملائكة: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾*؟ فماذا يكون الجواب، إلا أن يكون جواب تلك الطائفة الأولى:* ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾*. فيكون الجواب من رب العزة:* ﴿فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾*.*

إن منهاجنا هو تحرير أفغانستان، نعم لا بد من تحرير أفغانستان، لأنه جزء من ديننا وفرض لازم في أعناقنا، وأن نحرر بيت المقدس، وأن نعيد الأقصى تحت ظل التوحيد وتحت راية لا إله إلا الله، نعم.. ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾*.*

ولكن كما قلت لكم غلت الأيدي، وصفدت الأيدي مع الأعناق، ووضعت الأصفاد والقيود بالأرجل، ومنعت الأنفاس، وعدت علينا، وكبتت النبضات، وأحصيت دقات القلوب، فماذا بعد ذلك؟ لا بد أن نبحث عن موطئ للجهاد، نعذر به إلى رب العباد، ونعد أنفسنا لنعود إلى تطهير البلاد.

إن الذين يظنون أن الجهاد في أفغانستان هو إغفال للقضية الإسلامية في فلسطين، هؤلاء واهمون غافلون، لا يدركون كيف تعد القيادات؟ وكيف تبنى الحركات؟ وكيف تؤسس النواة؟ ليتجمع حولها الجيش الإسلامي الكبير، الذي يطهر به الأرض من الفساد الكبير. ونحن والناس يراجعوننا على أنكم قد تركتم فلسطين، واشتغلتم بأفغانستان. نحن

---

[1] إتحاف العباد بفضائل الجهاد ص: ٢٦.

مشغولون بأفغانستان، ويجب علينا أن نساعد الشعب المسلم المجاهد في أفغانستان، ويجب علينا أن نطهر أرض أفغانستان.

....

إن أفغانستان هي فلسطين وفلسطين هي أفغانستان والشجى يبعث الشجى، ولكننا لا نريد أن تموت جذوة الجهاد في أعماقنا، ولا أن يخبو الحماس لهذا الدين ولإنقاذ المستضعفين ولحماية بلاد المسلمين في داخل شرايننا ومساربنا الداخلية، نريد أن تبقى الجذوة حية، فلا بد أن نبقى نزاول الجهاد. والجهاد فريضة العمر في أفغانستان وفي فلسطين وفي الفلبين وفي كل مكان طغى فيه الأباطرة والقياصرة والظالمين.

....

سيقول قائل: إن تعلن عن قضية سيرميك العالم كله عن قوس واحدة، ويصمم سهامه إليك من كل مكان، فنقول لهم: نحن نشعر الآن على أن اليهودية العالمية والأمريكان وغيرهم من العملاء في أرجاء العالم الإسلامي نجد منهم الأمرين، ونذوق منهم كل ويل، حتى في الدخول إلى أرض الجهاد، حتى في الدخول إلى أرض باكستان.

....

قبل السنتين الأخيرتين التي انتبه فيها اليهود إلى أن هنالك شباب من العالم الإسلامي، أيقظهم هذا الجهاد المبارك، وهزهم من سباتهم العميق، وحرك في أعماقهم النخوة لهذا الدين والرجولة لحماية الأعراض، التي تنتهك، والدماء التي تسفك، والأموال التي تسلب، والأرواح التي تزهق، فانتبهوا، فبدأت التشديدات، وبدأت الضغوط.

....

نحن مسلمون، نحن مجاهدون إن شاء الله، وطنا أنفسنا للموت في أي مكان، للاغتيال في أرض باكستان، للقتل في داخل أفغانستان، للموت فوق ربوع المسجد الأقصى، لقد نذرنا أنفسنا لله عز وجل، ونرجو الله أن يعين هذه النفوس الضعيفة، وأن يقوي هذه الأجساد والأعصاب الكليلة، وأن يثبتنا على الطريق.

....

ونرجو الله -عز وجل- أن لا نسقط إلا على هذا الطريق شهداء، ونحن نعتقد كذلك على أننا حيث قتلنا وأنى سقطنا فنحن شهداء، ما دام في الأعماق نية استمرار الجهاد، وما دام في داخل مساربنا عزيمة استمرار القتال والجلاد، وكما قلت لكم -وأنا أعلن هذا وأنا ضعيف- فقد أخرج غداً عن هذا الطريق، ولكنه طريق الحق، ونرجو الله الثبات، فإن سقطنا على الطريق -حيث ما سقطنا برصاص أمريكي أو برصاص غادر أو ظالم أو

برصاص شيوعي- فنحن بيننا وبين الله نعتقد أننا شهداء، نعتقد أننا -بإذن الله- ما دامت النية خالصة والعزيمة موجودة أننا قد بلغنا، وأشهدنا، وقدمنا الروح"[١].

ولعل في هذا الاستعراض الموجز لتراث الشيخ الشهيد -كما نحسبه- ~ ما يدحض الصورة السيئة، التي حاول بعض من ينتسبون إليه أن يلصقوها به. أسأل الله أن يكون هذا بعضاً من الوفاء لذلك العملاق المجاهد ~، الذي خلف وراءه تراثاً قيماً، على المسلمين أن يهتموا به الاهتمام الذي يستحقه.

رحم الله عبد الله عزام، فقد أكرمه الله بالشهادة، وعافاه من أن يعيش ليرى كثيراً ممن كان يمدحهم، بل ويُنتقد للمبالغة في مدحهم، حرصاً منه على الذب عن الجهاد الأفغاني، أقول: ليرى كثيراً ممن كان يمدحهم، وهم يعودون لكابل تحت ظل أعلام الصليبية وفي حماية طائراتها ودباباتها!

---

[١] في الجهاد فقه واجتهاد ص: ٢٤١ إلى ٢٤٤.

الفصل الثالث:

العمليات في مصر

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾

إذا لم يكن إلا الأسنةُ مركبٌ   فلا رأيَ للمضطرِ إلا ركوبُها[(١)]

قد لا يكون من المناسب أن أقدم هنا سرداً تفصيلياً لعمليات المجاهدين ضد الحكومة في مصر بعد مقتل أنور السادات، ولكني سأحاول أن أقدم عرضاً مجملاً لأهم العمليات الجهادية ومعانيها في تلك الفترة، وسأعرض أولاً لأهم العمليات الجهادية، ثم ثانياً للدروس المستفادة من هذه العمليات.

أولاً: أهم العمليات في مصر بعد مقتل أنور السادات.

١- يمكننا أن نبدأ رصد بداية العمليات في مصر بتسجيل عدوان الحكومة على حي عين شمس بالقاهرة.

أ- حين اقتحمت قوات الشرطة مسجد آدم عقب صلاة المغرب يوم الجمعة ١٢ أغسطس سنة ١٩٨٨، حيث تعقد الجماعة الإسلامية ندوتها الأسبوعية. ومن الجدير بالذكر أن مسجد آدم قد سبق اقتحامه عدة مرات من قبل قوات الشرطة، كما أن اقتحام المساجد أصبح عادة متكررة لقوات الشرطة، يحطمون كل ما بداخلها، ويمزقون الكتب، ويطلقون داخلها القنابل المسيلة للدموع وطلقات الرصاص بلا تمييز.

---

(١) البيت للكميت بن زيد الأسدي. الإعجاز والإيجاز ص: ١٦٣.

إن العدوان المتكرر حتى اليوم على المساجد، لا يمكن أن يمر بدون عقاب بإذن الله، وهذه الجرائم يتحمل مسؤوليتها النظام المصري والإدارة الأمريكية، التي تتم هذه الجرائم برضاهما وتحت سمعهما وبصرهما وتنفيذاً لسياساتهما في كبت المقاومة الإسلامية ضد التوسع الإسرائيلي في المنطقة.

وقد بدأ الاقتحام بتحطيم نوافذ المسجد، ثم إلقاء القنابل المسيلة للدموع والقنابل الحارقة داخله لإجبار الموجودين فيه على الخروج، وعندما بدأوا بالخروج اقتحمت قوات الشرطة المسجد، وأطلقت الرصاص بلا تمييز.

وكانت هذه الجريمة كافية لاستفزاز أهالي المنطقة الذين انضموا تلقائياً إلى أعضاء الجماعة الإسلامية، فاتسع نطاق الاضطرابات، حتى شمل المنطقة بأسرها.

وجن جنون وزارة الداخلية، فأصدرت الأوامر بإطلاق الرصاص، وتساقط الضحايا من الأطفال والنساء والشيوخ والشباب، وامتلأت الشوارع والبيوت بالجرحى والقتلى الغارقين في دمائهم، كما امتلأت شاحنات الشرطة بمئات المعتقلين. وكان من الطبيعي أن يرد الأهالي، وأصيب ضابطان وأربعة جنود، وتوفي الضابط محمد زكريا متأثراً بإصابته بحجر في رأسه.

وبالطبع فرضت أجهزة الأمن حظر التجول في جميع شوارع المنطقة، ودفعت وزارة الداخلية بأعداد هائلة من القوات إلى المنطقة.

ب- كانت الحملة الثانية على حي عين شمس يوم الأربعاء ٧ ديسمبر ١٩٨٨، حين انتهز وزير الداخلية -زكي بدر- ورود معلومات عن مسيرة سلمية تنوي الجماعة الإسلامية تنظيمها إلى القصر الجمهوري بالقبة، للإعراب عن تأييدها للانتفاضة في فلسطين المحتلة. ولكن الشرطة لم تكن لتسمح للجماعة الإسلامية بأن تعبر عن وجودها في الشارع بمظاهرة، مهما كان السبب.

واقتحمت الشرطة مسجد آدم قبل صلاة الفجر، واعتقلت كل من بداخله، وقامت بحملة اعتقال واسعة النطاق لجميع أعضاء الجماعة الإسلامية في مناطق عين شمس والمطرية والألف مسكن ومساكن عين شمس، واعتقلت أكثر من ١٨٠ شخصاً. وخرجت صحف الحكومة ببيان لوزارة الداخلية يتضمن اعترافاً بالحملة على عين شمس واعتقال عشرات من أعضاء الجماعة الإسلامية، وزعم البيان أنه تم ضبط منشورات وأسلحة بحوزة بعض المعتقلين، كما اعترف البيان بأن قوات الشرطة أغلقت مسجد آدم، وأنها تواصل تمشيط المنطقة بحثاً عن أعضاء الجماعة الإسلامية المطلوب اعتقالهم، ولكن البيان لم يذكر اعتقال النساء من زوجات وأمهات وأقارب الهاربين وأطفالهم كرهائن، لإجبارهم على تسليم أنفسهم، ولم يذكر أيضاً ما تعرضوا له من تعذيب وحشي ليعترفوا بأماكن ذويهم.

ج- وفي تطور سريع للأحداث طعن بائع بسوق عين شمس ضابط الشرطة المقدم عصام شمس، وتوفي الضابط متأثراً بإصابته، وفر البائع الذي ثبت من تحقيقات النيابة أن اسمه شريف محمد أحمد، وكان قد تعرض للضرب المبرح عدة مرات على أيدي بعض ضباط المباحث، كما سبق اعتقاله في

أحداث أغسطس المذكورة آنفاً، وتعرض للتعذيب في قسم عين شمس. وكانت نهاية الأحداث تمثيلية سيئة الأدوار قتل فيها شريف محمد أحمد وآخرين معه هما خالد إسماعيل وأشرف درويش رمياً بالرصاص، ثم زعمت وزارة الداخلية في بيان أصدرته؛ أن القتلى الثلاثة قاوموا الشرطة أثناء القبض عليهم لمدة ثلاث ساعات في أحد شوارع شبرا، رغم عدم إصابة ضابط أو جندي واحد بطلقة. كما زعم البيان أنه قد تم العثور على بعض الأسلحة بجوار جثث القتلى الثلاثة، وقتل أيضاً أحد قيادات الجماعة الإسلامية بالمنطقة ويدعى جابر محمد أحمد، وادعت الشرطة كالعادة أنه قاوم السلطات، وحاول قتل أحد الضباط، فاضطرت القوات إلى إطلاق الرصاص عليه. وفور وقوع الحادث فرض حظر التجول في شوارع المنطقة، وشنت حملة اعتقالات واسعة على المشتبه في صلتهم بالحادث، وكان من أسباب ذلك الحادث دور الضابط المذكور في التعذيب الوحشي للمعتقلين في قسم شرطة عين شمس.

وأمر زكي بدر -وزير الداخلية حينئذ- باعتقال ٣٠ سيدة وفتاة من أمهات وزوجات وشقيقات قيادات الجماعة الإسلامية الهاربين، وعقب تعذيب بشع تعرضن له في قسم عين شمس تم نقلهن إلى إدارة مباحث أمن الدولة في لاظوغلي، حيث تم تجريدهن من ملابسهن، وتعرضن للصفع والركل وألوان السباب[(١)].

وهكذا كانت أحداث عين شمس اعتداءً صارخاً على الجماعة الإسلامية بل وعلى الشعب في كل المنطقة، وكان الهدف منها واضحاً، وهو تدمير النشاط الدعوي السلمي، الذي كانت تقوم به الجماعة الإسلامية في تلك المنطقة، بعد أن حازت تأييد الناس نتيجة للنشاط الاجتماعي والدعوي، الذي بذله أعضاؤها، ولكن الحكومة التي انتهجت سياسة قتل أفراد الجماعات الإسلامية ومنع أي نشاط لها، لم تكن لتسمح بذلك، تلك السياسة التي عبر عنها زكي بدر بسياسته المعلنة (الضرب في سويداء القلب، والضرب في المليان).

٢- وقررت الجماعة الإسلامية الرد على أحداث عين شمس، وكان الرد هو إعداد كمين لموكب زكي بدر -وزير الداخلية- بواسطة سيارة ملغومة في ٢٦ ديسمبر ١٩٨٩، ولكن الكمين فشل لخلل في المتفجرات داخل السيارة، وقبض على سائقها.

٣- وردت وزارة الداخلية على الجماعة الإسلامية بقتل الدكتور علاء محيي الدين في الشارع في وضح النهار في ٢ سبتمبر ١٩٩٠.

وكان علاء محيي الدين ~ من قيادات الجماعة الإسلامية الداعين للحوار مع الحكومة، وعبر عن ذلك في عدة مناسبات رافعاً شعار (مرحباً بالحوار الحر المتكافئ)، وهي سياسة ثبت فشلها تماماً مع حكامنا.

---

(١) جريدة الوفد: الأربعاء ١٦ رجب ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩/٢/٢٢.

وكان قتل علاء محيي الدين رسالة واضحة إلى الجماعة الإسلامية؛ أن الدعوة للحوار جزاؤها القتل، وأن النظام لن يقبل بوجود الجماعات الجهادية، وكان النظام منطقياً مع نفسه، فالجماعات الجهادية هي أخطر معارضة في مواجهته، فهي أقدر الجماعات على تجميع الشباب المسلم والانتشار بينه، وهي أخطر الجماعات على سياسة التطبيع مع إسرائيل، ولن يهنأ لإسرائيل مقام فوق أرض مصر طالما كان تهديد الجماعات الإسلامية قائماً.

٤- وردت الجماعة الإسلامية على قتل علاء محيي الدين ~ بنصب كمين لوزير الداخلية عبد الحليم موسى، ولكن شاء الله أن يمر موكب رفعت المحجوب -رئيس مجلس الشعب- بدلاً منه فوقع في الكمين وقتل. وهكذا تحولت الجماعة الإسلامية من خطها الدعوي طويل المدى إلى خط المواجهة بمقاومة عدوان الحكومة عليها بالقتال.

٥- وفي مطلع التسعينيات حدث تطور مهم آخر، وهو القبض على عدد كبير من إخواننا في جماعة الجهاد وتقديم ثمانمائة منهم إلى المحاكم العسكرية فيما عرف بقضايا طلائع الفتح، وحكمت المحكمة على أربعة منهم بالإعدام. وخرجت الصحف الحكومية مزهوة متفاخرة بالقبض على ثمانمائة عضو في جماعة الجهاد بدون إطلاق طلقة واحدة. وقررنا أن ندخل معركة المواجهة مع الحكومة، بعد أن كان خطنا السابق هو الانتشار وتجنيد العناصر استعداداً لمعركة التغيير.

٦- وكان ردنا هو الهجوم على موكب وزير الداخلية -حسن الألفي- بعملية استشهادية بدراجة نارية ملغومة، ونجا الوزير من الموت، ولم يصب إلا بكسر مضاعف في ذراعه، وحالت بينه وبين الموت كومة من الملفات كان يضعها إلى جانبه استقرت بها الشظايا.

٧- وتلا ذلك هجوم إخوة الجماعة الإسلامية على وزير الإعلام -صفوت الشريف- ونجا وزير الإعلام من الكمين. وتزامن مع ذلك هجوم الجماعة الإسلامية على قائد المنطقة العسكرية المركزية باعتباره القائد المصدق على أحكام المحاكم العسكرية، ولم ينجح الهجوم لأن سيارته كانت مصفحة.

٨- وقام إخواننا في جماعة الجهاد بالهجوم على موكب رئيس الوزراء -عاطف صدقي- بسيارة ملغومة، ولكن رئيس الوزراء نجا من الهجوم بخروج سيارته من دائرة الانفجار بأجزاء من الثانية، بعد أن أصابتها شظايا الانفجار.

وقد نتج عن الهجوم المذكور مقتل طفلة تدعى شيماء، كانت تلميذة في مدرسة مجاورة، وكانت تقف قريباً من موقع الحادث. وقد استغلت الحكومة مقتل الطفلة شيماء رحمها الله، وصورت الحادث على أنه هجوم من جماعة الجهاد على الطفلة شيماء وليس على رئيس الوزراء عاطف صدقي. وأظهرت الصحف صور والدي شيماء وهما ينتحبان على ابنتهما، وصور شيماء في طفولتها المبكرة. وحاولت تهييج مشاعر الجمهور بهذه الأساليب، لتبعد أنظار الناس عن القضية الأساسية في الصراع بين المجاهدين والحكومة.

ووهذه الأساليب تتفق مع التوصيات، التي نصح بها مركز مكافحة الإرهاب في الجيش الأمريكي، حيث نقلوا مقتطفات من هذا الكتاب عن مقتل شيماء رحمها الله، واخترعوا مصطلحاً أسموه (أثر شيماء)، ثم قالوا ما ترجمته:

"لا بد أن تمول حكومة الولايات المتحدة حملات الدعاية التي تركز على تحويل الرأي العام المسلم ضد الجهاديين، ولكن بصورة خفية جداً وبأسلوب غير مباشر.

ولا بد للولايات المتحدة أن تستثمر قوة (أثر شيماء) خاصة، في نشر صور الهجمات الجهادية التي قتلت أطفالاً مسلمين.

وفي ضوء النقاط السالفة التي أوضحت الآثار الوخيمة لعمل الولايات المتحدة المباشر في المنطقة، فمن الضروري أن تعمل الولايات المتحدة من خلف الستار.

ولذلك فإن حملات الدعاية مثل تلك التي أشرنا إليها سابقاً، لابد أن تدار بعناية من قبل محترفين يستخدمون نفس استراتيجيات المعلومات والمنظمات الممتازة التي استعملتها الولايات المتحدة بكفاءة في الحرب الباردة".(١)

وكان إخواننا المنفذون للهجوم -عند استطلاعهم لمكانه- قد وجدوا مدرسة تحت الإنشاء، فظنوها خالية من التلاميذ، ولكن تبين -فيما بعد- أن الجزء الخارجي من المدرسة فقط هو الذي كان تحت التجديد، أما بقية المدرسة فكانت تعمل.

وقد آلمنا جميعاً مقتل هذه الطفلة البريئة بدون قصد. ولكن ما حيلتنا ولا بد لنا من جهاد الحكومة المحاربة لشرع الله والموالية لأعدائه. وقد أنذرنا أفراد الشعب من قبل عدة مرات -وخاصة بعد الهجوم على وزير الداخلية حسن الألفي- أن يبتعدوا عن مقار أركان النظام ومساكنهم وطرق تحركهم. وأركان النظام لا يتميزون في مساكن ومكاتب ومواكب بعيدة عن الجمهور، ولكنهم يختلطون بهم ويحتمون بزحامهم، فليس لنا بد من ضربهم مع إنذارنا لعامة الناس. وقد لخص أخونا السيد صلاح هذا الموقف -عندما سئل في تحقيق النيابة عن قتل الطفلة شيماء- بقوله: أنه يأسف لمقتل هذه الطفلة، ولكن الجهاد يجب أن لا يتوقف.

وقد شرحت هذه المسألة تفصيلاً في رسالتي المسماة (شفاء صدور المؤمنين)(٢).

وفي ما يتعلق بالآثار المترتبة على إصابة المسلمين -دون قصد- من هذا الرمي فقد اخترنا في جماعة الجهاد قول الشافعية والحنابلة -رحمهم الله- بأداء الدية إلى أولياء القتيل أخذاً بأحوط الآراء في المسألة(١).

---

(١) Stealing Al-Qa'ida's Playbook, P: ١٨ &١٩.

(٢) شفاء صدور المؤمنين- القسم الثاني: الأسس الشرعية لمثل هذه الأعمال عامة- المسألة الثانية: حكم رمي الكفار إذا اختلط بهم مسلمون أو من لا يجوز قتله.

لذا فنحن نعتبر أن من قتل المسلمين -بدون قصد- في مثل هذه العمليات فعلينا لأوليائه حق دفع الدية لهم.

وكان وكيلي الأستاذ محفوظ عزام المحامي[٢] قد رفع قضية أمام القضاء المصري بموجب التوكيل العام الممنوح مني له، طالب فيها بتعويض عن التعذيب الذي وقع علي في السجن، وحكمت له المحكمة بتعويض قدره ٣٠٠٠ جنيه مصري، وأخبرته وزارة الداخلية أن التعويض موجود في مقر إدارة مباحث أمن الدولة، وإذا كان أيمن الظواهري يريده فليأت لاستلامه!!

وما كان لي أن أقبل هذا التعويض لأمرين: الأول أنه قد صدر عن محكمة علمانية تحكم بغير ما أنزل الله، والثاني أني لا أبيع ما لقيته من هؤلاء المجرمين، فإما أن يتوبوا إلى الله ويعودوا للإسلام، فأنا حينئذ متنازل عن كل حق لي قبلهم، وإما أن يظلوا على إجرامهم فأطالبهم بحقي وحقوق كل المسلمين في الدنيا والآخرة. لأنهم لم يعذبوني لخلاف شخصي بيني وبينهم، ولكنهم عذبوني محاربة للإسلام.

وقد طالبت في كتاب (التبرئة)، وها أنا أكرر المطالبة هنا من وكيلي الأستاذ محفوظ عزام المحامي أن يطالب إدارة أمن الدولة بتحويل هذا المبلغ لوالد شيماء، كمقدم للدية وبادرة حسن نية مني تجاهه، وأسأل الله أن يعيننا على أداء الباقي.

---

[١] اختلف العلماء في مسألة رمي الكفار إذا اختلط بهم مسلمون أو من لا يجوز قتله على ثلاثة أقوال:

الأول المنع من الرمي: وهو قول الإمام مالك والإمام الأوزاعي K. [راجع: تفسير القرطبي - سورة الفتح الآية ٢٥- ج: ١٦ ص: ٢٨٦ إلى ٢٨٨، أحكام القرآن للجصاص- تفسير سورة الفتح- باب: رمي المشركين مع العلم بأن فيهم أطفال المسلمين وأسراهم ج: ٣ ص: ٣٩٥، سبل السلام - حديث رقم: ١١٩٠- ج: ٤ ص: ١٣٤٥، مغني المحتاج ج: ٤ ص: ٢٢٤، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ج: ٢ ص: ١٣٣٢].

القول الثاني: وهو جواز رمي الكفار وإن كان فيهم مسلمين، وإذا قتل مسلم فليس على من رمى دية ولا كفارة، وهو رأي الأحناف وبعض المالكية رحمهم الله. [راجع: أحكام القرآن للجصاص: تفسير سورة الفتح- باب رمي المشركين مع العلم بأن فيهم أطفال المسلمين وأسراهم- ج: ٣ ص: ٣٩٥ و٣٩٦، رد المحتار على الدر المختار (حاشية ابن عابدين) ج: ٤ ص: ١٢٩، فتح القدير ج: ٥ ص: ٤٤٨، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ج:٢ ص: ١٧٨، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ج: ٢ ص: ١١٣٥ و١١٣٦، منح الجليل ج: ٣ ص: ١٥١].

القول الثالث في المسألة: جواز رمي الكفار ومن اختلط بهم من المسلمين ومن نهي عن قتلهم من الكفار مع التفصيل، وهو قول الشافعية والحنابلة. [راجع: الأم ج: ٤ ص: ٢٤٤ و٢٤٦ و٢٨٧، مجموع الفتاوى لابن تيمية ج: ٢٨ ص: ٥٤٦ و٥٤٧، الفتاوى الكبرى لابن تيمية ج: ٤ ص: ٦٠٧ و٦٠٨، المغني لابن قدامة ج: ٩ ص: ٢٣٠ إلى ٢٣٢، الإنصاف للمرداوي ج: ٤ ص: ١٢٩، مغني المحتاج ج: ٤ ص: ٢٢٤، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ج: ٢ ص١٣٣٦ و١٣٣٨ و١٣٣٩].

[٢] وكيلي الوحيد في مصر هو الأستاذ محفوظ عزام المحامي جزاه الله عني خير الجزاء، وليس لي وكيل سواه، وهناك شخص يزعم أنه كان وكيلي وصديقي وزميلي ورفيقي في السجن وخارجه، وللأسف كل هذه أقوال لا نصيب لها من الحقيقة.

وإذا أردنا أن نضع قضية شيماء في الميزان الصحيح فعلينا أن نضع في الكفة الأخرى للميزان بناتنا ونسائنا اللاتي تيتمن وترملن بلا ذنب، بل بسبب قيام آبائهن وأزواجهن بأشرف فريضة؛ فريضة الجهاد في سبيل الله.

لقد اقتادني النظام ومعي ٢٨٠ أخاً إلى المحاكمة، وطالبت النيابة بإعدامنا جميعاً، أي طالبت بالحكم على ابنتي الصغيرة -التي كانت تبلغ عامين من عمرها- وعلى بنات إخواني بالتيتم، فمن الذي بكى على بناتنا واهتم بهن؟ ومن الذي بكى على بنت الأخ سيد قرني؟ التي أردتها الشرطة قتيلة لما جرت فزعة من إطلاق الرصاص عند اقتحام الشرطة لمنزله، ومن الذي بكى على آلاف النساء المسلمات العفيفات اللاتي اعتقلن أو أوذين أو هددن في مباحث أمن الدولة؟[1] ومن الذي بكى على عشرات الآلاف من نسائنا وأخواتنا وأمهاتنا اللاتي يقفن على أبواب السجون على أمل زيارة أبنائهن وإخوانهن أزواجهن؟ من الذي اهتم لمأساتهن؟

لقد كسرت ذراع سناء عبد الرحمن حين ضربتها الشرطة -بوحشية- هي وابنتها خديجة البالغة من العمر ثلاث سنوات أمام سجن استقبال طرة، لأن الأمهات المنتظرات أخذن في البكاء والعويل، لما خرج أحد المعتقلين في طريقه إلى المحكمة، وقال لهن: "المعتقلون بيموتوا، افعلوا أي شيء، اذهبوا للنائب العام"، ونشرت جريدة الشعب صورة سناء وذراعها في الجبيرة وبجانبها ابنتها خديجة[2].

من الذي يمنع الحجاب في المدارس والنقاب في الجامعات محاربة لآداب الإسلام، ولإكراه بناتنا على زي الغرب وتبرجه؟ من الذي ينشر الفاحشة في الإعلام ويشجع الرذيلة؟

لقد قاتلنا هذا النظام المحارب للإسلام حفاظاً على بناتنا وبنات المسلمين وعلى شيماء وكل شيماء.

٩- كما قام إخواننا في جماعة الجهاد بقتل مالك معرض السيارات، الذي تعرف على أخينا سيد صلاح أثناء مروره بسيارته من أمام معرضه، وقام بمطاردته، ثم استغل وقوفه أمام محطة بترول، فاستصرخ الناس ليمسكوا به، وسلمه للشرطة، فقتله إخواننا في الليلة السابقة لأدائه الشهادة ضد إخواننا في المحكمة العسكرية، فكانت صدمة للقاضي العسكري، الذي أنهى الجلسة فور بدايتها وسط تكبير إخواننا. وكان أخينا السيد صلاح قد توعده عند القبض عليه بأنه لن يفلت من عقاب الله، فحقق الله وعيده.

---

[1] التعذيب عامة وتعذيب النساء خاصة أصبح أشهر من ينكر في مصر، واستفاض العلم به بين القاصي والداني. [راجع على سبيل المثال لا الحصر: منظمة العفو الدولية- "مصر: نساء ضحايا بسبب صلات القرابة" (رقم الوثيقة: MDE ١٢/١٣/٩٦)، وثيقة الأمم المتحدة رقم: A/٥٦/٣٨, para.٣٤٤].

[2] جريدة الشعب عدد ١٩٩٤/٢/١٨،ص٧.

١٠- كما قام إخواننا في جماعة الجهاد بإعداد كمين لموكب حسني مبارك على طريق صلاح سالم، ولكنه لم يمر من هذا الطريق في ذهابه لصلاة العيد. وواكب ذلك محاولة لاغتيال حسني مبارك في مطار سيدي براني قام بها إخوة من الجماعة الإسلامية، ولكنها لم تنجح لاكتشافها قبل التنفيذ.

١١- وكان رؤوف خيرت من أخطر ضباط مباحث أمن الدولة المحاربين للمجاهدين، وكان يتخذ عدداً من الاحتياطات الأمنية الشديدة، منها تغيير مسكنه كل عدة أشهر، وعدم وضع أي حراسة على منزله، وقيادته لسيارته بنفسه في محاولة للظهور بمظهر الشخص العادي، الذي لا صلة له بالسلطة، ولكن إخوة الجماعة الإسلامية استطاعوا التوصل اليه، وعند خروجه من بيته وركوبه سيارته اقترب منه أحد الإخوة المجاهدين وألقى قنبلة يدوية داخل سيارته، فقتل على الفور. ومنح حسني مبارك زوجته في عيد الشرطة وساماً، لا يقيه من نار جهنم.

١٢- وصعدت الجماعة الإسلامية من حملتها، فهاجمت موكب حسني مبارك في أديس أبابا في صيف ١٩٩٥، ولكن الهجوم لم ينجح ونجا حسني مبارك بسبب تعطل إحدى السيارتين المشاركتين في الهجوم.

١٣- وقام إخواننا في جماعة الجهاد بالتخطيط لعمليتين في وقت متقارب، واحدة في الخارج لتفجير السفارة المصرية في إسلام آباد في خريف ١٩٩٥[١]، وتمت بفضل الله، وأخرى في الداخل ضد السياح الإسرائيليين، ولكنها اكتشفت قبل التنفيذ، وسمتها الحكومة قضية خان الخليلي.

١٤- وفي أبريل ١٩٩٦م ظهر ما يسمى بمبادرة الجماعة الإسلامية لوقف العنف من طرف واحد بنداء وجهه خالد إبراهيم مسؤول الجماعة الإسلامية بأسوان والمتهم في قضية تنظيم الجماعة الإسلامية في أسوان، ثم تكرر النداء في قضية أخرى للجماعة الإسلامية في يوليو ١٩٩٧م باسم قيادات الجماعة الإسلامية في سجني ليمان طره والعقرب.

وكان النداء يدعو أعضاء الجماعة الإسلامية في الداخل والخارج إلى وقف العمليات العسكرية والبيانات المحرضة عليها. وطلبت الجماعة من الحكومة أن تتجاوب مع مبادرتها[٢].

١٥- وفي ١٨ سبتمبر ١٩٩٧ قام المجاهدون -صابر فرحات وأخيه وثالث- بالهجوم على حافلة سياحية أمام متحف الآثار بميدان التحرير بالقاهرة، وقد كانت حصيلة هذه العملية هي مقتل عشرة أفراد، تسعة منهم من الألمان.

ولقد ذكر الأخ صابر فرحات -أثناء التحقيقات الأولية- أن ما فعله كان انتقاماً لسخرية اليهود من النبي T، ولما يفعلونه بالمسلمين في فلسطين.

---

[١] يأتي ذكرها في الفصل الرابع من هذا الباب.

[٢] يأتي ذكرها في الجزء الثاني من الكتاب.

وكان صابر فرحات قد قام قبل ذلك بالهجوم على أعضاء المؤتمر القانوني في فندق (سميراميس)، واتهمته الحكومة بالجنون وأودعته مستشفى الأمراض العقلية، ولكنه استطاع الهرب بعد أن رشى العاملين في المستشفى ليقوم مع المجاهدين الآخرين بعملية المتحف المصري.

وصرح صابر فرحات –أثناء محاكمته– بأنه قد تأثر بمنشورات جماعة الجهاد.

١٦- وفي نوفمبر ١٩٩٧م قام فريق من إخوة الجماعة الإسلامية بعملية الأقصر ضد السياح الغربيين. وطالب المجاهدون بالإفراج عن أسرى الجماعة الإسلامية وعن فضيلة الشيخ عمر عبد الرحمن، وصرحوا بأنهم قد قاموا بهذه العملية انتقاماً لإخوانهم في الجماعة الإسلامية الذين قتلوا تحت التعذيب، ولكن قوات الأمن هاجمت المكان، ولم تتوقف إلا بعد أن قتل جميع من فيه، ثم أعلنت الحكومة أن المهاجمين قتلوا ثمانية وخمسين سائحاً!

١٧- وفي أغسطس ١٩٩٩م لقي أربعة من الإخوة التابعين للجماعة الإسلامية داخل مصر مصرعهم على أيدي الشرطة في إحدى ضواحي محافظة الجيزة رغم مبادرة الجماعة الإسلامية، وكان من بينهم أمير الجماعة الإسلامية بالمنيا (فريد سالم كدواني)، والذي تبحث عنه الشرطة منذ فترة.

١٨- وفي أغسطس ١٩٩٩م قام البطل (السيد حسين محمود سليمان) بمحاولة شجاعة لقتل حسني مبارك أثناء زيارته لمحافظة بور سعيد لعمل حملة دعائية لاستفتاء الفترة الرئاسية الرابعة.

ففي أثناء مرور حسني مبارك في شوارع بور سعيد حيث كان جالساً في المقعد الخلفي الأيمن لسيارته، وأثناء تلويحه للجماهير من نافذة السيارة وبالقرب من أحد المنازل تحت الإنشاء، قفز البطل من فوق أحد الأسوار واندفع نحو سيارة مبارك يجري وراءها محاولاً الإمساك بزجاج نافذة السيارة المجاورة لمبارك، وكان يحمل في إحدى يديه زجاجة بها (ماء نار) حمض الكبريتيك المركز، وفي يده الأخرى سكين مطبخ حادة، وعند اتجاهه نحو السيارة بدأ بإلقاء ماء النار في اتجاه مبارك، ثم أهوى البطل بسرعة على مبارك بالسكين فأصابه بجرح في أعلى ذراعه، وفي هذه اللحظة حاول قائد حرس الرئاسة (اللواء إبراهيم الشايب) دفع البطل، فأصابه بجرح قطعي في أصبع يده، ثم أطلق الحرس النار بعد ذلك على الأخ البطل فوقع قتيلاً في الحال، فنسأل الله أن يتقبله في الشهداء.

وانتهز الإخوان المسلمون الفرصة، فأعلنوا استنكارهم لمحاولة الاغتيال! وقالوا: "نحمد الله على نجاة سيادة الرئيس"!

١٩- تفجيرات طابا:

أ- وقع الانفجار مساء الخميس ٧ أكتوبر ٢٠٠٤ في فندق هيلتون طابا الذي بناه الإسرائيليون في ١٩٨٢ قبل الانسحاب من سيناء، تلاه -بمعدل ١٥ دقيقة لكل انفجار- انفجاران آخران في منتجعي (طرابين) و(رأس السلطان) السياحيين الواقعين إلى الجنوب من طابا[١].

ب- ووفقاً للتقديرات المصرية، فإن الحصيلة النهائية لحوادث التفجيرات، هي ٣٤ قتيلاً[٢]، منهم خمسة مصريين و٢٣ إسرائيلياً ، و١٣٥ جريحاً ، و٣٠ مفقوداً[٣].

ج- وكان ينزل بفندق هيلتون طابا ٨١٢ نزيلاً منهم ١٠٨ مصريين، والباقون من الإسرائيليين من أصول روسية وإنجليزية[٤].

وجاء التوقيت مواكباً للأعياد اليهودية (عيد المظلة) الذي يحيون فيه ذكرى خروج العبرانيين إلى سيناء ويفضلون فيه السفر إلى سيناء لأسباب دينية ومادية (انخفاض أسعار الفنادق)، ويرافق ذلك عادة تدفق أعداد ضخمة من اليهود والإسرائيليين على منتجعات سيناء الرخيصة الثمن، حتى إن عددهم بلغ قبل التفجيرات -وفق إحصاءات إسرائيلية- ٦١ ألف يهودي بينهم ٤٥ ألف إسرائيلي، بقي منهم وقت التفجيرات ١٥ ألفاً بسبب التحذيرات الأمنية الإسرائيلية من السفر إلى مصر خشية وقوع هجمات ضدهم، وكان أغلبهم في منتجات طابا القريبة من الحدود المصرية الفلسطينية.

وتعتبر الفترة من شهر أكتوبر وحتى فبراير من كل عام هي موسم السياحة الشتوية في مدن سيناء (طابا وشرم الشيخ ونويبع وغيرها)، وأكثر من ٨٠% من السياح يكونون من الإسرائيليين، خاصة أن منطقة طابا معروفة بأنها منتجع سياحي للإسرائيليين لقربها من الحدود (٢٠٠ متر فقط)، ولا يرتادها المصريون كثيراً[٥].

وقالت وزارة السياحة الإسرائيلية -في إحصائية نشرتها صحيفة (يديعوت أحرونوت)-: إن السياحة من إسرائيل لسيناء سجلت رقماً قياسياً خلال شهر أغسطس الماضي حيث اجتاز ٨٩ ألفاً من الإسرائيليين الحدود للاستجمام بسيناء، وقال وزير السياحة المصري:

إنه "*يتوافد على سيناء سنويا ٣٠٠ ألف سائح إسرائيلي*"، واعترف بأنهم "*يشكلون غالبية سائحي المنطقة*"[٦].

---

[١] محمد جمال عرفة- إسلام أون لاين نت- ٨/ ١٠/ ٢٠٠٤.

[٢] CNN Arabic.com- ٢٥/ ١٠/ ٢٠٠٤.

[٣] المنظمة المصرية لحقوق الإنسان- العريش ... قبض عشوائي واحتجاز تعسفي وتعذيب.

[٤] إسلام أون لاين.نت- ٨- ١٠- ٢٠٠٤.

[٥] محمد جمال عرفة- إذا استبعدنا قيام الموساد بها..تفجيرات سيناء تحمل بصمات "مؤمنين" بفكر "القاعدة"- إسلام أون لاين نت- ٨/ ١٠/ ٢٠٠٤.

[٦] محمد جمال عرفة- تفجيرات طابا تفتح الملفات المصرية الإسرائيلية- إسلام أون لاين.نت/ ١١- ١٠- ٢٠٠٤.

د- وانتقدت القيادات المتراجعة للجماعة الإسلامية الحادث وقالت إنه جاء في المكان والزمان الخطأ.

كما أصدرت جماعة الإخوان المسلمين بياناً أرجعت فيه تفجيرات طابا إلى:

"صمت الحكومات العربية على المجازر الإسرائيلية في فلسطين، والاعتداءات الأمريكية الهمجية بحق العراقيين".

وأشار البيان إلى أن:

"المستفيد الوحيد من هذه التفجيرات هو رئيس الوزراء الإسرائيلي إريل شارون؛ حيث يهدف إلى صرف الأنظار عن جرائمه في الأراضي الفلسطينية المحتلة، والربط بين المقاومة المشروعة بفلسطين وشبح الإرهاب، داعياً إلى تقديم الدعم الشعبي والرسمي للمقاومة الفلسطينية" [1].

هـ- وشنت أجهزة الأمن المصرية حملة وحشية على شمال سيناء، اعتقلت فيها قرابة ثلاثة آلاف شخص من الرجال والنساء والأطفال، ولم ترع حرمة ولا قيمة ولا خلق، وسقط منهم قتلى من جراء التعذيب[2].

وأنا أستميح القارئ عذراً في أن أذكر بعض تفاصيل هذه الجرائم على لسان بعض ضحاياها:

"يقول المفرج عنهم أن بعضاً ممن حضروا التحقيق كانوا حمر الوجوه حليقي الرأس، يرتدون نظارات سوداء، ولا يتكلمون.

....

بالليل كانوا بياخدوا ناس مننا على لاظوغلي[3]*.. منهم ناس بياخدوهم هم وإخواتهم وأولاد عمهم مع بعض.. ضربوهم لما موتوهم.. ولفوهم في بطانية، ورموهم في مخزن الشنط بتاع الأوتوبيسات عشان يرجعوهم على طره.*

....

١٤٠ سيدة تم القبض عليهن كرهائن.

....

---

[1] إسلام أون لاين.نت/ ٩- ١٠- ٢٠٠٤.

[2] منظمة هيومان رايتس وواتش- مصر: اعتقالات جماعية وتعذيب على أعقاب تفجيرات طابا- الثلاثاء ٢٢ فبراير ٢٠٠٥، الجزيرة نت- الأربعاء ١٤٢٥/١١/٢٥ هـ - الموافق٢٠٠٥/١/٥ م- نقابة المحامين تطلب التحقيق في اعتقال الآلاف بسيناء، المنظمة المصرية لحقوق الإنسان- العريش ... قبض عشوائي واحتجاز تعسفي وتعذيب، الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان- المنظمة المصرية لحقوق الإنسان- المنظمة تجدد مطالبها بالإفراج عن معتقلي العريش- ٧/ ٣/ ٢٠٠٥.

[3] لاظوغلي: هو اسم الميدان الذي تقع فيه إدارة مباحث أمن الدولة، وقد صار علماً عليها.

النقاب ينزع من على وجوه النساء في الشوارع.. لم تعد هناك نساء يسرن في الشارع وحدهن.. الرجال حلقوا لحاهم خوفاً من الاشتباه

....

أخدوني على أمن الدولة في العريش.. شتمني بأمي.. قال لي يا ابن القحبة.. اتجننت.. صرخت قلت لهم أمي جزمتها أشرف منكم كلكم.. ضربوني بالعصاية عشر ضربات على راسي.. لقيت جوه ٢٠٠ أو ٣٠٠ بني آدم.. رجاله بتصرخ وبنات بنوت بتصرخ

....

في أمن الدولة في العريش كان الصريخ والصوات من كل مكان.. رجاله وحريم.. شتموني رديت عليهم.. قعدت هناك ١٠ دقايق بس شفت فيهم الويل.. شفت التعذيب على ناس تانيه بس.. شفت بعنيه رجاله بزازهم سايحه.. كهربوهم في بزازهم وفي حتت تانيه من جسمهم.

....

في الترحيلة كان فيه ١٥ ست تزلوا في القناطر غالبا، قرايب الحاج فليفل (من قرية الميدان عند مدخل العريش متهم في أحداث طابا) أخدوا كل القرية ستات ورجاله وأطفال (٥ أطفال).. مرات ابن أخويا سلمت نفسها عشان يخرجوا أخوها الصغير.. كانوا واخدينه بدل أخوه الكبير.. قعدت هي وهو خمس أيام وبعدين خرجوها. (تم القبض على سبعة أشخاص من هذه العائلة من بينهم سيدة).

....

جم وش الصبح.. بالرشاشات والمسدسات.. فتشوا البيت والدواليب.. سألوا عن (م) ومراته.. قلنا لهم ما شفناهمش من يوم ما فطروا معانا في أول يوم رمضان.. أخدوا الولد الصغير لحد ما (م) يسلم نفسه.. وأخدوا أخوه.. الناس خايفه.. البنت راحت سلمت نفسها عشان يسيبوا أخوها الصغير.. خلوهم خمس أيام عندهم وبعدين خرجوهم.. كانت حامل في أربع شهور أو تلات شهور.. بعد ما خرجت رمت حملها.. حتة لحمة صغيرة عمرها ييجي أربع شهور.. العيال بقت بتصرخ والنسوان خايفه.. حتى الرجاله حلقوا دقونهم.. كانوا بيمسكوا الراجل من دقنه يشدوها يطلع الشعر في إيديهم ومعاه الدم عليه.. حسبي الله ونعم الوكيل.

....

عشرين سنة واحنا تحت احتلال اليهود ما حدش عمل فينا كده.

....

احنا نتحمل كل ده ليه من الحكومة؟ .. ده الاحتلال ما عملش فينا كده.. هو فيه إيه؟

....

الستات كانوا محجوزين في مسجد أمن الدولة بالعريش، وكانوا بيضربوهم بالفلكة في المسجد.

....

أخدوا بنات عمي ونسوان إخواتي الاتنين.

....

أخويا راح سلم نفسه لما عرف إنهم هياخدوا أمه.

....

البيوت ما بقاش فيها غير النسوان، وحتى النسوان بياخدوهم.. البنات بتمشي في الشارع يشدوا النقاب من على وشها، واللي ما ترضاش ياخدوها.. رعب.. وبيقولوا انهم بعد العيد هيكملوا تاني.

....

كانوا عاوزين ياخدوا البنت (١٢ سنة).. هربت من البيت.. العريش كلها قعدت بره بيوتها حوالي ١٣ يوم.

....

أخدوا مرات حماده كانت حامل، لفوا بيها في العربية عشان تدل على أصحاب جوزها.. نزفت من كتر اللف في العربيات.. مرات اسماعيل كهربوها في صوابعها.. لما راحت البنت تسأل عن أخوها قال لها عدي جوه لحسن أطلع ميتين أمك.. وشتم سمر وقال لها يا بنت المرة الوسخة.. ومرات اسماعيل شد النقاب من على وشها.. وقت ما حجزوا مرات (ح) كان فيه ٤٥ ست فوق بعض، ولما يدخلوا الحمام يفوتوا على الرجاله، وكانت بتسمع صوت رجاله بيصرخوا.. وشافت اسماعيل متعلق عريان قدامها.

....

الستات اللي اتعذبوا من البدو في الشيخ زويد كان معاهم واحدة والدة من تلات أيام.. ضربوها ونزفت، فراحت على المستشفى وعليها حراسة.

....

فيه واحدة زميلتي في الشغل كانت في السوق.. قالوا لها اخلعي النقاب.. رفضت، ضربوها رصاصة في كتفها.. بقوا يقلعوا النسوان النقاب بالعافية، ويضربوهم بالشلاليت.. أنا شفت ده بعيني.. إن شغلي قريب من السوق وباشوف الستات لما ده حصل لهم.

....

فيه شاب تاني فتشوه وأخدوا من جيبه المصحف.. سألوه إيه ده؟ قال كلام ربنا.. راحوا شتموه. قال بلاش عشان حرام في رمضان.. راحوا ضربينه.

....

كان معايا في سيارة الترحيلات ابن عمي.. وكان فيه واحد تاني مطلوب القبض عليه لما ما لاقوهوش أخدوا بدل منه أبوه، وأخدوا مراته من العريش من عند أهلها واتنين من اخواته.. سلم نفسه فأفرجوا عن الستات.. كانوا ٢٠٠ سيدة.. أفرجوا عنهم قبلي بيوم.. جسمي تاعبني ونظري تعبان، كانوا رامينا في الرطوبة في الطرقة.. كنا مقرفصين.. حوالي ٤٠ واحد.. الستات كمان كانوا الأول في الطرقة.. قعدوا تقريبا من أسبوع لعشر أيام بعدين نقلوهم المسجد.. كان أغلبيتهم معاهم أطفال من عيال بترضع لحد ٦ سنين.

....

سمعت ان الستات كمان اتكهربوا

....

كل يوم يهجموا على البيت، وياخدوا ستات ورجاله.

....

لحد النهارده عندهم.. (ف.س.ح.) راح سلم نفسه عشان كانوا أخدوا أمه واخواته الصغار.. أمه اتكهربت.

....

شيوخ القبائل بيرهبوا الناس ويضغطوا عليهم يسلموا ولادهم بدل ما العيلة كلها تتعذب. وواحد منهم سلم اتنين من ولاده بنفسه.

....

بعد مغادرتنا المنزل الثاني اتصلت الأسرة بالمحامين لتخبرها أن أمن الدولة جاءوا بسيارة نصف نقل، وطلبوا الأخ الوحيد المتبقي. ثار الأب، وقرر أن يسلم نفسه بدلاً منه، لكنهم أصروا على أخذ الشاب، الذي قرر أن يذهب معهم، لكي لا يعرض أمه ونساء المنزل للبهدله.

....

بعد زيارتنا استدعوا الأخ الذي تقابلنا معه لمقابلة "الباشا" ..قبل أن نغادر قابلنا المواطن الذي استدعوه لأمن الدولة لمقابلة الباشا بعد أن زرنا أسرته!! سألناه إذا كان يمكن أن يهرب.

مش أهرب.. انا هأقعد في البيت مع أمي وإخواتي.. عاوزين ييجوا ييجوا.. ما طلبوني قبل كده ورحت.. عاوزين إيه تاني.. المرة دي أنا عارف ايه اللي هيحصل.. انا مش سايب البيت إلا ميت أنا واللي فيه.. هو فاضل إيه.. وأسيب النسوان لمين.. عشان يبهدلوهم.. ما بقاش فيه حاجة.. الناس خايفة من بعض .. ما سابوش حاجة.

....

رجال الشرطة يتوعدون الأهالي بأن ينتظروا ليشهدوا ما سوف يحدث بعد العيد.. (والله لنحرقها حرق.. لازم البلد دي تتربى)"[1].

وقد يتساءل متسائل: وما الجديد في ذلك؟ أليست هذه هي قصة كل يوم في مصر مبارك؟ تعذيب وصعق وضرب واحتجاز رهائن. والجواب: صحيح. ولكن هذه المرة انكشف وجه النظام كما لم ينكشف من قبل، فمن أجل تجارة الفساد الإسرائيلية في سيناء ارتكبت هذه الجرائم الجماعية وبهذه القسوة وبهذه الخسة.

ويبرز السؤال: وحتى متى سيستمر هؤلاء الأوغاد في جرائمهم؟ والجواب: حتى نقاومهم، ونوقفهم عند حدهم بالقوة، ولن يتحقق ذلك إلا بالجهاد.

وتبرز أسئلة أخرى: هل هذا هو النظام الذي كان يتباكى على شيماء؟ وهل هذا هو النظام الذي يدعونا البعض للتوحد معه ضد إسرائيل؟! وهل هذا هو النظام الذي اعتبرته القيادات المتراجعة بالجماعة الإسلامية نظاماً مسلماً، واعتبرت مجرمه الأكبر ولي أمر المسلمين؟! وهل هذا هو النظام الذي يدين ويستنكر الإخوان المسلمون الجهاد والقتال ضده؟

و- وكان طبيعياً أن تنتفض القبائل في سيناء من جراء هذا الظلم والإجرام، وجردت الحكومة حملة من خمسة آلاف جندي لمقاتلة رجال القبائل في أوائل فبراير عام ٢٠٠٥ بحجة إيواء المطلوبين، وتكبدت الحكومة خسائر كبيرة في صفوفها، تكتمت عليها، وأعلنت فقط عن مقتل ثلاثة من الشرطة[2].

٢٠- وفي مارس ٢٠٠٥ طعن مصري سائحين مجريين وسط القاهرة ظن أنهما أمريكيان، فيما وصفته الشرطة بأنه رد فعل على السياسات الغربية تجاه العراقيين والفلسطينيين[1].

---

[1] تقرير زيارة تقصي حقائق قام بها كل من: الجمعية المصرية لمناهضة التعذيب ومركز النديم للعلاج والتأهيل النفسي لضحايا التعذيب ومركز هشام مبارك للقانون في الفترة من ١٥ إلى ١٧ نوفمبر ٢٠٠٤.

[2] إسلام أون لاين.نت/ ٢- ٢- ٢٠٠٥- قوات الأمن المصرية تحاصر ١٠٠ من بدو سيناء، الجزيرة نت- السبت ٢٦/ ١٢/ ١٤٢٥ هـ- الموافق ٥/ ٢/ ٢٠٠٥م.

٢١- حادثة الأزهر:

في السابع من أبريل لعام ٢٠٠٥م قام المجاهد حسن رأفت بشندي بعملية استشهادية في شارع جوهر القائد بمنطقة الأزهر، وقد قتل فيها أربعة أشخاص بمن فيهم منفذ العملية وفرنسيان وأمريكي، وأصيب ١٨ آخرون[٢]، نصفهم مصريون والبقية أجانب أربعة أمريكيين وثلاثة فرنسيين وإيطالي وتركي[٣].

وشنت قوات الأمن حملة على حي شبرا الخيمة واعتقلت المئات بما فيهم البنات الصغيرات والشابات. وقتل بعض المعتقلين تحت التعذيب. أما أسرة حسن بشندي فبالطبع اعتقلت جميعها، ومنها أمه وإخوته، حتى أخته الصغيرة التلميذة بالمرحلة الابتدائية، وكذلك خالته وأبناؤها.

واستنكرت القيادات المتراجعة من الجماعة الإسلامية -كالعادة- العملية. وقالوا إن التفجير مناقض للشرع، ويخدم مصالح الأعداء[٤]. ولا أدري من الذي يخدم مصالح الأعداء؟

٢٢- وفي ٣٠ أبريل ٢٠٠٥م قام المجاهد إيهاب يسري ياسين -وهو أحد المطلوبين في حادث الأزهر- بعملية استشهادية في ميدان عبد المنعم رياض قرب المتحف المصري بوسط القاهرة أسفرت عن إصابة أربعة سياح بجروح: إسرائيليان وسويدي وإيطالية.

وقامت المجاهدتان نجاة يسري ياسين وإيمان إبراهيم خميس بالهجوم على حافلة سياحية بميدان السيدة عائشة، واستشهدتاKفي الحادث[٥]. ورجحت مصادر مطلعة أن تكون العمليتان رداً على وفاة محمد سليمان يوسف ابن عم أحد المطلوبين في حادث الأزهر أثناء التحقيقات في السجن[٦].

واستنكر الإخوان المسلمون الحادث، وزعموا أنه يصب في خانة المشروع الأمريكي الصهيوني[٧]!

٢٣- تفجيرات شرم الشيخ:

وفي ٢٣ يوليو ٢٠٠٥م وقعت ثلاثة انفجارات بمدينة شرم الشيخ بسيناء، حيث انفجرت سيارتان ملغومتان، إحداهما في فندق غزالة جاردنز والثانية في منطقة السوق القديم. وانفجرت قنبلة في مرآب سيارات بالقرب من الفندق[٨].

---

[١] محمد جمال عرفة- انفجار القاهرة.. جيل ثالث من الجماعات يلوح بالأفق- إسلام أون لاين نت- ١١/ ٤/ ٢٠٠٥.

[٢] CNN Arabic.com- ١٢/ ٥/ ٢٠٠٥. منفذ عملية الأزهر متشدد عمل منفرداً.

[٣] الجزيرة نت- الجمعة ٢٨/ ٢/ ١٤٢٦ هـ - الموافق ٨/ ٤/ ٢٠٠٥ م- مقتل ثلاثة في انفجار القاهرة وواشنطن تحذر رعاياها.

[٤] أحمد هاشم- بشندي جاني أم مجنيٌ عليه؟جريدة الأسبوع.

[٥] CNN arabic.com- ١/ ٥/ ٢٠٠٥ - ٣ قتلى و٧ جرحى في عمليتي القاهرة.

[٦] موقع نسيج الإخبارية- ١/ ٥/ ٢٠٠٥.

[٧] مجلة المجتمع- العدد ١٦٥- ٢٨ ربيع الأول ١٤٢٦هـ- ٥/ ٧/ ٢٠٠٥م ص: ١٣.

[٨] BBCArabic.com- الأربعاء ٢٧ يوليو ٢٠٠٥.

وزعمت المصادر الرسمية أن الحادث تسبب في قتل ٦٨ شخصاً معظمهم من المصريين[١].

وتختلف جنسيات القتلى الأجانب فمن بينهم بريطانيون وأتراك وتشيك وهولنديين وروس وأوكرانيين. ويعتقد أن من بين القتلى أيضا شخص من عرب إسرائيل[٢].

ومن المعلوم أن مدينة شرم الشيخ بها كازينوهات القمار، التي يرتادها السياح الإسرائيليون لممارسة المقامرة الممنوعة في الكيان الصهيوني[٣].

وجاء توقيت التفجيرات قبل ساعات من محاكمة المتهمين في أحداث تفجيرات طابا.

وتعد شرم الشيخ أكثر المنتجعات الأمنية حراسة في مصر[٤]. فشرم الشيخ أهم مدينة في آخر نقطة يصلها الصهاينة بدون تأشيرة دخول.

بل هي النقطة الأهم في المنطقة كلها باعتبارها المدينة الأكثر حصانة أمنية والأكثر أهمية في الوزن السياسي الداخلي بحكم وجود الرئيس المصري حسني مبارك بها لفترة طويلة من الوقت طوال العام، والأكثر أهمية في الوزن السياسي الخارجي، باعتبارها المدينة الأكثر شهرة على صعيد المؤتمرات السياسية، سواء على مستوى المؤتمرات المتعلقة بالقضية الفلسطينية أو على صعيد القضية العراقية[٥].

٢٤- وفي أغسطس ٢٠٠٥م تم تفجير سيارة للقوات المتعددة الجنسيات في سيناء، وأعلنت تلك القوات عن إصابة اثنين من أفرادها.

٢٥- تفجيرات منتجع دهب:

وفي ٢٤ أبريل ٢٠٠٦م تم تفجير ثلاث عبوات متزامنة في منتجع دهب السياحي، الذي يقع على الساحل الشرقي لسيناء بين طابا وشرم الشيخ، والذي يعج بالسياح الإسرائيليين، الذين يدخلون إليه بدون تأشيرة، ونتج عن التفجيرات مقتل ٣٠ شخصاً وجرح ١٢٠.

ونشرت صحيفة القدس خبراً -عن حركة حماس- جاء فيه:

" وقال رئيس الوزراء الفلسطيني[٦] في بداية الاجتماع الأسبوعي للحكومة:

"نود أن نعبر من جديد عن استنكارنا وتنديدنا بالجريمة النكراء، التي وقعت في منطقة دهب في شمال سيناء بمصر، ورأينا أن ذلك هو مساس بالأمن القومي المصري..."

---

[١] جريدة الشرق الأوسط- الأربعاء ٦ رجب ١٤٢٦هـ ١٠ أغسطس ٢٠٠٥م- العدد ٩٧٥٢.

[٢] BBCArabic.com- الأربعاء ٢٧ يوليو ٢٠٠٥.

[٣] BBCArabic.com- الأربعاء ٢٧ يوليو ٢٠٠٥.

[٤] BBCArabic.com- الأربعاء ٢٧ يوليو ٢٠٠٥.

[٥] طلعت رميح- الدلالات الأخطر في تفجيرات طابا وشرم الشيخ- موقع مفكرة الإسلام- الثلاثاء ٢٧ جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ ٢أغسطس ٢٠٠٥م.

[٦] إسماعيل هنية.

....

وقال المتحدث الرسمي باسم الحكومة غازي حمد

....

إن الحكومة الفلسطينية "تستنكر بشدة هذا العمل الذي نعتبره منافياً للأخلاق والقيم، ويضر بالأمن القومي المصري".

وقال مشير المصري المتحدث باسم حماس:

"مثل هذه العمليات ضد المدنيين مرفوضة، وأي إرباك في الساحات العربية والإسلامية يمكن أن يؤثر على الاستقرار والنظام".

وأكد المصري ضرورة "الاستقرار في كل الدول العربية والإسلامية". مشدداً على أن "الاستقرار في مصر هو استقرار في ساحتنا الفلسطينية".

....

وفي باريس اعتبر وزير الخارجية فيليب دوست بلازي أمس الثلاثاء إدانة الحكومة الفلسطينية لاعتداءات دهب تطوراً في سياستها الخارجية.

....

وقال دوست بلازي:

إن "هذا الاعتداء لم يكن موضع إدانة من محمود عباس رئيس السلطة الوطنية فحسب، وإنما كذلك ولأول مرة من حماس"[(1)].

كما نشرت نفس الصحيفة على نفس الصفحة بياناً لحركة الجهاد الإسلامي الفلسطيني جاء فيه:

"إن حركتنا المجاهدة إذ تنفي جملة وتفصيلاً هذه الأكاذيب، وهذا التحريض عليها وعلى الجمهورية الإسلامية الإيرانية، فإنها تستنكر هذا الاعتداء، كما تستنكر أي اعتداء على أية دولة عربية، مهما كانت الشبهات التي تحوم حول تلك الدولة".

٢٦- وفي ٢٦ أبريل ٢٠٠٦م قام مجاهدان بعمليتين استشهاديتين في شمال سيناء، الأولى ضد قاعدة للقوات المتعددة الجنسيات قرب مطار الجورة، وأعلنت تلك القوات عن إصابة جنديين منها، والثانية ضد سيارة للشرطة المصرية جاءت للإمداد، وزعمت الشرطة إصابة اثنين من أفرادها.

***

---

(1) القدس العربي- الأربعاء ٢٨ ربيع الأول ١٤٢٧هـ- ٢٦ أبريل ٢٠٠٦م ص: ٤.

كان ما سبق سرداً موجزاً سريعاً لأهم وقائع العمليات الجهادية في مصر بعد اغتيال السادات متخطياً كثيراً من التفاصيل. يمكننا بعده أن نقف وقفة نلتفت فيها إلى هذا الماضي القريب لنرى ما هي الدروس المستفادة من هذه العمليات؟

وحتى تتضح الفكرة فسأقسم الكلام لقسمين:

الأول: عن الأوضاع القائمة في مصر التي تدفع للمواجهة.

والثاني: عن الدروس المستفادة من هذه المواجهة.

***

القسم الأول: عن الأوضاع القائمة في مصر التي تدفع للمواجهة.

١- وحتى لا أطيل على القارئ فسأبدأ حديثي من تولي حسني مبارك للسلطة، فأقول؛ استولى حسني مبارك على السلطة بعد السادات عن طريق مجلس الشعب المزور يحميه الجيش وأجهزة الأمن، وأكمل حسني مبارك السير في طريق الفساد السابق:

أ- تغييب للشريعة عن الحكم والمجتمع، ومحاربة لقيم الإسلام وآدابه.

ب- استسلام كامل للأمريكان، وفتح البلاد لقواتهم من قواعد وخبراء وتسهيلات.

ج- الاستمرار في نفس سياسة التطبيع مع إسرائيل.

د- التعاون مع الأمريكان واليهود في ضرب العراق ثم حصاره، بل وفي غزو أفغانستان ثم العراق، والقيام بالدور الأساسي في حصار غزة، وتعذيب أسراها لانتزاع الاعترافات، التي يمد بها اليهود.

هـ- قهر الشعب واستخدام وسائل القمع والتعذيب والتعدي على الحرمات ضد أي معارض جاد.

و- الفساد الاقتصادي، واقتصاد الشلل والأصدقاء والطبقة الفاسدة المنتفعة، التي دمرت القاعدة الصناعية لمصر وخربت زراعتها.

ز- سد أي أفق للتغيير السلمي، أو حتى لمعارضة سلمية فعالة منتجة مؤثرة.

ح- التخطيط للتوريث من يوم أن تولى السلطة، فهو الرئيس الوحيد في الدنيا الذي ليس له نائب. ولو حتى نائب صوري، فاختيار نائب مغامرة، فقد كان حسني نائباً ثم أصبح رئيساً.

ط- السماح ببعض الألعاب السياسية من أحزاب رسمية وصحف مع بعض الانتخابات المزورة، لا تؤثر في سياسة النظام ولا تمس منافعه ومكاسبه، ولا تمنعه من استمرار جرائمه، وأهم من ذلك كله لا تمس المخطط الأمريكي الصهيوني، بل هي في الحقيقة أحد لوازمه. مثل المجرم الذي يشجعك على تناول الفيتامينات من أجل الحفاظ على صحتك وسلامتك، ثم يقدم لك في قارورة الفيتامينات سماً، فإن تناولته بنفسك فهو ما أراد، وإذا تشككت أو امتنعت، أحاط بك زبانيته وجرعوه لك كرهاً. لكن في أي من الحالين لن تكون سليماً معافاً.

هذا هو الواقع الذي كان ومازال أمام كل حر شريف. ثم كلما اعترض معترض صاح فيه الصائحون: البلد فيها تحول نحو الحريات والتقدم، ألم تر للصحف الجريئة؟ ألا تنظر للانتخابات التي كانوا يحصلون فيها على ١٥ مقعداً، ثم حصلوا على ٨٠؟ ألا ترى للمفرج عنهم من السجون؟ ألا ترى القنوات الفضائية والضجة الإعلامية؟

كل هذا ومخطط تخريب البلاد والعباد ماض في طريقه؛ عدوان على عقيدة الأمة وحريتها وكرامتها وثرواتها وأرضها واعتداءات على العراق وأفغانستان وحصار لغزة. مع بعض العطور المؤقتة لمحاولة تغطية العفن، الذي يزكم الأنوف، الذي انتهى بمصر من بلد قائد للعالم الإسلامي والعربي، ومدافع عن الإسلام ضد الصليبيين والتتار إلى ذيل تابع للأمريكان.

٢- المهم أعود للسنوات الأولى من حكم مبارك حتى لا أطيل فأقول كان واضحاً أنه إزاء هذا الفساد والإفساد المركب المستشري لا حل إلا الرفض، والصورة الشرعية التي تعلمها المسلمون من دينهم وأعزهم الله بها هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذروته الجهاد. فقد كان واضحاً ولا زال لكل منصف ذي عينين أن هذا الواقع الفاسد لن يتغير باللين والمسالمة، ولن يتغير إلا بالقوة.

٣- فبدأنا بعد خروجنا من السجن نعد لهذا التغيير الجهادي. كنا موقنين أن الأمر يتطلب إعداداً طويلاً، وحشداً وأعواناً ووعياً. ولذلك بدأنا في حملة من التوعية العقائدية والفكرية والسياسية، وبدأنا بحشد الأنصار وتنظيمهم، وبدأنا بإعداد نواة عسكرية بذلنا في تدريبها أقصى ما نستطيع. وكان اجتهادنا أن هذه النواة العسكرية أو الجهادية ليست هي وسيلتنا لقلب النظام، ولكنها وسيلتنا لتوعية الأمة وإيقاظها، وهو ما نجحت فيه قاعدة الجهاد اليوم، فعبر العمليات على أعداء الأمة من اليهود والأمريكان أساساً، تستعيد الأمة أملها في العزة وثقتها في نفسها وتبدأ في المشاركة في التصدي للظلم والظالمين، وكنا نتوقع، وهو ما حدث اليوم بالضبط، أننا بتصدينا للأمريكان واليهود ستهب هذه الأنظمة الفاسدة المفسدة لتدافع عنهم، وهنا تنكشف عملياً أمام شعوبها.

٤- وفي بداية التسعينيات حدث تطوران هامان:

أ- الأول بدء حملة المطاردة الأمريكية للتيارات الجهادية عموماً، بدأت بطردهم من أفغانستان ثم بعد ذلك وصلت لكل مكان، دون أي اشتباك منا مع الأمريكان.

ب- الأمر الثاني هو القبض على عدد كبير من إخواننا في جماعة الجهاد وتقديم ثمانمائة منهم إلى المحاكم العسكرية فيما عرف بقضايا طلائع الفتح، وحكمت المحكمة على أربعة منهم بالإعدام. وخرجت الصحف الحكومية مزهوة متفاخرة بالقبض على ثمانمائة عضو في جماعة الجهاد بدون إطلاق طلقة واحدة.

٥- وقررنا أن ندخل معركة المواجهة مع الحكومة، بعد أن كان خطنا السابق هو الصبر والتربص والانتشار وتجنيد العناصر استعداداً لمعركة التغيير.

لماذا قررنا أن ندخل معركة المواجهة مع الحكومة؟

قررنا أن ندخل المعركة حتى نبقى أحياءً، وتبقى الفكرة الجهادية حية، ولا تنكسر معنوياتنا ومعنويات الأمة من بعدنا. قررنا أن ندخل المعركة حتى نحافظ على إرادة القتال ونفشل حملة التيئيس الحكومية، قررنا أن ندخل المواجهة حتى لا نتحول إلى مطاردين كل أملنا هو اللجوء السياسي أو المحافظة على أسرنا أو الاستسلام والمراجعات، قررنا المواجهة حتى لا تنطفئ شعلة الجهاد حتى وإن خبت في مرحلة ما، لكي ننقلها من جيل لجيل، حتى تصل لجيل النصر عسى الله أن يجعلنا منهم، قررنا المواجهة حتى تبقى بذورنا في التربة تنتظر موسم الربيع بدلاً من أن نقتلعها بأيدينا، قررنا المواجهة حتى نكون فئة لكل مجاهد ينضم للمسيرة، وحتى نطور جهادنا مع إخواننا المجاهدين في ديار الإسلام.

واليوم وأنا أنظر للواقع وللماضي القريب أشعر بفضل الله علينا، فقد نجحت سياستنا في المقاومة والصمود وعدم الاستسلام. فقد تحقق لنا -بفضل الله- أكثر مما كنا نتوقع في هذه السنوات المعدودات.

***

القسم الثاني: عن الدروس المستفادة من هذه المواجهة:

١- المحافظة على إرادة القتال وإفشال حملة التيئيس الحكومية.

هدفت حملة البطش منذ اغتيال أنور السادات إلى كسر إرادة الحركة الإسلامية وخاصة نواتها الصلبة المتمثلة في الجماعات الجهادية، وقد اتخذت هذه السياسة منحى تصاعدياً خطيراً منذ تسلم زكي بدر لوزارة الداخلية، حيث بدأ يتبجح علناً بأن علاج الجماعات الإسلامية هو الضرب في سويداء القلب.

وكان هدف حملة البطش واضحاً ألا وهو زرع اليأس في قلوب الشباب المسلم، وإيهامهم بأن أية مقاومة لا جدوى منها، ولن تؤدي بأصحابها إلا إلى الكوارث والنكبات، وأن السبيل الوحيد هو الاستسلام.

وكان السكوت عن الرد على هذه الحملة نتيجته المؤكدة هو فقدان الحركة الإسلامية لثقتها في نفسها، وتراجعها إلى الخلف والانزواء والصمت والعودة إلى عهد الرعب الناصري، وكان هذا التيئيس من جدوى أية مقاومة هو حجر الزاوية في سياسة التوسع اليهودي في المنطقة. فقد أدرك اليهود أن قمع المقاومة المضادة لهم لن ينجح ألا إذا زرعوا روح اليأس في نفوس المسلمين.

والرد على هذه الحملة الباطشة بالعمليات الجهادية لن يقي الشباب المسلم فقط من اليأس ولكنه أيضاً سيملأ نفوسهم بالأمل والثقة بالنفس بعد الثقة بالله تعالى. فقد اكتشف الشباب المسلم أن عدوه ليس أسطورة لا تقهر، بل هم بشر متكالبون على الدنيا، وأن النيل منهم ليس بالأمر الصعب.

ولا تتوقف ثمرة المقاومة الجهادية على بث الامل في نفوس الشباب المسلم فقط، بل إنها أيضاً توجه نفس السلاح إلى أعوان النظام، فتنال منهم الحرب النفسية، وتتحطم معنوياتهم، وهم يرون زملاءهم يتساقطون من حولهم.

كما أن تصعيد العمل الجهادي للنيل من الأهداف الأمريكية واليهودية يبعث روح المقاومة بين أفراد الشعب الذي يعتبر اليهود والأمريكان رمزاً بشعاً على التكبر والطغيان. من أجل كل هذا كان لا بد من المقاومة، بل ولا بد من استمرار المقاومة.

إن أي محلل منصف للوضع يستطيع أن يدرك مدى الكوارث التي كان يمكن أن تقع لو لم يقتل أنور السادات، ولو لم تستمر المقاومة ضد الحكومة المصرية.

وأستطيع أن أقول بقوة أنه لو لم يقتل أنور السادات ولو لم تقاوم الحركة الإسلامية لكانت مصر الآن مقسمة هي وغيرها من دول المنطقة تحت النفوذ الأمريكي والتوسع الصهيوني.

بل حتى على صعيد الحريات التي يخادع بها المستسلمون والعلمانيون في مصر، فيقولون إن في مصر تحولاً ديمقراطياً، واتجاهاً متزايد نحو الحريات، إلى غير ذلك من الخدع، فلولا قتل أنور السادات وتصدي المجاهدين للحكومة العميلة، لما سمحت الحكومة ومن ورائها أمريكا بهذا الهامش المخادع للحريات لمحاولة امتصاص بركان الغضب، ولولا حملة المقاومة لكان العلمانيون والتيارات الإسلامية المهادنة بل حتى رؤساء الأقباط في السجن إلى ما شاء الله، ألم يجمعهم السادات في قرار التحفظ في سجن استقبال طرة؟ ولم يخرجهم إلا خالد الإسلامبولي وصحبه الأبرار رحمة الله عليهم وعلى شهداء المسلمين.

ثم خرج الإخوان من السجن، فبدلاً من أن يشكروا من أخرجهم قال التلمساني إن مقتل السادات كمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم لم يستريحوا حتى خرجوا في مظاهرة النفاق التي خرجت من مجلس الشعب للقصر الجمهوري فبايعوا حسني مبارك –قاتل كمال السنانيري رحمه الله– رئيساً لفترة ثانية. ثم يقولون إن جماعات (العنف) قد تراجعت إلى منهج الإخوان، وأظن أن الذين خرج مرشدهم الثاني من لقاء قاتل مرشدهم الأول فقال: مقابلة كريمة لملك كريم، والذين ذهب مكتب إرشادهم الجديد ليوقع في سجل تشريفات قصر عابدين معلنين الولاء لقاتل شيخهم، ليس من حقهم أن يتحدثوا عن تراجعات.

وتحليل الوضع السياسي في مصر يظهر أن مصر تتنازعها قوتان متنازعتان متصارعتان: قوة رسمية وقوة شعبية ضاربة الجذور، هي الحركة الإسلامية عامة، ونواتها الجهادية الصلبة خاصة.

والقوة الأولى تدعمها أمريكا والغرب وإسرائيل ومعظم الحكام العرب. أما القوة الثانية فتعتمد على الله وحده، ثم على انتشارها الشعبي الواسع وتحالفها مع الحركات الجهادية على مستوى أمة الإسلام كلها من الشيشان شمالاً حتى الصومال جنوباً ومن تركستان الشرقية شرقاً حتى المغرب غرباً.

وسبب العداء بين القوتين واضح في غاية الوضوح، ألا وهو اصرار القوة الأولى على:

أ– إقصاء الإسلام عن الحكم وإبعاده عن مناحي الحياة المختلفة بالقوة والبطش والانتخابات المزورة.

ب- وعلى إباحة البلاد لأعداء الإسلام -الأمريكان واليهود- باتفاقيات الاستسلام، ومعاهدات تحريم أسلحة الدمار الشامل علينا فقط، وبنزع سلاح سيناء، والاحتلال الأمريكي المباشر لأرضنا، والمناورات المشتركة.

ولذا فليس لدى الحركة الإسلامية وطليعتها الجهادية من خيار إلا خيار المقاومة والجهاد، إنها معركة عقائد، وصراع وجود، وحرب لا هدنة فيها.

٢- الانتشار.

لا شك أن الحركة الإسلامية المجاهدة قد حققت خلال تلك الفترة انتشاراً واسعاً متزايداً متنامياً وخاصة بين صفوف الشباب.

بل كسبت الحركة الجهادية -بضربها لأمريكا ولإسرائيل ثم بخوضها لحربين جهاديتين في العراق وأفغانستان- محبة وتأييد وتعاطف جماهير واسعة من الأمة المسلمة. وأصبحت هي رمز المقاومة الشعبية للحملة الصليبية الصهيونية على الأمة المسلمة[١].

٣- الطبيعة الهجومية.

اتسمت الحركة الجهادية بطابع الهجوم على أعداء الإسلام والمقاومة حتى آخر رمق. وما الأحداث الكبار التي وقعت ابتداء من حادثة الكلية الفنية العسكرية في عام ١٩٧٤م إلى تفجيرات دهب عام ٢٠٠٦م إلا دليل على ذلك. بل بلغت هذه الروح الهجومية ضد أعداء الإسلام ذروتها في غزوات نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا المباركات[٢].

٤- البذل الضخم المتواصل.

قدمت الحركة الإسلامية حتى الآن عشرات الآلاف من المعتقلين والمعذبين والمصابين وآلاف القتلى في صراعها المستمر مع الحكومة الطاغوتية والقوى المعادية للإسلام التي تستخدمها، وأثبتت بذلك أمرين:

الأول: أنها قوة ذات جذور عميقة وروافد خصبة، فرغم كل هذه الضربات والتضحيات -التي لا يمكن أن تصمد لها أية قوة سياسية أخرى في مصر- ما زالت الحركة الإسلامية المجاهدة في الميدان تواصل العمل والإعداد في سبيل الله.

الثاني: أنها لا تزال تمثل الخطر الأول على أمن الحكومة، والدليل على ذلك استمرار قوانين الطوارئ والمحاكم العسكرية وقوانين مكافحة الإرهاب، دون أن يتوقع انتهاء العمل بها في المستقبل القريب،

---

[١] سأتعرض لهذا الأمر تفصيلاً لاحقاً إن شاء الله.

[٢] راجع لمزيد من التفصيل: الباب الرابع: العودة لأفغانستان/ الفصل الرابع: الغزوات المباركات/ المطلب الثاني: المعاني القتالية التي أبرزتها الغزوات والمطلب الثالث: المعاني السياسية والفكرية التي أبرزتها الغزوات.

.

ناهيك من السجون الممتلئة بالآلاف من الشباب المسلم. أمضى الكثير منهم السنين العديدة دون توجيه تهمة له. بل وفوق كل ذلك دخول النظام المصري في الحلف الصليبي لمحاربة الإسلام باسم الإرهاب، وتحول مصر لواحدة من أهم محطات التعذيب والتحقيق، التي يخطف لها المعتقلون من كل أنحاء الدنيا لحساب أمريكا في حربها الصليبية على الإسلام.

٥- التحالف الدولي والمطاردة الدولية.

لم يجد النظام بداً من أن يسعى لتحويل المعركة ضد الحركة الإسلامية المجاهدة إلى معركة دولية، فقد أضحى النظام عاجزاً عن مواجهة المد الجهادي المتصاعد، الذي هدد كيانه، ووجه الضربات المتتالية لرأس نظامه.

والنظام في مصر يتكون من فرعون واحد، وطائفة من المنتفعين المنافقين عباد الراتب والمنافع يدورون في فلكه، وبلغ من أنانية هذا الفرعون وتشبثه بالكرسي، أنه لم يختر نائباً له طوال ثمانية وعشرين عاماً أمضاها في حكم مصر، ويسعى حثيثاً الآن لتوريث الحكم لولده الفائز برضا أمريكا، راعية الحريات والديمقراطية.

وقد استفاد المجاهدون من التجارب السابقة في صراعهم مع هذا الفرعون ونظامه، حيث كان ما سبق من مجموعات مجاهدة توجد بجميع مكوناتها في الداخل، فبمجرد وصول أجهزة الأمن لأحد أطرافها تبدأ في التعذيب الوحشي حتى تصل للقيادة، فإذا وصلت للقيادة عصرتها بالتعذيب الوحشي، حتى تحصل على كل المعلومات. لذا قرر المجاهدون أن تكون القيادة والأفرع المعاونة لها في الخارج، وبهذا يكون رأس التنظيم وعقله ومراكز التحكم فيه بعيدين عن بطش النظام، بينما تنتشر أذرعه في الداخل، فإذا تمكنت أجهزة الأمن من مجموعة، نشأت مجموعة غيرها، وبذلك يتواصل الجهاد. وبسبب هذه السياسة تصاعدت حملات المجاهدين بفضل الله، حتى وصلت لتوجيه ضربات عديدة لرأس النظام، أنجاه منها قدر الله وحده.

ولأن النظام تأكد من عجزه عن مواجهة المد الجهادي المتصاعد فقد استغاث بالقياصرة الجدد في واشنطن وسعى حثيثاً لإقناعهم بأن سقوطه سيعني ضياع مصالحهم في الشرق الأوسط، وتهديدها في سائر العالم الإسلامي.

وبعد أن اقتنعت أمريكا أن النظام لا يستطيع أن يصمد وحده أمام هذه الحملة الجهادية، واقتنعت أيضاً أن هذه الروح الجهادية ستقلب -على الأرجح- الأمور في المنطقة رأساً على عقب، وتطرد أمريكا منها، وحينئذ سيقع الزلزال الذي يرتجف الغرب من احتمال حدوثه ألا وهو؛ قيام دولة الخلافة الإسلامية في مصر، تلك الدولة التي إن قدر لها -إن شاء الله- أن تقوم فستصبح -بما تمثله مصر من ثقل في قلب العالم الإسلامي- قادرة على أن تقود العالم الإسلامي جميعه في جهاده ضد الغرب، ومرشحة لأن يلتف

حولها مسلمو العالم كله، وحينئذ سيدور التاريخ -إن شاء الله- دورة جديدة في الاتجاه المعاكس ضد إمبراطورية أمريكا وحكومة اليهود العالمية.

وبعد أن اقتنعت أمريكا بهذا بدأت حملة المطاردة للمجاهدين من مصر في أنحاء العالم، بعد أن عجزت الحكومة المصرية عن التصدي لهم، وعن إيقاف مدهم المتصاعد.

فبدأ الضغط الأمريكي على معظم الدول لتسليم المجاهدين أو طردهم، ومرت بالمجاهدين فترة عصيبة، ولكنها كانت منحة في ثوب محنة، فقد قرر المجاهدون أن يوجهوا ضرباتهم لرأس الكفر العالمي وللشيطان الأكبر، وبزغ فجر جهاد الأمة المسلمة ضد أعدائها الصليبيين واليهود، وكان فتحاً عظيماً ساق المولى بحكمته المجاهدين له سوقاً. قال الحق تبارك وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

لذا فإن القول بأن النظام المصري قد استطاع قمع الحركة الجهادية في مصر قول يجافي الحقيقة، أما الواقع فهو أن النظام المصري قد عانى من ضربات المجاهدين المتصاعدة، التي كادت أن تصل لرأسه وتهزمه، فاستغاث بالأمريكان لمطاردة المجاهدين، فتحالف المجاهدون مع إخوانهم، وكونوا الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين ثم جماعة قاعدة الجهاد، وشنوا حملة عالمية ضد رأس الكفر أمريكا، ونشروا الجهاد ضدها في أنحاء الدنيا، وخاضوا ضدها حربين جهاديتين في العراق وأفغانستان، ثم عادت العمليات الجهادية مرة أخرى لمصر. هذه هي الحقيقة التي يلتف حولها النظام والأمريكان.

ثم هؤلاء الذين يتفاخرون بمهارة النظام المصري في منع الحركة الجهادية يتناسون ويتغاضون عن الثمن الفادح الذي دفعته مصر من أجل ذلك، يتناسون تلك الحملة الوحشية من التعذيب والاعتداء على الأعراض بل على كل قيمة ومبدأ والمحاكم العسكرية الجاهزة وقرابة مائة وثلاثين حكماً بالإعدام وأحكام السجن الطويلة بل والاعتقال بدون توجيه تهم إلى آخر هذه السلسلة القذرة. هذه الحملة التي تمت وتتم تحت الإشراف الأمريكي المباشر.

ويتناسى هؤلاء أيضاً أنهم والأمريكان كانوا يشنعون على الاتحاد السوفييتي ودول حلف وارسو نفس هذه الأساليب في قمع شعوبهم.

وختاماً أؤكد على الدرس الهام الذي يجب أن نتعلمه من هذه الفترة؛ وهو أن المعركة بين الإسلام والكفر لا يمكن أن تنحصر في قطر أو إقليم، لأن أعداء الإسلام يتحالفون ضده من كل مكان وفي كل مكان.

---

[1] وهذا ما سأتعرض له لاحقاً بتفصيل إن شاء الله.

وإني هنا لأتعجب من الأفكار التي تصر على أن الجهاد في فلسطين يجب أن يظل محصوراً في حدود فلسطين الجغرافية وضد اليهود فقط[1]، متناسين الحقائق الشرعية من أن الأمة المسلمة أمة واحدة، وأن ديار الإسلام بمنزلة البلدة الواحدة[2]، ومتجاهلين الحقائق الواقعية أن إسرائيل ما أنشأها إلا تأييد الغرب الصليبي والشرق الشيوعي.

وإني لأذكر أصحاب هذه الأفكار بالكلمات المضيئة لشهيد الإسلام -كما نحسبه- الشيخ عبد الله عزام ~ حين قال:

"إن الحق يأبى الحدود الجغرافية، ولا يرضى أن ينحصر في حدود ضيقة اخترعها علماء الجغرافيا، فالحق يتحدى العقول البشرية النزيهة، ويقول لها: ما بالكم تقولون إن القضية الفلانية حق في هذا الجانب من الجبل أو النهر، وهي باطل إذا تعدت هذا الشاطئ إلى الشاطئ الآخر؟" [3].

"إن أفغانستان هي فلسطين وفلسطين هي أفغانستان والشجى يبعث الشجى، ولكننا لا نريد أن تموت جذوة الجهاد في أعماقنا، ولا أن يخبو الحماس لهذا الدين ولإنقاذ المستضعفين ولحماية بلاد المسلمين في داخل شرايينا" [4].

"من خلال الضغوط اليهودية علينا هنا، من خلال الضغوط اليهودية على الأمريكان والغرب لكي يخرجونا من داخل باكستان، من خلال الضغوط اليهودية والغربية لمنع إعطاء التأشيرات للعرب، وخاصة الفلسطينيين، كانوا يدركون أن الزلزال الذي حدث في جبال الهندكوش لا بد أن يتردد فوق المكبر في القدس" [5].

٦- استمرار المعركة.

يلاحظ أي راصد لتطور الحركة الإسلامية أن معركتها مع النظام، ما زالت مستمرة حتى اليوم، وأن المعركة لم تتوقف طوال الأربعين عاماً الماضية (١٩٦٦م- ٢٠٠٦م)، فالحركة الجهادية إما أنها في هجوم أو في إعداد لهجوم. ويحاول النظام وإعلامه -عبثاً- أن يقنعوا الناس في الداخل والخارج أن المعركة قد انتهت، رغم استمرار حالة الطوارئ وميزانيات الأمن الباهظة، التي تثبت أن النظام لا يزال في حالة

---

[1] من أمثلة ذلك استنكار بعض الحركات في فلسطين لأحداث سيناء (طابا وشرم الشيخ ودهب)، ورد البعض على بيان الشيخ أسامة بن لادن الصادر في ٢٣ أبريل ٢٠٠٦م، الذي اعتبر فيه أن الحصار الاقتصادي لحكومة حماس مثال على الحرب الصليبية على الإسلام، وتصريحهم بأنهم يخالفون بن لادن في اجتهاده، لأنهم يحرصون على علاقة حسنة مع الغرب!!

[2] الفتاوى الكبرى لابن تيمية ج: ٤ ص: ٦٠٩.

[3] عبر وبصائر للجهاد في العصر الحاضر ص: ٦ و٧.

[4] في الجهاد فقه واجتهاد ص: ٢٤١ إلى ٢٤٤.

[5] في التربية الجهادية والبناء- المجلد الثالث ص: ١٤٣.

خوف وترقب وحذر بالغ بسبب استمرار المعركة، وأن الموقف ما زال قابلاً للانفجار في أية لحظة. والنظام متأكد أن الحركة الجهادية تفرخ أجيالاً جديدة، يستعصى على أجهزة الأمن القضاء عليها. وأن حكومة حسني مبارك قد غيرت حتى الآن سبعة وزراء للداخلية يصرح كل منهم بأنه سيقضي على الإرهاب، ثم يعزل، ويأتي من بعده، فيكرر نفس التصريحات.

٧- تصاعد قوة الحركة الجهادية.

تظهر المقارنة بين سعي مجموعة الشهيد -كما نحسبه- الأستاذ سيد قطب في الستينيات لإعداد قوة للرد على حملات بطش عبد الناصر وبين ما وصلت إليه الحركة الجهادية اليوم مدى النمو المتصاعد للحركة المجاهدة، ولم تبلغ الحركة المجاهدة هذا المستوى المتفوق، الذي جعلها طليعة الأمة المسلمة في وجه الحملة الصليبية الصهيونية المعاصرة بالتراجع والانهزام وتزلف الحكام والتنكر لأحكام الإسلام وأصول عقائده، والمراجعات ووثائق الترشيد، ولم تبلغ هذا المستوى بالتنكر لحاكمية الشريعة ومحاولة تسول بضع مقاعد في المجالس التشريعية، بل بلغت ذلك بالثبات على أصول التوحيد وأحكام الشريعة والعطاء والبذل المتواصل بالنفس والمال ومئات الشهداء وآلاف الأسرى والجرحى والمعاقين والأرامل والأيتام، بلغت ذلك بالهجرة والمطاردة وترك الأهل والأوطان وحياة الدعة والراحة والمناصب والوظائف والربح والتجارة والمغانم. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾.

قال السموأل:

إِذا المرءُ لَم يُدنَس مِنَ اللُؤمِ عِرضُهُ ... فَكُلُّ رِداءٍ يَرتَديهِ جَميلُ
وَإِن هُوَ لَم يَحمِل عَلى النَفسِ ضَيمَها ... فَلَيسَ إِلى حُسنِ الثَناءِ سَبيلُ[١]

٨- إيضاح الفكر والمنهج.

استطاعت الحركة الإسلامية أن توضح -إلى حد كبير- المعالم الأساسية لمنهجها مستندة إلى أصول قوية من أدلة القرآن والسنة وإجماعات الفقهاء المعتبرين، مما وفر لها قاعدة متينة رفعت فوقها رايتها التي تجتذب كل يوم -بفضل الله تعالى- أنصاراً جدداً.

٩- الخطاب الشعبي.

---

(١) الشعر للسموأل بن عادياء. الموسوعة الشعرية- السموأل، المستطرف- الباب الثامن والعشرون في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت ج: ١ ص: ٢٩٢.

يجب ألا يكون خطاب الحركة الجهادية خطاباً للصفوة والمتخصصين فقط، بل لابد أن يكون خطاباً مفهوماً للعامة والجماهير، وهذه ثغرة لا بد للحركة الجهادية أن تسعى لسدها بكل جد. والملاحظ لخطاب الحركة الجهادية بعد الغزوات المباركات في نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا يجد أن خطاب الحركة قد تحسن تحسناً واضحاً في مخاطبة الجماهير المسلمة وحشدها حول قضية مقاومة الحملة الصليبية المعاصرة.

يقول مايكل شور[١]:

"لقد بذل[٢] ومعاونوه قدراً طائلاً من المال والوقت والفكر حتى يبنوا إعلاماً عالمياً وجهازاً للدعاية. ويعمل اليوم هذا الجهاز بكامل طاقته، ويطل بن لادن والظواهري، ويستحوذان على الإعلام الدولي وقت ما يشاءان، وبنفس الأهمية فإن الوجود المتعدد المواقع للقاعدة على الإنترنت يعرض باستمرار تعليقاتها السياسية والدينية وتقاريرها الإخبارية أمام أهم أنصارها؛ طبقات العالم الإسلامي الوسطى والعليا الوسطى الملمة بالإنترنت" [٣].

ولا يعني هذا أن تغفل الحركة الجهادية الخطاب الشرعي المتخصص، بل هو ضرورة لا بد منها، ضرورة لبناء تشكيلاتها على عقيدة وفهم صحيحين، وضرورة للتخاطب مع العلماء والدارسين وطلاب العلم، وضرورة للبحث في المسائل الشرعية الهامة -بل وربما الخطيرة- التي تواجهها الحركة، وضرورة لبناء الحركة لأجنحتها المتخصصة في الدعوة والإفتاء والقضاء.

ولكن يبقى الخطاب الشعبي -المبني على التأصيل الشرعي المنضبط- هو الذي يجب أن تنفق فيه الحركة المجاهدة جهدها الأكبر لسببين:

أولهما: أن الخطاب العلمي المتخصص قد سد ثغرته -إلى حد كبير- كثير من العلماء والدارسين المخلصين، وغالب ما ستصدره الحركة المجاهدة من إصدارات متخصصة سيكون عالة على من سبقها، ويبقى لها فضل العرض والإبراز والترتيب على حسب الأهمية.

---

[١] مايكل شور عمل لمدة ٢٢ عاماً في السي آي إيه، قبل أن يستقيل في عام ٢٠٠٤م. وكان رئيس (وحدة بن لادن) في مركز مكافحة الإرهاب من ١٩٩٦م حتى ١٩٩٩م. وهو المؤلف الذي كان مجهولاً لكتابي: من خلال عيون أعدائنا: أسامة بن لادن والإسلام الأصولي ومستقبل أمريكا، وكتاب الغطرسة الاستعمارية: لماذا يخسر الغرب الحرب على الإرهاب.

[٢] يقصد الشيخ أسامة بن لادن حفظه الله.

[٣] Can al-Qaeda Endure Byond bin Laden.

وراجع لمزيد من التفصيل حول الانتصار الإعلامي -بفضل الله- للمجاهدين: الباب الرابع: العودة لأفغانستان/ الفصل الرابع: الغزوات المباركات/ المطلب الثالث: المعاني السياسية والفكرية التي أبرزتها الغزوات/ الفرع الرابع: الانتصار الإعلامي للمجاهدين.

وثانيهما: أن عوام المسلمين بل وكثير من المتعلمين والمثقفين والمتخصصين منهم، لا يفهمون الخطاب الشرعي المتخصص، لأن أغلب المتعلمين والمثقفين والمتخصصين إما عامة في العلم الشرعي، أو قد فهموه خطأ، والإنسان بطبعه عدو ما يجهل.

وهذا الجانب قد قصر فيه الدعاة تقصيراً كبيراً، فهم إما قد تركوه، أو بذلوا فيه مجهوداً، ولكن فيما لا يصطدم بأهواء وأطماع الطغاة والغزاة. فبقي القطاع الأكبر من المسلمين مغيباً وجاهلاً لأهم قضايا العقيدة والشريعة، التي يحتاجها المسلم في زمن الهجمة الصليبية الصهيونية.

فعلى الحركة المجاهدة أن تقوم بهذا الدور الضروري لها وللأمة المسلمة، بعرض قضيتها بالأسلوب السهل الممتنع، الذي يصل بأخطر قضايا العقيدة والشريعة لعامة المسلمين، ويربطها بأخطر قضايا الواقع والصراع.

فإذا أضيف إلى ما سبق الحصار الإعلامي المفروض على خطاب الحركة المجاهدة، ثم حملة التضليل التي تقوم بها أجهزة الإعلام الحكومي لاتضح لنا مدى المجهود الذي يجب أن تبذله الحركة المجاهدة لتصل لعامة الأمة؛ الأمي منها أو الحاصل على أعلى الدرجات العلمية.

١٠- بقيت نقطة خطيرة جداً، وقد تعمدت أن أجعلها في آخر الدروس المستفادة، وهي تتعلق بمدى جدوى العمليات الجهادية التي قامت في الفترة المشار إليها.

بداية لا بد أن أوضح باختصار ما هو الهدف من العمليات الجهادية؟

الذي أراه؛ أنه في الدول المستبدة العتيدة مثل مصر، حيث يمسك الفرعون بكل خيوط السلطة، ويضغط بمخالبه على أعناق الأمة، ويقمع بكل قسوة أية محاولة للتمرد، في مثل تلك الدول، فإن العمليات الجهادية لا يقصد بها إسقاط النظام، وإنما يقصد بها أمران:

الأول: وهو الأهم، حشد قوى الأمة خلف الطليعة الجهادية، تمهيداً لإسقاط النظام.

والثاني: تحطيم معنويات أفراد الخصم، وتقريبهم من حالة اليأس، الذي سيسارع بانهيار النظام، عند قيام الطليعة المجاهدة بضربتها الحاسمة للإجهاز على النظام.

وبناء على هذا الاجتهاد، فعلينا أن نقوم بكل عمل من شأنه أن يحشد الأمة خلف طليعتها المجاهدة، وأن نتجنب كل عمل ينفرها من ذلك، بل وكل عمل لا تفهمه الأمة ولا يساعد على حشدها تحت راية الجهاد، لأن هذا العمل أهون خسائره هو ضياع الجهد والأنفس والأموال بلا طائل.

وبناء على هذا الاجتهاد فإن مراجعة الفترة السابقة يمكن أن تفرز الأعمال الجهادية لعمليات مجدية وأخرى غير مجدية وثالثة بين الاثنتين.

فالعمليات المجدية هي التي تضرب العدو الذي تمقته الأمة، والعمليات غير المجدية هي التي لا تفهمها الأمة، أو تصيب من لا تمقتهم.

فإذا استحضرنا في الذاكرة أن أعدى أعداء الأمة هم اليهود ثم الأمريكان ثم رموز الفساد المتعاونين معهما، لأمكن أن نعتبر أن أنجح العمليات هي التي وجهت لليهود وللأمريكان ثم ضد حسني مبارك. وأن أقل العمليات جدوى هي التي وجهت للأقباط ولعموم الشرطة وللسياحة غير اليهودية قبل غزو العراق وأفغانستان، أما بعد غزو أفغانستان والعراق فإن ضرب أفراد ومصالح الدول المشاركة في الحملة عليهما تعد من العمليات المجدية.

وإذا ضرب الأمريكان واليهود فسيسقط القناع عن النظام وينكشف وجهه القبيح، وأدل مثال على ذلك ما قام به النظام من بطش مستشر بعد أحداث طابا حماية لتجارة الفساد الإسرائيلية في سيناء.

ولذا فإن أفضل العمليات من حيث الجدوى الآن في مصر هي بالترتيب:

أ- العمليات ضد اليهود ومصالحهم.

ب- العمليات ضد الأمريكان ومصالحهم.

ج- العمليات ضد بقية الدول المشاركة في الحملة الصليبية على أفغانستان والعراق ومصالحها.

د- العمليات ضد حسني مبارك وولديه.

هـ- العمليات ضد وزير الداخلية وقيادات الأمن الهامة الممارسة للتعذيب الحاليين والسابقين.

١١- المحصلة.

هل فشلت الحركة الجهادية أم نجحت خلال الأربعين عاماً الماضية؟

الجواب:

أ- لا بد أن نعترف أن هدف الحركة الجهادية وهو قيام الحكومة الإسلامية في مصر لم يتحقق حتى الآن.

ب- ولكن هذا الهدف لم تضع له الحركة الجهادية المجاهدة توقيتاً معيناً للوصول إليه، والأهم من ذلك أنه هدف قد يستغرق تحقيقه عدة أجيال، فالصليبيون في الشام وفلسطين خرجوا بعد قرنين من الجهاد المتصل، وكانت الأمة الإسلامية لها سلاطين مجاهدون وجيوش معدة منظمة، ويقودها أئمة أعلام متبعون كالعز بن عبد السلام والنووي وابن تيمية رحمة الله عليهم أجمعين، ومع ذلك لم يخرج الصليبيون في ثلاثين أو خمسين عاماً. والإنجليز احتلوا مصر سبعين عاماً، والفرنسيون احتلوا الجزائر مائة وعشرين عاماً.

ج- والذي أراه واضحاً أن الحركة الإسلامية المجاهدة قد قطعت شوطاً طويلاً في طريق النصر.

(١) فهي تمتلك منهجاً فكرياً واضحاً يستند إلى أسس شرعية ثابتة وحقائق واقعية ملموسة.

(٢) كما أنها استطاعت أن تنشر بين الشباب قضايا كانت غائبة عن فكر جماهير الأمة المسلمة مثل حاكمية الشريعة وردة الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله ووجوب الخروج على الحكام الموالين لأعداء الإسلام.

(٣) كما كشفت الحركة الجهادية عن الصلة الوثيقة بين النظام الدولي والنظام المصري.

(٤) ولم تكتف الحركة الجهادية بالطرح النظري لهذه القضايا بل طبقتها في أسلوب هجومي هز أركان النظام عدة مرات. واستطاعت قتل رئيس الجمهورية السابق.

(٥) ونتيجة لما سبق فقد كان للحركة الجهادية تأثيرها القوي على الشباب المسلم فكراً وعملاً، مما أدى إلى نشر الروح الجهادية بين جماهير غفيرة من شباب مصر. ليس هذا فحسب، بل لقد أثرت الحركة الجهادية على شرائح عريضة من شعب مصر، فعلى سبيل المثال ذكر لي أحد الإخوة المحاكمين في قضية اغتيال السادات أن أحد المحامين اقترب من أقفاص المتهمين وقال لهم بدهشة وحماس: من أنتم ومن أين جئتم؟ فقد أحيا شعب مصر بقتله للسادات الأمل في قلوب الأمة. والمراقب للحركة الإسلامية المجاهدة يستطيع أن يدرك الفرق الواضح في حجم الحركة ووضوح فكرها وازدياد حركتها بين بدايات الحركة وواقعها اليوم.

(٦) بل إن الحركة المجاهدة من مصر قد طورت من أدائها بتوحدها مع إخوانها المجاهدين في جماعة قاعدة الجهاد، وخاضت معهم معركة الإسلام ضد الحملة الصليبية الصهيونية، وأصبحت بذلك جزءاً من الطليعة المجاهدة التي التفت حولها الأمة المسلمة في جهادها للحملة الصليبية المعاصرة.

د- ومن هنا نستطيع أن نؤكد أن الحركة الجهادية في نماء وتقدم على المستوى العام، وإن أصابها شيء من الفتور أو التراجع على المستوى الخاص نظراً لحملات البطش أو فترات الحصار.

ولذا فعلى الحركة الإسلامية المجاهدة ألا تتوقف عن المقاومة، بل وعليها أن تشرك الأمة كلها معها في تلك المقاومة.

الفصل الرابع:
رسالة لعملاء اليهود بإسلام آباد

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

السَيفُ أَصدَقُ أَنباءً مِنَ الكُتُبِ ... في حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَعِبِ

أَبقَيتَ جَدَّ بَني الإِسلامِ في صَعَدٍ ... وَالمُشرِكينَ وَدارَ الشِركِ في صَبَبِ

غادَرتَ فيها بَهيمَ اللَيلِ وَهوَ ضُحىً ... يَشُلُّهُ وَسطَها صُبحٌ مِنَ اللَهَبِ

ضَوءٌ مِنَ النارِ وَالظَلماءِ عاكِفَةٌ ... وَظُلمَةٌ مِن دُخانٍ في ضُحىً شَحِبِ

لَو يَعلَمُ الكُفرُ كَم مِن أَعصُرٍ كَمَنَت ... لَهُ العَواقِبُ بَينَ السُمرِ وَالقُضُبِ

حَتّى تَرَكتَ عَمودَ الشِركِ مُنعَفِراً ... وَلَم تُعَرِّج عَلى الأَوتادِ وَالطُنُبِ

إِنَّ الأُسودَ أُسودَ الغيلِ هِمَّتُها ... يَومَ الكَريهَةِ في المَسلوبِ لا السَلَبِ

يا رُبَّ حَوباءَ حينَ اجتُثَّ دابِرُهُم ... طابَت وَلَو ضُمِّخَت بِالمِسكِ لَم تَطِبِ[1]

بدأت مع حلول عام ١٩٩٥ في الأفق ملامح عاصفة جديدة من عواصف المطاردة، وجاءتنا نصيحة من أحد أفاضل إخواننا في الأسر: إذا اضطررتم لأن تتوقفوا فلتكن نهاية المرحلة عملية كبيرة.

وهكذا قررنا أن نضرب ضربتين في وقت متقارب الأولى في باكستان ضد السفارة الأمريكية والثانية في مصر ضد اليهود.

وكلفت بعملية باكستان الأخ البطل الشهيد -كما نحسبه- أبا خالد طارق أنور، وطارق أنور من أصدق من عاشرت، ومن أشدهم أخذاً دين الله بجد، ومن أكثرهم بذلاً وعطاءً وتفانياً، ومن أصبرهم

[1] الأبيات لأبي تمام في فتح عمورية- الموسوعة الشعرية- أبو تمام.

على الملمات والشدائد والنوب، زاهداً في الدنيا متعففاً عنها، وقد عاشرته عن قرب لسنين، فما وجدته كلَّ يوماً عن خدمة إخوانه، وكان لي كشقيقي الأصغر، وكنت كثيراً ما أئتمنه على رعاية أسرتي في غيابي، وقد استشهد معهم في جارديز بغارتين جويتين استهدفتا بإصرار البيت الذي آووا إليه. فقتل الأمريكان ثمانية عشر مسلماً من الرجال والنساء والأطفال، فرحمهم الله رحمة واسعة.

وكنت أعرف أني عند تكليفي له قد كلفت بالأمر من هو أهله، وكان دوري أن أوفر له المدد المالي، أما ترتيب الأمر من بدايته لنهايته فقد كنت واثقاً أني قد وضعته في يد أمينة موثوقة.

وقد انتخب ثلة من أفاضل الإخوة ليشاركوه في تلك الحملة الجهادية، واستغرق الإعداد منه قرابة سنة من الصبر والمثابرة والحفر بأظافره في الصخر، وكاد أن يصل لحافة اليأس، ولما قرر أن يعود فتح الله عليه من حيث لا يدري ولا يحتسب. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أما الأخوان المنفذان فكانا من خيرة إخواننا الأخفياء الأتقياء، أما الأخ المنفذ الأول الذي فجر بوابة السفارة الحديدية بحقيبة متفجرة يحملها فكان يتسم بالتواضع الشديد والصبر على أشد الظروف ضنكاً، وكان دائماً في خدمة إخوانه لا يترك أحداً يعد طعاماً أو شراباً، ولا يكاد يغادر المطبخ أو يترك أحداً يدخله.

أما الأخ الثاني فكان من الصابرين على الظروف الشديدة التي مرت بنا، تواقاً للشهادة في سبيل الله، وكان يبكي شوقاً لها، وأذكر يوماً أنه جاءني وقد استبد به الحزن يسألني أن أرتب له عملاً استشهادياً، فقلت له لماذا تسألني؟ وأنا لا أملك لك شيئاً، عليك بالله مالك الملك فاسأله يعطك. وفعلاً يسر له الأمر بعد فترة.

كان هدفنا الأساسي في إسلام آباد ضرب السفارة الأمريكية، فان لم يتيسر فلنضرب أحد الأهداف الأمريكية في باكستان، فإن لم يتيسر فلتضرب سفارة دولة غربية مشهورة بعدائها التاريخي للمسلمين، فإن لم يتيسر فلتضرب السفارة المصرية.

ولذا قررنا أن يكون الرد منصبا على هدف يؤلم هذا التحالف الخبيث.

ولكن بعد الاستطلاع المكثف والمفصل تبين أن تفجير السفارة الأمريكية فوق إمكانات المجموعة المكلفة، وتم استطلاع أحد الأهداف الأمريكية في إسلام آباد، فتبين أن به عدداً قليلاً جداً من الموظفين الأمريكان، وأن الإصابات ستلحق معظمها بالباكستانيين.

كذلك تبين أن ضرب السفارة الغربية الأخرى فوق إمكانات المجموعة المكلفة. وهكذا استقر الأمر على ضرب السفارة المصرية في إسلام آباد، التي لم تكن فقط تدير حملة المطاردة للعرب في باكستان، بل

كانت أيضاً تقوم بدور تجسسي خطير على المجاهدين العرب، بالإضافة إلى ما اكتشفته أجهزة الأمن الباكستانية في مباني السفارة المدمرة من وثائق تكشف عن التعاون الهندي المصري في مجال التجسس.

فبعد حملة مطاردة المجاهدين العرب في باكستان، بدأت الحكومة المصرية تستأسد في باكستان، مستندة إلى الدعم الذي تقدمه لها الولايات المتحدة بنفوذها القوي لدى الحكومة الباكستانية، وذلك لأن علاقة الحكومة المصرية كانت -منذ الخمسينيات- سيئة مع الحكومة الباكستانية بسبب موقف الحكومة المصرية المساند للهند في قضية كشمير، واعتبار الحكومة المصرية -منذ عهد عبد الناصر- كشمير مشكلة داخلية هندية.

وبدأت الحكومة المصرية في تعقب من تبقى من العرب والمصريين خاصة في باكستان، ووصل الأمر إلى ترحيل أحد الطلاب المقيمين قانونياً من الجامعة الإسلامية في إسلام آباد، ثم القبض على مصريين يحملان الجنسية الباكستانية لزواجهما من باكستانيتين، ووصل استسلام الحكومة الباكستانية أنها سلمت هذين الأخوين إلى الحكومة المصرية أثناء نظر القضاء في تظلمهما، من دون اعتبار للدستور أو القانون الباكستاني.

كما أن توسيع الحكومة المصرية لحملتها المعادية للمجاهدين في مصر ونقلها المعركة إلى خارجها كان لا بد له من رد.

وقبيل التفجير أرسلت المجموعة المنفذة تخبرنا عن إمكانها القيام بضرب السفارة الأمريكية والمصرية معاً اذاً دبرنا لها مبلغاً إضافياً، ولكن كنا قد قدمنا ما معنا، ولم نكن نستطيع تدبير المزيد. وهكذا ركزت المجموعة على نسف السفارة المصرية، وتركت خرائب السفارة رسالة بليغة المعنى واضحة البيان[١].

---

[١] لمزيد من التفصيل حول عملية نسف السفارة المصرية في إسلام آباد يمكن مراجعة رسالة (شفاء صدور المؤمنين؛ رسالة عن بعض معاني الجهاد في عملية إسلام آباد).

الفصل الخامس

داغستان- الفرج بعد انقطاع السبب

تمهيد

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضيقُ بِها الفَتى ... ذَرعاً وَعِندَ اللَهِ مِنها المَخرَجُ

ضاقَت فَلَمّا اِستَحكَمَت حَلَقاتُها ... فُرِجَت وَكُنتُ أَظُنُّها لا تُفرَجُ[1]

هِـيَ الأَيـامُ وَالعِبَرُ ... وَأَمرُ اللَهِ يُنتَظَرُ

أَتَيأَسُ أَن تَرى فَرَجاً ... فَأَينَ اللَهُ وَالقَدَرُ[2]

بدأت منذ ربيع عام ١٩٩٦ موجة جديدة من المطاردات ضد المجاهدين العرب عامة تديرها أمريكا وتنفذها الأنظمة المستسلمة لها، أما الشيخ أسامة بن لادن -حفظه الله-

فقد اضطر للهجرة لأفغانستان عبر رحلة مليئة بالأخطار، أما نحن فقد اخترنا أن نحاول التنقل في البلاد علنا نجد فرصة لإيجاد مكان مناسب لإدارة العمل، مستغلين ما من الله به علينا من خبرة في التخفي والتنقل.

وهكذا بدأت رحلة من التنقل من بلد لبلد.

---

[1] الأبيات للإمام الشافعي رحمه الله ولإبراهيم بن العباس الصولي. الموسوعة الشعرية- الشافعي وإبراهيم بن العباس الصولي، المستطرف- الباب السابع والخمسون ما جاء في العسر بعد اليسر ج: ٢ ص: ١٥٦.

[2] البيتان لأبي العتاهية. كتب بهما لبكر بن المعتمر لما شكا إليه ضيق اليد والحبس. الأغاني- ذكر نسب أبي العتاهية وأخباره ج: ٤ ص: ٨٥.

D

وَسائِلَةٍ أَينَ الرَحيلُ وَسائِلٍ وَمَن يَسأَلُ الصُعلوكَ أَينَ مَذاهِبُه

مَذاهِبُهُ أَنَّ الفِجاجَ عَريضَةٌ إِذا ضَنَّ عَنهُ بِالفَعالِ أَقارِبُه

لِيُدرِكَ ثأراً أَو لِيُدرِكَ مَغنَماً جَزيلاً وَهَذا الدَهرُ جَمٌ عَجائِبُه

فَلا أَترُكُ الإِخوانَ ما عُشتُ لِلرَدى كَما أَنَّهُ لا يَترُكُ الماءُ شارِبُه

وَدَع عَنكَ مَولى السُوءِ وَالدَهرَ إِنَّه سَتَكفيكَهُ أَيّامُهُ وَتَجارِبُه[1]

ومع حلول خريف عام ١٩٩٦م اتضح لنا أن هذا التنقل مضاره أكثر من فوائده، وأننا لن نستطيع أن نفيد الحركة الجهادية إلا إذا انتقلنا لقاعدة مستقرة للمجاهدين، نستطيع أن نعمل منها بحرية وأمن، وأن نستفيد ونفيد إخواننا.

ولم يكن أمامنا إلا أفغانستان أو الشيشان. أما أفغانستان فكانت معلوماتنا عما يدور فيها قليلة، وكنا في قلق منها بسبب الحرب الأهلية الدائرة فيها، وكان خوفنا من أن نجد أنفسنا متورطين في تلك الحرب رغماً عنا. أو أن يهاجمنا طرف متورط مع الأمريكان أو الباكستانيين، خاصة وقد أبدى برهان الدين رباني رغبته في تسليم من أسماهم بالإرهابيين عند زيارته لمصر، رغم أنه هو الذي كان يحتاج من يحميه، ولكنها مسابقة عرض الخدمات لاكتساب رضا ومنافع سيد العالم الجديد.

فقررنا أن نشد الرحال للشيشان. وكان الطريق يمر بداغستان التي دخلناها تهريباً، وفي الطريق قبض علينا في مدينة دربند[2] بداغستان، لأننا لا نحمل تأشيرة دخول لروسيا التي تعتبر داغستان جزءاً منها. وحولتنا الشرطة لوزارة الاستخبارات، التي حولتنا لحرس الحدود، وهكذا في سويعات وجدنا أنفسنا في معتقل معسكر قيادة حرس الحدود في داغستان في قبضة الجيش الروسي.

وبدأ التحقيق معنا لدخولنا لأراضي روسيا الاتحادية بدون تأشيرة، ولم يجدوا معنا ما يجعلهم يشتبهون في صلتنا بالمجاهدين، وكانت أمامنا مشكلتان: الأولى وهي الجريمة القانونية، وهي دخول البلاد بدون تأشيرة، والثانية وهي الأخطر وهي انكشاف أمرنا، وما قد يتبع ذلك من آثار.

فقررنا أن نتحمل أهون الضررين، ونتقمص شخصية التجار الذين غرر بهم البعض، وأدخلوهم البلاد بدون تأشيرة مقابل مبلغ من المال. وأننا نملك شركة تجارية، وقد جئنا لداغستان للبحث عن فرص

---

[1] الأبيات أعدت ترتيبها من شعر عروة بن الورد وأبي النشناش النهشلي- الموسوعة الشعرية- عروة بن الورد والنهشلي، الأغاني ج: ١٢ ص: ٢٠١.

[2] ويقال لها باب الأبواب. [معجم البلدان- باب الباء والألف وما يليهما- باب الأبواب ج: ١ ص: ٣٠٣]، وقد وجدنا في مقبرتها أربعين قبراً، يقولون أنها لأربعين صحابياً }، ويتبركون بشرب الماء من نقرة عند رأس القبر، وقد زرنا هذه القبور في طريق عودتنا بعد الخروج من السجن.

للتجارة. وفعلاً حكينا للمحققين تفاصيل رحلتنا مع بعض التعديلات، وذكرنا فيها معلومات حقيقية عن الطريق الذي سلكناه، فاقتنع المحققون بالقصة، وسجلوا ضدنا قضية جنائية، ثم تطور الأمر بأن قرروا تحويلنا للسجن المركزي في العاصمة محج قلعة، وبدأت الشرطة معنا تحقيقاً قانونياً كررنا فيه نفس القصة، ثم استدعتنا وزارة المخابرات في العاصمة، وحققت مع كل منا على انفراد، فكررنا نفس القصة الواحدة، فاقتنع المحققون ببساطة قضيتنا، وأنها لا تعدو أن تكون قضية دخول البلاد بدون تأشيرة. وحولت أوراقنا للقضاء، الذي حكم علينا بستة أشهر حبساً، كنا قد أمضينا منها حتى صدور الحكم أربعة أشهر ونصف.

وفي خلال هذه الفترة مرت بنا من آيات حفظ الله ولطفه وستره ما نعجز عن شكره، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

وَكَم لِلَّهِ مِن لُطفٍ خَفيٍّ   يَدِقُّ خَفاهُ عَن فَهمِ الذَكيِّ
وَكَم يُسرٍ أَتى مِن بَعدِ عُسرٍ   فَفَرَّجَ كَربَةُ القَلبُ الشَجيِّ
وَكَم أَمرٍ تُساءُ بِهِ صَباحاً   وَتَأتيكَ المَسَرَّةُ بِالعَشيِّ
إِذا ضاقَت بِكَ الأَحوالُ يَوماً   فَثِق بِالواحِدِ الفَرَدِ العَلِيِّ

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

إذا اشتملت على اليأس القلوب   وضاق بما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واطمأنت   وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجهاً   ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث   يمن به القريب المستجيب
وكل الحادثات إذا تناهت   فموصول بها الفرج القريب[1]

وقد كانت فترة الستة أشهر التي قضيتها في السجن في داغستان كثيراً ما تثير تفكيري وتأملي، حتى لقد نبهني أحد الإخوة مرة متسائلاً عن كثرة ذكري لأحداثها، فأجبته بأن ذلك لكثرة العبر فيها.

وإذا سمح لي القارئ بأن أستعرض بعضاً من تأملاتي في هذه الفترة، فأرى أن أبدأ بالحديث عن القوقاز، ثم بالحديث عن السجن في داغستان. لأن صورة تجربتي في سجن داغستان لن تكتمل إلا بإدراك موجز للخلفية التاريخية والجهادية والسياسية للقوقاز المسلم.

---

[1] البداية والنهاية- سنة أربعين من الهجرة- ذكر مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب..- في ذكر شيء من سيرته الفاضلة ومواعظه.. ج: ٨ ص: ٩ و١٠.

المطلب الأول:
تأملات في أحوال القوقاز المسلم

١- الفرع الأول: اقترابي الشخصي الأول من القوقاز المسلم.

٢- الفرع الثاني: موجز تاريخ الصراع بين روسيا والقوقاز.

٣- الفرع الثالث: المعاني القتالية التي أبرزتها الحرب الأولى (ديسمبر ١٩٩٤م- أغسطس ١٩٩٦م).

٤- الفرع الرابع: المعاني السياسية والنفسية التي أبرزها الصراع بين روسيا والقوقاز المسلم.

الفرع الأول:
اقترابي الشخصي الأول من القوقاز المسلم

كان اقترابي الشخصي الأول بالشيشان المسلم عبر شخص وقور عرفته أسرتي باسم (بكير بك) ~، وقد تعرفت عليه في بيت بعض الأقارب، ثم صار صديقاً لأبي ~، يدعوه في المناسبات كإفطار رمضان، وكان بكير بك من القوقاز المسلم، ولا أدري بالضبط من أين؟ فلم تكن لي فكرة تفصيلية في ذلك الوقت عن القوقاز المسلم، وكان بكير بك ~ من المجاهدين الذين قاتلوا الروس في القوقاز، ثم هرب لتركيا في أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان يحكي لنا عن صدمته لما رأى قوات النصارى، وهي تحتل دار الخلافة، ثم هاجر بعد ذلك لمصر، واستوطنها، وتنقل في عدة أعمال، وكان آخرها عمله في تجارة المشغولات الفضية، وكان بكير بك ~ وقوراً مهيباً، قد شاب شعره، ذو شارب ضخم مفتول، معتزاً بنفسه ضخم الجثة قوي البنية، يتحدث العربية بطلاقة، ولكن بلكنة أشبه بلكنة الأتراك المتمصرين. ورغم أنه كان بين السبعين والثمانين من العمر إلا أنه كان يتحدانا ونحن شباب بقوته الشديدة.

وكان أحياناً يأتي لزيارة أقاربي بزيه القوقازي المميز، وكان لا يمل من الحديث عن مأساة القوقاز المسلم وجهاد المسلمين ضد الروس القياصرة ثم الشيوعيين، وربما وزع علينا بعض الكتيبات عن اضطهاد المسلمين في القوقاز. وأحياناً كان ينشد المدائح النبوية[١] -على صاحبها أزكى الصلاة والسلام- بعقيرته القوية، ثم ينتصب قائماً بزيه القوقازي المميز، ويستل خنجره، ويأخذ في رقصات قوية، وهو يهتف: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله.

وكان يسكن شقة صغيرة في ميدان العتبة فوق السوق ذي العقود، الذي كان يعرف (ببواكي العتبة)، وأذكر أني زرته مرة في تلك الشقة، فأشار إلى نافذة تطل على الميدان، وقال:

---

(١) وكان مما ينشده أبيات سعدي الشيرازي ~ في مدح حضرة النبي T:

كنز الكرم مولى النعم   هادي الأمم لشريعته

سعت الشجر نطق الحجر   شق القمر بإشارته

جبريل أتاه ليلة إسراه   والرب دعاه لحضرته

فمحمدنا هو سيدنا   فالعز لنا بإجابته

"سيأتي يوم، وينتصر الإسلام، وأنصب رشاشاً على هذه النافذة، وأرش به الكفار، وأنا أهتف: لا إله إلا الله".

وكان سبب تعرف أسرتي على بكير بك ~ صداقتها لأسرة العمروسي بك، وكان العمروسي بك رجلاً وقوراً عمل في السفارة المصرية في السعودية، في الفترة التي كان جدي لأمي -العلامة عبد الوهاب عزام ~- سفيراً لمصر بها، وفي المدينة تزوج العمروسي بك من إحدى حفيدات الإمام شاميل ~، وكانت تدعى زبيدة هانم، ولهذا صارت زبيدة هانم صديقة لجدتي وخالاتي، كانت زبيدة هانم امرأة وقورة شديدة الاعتزاز بتاريخ أجدادها وتراثهم، كثيرة التحدث عنهم، ومن خلال العمروسي بك وزبيدة هانم، تعرفت أسرتي على بكير بك ~، الذي كان على وقاره وهيبته، يتصرف كالتابع المطيع لزبيدة هانم.

وسافر بكير بك ~ في آخر عمره لتركيا حيث التأم شمل أسرته بعد طول فراق، ثم توفي -إلى رحمة الله- قبل أن يشاهد انهيار الاتحاد السوفييتي واستقلال الشيشان.

وكنت كثيراً ما أتذكر بكير بك ~ أثناء سجني في داغستان، وأتصور أنه كان لا بد أن يأتي للقوقاز، ويشارك في معارك الشيشان ضد الروس، فرحمة الله على هذا المجاهد المهاجر وعلى سائر المسلمين[١].

وأرى أني لا أتمكن من توضيح صورة تجربتي في سجن داغستان دون أن أتعرض بإيجاز للخلفيات التاريخية والقتالية والسياسية والنفسية لصراع روسيا مع القوقاز المسلم عامة ومع الشيشان خاصة، وبالذات قبيل دخولي للسجن ، وهذا ما سأحاوله في الفروع الثاني والثالث والرابع من هذا المطلب.

---

[١] أرجو ممن يستطيع من قراء هذا الكتاب أن يمدني بمعلومات عن بكير بك ~ أن يتفضل علي بذلك، ولو على شبكة المعلومات، كما أرجو ممن يعرف أسرته أن يبلغهم سلامي ودعائي.

الفرع الثاني:

موجز تاريخ الصراع بين روسيا والقوقاز المسلم

"لقد انتظرت في القوقاز خمساً وعشرين سنة لتمتد إلي هذه اليد"[١].

"لن نبكي، لن نضعف، لن ننسى"[٢].

يمكن تقسيم تاريخ الصراع بين الروس والقوقاز المسلم بإيجاز إلى:

١- الصراع بين روسيا القيصرية والقوقاز المسلم.

أ- حركة الإمام منصور ~.

ب- الجهاد في القوقاز المسلم بعد الإمام منصور ~ حتى ظهور حركة الإمام شاميل ~.

ج- حركة الإمام شاميل ~.

د- الجهاد في القوقاز المسلم بعد الإمام شاميل ~.

٢- الصراع بين الاتحاد السوفييتي والقوقاز المسلم.

---

[١] هذه العبارة قالها الإمام شاميل ~ للسلطان العثماني حينما هم بمصافحته، بعد أن نفاه الروس من القوقاز. ثم يعلق عليها الشهيد -كما نحسبه- زليم خان يندربي ~ بقوله: "واليوم يستحق كل العالم الإسلامي تأنيباً وتوبيخاً مشابهاً". [الشيشان- السياسة والواقع ص: ١٢]. والشيخ الشهيد -كما نحسبه- زليم خان يندربي ~كان نائباً لجوهر دوداييف ~ أول رئيس لجمهورية أشكيرية الشيشانية، ثم كان الرئيس المؤقت للجمهورية بعد مقتل جوهر دوداييف ~، وقد زار قندهار لترتيب اعتراف أفغانستان بجمهورية أشكيرية الشيشانية، وقد قابلته، وتعارفنا في لقاء عابر، لأن حكومة الإمارة الإسلامية كانت تفرض على زيارته طوقاً من السرية. ثم قتل شهيداً -كما نحسبه- في قطر بأيدي المخابرات الروسية في فبراير من عام ٢٠٠٤م، فرحمه الله رحمة واسعة. ويعتبره أناتول ليفين أحد أهم الأشخاص، الذين وجهوا جوهر دوداييف ~ للاتجاه الإسلامي.
.[Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ٧٠]

[٢] هذه العبارة نقشت تحت صورة قرآن مفتوح، وبجانبه قبضة ضخمة، تمسك بسيف مشهر في صدر النصب التذكاري المقام في جروزني عام ١٩٩٤ للذكرى الخمسين للترحيلات القسرية للشيشانيين، والذي دمر بعد أقل من عام من بدء الهجوم الروسي على جروزني. وقد صنع هذا النصب أساساً من أحجار القبور الشيشانية القديمة، المأخوذة من المقابر التي دمرت بعد عام ١٩٤٤ على يد السلطات السوفيتية والمستوطنين الروس ليعبدوا بها الطرق، ويبنوا بها البيوت!
[Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ٣١٩ & ٣٢٠].

٣- الصراع بين الروس والقوقاز المسلم بعد سقوط الاتحاد السوفييتي.

***

١- الصراع بين روسيا القيصرية والقوقاز المسلم.

أ- حركة الإمام منصور ~ (١٧٨٥م- ١٧٩١م):

في نهاية القرن السابع عشر(١٦٨٨م) تولى السلطة في روسيا القيصر(بطرس الأكبر) الذي أدرك بحدة ذكائه مدى العظمة التي يمكن أن ينالها الروس باحتلالهم القوقاز، وقد وضع وصية سياسية لاحتلال مناطق المسلمين، طبقها من جاء من بعده خطوة بخطوة.

وجاءت القيصرة الروسية كاترين الثانية (١٧٢٩م) وسارت على مخطط بطرس الأكبر فبدأت عمليات الاستيطان الواسعة تجاه الجنوب حيث بلاد المسلمين.

وقاوم المسلمون، ولا زالوا يقاومون حتى اليوم هذا العدوان الروسي على أرضهم.

وكان أول قائد لجهاد المسلمين في القوقاز صد العدوان الروسي الإمام منصور ~، و هو أول إمام للقوقاز، وهو شيشاني من قرية ألدي، و قد تلقى علومه الشرعية في داغستان، ثم عاد إلى بلاده الشيشان داعية إلى الله وإلى التمسك بالشريعة الإسلامية، وصاحب هذه الدعوة أخلاق نبيلة وأمانة في التعامل مع الناس وبساطة في العيش، مما رفع مكانته عند الناس، وأصبحت له كلمة مسموعة.

وما أن سمع بوصول القوات الروسية القيصرية لشمال القوقاز حتى خرج من قريته داعياً إلى الجهاد ضد الغزاة الروس، فلقيت دعوته تجاوباً كبيراً من شعوب القوقاز، فانضمت إليه.

ونجح في توحيد كل شعوب شمال القوقاز ضد العدوان الروسي.

ومع أن القوى المتحاربة لم تكن متساوية ومتكافئة، ولم تتحقق المساعدات المتوقعة من السلطان العثماني في تركيا فقد استطاع الإمام منصور إلحاق الهزائم المتتالية بالقوات الروسية القيصرية طوال ست سنوات من عام ١٧٨٥م حتى عام ١٧٩١م، ولم يمكنها من احتلال أي منطقة في شمال القوقاز.

استنجد الخليفة العثماني بالإمام منصور لنجدة الأتراك المحاصرين في بعض القلاع من قبل الروس القياصرة، فقام بنجدتهم، وفك الحصار عنهم، إلا أن أحد القادة الأتراك (حسين بطل باشا) استسلم للروس، وفتح أبواب قلعة (أنابا) لهم، وكان الإمام منصور ~ بداخل القلعة، فقاوم مع رجاله، حتى سقط جريحاً، وسقط منه سيفه، ووقع في الأسر في عام ١٧٩١م، ونقل مقيداً بالسلاسل إلى القيصرة كاترين، حيث طلبت مشاهدته أسيراً، وهو الذي ألحق بجيوشها الهزائم المنكرة، وبعد أن نظرت إليه مكبلاً بالسلاسل أمرت بسجنه في قلعة شليسر بورج في سانكت بيتربورج، حيث تم قتله عام ١٧٩٤م، بعد

أن هاجم حراسه، وطعن أحدهم بخنجر خطفه من بعضهم، فرحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته[١].

ب- الجهاد في القوقاز المسلم بعد الإمام منصور ~ حتى ظهور حركة الإمام شاميل ~.

استمر نضال الشيشانيين بعد الشيخ منصور تحت قيادة قادة آخرين، وأكثرهم شهرة كان تيمين بيبولات ~، ومع ذلك فشلوا جميعاً في محاولاتهم في توحيد الشعب القوقازي كمقدمة ضرورية للمقاومة الناجحة، وفي نفس الوقت زادت روسيا من وجودها العسكري، وشددت من حملة قسوتها ورعبها قبل التمهد للإبادة العامة للسكان الآمنين الطبيعيين، وتم تنفيذ هذه الإبادة الجماعية تحت شعار "المدنية" واستئصال قطاع الطرق، أما نية روسيا الاستعمارية الحقيقية فكانت تهدف إلى تفريغ إقليم القوقاز من شعوبه الأصلية.

ويمكن إرجاع العداء الروسي للشيشانيين خصوصاً للدور المحوري الذي لعبه الشيشانيون في تاريخ القوقاز، وبالتالي أدرك واضعو السياسات الاستعمارية الروسية أنه لكي يتم التحكم في الإقليم فلابد أن يقضوا على مقاومة الشيشان، وتعبر كلمات الجنرال يارمولوف المخزية -التي تتمشى تماماً مع قسوته وولعه بسياسة الأرض المحروقة- عن نموذج العقلية التي شكلت أربعمائة وخمسين سنة من السياسة الروسية تجاه شعب الشيشان، حين قال :

" سوف لا أتوقف عن الحرب إلا إذا تم وضع رأس آخر شيشاني في متحف"[٢].

وبعد مقتل الإمام منصور ~ قامت القيصرة كاترين ببناء خط (القوزاق) العظيم، وهو عبارة عن قلاع ومستوطنات على امتداد نهر ترك ونهر كولان، والذي امتد من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأسود غرباً، وبذلك تم لها إخضاع شمال القوقاز لفترة قصيرة بعد قطع كل خطوط الإمداد عنه.

ولما تولى حفيدها القيصر ألكسندر الأول السلطة شرع في تحقيق أهدافها باستعادة القدس والقسطنطينية، فكانت أول أعماله عام ١٨١٨م محاولة إخضاع الشيشان، لأنها كانت ألد أعداء روسيا القيصرية في شمال القوقاز، واستخدم الروس سياسة الأرض المحروقة، فدكوا القرى الشيشانية، وسيطروا على الأجزاء السهلية، وهرب الشيشانيون إلى الجبال، وشنوا حرب عصابات مدمرة، ولم يستطع الروس إخضاع المنطقة، وتكبدوا الخسائر الفادحة.

---

[١] الشيشان- السياسة والواقع ص: ١٠، Microsoft Encarta Encyclopedia ٢٠٠٥- Chechnya،
الشيشان- إعداد وترتيب أبي محمد الفلسطيني- Scouba diver@hotmail.com،
Chechnya- Tombstone of Russian Power p:٣٠٥ & ٣٠٦.

[٢] الشيشان- السياسة والواقع ص: ١٠ و١١.

وفي عام ١٨٢٨م استطاع الإمام الغازي الداغستاني ~ توحيد الجهود في جهاد الصليبيين الروس، وأسس الحركة الإسلامية لجهاد الروس المعتدين، وقادها بنفسه، ودعا القوقازيين لنبذ الخلافات وعدم الفرقة، فذاع صيته، والتفت حوله القبائل، وكان نائبه ومساعده الشيخ محمد شاميل الداغستاني ~.

استمر الإمام الغازي ~ في جهاده يلحق الهزائم تلو الهزائم بالروس إلى أن تمكنت إحدى القبائل القوقازية من خيانته، وفتح طريق للروس لمحاصرته، واستمر الحصار أياماً، والمدافع الروسية تدك موقعه، حتى تمكن الروس من القضاء عليه ومن معه عدا اثنين، أحدهما الشيخ محمد شاميل ~، الذي أستطاع الإفلات، بعد أن أصيب بجرح بالغ، وأما الإمام الغازي ~ فقد قتل وسيفه بيده عام ١٨٣٢م، فرحمه الله رحمة واسعة.

حمل الراية بعده القائد حمزة بك ~، واستمر يجاهد الصليبيين لمدة سنتين، إلا أنه لم يسلم من يد الخيانة الخبيثة، حيث اغتاله أحد المنافقين الخونة، وهو قائم يصلي، بتحريض طائفة من أهل قريته، الذين خافوا من الضرر، الذي سيلحقهم من تطبيق قوانين الشريعة[١].

ج- حركة الإمام شاميل ~.

الإمام شاميل ~ هو الإمام الثالث من أئمة داغستان الذين قادوا جهاد القوقاز المسلم بعد كل من الإمام الغازي والإمام حمزة بكK، وهو العالم العامل المجاهد الذي دوخ الروس لمدة خمس وعشرين سنة، وأنزل بهم الهزائم البالغة، وصار -بفضل ما أنعم الله عليه من ثبات ورباط وجهاد- رمز الجهاد الشيشاني والقوقازي حتى اليوم، بل هو في الحقيقة رمز من رموز جهاد الأمة المسلمة في القرن التاسع عشر الميلادي، والذي اعتبرت حروبه ضد الغزاة الروس رمزاً من رموز المقاومة من أجل الحرية لكثير من الشعوب في الأرض.

والإمام شاميل -كشيخه الإمام الغازي K- داغستاني الأصل من قوم (الأور)، وكما ذكرنا فقد كان مساعداً للإمام الغازي ~، وقد جرح في المعركة التي استشهد فيها الإمام الغازي ~، ونجا بأعجوبة، وهرب إلى الشيشان حيث تم استقباله بترحاب حار، وتم تنصيبه إماماً للشيشان وداغستان في عام ١٨٣٤، وكان هذا بداية أحد فصول تاريخ القوقاز العظيم، وأدت حركة التحرير هذه التي حركها الإمام شاميل إلى ما يسمى في التاريخ (بالحرب القوقازية)[٢].

وفي نفس العام دعا الإمام شاميل ~ جميع رؤساء القبائل وكبار القضاة إلى اجتماع في منطقة وسط جبال القوقاز، وتباحثوا في الأمر، فبادر الإمام شاميل ~ بوضع القواعد اللازمة للارتقاء بالمقاومة الإسلامية ضد الروس، وحول القبائل إلى شعب واحد، وقسم المناطق إلى أقسام عدة، ووضع لكل قسم

---

[١] الشيشان- إعداد وترتيب أبي محمد الفلسطيني- Scouba diver@hotmail.com، الشيشان- السياسة والواقع ص: ١١.

[٢] الشيشان- السياسة والواقع ص: ١١.

نائباً، يأخذ على عاتقه الأمور الشرعية والعرفية والعسكرية، وأنشأ ديواناً أعلى للقضاء، كان مقره في الشيشان، مهمته تنفيذ الأحكام الشرعية، وأنشأ المصانع لإنتاج الأسلحة والذخائر.

ووضع الإمام شاميل ~ تنظيماً لحكم البلاد تحت رئاسته، والتفت شعوب القوقاز كلها حوله، بعد أن نجح في ترسيخ أحكام الإسلام في نفوس المسلمين وتربيتهم التربية الروحية الجهادية في سبيل الله[١].
بل يعد الإمام شاميل ~ أول من أدخل التنظيم الحكومي للشيشان[٢].
واستطاع الإمام شاميل ~ خلال ثلاثين سنة إجلاء الروس من معظم بلاد القوقاز، وأنزل بهم هزائم ساحقة، وانتشرت أخباره إلى أرجاء أوروبا، وأصبحت بطولاته رمزاً للأمم المقهورة، مما أثار الروس، فدفعوا بقواتهم وحشدوا له جيشاً قوامه ثلاثمائة ألف جندي، وبدأوا بالهجوم من جميع الجهات، حتى تمكنوا من أسره عام ١٨٥٩م[٣].

وأثناء هذه الفترة من الصراع حاول الإمام شاميل ~ أن يحصل على مساعدة دولة الخلافة العثمانية باعتبارها تمثل قيادة الأمة الإسلامية، ولكن لم يتلق الإمام أية مساعدة على الإطلاق طوال حربه المضنية مع روسيا، التي استمرت خمس وعشرين سنة، ونتيجة لذلك تمت هزيمة الإمام في النهاية، وأخذ شاميل العظيم أسيراً.

وبأسر الإمام شاميل ~ أعلنت روسيا هزيمة القوقاز وانتهاء الحرب القوقازية، التي نتج عنها ضياع جزء هام من الأرض المسلمة من قبضة الخلافة العثمانية، ونكسة خطيرة ليست للشيشانيين ولا لشعوب القوقاز فحسب بل لكل الأمة المسلمة، التي لا زالت تعاني من آثارها حتى اليوم.

ورغم هذا الإعلان من روسيا القيصرية في عام ١٨٥٩ فلا زال القوقاز المسلم حتى اليوم يستعصي على السيطرة الروسية، ولا يمل مجاهدوه وشعوبه من التصدي للغزاة الروس.

وبعد أن ظل الإمام شاميل أسير القيصر لمدة عشر سنوات سمح له بالسفر قبل موته للحجاز للحج.

ومنح السلطان التركي الإمام شاميل ~ شرف مقابلته عند وصوله لاستانبول، وقيل أنه لما ناوله السلطان يده قال الإمام شاميل ~:

"لقد انتظرت في القوقاز ٢٥ سنة لتمتد إلى هذه اليد"[٤].

وتوفي الإمام شاميل إلى رحمة الله في المدينة المنورة عام ١٨٧١م[٥]، فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

---

[١] الشيشان- إعداد وترتيب أبي محمد الفلسطيني- Scouba diver@hotmail.com.

[٢] Chechnya- Tombstone of Russian Power p:٣٠٨ & ٣٠٩.

[٣] الشيشان- إعداد وترتيب أبي محمد الفلسطيني- Scouba diver@hotmail.com.

[٤] الشيشان- السياسة والواقع ص: ١٢.

[٥] Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ٣٠٨.

د- الجهاد في القوقاز المسلم بعد الإمام شاميل ~.

قام العملاء بعد ذلك بتصفية العلماء والقادة الذين كانوا أساس المقاومة ليضيعوا ثمرة جهاد الشيخ شاميل ~.

وبدأ الروس بعدها باتباع سياسة الإبادة والطرد والتهجير لشعوب القوقاز، لينخفض سكان شمال القوقاز من ٣,٢ مليون نسمة عام ١٨٦٠م إلى ١,٦ مليون نسمة عام ١٨٩٧م[١].

وفي نفس فترة حروب الإمام شاميل ~ خاض الشركس والقوقازيون الترك حروباً شرسة ضد الروس في شمال غرب القوقاز ، ولكنهم كانوا متفرقين يفتقرون للقيادة الموحدة.

وبانتصار الروس عليهم عام ١٨٦٠م بدأوا سياسة من البطش والمجازر والتهجير، أدت إلى فرار ١,٢ مليون منهم[٢].

وعقب الهزيمة في حرب القوقاز هاجر بعض الشيشانيين -لعدم رغبتهم في أن يعيشوا في ظل حكم الكفار- إلى تركيا والبعض إلى سوريا والأردن، ومع ذلك فإن الذين بقوا ظلوا يواصلون بمثابرة وعناد الكفاح لتحرير أرضهم، فقد هبوا في ثورة سنة ١٨٦١ ضد الحكم الروسي بعد سنتين من هزيمة الإمامة في الحرب القوقازية، وثاروا مرة أخرى في عامي ١٨٧٨، ١٨٧٩ تحت قيادة الإمام علبج ألدنيَ ~، وتم قمع الثورة بوحشية، وأعدم أحد عشر من قادتها في جروزني[٣]، رحمهم الله رحمة واسعة.

٢- الصراع بين الاتحاد السوفييتي والقوقاز المسلم.

أ- انتفاضة القوقاز المسلم في الحرب الأهلية الروسية بين عامي ١٩١٧ و١٩١٩.

نشط المسلمون نشاطاً ملحوظاً خلال الحرب العالمية الأولى واعتبروها فرصة للاستقلال، ولذلك أيدوا الحركة الاشتراكية الشيوعية، التي أطاحت بالقيصرية الروسية عام ١٩١٧م بزعامة لينين.

وحتى يكسب لينين التأييد العام نادى (بحرية الأقليات) التي اضطهدها القياصرة، وأصدر وعوداً كاذبة لهذه الأقليات بالانفصال والاستقلال. وعلى الفور قامت جمهوريات إسلامية بالاستقلال وأظهرت رغبتها في إنشاء (دولة إسلامية فدرالية).

ولكن لما تمكن النظام الشيوعي، أصدر لينين أوامره بالزحف على البلاد الإسلامية، فاجتاح الجيش الروسي هذه الجمهوريات، وأمعن في حملات الإبادة والتهجير الجماعي للمسلمين بشكل أبشع وأقذر مما كان عليه في العهد القيصري.

---

[١] الشيشان- إعداد وترتيب أبي محمد الفلسطيني- Scouba diver@hotmail.com.

[٢] Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ٣١٤ & ٣١٥.

[٣] الشيشان- السياسة والواقع ص: ١٢.

فقد قتل لينين حوالي ثمانية ملايين مسلم، وقتل خليفته ستالين أكثر من ٢٠ مليون. كما هدمت معظم المساجد والمدارس الإسلامية، وتم تفتيت القوقاز إلى عدة مناطق ودويلات[١].

وعلى النقيض من وعود البلشفيين بالاستقلال الوطني فقد أقاموا في الحقيقة حكماً أكثر ظلماً وإرهاباً، حكم افتخر بماديته وإلحاده[٢].

ب- الانتفاضات التالية لانتفاضة الحرب الأهلية.

وقد واجه الشيشان الاحتلال الشيوعي بقوة من خلال ثورات عدة ضد الظلم والقهر الشيوعي، منها ثورة "إبراهيم قلدقت" عام ١٩٣٤م، وثورة "حسن إسرائيلوف" عام ١٩٤٠م وغيرها، وكان الشيوعيون يقمعونها بالحديد والنار[٣].

وخلال الثلاثينيات أجبر القادة السوفييت الكثير من الشيشانيين على العمل في المزارع الجماعية، وبذلوا جهوداً لتقييد شعائرهم الدينية. وقد عاني الشيشانيون من هذه السياسات، وقاتلوا بضراوة من أجل عقائدهم وطريقة حياتهم التقليدية[٤].

وفي نفس الوقت قام البلاشفة بحملة قتل وسجن، كان من أهدافها القضاء على أذكى وأفضل من في الأمة الشيشانية، وكان المستهدف بوجه خاص القادة الدينيين والمؤسسات الدينية. ففي سنة ١٩٣٧ تم رمي ١٥٠٠٠ عالم ديني ومفكر في جروزني بالرصاص، وتم نفي العديد إلى سيبريا أو سجنهم[٥].

ج- الترحيل القسري للشيشانيين.

أعلنت حكومة (ستالين) -بعد الحرب العالمية الثانية- أن شعوب الشيشان والأنجوش والقرم هي شعوب (خائنة) تعاونت مع الألمان، وعليه بدأت في فبراير عام ١٩٤٤م بعملية ترحيل جماعي عبر القاطرات الطويلة لشعوب تلك المناطق إلى كازاخستان وسيبيريا المتجمدة، وخربت كل أراضيهم وممتلكاتهم، وهلك عشرات الآلاف نتيجة الجوع والمرض والمعاناة والتعذيب والقهر[٦].

ورغم أن التبرير الرسمي للترحيل القسرى كان (التعامل مع النازيين) إلا إن الأرجح أن ستالين — بتوحشه المتأصل وفظاظته الشيوعية وجذوره القوقازية الأصيلة[٧]- كان يهدف للانتقام من انتفاضات القوقاز السابقة، وأيضاً للتحرش بتركيا.

---

[١] الشيشان- إعداد وترتيب أبي محمد الفلسطيني- Scouba diver@hotmail.com.

[٢] الشيشان- السياسة والواقع ص: ١٢.

[٣] الشيشان- إعداد وترتيب أبي محمد الفلسطيني- Scouba diver@hotmail.com.

[٤] Microsoft Encarta Encyclopedia ٢٠٠٥- Chechnya.

[٥] الشيشان- السياسة والواقع ص: ١٢.

[٦] الشيشان- إعداد وترتيب أبي محمد الفلسطيني- Scouba diver@hotmail.com.

[٧] ستالين من أصل جورجي.

وكان ضغط ستالين على تركيا -بما يتضمنه من خطر الحرب- قد بدأ قبل نهاية الحرب العالمية الثانية، مطالباً بتنازلات حدودية (كارز وأردان التي استولت عليها روسيا من تركيا عام ١٨٧٨، ثم أعادها لينين في عام ١٩٢١) وبحقوق سوفييتية على البوسفور. وظل ماضياً في هذه السياسة إلى أن أفهمته أمريكا عام ١٩٤٦ بوضوح أنها ستساند تركيا ضد أي هجوم روسي.

وكان من الطبيعي جداً لستالين أن يمهد لذلك بطرد كل الشعوب التي قد تتعاون مع تركيا إذا قامت الحرب (الكراتشيين والبلكاريين والتتر والكمك والمسختيين ذوي الأصول التركية بالإضافة للشيشانيين حلفاء الأتراك القدامى)[١].

وطبقاً لأوثق الإحصائيات فإن قرابة ٤٧٨ ألف من الشيشان والإنجوش قد عبئوا في القطارات في فبراير من عام ١٩٤٤، ولكن لما أعلن خروتشوف حقيقة ما جرى أشارت التقارير الرسمية -بعد ذلك- لترحيل قرابة ٤٠٠ ألف، الأمر الذي يوحي بقوة إلى هلاك ٧٨ ألفاً في الطريق أو عقب إنزالهم بسبب الجوع والتجمد في سهول الكازاخ.

ولم يصل الآلاف للقطارات، ففي ست قرى جبلية —حيث يصعب نقل أهلها منها في وسط الشتاء- كدست قوات (إن كي في دي)[٢] الأهالي في المساجد والأجران وقتلتهم، كما قتل المرضى في المستشفيات!!

وتحصن بعض المقاتلين الشيشان في الجبال التي شنوا منها الهجمات على القوات الروسية والمستوطنين الروس، مما منعهم من الاستقرار في المناطق الجبلية.

ففي التقرير الذي رفعه الكولونيل جيفشياني ضابط (إن كي في دي) المسؤول عن مذبحة خيباخ لرئيسه الأعلى (بريا) يقرر ببساطة:

"بسبب استحالة الترحيل وضرورة إتمام أهداف عملية الجبليين حسب الجدول الزمني كان لا بد من تصفية ٧٠٠ من سكان قرية خيباخ".

ومكافأة له كتب بريا لجيفشياني يبلغه بتقليده وساماً وترقيته. كما هنأ ستالين رسمياً من جانبه (الإن كي في دي) على *"إنجازهم الناجح لمهام الدولة في القوقاز"*[٣]!!

ولم يكتف الروس الشيوعيون بذلك بل قرروا محو كل دليل يدل على أن هناك أرضاً شيشانية، فتم تفريغ المكتبات ودور المحفوظات في الشيشان من كل المخطوطات والمطبوعات الأدبية والعلمية والتاريخية، ودمروا أيضاً المؤلفات والأعمال الإسلامية للشيوخ والأئمة والمفكرين الشيشان.

---

(١) Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ٣١٦.

(٢) مفوضية الشعب للشؤون الداخلية (NKVD).

.[Microsoft Encarta Encyclopedia ٢٠٠٥- KGB]

(٣) Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ٣١٩.

وأزالوا أي ذكر للشيشان وللشعوب التي رحلت قسراً من الكتب الروسية، فأزيل ذكرهم من كتب التاريخ والأدب والفن، وتم تعديل وتغيير الكتب المدرسية ومؤلفات الشعراء والكتاب، ووضعت كلمات أخرى بدلاً منها. وهكذا واكبت الإبادة الثقافية الإبادة المادية[١].

وفي عام ١٩٥٧م -أي بعد ١٣ عاماً من إصدار الحكم الجائر بنفي هذا الشعب- أعلن الرئيس السوفييتي "خورتشوف" براءة الشيشان ومسلمي القرم من التهمة التي وجهت ضدهم، وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم، فعاد الكثير منهم ، وكان ممن عاد الرئيس الراحل جوهر دوداييف ~ وكان طفلاً صغيراً على أكتاف والديه عندما نفي الشعب الشيشاني، وقد قضى ثلاث عشرة سنة من عمره في معسكرات الاعتقال[٢].

٣- الصراع بين الروس والقوقاز المسلم بعد سقوط الاتحاد السوفييتي.

أ- قيام جمهورية الشيشان.

في ٢٥ ديسمبر ١٩٩٠ أعلن المجلس الوطني لشعب الشيشان بكامل أعضائه قيام جمهورية الشيشان.

وتم الانتخاب الرسمي لجوهر دوداييف ~ كأول رئيس لجمهورية أشكيرية الشيشانية في ٢٧ أكتوبر١٩٩١[٣]، التي أعلنت نفسها دولة مستقلة، وتم ذلك قبل انهيار الاتحاد السوفييتي وقيام الاتحاد الروسي في ديسمبر ١٩٩١. ورفضت روسيا نتائج هذه الانتخابات وما تلاها من استقلال جمهورية أشكيرية[٤].

فأعلنت موسكو حالة الطوارئ، إلا أن الشيشانيين استطاعوا تطويق القوات الروسية وأرغموها على الانسحاب دون إطلاق رصاصة واحدة، واستولى الشيشانيون على الأسلحة والطائرات الروسية الموجودة في الشيشان، وتم إعلان استقلال الجمهورية عن روسيا أسوة بالجمهوريات الأخرى، وسعت موسكو للتفاوض مع الرئيس الشيشاني، الذي رفض هذه المفاوضات، إلا بعد أن تعترف روسيا باستقلال بلاده.

ب- الحرب الشيشانية الروسية الأولى (ديسمبر ١٩٩٤م- أغسطس ١٩٩٦م).

---

[١] الشيشان- السياسة والواقع ص: ١٣ و١٤، ٣١٩ :Chechnya- Tombstone of Russian Power p.

[٢] الشيشان- إعداد وترتيب أبي محمد الفلسطيني- Scouba diver@hotmail.com.

[٣] اغتيل ~ في ٢١ أبريل ١٩٩٦، واستحق عن جدارة لقب إمام القوقاز اعترافاً بجهوده. [الشيشان- السياسة والواقع ص: ١٤].

[٤] الشيشان- السياسة والواقع ص: ١٢٣ إلى ١٢٦، Microsoft Encarta Encyclopedia ٢٠٠٥- Chechnya .

وفي عام (١٩٩٤م) أعلنت الشيشان تحررها عن روسيا، وصرح جوهر دوداييف بإقامة دولة إسلامية متحدة مع شعوب الأنجوش وداغستان والتتار، فأصدرت روسيا قرارها باحتلال الشيشان في ١١ ديسمبر ١٩٩٤م[١].

وقد دمرت جروزني تماماً قبل أن يحتلها الروس في فبراير ١٩٩٥م[٢]، وقتل الآلاف في القتال، ولكن الشيشانيين لم يستسلموا واستمر القتال بين الجانبين، وقتل جوهر دواديف ~ في أبريل ١٩٩٦.

وفي مايو ١٩٩٦م اتفق الرئيس الروسي يلتسين والقائم بأعمال الرئاسة زليم خان يندربي ~ على وقف لإطلاق النار، ولكن القتال استمر بين الجانبين.

وبحلول يونيو كان أكثر من ٤٠٠٠٠ قد قتلوا، منهم أعداد كبيرة من المدنيين. ونزح ما يقارب ٣٠٠٠٠٠ شيشاني لأماكن أخرى في روسيا.

وعرضت الحكومة الروسية على الشيشان استقلالاً شبه كامل داخل الاتحاد الروسي، ولكن رفضت انفصالها، ولكن المجاهدين رفضوا أن يتوقفوا قبل الاستقلال التام عن روسيا.

وفي أغسطس ١٩٩٦م نجح هجوم ضخم لاستعادة جروزني، ألحق هزيمة مهينة بالقوات الروسية.

وتلا ذلك في نفس الشهر مباحثات بين مستشار الأمن القومي ألكسندر ليبيد وأصلان مسخادوف ~، تم التوصل فيها لاتفاقية سلام وافق فيها الطرفان على تأجيل البت في وضع الشيشان حتى عام ٢٠٠١م.

وبحلول ديسمبر ١٩٩٦م كانت كل القوات الروسية قد انسحبت من الشيشان[٣].

ج- الحرب الشيشانية الروسية الثانية (سبتمبر ١٩٩٩م- ...).

في أواخر سبتمبر ١٩٩٩م كان الاجتياح الروسي الثاني للشيشان وقد سبق هذا الاجتياح توترات حدودية بين داغستان وروسيا والشيشان[٤].

وكان السبب في هذه التوترات سعي المسلمين في داغستان -وخاصة في نواحي كراماخي وشباناخي- في إقامة حكم الشريعة الإسلامية في مناطقهم، فحاولت القوات الروسية قمع هذه المحاولة بالقوة، فاستنجد المسلمون في تلك المناطق بإخوانهم المجاهدين في الشيشان.

وتزامن مع هذه التوترات تفجيرات شديدة شهدتها ثلاث مدن روسية منها العاصمة الروسية موسكو في أغسطس وسبتمبر ١٩٩٩م، ونفى المجاهدون مسؤوليتهم عنها، بينما حملتهم الحكومة الروسية مسؤوليتها، واعتبرتها من ذرائع حملتها الثانية.

---

[١] الشيشان- إعداد وترتيب أبي محمد الفلسطيني- Scouba diver@hotmail.com.

[٢] سأتعرض لملحمة جروزني البطولية -بإذن الله- في (الفرع الثالث: المعاني القتالية التي أبرزها الصراع).

[٣] Microsoft Encarta Encyclopedia ٢٠٠٥- Chechnya .

[٤] الشيشان- إعداد وترتيب أبي محمد الفلسطيني- Scouba diver@hotmail.com.

وعن هذه الأحداث يقول الشيخ زليم خان يندربي ~:

"فمن الذي كان مسئولاً عن تفجير القنابل في موسكو وفولونوسك؟ ذلك الحادث التي استخدم من منطلق الدهاء كمبرر للغزو الروسي الأخير. لقد أجاب الزمن على هذا التساؤل كما يفعل دائماً، ولقد كانت القوات الخاصة الروسية هي المسئولة عن ذلك، بأوامر ممن كانوا يشغلون أعلى المناصب في السلطة في روسيا.

ومع ذلك أقول لكم بصراحة -من منطلق مسئوليتي- أن الشيشان اليوم لهم الحق المعنوي والقانوني ليس فقط في تفجير القنابل بالمباني في روسيا، بل لهم الحق في محو روسيا من على وجه الأرض هي وشعبها. وهذا الحق واضح وجلي إذا استعرضنا حرب الإبادة الجماعية التي تشنها الدولة الروسية ضد الشيشان على مدى السنين"[١].

أما عن مشاركة الشيشانيين في نصرة إخوانهم الداغستانيين فيقول ~:

" وننتقل إلى مسألة داغستان ومشاركة الشيشان فيها، فداغستان دولة مسلمة وهي أيضاً جزء من إمامة شامل، واحتلتها روسيا، ومن ثم فإنه مما يشكل مسئوليتنا المباشرة أن نشارك في الجهاد ضد المحتل باسم الله وباسم استعادة العدالة.

والشعب في داغستان يعرف جيداً أن أحداً لم يهاجمهم، حيث كانت أعمال الجهاد توجه فقط ضد الغزاة الروس، الذين راحوا يتذرعون بحجة أنهم يقاتلون الإسلاميين في داغستان، ليرتكبوا من الجرائم ما لا يمكن إقراره أو السكوت عليه.

وزيادة على ذلك فإنه بالإضافة إلى داغستان والشيشان فإن منطقة القوقاز ككل جزء لا يتجزأ من دولة الخلافة الإسلامية، وبناء على ذلك فإن الجهاد اليوم -من أجل تحرير الدول من احتلال الملحدين- إنما هو واجب كل مسلم، وكل واحد منا عليه أن يؤدي واجبه باسم الله رب العالمين"[٢].

ولا زالت أحداث هذه الحرب جارية حتى اليوم، ترتكب فيها أبشع الجرائم في حق الشعب الشيشاني المسلم.

---

[١] الشيشان- السياسة والواقع- الفصل التاسع: الجهاد في الشيشان ص: ١٠٩.

[٢] الشيشان- السياسة والواقع- الفصل التاسع: الجهاد في الشيشان ص: ١٠٩.

الفرع الثالث:

المعاني القتالية التي أبرزتها الحرب الأولى (ديسمبر ١٩٩٤م- أغسطس ١٩٩٦م).

"إن الصراع بين روسيا وشعب الشيشان لا يمكن تسويته إلا بالجهاد، الذي يأخذ شكل الحرب، لأن الروس هم الذين اختاروا الحرب كطريقة للتعامل معنا"[(١)].

أتعرض في هذا الفرع للدروس والمعاني القيمة التي أبرزها الصراع المسلح بين الروس والمجاهدين الشيشان في الحرب الروسية الشيشانية الأولى في الفترة من ديسمبر ١٩٩٤م حتى أغسطس ١٩٩٦م.
وسأقسم الكلام عنها إلى:

١- حقيقة وقيمة الانتصار الشيشاني على الروس في الحرب الأولى.

٢- العصابات المؤمنة مقابل القوة الغاشمة المنظمة.

٣- المدن التي لا تكل عن المقاومة.

***

١- حقيقة وقيمة الانتصار الشيشاني على الروس في الحرب الأولى.

لقد كان انتصار الشيشان على الروس في الحرب الأولى انتصاراً رائعاً بكل المقاييس، وعن هذا يقول أناتول ليفين:

"إن طبيعة الحرب على الأرض وميزة المقاومة الشيشانية لهما أهمية ثانوية للسياسة العالمية، ولكنهما ذاتا منفعة عظمى -أو هكذا يجب أن تكونا- لكل من العسكريين وعلماء الإنسان.

ويعد الانتصار الشيشاني -بغض النظر عن الضعف الروسي- ضد مثل هذه العوائق الهائلة لحظة مبهرة في التاريخ العسكري، بما يحمله من دروس مستفادة في أمور متنوعة مثل علم الإنسان العسكري والتعبئة الوطنية والتأثير المحدود للقوة الجوية وطبيعة القتال الحضري، بل -وفي الواقع- في طبيعة الحرب ذاتها.

إن انتصار قوات الانفصال الشيشانية على الروس يعد واحداً من أعظم ملاحم المقاومة للاستعمار في القرن الفائت.

وسيحدد ما يجري الآن في داخل روسيا؛ هل سيوازي في آثاره التاريخية (ديان بيان فو) أو انتصار (جبهة التحرير الوطنية) في الجزائر.

---

(١) الشهيد -كما نحسبه- الشيخ الرئيس زليم خان يندربي ~. [الشيشان بين السياسة والواقع ص: ١٠٠].

وبمقياس الإنجاز العسكري التام فإن الشيشانيين قد كافئوا فعلاً (الفيت كونج)، واكتسب العقيد أصلان مسخادوف الحق في أن يذكر جنباً إلى جنب مع لوائهم (جياب) كقائد ذي عبقرية نادرة وأصيلة.

وقد تطرقت لهذه الأسئلة جزئياً، لأني خلال سنة أمضيتها في واشنطن العاصمة أدهشتني بشدة متزايدة؛ قلة أولئك المحللين والمستشارين العسكريين الأمريكيين اليوم، الذين يمتلكون خبرة شخصية في القتال، أو حتى الذين كانوا -أو الذين قادوا- جنوداً. وبالطبع فالأقل من أولئك، من تعرضوا بأنفسهم للقصف الجوي الثقيل المتواصل. وبالتحديد فالكثرة لا يملكون القدرة على أن يفهموا بعمق العوامل التي قد تدفع آحاد الجنود للقتال أو للفرار، ولا الطبيعة الكلية للمعنويات. وهذا يؤدي لاضطراب تحاليلهم، بما يحمله ذلك من عواقب خطيرة على السياسة الغربية[1].

....

وحتى نجد مماثلاً لهذا الانتصار -لما يبدو أنها قوى (غير منظمة وبدائية)- على جيش أوروبي حديث فعلى المرء أن يرجع لهزيمة الإيطاليين على يد الإثيوبيين في أدوا، أو هزيمة الأسبان على يد المغاربة في أنوال[2]، أو حتى لانتصارات الهنود الحمر على البريطانيين والأمريكان.

وهذا (الانتصار) -من ناحية- له تعلق كبير بالروس، لأن الجيش الروسي اليوم إذا لم يكن أفضل من الإيطاليين والأسبان منذ قرن مضى، فقد انقلب نظام العالم العسكري فعلاً رأساً على عقب. ولكن -من الناحية الأخرى- يشهد النصر الشيشاني بالكفاءات العسكرية وروح القتال الفائقة للميراث الشيشاني، الذي فعَّلته تأثيرات القرن العشرين والأحداث.

ولإظهار النوعية المبهرة للنصر الشيشاني على المرء أن يستحضر قلة عدد الشعب الشيشاني وقوات الانفصاليين المسلحة.

---

(1) ألا ينطبق هذا الرأي -الذي كتبه أناتول ليفين في كتابه الصادر في عام ١٩٩٨م- مع الهزيمة التي أصابت الأمريكان في غزوهم للعراق بعد ذلك؟

(2) معركة أنوال هي المعركة التي انتصر فيها المسلمون بقيادة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ~ على القوات الأسبانية في يوليو من عام ١٩٢١م، فقتل وأسر من الأسبان قرابة ستة عشر ألفاً. [راجع: الخطابي ومعركة أنوال، الأعلام للزركلي ج: ٦ ص: ٢١٧، أفغانستان والطالبان ومعركة الإسلام اليوم ص: ٥٨،
Microsoft Encarta Premium ٢٠٠٦- Abd el-Krim].

فربما باستثناء الهجوم الروسي على جروزني في بداية الحرب والهجوم الشيشاني المضاد في أغسطس ١٩٩٦م حينما وصل عدد القوات الشيشانية في جروزني وغيرها لقرابة ٦٠٠٠ رجل، فإن أكثر التقديرات شيوعاً؛ أن قوات الاستقلال الشيشانية لم يكن لها أبداً -في أي وقت- أكثر من ٣٠٠٠ مقاتل فعلاً في الميدان، في مقابلة ما يقارب خمسة عشر مثلاً لهذا العدد على الجانب الروسي. أما العدد الكلي للشيشان الذين قاتلوا في وقت أو آخر فيتعدى بالطبع هذا الرقم بكثير.

ولكن -في معظم المعارك- تمتع الروس بتفوق في الأعداد أعظم بكثير مما حازه الفرنسيون والأمريكان في الهند الصينية أو الفرنسيون في الجزائر، أو -على سبيل الذكر- السوفييت في أفغانستان.

أضف إلى ذلك؛ أن الشيشان ذات الستة آلاف ميل مربع تقريباً (باستبعاد إنجوشيتيا) هي جزء من مساحة هذه البلاد، أي كأنما الحرب الفيتنامية قد حصرت في مقاطعة هو، ومع ذلك ما زال الأمريكان يُضربون" (١).

ويضيف أناتول ليفين:

"لقد كان الصراع الشيشاني في ١٩٩٤- ٦ الأخير في سلسلة من حروب مناهضة الاستعمار عبر العالم، التي شهد منها الجيلان الفائتان سلسلة كاملة من الهند الصينية مروراً بالجزائر و أفريقيا البرتغالية حتى أفغانستان.

ولكن نجاح الشيشانيين وقادتهم في جانب هام يدعو للإعجاب أكثر مما قد توحي به هذه الموازنة، بل يعد غير مألوف بالمرة -بل ربما عد متميزاً- في تاريخ الحرب المعاصر، وهذا (الجانب) هو أن الشيشان قد فازوا -بدون دعم دولة فعلية، بل حتى بدون مساعدة أية منظمة عسكرية تقليدية أو حتى سياسية- على أساس من مقدرات مجتمعهم وتقاليدهم، حتى ولو دعمتها الأسلحة السوفييتية والتدريب العسكري" (٢).

وإذا كان أناتول ليفين لا يضع يده على السبب الحقيقي لانتصار الشيشانيين، فإن الشهيد -كما نحسبه- الشيخ الرئيس زليم خان يندربيي ~ يشير بوضوح لهذا السبب حين يقول:

" في بداية الحرب لم يكن هناك وجه للمقارنة بين القوتين، حيث استخدم الروس في الهجوم على الشيشان نصف مليون من القوات الروسية المدججة بأحدث أنواع الأسلحة، تدعمها الطائرات الحربية وطائرات الهليوكوبتر والمدفعية ونظم الصواريخ بكافة أنواعها، وعلى الرغم من ذلك، ورغم الموارد غير المحدودة المتوفرة لدى الروس، لم يتمكنوا من كسر

(١) Chechnya- Tombstone of Russian Power- introduction p: ٣ to ٥.

(٢) Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ٣٠١.

مقاومة بضعة آلاف من المجاهدين الشيشان بأسلحتهم الخفيفة، التي حصلوا على معظمها من معاركهم مع الروس، لقد كانت أسلحة المجاهدين الشيشان خفيفة، لكن إيمانهم بالله كان مطلقاً، من هذا المنطلق يمكننا أن نفسر تحدي الشيشانيين لهذه القوة الغاشمة وتمكنهم من دحرها.

وبوسعنا أن نلاحظ وقوف الله إلى جانبنا في هذه الحرب، التي جهز لها العدو قوات فوق احتماله، ودخل الحرب من منطلق حقده وكراهيته للإسلام"[١].

ويقول أيضاً ~:

"إن الانتصار الذي حققه الشيشان عام ١٩٩٦، وكفاحهم البطولي في هذه الأيام في ظل هذه الفوارق غير المعقولة، لدليل وإشارة واضحة أمام أعيننا، أن الاعتقاد في الله وعدم التخلي عن الطريق القويم يجعل كل شئ ممكناً، بما في ذلك دحر أعدائنا مهما بلغت قوتهم، فإن تحلي المسلمين بروح الإسلام والثقة في فضل الله وقوته يجعلهم لا يرهبون أحداً، واستعادة الأمة الإسلامية لأمجادها السابقة أمر يمكن تحقيقه، إذا قبلنا ما فرضه الله علينا وأقررنا الأمور التي في استطاعتنا تحقيقها. والسؤال الحقيقي هو: هل نحن كمسلمين مستعدون أن نحذو حذو الشيشان، وننخرط في صفوف الكفاح باسم الله؟"[٢].

٢- العصابات المؤمنة في مواجهة القوة الغاشمة المنظمة.

أ- تمهيد:

تعد الحرب الشيشانية الروسية الأولى (ديسمبر ١٩٩٤م- أغسطس ١٩٩٦م) مثالاً نموذجياً للحرب الشعبية الجهادية الكاملة الناجحة[٣]، أو ما يطلق عليه في مصطلح العسكريين غير الجهاديين بحرب العصابات. فقد تحققت فيها مقومات حرب العصابات الناجحة التي أدت لنتائج باهرة كما ذكر أناتول ليفين آنفاً. وسأحاول هنا أن ألقي بعض الضوء على بعض -وليس على كل- التطبيقات الناجحة للمجاهدين الشيشان وأنصارهم في هذه الحرب التي مرغت أنف العسكرية الروسية في التراب.

ب- حرب العصابات هي حرب المستضعفين في مواجهة الأقوياء، ولذا لا تلجأ للحسم العسكري، بل تلجأ للحسم السياسي بإجبار العدو على التفاوض وإيقاف القتال من يأسه من تحمل الخسائر المستمرة.

---

[١] الشيشان- السياسة والواقع ص: ١٠٢.

[٢] الشيشان- السياسة والواقع ص: ١٠٣.

[٣] لازال المجاهدون الشيشان يخوضون حرباً في غاية القوة والحدة ضد جحافل الروس الغازية في الحرب الثانية (سبتمبر ١٩٩٩م- ...)، التي لم تضع أوزارها بعد، ولكن في ظروف دولية أشد بمراحل مما واجهوه في حربهم الأولى، فأمريكا قد أطلقت يد روسيا في القوقاز، ودعمتها في كل جرائمها هناك باسم الحرب على الإرهاب.

يقول أبو بكر عقيدة ~:

"لقد توغلت القوات الروسية في أرض الشيشان وانتشرت فيها بشكل شبه كامل خلال اثنين وعشرين شهراً، إلا إن ذلك كلفهم تسعين ألف قتيل حسب اعترافاتهم -والحقيقة تزيد عن ذلك بكثير- غير الجرحى والمعوّقين والخسائر المادية الهائلة، الأمر الذي اضطرهم للبحث عن طريقة مشّرفة للخروج من هذا المأزق، لأن استمرارهم في الشيشان أصبح مهلكة لهم" [١].

يقول أبو مصعب السوري فك الله أسره:

"أسلوب حروب العصابات فن استراتيجي مكون من تكتيكات عسكرية أصبحت معروفة ومدروسة، وصارت علماً له أصوله. حيث يوظف الضعيف أعماله ضمن إمكانياته القليلة، من أجل إجهاد الخصم عبر الحرب الطويلة المدى لإدخاله في أوضاع سياسية تضعه أمام خيار الانسحاب أو الانهيار من داخله.

ولم تكن حروب العصابات أبداً في تاريخها كله، حروب تدمير شامل لقوى الخصم وجيوشه من أجل كسب الحرب. بل لم تعد معظم الحروب في العصور الحديثة، تنهي الصراع بالدمار المادي للخصم إلا في حالات نادرة جداً. وإنما صارت الحروب وسيلة لإدخال العدو في أوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية تضعه في حال الهزيمة والاندحار.

....

والخلاصة محل الشاهد من هذا هنا؛ هي أن حرب العصابات تقوم على الاستثمار المتقن بوسائل السياسة والإعلام، للجهود العسكرية التي تقوم بها العصابات أو المقاومون الضعفاء، تجاه قوات ضخمة تفوقهم عدداً وقدرة وإمكانيات. بحيث يؤدي التنسيق في أعمال المقاومة بين المجهود العسكري والإعلامي والتكتيكات السياسية -عبر حرب إنهاك طويلة المدى- تؤدي إلى إدخال العدو في حال الانهيار، نتيجة الضغوط عليه من الرأي العام الداخلي أو الرأي العام الخارجي. بحيث يستحيل معه استمراره في المواجهة والحفاظ على مقومات وجوده وعلاقاته الداخلية والخارجية.

والخلاصة أن النصر العسكري في أعمال المقاومة ذو طابع سياسي. ولا يمكن أن يحقق بدون وسيلة عسكرية فاعلة. ومقاومة تحقق ضربات وخسائر حقيقية على الأرض" [٢].

يقول هانئ الدرديري:

---

[١] روايات ساخنة من أرض الشيشان ص: ٥٣.

[٢] دعوة المقاومة الإسلامية العالمية ص: ١٠٨٠.

"فحرب العصابات هي حرب السياسة في مواجهة القوة، حرب الالتزام العقائدي في مواجهة التجنيد الإجباري، أي أنها حرب الأضعف في مواجهة الأقوى مادياً، ولا سبيل مع هذا الواقع إلا إذا تجنبنا الحسم العسكري، واستبدلناه بالحسم السياسي على ما سيجيء.

ولتجنب الحسم العسكري يعمد رجال العصابات إلى إطالة أمد الحرب بأي ثمن، ولو أدى ذلك إلى التراجع المكاني، إذ لا يهم هذا التراجع المكاني مادامت الرقعة السياسية تزداد يوماً بعد يوم"[1].

وإيضاحاً لعدم أهمية تمسك المجاهدين بالأرض يقول خطاب ~:

"أود أن أبين أمراً يغفل عنه الكثير من المطلعين على الحرب الآن، وهو أن سقوط المدن الشيشانية أو حتى العاصمة لا يشكل هزيمة للمجاهدين، ولا يشكل كذلك انتصاراً للقوات الروسية، بل في تقديري أن سقوط المدن يشكل عبئاً عليهم، فهم سيحولون تكتيكاتهم من الهجوم إلى الدفاع والمحافظة على المناطق التي سقطت.

والمتابع لأحداث الحرب الأولى يعرف أن سقوط المدن لم يشكل هزيمة للمجاهدين ولا نصراً لعدوهم، فقد سقطت في الحرب الأولى تقريباً كل جمهورية الشيشان في أيدي القوات الروسية، ومع ذلك لم تستطع الصمود أمام قوات المجاهدين أكثر من عشرين شهراً، لا سيما أن وضع المجاهدين في هذه الحرب أقوى من وضعهم في السابق، وكذلك وضع القوات الروسية في هذه الحرب أضعف من وضعهم في السابق، ونحن نرجو من الله أن يؤيدنا بنصره، ويهزم عدونا، إنه على ذلك قدير، فمهما كان فإن التقديرات المادية والعسكرية لا يمكن أن نعتمد عليها، فنحن نعتمد على تقدير رب العالمين ولطفه بنا"[2].

ج- وحرب العصابات هي حرب الشعب أو الأمة، أي تقاتل فيها طليعة الشعب دفاعاً عن قضية الشعب أو الأمة، ولذا إذا لم يتوفر التأييد الشعبي للعصابات المقاتلة، فقد حكموا على أنفسهم بالهزيمة.

وقد أكد كلاوزفتز في كتابه (في الحرب) على أن هناك شروطاً اعتبرها أساسية للمواصلة الناجحة (لحرب الشعب)، فلابد لهذا التحرك من أن يكون حائزاً على الدعم الشعبي، ولا بد أن يشن في داخل البلاد، وعلى مدى كبير من المناطق الوعرة التي يصعب الوصول إليها. كما ذكر أيضاً بأن نتيجته لا تحسمها واقعة واحدة[3].

---

[1] المدخل للثقافة العسكرية ص: ٧٧.

[2] الثمر المستطاب في سيرة القائد خطاب ص: ٤٠٦.

[3] MICROSOFT ENCARTA ENCYCLOPEDIA ٢٠٠٥- Guerilla Warfare.

ولذا لا ينبغي للمجاهدين الذين يخوضون حرب عصابات أن ييأسوا إذا اضطروا للتراجع، أو هزموا في معركة.

وعن هذا التأييد الشعبي يقول روبرت تابر:

"فعندما نتكلم عن رجال العصابات، يتداعى في أفكارنا معنى النصير السياسي، فهو مدني مسلح، وسلاحه الرئيسي ليس البندقية أو الساطور، بل علاقته مع الجماعة، مع الأمة التي يقاتل ضمنها وفي سبيلها".[1]

ويقول أيضاً:

"ويجب أن نبين منذ الآن، بأن الشعب يشكل مفتاح الصراع كله. وبالواقع، ومهما بدت الفكرة مغيظة للمحللين الغربيين، فإن الشعب هو الذي يقود الصراع. فرجل العصابات ينتمي إلى الشعب، بنفس المقدار الذي لا يستطيع فيه جندي الحكومة أن ينتسب إليه (لو لم يكن النظام قد فقد محبة الشعب لما اندلعت الثورة).

إن رجل العصابات يقاتل بمعونة الجماهير الشعبية المدنية، التي تشكل تمويهه، ومنابع إمداده، ومصدر تطوعه، وشبكة اتصالاته، ومصلحة استخباراته، الموجودة في كل مكان والشديدة الفعالية.

فبدون رضاء الشعب ومساعدته الفعالة، يتحول رجل العصابات إلى قاطع طريق، ولا يبقى طويلاً على قيد الحياة.

ولو استطاع الجندي المضاد للعصيان أن يحصل على المساعدة نفسها، لما وُجد رجل العصابات أصلاً، ولما كانت هناك حرب أو ثورة، ولنامت القضية، وانطفأت الرغبة الشعبية في التغيير الجذري.

وهكذا نصل إلى المسألة الجوهرية الخاصة بالأهداف التي يبني المعسكران عليها بالضرورة، تكتيكيهما واستراتيجيتيهما.

فرجل العصابات، هو قبل كل شيء داعية، ومحرض، وباذر للأفكار الثورية، وهو يستخدم الصراع نفسه -القتال المادي- كأداة للتحريض، وهدفه الأساسي رفع مستوى الاستباق الثوري، ثم المشاركة الشعبية حتى النقطة الحرجة، حيث تصبح الثورة عامة في البلاد، وتكمل الجماهير الشعبية العمل النهائي، أي القضاء على النظام القائم، والقضاء (غالباً وليس دائماً) على الجيش الذي يحميه.

---

[1] حرب المستضعفين ص: ٩.

وبالمقابل فإن هدف القوات المضادة للثورة سلبي ودفاعي، ويتضمن تأمين استتباب النظام، وحماية الملكية، وصيانة الأوضاع والمصالح الموجودة بقوة السلاح، بعد أن خابت وسيلة الإقناع. وقد تكون الوسائل المستخدمة سياسية عندما تتضمن إقناعاً أشد: كالوعود بالإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية وشراء الضمائر والدعاية المضادة بمختلف الأشكال. لكن قبل كل شيء، يجب على القوات المضادة للثورة أن تدمر الثورة عن طريق تدمير وعودها، أي البرهنة عسكرياً بأنها لا يمكن أن تنجح، ولن تنجح[1]"[2].

ويقول أيضاً:

"إن حرب العصابات في جوهرها سياسية واجتماعية، أما وسائلها فهي سياسية بمقدار ما هي عسكرية، أما هدفها فسياسي بالكامل تقريباً.

....

إن حرب العصابات تعادل حرباً ثورية، إنها امتداد للسياسة باستعمال السلاح.

وطالما أن أولئك المكلفين بالصراع ضدها لا يفهمونها، فلن يجدوا أية وسيلة استراتيجية أو تكتيكية لتحقيق النصر، أما إذا فهمها أولئك الذين يقودونها، فإنها لن تخيب مطلقاً، مهما كانت الظروف، لأن الحرب الثورية لن تبدأ إلا عندما تتوافر ظروف نجاحها"[3].

ويقول أيضاً:

"إن مجرد البقاء على قيد الحياة بالنسبة إلى رجل العصابات هو نصر سياسي، فذلك يشجع المعارضة الشعبية للنظام المعني وينميها. ويستطيع رجل العصابات أن يتنكر بزي فلاح -وقد يكون فلاحاً بالفعل- متابعاً نشر رسالته الثورية. أما الجندي المضاد للثورة، فإنه يغدو في الحالة المماثلة دليلاً للشرطة، ولا يستطيع نشر أية رسالة"[4].

وينقل عن ماو قوله:

---

[1] تأمل أن هذا هو الهدف الذي تسعى إليه الحملة المشتركة للحكومة المصرية -ممثلة أساساً في إدارة مباحث أمن الدولة- وللمتراجعين من الجماعة الإسلامية بمصر وكتاب وثائق الترشيد. وقد كان مقاومة هذا التيئيس هدف من أهم أهداف الحملة الجهادية في الفترة من عام ١٩٨٨م حتى عام ٢٠٠٦م، التي شاركنا فيها في مصر، فإن إبقاء شعلة الجهاد متقدة -حتى ولو ضعفت- هدف في حد ذاته، كما شرحت ذلك في الفصل الثالث (الفصل الثالث: العمليات في مصر) من الباب الثالث للجزء الأول.

[2] حرب المستضعفين ص: ١٠ و١١.

[3] حرب المستضعفين ص: ١٣ و١٤.

[4] حرب المستضعفين ص: ١١.

"ومآل حرب العصابات إلى الفشل، إن لم يكن لها هدف سياسي، أو كان هذا الهدف لا يتطابق مع تطلعات الشعب، أو لا يستطيع اكتساب تعاطفه وتعاونه ومشاركته. فحرب العصابات إذن سياسية في جوهرها"[1].

ويقول هانئ الدرديري:

"وبالنسبة للتأييد الشعبي، فلا يمكن لحرب العصابات أن تقوم ضد إرادة شعبية، أو حتى في ظل لامبالاة شعبية فالتأييد الشعبي هو الحليف الطبيعي لقوات العصابات، ولهذا أجمع مفكرو العصابات على ضرورة الحصول على المساندة الشعبية حتى تنجح حرب العصابات.

وأساس هذا المبدأ أمران:

أولهما، احتياج العصابات إلى هذا التأييد الشعبي لتعويض التفوق المادي المعادي، إذ يتيح هذا التأييد -فضلاً عن إمكانية النماء- الاندساس والتخفي بين السكان المحليين، والحصول منهم على المؤن اللازمة للاستمرار.

وثانيهما، أن حرب العصابات -كما أوضحنا في حينه- تعتبر حرباً سياسية، يسعى بها رجالها لتنفيذ برنامج سياسي معين، وجميع البرامج السياسية -كما هو معروف- تحتاج بجوار القيادة والحزب السياسي إلى قاعدة شعبية عريضة ينفذ بها ومن أجلها البرنامج السياسي الموضوع.

وطريق العصابات للحصول على التأييد الشعبي معروف، وينجح بأمرين:

١- المعرفة الأفضل بالشعب: طبيعته، قيمه، حاجاته الأساسية، دواعي سخطه، ثم توظيف كل ذلك للحصول على تأييده.

٢- انتهاج المبدأ السياسي الذي يلقى -في لوحته العامة على الأقل- قبولاً من القاعدة العريضة للشعب"[2].

فإذا نظرنا للعصابات المجاهدة في الشيشان فسنجد أن خلفهم تاريخاً من أربعمائة عام من الصراع مع الروس ورفض عدوانهم المستمر، ورغبة جارفة في الاستقلال عن الروس وإقامة حكومة إسلامية مستقلة في الشيشان.

يقول أبو بكر عقيدة ~:

---

[1] حرب المستضعفين ص: ٣٩.

[2] المدخل للثقافة العسكرية ص: ٨٣ و٨٤.

"وكما كان المجاهدون الشيشانيون مثالاً للشجاعة، فقد كان جُل الشعب الشيشاني مثالاً للبذل والعطاء... حيث أخذ على عاتقه إطعام المجاهدين وإيوائهم والترصد لهم على العدو ومدّهم بالمعلومات عنه، وإنذارهم بما يُحدق بهم من أخطار.

إن من فضل الله على الشعب الشيشاني أنه قومية واحدة، ولغة واحدة، وقيادة واحدة" [١].

يقول خطاب ~ عن الحرب الثانية:

"الجميع يعرف أن الروس حضروا لهذه الحرب بعناية فائقة، نحن نعتبر كجماعة من قطاع الطرق الصغيرة، لكن الروس بدءوا حربهم كما لو كانوا في حالة حرب مع جيش منضبط، استعملوا كل الأسلحة الموجودة لديهم، لكن –إن شاء الله– ليس من الممكن أن يفوزوا بهذه الحرب، منذ سنتين لم يستطيعوا فعل شيء معنا، اليوم الروس قد فهموا جيداً أن الحل العسكري للمشكلة لن يساعدهم، فقد ثارت الأمة بالكامل على روسيا " [٢].

ويقول المجاهد محمد السمرقندي في يومياته عن الحرب الثانية:

"قرية تاوزني:

دخلنا إليها الساعة ١٢ من ليلة الاثنين ١/ ذو الحجة ١٤٢٠هـ الموافق ٢٠٠٠/٣/٧م، وكان الأمراء –جزاهم الله خيراً– قد رتبوا أمر الأكل وغير ذلك، وبقي المجاهدون في القرية، ولم يدخلوا البيوت إلا القليل منهم.

وفي الفجر أمر القائد العام (خطاب) بالخروج من القرية، لأن الروس سوف يحاصرونها إذا علموا بوجود المجاهدين فيها.

وقد كان استقبال أهل القرية للمجاهدين عجيباً؛ حيث خرجوا لهم بالطعام والشرب، بل وفتحوا أبواب بيوتهم للمجاهدين للنوم والاستحمام والاستراحة، مما كان له الأثر في رفع معنويات المجاهدين" [٣].

ويقول أيضاً:

"إننا يوم دخلنا قرية تاوزني وارتحنا فيها بعد عناء طويل أمرنا القائد العام بالخروج من القرية.. كل ذلك خشية أن يعلم الروس بنا، فيحاصروا القرية ويؤذوا المدنيين، فكان القادة حريصين على حياة المدنيين العزّل أكثر من حرصهم على راحة المجاهدين، فالحفاظ على أرواح المدنيين كانت على قائمة المهمات التي يراعيها القادة.

---

[١] روايات ساخنة من أرض الشيشان ص: ٣.

[٢] الثمر المستطاب في سيرة القائد خطاب ص: ٣٩.

[٣] أخبار القلم والسيف في رحلة الشتاء والصيف ج: ٧ ص: ٤٣.

فهم على استعداد أن يتحملوا ويحملوا المجاهدين العناء بشرط ألا يتضرر مدني واحد، وكان من أهم الأسباب التي تم تحويل أسلوب حرب المجاهدين من حرب نظامية إلى حرب عصابات هو الحفاظ على أرواح المدنيين، وحتى لا يقصف الروس القرى التي يقطنها المدنيون "[1].

د- مراحل حرب العصابات.

يقسم منظرو حرب العصابات سيرها لثلاث مراحل: المرحلة الدفاعية البحتة ومرحلة التوازن ومرحلة الحسم.

وقد قام المجاهدون الشيشان بخوض مراحل هذه الحرب ببسالة في سبيل الله، ويلخص الشيخ الرئيس الشهيد -كما نحسبه- زليم خان يندربي ~ أهم معارك هذه الحرب بقوله:

" ويحق للمجاهدين الشيشان أن يسجلوا أسماءهم بكل فخر في سجل هذا الكفاح المديد، ويكفينا أن نرجع إلى حرب ١٩٩٤- ٩٦ التي اندلعت للدفاع عن جروزني والتصدي للعدوان، الذي شنه الروس علينا في مطلع العام الجديد، ونستعرض الغارة المشهورة التي شنها فيلق بزعامة شامل باسييف في أعماق الأقاليم الروسية، والمعركة التي دارت بالقرب من بودينوفسك، والمعركة من أجل قرية برفومكس عقب غارة سالمان رادوييف على كزلر، وأعمال الأمير حطاب بالقرب من شيرزن أورت وياريش- ماردي، ومقاومة باموت، أولد أشوي وياندي، حيث ترد كل هذه المعارك على الخاطر، وهناك غيرها الكثير.

وكل هذه الأعمال توجت بالطبع بتحرير جروزني في أغسطس ١٩٩٦، وعقب تحرير جروزني اضطر الجيش الروسي البالغ تعداده نصف مليون مقاتل إلى الاستسلام، والمهم في هذا أن هذا الجيش استسلم أمام المجاهدين، وهذه شهادة تؤكد أن المجاهدين أظهروا صلابة وشجاعة نادرة في كافة المعارك، التي خاضوها في خضم هذين الحربين، لأنهم كانوا يقاتلون باسم الله ومن أجل تحرير الشيشان.

وربما كان من المهم أن نقارن بين معركة بدر في القرن السابع وبين المعركة الأولى مع الروس الملحدين التي دارت أحداثها في ٢٦ نوفمبر ١٩٩٤ في جروزني، ففي فجر ذلك اليوم وتحت حماية ما يسمون أنفسهم بالمعارضة، تم مهاجمة المدينة من أربع جهات بوحدات من الجيش الروسي النظامي ومعهم العديد من خونة الشيشان، وفي هذه المعركة قام المجاهدون بتدمير مجموعة الروس التي تتكون من رتل من الدبابات عن آخرها خلال

[1] أخبار القلم والسيف في رحلة الشتاء والصيف ج: ٧ ص: ٤٧.

ست أو سبع ساعات من بداية الهجوم، ويمكننا أن ندرك من هذا الذي حدث أن المجاهدين شأنهم شأن أسلافهم في القرن السابع، حققوا انتصاراً رائعاً في تلك المعركة" [١].

وليس المقام هنا مقام تفصيل البحث حول حرب العصابات، ولكني أؤكد على أن مرحلة الحسم هي أخطر هذه المراحل، التي يقول عنها هانيء الدرديري:

" وأما المرحلة الثالثة، مرحلة الهجوم العام المضاد والحسم السياسي، فهي تلك المرحلة التي تبدأ بوصول العصابات إلى مرحلة تستطيع فيها تشكيل قوات نظامية قادرة على خوض حرب المواقع. فبهذه النواة النظامية يعمد رجال العصابات إلى شن معركة عسكرية ذات تأثير معنوي فاصل لإجبار العدو على إنهاء الحرب لصالحهم.

وتعتبر هذه المرحلة الأخيرة من أهم مراحل حرب العصابات، فبعد أن تنتهي الكباش في مرحلة التوازن إلى التناطح الواقف المتجمد، لابد من حركة سريعة وقوية يقوم بها رجال العصابات للإيقاع بالعدو الذي أنهكه التعب وأرهقه حتى وصل إلى مرحلة التجمد" [٢].

وقد قام المجاهدون الشيشان بحسم الحرب بمعركة رائعة أبدوا فيها من ضروب البسالة والشجاعة ما يقل نظيره، وحسموا معركتهم بقتال رائع يسجل في تاريخ الجهاد الإسلامي بل في التاريخ العسكري كله بالشرف والفخار.

ففي السادس من أغسطس عام ١٩٩٦م شن المجاهدون الشيشان هجوماً متزامناً على مدن جروزني وأرجون وجوردمس في أكبر عمل تعرضي شيشاني في الحرب.

وفي جروزني استولوا بسرعة على قلب المدينة، واستولوا على مقار الحكومة، واكتسحوا أو حاصروا العديد من المواقع العسكرية الروسية، وأجبروا غيرها على إخلائها.

وقد حققوا هذا النصر رغم أن تقريراً سابقاً لمجلس الأمن القومي الروسي قدر عدد القوات الروسية في جروزني وحدها باثني عشر ألف مقاتل، يبلغون قرابة ثلاثة أضعاف مهاجميهم.

بينما تمركز الآلاف من القوات الروسية في مواقع حول جروزني، منها مثلاً القاعدة الروسية الرئيسية والمطار في (خان قلعة) على مسافة سبعة أميال إلى الشمال الغربي من جروزني.

وكان للروس أيضاً مئتي وسبعة عجلة مدرعة، ولم يكن لدى الشيشانيين أياً منها، وكل الذي ظهر في نهاية المعركة معهم إنما هو مما غنموه من عدوهم.

وليس للروس أي عذر على فشلهم، فقد سبق هذا الهجوم الكاسح هجوم أصغر منه، وكان بمثابة تدريب عليه في مارس السابق، ولكن يبدو أن الروس لم يتعلموا منه شيئاً.

---

[١] الشيشان بين السياسة والواقع ص: ١٠١ و١٠٢.

[٢] المدخل للثقافة العسكرية ص: ٨١ و٨٢.

وبحلول ليلة اليوم الثاني كانت معظم القوات الروسية حول جروزني قد عادت لمواقعها التي كانت تحتلها قبل الهجوم الروسي الأول في ديسمبر ١٩٩٤، أي قبل عشرين شهراً، وكذلك احتل الشيشانيون مركزي جوردمس وأرجون.

وقتل للروس ٤٩٤ جندياً بالإضافة لـ ١٤٠٧ جرحى و ١٨٢ مفقوداً أو أسيراً. كما دمرت لهم أو غنمت ١٨ دبابة و٦٩ حاملة جنود مدرعة.

هذا النصر المؤزر ترك الروس أمام خيارين: إما أن يبدأوا الحرب كلها من جديد، ويشرعوا بعاصفة دموية جديدة على جروزني، أو يستسلموا فعلاً في مقابل السلام[1].

.هـ- دور الدعاية والنشر في حرب العصابات:

استفاد المجاهدون الشيشان وأنصارهم من تقنيات الإعلام الحديثة وشبكة المعلومات، ليبرزوا حقيقة انتصارهم والخسائر الواقعية للقوات الروسية، ومدى بشاعة الجرائم التي ترتكبها في حق الشعب الشيشاني المسلم. وعن هذا يقول خطاب ~:

"إن الله أمرنا بمجاهدة الكافرين وقتالهم بمثل ما يقاتلوننا به. وهاهم يقاتلوننا بالدعاية والإعلام، لذلك فيجب علينا أيضاً مقاتلتهم بإعلامنا"[2].

و- الروح المعنوية كعامل خطير في تحقيق النصر:

يقول أبو بكر عقيدة ~:

"لقد أبدى المجاهدون الشيشانيون في قتالهم ضد الروس بسالةً سيظل التاريخ يذكرها زمناً طويلاً...! بسالة جعلت روسيا تقتنع بأن القوة مهما بلغت فلن تُخضع الشيشانيين.

لقد ضربوا أروع الأمثلة في الشجاعة فقد كان قتالهم يعتمد في المقام الأول -بعد عون الله تعالى- على المبادرة الشخصية، فلا غرابة في أن يتربص المجاهد الشيشاني بالدبابة حتى تمر من أمامه، فيقفز فوقها، ويلقي بقنبلته داخلها فيدمرها!! أو أن يتسلل ليلاً من بين أنقاض المباني المتهدمة في العاصمة " قروزني" مخترقاً جبهة القوات الروسية في مخاطرة ليصعد فوق أحد المباني المهجورة فيرفع العلم الشيشاني فوقها! وفي الصباح عندما يرى جنود القوات الروسية العلم الشيشاني وسطهم، ينهالون على المبنى بالقذائف ظناً منهم أن المجاهدين قد تسللوا وتمركزوا فيه...

لقد كان لتلك الأعمال وغيرها -رغم بساطتها- تأثير هدام على معنويات القوات الروسية ولله الحمد"[1].

---

[1] ترجمتها بتصرف يسير عن:

Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ١٤١ & ١٤٢.

[2] الثمر المستطاب في سيرة القائد خطاب ص: ٤٠.

أما عن معنويات الجانب الآخر فيقول أناتول ليفين عن حوار له مع رائد في قوات (أمون)، وهي قوات شرطة شبه عسكرية، وتعتبر من أفضل القوات الروسية التي تولى عناية خاصة. يقول أن الضابط قال له أمام جنوده:

"إن الشيء الحسن الوحيد -الذي يمكن أن نقوم به هنا- هو أن نعود لديارنا، وسيكون من الأفضل أن تخرج أيضاً ما تسمى (بالحكومة المؤقتة)"[٢].

ويقول أيضاً في حديثه عن الاتفاقيات التي وقعها ليبيد مع مسخادوف في خسايورت:

"ومع كل التقدير الواجب لليبيد، فإن من المهم أن نتذكر أن اتفاق السلام قد تحقق لأن الشيشانيين قد أحرزوا نصراً عظيماً، ولأن الروس أدركوا أنهم لكي يغيروه فسيكلفهم ذلك سنيناً من الحرب وآلافاً من الأرواح، وهم ببساطة ليسوا مستعدين لتحملها.

وفي الجيش أدرك القادة أن رجالهم لا يريدون بوضوح أن يواصلوا القتال.

وكما حدث مع المجندين الفرنسيين في الجزائر أو الأمريكان في فيتنام فإن الروس – ولكن بدرجة أكبر- كانوا قد أنهكوا من الحرب.

وانعكست هذه الروح بصورة أكبر في استطلاعات الرأي العام الروسي حول اتفاقيات خاسيورت"[٣].

ز- ابتكارات المجاهدين:

ومن الدروس المستفادة من حرب الشيشان والروس (١٩٩٤- ١٩٩٦م) تطويرهم للأسلحة واستخداماتها، ومن أمثلة تلك الابتكارات:

استخدام المجاهدون لصاروخ فاقوت لتدمير الطائرات المروحية، وعن هذا الابتكار يقول أبو بكر عقيدة ~:

"تكتيك جديد

تدمير طائرة مروحية بصواريخ "فاقّوت"

(٢٩/٥/١٩٩٦م)

من التكتيكات الجديدة التي ابتكرها المجاهدون في قتالهم ضد القوات الروسية في الشيشان استخدام صواريخ فاقوت -الموجهة سلكيا- ضد الطائرات المروحية أثناء هبوطها في المواقع الجبلية.

---

[١] روايات ساخنة من أرض الشيشان ص: ٣.

[٢] Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ٤٩.

[٣] Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ١٤٣.

بعض المواقع التي اتخذتها القوات الروسية فوق قمم مرتفعة مشرفة على طريق أو تقاطع طرق، هذه المواقع رغم فائدتها الكبيرة لهم في السيطرة على الوضع بحيث يحذر المجاهدون من أن يُروا كلما تحركوا على الطرق وفي الغابات، مما يؤثر على تكتيكهم وتحركهم وبالتالي على أدائهم.

إلا أن إمداد بعض هذه المواقع من الصعوبة بمكان، بحيث لا يتم إلا عن طريق الطائرات المروحية، فتأتي الطائرة محملة بالعتاد أو التموين، وتهبط في الموقع في مكان غالباً ما يكون ثابتاً ومحدداً ومعروفاً، لأن قوة الموقع تضع إشارة ضوئية حمراء تومض في منتصف المكان، الذي على قائد الطائرة المروحية أن يهبط فيه.

بدلاً من أن تصبح هذه المواقع نقمة على المجاهدين وحدهم، أصبحت أيضا نقمة على أصحابها، لأن خط إمدادها الجوي أصبح -بعد فضل الله ثم توفر صواريخ فاقوت- هدفاً سائغاً لضربات المجاهدين"[1].

وبواصل أبو بكر عقيدة قائلاً:

"ولأن العدو لا يستطيع إيقاف الإمدادات لهذه المواقع أو إلغائها لأهميتها لأمنه وسيطرته، اضطر إلى إتباع أسلوب جديد في هبوط الطائرات في تلك المواقع، فبدلاً من أن توقف الطائرة محركها وتفرغ عند هبوطها، أصبحت لا توقف محركها، وتظل مروحتها تعمل بسرعة عالية، فتصبح معلقة أو شبه معلقة في الهواء، كما أصبحت تفرغ حمولتها بأسرع وقت ممكن -دقائق معدودة- تقليلاً لزمن الخطر، لأن دفع الهواء الشديد باتجاه الأسفل كفيل بتغيير مسار أي صاروخ له زعانف خلفية مثل صواريخ آر. بي. جي وصواريخ الفاقوت. الأمر الذي يجعله إما أن يرتطم بالأرض، أو ينحرف عن مساره بعيداً عن الطائرة.

أدى هذا الأسلوب الذي اتبعته القوات الروسية إلى فشل إحدى عمليات المجاهدين، فقد انحرفت صواريخهم بعيداً عن الطائرة، عندما اقتربت من مروحتها فانفجرت أسفلها وبجوارها، مثل الصاروخ الذي أطلقه حكيم المدني، دفعته مروحة الطائرة فانحرف جانبياً لينفجر بعيدًا عن الطائرة، وكذلك صاروخ أبي قتادة ياسر السوري، دفعه هواء مروحة الطائرة بقوة لأسفل، فانفجر في الأرض، قبل أن يصل إلى الطائرة بأمتار قليلة، فأعطب الطائرة، وأوقف محركها، وأصابت شظاياه قائد الطائرة، الذي هبط محاولاً الهرب بسرعة، بعد أن مرّ بجوار طائرته صاروخ حكيم المدني، وانفجر على مسافة ليست بعيدة عنها.

[1] روايات ساخنة من أرض الشيشان ص: ٦٧.

بعد ذلك غيّر المجاهدون من طريقة هجومهم على الطائرات المروحية عند هبوطها بزيادة عدد منصات إطلاق الصواريخ المستخدمة في الرماية عليها، وزيادة عدد الصواريخ المخصصة لكل منصة، عسى أن تؤثر موجة أحد الصواريخ الانفجارية أو شظاياه على مروحة الطائرة فتوقفها، أو على محركها فتعطبه، بعدها تصبح هدفاً سهلاً لبقية المنصات وصواريخها" [(١)].

٣- المدن التي لا تكل عن المقاومة.

أ- تمهيد

(١) يحرص المقاتلون في حرب العصابات عموماً وفي حرب المدن خصوصاً على أمرين هامين:

الأول: هو التملص من المواجهة، وعدم الدخول في قتال ثابت مع العدو.

الثاني: هو عدم التشبث بالأرض.

(٢) ولكن قد يقرر المقاتلون الصمود والدفاع عن المدينة في عدة أحوال، ولكن بشرط أساسي وهو توفر الدعم والمساندة الشعبية للمقاتلين والمجاهدين، ومن هذه الأحوال:

(أ) إذا كان المقاتلون يرجون من دفاعهم إنزال خسائر فادحة بالعدو، تؤثر في مجرى الحرب ولو على المدى البعيد.

(ب) إذا كان سقوط المدينة يمثل هزيمة معنوية، ويرمز لسقوط البلد كلها. فحينئذ لا بأس من الدفاع عن تلك المدينة، ولو بهدف تأخير سقوطها، حتى تتهيأ الأمة للقتال، وتعتاد عليه وتتشجع، ولا تصاب بصدمة إحباط قد تؤدي لهزيمة معنوية طويلة الأمد.

(ج) إذا كان العدو يهدف للاستيلاء على المدينة بسرعة لأنه يهدف لحسم الموقف لصالحه لتجنب ضغوط داخلية لديه.

(د) إذا كان المدافعون يهدفون من تأخير سقوط المدينة ترتيب إجراءاتهم الدفاعية في أماكن أخرى، وترتيب انسحاب مرتب أو بأقل الخسائر. تمهيداً لمعركة حرب عصابات طويلة قادمة.

(هـ) إذا كان العدو لا يستطيع أن يهاجم المدينة لفترة طويلة، ويضطر نظراً لإمكاناته أو ضعف معنوياته، لأن يكف عن القتال إذا طال أمده.

(و) إذا كان الدفاع عن المدينة يحمي جبهات أخرى أو مناطق أو قوات أخرى من السقوط أو الوقوع في حصار العدو. وهنا لا بد أن نذكر المقاومة البطولية بقيادة الشيخ حافظ سلامة في السويس في حرب ١٩٧٣م، التي منعت اليهود من دخولها، وأمنت إمداداً للجيش الثالث المحاصر في شرق القناة[(٢)]، وللأسف فإن هذه التجربة البطولية لم تجد من يسجلها، ولا من يعترف بفضل هذا المجاهد الزاهد.

[(١)] روايات ساخنة من أرض الشيشان ص: ٧٠ و٧١.

[(٢)] يذكر الشيخ حافظ سلامة أن:

(ز) إذا كان المدافعون يتوقعون مدداً يصلهم بعد فترة، قد يوثر على ميزان المعركة.

(ح) إذا لم يكن للمدافعين خيار آخر.

ب- الهجوم الروسي على جروزني ومقاومة المجاهدين له.

فإذا انتقلنا من هذا التعميم إلى معركة المجاهدين الشيشان دفاعاً عن جروزني في وجه الهجوم الروسي الهائل ضدها، فإننا سنجد أن المجاهدين قد ألحقوا بالقوات الروسية المهاجمة خسائر فادحة في الأرواح

"القوات "الإسرائيلية" قد استطاعت أن تتسلل إلى الضفة الغربية لقناة السويس بعد نجاح الجيش المصري في عبور القناة وتحطيم خط "بارليف"، وأن هذا التسلل "الإسرائيلي" جاء من منطقة الدفرسوار كمحاولة للقضاء على مكاسب الجيش المصري في تلك المعركة، واستطاعت القوات "الإسرائيلية" أن تحقق بعض المكاسب على الأرض".

....

هذه القوات وصلت بالفعل إلى مشارف مدينة السويس بهدف احتلالها، ولو استطاعت القوات "الإسرائيلية" احتلال المدينة في ذلك الوقت، لكان الموقف قد أصبح خطيراً، حيث أن احتلال المدينة كان يحقق للقوات "الإسرائيلية" استكمال حصار الجيش الثالث الميداني في سيناء، ويفتح أمامها الطريق إلى القاهرة عبر السويس.

....

عندما حاول الجيش "الإسرائيلي" اقتحام مدينة السويس، هدد قائد القوات "ارييل شارون" بدك قناة السويس، إذا لم تستجب القيادات السياسية والعسكرية بتسليم المدينة، إلا أن المقاومة التي أبداها أبناء السويس أجبرت "شارون" وقواته على الانسحاب، بعد وقوع عشرات القتلى في صفوفها، وعجزها وقتها عن العودة لجمع أشلاء قتلاها.

....

إن "شارون"، هو بنفسه الذي قاد الحملة العسكرية لغزو مدينة السويس، وأنه أمام غطرسته، كانت شراسة المقاومة الشعبية في شوارع وأزقة مدينة السويس، بعد أن دمرت هذه المقاومة، على مدى ثلاث ساعات ٢٣ دبابة ومصفحة، وأوقعت عشرات القتلى في صفوف "الإسرائيليين"، الذين لم يستطيعوا سحب قتلاهم عند انسحابهم.

....

قبل الانسحاب وجه "شارون" إنذاراً إلى القيادات السياسية والعسكرية بالاستسلام، وإلا فإنه سيدك مدينة السويس بالطائرات خلال نصف ساعة، إلا أننا أكدنا لهم أننا نرفض الإنذار، بل وعلى استعداد لمواجهتهم مرة ثانية إذا حاولوا دخول السويس، وقلنا لهم إن أرض السويس لا بد أن تروى بدمائكم القذرة مرة ثانية.

....

الأسلحة التي كانت تستخدمها المقاومة آنذاك، أسلحة أوتوماتيكية وقنابل يدوية، وكانت المقاومة تواجه سبعة ألوية مدرعة، يعززها سلاح الطيران "الإسرائيلي" في سماء خلت -آنذاك- لهم، وأرض توغلوا بها عشرات الأميال، إلى أن نجحت المقاومة في تكبيد القوات "الإسرائيلية" هزيمة نكراء لأول مرة، وكسر أسطورة الجيش الذي لا يقهر، وتم قهره على أرض السويس". [الشرق: الخميس ٢٤ إبريل ٢٠٠٨].

والعتاد، كما حطموا معنويات الروس، وكشفوا للشعب الروسي كذب حكومته، كما دبروا بهذه الأعمال الدفاعية انسحاباً مرتباً لخارج جروزني.

ومعركة جروزني كغيرها من وقائع الشيشان مع الروس، تعد من الملاحم العظام في تاريخ الجهاد الإسلامي، التي لم توف حقها بالدراسة والتأمل[١].

وسأعرض هنا بإيجاز لبعض الملامح الهامة لتلك المعركة العظيمة.

(١) في الواحد والثلاثين من ديسمبر ١٩٩٤م شنت القوات الروسية الموجودة شمال وشمال غرب جروزني هجوماً أرضياً متكاملاً على المدينة[٢].

(٢) وقد هاجم الروس من اتجاهين فقط لأن أعدادهم لم تكن تكفي لتطويق وعزل المدينة، وبالتالي فإنه طوال الحصار –الذي استمر لمدة سبعة أسابيع- كانت المدينة مفتوحة من الناحيتين الجنوبية والشرقية، وتمكن المدافعون من تلقي تعزيزات وإمدادات، وفي النهاية تمكنوا من ترتيب انسحاب جيد التنظيم من المدينة[٣].

ولم يكن هذا الانسحاب نزهة، بل قدم المجاهدون الشيشان فيه تضحيات كبيرة، وأبدوا بطولات فائقة، وأحد أمثلة هذه التضحيات يرويها الشيخ الرئيس زليم خان يندربي ~، فيقول:

"وعند الانسحاب من مدينة جوهر[٤]، التي كانت تقع تحت حصار كامل من قبل العدو بعد قتال عنيف، وجدت طلائع المجاهدين -الذين كانوا يتلمسون طريقاً لكسر طوق الحصار- أن طريقهم مسدود بحقل ألغام، لا يمكن تجنبه ولابد من عبوره، ولم يكن الوقت في صالح المجاهدين بالنسبة للهروب بشكل آمن، عندئذ تقدم شامل باساييف قائد العملية، وانطلق يعبر حقل الألغام قائلاً لرجاله: (إذا تعرضت لانفجار لغم، أتركوا جثتي على جانب، وتقدموا، وكرروا هذا كلما تعرض مقاتل منكم لانفجار لغم).

وتعرض باساييف لانفجار لغم، وجرت جثته، ووضعت على جانب، ومرت لحظة من الارتباك، غير أن عمدة المدينة -ويدعى جوهر ليشي دوداييف، وهو ابن أخ أول رئيس لجمهورية الشيشان- تقدم إلى طليعة المجاهدين، وأخذ مكان باساييف كقائد لهم، غير أنه هو الآخر تعرض لإنفجار لغم وقتل.

---

[١] للأسف فإني لم أجد مصادر جهادية توفي الحرب الشيشانية حقها، ولعل الكتاب الوحيد الذي وقع في يدي، ويتكلم بتفصيل علمي عن بعض أهم المعارك، هو كتاب الشهيد –كما نحسبه- أبي بكر عقيدة ~ بعنوان (روايات ساخنة من أرض الشيشان).

[٢] Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ١٠٨.

[٣] Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ١٠٩.

[٤] الاسم الذي أطلق بعد استقلال الشيشان على جروزني.

وقد أسفر عبور حقل الألغام هذا عن قتل سبعة وعشرين مجاهداً، وجرح الكثير منهم لدى عبور ذلك الحقل المزروع بالألغام. ورغم ذلك كانت شجاعة المجاهدين وتضحيتهم وراء تمكن رفاقهم من الهروب من ذلك الحصار"[١].

(٣) وكانت معركة اليوم الأول كارثة محققة على الروس، فقد استطاع الروس اختراق حد الدفاع الخارجي للمدينة، وانسحب الشيشانيون بحكمة، وترك الشيشانيون طوابير المدرعات تندفع صوب مركز المدينة، وهناك كانت المفاجأة تنتظرهم. فقد فوجئ الروس بالشيشانيين يحيطونهم ويمطرونهم بنيرانهم من كل جانب. وقتل المئات من الروس في عدة ساعات. واستمر الشيشانيون في تصيد المدرعات المتقدمة وإيقاعها في الكمائن، ويروي أناتول ليفين عن أحد المجاهدين الشيشان طريقة قتالهم، حين قال له:

"الجنود الروس يبقون في مدرعاتهم، ونحن فقط نقف في الشرفات، ونلقي بالقنابل على مركباتهم عند مرورهم تحتنا. الروس جبناء، ولا يمكن أن يفكروا في مجرد الخروج من ملاجئهم لملاقاتنا رجلاً لرجل، إنهم يعلمون أنهم ليسوا أكفاءً لنا، ولذلك ضربناهم، وسنظل دائماً نضربهم"[٢].

(٤) وتحول الوضع في جروزني إلى تقدم بطئ كالخوض في الوحل تجاه القصر الرئاسي تحت غطاء من قصف من أشد ما شوهد في العصر الحديث. ونتيجة لذلك فقد تدمر وسط جروزني بالكامل[٣].

(٥) وفي التاسع عشر من يناير وصلت القوات الروسية للقصر الرئاسي، بعد أن هجره المدافعون عنه تماماً، بعدما اخترقت إحدى القذائف أقبيته التي كانوا يتحصنون فيها[٤].

(٦) وكانت خسائر الروس باهظة، فطبقاً لمصادرهم قتل منهم حتى ٢٤ فبراير ١١٤٦ قتيلاً وفقد منهم ٣٧٤ جندياً، معظمهم من القتلى. وقد لجؤوا -بعد الأيام الأولى- للقصف المدفعي بدلاً من العمليات التعرضية لتحقيق التقدم بأقل الخسائر[٥].

ج- القتال في المدن وبخاصة جروزني بعد احتلال الروس لها.

قتال المجاهدين الشيشان ضد القوات الروسية في المدن في الحرب الأولى أبرز عدداً من الدروس الهامة المستفادة. منها:

(١) الغابة الصناعية:

---

[١] الشيشان- السياسة والواقع ص: ١٠٥.

[٢] Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ١٠٩& ١١٠.

[٣] Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ١١١.

[٤] Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ١١١.

[٥] Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ١١١.

حلت المدينة المترامية الأطراف، وخاصة المدمرة، محل الغابة كبيئة صالحة لتصدي العصابات المؤمنة للقوات الغازية الضخمة المتقدمة المنظمة.

وهذا النوع من الغابات يتوزع على امتداد الدنيا.

وهكذا انتصر الشيشان لأنهم كما كانوا أساتذة في فن حرب العصابات في الأدغال في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فقد أتقنوا أيضاً في تسعينيات القرن العشرين قتال حرب المدن.

وبينما تفقد الغابة قيمتها لدى مقاتلي العصابات إذا قطعت أشجارها، فإن المدينة بالعكس تحتفظ بخطورتها، بل قد تزداد خطورتها على القوات الغازية إذا دمرت.

وكان من أعذار القيادة الروسية عن خسائرهم في جروزني أن الاستخبارات الروسية لم تمدهم بخرائط حديثة لجروزني. وهذا الأمر يتوفر في معظم مدن العالم الثالث، حيث الخرائط قديمة أو غير واقعية، وحيث تحيط بالمدن مناطق عشوائية سريعة النمو، لا وجود لها على الخرائط، بل وفي كثير من الأحيان لا أسماء لشوارعها. وإذا كان هذا هو الحال في المدن السليمة، فإن ارتباك القوات الغازية يتضاعف عدة مرات في المدن المدمرة.

وإذا كانت هذه الغابات الصناعية الحديثة توفر نفس الفرص التي كانت توفرها الغابات الطبيعية من حيث إمكانية نصب الكمائن وزرع الألغام والشراك الخداعية والقنص، فإنها أيضاً تلغي تفوق العدو في المدرعات والمدفعية والقوة الجوية في مواجهة العصابات المؤمنة(١).

وقد نقل أناتول ليفين عن الجنرال ميخائيل سُركوف نائب رئيس لجنة الدفاع في مجلس الدوما قوله:

"أما المدفعية فاستخدامها في الحالات المدنية لا جدوى منه. وهو مثل استخدام مدفع في قتل العصافير، والدبابات وعربات قتال المشاة أيضاً عاجزة في الشوارع، وهو الأمر الذي أكده الهجوم الأول على جروزني في ليلة رأس السنة في أول بداية الحرب.

وكانت قاذفات الصواريخ تطلق على المركبات من مسافات قريبة جداً، وتغطى فتحات الرؤية بها بالمشمع، وتضرم في المركبات النار، وكلها وسائل أتقنها المتمردون.

كما أن نظام الاتصال الذي كان لدى الوحدات الروسية يسبب المشاكل في المدن، فبمجرد أن تكون على الجانب الآخر من المبنى تعجز عن سماع أي شيء" (٢).

(٢) تفتيت القوات الكبيرة:

ومن مشاكل أي جيش اعتاد على الاعتماد على وحدات ضخمة تعمل معاً طبقاً لنظام صارم من التسلسل القيادي أنه سيجد نفسه في المدن وقد تقسم لمجموعات صغيرة مما يلقي بمسؤوليات ضخمة

---

(١) Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ١١٣ & ١١٤.

(٢) Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ١١٤ & ١١٥.

على صغار الضباط وضباط الصف الذين لم يعتادوا على المبادأة، وإنما على اتباع الأوامر التي يتلقونها من رؤسائهم[١].

(٣) صعوبة محاصرة المدن الكبيرة:

ومن الدروس القتالية المستفادة من قتال الروس في جروزني أن المدن الكبيرة يصعب حصارها بالكامل على القوات المسلحة لمعظم الدول بما فيها أمريكا.

مما جعل من المستحيل على المهاجمين الروس أن يحاصروا ويطوقوا ويعزلوا ويدمروا المدافعين[٢].

(٢) دور قاذف الآر بي جي كأحد أهم الأسلحة في حرب المدن.

كما أظهر القتال داخل جروزني أن القاذف الصاروخي (أر بي جي) هو سيد أسلحة الدفاع في حرب المدن والقرى وكذلك في الكمائن الجبلية، فهذا السلاح الرخيص الذي يحمله شخص واحد، يستطيع أن يدمر دبابة باهظة التكاليف بما تحمله من طاقم.

وهذا السلاح يحتاج فقط إلى تدريب جيد على الرماية به وشجاعة وأعصاب من حديد لراميه، حتى يوقع أفدح الأضرار بالجيش الغازي.

ولقد أبلت مجموعات المجاهدين الصغيرة المكونة من ثلاثة أشخاص (حامل الآر بي جي والقناص وحامل الرشاش البيكا لحماية زميليه، وليبقي الجنود الروس قابعين داخل مدرعاتهم) بلاءً حسناً في القتال ضد الجيش الروسي في جروزني وغيرها من مدن الشيشان[٣].

وقبل أن أختم هذا الفرع يهمني أن أؤكد أن التجربة الجهادية الإسلامية في العراق قد فاقت في تطورها وحجمها التجربة الجهادية الثرية في الشيشان، لاتساع مسرح المعركة وتوفر التواصل الحدودي مع الدول المجاورة، ولتوفر المدد البشري الغني بالكفاءات، بالإضافة للتغطية الإعلامية الواسعة التي حركت شباب الأمة، وزرعت اليأس في قلوب المعتدين وشعوبهم، وحولت الغرور الاستكباري الصليبي في بداية الغزو إلي حسرة وندم وتقاذف بالاتهامات.

وأثبتت التجربة العراقية أن حرب المدن يمكن أن تقصم ظهر أقوى قوة في الأرض، حتى ولو مورست في الأرض المفتوحة المنبسطة التي لا تتوفر فيها الأدغال الكثيفة ولا الجبال الوعرة، إذا توفر لها عنصران أساسيان:

الأول: إرادة القتال لدى المجاهدين المنبعثة من العقيدة الجهادية الإسلامية، أقوى عقيدة قتالية وأسماها وأشرفها.

والثاني: التعاطف الجماهيري المنبعث من أقوى دافع؛ وهو دافع الدفاع عن الدين والوطن والحرمات.

---

(١) Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ١١٣ & ١١٤.

(٢) Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ١١٦.

(٣) Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ١١٧.

لقد وفر الإسلام ولا زال يوفر أقوى دافع جهادي للدفاع عن المبادئ والقيم. والأمة المسلمة إذا اكتشفت نفسها وإمكاناتها وسمو وقوة عقيدتها قادرة -بإذن الله- أن تمرغ أنف أكبر القوى الطاغوتية تغطرساً في التراب.

الفرع الرابع:

المعاني السياسية والنفسية التي أبرزها الصراع بين روسيا والقوقاز المسلم

في ليلة مولد الذئب خرجنا إلى الدنيا .

وفي الصباح عند زئير الأسد سمونا بأسمائنا .

وفي أعشاش النسور أرضعتنا أمهاتنا .

ومنذ طفولتنا علمنا آباؤنا فنون الفروسية،

والتنقل بخفة الطير في جبال بلادنا الوعرة.

لا إله إلا الله.

لهذه الأمة الإسلامية ولهذا الوطن ولدتنا أمهاتنا .

ووقفنا دائماً شجعاناً نلبي نداء الأمة والوطن.

لقد كبرنا أحراراً وبجوارنا الصقور في الجبال.

نتخطى الصعاب والعقبات بكرامة.

لا إله إلا الله.

تنصهر أحجار الجرانيت وتستحيل رصاصًا، قبل أن نفقد نبلنا والكفاح.

تتصدع الأرض وتذوب في الشمس الحارقة قبل أن نظهر للعالم بدون شرفنا .

لا إله إلا الله.

لن نخضع لأحد أبداً .

فإنما هي إحدى الحسنيين نفوز بها؛ الشهادة أو النصر.

ستداوي أخواتنا جراحنا بأغانيهن.

وستحدونا عيون أحبتنا لبطولات القتال.

لا إله إلا الله.

إذا حاولوا تجويعنا سنأكل جذور الأشجار.

وإذا منع عنا الماء سنشرب ندى النبات.

فنحن في ليلة مولد الذئب خرجنا إلى الدنيا .

سنبقى دائماً مطيعين لله ثم الوطن وهذه الأمة.

لا إله إلا الله"[١].

"وهل يحتاج المسلمون لدليل آخر ليثبتوا أن العدوان الروسي جزء من حملة صليبية شيطانية، وأن القتال من أجل إحباط هذه الحملة إنما هو الجهاد بكل تحمله هذه الكلمة

---

[١] النشيد الوطني الشيشاني: الشيشان- إعداد وترتيب أبي محمد الفلسطيني- Scouba diver@hotmail.com، Chechnya- Tombstone of Russian Power: p ٣٥٨ &٣٥٩ .

من معنى؟ إنه هو الجهاد الحقيقي، لأنه ليس فقط جهاداً من أجل تحرير الشيشان، بل هو أيضاً جهاد من أجل الدفاع عن الأمة الإسلامية"[1].

أبرز الجهاد الشيشاني قديماً وحديثاً عدداً من المعاني السامية الهامة التي سأحاول أن أشير لبعضها في إيجاز تحت العناوين التالية:

١- الشيشان كميدان من ميادين الحرب الصليبية على الإسلام.

أ- الدعم الغربي الصليبي لروسيا في صراعها مع القوقاز المسلم.

ب- ازدواجية العالم المسيحي في استخدامه لقضية حقوق الإنسان.

٢- شرف الشعب الشيشاني:

أ- تصور الشيشانيين عن دورهم في خدمة الإسلام وفي خدمة القوقاز المسلم.

(١) فهم الشيشانيين لجهادهم ضد الروس.

(٢) إدخال قانون الشريعة الإسلامية.

(٣) حركة التحرر الوحيدة التي تم لها السيطرة على جمهورية روسية ذاتية الحكم.

ب- الإباء والاعتزاز بالنفس.

ج- العناد المفرط في المقاومة.

***

١- الشيشان كميدان من ميادين الحرب الصليبية على الإسلام

أ- الدعم الغربي الصليبي لروسيا في صراعها مع القوقاز المسلم:

يبين الشيخ زليم خان يندربي ~ أن الغرب اعتبر أن انتصار العالم الإسلامي في الشيشان عام ١٩٩٦م أمر يجب عقوبته عليه، ولذلك أطلق يد روسيا في تدمير الشيشان في الحرب الثانية، فيقول:

"فالمشكلة الرئيسية داخل المعسكر المسيحي؛ أن روسيا ترغب دخول النظام الاستعماري الجديد، بالشروط التي يعرضها الغرب،

....

فإن شوفينية دولة ترى في نفسها قوة عظمى ونظامها الفاشستي العاري يجعل منها شريكاً صعباً للغرب، وفضلاً عن ذلك ولأن نواياها الفعلية دائماً محل شك فإن من الصعب أن تندمج في حركة نحو هدف مشترك، ومع ذلك فإن الغرب ليس في وضع يجعله ينسى ببساطة روسيا.

---

[1] الشهيد -كما نحسبه- الشيخ الرئيس زليم خان يندربي ~- الشيشان- السياسة والواقع ص: ١٠٣.

....

فإذا لم يسترض الغرب روسيا فإن هناك خطراً من روسيا إذا حاولت أن تمشى طريقها كما تشاء، وهذا بدوره يشكل خطراً حقيقياً يتمثل في مواجهة أخرى عديمة الجدوى داخل المعسكر المسيحي مسببة ضعفاً له من الداخل.

لهذا ما هو الثمن الذي يضطر الغرب لدفعه للسماح له بالتصرف في البلقان دون تدخل روسي جاد؟ الإجابة بالطبع هي شيشنيا، فتم السماح لروسيا بأن تطلق يدها فى القوقاز، في المقابل تسمح للغرب بمواصلة أهدافه في البلقان، وهذا يخدم أيضاً غرض عقاب العالم الإسلامي الذي ادعى بان انتصار ١٩٩٦ هو انتصاره، ولقد ارتأت الأيديولوجيات المسيحية على النقيض في هذا الانتصار هزيمة لا تغتفر، ولابد من أن تنعكس ضد العالم الإسلامي،

....

وبمعنى آخر كان لديهم الترخيص بالتصرف كما يحلو لهم دون قيد أو تحفظ في البدء في سحق الشيشان وإنزال الهزيمة بالعالم الإسلامي بوجه عام عند الاحتفال بانتهاء الألفية الثانية للديانة المسيحية"[1].

ويوضح ~ كيف تلاعب الغرب بالقانون الدولي ليفرض سيطرته على العالم الإسلامي عامة والشيشان خاصة، فيقول:

"فعلى سبيل المثال وفق هذا القانون الدولي كل شعب له حق تقرير المصير وحرية الإرادة، بمعنى آخر له الحق في أن ينمو ويتقدم خلال لغته وثقافته الخاصة على أرضه.

ولكن ماذا نجد عملياً؟ هل تمتلك كل الشعوب بالفعل هذا الحق؟ البعض يمتلك ذلك، وكما يلاحظ بالفعل أن الشعب اليهودي يمارس تماماً هذا الحق، رغم أنه ليس على أرضه، وعلاوة على ذلك فقد تم تسهيل قيام الدولة اليهودية تحت رعاية الأمم المتحدة، وتلى انهيار الكتلة الشيوعية منح حق تقرير المصير –دون مانع– لشعوب كرواتيا وماكدونيا وجمهورية التشيك وسلوفاكيا ولا تيفيا ولتوانيا وإستونيا وأكرانيا وبلاروسيا وملدوفا وجورجيا وأرمينيا، وتم حظره ومنعه بشكل خطير عن شعوب أذربيجان وكازاخستان وكرغزستان وأوزباكستان وتركمانستان وشيشنيا، الذين يمكنهم فى أحسن الأحوال فقط ممارسة أشكالاً محدودة من حق تقرير المصير الذاتي، ومن غير الممكن ألا تلاحظ أن المجموعة الأولى تتكون من دول هي بالضرورة مسيحية. بمعنى آخر تاريخها جزء لا يتجزأ من الثقافة

---

[1] الشيشان– السياسة والواقع– الفصل الخامس: المجتمع الدولي والقانون ص: ٤٣ و٤٤.

والقانون المسيحي، بالإضافة أنه عندما حصلت على استقلالها لم تعان من أية معارضة مترتبة على ذلك، أما الدول في المجموعة الثانية -التي لا يمكن عدم ملاحظة أنها جميعاً دول إسلامية- قد تم إجبارها على أن تبقى تحت القانون المبنى أساساً على قيم مسيحية، فهذا هو الإرث الذين أجبروا على حمله من الماضي السوفييتي.

وحتى الآن فإن الشعب الطاجيكي والشيشاني فقط هما اللذان حاولا تحقيق حقهما كاملاً في حق تقرير المصير بشكل كامل وتكوين دولتين إسلاميتين، تتمشيان مع تاريخهما وثقافتهما وطريقة حياتهما، ونتيجة لذلك تعرضت طاجكستان إلى هجوم روسي فوري، نتجت عنه حرب أهلية، كان ضحيته أكثر من مليون من أرواح المسلمين، وأتاح هذا فرض أنظمة سياسية وقانونية خارجية على الشعب الطاجيكي المبعثر المتفرق، وهذه تماماً النتيجة التي تسعى الأمم المتحدة لتحقيقها في أفغانستان(1) وكشمير، وسوف نتجاهل تبريرات ذلك حيث لا توجد حرب قائمة ضد الإرهاب كما يدعى، وعلى النقيض فالأمم المتحدة نفسها وهؤلاء الذين يتحكمون فيها هم ممثلون لأكثر المنظمات الإرهابية خطورة والمرتكبون لأشكال العمل الإرهابي الأكثر خطراً.

وماذا عن الشيشان؟ فكر ملياً في ألوان الفزع الذي يعيش فيه الشيشان في صراعهم من أجل تقرير مصير حقيقي وكامل وفق مبادئ وقواعد السلوك الحقيقية للتاريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية.

....

ومما يجب أن يقال أن روسيا لم تخالف أية قاعدة جديدة بخصوص سلوكها إزاء القانون الدولي، فنحن على ألفة تماما باستعمال الإرهاب والإبادة الجماعية كأدوات حرب، فروسيا لم تفعل أي شيء على خلاف الوسائل التي يستخدمها المجتمع الدولي المزعوم، ربما ذلك جزئيا لأنهم يعرفون أنفسهم بالديمقراطيات الغربية المزعومة، التي تصمت عن جرائم روسيا، وفي نفس الوقت يبحثون عن طرق للحفاظ على علاقات طيبة، ولكي نضع الأمر بشكل الآخر فالغراب لن يخرج أبداً لينتزع عين غراب آخر ولكن ينعق كل منهما للآخر دائماً(2).

---

(1) لاحظ أن هذا الكتاب قد صدر قبل الغزو الأمريكي الصليبي لأفغانستان -بتواطؤ الأمم المتحدة- بأكثر من سنة.

(2) لمزيد من التفصيل حول التصريحات الرسمية الأمريكية، التي تتحدث باقتضاب عن انتهاكات حقوق الإنسان في الشيشان، ولكنها تؤكد أن الشيشان مشكلة داخلية روسية، وتؤكد على وحدة الأراضي الروسية، وأن روسيا شريكة في الحرب على الإرهاب، وأن المجاهدين في الشيشان إرهابيون، راجع:

Bringing Peace to Chechnya? Assessments and Implications p: ١٧- ٢٣.

وإذا ما حاولت شعوب إسلامية أخرى من الجمهوريات السوفيتية السابقة تحقيق حقهم في تقرير المصير بتصميم وعزم وروح -كما بدا ذلك في طاجكستان والشيشان على أثر انهيار الاتحاد السوفيتي- فإنهم سيلقون نفس المصير، فقد تم تدمير البوسنة وكوسفو جزئياً، لأنهما اختاراً تحديد مصالحهما من بين الخيارات التي قدمتها لهم زمرة الدولة المسيحية الاستعمارية من خلال الأمم المتحدة، وقارن هذا مع الهجمات الوحشية، التي لا نهاية لها، والتي تم القيام بها في كشمير وفلسطين، حيث يتم عمل محاولات لتأسيس دول إسلامية مستقلة، وقارن هذا أيضا بالرعب الذي يشن على السكان المسلمين في أفريقيا وأجزاء أخرى في آسيا، وجريمتهم أيضاً أنهم يبحثون عن تحقيق تقرير مصير حقيقي بشروطهم، وبهذه الأمثلة أصبح النموذج واضحاً.

وعندما انحاز المجتمع الدولي أثناء حرب ١٩٩٤- ١٩٩٦ للشيشان كان لا يدري بالمبادئ، التي سوف يستخدمها الشيشان في بناء دولتهم، وكان لدى قادة الدول المسيحية الاستعمارية الأمل في أنهم سينجحون في فرض أيديولوجيتهم وقيمهم وطرق حياتهم على الشيشان، وأنهم سيكونون قادرين على إدخال الشيشان في حظيرة الأمم الديمقراطية المزعومة، وبإيجاز كان لديهم الأمل على الوصول فى حالة الشيشان إلى ما قد وصلوا إليه حتى اليوم مع معظم الشعوب الإسلامية في الاتحاد السوفيتي السابق، ومع ذلك برهن الشيشان على أنهم مصرون على نضالهم غير متراجعين عنه، فقد اختاروا المضي في طريق الشعب المسلم الحقيقي، الذي يكرس جهده لإحياء الأمة أي المجتمع الديني الإسلامي، كي يحتلوا مكانهم مع المسلمين الآخرين في أمة إسلامية واحدة، ولهذا رفضوا خيار البقاء مجرد سكان يعتنقون العقيدة الإسلامية، وناضلوا لصالح اتباع طريق الإسلام القويم، وأحد نتائج هذا النضال على الطريق الإسلامي القويم أنهم أيضا كرسوا حياتهم لقضية الحرية لإخوتهم المسلمين، الذين يعانون من الظلم في أجزاء اخرى من العالم، وفضلا عن ذلك قد تحدثوا بوضوح عن ضرورة إحياء الخلافة الإسلامية، كى تكون فى العالم مرة أخرى قوة تتصرف وفق القوانين التى وضعها الله سبحانه وتعالى.

ويدفع الشيشان اليوم مقابل سمو هذه المثاليات والطموحات إضافة لإصرارهم على تنفيذها، ولكن الأهداف التي يناضلون من أجلها مازالت جديرة بالمزيد من التضحيات، وسنكون قادرين فقط على انتزاع الحرية العالمية من حكم الأصنام المزيفة عندما يدرك العالم الطبيعة الحقيقية للنضال ويتبع نموذج الشعب الشيشاني في النضال.

راجع أيضاً: الهيمنة أم البقاء ص: ٢٥٧.

ومع ذلك وكما بينا من قبل عند إشارتنا للدولة الإسرائيلية أنه يوجد هناك وسائل بديلة للحصول على حق تقرير المصير شريطة ألا تكون مسلماً، ويجادل مهندسو ومؤيدو الديمقراطية بالطبع في أن ظروفاً وشروطاً خاصة قد جعلت تكوين دولة إسرائيل ممكناً، ومع ذلك يوجد مثال حديث على تكوين الدولة فلقد رأينا مؤخراً انفصال تيمور الشرقية عن إندونيسيا، وهو انفصال تم على أسس دينية، ففي حالة تيمور الشرقية استخدم المجتمع الدولي القوة والتهديد بالقوة العسكرية ليفصل جزءاً مسيحياً صغيراً من سكان دولة عن الجزء الأكبر المسلم، أعلنوها عندئذ دولة وبهذا العمل حققت زمرة الدول المسيحية الدولية الحاكمة عددًا من الأهداف: فقد قسمت هذه الزمرة دولة إسلامية، وبهذا أضعفتها، وجعلت السكان المسيحيين تحت حمايتها المباشرة، ولتظهر على الدول الإسلامية الأخرى نتائج عدم الانقياد والانصياع للأوامر، وإضافة لذلك هناك فائدة إضافية وهى أن ذلك قد يشجع أصحاب الديانات الأخرى ليتحولوا عن دينهم للمسيحية بسبب الفوائد الجمة لذلك.

....

فكيف يمكن للإنسان أن يفسر بشكل آخر الحروب الروسية في شيشنيا التي استمرت لقرون، فيشمل الصراع شعبين بديانتين وحضارتين ولغتين وعادات معيشية مختلفة تماماً، ويعيشان في أراضي منفصلة تماماً، ومع ذلك يتم وصف الصراع بأنه شأن روسي داخلي، وفى نفس الوقت في تيمور الشرقية فإن انفصال عدد صغير من السكان المسيحيين، يشتركون بشكل كبير في اللغة والثقافة والعادات مع الأغلبية المسلمة، ويتم تصوير هذا كشأن يتطلب التدخل بل التورط الدولي، وقد نتساءل بالطبع لماذا تعتبر مسألة تيمور الشرقية موضوع اهتمام دولي بينما مسألة الشيشان لا تعتبر كذلك؟ وحتى السؤال سوف يكون سؤالاً متكلفاً تماماً.

دعنا ننظر للمسألة التي نناقشها من منظور أوسع وذلك بالنظر بشكل أكثر عمومية للعلاقة بين المجتمع الدولي المزعوم والدول الإسلامية، فلقد نظرنا بإيجاز لمثال إندونيسيا في علاقاتها بتيمور الشرقية، وسوف تعرف بعض الأمثلة الأخرى طبيعة العلاقة بين المجتمع الدولي والدول الإسلامية تعريفاً أوضح، فالحرب الأهلية في السودان مثل إندونيسيا مثال لتمزيق الدولة على أسس دينية يؤيدها المجتمع الدولي، وفي الجزائر وصل الإسلاميون للسلطة بالشكل الشرعي من خلال الانتخابات، ولكن تم منعهم من ممارسة السلطة، وتولى نظام حكم ضد الإرهاب الإسلامي منذ ذلك الوقت!! وفي إيران وصل الإسلاميون للسلطة، ومارسوها، وخلقوا جمهورية إيران الإسلامية، ولكن تم وصمهم بأنهم أعداء

للمجتمع الدولي المزعوم من اللحظة التي وصلت فيها الثورة الإسلامية لهدفها المباشر، وفي أفغانستان تحكم حكومة طالبان ٩٥% من أراضي الدولة، وحققت السلام والاستقرار خلال هذه المنطقة على نقيض الحكومة السابقة، التي كانت غير قادرة على التحكم في الجريمة وحل الصراعات الداخلية، ومع ذلك لازالت حكومة طالبان تنتظر الاعتراف من المجتمع الدولي، لأنها بوضوح باشرت برنامج بناء الدولة وفق المبادئ الإسلامية.

ويمكننا أن نذكر أمثلة أكثر على هذا، ولكن ما ذكرناه قد أوضح الأمر بدرجة كافية، فعندما تحاول الشعوب الإسلامية والدول الإسلامية وضع برنامجها كشعوب ودول تجد نفسها خاضعة للتمييز والعداوة والعدوان في صلتها بزمرة الأمم المسيحية الاستعمارية، التي تترأس المجتمع الدولي المزعوم، فهذه هي الكيفية التي تبدو عليها الأمور بالفعل فيما يتعلق بحق الشعوب في تقرير المصير، فالشعوب الإسلامية التي تعيش في ظل نير وظلم روسيا الاستعماري، لا تتوقع مهما كان الأمر كسب تأييد المجتمع الدولي المزعوم أو هيئاته المختلفة لقضيتهم، وبالطبع فإن مسألة التخلص من الاستعمار موجودة في جدول أعمال الأمم المتحدة منذ عقود، ومع ذلك يجب ألا نتوقع تطبيق المبادئ من تلك الزمرة بشكل نزيه، فإزالة الاستعمار يحددها الانتساب الديني والدرجة التي تنحاز بها أمة ما إلى المبادئ الأساسية التي تتضمنها تلك الديمقراطية المزعومة، بمعنى آخر؛ إن إزالة الاستعمار يعتمد على درجة الولاء التي تظهره أمة ما تجاه النظام العالمي القائم.

وواضح في حالة الشعوب التي تعتنق المسيحية أن الأمم المتحدة تتحرك لتحقيق التخلص الكامل من الاستعمار، ولكن في حالة الشعوب التي تعتنق ديانات أخرى - خاصة الإسلام- تتحرك الأمم المتحدة لوضع شروط ملائمة لخلق وإقامة شكل آخر من الأشكال المنوعة للتحكم الاستعماري الجديد.

ويمكننا وضع هذا ببساطة فالشعوب غير المسيحية يتم التمييز ضدها، ويتم تقويض حقوقها بكل الوسائل التي تعتبر ملائمة من وجهة نظر الزمرة المسيحية الحاكمة، والوسائل التي يغلب كثيراً استخدامها لإنكار الحق في تقرير المصير هو وضع هذه الدول في مواجهة الحقوق الفردية أو في مواجهة مبدأ الحفاظ على سلامة الدولة وعدم تجزئتها.

ولقد تم إدخال مبدأ سلامة أراضي الدولة ووحدتها في القانون الدولي منذ حوالي ٣٠ سنة مضت، والهدف من ذلك بالتحديد هو تبرير الدعم لتلك الدول التي تعتبر أن عملية التخلص من الاستعمار تهدد مصالحها، ومنذ تلك اللحظة فصاعداً قد تم استعمال هذا المبدأ ضد الشعوب الإسلامية، التي تحاول تخليص نفسها من الحكم الاستعماري.

وتعزز استعمال هذا المبدأ محاولات التفاوض على شيء ما أقل من حق تقرير المصير الكامل والمستقل، فيطلب من الشعوب الخانعة التابعة أن تقبل شكلاً ما للحكم الذاتي والاستقلال تحت رعاية الدولة المستعمرة، وتبقى أراضي الشعوب التابعة في ظل هذه الترتيبات في أحسن الأحوال أراض تابعة للقوة الاستعمارية، وبهذه الطريقة يتم احتفاظ الدول المهيمنة "بوحدة الأراضي وسلامتها".

وتستعمل مثل هذه الآليات القانونية الحرفية مع وسائل أخرى عديدة تعتبر ضرورية لمنع الشعوب غير المسيحية من الوصول إلى الاستقلال الحقيقي، ويكون هذا صحيحاً بشكل خاص، إذا كان هدف تقرير المصير المستقل يمس مصالح الدول المسيحية العظمى أو أهدافها الاستراتيجية.

وعلى أي حال وعلى العكس فإذا كانت المسألة موضوع البحث تهتم بحق شعب ينفصل عن دولة غير مسيحية، فيتم حل الموضوع فوراً، ويستعيد مبدأ حق تقرير المصير أولويته بالطبع في القانون الدولي.

لهذا فإن القانون الدولي المزعوم هو في الحقيقة ليس أكثر من أداة يتم استعمالها، لتخدم مصالح الدول المسيحية المهيمنة، وليحافظ على سيطرتها على الشعوب غير المسيحية في العالم.

وتم وضع بنود القانون الدولي تحديداً لهذه الأغراض، ففي كل مصطلح رئيسي يسمح هذا القانون بتفسيرين أو ثلاثة، ويعتمد ذلك على من هي الدولة أو من هو الشعب الذي يطبق عليها أو عليه هذا القانون، فمصالح بناة الإمبراطورية المسيحية هي العوامل الحاسمة في كل الأحوال وهي التي تحدد أي التفاسير تستخدم، حيث تستعمل زمرة الدول المسيحية التفسير الذي يروق لها.

ويمكن حتى للشعوب التي تدين بديانة واحدة أن تجد نفسها وقد تم التمييز ضدها، إذا دخلت طموحاتها في الصراع مع هذه المصالح، فالموجود هنا ليس القانون الدولي المحايد، بل حالة من عدم القانونية تعمل في ظل غطاء من القوانين، تم وضعها وتشكيلها لخدمة مصالح معينة، هي بالطبع مصالح الزمرة المهيمنة" (١).

ب- ازدواجية العالم المسيحي في استخدامه لقضية حقوق الإنسان:

يقول الشيخ زليم خان يندربي ~ عن هذا التناقض:

(١) الشيشان- السياسة والواقع- المجتمع الدولي والقانون ص: ٤٤ إلى ٤٨.

"لا تتأثر سياسات المجتمع الدولي بشكل كبير بمبادئ الأخلاق العامة أو بآراء الجمعيات تجاه انتهاكات حقوق الإنسان وغيرها من الانتهاكات، وإن نظرة إلى تاريخ تدخل المجتمع الدولي في حالات الانتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان أو ارتكاب جرائم الإبادة الجماعية تظهر عدم إمكانية اتخاذ إجراءات ذات مغزى ما لم يكن تدخل المجتمع الدولي مطابقاً للأهداف السياسية، ومن ثم فلا غرابة من عدم اتخاذ إجراءات ذات فعالية إزاء تعرض شعب مسلم لانتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان أو حتى إذا تعرض هذا الشعب لمذابح صارخة، فإذا انخرط شعب من الشعوب في صفوف المقاومة والكفاح لبناء دولة إسلامية فلابد أن يتوقع هذا الشعب مواجهة تواطؤ ما يسمى مجتمع الدول الديمقراطية من أجل تدمير هذا الشعب والقضاء عليه" (١).

٢- شرف الشعب الشيشاني.

للشعب الشيشاني المسلم ميزات شريفة امتاز بها، ولا يعني هذا أن الشيشانيين ليس فيهم خونة ولا مرتدين ولا فجرة، ولكن هناك سمات عامة عزيزة وشريفة مكنت هذا الشعب من أن يصمد للعدوان الروسي عبر أربعة قرون، دون أن يعلن استسلامه، أو يكف عن المقاومة، وسأحاول هنا أن أتعرض لبعض من هذه السمات الكريمة.

أ- تصور الشيشانيين عن دورهم في خدمة الإسلام وفي خدمة القوقاز المسلم:

(١) فهم الشيشانيين لجهادهم ضد الروس:

لا يتصور الشيشانيون أنفسهم إلا جزءاً من الأمة المسلمة، يقاتلون معها نفس المعركة ضد الحملة الصليبية، ويسعون لإحياء الخلافة الإسلامية.

يقول الشيخ زليم خان يندربي ~:

" إن الروس عندما تعهدوا بالقضاء على الشيشان حظوا بتأييد ما يطلق عليه مسمى المجتمع الدولي، ومن ثم يمكن أن نرى أن المجاهدين الشيشانيين لا يقفون في مواجهة الروس وحدهم، بل في وجه تحالف أشمل ضد الإسلام، حيث قرروا جميعاً سحق دولة الشيشان، ولكن آمالهم ضاعت أدراج الرياح، ذلك لأن شعب الشيشان قرر في وضوح أنه لن يرضخ أبداً لتدبيرهم" (٢).

ويقول أيضاً ~:

---

(١) الشيشان- السياسة والواقع- الفصل السادس: الديقراطية والمسيحية ص: ٥٩.

(٢) الشيشان- السياسة والواقع- الفصل التاسع: الجهاد في الشيشان ص: ١٠٢.

"الجهاد هو الشكل الوحيد للحياة القويمة للبشر، إن كانوا لا يرغبون في فقد أمل العودة إلى فردوس الله، وهو السبيل الوحيد للحفاظ على عقيدة الفرد والأسرة والشعب، وأنه السبيل الوحيد لتحرير الفرد والشعب والأمة الإسلامية.

إن الصراع بين روسيا وشعب الشيشان لا يمكن تسويته إلا بالجهاد الذي يأخذ شكل الحرب، لأن الروس هم الذين اختاروا الحرب كطريقة للتعامل معنا" [١].

ويقول أيضاً ~:

"وهل يحتاج المسلمون لدليل آخر ليثبتوا أن العدوان الروسي جزء من حملة صليبية شيطانية، وأن القتال من أجل إحباط هذه الحملة إنما هو الجهاد بكل تحمله هذه الكلمة من معنى؟ إنه هو الجهاد الحقيقي، لأنه ليس فقط جهاداً من أجل تحرير الشيشان، بل هو أيضاً جهاد من أجل الدفاع عن الأمة الإسلامية" [٢].

ويقول أيضاً ~:

"وبالنسبة للسؤال المتعلق بكيفية فهم كلمة الجهاد في القوقاز وفي العالم الإسلامي، يمكن القول بأن الجهاد تم فهمه على أنه جهاد كل المسلمين، وأن الجهاد في الشيشان ينظر إليه على أنه جزء من الجهاد الإسلامي العظيم، الذي يرجع تاريخه إلى الخلفاء الراشدين، وأن هذا الجهاد يهدف إلى إحياء الوحدة الإسلامية، ومن ثم فهو الأداة والوسيلة التي ستتحرر بها الأمة الإسلامية بل والعالم من أغلال وحبائل الشيطان.

والدليل على اهتمام باقي دول العالم بالجهاد في الشيشان هو مشاركة العديد من المسلمين فيه من كافة أنحاء العالم. فلقد استشهد أكثر من مائة من المسلمين من دول مختلفة في الحرب الأخيرة وخلال هذه الحرب، ولا يزال رفاقهم يقاتلون من إيمان واعتقاد فيما أمرهم به الله في القرآن الكريم، ومن هؤلاء المجاهدين من أعرفهم، وهم حكيم اليمنى وأبو طلحة المكي وأبو مصعب الطابوقي[٣] وعبد الصبور المصري وأبو أنصور[٤] الجنوبي، وعبد الرحمن الكويتي وأبو ثابت الجيشي، وهناك غيرهم الكثير ممن جاءوا من أكثر من مائة دولة مختلفة للانضمام إلى صفوف القتال " [٥].

---

[١] الشيشان- السياسة والواقع- الفصل التاسع: الجهاد في الشيشان ص: ١٠٠.

[٢] الشيشان- السياسة والواقع- الفصل التاسع: الجهاد في الشيشان ص: ١٠٣. لاحظ أن هذا الكتاب قد صدر قبل الغزو الأمريكي الصليبي لأفغانستان وقبل إعلان بوش لحملته الصليبية بأكثر من سنة.

[٣] لعله التبوكي.

[٤] لعله منصور.

[٥] الشيشان- السياسة والواقع- الفصل التاسع: الجهاد في الشيشان ص: ١٠٧ و١٠٨.

أما عن مشاركة الشيشانيين في نصرة إخوانهم الداغستانيين فيقول ~:

"وننتقل إلى مسألة داغستان ومشاركة الشيشان فيها، فداغستان دولة مسلمة وهي أيضاً جزء من إمامة شامل، واحتلتها روسيا، ومن ثم فإنه مما يشكل مسئوليتنا المباشرة أن نشارك في الجهاد ضد المحتل باسم الله وباسم استعادة العدالة.

والشعب في داغستان يعرف جيداً أن أحداً لم يهاجمهم، حيث كانت أعمال الجهاد توجه فقط ضد الغزاة الروس، الذين راحوا يتذرعون بحجة أنهم يقاتلون الإسلاميين في داغستان، ليرتكبوا من الجرائم ما لا يمكن إقراره أو السكوت عليه.

وزيادة على ذلك فإنه بالإضافة إلى داغستان والشيشان فإن منطقة القوقاز ككل جزء لا يتجزأ من دولة الخلافة الإسلامية، وبناء على ذلك فإن الجهاد اليوم -من أجل تحرير الدول من احتلال الملحدين- إنما هو واجب كل مسلم، وكل واحد منا عليه أن يؤدي واجبه باسم الله رب العالمين" [١].

(٢) إدخال قانون الشريعة الإسلامية:

يقول الشيخ زليم خان يندربي ~:

"ففي ١٩٩١ -كنتيجة لنضال شعب الشيشان من أجل التحرير الوطني- تم إقامة وتأسيس جمهورية أشكيرية، وبعد نهاية الحرب مع روسيا -التي استمرت عامين من ١٩٩٤- ١٩٩٦- تم إعلان الشيشان رسمياً جمهورية إسلامية، وتم إدخال قانون الشريعة الإسلامية في جمهورية أشكيرية الشيشانية وذلك بقرار رئاسي في ٨ من يوليو سنة ١٩٩٦، وهذا القانون أكد أيضاً تنفيذ قانون الشريعة الجنائي الذي سرى مفعوله في ١٢ من سبتمبر من نفس السنة، وهذا بالطبع قد ألغى كل القوانين الجنائية والمدنية، التي لا تتمشى مع القوانين الشرعية، وأيضاً صدرت قرارات رئاسية تالية تجعل حكومة الدولة خاضعة لمعايير القوانين الشرعية، وبحلول ديسمبر ١٩٩٦ تم التحول الكامل لكل النظام القضائي" [٢].

(٣) حركة التحرر الوحيدة التي تم لها السيطرة على جمهورية روسية ذاتية الحكم:

من ميزات الشيشانيين أنهم الأمة الوحيدة في داخل روسيا الاتحادية التي تم لها السيطرة على جمهورية روسية ذاتية الحكم، وإعلان استقلالها، والقتال من أجل ذلك حتى اليوم.

وهنا يطرأ السؤال لماذا الشيشانيون وحدهم الذين قاوموا بهذه الحدة والقوة؟

---

[١] الشيشان- السياسة والواقع- الفصل التاسع: الجهاد في الشيشان ص: ١٠٩.

[٢] الشيشان- السياسة والواقع ص: ١٤ و١٥.

لا شك أن هذا شرف للشعب الشيشاني العزيز، ولكن هذا الصمود له مبرراته من طبيعة الشعب الشيشاني وتاريخه وفهمه للإسلام، وعن هذا يقول الشيخ الرئيس زليم خان يندربي ~:

"ومن الأمور الملفتة للنظر أن الشيشان بالنسبة لمنطقة القوقاز ككل هم الذين يقاتلون من أجل تحرير أنفسهم، لذا لابد لنا أن نتساءل عن السبب في ذلك وعن التأييد الذي يحظى به الشيشان في المنطقة.

....

الناس مختلفون في مشاربهم، ويستجيبون بصور مختلفة إزاء الأحداث التي تحدث في العالم.

ومع ذلك كان للحربين الأخيرتين بين الشيشان والروس أثر عميق بالمعنى الشامل على إدراك الناس للحقيقة، ورغم وجود كثير من الأمور لا تزال في حاجة إلى التوضيح، فقد أصبح من الواضح لكثير من الناس أن الحقائق الجديدة بزغت وترسخت في العالم، كما أصبح من الواضح أن هذه الحقائق لا يمكن تجاهلها.

وهذه الحقائق الجديدة تركز بصفة أساسية على إحياء الجهاد، فالجهاد هو الكفاح على الطريق الذي رسمه لنا الله لإعلاء كلمة الله، إنه هو الكفاح لتحرير كلمات الله من الأفكار الخاطئة والأكاذيب والتحريف. الجهاد هو معركة تحرير شعب من براثن القمع وقوى الشر أياً كانت صورها، إنه الكفاح ضد انتهاكات المبادئ الأخلاقية للبشر، الجهاد سلاح مشهر في وجه من يعارضون الإسلام، وفي الشيشان يتجلى في أبهى صورة في شكل حرب ضد الكافرين.

وهذه الحرب يدخلها الشيشان دفاعاً عن العقيدة وعن الحق ليعيشوا في كنف شريعة الإسلام التي أنزلها الله، لتكون وحدها هي الناموس الإلهي الشامل والعادل لكافة البشر على وجه الأرض.

....

وبمعنى آخر يمكن القول بأن الحرب فرضت علينا، وبأن هذه الحرب يمكن بشتى الطرق اعتبارها استمراراً لحرب فرضت علينا على مدى ٤٥٠ سنة مضت مع فترات توقف مؤقتة. وفضلاً عن ذلك فإن هذه الحرب ستستمر، حتى يحرر شعب الشيشان المسلم نفسه، ويشرع في مباشرة أسباب الحياة وفقاً لأحكام شرع الله.

وإذا استسلمنا وتخلينا عن عقيدتنا فستكون عقوبتنا على ذلك عقوبة سرمدية، فضلاً عن أن إذعاننا لن يكون مقابل تخلي أعداء الله عن الضعف والامتثال للناموس الإلهي،

ومن ثم فإننا في وضع لا خيار فيه ولا مناص منه، وهذا على وجه الدقة هو مفهوم الجهاد لدى المجاهدين الذين ينخرطون في صفوف الجهاد في شيشنيا.

وقد توصل المجاهدون الشيشانيون إلى هذا المفهوم للجهاد من واقع خبرتهم بالحياة وحقائقها. فلقد شاهدوا وعايشوا الجرائم التي ارتكبت ضد شعبهم، وفي حق الله، وكان من شأن ذلك أن تفهموا الوضع الحقيقي للعالم والآثار التي تترتب على التخلي عن الإيمان بالله.

والجهاد في الشيشان ليس أمراً جديداً بل هو مرحلة من مراحل الجهاد، الذي يرجع تاريخه إلى معركة بدر تحت قيادة النبي محمد، أو ربما إلى أبعد من ذلك حيث معركة النبي داود مع جالوت، إن القتال من أجل الشيشان صفحة أخرى من صفحات تاريخ الجهاد الأبدي من أجل تحقيق العدالة الحقيقية باسم الله" [(١)].

بهذا الفهم الراقي للإسلام والجهاد –الذي يؤكده ذلك القائد الفذ زليم خان يندربي ~ نيابة عن شعبه– تمكن الشيشانيون –حتى اليوم– من التصدي للحملات الروسية الصليبي منها والشيوعي، ورفع راية العزة عالياً فوق قمم القوقاز المسلم. بل وتمكنوا من نشر روح العزة –التي تموج بها نفوسهم– بين الشباب المسلم في أنحاء العالم الإسلامي.

إلا أن هناك عاملاً خطيراً آخر؛ ألا وهو توفر قيادة للشعب الشيشاني على درجة عالية من الصمود والإصرار والتصميم، والاعتزاز بدينها وتاريخها وشعبها. والناظر لقيادات الشعب الشيشاني –في الفترة التي نتناولها– يرى رجالاً من أمثال جوهر دوداييف وزليم خان يندربي وأصلان مسخادوف وشامل باسييف رحمهم الله جميعاً، فقد اصطفاهم الله سبحانه وتعالى جميعاً شهداء. هذه الزمرة من القيادات الراقية كانت سبباً من أهم الأسباب لتصدي الشعب الشيشاني الجهادي البطولي لقوة طاغية باغية ليس بينها وبينه أي تناسب في القوة والعدة والعدد.

ويطرأ أيضاً سؤال آخر؛ ألا وهو: هل شاركت المناطق القوقازية المسلمة الأخرى الشيشان في صمودهم الجهادي البطولي؟

هنا يجب أن نفرق بوضوح بين مواقف الشعوب والحكومات. فالشعوب القوقازية الأخرى كانت تحكمها حكومات خاضعة لموسكو. ولم تتوفر لها تلك القيادات الراقية التي أفرزها الشعب الشيشاني. ولذلك نجد فرقاً واضحاً بين المواقف الشعبية والمواقف الرسمية.

وعن هذا التعاطف الشعبي يقول الشيخ الرئيس زليم خان يندربي ~:

---

(١) الشيشان– السياسة والواقع– الفصل التاسع: الجهاد في الشيشان ص: ٩٩ إلى ١٠١.

"وبالنسبة لمشاركة مسلمين آخرين من القوقاز في الحرب، ليس سراً أن نقول أن المسلمين في داغستان ومعهم الكثير من المنطقة يشاركون في الحرب بهمة وبسالة، ففي بداية الحرب كان هناك حوالي ألف من هؤلاء المجاهدين منهم عدد من المسلمين من الاتحاد السوفيتي سابقاً، ومع ذلك تجدر الإشارة إلى أن الأغلبية الساحقة من هؤلاء المقاتلين جاءوا من داغستان، وفي بداية الحرب في صيف عام ١٩٩٩، كان المجاهدون من غير الشيشانيين يمثلون ١٠% من قواتنا المقاتلة، الأمر الذي جعل مساهمتهم في الحرب أمراً له مغزاه، وزيادة على ذلك فإن تواجدهم يعتبر مؤشراً على موقف مسلمي المنطقة إزاء الجهاد بصفة عامة وتجاه الجهاد في الشيشان بصفة خاصة.

وبالنظر إلى ما أوردناه في هذا المقام، يكون من قبيل التزيد في الكلام السؤال عما إذا كانت شعوب القوقاز يتوقون إلى تحقيق حريتهم؟

والحقيقة أن هذا السؤال لا يمكن أن يطرحه إلا من ليس له دراية بالقوقاز، وكل فرد يتفحص تاريخ القوقاز، يعلم أن القوقاز كانت منارة في حقل الجهاد من أجل الحرية وعلى مدى الأجيال، وبناء على ذلك فإن جميع شعوب القوقاز تراقب الجهاد في الشيشان بكل الأمل، وبالطبع ليس من المستغرب أن نجد خونة ومتملقين في كل مكان ممن يعملون فقط من أجل مصالحهم، ولكن يجب ألا يسمح لهؤلاء بتعتيم الصورة الحقيقية" [١].

وأود هنا أن أستطرد للإشارة لموضوع هام، وإن كان قد وقع بعد الفترة الزمنية التي يتناولها هذا المطلب[٢]. وهو لماذا كانت الإمارة الإسلامية في أفغانستان هي الدولة الوحيدة التي اعترفت بجمهورية أشكيرية الشيشانية؟ إجابة على هذا السؤال أورد هنا ما قاله الشيخ الرئيس زليم خان يندربي ~، فقد

---

[١] الشيشان- السياسة والواقع- الفصل التاسع: الجهاد في الشيشان ص: ١٠٧ و١٠٨. ذكر أناتول ليفين أن الشعوب القوقازية المسلمة كانت سلبية في مواقفها من العدوان الروسي على الشيشان في الحرب الأولى، ولم تتعد هذه المواقف التظاهرات، ومشاركة بعض عشرات من الداغستانيين من أصول شيشانية، وبعض عشرات من العرب، منهم خطاب ~، وأنه صادف مرة أربعة من العرب، وهذا كل ما في الأمر!! ثم أسهب بتطويل واضح في شرح أسباب هذه السلبية، مرجعاً إياها للفروق العديدة بين الشيشاشنيين والشعوب القوقازية الأخرى.

[Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ٨٤& ٩٧& ٩٨& ١٠١].

وواضح أن شهادته غير واقعية ولا صحيحة، ولا ترقى للصمود أمام شهادة رجل الأحداث ومعاصرها الشيخ الرئيس زليم خان يندربي ~، الذي أطمئن لشهادته، لصدقه كمسلم عدل ولمعايشته للأحداث عن قرب ولأنه من نفس القوم والبلاد، ولأن الأحداث تطابقها. بل إن شهادة أناتول ليفين تناقض أيضاً شهادة العديد من أنصار الجهاد من العرب وغيرهم، الذين وثقوا وسجلوا مشاركة المئات من أنصار الجهاد للشيشانيين في جهادهم. وأنا بنفسي شاهد عيان -أثناء وجودي في داغستان- على مشاركة أعداد كبيرة من الداغستانيين في القتال في الحرب الأولى وفي الدعم الإداري أثناء الحرب وبعدها.

[٢] المطلب الأول: تأملات في أحوال القوقاز المسلم.

كان –بالإضافة لمنصبه القيادي الرفيع في جمهورية أشكيرية الشيشانية– رئيس الوفد الشيشاني الذي وقع الاتفاقية في قندهار.

يقول الشيخ الرئيس زليم خان يندربي ~:

"واعتراف أفغانستان بالجمهورية الشيشانية في أشكيرية قد سبب انزعاجاً كبيراً في الغرب، وإن تصرفات روسيا والقوى الغربية المماثلة بالنسبة لإعادة تأسيس علاقات رسمية وودية بين دولتين إسلاميتين مبني على المصالح المشتركة والفهم وهذا فقط يعطي التأييد للفرض هنا بأن الدول المسيحية تشترك في استراتيجية مشتركة بخصوص استقلال الشيشان، فحقاً إنها تؤيد وجهة نظرنا القائلة أنها أي القوى الغربية وروسيا تشتركان في استراتيجية واحدة تجاه العالم الإسلامي بوجه عام، ويمكننا رؤية هذا في العداوة المباشرة التي تظهر تجاه أي علاقة للوحدة الإسلامية في قضية مشتركة، فالتحالفات الحكومية في معارضة الغرب وآلياته، وهو ما حدث نتيجة للمعاهدة بين الشيشان والأفغان وسوف تجلب استجابات خشنة سريعة، وبمجرد أن كونت جمهورية الشيشان وأفغانستان تحالفهما تم اتخاذ الإجراءات ضد هذا التحالف وضد أي شخص يفكر في التصرف بنفس الأسلوب، وأوضحت واشنطون أن أي دولة تعترف بالجمهورية الشيشانية سوف تتعرض لاستيائها، إضافة لذلك فقد تم إرسال وفود من الولايات المتحدة نفسها والناتو والأمم المتحدة إلى الدول الإسلامية لتوضيح أن الحركة الأفغانية غير مقبولة، ولا يجب أن تعامل على أنها قدوة سابقة.

فالمثال المذكور عاليه مثال يوضح بشكل إضافي الطريقة التي تعمل بها الدول المسيحية الاستعمارية الجديدة التي تقود العالم، فهي باستمرار تسعى إلى اعتراض طريق وإضعاف أي شخص يحكمون عليه بأنه خصم لهم ذو مقدرة، وكما رأينا أن القانون الدولي المزعوم قد تم وضعه عن قصد ليكون في خدمة هذا النهج، فوظيفته هي تقديم شرعية باطلة وتبرير مزيف لكل ما يرغب الأقوياء عمله لصالحهم فقط، فالهدف المطلق المنشود هو تأسيس نظام عالمي يخدم هذه المصالح دون اعتراض، وهذا النظام بالطبع سيكون على حساب الأغلبية العظمى من الذين يسكنون هذا الكوكب بما في ذلك هؤلاء الذين أخضعوا أنفسهم وأذعنوا لمبادئ الديمقراطية الغربية المزعومة وسوف يزداد انقسام العالم إلى معسكرين مسيحي وغير مسيحي كلما تقدمت هذه العملية" [(١)].

ب– الإباء والاعتزاز بالنفس:

---

(١) الشيشان– السياسة والواقع– الفصل الخامس: المجتمع الدولي والقانون ص: ٥٦ و٥٧.

من الميزات المعروفة للشعب الشيشاني عزته واعتداده الشديد بالنفس، ومن الأمثلة على ذلك موقف الرئيس زليم خان يندربي ~ المشهور مع الرئيس الروسي بوريس يلتسين أثناء التفاوض معه في مايو ١٩٩٦ في موسكو، إذ عندما حضر الوفد الشيشاني أمر يلتسين الشيخ زليم خان بغطرسة أن يجلس إلى جانبه، فرد عليه بحزم أنه كرئيس وفد لدولة مستقلة، فإنه لن يجلس إلا في مواجهته، وإلا فلا داعي للمفاوضات، وبعد دقائق من التردد تراجع يلتسين أمام الإعلام وقبل بشرط زليم خان[١].

ج- العناد المفرط في المقاومة.

وعن هذا العناد يقول أناتول ليفين:

"من السمات البارزة في حروب شاميل، والتي تكررت أيضاً في أيامنا[٢]، ذلك العناد المفرط في المقاومة، وفوق كل شيء، هذه القدرة المدهشة للإفاقة من الهزائم، التي قد تبدو ساحقةً.

....

فمرتان يظن الروس أنهم قد حازوا النصر النهائي: في ١٨٣٢ قتل ملا غازي، لما انقض الروس على جيمري في داغستان، ولكن شاميل الذي نجا بمعجزة رغم جرحه البالغ، كان هو نفسه من نُصِب إماماً في ١٨٣٤، ثم في ١٨٣٩ اقتحم الروس معقله في أخولجو، واكتسحوا العديد من أقرب أتباعه، ولكن شاميل هرب مرة أخرى مجروحاً وعلى ظهره ابنه الأصغر، فقد سُلم الأكبر للروس كرهينة، ومرة أخرى احتشد أتباعه، واستأنفوا القتال"[٣].

وهذا المثال ما هو إلا حدث من سلسلة طويلة من أمثلة شجاعة هذا الإمام ~ الذي أحسب أنه سيظل في قلوب المسلمين -إلى ما شاء الله- رمزاً للثبات والرباط والجهاد -حتى آخر رمق- في سبيل الله.

---

[١] Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ٦٩.

[٢] يقصد في الحرب الشيشانية الروسية ما بين عامي ١٩٩٤م و١٩٩٦م.

[٣] Chechnya- Tombstone of Russian Power p: ٣٠٨.

المطلب الثاني: تأملات في أحوال السجن

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾.

﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

كما ذكرت من قبل فقد قبض علينا في مدينة دربند، وحولنا لقيادة حرس الحدود الروسي في داغستان، حيث فتح لنا ملف اتهام رسمي، وبدأ التحقيق معنا قانونياً، ووجهت لنا تهمة دخول أراضي روسيا الاتحادية بدون تأشيرة.

وكان هذا أول احتكاك لي بالجيش الروسي من داخله، ولشد ما كان ألمي وأنا أرى ضباطاً بأسماء إسلامية، وهم يحققون معنا، فأن ترى الحقيقة بأم عينيك ليس كأن تسمع بها،

وقد أكد لي هذا أن أخطر أعدائنا هم العملاء الداخليين وأعوان الباطل وجنوده، الذين يتسمون بأسمائنا ويتكلمون بألسنتنا، فهم المخلب والناب والقدم الساعية واليد الباطشة، التي يقهرنا بها أعداؤنا، سواء كانوا ضباطاً في الجيش الروسي أو في مباحث أمن الدولة المصرية.

وكنت كثيراً ما أفكر في أحوال الشعوب التي قهرها الروس، وكيف أفسدوا عليها دينها ودنياها وعقائدها ونظامها الاجتماعي، وخرجت بعدها مسخاً مشوهاً، تحن للإسلام، وتنحني تحت ثقل القهر الروسي. وكنت أدرك أن المنطقة برمتها تمر بحالة من الفوضى والبحث عن الذات والمصير والهوية، ولذا كنت -وما زلت- أدرك عظمة الجهاد الشيشاني، الذي بعث الحياة في القوقاز المسلم من وسط كل هذا الركام.

وكان المعتقل بائساً جداً، فقد كان عبارة عن حاوية بضائع حولت لزنزانتين، وكنا شيئاً عجيباً في المعسكر، وكانوا ينظرون إلينا كأعداء، ولكن مع بعض التعاطف وخاصة من الضباط المسلمين، الذين

كانوا حريصين على أن يظهروا أنهم لا يعادون أحداً من أجل دينه، ولكننا في النهاية أعداؤهم. ولم تخل هذه المرحلة من نسمات من الرحمة الإلهية، فقد كان معظم المعتقلين معنا متعاطفين جداً، وكانت قضاياهم معظمها قضايا تهريب بسيطة من سكان المناطق الحدودية. وقد نصحونا نصائح قانونية مفيدة، وحاول بعضهم أن يتوسط بيننا وبين الضابط المسؤول عن قسم التحقيق، لحل قضيتنا بالرشوة، على أساس أن نتنازل له عن المبلغ الذي معنا، وفي المقابل يكتفي بطردنا من البلاد، وأبدينا قبولنا للعرض، ولكن قضيتنا كانت قد تضخمت، وذكرها تلفاز العاصمة في أخباره، وحولت لوزارة الأمن.

وفي تلك الفترة حرصنا على دعوة المعتقلين معنا للصلاة، وتعليمهم بعض قصار السور، واكتشفنا أن الكثيرين منهم مسلمون بالاسم فقط، ولا يحسنون حتى قراءة الفاتحة.

وبدأنا التواصل مع ذلك العالم المجهول الذي لا نعرف لغته ولا عاداته وعملياً لا شيء عنه. وفيما عدا تعاطف المعتقلين كنا مع إدارة المعسكر -كما قال طارق بن زياد ~ لجنوده- "كالأيتام في مأدبة اللئام".

واكتشفنا أن سلعاً كثيرة معروضة للبيع، فقد كان الجنود الروس يسألوننا: هل معكم دولارات، هل تريدون خمراً؟ هل تريدون سجائر؟ التي كانوا يبيعونها بكثرة لغيرنا من المعتقلين، وفي مرة أصيب أحدنا بمغص حاد، فجاءنا الطبيب الضابط ومعه جندي ممرض، وأعطى المريض حقنة، وفي أثناء ذلك انشغل المعتقلون بشراء المسكنات والمهدئات من الممرض بمنتهى البساطة.

المهم حولنا للعاصمة محج قلعة، وأدخلنا السجن المركزي، وعوملنا كمعتقلين عاديين، وكان هذا -رغم البؤس الذي كنا فيه- يسعدني ويطمئنني، فقد كنت سعيداً بأن القضية تتطور جنائياً بالإجراءات العادية -حتى ولو كانت بائسة- بعيداً عن الخط الأمني، وهكذا وجدنا أنفسنا في بحر العالم السفلي لداغستان مع اللصوص والقتلة والمحتالين وما أدراك!

وأدخلنا لقسم المعتقلين الجدد، ويسمى بالروسي (كرنتين)، وهو يقابل (الإيراد) في السجون المصرية. وكانت به عدة زنازين، أدخلونا آخرها، فوجدناها غرفة مستطيلة طولها قرابة عشرة أمتار، وعرضها خمسة. وفيها على يسار الداخل دكة خشبية ترتفع عن الأرض قرابة متر، وتتكوم تحتها القمامة، وتمرح أسفلها الفئران، وتمتد بطول الغرفة، وعرضها قرابة مترين، وهي السرير الجماعي لنزلائها، الذين كانوا قرابة خمسة عشر نزيلاً، واستقبلونا استقبالاً ودوداً، وزاد إكرامهم لنا لما علموا أننا عرب، ولأن الدكة كانت مملوءة تماماً فقد كان مكاننا في آخرها، وكان مكاناً بئيساً، فقد كنا قرب نافذة الغرفة الضخمة، وكان زجاجها مكسوراً، يقذف علينا بزمهرير الشتاء في ديسمبر في داغستان. ولم يكن معنا إلا شال من الصوف، اتخذناه كلنا فراشاً، وبطانية تعطف بها علينا المساجين اتخذناها غطاءاً.

وكان في ركن الغرفة صنبور وحوض، وبجوارهما خلاء له سور غير كامل ارتفاعه قرابة المتر، وقد أكمل المساجين تغطيته بالخيوط وأكياس البلاستيك، ولم يكن مرحاضاً في الحقيقة، ولكنه كان فتحة في ماسورة

التصريف الممتدة من الدور الأعلى، وكان عليك أن تقفز بسرعة خارج الخلاء إذا سمعت صوت الماء يتدفق من مرحاض الدور الأعلى، وإلا لغرقت في الماء المنصب عليك بكل ما تكره.

وفيما عدا هذه الأحوال فقد كان الجو ودوداً جداً ومرحاً جداً، ولم يتوان المساجين في تقديم ما يستطيعون تقديمه من طعامهم من خبز وشاي وزبد، الذي لا يعرف قيمته إلا من يضطر لتناول طعام السجن في هذا الصقيع.

ولما جاء وقت الصلاة أذنا وأقمنا الصلاة، وبدأنا في دعوة المساجين للصلاة، واستجاب بعضهم، واعتذر الباقين بأعذار مختلفة، ولكنهم كانوا ودودين ومتعاطفين.

واكتشفنا شبكة اتصالات السجن، فقد كان المساجين في كل السجن مرتبطين بعضهم ببعض، وفوراً تم توزيع خبر وصول عرب للسجن.

وفي اليوم التالي أخبرني المساجين بلغة -معظمها بالإشارة- أن في الدور العلوي سجين روسي كان يعمل موظفاً في بنك، ويعرف الإنجليزية، ويمكنني أن أرسل له رسالة أشرح له فيها قصتنا، وبالفعل كتبت له رسالة أننا تجار دخلنا بدون تأشيرة، فجاءتني منه استشارة قانونية ملخصها؛ أن قضيتنا سهلة، ولكن علينا بأمرين الأول أن نتصل بسفارتنا، والثانية ألا نتكلم في قضيتنا مع أحد، فالسجن مليء بعملاء المخابرات.

واستمررنا عدة أيام في هذه الزنزانة الثلاجة، في هذا الجو الودود المتعاطف، وبدأ المساجين يسألوننا أن نكتب لهم أدعية، فنكتبها لهم بالعربية، وهم يكتبونها -كما تنطق- دون أن يعرفوا معناها بالروسية.

قال ابن القيم ~:

"القواطع محن يتبين بها الصادق من الكاذب، فإذا خضتها انقلبت أعواناً لك، توصلك إلى المقصود"[1].

ثم أخرجونا في أحد الأيام، وأخذونا لغرفة في السجن، وصورونا من الأمام والجنب، وأخذوا بصماتنا، ثم أرجعونا، وأسقط في أيدينا، وقلت للإخوة، إننا أجانب، وفي الغالب سيرسلون بصورنا وبصماتنا للبوليس الدولي (الإنتربول)، وسيكتشف أمري، لأن صوري وبصماتي لدى الشرطة الدولية، وقلت لإخواني: علينا بالاستغاثة والدعاء، فقد انقطعت الأسباب، ولم يبق إلا رب الأسباب. ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

وقد كان هذا درساً عملياً لنا في التوكل على الله، وكشفاً لنا عن وهم قوة كلما دونه، فها هي روسيا القوة العظمى، التي يرتعب الناس من مجرد ذكر اسم مخابراتها، التي تزعم أنها تحصي على الخلق أنفاسهم،

---

[1] الفوائد ج: ١ ص: ٤٦.

والتي كم قتلت في الغرب من معاد لها، نمكث في قعر سجنها ستة أشهر، دون أن تدري عنا شيئاً. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

وبعد أيام أخذونا لإدارة السجن ليوزعونا على زنازين السكنى، وسلموا كلاً منا بطانية شفافة من الاهتراء ووسادة ومرتبة نحيفتان وكوب وملعقة، وأخذونا للزنزانة رقم (٧١)، التي لا تغيب عن ذاكراتي، فقد أمضينا فيها بقية أشهر السجن الستة حتى خرجنا برحمة الله وفضله.

ولما فتح الحارس لنا بابها كانت مفاجأة، فقد كانت زنزانة دافئة أرضيتها من الخشب، جيدة الإضاءة، فيها نافذتان واسعتان، وفي وسطها منضدة من الخشب على جانبيها دكتان ضيقتان، مثبتون في الأرض، وفي ركنها صنبور وحوض وخلاء له سور غير كامل ارتفاعه قرابة متر، وأهل الزنزانة ملابسهم نظيفة ووجوههم نظيفة، وواضح أنهم مستقرون وأمورهم مرتبة، وكان طولها قرابة ثمانية أمتار، وعرضها قرابة ستة، وبها حوالي عشرين سجيناً، ينامون على أسرة من دورين أو ثلاثة على جانبي الغرفة.

وفور دخولنا، صحت فيهم مرحاً ملوحاً بيدي: السلام عليكم، وردوا السلام، وفوراً تقدموا وأجلسونا، وفوجئوا بأننا عرب، وبدأوا في إعداد الشاي كعادتهم في استقبال كل سجين جديد.

وعرفنا بعد ذلك السر في نظافة السجناء وملابسهم، فمعظم المساجين يرسل لهم أهلهم بالملابس والأطعمة والصابون، والتي بدونها تصبح الحياة في السجن شاقة، فقد كانوا يقدمون للمساجين خبزاً وشاياً وسكراً ووجبتين ساخنتين واحدة في الصباح وأخرى في الظهر من بقول أو حبوب، لا أعرفها، تصيب البطن بانتفاخ عجيب، وقد يضيفون إليها في الظهر بطاطس مهروسة، يسعد بها المساجين، أو حساء يزعمون أنه لدجاج أو سمك، لا يحتوي منهما إلا على بقايا كبقايا دار أم أوفى التي قال فيها زهير بن أبي سلمة:

دِيَارٌ لها بالرَّقْمَتَينِ كَأَنَّها ... مَرَاجِيْعُ وَشْمٍ في نَواشِرِ مِعْصَمِ

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشرينَ حِجَّةً ... فَلأْيَاً عَرَفْتُ الدّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

فَلَمّا عَرَفْتُ الدّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا: ... أَلاَ انْعِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الرَّبْعُ واسْلَمِ[1]

ولما حان وقت صلاة المغرب، وقف أحدنا في وسط الغرفة، وأذن لصلاة المغرب، وكأنما سرى تيار من الكهرباء -مع صوت الأذان المجلجل- في انتباه سكان الغرفة، ولما هممنا بفرش شيء على الأرض لنصلي عليه سرت حركة غريبة في الغرفة.

وأسرع إلينا بعضهم، وقالوا لنا إن هذه الأرض غير نظيفة، فلا تصلوا عليها، ولكن تعالوا صلوا فوق أسرتنا العلوية، ونحن أيضاً نصلي، وصلينا معهم، وقدموني إماماً، ولم يكونوا يصلون جماعة من قبل.

[1] جمهرة أشعار العرب ص: ١٥٧.

وسرت حركة غريبة في الغرفة، فقد أعاد المساجين الذين صلينا على أسرتهم -وكانوا يعتبرون زعماء الغرفة- ترتيب الغرفة، بحيث جمعوا من يرغبون في صلاة الجماعة كلهم بجانب بعضهم، وأبعدوا الآخرين لأسرة أخرى.

ومن وقتها واظبنا -بفضل الله- على الصلوات الخمس جماعة في الغرفة. وأخذنا في دعوة الذين لا يصلون، حتى كان كل سكان الغرفة -إلا واحداً أو اثنين- يواظبون على الصلاة معنا بفضل الله ومنته، وهكذا فُتِحت لنا قلوبهم بالأذان.

واكتشفنا مدى شوق أهل القوقاز للعودة للإسلام، ومدى قدره في قلوبهم. واكتشفنا أيضاً مدى تقديرهم لصفات الكرم والسماحة والشجاعة والمروءة، ومدى ولعهم بالرياضة وخاصة ألعاب القوة وبالأخص المصارعة.

وكانت مرحلة السجن أيضاً مرحلة تربية على أساليب الدعوة، وخاصة على أساليب دعوة عامة الناس، التي قد لا يمارسها المجاهدون إلا قليلاً، ولكنها عنصر هام وأساسي في حشد الجماهير في أي ميدان للقتال الشعبي الجماهيري.

وقد مرت بي في هذه الزنزانة عدة أحداث طريفة في مجال الدعوة، فأذكر مثلاً أني كنت إمام الغرفة، وفي مرة أتاني رجل يعد زعيم الغرفة، وهو متهم بجريمة قتل، وكان رجل أعمال خارج السجن، وسافر لبلاد عديدة، وأدى فريضة الحج، وكان شديد الذكاء، ويكن لنا احتراماً كبيراً، أتاني ذلك الرجل وسألني: لماذا لا تسبح بعد الصلاة؟ فقلت له: إني أسبح ولكن في سري. قال: ولكن إمام المسجد في قريتنا يسبح جهراً، حتى نسبح وراءه، فعليك أن تسبح جهراً، حتى نسبح وراءك.

ووجدت أنه من العبث أن أشرح له أنها بدعة، لأني أتفاهم معه بصعوبة، ولأنه لن يفهم ما هي البدعة أصلاً، والأخطر أنه قد يتهمني بأني وهابي، وإذا اتهمك أحد بأنك وهابي، فعليك وعلى علاقتك به وعلى كل توجيه يصدر منك السلام، وبلا نقاش، وإذا اتهمت بأني وهابي، فلن أكون إمام الغرفة، ولن تكون هناك صلاة جماعة، وسينفرط هذا الجمع المبارك، ويضيع مجهودنا. فقلت في نفسي اليوم يصلون الفريضة، وغداً يتعلمون السنة، ولا بأس.

فقلت له: خيراً، أسبح جهراً. ثم استمر في أسئلته، فقال: ولماذا لا تقرأ آية الكرسي جهراً؟ فقلت له: إني أقرأها سراً. فقال: لا، بل تقرأها جهراً، كما يفعل إمام مسجدنا، لأننا لا نستطيع قراءتها. فقلت له: خيراً، أقرأها جهراً. فقال: ولماذا لا تدعو بعد الصلاة جهراً؟ فقلت له: إني أدعو سراً. فقال: لا، بل تدعو جهراً، كما يفعل إمام مسجدنا، حتى نؤمن على دعائك. فقلت له: خيراً، أدعو جهراً. فوافقته على كل ما طلب، ونويت بذلك تأليف قلوبهم، وجمعهم على صلاة الجماعة، وكنت أدعو لنصر الإسلام والمجاهدين، وهم يؤمنون خاشعين على ما لا يفهمون، وأتبرك بتأمينهم الخاشع على دعائي، وأرجو أن يكون سبباً لقبوله.

قال ابن القيم ~:

"من فقد أنسه بالله بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف، ومن وجده بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول، ومن فقده بين الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود، ومن وجده في الخلوة وفي الناس فهو المحب الصادق القوى في حاله.

ومن كان فتحه في الخلوة لم يكن مزيده إلا منها، ومن كان فتحه بين الناس ونصحهم وإرشادهم كان مزيده معهم، ومن كان فتحه في وقوفه مع مراد الله -حيث أقامه وفي أي شيء استعمله- كان مزيده في خلوته ومع الناس، فأشرف الأحوال أن لا تختار لنفسك حالة سوى ما يختاره لك، ويقيمك فيه. فكن مع مراده منك، ولا تكن مع مرادك منه"[1].

وأذكر مرة أن أحد المساجين وكان كبيراً في السن، وتهمته أنه -وهو سائق سيارة ركاب- كان طرفاً في حادث سير، أدى لمقتل العديد من الناس، ولا يفقه من الدين إلا ما نشأ عليه.

أقول جاءني ذلك الرجل، وقال لي: إن اليوم هو الذكرى السنوية لوفاة أمي، وأنا قبل السجن كنت كل سنة أذبح قرباناً في ذلك اليوم، وأصنع طعاماً، وأدعو المشايخ ليقرأوا سورة (يس) وينشدوا المولد، وأهدي ثواب هذا لروح أمي، وأنا الآن في السجن، فأرجو منك أن تتكرم علي بأن نجتمع اليوم بعد المغرب، وتقرأ سورة (يس)، وتدعو لأمي.

فتحيرت بماذا أجيبه؟ لو قلت له لن أفعل هذا لأنها بدعة، فلن يتفهم، ولن يتقبل ما أقوله، وسيظن أني متعال عليه ومتكبر، ولا أحترم مشاعره، فلماذا لا أدعو لأمه بالرحمة؟ هذا إن لم يصمني بأني وهابي.

فاهتديت إلى حيلة لدعوته، فقلت له: خيراً بعد صلاة المغرب إن شاء الله. وبعد صلاة المغرب، أخذت في ختام الصلاة، فقال لي: ألا تقول لأهل الغرفة حتى نجتمع؟ فقلت له: اصبر. وبعد أن أنهيت الأذكار وصلاة النفل قلت له: ادع من تحب. فجمع حوالي أربعة من أهل الغرفة، فجلست معهم، وقرأت سورة (يس) وسوراً قصاراً، ودعوت لأمه ولنا وللمسلمين. ولما انتهيت كان في غاية السعادة، وشكرني شكراً جزيلاً، وأخبرني بأني قد أسديت له معروفاً عظيماً، فقلت له: ولكني أريد أن أوضح لك شيئاً هاماً، وهو أن أمك لها عليك حق عظيم، وتخصيصك ليوم في السنة لتدعو لها تقصير منك في حقها، بل عليك أن تدعو لها كل يوم. فأقر طائعاً، فزدته بأن عليك ألا تخصص يوماً في السنة للدعاء لها، فهذا لا يجوز، بل يجب عليك أن تدعو وتستغفر لها كل يوم، فقبل مسروراً راضياً.

وبعد عدة أشهر من مواظبتنا على الأذان وصلاة الجماعة بدأنا نسمع الأذان من زنازين أخر، فتفاءلنا أن هذا قد يكون ببركة إحيائنا لسنة الأذان والجماعة في زنزانتنا، ولكن الأمر زاد عن حده، فبدأنا نسمع من زنزانة في نفس عنبرنا، تبعد بحوالي زنزانة أو زنزانتين منا، أصوات ذكر قوي صادر من

---

[1] الفوائد ج: ١ ص: ٤٣.

حضرة صوفية على طريقة أهل القوقاز. ولما سألنا عن السبب علمنا أن في الزنزانة رجل صوفي يعقد الحضرة دورياً، فحمدنا الله أنه ليس في زنزانتنا، وإلا لما استطعنا مجاراته، ولربما تسبب ذلك في مشاكل.

وكان في السجن نزيل في غاية الذكاء، متهم في جريمة خطف، ولم يكن نزيلاً عادياً، بل كان ذا عقلية قيادية، وكان متعلماً ودرس في كلية طب الأسنان، وأحياناً ينادونه بالدكتور، وكان يبدو أنه زعيم لعصابة، حتى في الزنزانة كانت له مجموعته الخاصة، وكان مصابا بشلل في ساقه، ويتوكأ على عصا، وكان يقول لي بمكر: أنا عاجز وضعيف. فأقول له: إن قوة المرء في قلبه وعقله، وليست في جسده. فينظر لي ويبتسم بمكر، وكنت أقول له: هل تعرف عمر المختار؟ فيجيب: نعم، لقد رأيت فيلماً مترجماً عنه. فقد كان التلفاز يعرض أفلاماً عربية مترجمة للروسية. فأقول له: لقد ظل يقاتل الإيطاليين، حتى بلغ تسعين عاماً عندما قبضوا عليه وشنقوه. ودعوناه مراراً للصلاة، فكان يتعلل ويسوف، ولكنه كان ودوداً مرحاً، وفي مرة جلبنا للزنزانة عدداً من المصاحف ومعها ترجمة للمعاني بالروسية، ولما هرع لينظر فيها، نهره أحدهم، وقال له: ما شأنك بالمصاحف؟ أنت لا تصلي. فشعر بأن كبرياءه قد جرح، وتولى حزيناً، وفي يوم سألته: لماذا لا تقرأ في المصحف المترجم؟ فقال: أنا لا أريد. فسألته: لماذا؟ قال: لأن فلاناً قال: ما شأنك أنت والمصحف؟ فقلت له: إن هذه المصاحف ملك لله، وليست ملكاً لأحد. فسر جداً وقال: حقيقة؟ ليست ملكاً لأحد. قلت: طبعاً. قال: هل آخذ مصحفاً؟ قلت: طبعاً. فأخذه مسروراً. ثم بعد فترة استدعاني، وقال لي أريدك أن تعلمني الحروف العربية، فأجبته، وكنت أجالسه بالساعة والساعتين حتى يكل، وهو يكتب رسمها العربي ونطقها بالروسية، ولما أتممت تعليمه كل الحروف، ظل ليلة بأكملها ساهراً -وكان لا ينام عادة في الليل- يحفظ الحروف العربية.

ولما أتم حفظها، قال لي: تعال، وانظر إلي وأنا أتوضأ. فوقفت معه، فتوضأ وضوءاً صحيحاً، ثم قال لي: أريدك أن تعلمني سورة (يس)، فكنت أجلس معه جلسات عديدة، وهو يردد خلفي حرفاً حرفاً بصعوبة، حتى يكل، فنكتفي، ثم نعاود في يوم آخر، حتى أتم قراءة (يس)، وصار يقرأها وحده، كل هذا وهو لا يصلي معنا، وكنت أقول لعل الله أن يهديه بحبه للقرآن. وفي يوم كان نائماً في الضحى، وجاء ضابط مسؤول عن متابعة قضايا المساجين، فنادى عليه، فقال: قم جاءك الأمر بالإفراج. فرد عليه صاحب القصة: اذهب عني، وكف عن هذا المزاح الثقيل. فقال له الضابط: هل أنت رجل؟ فأجابه: طبعاً رجل. فقال له الضابط: وهل إذا كان ما أقوله صحيحاً فلي عندك جائزة؟ قال: طبعاً. قال فتعال وانظر. هذا أمر الإفراج. فمشى يتوكأ على عصاه لباب الزنزانة، ونظر من فتحتها، وهو لا يكاد يصدق، فقد كان قد تقدم بطلب للإفراج عنه لعجزه الصحي، ومر عليه وقت، ولم يأته رد. فذهبت إليه، وهنأته، وعندما حزم أمتعته، وجاء يودعني، قال لي: أريد منك طلباً، قلت: ماذا؟ قال: أريد أن آخذ هذا المصحف معي، قلت: هو لك. ولم تكن سعادته بأخذه أكثر من سعادتي بإعطائه.

أما عن أحوالنا المعيشية في السجن فكانت في الفترة الأولى صعبة، فلم نكن نملك من ملابس إلا ما نرتديه، وهي الملابس التي ظللنا نلبسها عدة أشهر، ولم يكن لدينا صابون، إلا قطع من الصابون توزعها إدارة السجن لكل نزلاء الغرفة، وكان البرد قارساً، وغطاؤنا قليل، وليس لنا إلا طعام السجن، وكان زملاؤنا في الغرفة يتحفوننا بشيء مما يصل لهم من أهلهم من طعام وأحياناً ملابس، وكان عدد منهم يقاسمنا طعامه، بل إن أحدهم كان يترك ما يأتيه من بيته لنا، لنتصرف فيه كيف نشاء. وبعد هذه الفترة الصعبة بدأت إمدادات الإخوة تصلنا، فوصلتنا الأغطية والملابس الشتوية والأطعمة والأدوية، وكانت هذه بوادر الفرج بفضل الله ونعمته.

ومن الجدير بالذكر أن المجتمع الداغستاني مجتمع متكافل، يربط أفراده روابط الأسرة والعشيرة والقومية، ولذلك يحرص أهالي المساجين على كفالتهم ومعونتهم. وعلى العكس من ذلك كان حال الروس في السجن، فقد كان رافقنا في الزنزانة أربعة من الروس لفترات مختلفة، وكانت حالتهم بائسة، ويعيشون على إعانات زملائهم، وكان أحدهم قد تخطى السبعين، وقد ضعف بصره، ووهنت قوته، وكان متهماً بقتل ابنته، وكنا نعينه مع الآخرين بما يصلنا من طعام. وكان ناقماً على الحكومة الروسية، التي قاتل في جيشها في الحرب العالمية الثانية، ومنحته وساماً، ثم الآن تتركه ضائعاً في شيخوخته.

وداغستان يبلغ تعداد شعبها أكثر من مليونين بقليل، ولكن تنقسم إلى أكثر من ثلاثين قومية، لكل قومية لغتها المستقلة، وأحياناً تتعدد اللهجات داخل القومية الواحدة، وأكثر القوميات هي الأور، وهم قوم الإمام شاميل ~، وهم يفخرون بذلك، وأحياناً ينسبون أنفسهم له، فيقول أحدهم عن نفسه أنه (شاميلسكي) بالروسية أي شاميلي، ويمثلون حوالي ثلاثين بالمائة من سكان داغستان، يليهم الدرجين.

وقد أصبح الإمام شاميل ~ بطلاً قومياً لكل أهل داغستان، بل لكل مسلمي القوقاز، ولكن المعني القومي لبطولة الإمام شاميل ~ يختلط مع المعنى الجهادي، والحكومة الموالية لموسكو تحرص على احترام الإمام شاميل ~ كبطل قومي، قاد ثورة تحرر ضد القياصرة، وهذا انتقاص من قدر الإمام شاميل العظيم ~، فالإمام شاميل ~، هاجر من وطنه داغستان، وقاد الشيشانيين تحت راية الجهاد، وأنشأ إمارة إسلامية لغتها الرسمية هي اللغة العربية، تدافع عن كل القوقاز المسلم، فهو أبعد ما يكون عن المعنى القومي، الذي تسعى حكومة داغستان لحصره فيه، احتواءً للشعور التحرري للداغستانيين بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، حتى أنهم غيروا اسم أكبر شارع في محج قلعه من (كارل ماركس) إلى (الإمام شاميل) ~.

ومن الطرائف التي رأيتها في هذا الشأن؛ أني في مرة استدعيت لوزارة الاستخبارات، ولما أدخلوني المبنى، وضعوني في غرفة صغيرة للانتظار، وكان يبدو أنها غرفة لحارس مناوب، إذ كان فيها سرير صغير، ولما أغلقوا علي الباب، وجدت على الباب من الداخل صورة للإمام شاميل ~، وهو ممتط جواده، وممتشق لسلاحه، فأدركت أن الإمام شاميل ~ لا يزال يقاتل الروس حتى اليوم وفي عمق أقوى حصونهم

وزارة الاستخبارات. رغم أني أثناء التحقيق معنا في الاستخبارات رأيت في أكثر من مكتب صورة للينين، فقلت لعلهم من الضباط الشيوعيين. ولكن الفارق بين الصورتين كان واضحاً، فصورة لينين لا تضر من يضعها، وصورة لينين رمز للعهد البائد المنهزم، أما صورة الإمام شاميل ~، التي أخفاها واضعها خلف الباب، فهي صورة المقاومة المتجددة المنتصرة بإذن الله.

وكنا نلمس الأثر العميق للقومية في الزنزانة، فما أن يدخل سجين جديد حتى ينضم فوراً لأهل قوميته.

والحكومة الروسية تلعب على وتر تفريق القوميات، وعلى وتر قضية الوهابية، فلا تكل الإذاعة الداغستانية عن الترويج عما تزعمه من شنائع الوهابية، وتلصق بهم كل قبيحة، ويردد هذا الكذب علماء الدولة، الذين يستغلون جهل العامة بالإسلام.

ويزعمون أن المجاهدين في الشيشان وأنصارهم من الوهابيين، الذين يعملون كمرتزقة من أجل نشر الإرهاب إلى آخر هذه الأكاذيب.

ومما يساعد على نشر هذه الدعايات سوء تصرف بعض السلفيين، وانشغالهم بمسائل البدع ومحاربة الصوفية، وتركهم للتصدي للاحتلال الروسي لبلادهم، وتركهم للدعوة لتطبيق الشريعة، وعدم انشغالهم بالدعوة وسط الشباب في المدارس والجامعات، وانحصار دعوتهم في أهل مناطقهم، وصراعهم العنيف مع الصوفية، الذي وصل لحد القتال. كما وجدت في بعضهم تهجماً على مذهب الإمام الشافعي ~، حتى أن شاباً متحمساً منهم كان يشير إلى المنكرات التي تحدث في الموالد، ويقول لي هؤلاء هم الشافعية، فنهرته عن ذلك، وقلت له هذا كذب على الشافعية، ومذهب الشافعي من أعظم مذاهب الإسلام، فلم يقبل مني، وقال لي: أنت لا تعرف شيئاً.

ومع انهيار الاتحاد السوفييتي انتشر الانهيار الاجتماعي لكل دوله، ومنها داغستان، فانتشرت فيها تجارة الخمر والجريمة المنظمة وتجارة الفاحشة، وأصبح الناس في صراع بين النهم الاستهلاكي وانهيار الرواتب، فأصبحت الرشوة هي القانون.

وامتدت الرشوة للشرطة والاستخبارات والقضاء، وأصبح لكل قضية ثمن، ومن يدفع تدبر له المخارج، ومن لا يدفع تعقد له القضية، ويطال فيها لسنين عديدة، وربما تلصق به تهم أخرى لمزيد من الضغط عليه أو للنكاية به.

ومن المواقف التي لا أنساها في تلك الزنزانة (٧١) عن القومية؛ أننا لما دخلنا الزنزانة فوجئنا بسجين كردي عراقي فيها، كان شاباً يافعاً في عشرينيات عمره، وقد فرح بقدومنا فرحاً شديداً، فرغم إتقانه للروسية أفضل منا، إلا أنه معنا يتكلم العربية بطلاقة، وكان في الزنزانة بلا دعم إلا ما يساعده به زملاؤه المساجين، فلم يكن يملك إلا ملابسه.

ومن طرائف السجن أن المدخنين في الزنزانة، وكان صاحبنا الكردي منهم، يتكافلون بالسوية في شرب الدخان، فإذا أتى لأحدهم لفافات تبغ، سلمها لقيم يختارونه، فيوزعها بالتساوي على المدخنين الغني منهم والفقير، وذلك أن المدخن قد ينقطع عنه الدخان فترة، فيجد من يمده بالدخان، وهو بالتالي إذا جاءه من أهله دخان سلمه للقيم ليوزعه، وكان صاحبنا الكردي مستفيداً من هذا التكافل.

وصارت بيننا وبين هذا الأخ الكردي مودة وأخوة، وصار كأحدنا، وكنت أعتبره كأخي الأصغر، وانتظم في صلاته معنا، وكلمته عن ترك الدخان، فكان يعدني ويسوف، وكان يفتح لي قلبه، ويحكي لي عن الظروف الصعبة التي مر بها، واضطراره هو وأسرته للهجرة لتركيا هرباً من صدام. واضطراره للمبيت فوق الجليد وأشقاؤه الصغار ينامون على ساقيه، في انتظار فتح الطريق لهم.

وكان سبب سجنه في داغستان؛ أنه كان يحاول أن يدخل لروسيا تهريباً، هو وزميل كردي آخر، لحق بنا في زنزانتنا بعد فترة، لأن للأول أخاً في أوكرانيا، يريد أن يصل إليه، ومن أوكرانيا يتسلل لبولندا أو سلوفاكيا —كما أذكر- حتى يصل متسللاً لألمانيا، فيطلب اللجوء السياسي، ليعيش حياة أفضل.

وكنت أتعجب، كلانا تسلل عبر الحدود، وانتهى به تسللها للسجن، وكلانا يعاني، هو في سبيل الدنيا، ونحن في سبيل الدين، فنسأل الله القبول.

وفي مرة مازحه سجين ثقيل الظل، فناداه: يا صدام. فاغتاظ صاحبنا الكردي غيظاً شديداً، وقال لي: لا بد أن أقتل هذا الخبيث، وسأتربص له. فأخذت أهدأ من ثائرته، وأقول له: إن هذا سفيه، ولعله لا يدرك الفرق بين صدام والأكراد، فكلهم عنده عراقيون، ثم إذا قررت أن تقتل كل من يسفه عليك، فلن تعيش، وستضيع حياتك مع السفهاء، وما زلت أهدأه، حتى سكن، ولما لحق بنا زميله الكردي الآخر، مدحني أمامه، وقال له هذا الرجل منعني من ارتكاب جريمة.

ومرت بنا الأيام ، ونحن في أخوة المحنة، وذات مرة شاده أحد الإخوة العرب على أمر تافه، وكان العربي هو المخطئ، وحاولت أن أصلح بينهما، ولكن العربي تعنت، فغضب أخونا الكردي غضباً شديداً، وترك صلاة الجماعة، وقال لي: لن أصلي صلاة فيها هذا الرجل. وحاولت أن أثنيه عن ذلك، فقال لي: أنتم العرب هكذا أخلاقكم، ألم يصفكم القرآن فقال: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾. فقلت له إن الأعراب هم أهل البوادي، والعرب أعم منهم، كما أن القرآن الكريم بعد آية من تلك الآية قال: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. ولكن غضبه جعله في حالة إغلاق، وظلت أخوتي به مستمرة، ولكنه ظل متأثراً، حتى فارقنا هو وزميله.

وندمت على أن تصرفاً غير مسؤول قد يؤدي لخسارة جهد من الدعوة، وقد يغلق باباً للخير، وخاصة مع الميراث المتراكم من العداوات بين الشعوب المسلمة، التي أثارها الحكام الفاسدون وأعداء الإسلام، فإن الإخوة الأكراد في قلوبهم جراح لم تندمل، مما صنعه بهم البعثيون في العراق، والأحزاب الكردية العلمانية تنكي هذه الجراح، وتصور لهم إن العرب كلهم أشرار، وألا حل إلا بالانفصال عنهم ومعاداتهم، واللجوء لأمريكا ومد العلاقات مع إسرائيل، وكلما حدث خلاف بين كردي وعربي فتحت هذه الجراح من جديد، وكم كنت أتمنى من الإخوة الدعاة من العرب والأكراد أن يؤكدوا لعامة الإخوة الأكراد على معاني الأخوة في الإسلام، وألا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. وأن أمريكا وإسرائيل أعداء الإسلام والمسلمين، وإنما يفترسوننا واحداً تلو الآخر.وفي المقابل فعلى أهل الجهاد والدعوة أن يكونوا بتصرفاتهم وأخلاقهم قدوة في أخوة الإسلام، التي تغسل درن هذا الإرث البغيض.

وفي السجن لمست المكانة العظيمة التي يتمتع بها خطاب ~ وسط مسلمي القوقاز، ومدى رعب أجهزة الأمن منه، حتى حراس السجن كانوا يتكلمون عنه برهبة وتقدير. فكنت أغبط هذا المجاهد العظيم على تلك المكانة الرفيعة، التي حازها بفضل الله، وأسأل نفسي ترى أي ذنب أذنبته ألقى بي في هذا السجن، وحرمني من عزة الجهاد؟ التي يتمتع بها، أسأل الله أن يرحمه رحمة واسعة، ويلحقنا به على خير غير خزايا ولا ندامى ولا مبدلين.

ولم تكن كل أيامنا في السجن كلها سهلة، بل لا بد في السجن من الأذى والتنغيص والمشاكل، والاحتجاج لحد الشجار مع الإدارة، ولله الحمد على كل حال، فمن المؤذيات في ذلك السجن، أنه لا يسمح للمساجين بالخروج إلا لساعة واحدة كل يوم، حتى لا ينتشر السل بين المساجين، في فناء ضيق مخصص لنزلاء الغرفة الواحدة، ذي أسوار عالية، ومسقف بشبكة من الحديد الغليظ، ويفتش حراس السجن الغرف يومياً، ناهيك عن التفتيشات غير الدورية، ويمنع نزلاء أي زنزانة من الاتصال بنزلاء أية زنزانة أخرى، ولكن السجن كله متصل ببعض كما أسلفت، ويمنع النزيل من مغادرة فراشه بعد العاشرة مساء، كما يمنع من الرقاد تحت الغطاء بعد السادسة أو السابعة صباحاً، وإذا خرج النزيل من زنزانته فعليه أن يطأطئ برأسه للأرض، ويشبك يديه خلف ظهره، ويغلق أزرار سترته، ويحرم عليه وضع يديه في جيبيه، ولكن هذه الإجراءات كنا نتجاهلها، وكم من مرة يصرخ فينا حراس السجن، وأحياناً يسبوننا، ونحن نتظاهر بأننا لا نفهم ما يقولونه، ونستمر في رفض تلك الإجراءات، وكان هدفنا هو تحطيم هذه الإجراءات بسياسة الأمر الواقع.

ورغم تلك المضايقات وذل الأسر والتخوف من التسليم فقد أعاننا الله سبحانه وتعالى وأسبغ علينا السكينة وحفظنا، ومن العجيب أني وجدت في السجن كتابين عربيين سليا عني، أحدهما (تنبيه الغافلين) للإمام أبي الليث السمرقندي ~، والآخر كتاب مبسط في النحو على صورة أسئلة وأجوبة من جزئين للشيخ بهاء الدين الداغستاني، وقد قرأته في السجن عدة مرات، وانتفعت به.

أما (تنبيه الغافلين) فكان مع رجل صالح من النزلاء، كان جده لأمه من العلماء، الذين قبض عليهم الشيوعيون، واختفى مع عشرات الألوف من العلماء، الذين اختفوا في عهد الشيوعيين، ولذلك دفعته أمه لطلب العلم الشرعي إحياءً لذكرى جده، فقطع شوطاً في طلب العلم، ثم انشغل بالتجارة، ولذلك كان يفهم العربية، ويتكلمها بصعوبة، وسبب سجنه أنه تورط في خلاف في قريته، أدى به لقتل أحد رجالها، وكان كثير الندم على فعلته، نسأل الله أن يغفر لنا وله وللمسلمين، فقد كان محباً ومكرماً لنا. جزاه الله عنا خير الجزاء.

ومما أعاننا في السجن بعض الرؤى الصالحة، التي ثبتتنا، وأذكر هنا رؤييين. إحداهما رؤيا أولناها بفرج آت إن شاء الله، وكان مما رآه الرائي أن نظارته مكسورة وصورة رجل لا يعرفه، ومرت الأيام، وفي يوم وضع نظارته على سريره، فجاء أحد النزلاء -غافلاً عنها- فجلس عليها، فكسرها، فقلت له هذه هي العلامة الأولى، ومرت أيام، وفتح باب الزنزانة وأدخلوا سجيناً جديداً، فنظر إلي صاحب الرؤيا مندهشاً، وقال لي هذا هو الرجل الذي رأيت صورته في الرؤيا، فقلت له: هذه العلامة الثانية، فأبشر قد اقترب الفرج.

والرؤيا الثانية رؤيا رأيتها، ورأيت فيها من يقول لي: إن الشيخ أسامة بن لادن أمرنا إذا نزل بنا ضيق أن ندعو الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى، فوجدت الرؤيا موافقة لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾. فجمعت أسماء الله الحسنى في ورقة، وجعلت الدعاء بها ورداً لي في كل ليلة، حتى أكرمنا الله بفرجه ونعمته، فله الحمد أولاً وآخراً.

كانت هذه بعض ذكرياتي في هذا السجن العجيب، الذي تركته وقد ربطت بيني وبين معظم من عاشرتهم فيه رابطة المحبة والمودة والأخوة في الإسلام، حتى لقد قال لي أحدهم مرة: إن كل من في هذه الغرفة يحبك. وكنت أتفكر كثيراً في القدر الذي جاء بنا لهذا السجن دون أن نحتسب، ثم أخرجنا منه بلطفه الخفي، وكنت أقول لعلها دورة تربوية في حسن التوكل على الله، وتخلية القلب عن اعتقاد النفع والضر في سواه، وقلت لعلها دورة لنا في التعامل مع البسطاء ودعوتهم لقواعد الإسلام العامة بعيداً عن الجدل الفقهي والعقدي والسياسي، وأن هذه فريضة كلفنا بها، كما كلفنا بالقتال في سبيل الله، وقلت لعل الله أراد أن ينفعنا أو ينفع بنا، أو لعل هناك حكمة أخرى لم ندرك أبعادها، ولم نحط بها، والعجيب أن هذه الدورة تلقيناها في قعر حصن عدو من أعدى أعدائنا.

قال ابن القيم رحمه الله:

"سبق العلم بنبوة موسى وإيمان آسية، فسيق تابوته إلى بيتها، فجاء طفل منفرد عن أم إلى امرأة خالية عن ولد. فيا لله كم في هذه القصة من عبرة؟ كم ذبح فرعون في طلب موسى من ولد؟ ولسان القدر يقول: لا نربيه إلا في حجرك"[1].

وكنت أتفكر كثيراً في أن هذه هي ثاني مرة أقع فيها في الأسر دون توقع مني، ثم أكاد أشرف على الحكم علي بالقتل أو السجن الطويل، ثم أخرج رغم أنف أعدائي، وعلى غير إرادة منهم، فأتعجب من قدر الله معي ونعمته علي، وأتذكر المعاني التي تستشفها قلوب المؤمنين من قول الحق -تبارك وتعالى- لنبيه موسى # ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾. والتي تستشفها من قول الحق تبارك وتعالى:﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

فوض الأمر إليه   واتكل دوماً عليه

لا تعول من سواه   كل أمر بيديه

وبعد الخروج من السجن -بفضل الله ورحمته- بدأت رحلة أخرى صوب أفغانستان للمرة الثانية.

مشيناها خطى كتبت علينا   ومن كتبت عليه خطى مشاها

ومن كانت منيته بأرض   فليس يموت في أرض سواها

---

[1] الفوائد ج: ١ ص: ٤٤.

الباب الرابع

العودة لأفغانستان

الفصل الأول: أفغانستان: عودة لأول مهجر

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾

ففي الأرضِ منأىً للكريمِ عنِ الأذى

وفي الموتِ منأىً عنهُ إنْ لَزِمَ الأمرُ

فما عاشَ منْ عاشَ الحياةَ بذلةٍ

ولو طالَ ذاكَ العيشُ ما بقِيَ الدهرُ

وكمْ مِنْ غريبٍ في بلادٍ غريبةٍ

وفي الملإِ الأعلي لهُ الشأنُ والذكرُ[1]

ما اليومُ أولُ توديعٍ ولا الثاني

البينُ أكثرُ مِن شوقي وأحزاني

دعِ الفراقَ فإنَّ الدهرَ ساعدَهُ

فصارَ أملكَ مِن روحي بجثماني

[1] الأبيات لمولوي محب الله القندهاري من قصيدته (دموع في مآقي الزمن- قصيدة رثاء لشهداء الحرب الصليبية في أفغانستان).

خَليفَةُ الخِضرِ مَن يَربَع عَلى وَطَنٍ في بَلدَةٍ فَظُهورُ العيسِ أَوطاني

بِالشامِ أَهلي وَبَغدادُ الهَوى وَأَنا بِالرَقمَتَينِ وَبِالفُسطاطِ إِخواني

وَما أَظُنُّ النَوى تَرضى بِما صَنَعَت حَتّى تُطَوِّحَ بي أَقصى خُراسانِ

خَلَّفتُ بِالأُفُقِ الغَربِيِّ لي سَكَناً قَد كانَ عَيشي بِهِ حُلواً بِحُلوانِ[1]

بعد الخروج من السجن في داغستان كان أمامنا خياران: الأول الاستمرار في رحلتنا للشيشان، والثاني هو العودة لإخواننا وخاصة في أفغانستان. وتشاورنا في الأمر، أما أحدنا فاختار مواصلة الطريق للشيشان، ومضى لمقصده بسهولة، والتحق بالمجاهدين، حتى أكرمه الله بالشهادة، نسأل الله أن يلحقنا به على خير، وأما بالنسبة للبقية فكان القرار هو العودة للإخوة، خاصة بعد ما وصلنا من أخبار عن أفغانستان والطالبان، فقررنا أن نذهب في رحلة استكشافية لأفغانستان.

وفي هذه الفترة كانت لدينا فكرة عامة عن الطالبان، ولكن الذي جعلني أطمأن لهم؛ أن الدنيا كلها تحاربهم، فكنت أقول لنفسي: إن قوى الكفر لا يمكن أن تجتمع عليهم إلا لأنهم على خير، ولكني كنت أتساءل: حتى لو افترضنا أنهم على خير، فهل سيتحملون الضغط الدولي حينما يطالبهم بطرد ضيوفهم العرب؟ هل سيكررون تجربة السودان السيئة؟ هل سيصمدون؟ أم سينهارون؟ ويكررون تجارب من ادعوا الإسلام، ثم ينحنون ويستسلمون للقوى الكفرية العالمية، وينخرطون في قطيع النظام الدولي، ويتقربون لصنم الشرعية الدولية؟

---

[1] الأبيات لأبي تمام في مدح محمد بن حسان الضبي. [الموسوعة الشعرية- أبو تمام، تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الأول ص: ٢٧٠. وقد أصابني من تلك الأبيات شيئاً، فإن النوى قد طوحت بي فعلاً لأقصى خراسان، كما أن من أحب الأماكن لي في مصر بيت جدي لأمي بحلوان ومكتبته ومسجده.

ولكني كنت أقول لنفسي: على الأقل لن تستطيع قوة أن تصل إلينا في أفغانستان دون قتال، فسلاحنا في أيدينا، ومن أرادنا فليقاتلنا. ولا نساق لمسالخ التعذيب كالنعاج، التي يجرها القصاب من أذنها، بينما أخواتهن في الحظيرة يتساءلن: متى يحين دورنا؟

وكنت لحوحاً في نقل هذا الأمر لإخواني، وأكدت –ولا زلت أؤكد لهم– أن المجاهد لا يحميه من عدوه المحارب للإسلام إلا توكله على الله ثم سلاحه، أما الاتفاقات والسياسات والإقامات وحق اللجوء السياسي، فهي خدعة الصبي عن اللبن، وهي المخدر الذي يحول المجاهد لثرثار عديم الفائدة، وقد يضطر لها المجاهد في حالة الضرورة كأهون الشرين، ولكن عليه أن يهرب منها فور توفر الفرصة له.

لأن حياة المجاهد بل حياة المسلمين بل خير الدنيا كلها في الجهاد، ألم يقل الحق تبارك وتعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾؟ وألم يقل الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾؟

كيف يقبل المجاهد –الذي يحمل عزة الإسلام بين جنبيه ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾– أن يكون متسولاً على أعدائه، الذين لطالما اعتدوا وقتلوا وقاتلوا إخوانه في الإسلام منذ قرون؟ ينفقون عليه، ويطعمونه، ويؤوونه، ويدافعون عنه، ثم ماذا؟ يعلمونه الحضارة والحرية وحقوق الإنسان. وفي النهاية يفرضون عليه وعلى أهله وأولاده قوانينهم ونظامهم وفسادهم، وفي النهاية لا بأس –إن أرادوا– أن يعتقلوه، أو يرحلوه لأعدائه.

وإني أذكر أنني في محنة السجن في داغستان تذكرت حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فسدت عليهم الغار، فتوسلوا لله بأعمالهم الصالحة، ففرج الله عنهم[1]، فبحثت عن عمل أرجو أن يكون خالصاً لله حتى أدعوه به، فسألته بأني لم ألجأ للكفار، رغم توفر الفرص لذلك، أسأل الله أن يرزقنا عز الدنيا وفوز الآخرة.

وبعد رحلة ذات أحوال وصلنا لأفغانستان، والتقينا بالشيخ أسامة بن لادن –حفظه الله– وبالشيخ أبي حفص القائد –رحمه الله– وببقية الأحباب، الذين فارقناهم منذ زمن، وبعد فترة قصيرة من التشاور، أدركنا أن أفغانستان –كانت وما زالت– قلعة الإسلام.

ورأينا بأم أعيننا الإمارة الإسلامية التي أقامتها حركة الطالبان، وما أنجزته من إنجازات خطيرة وباهرة في مدة قصيرة، لا يدرك قيمتها حق الإدراك إلا من يعرف طبيعة أفغانستان. فمن يتصور أن في أفغانستان إمارة تجمع معظم الأفغان تحت قيادة واحدة، وتنشر الأمن في معظم أفغانستان، وتنشأ المحاكم الشرعية التي تقيم الحدود، وترد الحقوق المسلوبة، وتمنع السير بالسلاح إلا بترخيص، وتنشر الأمر بالمعروف

---

[1] صحيح البخاري– كتاب: البيوع– باب: إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي– حديث رقم: ٢٠٦٣.

والنهي عن المنكر، وتمنع إكراه المرأة على الزواج كفدية في فض الخصومات، أو كبدل في الزواج للتحايل على غلاء المهور، أو كحيلة لبيع صغار البنات، ومن يتصور أن هناك حكومة في أفغانستان تستطيع أن تمنع زراعة المخدرات، وتحرم تناولها، ثم تدير حطام دولة تحت الحصار، فتمد شبكات الكهرباء، وتعبد الطرق، وأهم من ذلك تنشط في نشر التعليم، وتعيد فتح الجامعات.

أذكر أني والشهيد –كما نحسبه– أبو عبد الرحمن الكندي ~ زرنا جامعة كابل، فقد كان يعد عبر هيئته الإغاثية مشروعاً لدعم الجامعة، فرأينا عجباً، رأينا حطاماً يسمى كلية الطب وكلية طب الأسنان، رأينا المعامل وقد انتزعت منها الأحواض والمناضد نزعاً، وانتزعت ألواح الزجاج من النوافذ على أيدي عصابات السلب والنهب التي تقاتلت بعد رحيل الروس، والتي مارست أبشع قتال داخلي باسم الجهاد والمجاهدين، والتي عارضت حكومة طالبان وتحالفت مع روسيا والهند والاتحاد الأوروبي وأمريكا –كما سأذكر– ضد الإمارة الإسلامية، وأذكر أني دخلت معملاً للكيمياء، فوجدت فيه الأستاذ وحيداً، وليس لديه في معمل تعليمي فسيح إلا حامل أنابيب واحد، هو الذي نجا من السلب والنهب. وأذكر أني دخلت معملاً للأحياء الدقيقة، فوجدت به مدرساً، لم يتم دراسته العالية بعد، وقد جمع مواده مع مجهر واحد في غرفة في طرف المعمل، قد ثبت بنوافذها زجاج، وأخبرني أنه يقترض من المعامل الخاصة بعض المواد ليعرضها على الطلاب، وفي قسم الأمراض وجدت أستاذاً وحيداً، وفي قسم التشريح وجدت مدرساً وحيداً، وقابلنا أستاذان أحدهما للكيمياء والآخر للفيزياء فاشتكيا إلينا حالهما، وسألانا الإعانة لضعف الرواتب البئيس، أما مستشفى علي آباد التعليمي الكبير فقد صار خراباً يباباً.

ورغم كل ذلك كانت الكلية تعمل، وتعقد فيها المحاضرات، وبها قسم للطالبات المنتظمات. وكذلك كلية طب الأسنان، وبقية الكليات.

وزرنا كلية الشريعة، فوجدناها تعمل بانتظام، وزرنا معهد المعلمين فوجدناهم يجددونه، وكذلك الحال في جامعات جلال آباد وقندهار ومزار شريف وهيرات، وزرنا المعهد الطبي المتوسط لتخريج الفنيين الصحيين التابع لوزارة الصحة، فوجدناه يعمل بكامل طاقته، رغم ضعف إمكاناته الشديد.

وعلى ذكر التعليم أود أن أذكر هنا جانباً غير معروف لنشاط القاعدة والتجمع العربي الجهادي في أفغانستان، وهو جانب نشر التعليم، فقد أنشأت القاعدة في قندهار معهد اللغة العربية، وكان تجربة ناجحة جداً في التواصل بين العرب والأفغان، كما أنشأت مدرسة للبنين في قندهار، واتفقت مع وزارة التعليم على إنشاء كلية للشريعة في قندهار، وبدأت في المشروع، وشرعت أيضاً في إنشاء معهد للغة العربية في كابل، وكذلك أنشأ التجمع العربي المجاهد في كابل عدة مشاريع تعليمية، منها مركز صلاح الدين للدعوة والتعليم بإشراف الشيخ المجاهد المرابط الداعية فضيلة الشيخ عيسى حفظه الله، ومنها مدرسة للبنين وأخرى للبنات، وكان معظم طلاب المدرستين من العرب، ولكن كان بهما عدد من الأفغان.

كل هذا وخط الجبهة حينئذ على بعد حوالي ١٥ كيلومتراً من كابول، والحكومة كلها تعمل والتجارة نشطة، والطرق مؤمنة، وأذكر أني سافرت عدة مرات من شرق البلاد لغربها من كابل لقندهار ومن قندهار لهيرات ومن كابل لخوست ولجلال آباد بالليل وبالنهار، فما وجدت مسلحاً إلا شرطة الإمارة، أو من يحمل تصريحاً كحالنا.

كل هذا في أفغانستان التي رأيت حالها غارقة في الفزع والخوف في وقت حكومة المجاهدين، حيث كنت لا تستطيع أن تسير على الطريق لعدة كيلومترات، إلا ويعترضك حبل أو سلك ممدود على الطريق وحوله مجموعة من المسلحين بالبنادق والمدافع، يفرضون عليك ما يشاءون.

ثم زد على كل هذا؛ أن هذه الدولة المحاصرة دولياً من الغرب والأمم المتحدة، والمضيق عليها اقتصادياً من باكستان وإيران، تستقبل المطاردين المهاجرين من مسلمي الدنيا كلها، وتتحدى الدنيا كلها من أمريكا لباكستان للسعودية، وترفض تسليم أي مسلم لاجئ لها. بل وتعترف بجمهورية أشكيرية الشياشانية وحدها متحدية العالم كله.

ولما وصلنا لقندهار كان الشيخ أسامة بن لادن قد اتخذ قراره بالقتال إلى جانب الإمارة الإسلامية، لأنه اقتنع بصدق الإمارة الإسلامية، وبإخلاصها في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، واقتنع بعلاقة المعارضين لها بالغرب والصليبية الدولية.

ولا يخفى على من عايش تلك الفترة أن الشيخ أسامة بن لادن قد طلب منه أمير المؤمنين الانتقال من جلال آباد لقندهار، تحرزاً من خطة تسرب سرها قبل فتح الطالبان لكابل، مفادها أن أحمد شاه مسعود قرر القيام بعملية عسكرية للقبض على أسامة بن لادن، فلقد كان مسعود مستمراً في التخطيط لقتل أو القبض على أسامة بن لادن مع الأمريكان حتى مقتله، وقد شهد بهذا رسمياً تقرير الكونجرس عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر[1]، حيث يقول في أحد المواضع العديدة، التي ذكر فيها التعاون بين الأمريكان ومسعود:

"وفي الشمال الشرقي كانت هناك قوات مسعود لتحالف الشمال، التي ربما تعد أفضل خيار للسي آي إيه، وفي آخر أكتوبر[2] طارت مجموعة من ضباط مركز مكافحة الإرهاب لوادي بنجشير للقاء مسعود، وهي رحلة خطرة في حوامات متهالكة، ستتكرر لعدة مرات في المستقبل، وقد بدا مسعود مصمماً على مساعدة الولايات المتحدة في جمع المعلومات

---

[1] راجع لتفاصيل العلاقة السرية بين الاستخبارات الأمريكية وأحمد شاه مسعود، واستخدامه لقتل أسامة بن لادن أو القبض عليه الشهادة الأمريكية الرسمية، التي ذكرها تقرير لجنة الكونجرس عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر:

٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٢٤, ١٢٥, ١٣٣, ١٣٩, ١٤٢ & ١٤٣.

[2] لعام ١٩٩٩م.

عن أنشطة وأماكن وجود بن لادن، كما وافق على أن يحاول القبض عليه إذا سنحت الفرصة" (١).

وأكد هذه العلاقة جورج تينيت مدير المخابرات المركزية السابق في شهادته أمام لجنة الكونجرس الخاصة بالتحقيق في هجمات ١١ سبتمبر، حيث صرح بأن المخابرات الأمريكية تعاونت مع أحمد شاه مسعود -قبل هجمات ١١ سبتمبر- لتتبع أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة، غير أن مقتل أحمد شاه مسعود -قبل هجمات سبتمبر- أحبط تلك المخططات(٢).

واتصال أحمد شاه مسعود بالغرب الصليبي وتحالفه معه ليس سراً، فلقد أعلن ذلك على الملأ، حينما ذهب لبروكسل، واستقبل في مقر البرلمان الأوروبي استقبال رؤساء الدول، رغم مخالفة هذا للعرف الدولي، فاستقبلته رئيسة البرلمان الأوروبي (نيكول فونتان) على باب مقر البرلمان كأي رئيس دولة(٣).



رئيسة البرلمان الأوروبي تستقبل أحمد شاه مسعود عند مدخل البرلمان

وألقى كلمة في البرلمان الأوروبي، ووقف له أعضاؤه يصفقون لدقائق، وقال في كلمته: إنه في خط الدفاع الأول ضد الأصولية الإسلامية.

---

(١) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٤٢.

(٢) موقع مفكرة الإسلام- الأربعاء ٣ صفر ١٤٢٥هـ- ٢٤ مارس ٢٠٠٤م. وقد أذاعت قناة الجزيرة هذه الشهادة في نفس اليوم.

(٣) من اغتال أحمد شاه مسعود؟- ج: ٢ الدقيقة: ٥,٣٠ حتى الدقيقة: ٧,٣.

وعقد مؤتمراً صحفياً في مقر البرلمان الأوروبي، طلب فيه مساعدة الاتحاد الأوروبي من أجل إسقاط نظام طالبان، وضد القوى الخارجية، مثل أسامة بن لادن، حيث قال فيه:

"أنا متأكد أنه دون تدخل باكستان وجنودها النظاميين والقوى الخارجية -مثل أسامة بن لادن والطلاب الباكستانيين- ما كانت قواتنا في احتياج، ويقيني أن الأمة الأفغانية بنفسها وأهل قندهار بأنفسهم والعنصر البشتوني بنفسه قادرون على إسقاط نظام طالبان" .



أحمد شاه مسعود في مؤتمره الصحفي في البرلمان الأوروبي

وطالب أيضاً بالتدخل الأمريكي في أفغانستان حفاظاً على أمن أمريكا وحلفائها، وهو الذي كان يبني كل دعاياته على أساس أنه يقاتل من أجل طرد نفوذ باكستان الأجنبي عن أفغانستان، الذي كانت تمثله حركة طالبان في زعمه، ولكنه لم يستح -من أجل التنافس على الدنيا وحب الملك- أن يطالب بالتدخل الأمريكي في شؤون أفغانستان، ويؤكد ذلك بأن يهدد أمريكا بما يمكن أن يلحق بها من أخطار على يد أعدائه وأعدائها؛ الإمارة الإسلامية والقاعدة.

أي أنه جعل نفسه وحركته وأوروبا وأمريكا في جانب، والأصوليون بما فيهم الإمارة الإسلامية والقاعدة في الجانب الآخر.

بل إنه هدم بذلك كل تاريخه السابق في مقاومته للروس والشيوعيين، فلماذا يعد القتال ضد الروس والشيوعيين جهاداً في سبيل الله لطرد نفوذهم من أفغانستان؟ بينما يعد استدعاء النفوذ الأمريكي للتدخل في شؤون أفغانستان وصولاً للسلام كما زعم، حين قال في نفس المؤتمر:

" رسالتي للسيد بوش أنه إذا لم يتوجه لمسألة تأمين السلام في أفغانستان، وإذا لم يساعد شعب أفغانستان في طريق الوصول للسلام، فإن المشكلة يقيناً لن تؤثر فقط على أفغانستان، بل على أمريكا والدول المتحالفة معها" [١].

وصدق النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ"[٢].

وهكذا أعلن مسعود عن سقوطه في مستنقع العمالة للصليبيين بعد طول تكتم، وأصر على أن يعلن ذلك في عقر دار أوروبا، ومن فوق منبر البرلمان الأوروبي، حتى لا يدع لهم أي مجال للشك في ولائه لهم. وأعلن انضمامه بوضوح تام للحملة الصليبية الأمريكية ضد الإسلام، أو ما تسميه أمريكا بالإرهاب والأصولية، وهكذا لم يترك لنفسه عذراً، ووقع بنفسه على حكم قتله، وعن هذا يقول أخوه ولي مسعود:

"تلك الرحلة إلى أوروبا، ذلك التحذير لبقية العالم كان فعلاً خطيراً، لقد غامر مسعود بحياته، ودفع من حياته، ليحذر الآخرين؛ (انظروا. لن تكونوا آمنين إلا إذا فعلتم شيئاً من أجله). لقد ضحى بحياته، ليس فقط من أجل الأفغان بل من أجل المجتمع الدولي. لقد كان مستاءً جداً من الحكومات الغربية، ففيما يتعلق ببرنامجها لمحاربة الإرهاب اكتشف أن برنامج محاربة الإرهاب في ذلك الوقت ليس إلا شعاراً، لم يكن برنامجاً عملياً أو حقيقياً" [٣].

كان مسعود يتسول الدعم الدولي لمحاولة إنقاذه من الهزيمة على أيدي الطالبان وأنصارهم، بطرح نفسه كراع لمصالح القوى المعادية للإسلام والجهاد في أفغانستان، وعن هذا يقول مايكل شور[٤]:

" في الأول من سبتمبر لعام ٢٠٠١ كان الطالبان بالمساعدة –الهامة ولكن ليست التي لا غنى عنها– للقاعدة قد هزموا قوات التحالف الشمالي المتعددة الأعراق. وكان التحالف بقيادة مسعود يسيطر فقط على ٥- ١٠% من أفغانستان، وقدرها بعضهم بما يصل إلى ٥%، وكان كقوة عسكرية كما كتب المؤرخ فريدرك و. كاجان: "قد استنفذت طاقتها في مواصلة القتال [مع الطالبان]".

أما حيوية التحالف فكانت –كما ظلت دائماً– معتمدة أساساً على التميز –الذي لا يعتريه الشك– لزعيمه كقائد متمرد، وعلى جاذبيته الرابحة للإعلام، وعلى الأسلحة والتمويل والدعم الاقتصادي القادمين من روسيا وإيران والهند وأوزبكستان. والثلاثة الأولى

---

[١] من اغتال أحمد شاه مسعود؟- ج: ٢ الدقيقة: ٧ حتى الدقيقة: ٧،٤٨.

[٢] صحيح البخاري–كتاب: أحاديث الأنبياء- باب: حديث الغار- حديث رقم: ٣٢٢٤ ج: ١١ ص: ٣٠٢.

[٣] من اغتال أحمد شاه مسعود؟- ج: ٢ الدقيقة: ٨،٤١ حتى الدقيقة: ٩،٢٧.

[٤] الرئيس الأسبق لوحدة بن لادن في المخابرات المركزية الأمريكية.

كانت تسد منافذ أفغانستان لتعزل عدوى الطالبان، أما الهند فكانت تبحث عن نظام معاد لباكستان في كابل، لتبقي القوات العسكرية نشطة قرب حدود باكستان الغربية.

و قفزت فرنسا أيضاً بسرعة إلى هذه الصورة، مقدمةً تأييداً وافراً متحمساً لمسعود، وبعض المساعدة العسكرية والتمويل الخفيين لمقاتليه. ولم يكن لفرنسا اهتمامات استراتيجية في أفغانستان، ولا تفهم عنها إلا قليلاً، ولكن تدخلت أساساً لولعها -الخادع للنفس- بصورة مسعود كإسلامي معتدل، وكفنان طويل المعاناة تحول لمحارب، وهي صورة رسمها مسعود بمكر، واستهلكها بشغف الصحفيون والساسة الأوروبيون لما يربو على عشرين عاماً.

....

إن الدعم الخارجي ربما كان قد مكن تحالف مسعود من العيش لعدة سنوات أكثر، وقد يضيف لنفوذه بعضاً من فتات المناطق في حرب الكر والفر بينه وبين طالبان، ولكن بكل الاعتبارات والمقاييس برز الطالبان منتصرين في الأول من سبتمبر ٢٠٠١، وقد بسطوا حكماً صارماً ولكن مستقراً من الأمن والقانون على معظم البلاد. والأهم من ذلك أن نظام الملا عمر كان متقبلاً باطراد بين الأفغان، الذين بدأوا يرون نهاية لتفشي اللصوصية وسيطرة أمراء الحرب، والعودة التدريجية للأمان لهم ولأطفالهم وممتلكاتهم الضئيلة"[١].

ويقول ستيف كول:

" وبعد عدة ساعات عقب إخلاء مسعود لطاجيكستان، اتصل مساعده الأمني أمان الله صالح بمركز مقاومة الإرهاب في السي آي إيه، وتحدث مع ريتش رئيس وحدة بن لادن، وكان صالح ينشج ويتنهد بين الجمل وهو يشرح ما قد حدث، وسأل مسؤول السي آي إيه: أين مسعود؟ وأجابه صالح: هو في الثلاجة. في بحثه عن الكلمة للإنجليزية للمشرحة.

كان مسعود قد مات، ولكن أعضاء دائرته الضيقة احتووا بالكاد الأخبار وكانوا في صدمة، وكانوا أيضاً يحاولون بعجل التخطيط، وكانوا قد حبكوا لتوهم قصة كاذبة تزعم أن مسعود قد جرح فقط، وأخبر صالح مركز مقاومة الإرهاب في السي آي إيه أن التحالف الشمالي -المحروم فجأة من الزعامة- يطلب مساعدة السي آي إيه، وهو يستعد لمواجهة القاعدة وطالبان.

---

[١] IMPERIAL HUBRIS, P : ٣٣.

وفي صباح ١٠ سبتمبر أنمى موجز السي آي إيه السري اليومي لبوش وإدارته وصناع القرار الأمريكي مقتل مسعود، وحلل العواقب في حرب أمريكا الخفية ضد القاعدة، واتصل موظفو مركز مقاومة الإرهاب -الذين كانوا لازالوا آملين في الحصول على موطئ قدم في شمال أفغانستان لمهاجمة بن لادن- في لهفة شديدة بجهات [عديدة في] واشنطن ليجدوا وسيلة لمساعدة تحالف الشمال المنهار قبل أن يتلاشى"[1].

وعودة لحديث قندهار؛ كان الشيخ أسامة —حفظه الله- قد اتخذ قراره بالقتال تحت راية طالبان، وكان اتخذ قبله قرار تحريض الأمة على قتال الأمريكان، وأصدر بيانه الشهير (إعلان الجهاد على الأمريكيين المحتلين لبلاد الحرمين) في أغسطس ١٩٩٦. وعن ذلك يقول:

"وقد أصابنا بعض ذلك الظلم بمنعنا من الحديث مع المسلمين، ومطاردتنا في باكستان والسودان وأفغانستان، مما أدى إلى هذا الغياب الطويل، ولكن -بفضل الله- تيسر وجود قاعدة آمنة في خراسان، فوق ذرى الهندوكوش، تلك الذرى التي تحطمت عليها -بفضل الله- أكبر قوة عسكرية ملحدة في الأرض، وتلاشت عليها أسطورة القوى الكبرى أمام صيحات المجاهدين (الله أكبر).

واليوم من فوق نفس الذرى من أفغانستان نعمل على رفع الظلم الذي وقع على الأمة من التحالف اليهودي الصليبي، وخاصة بعد احتلاله مسرى النبي -عليه الصلاة والسلام- واستباحته بلاد الحرمين، ونرجو الله أن يمن علينا بالنصر، إنه ولي ذلك والقادر عليه"[2].

واستطاع الشيخ أسامة -حفظه الله- بما أوتي من رؤية صافية أن يقنعنا بالإقامة في أفغانستان، وهكذا تحولت رحلتنا لأفغانستان من رحلة استكشاف إلى وقفة استقرار بعد طول ترحال.

وَأَلقَت عَصاها وَاستقرَّ بِها النَوى ... كَما قَرَّ عَيناً بالإِيابِ المسافِرُ[3]

وهيأ لنا -حفظه الله- معه في قرية العرب قرب مطار قندهار منازلاً.

وَلَكِنَّني كُنتُ اِمرَأً لِيَ جانِبٌ ... مِنَ الأَرضِ فيهِ مُستَرادٌ وَمَذهَبُ

مُلوكٌ وَإِخوانٌ إِذا ما أَتَيتُهُم ... أُحَكَّمُ في أَموالِهِم وَأُقَرَّبُ[4]

علَيْكُم بدارِي فاهْدِمُوها دعائِماً ... ففى الأَرْضِ بنَّاءُونَ لِي ودَعائِمُ

لئِن أَخْرجتْني عنكُم شرُّ عُصْبة ... ففي الأَرْضِ إِخْوانٌ عليَّ أَكارِمُ[1]

---

[1] Flawed ally III. Steve Coll, The Frontier Post, p: ٧, Wednesday March ١٠-٢٠٠٤.

[2] كتاب إعلان الجهاد على الأمريكيين المحتلين لبلاد الحرمين.

[3] البيت لمعقر بن حمار البارقي- الموسوعة الشعرية- معقر بن حمار البارقي.

[4] البيتان للنابغة الذبياني- الموسوعة الشعرية- النابغة الذبياني.

وفي هذه القرية الطيبة المباركة اجتمع شمل أسرتي بعد فراقي لها لمدة عام ونصف، منها ستة أشهر انقطعت عنها أخباري تماماً لأني كنت في سجن داغستان، وكان عبء أمور الأسرة المهاجرة المتخفية المطاردة، التي فقدت عائلها، الذي تركها منذ سنة ونصف للمجهول، أقول كان عبء أمور الأسرة في هذه الظروف النفسية والأمنية القاسية يقع أساساً على زوجتي أم محمد رحمها الله، ويعينها إخواني الأفاضل، وأم محمد -رحمها الله- إنسانة من النوع الراقي الذي يعز نظيره، جمعت في شخصيتها الفريدة بين التقوى وتعظيم أحكام الشريعة والدعوة لها، مع الخلق الراقي والحس المرهف والعزة المترفعة والتواضع السمح والشفقة والحرص والتعاطف مع كل من تعرفهم ومساندة المظلومين والمحرومين ومساعدتهم والدفاع عنهم والعطاء المتواصل والبذل والتضحية في سبيل الله بكل ما تملك. مع ثقافة وعلم وذوق وأدب ورأي حر واعتزاز بالنفس. وأذكر أني لما اتصلت بها -رحمها الله- بعد وصولي لقندهار، قالت لي: لا تتركنا، ولو كنت تعيش في حفرة فسنعيش معك.

وفي هذه القرية الطيبة المباركة عشنا في بيت مكون من ثلاث غرف، اثنان لنا وواحدة للضيوف، بلا ماء إلا من بئر في فنائه ولا كهرباء، وأشهد الله أني ما عشت في حياتي في بيت أفضل من ذلك البيت، ولا في جوار أفضل من ذلك الجوار، كانت قرية من المهاجرين المجاهدين الصالحين، وكان أصلها مساكن مهجورة لمشروع زراعي قديم، احتلها بعد ذلك لواء من حرس الحدود، ثم تركت مهجورة يسكن بعضها البدو، فلما استقدم أمير المؤمنين الملا محمد عمر الشيخ أسامة وأنصاره من جلال آباد أسكنهم تلك القرية، وكانت مكونة من قرابة مائة بيت؛ عشرون في جهة الشرق وقرابة ثمانين في جهة الغرب، وأحاط الشيخ أسامة الثمانين بيتاً الغربية مع بعض المخازن بسور مرتفع، وجعلها للعائلات، أما العشرون الأخرى فخصصت للمكاتب والضيوف.

وفي هذا المكان المبارك بذل الشيخ أسامة بن لادن —حفظه الله- وسعه في حملته للدعوة لتحرير الحرمين ولطرد اليهود والصليبيين من ديار المسلمين. وتقاطرت الوفود والزوار عليه لملاقاته والاستماع لدعوته وتوجيهاته، والشيخ -حفظه الله- لا يدخر وقتاً ولا بياناً ولا مجهوداً ولا مالاً في شرح قضية جهاد الأمة ضد أعدائها الصليبيين واليهود وبيان خطرهم والتهوين من قوتهم، وأنهم في الحقيقة جبناء لا يملكون عقيدة ولا خلقاً وليس لديهم إلا المال والعتاد، الذي سرعان ما يفرون عنه عند أية مواجهة حقيقية مع جنود الإسلام.

وتوافد على الشيخ وإخوانه الآلاف من أفغانستان وباكستان والخليج ووسط آسيا والقوقاز وأوروبا وشرق آسيا. وكان القبول لدعوته عجيباً ومبهراً، وكان إعجاب الناس بشخصية الشيخ غالباً وآخذاً بالقلوب والأفئدة، فذلك الشخص الذي ترك كل هذه الدنيا خلفه، والذي يحيا هذه الحياة البسيطة

[1] البيتان لابن شهيد الأندلسي- الموسوعة الشعرية- ابن شهيد الأندلسي.

المتواضعة، ويتعامل مع الناس بهذه السماحة والأخلاق والأريحية والجود والكرم، ثم هو أيضاً الذي يتحدى أقوى قوة طاغية في العالم، ويدعو الناس بقوة ووضوح وجلاء إلى مقارعتها ومنازلتها، والتصدي لها ولعملائها الخونة والمرتدين، بلا مداهنة ولا مداراة ولا لف ولا دوران، وهو أيضاً الذي أثبت صدقه في دعوته، فما دعاهم لشيء إلا وقد سبقهم إليه؛ دعاهم للترفع عن الدنيا والهجرة والجهاد، بعد أن طلق الدنيا، وهاجر وجاهد، ودعاهم لدعم الإمارة الإسلامية في أفغانستان، بعد أن قاتل في صفوفها وتحت رايتها، ودعاهم لبيعة أمير المؤمنين بعد أن بايعه، ودعاهم لقتال الكفر الأكبر بعد أن نازله، وأعلن الحرب عليه.

وتلاقت دعوة الشيخ مع أشواق وآمال المسلمين في التحرر من طغيان أكابر المجرمين وأذنابهم الحاكمين لبلادهم. وكنت أتعجب من هذا القبول الذي ألقاه الله في قلوب الناس للشيخ ودعوته، وكنت أذكره بفضل الله عليه في ذلك، وأذكره بمداومة الشكر والحمد على هذه النعمة. وكانت خلاصة دعوة الشيخ وجوب التركيز على الأمريكان واليهود، وأن أمريكا إذا أدبرت منهزمة من بلاد الإسلام بعون الله وقوته، فإن المعارك مع أعوانها ستكون أسهل وأيسر بعون الله وقوته، وكانت نصيحة الشيخ لأهل باكستان أمراً واحداً؛ ادعموا الطالبان، وادخلوا في بيعة أمير المؤمنين، فإذا ثبتت أركان هذه الدولة فسينتشر منها الإسلام في كل المنطقة بعون الله.

ولست هنا أحاول أن أرسم صورة خيالية لشخص بلا عيوب، فمن منا بلا عيوب.

ومن ذا الذي ترضى سجاياهُ كلّها كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه[١]

ولكني أشهد بما علمت، أنه ليس من عيوبه دناءة الأخلاق، ولا الشح بالدنيا على الجهاد والإسلام، ولا الخوف من أكابر المجرمين.

مسعر حرب وصاحب وقائع وأخو معارك، إذا ناوشته الحرب استشرف لها، وأقبل عليها بكليته، وأجابها بهمته وعزيمته، يزيده حرها بأساً، وشدتها ثباتاً.

يصدق فيه قول القائل:

وإني من قوم كرام يزيدهم شماساً وصبراً شدة الحدثان[٢]

مشكلته أنه وجد في المرحلة الفاصلة بين نهضة الأمة وهبتها للدفاع عن عزتها، وبين زمن الضعف والضعة والاستكانة، ولذلك هاجمه دعاة الخور واللصوق بالأرض، لأنه كشف عجزهم وخورهم. طعن هبل العصر في عقر داره، وفي بيت أوثانه وبين سدنته، ودعا أمته لتكرار فعلته، وفي الأمة من يتساءل: هل حقاً ممكن أن يخرج من بين صفوفنا -نحن الخوارون المستضعفون المنهزمون- تسعة عشر فارساً يذيقون هبل العصر ما لم يذقه في تاريخه؟

---

[١] ينسب البيت لعلي بن الجهم ويزيد المهلبي. الموسوعة الشعرية- علي بن الجهم ويزيد المهلبي.

[٢] البيت لعبد الرحمن بن حسان الأنصاري. الموسوعة الشعرية- عبد الرحمن بن حسان الأنصاري.

فدت نفسي وما ملكت يميني   فوارس صدقت فيهم ظنوني
فوارس لا يملون المنايا   إذا دارت رحى الحرب الزبون
ولا يجزون من حسن بسيئ   ولا يجزون من غلظ بلين
ولا تبلى بسالتهم وإن هم   صلوا بالحرب حيناً بعد حين
هم منعوا حمى الوقبى[1] بضرب   يؤلف بين أشتات المنون
فنكب عنهم درء الأعادي   وداووا بالجنون من الجنون[2]

ولما هاجمت القوات الصليبية الأمريكية أفغانستان قامت طائراتها بقصف بيوت هذه القرية الخاوية عدة مرات، حتى تركتها قاعاً صفصفاً، ولم يكن بمجمع العائلات بالقرية إلا بيوت ومدرسة أطفال ومسجد ومخزن، فلماذا كل هذا القصف؟ آنتقام من الحجارة؟ أم بحث عن نساء وأطفال ليقتلوهم؟

---

(١) الوقبى اسم ماء لبني مازن.

(٢) الأبيات لأبي الغول الطهوي- ديوان الحماسة ج: ١ ص: ٦ و٧.

الفصل الثاني:

الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين

بجميل فعلك نكست ... وبطهر وجهك هدمت

أعلام ... أصنام

ودعت أشبال الشرى ... وولجت باباً أنت فيه

وأسوده ... إمام

كثر الزحام على الثغور ... فاخترت باباً ما عليه

وبابها ... زحام

وركبت عزمك لا تبالي ... وقهرت جيش الريب وهو

بالردى ... لهام

وكسرت سيف الرعب وهو ... فأزحت ما أوحت به

مجرد ... الأوهام

مبتسماً للموت ترشف ... لا يعتريك ونىً ولا

كأسه ... إحجام

في موقف الهلع الرهيب ... من فرطه يتردد

وهوله ... الإقدام[1]

---

[1] الأبيات من قصيدة للشيخ أبي سلمان المغربي في رثاء الشهيد –كما نحسبه– عزام ~؛ بطل عملية السفارة الأمريكية في نيروبي.

كان من ثمرات التجمع الجهادي العربي في قندهار تشكيل (الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين)، وصدر بيانها الأول في صورة فتوى[1]، الذي دعا لقتل الأمريكان وقتالهم حتى يكفوا عن جرائمهم ضد المسلمين.

---

[1] في ٢٥ شوال ١٤١٨هـ الموافق ٢٢ فبراير ١٩٩٨م. وكان نصها كالتالي:

"فتوى شرعية

الحمد لله منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب والقائل في محكم كتابه: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾. والصلاة والسلام على نبينا محمد بن عبد الله القائل (بعثت بالسيف بين يدي الساعة، حتى يعبد الله وحده، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري)...أما بعد:

فمنذ أن دحى الله جزيرة العرب وخلق فيها صحراءها وحفها ببحارها لم تدهها غاشية كهذه الجحافل الصليبية، التي انتشرت فيها كالجراد، تزحم أرضها، وتأكل ثروتها، وتبيد خضراءها. كل ذلك في وقت تداعت فيه على المسلمين الأمم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. ولم تشهد حدثاً يماثل هذه الحرب العالمية الشاملة بين الإسلام وبين التحالف الصليبي. ويلزمنا حين عظم الخطب وقل الناصر أن نقف وإياكم على مكنون الأحداث الجارية، كما يجب أن نتفق جميعاً على فصل القضاء فيها .

أمتنا المسلمة :

لا أحد يجادل اليوم في حقائق ثلاث، تواترت عليها الشواهد، وأطبق عليها المنصفون. ونحن نذكرها، ليتذكر من تذكر، وليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة. وهي:

أولاً: منذ ما يربو على سبع سنين وأمريكا تحتل أراضي الإسلام في أقدس بقاعها؛ جزيرة العرب، فتنهب خيراتها، وتملي على حكامها، وتذل أهلها، وترعب جيرانها. وتجعل من قواعدها في الجزيرة رأس حربة، تقاتل بها شعوب الإسلام المجاورة. وإذا كان في الماضي من جادل في حقيقة هذا الاحتلال فقد أطبق على الاعتراف به أهل الجزيرة جميعاً. ولا أدل عليه من تمادي الأمريكان في العدوان ضد شعب العراق انطلاقاً من الجزيرة، رغم أن حكامها جميعاً يرفضون استخدام أرضهم لذلك، ولكنهم مغلوبون.

ثانياً: رغم الدمار الكبير الذي حل بالشعب العراقي على يد التحالف الصليبي ورغم العدد الفظيع من القتلى الذي جاوز المليون، رغم كل ذلك يحاول الأمريكان مرة أخرى معاودة هذه المجازر المروعة. وكأنهم لم يكتفوا بالحصار الطويل بعد الحرب العنيفة ولا بالتمزيق والتدمير. فهاهم يأتون اليوم، ليبيدوا بقية هذا الشعب، وليذلوا جيرانه من المسلمين.

ثالثاً: وإذا كانت أهداف الأمريكان من هذه الحروب دينية واقتصادية فإنها كذلك تأتي لخدمة دويلة اليهود، ولصرف النظر عن احتلالها لبيت المقدس وقتلها للمسلمين فيه. ولا أدل على ذلك من حرصهم على تدمير العراق أقوى الدول العربية المجاورة. وسعيهم لتمزيق دول المنطقة جميعاً كالعراق والسعودية ومصر والسودان إلى دويلات ورقية، تضمن بفرقتها وضعفها بقاء إسرائيل واستمرار الاحتلال الصليبي الغاشم لأرض الجزيرة.

أمتنا المسلمة:

إن كل تلك الجرائم والبوائق هي من الأمريكان إعلان صريح للحرب على الله ورسوله وعلى المسلمين. وقد أجمع العلماء سلفاً وخلفاً عبر جميع العصور الإسلامية على أن الجهاد فرض عين إذا دهم العدو بلاد المسلمين. وممن نقل ذلك الإمام ابن قدامة في "المغني" والإمام الكاساني في "البدائع" والإمام القرطبي في "تفسيره" وشيخ الإسلام في "اختياراته"، حيث قال: (أما قتال الدفع فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين واجب إجماعاً. فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيئ أوجبَ بعد الإيمان من دفعه). ونحن بناء على ذلك وامتثالاً لأمر الله نفتي جميع المسلمين بالحكم التالي:

وكالعادة انتقده البعض، فقالوا:

- كيف تقاتلون النصارى واليهود في الدنيا كلها؟
- وكيف تقاتلون المدنيين؟
- وكيف تبيحون قتل النساء والأطفال؟
- وبأي وجه ذكرتم اسم رفاعي طه؟

أما كيف نقاتل النصارى واليهود في الدنيا كلها؟ فإن عنوان الجبهة يدعو لقتال الصليبيين واليهود، والصليبيون مصطلح لمن شن ويشن الحملات الصليبية على المسلمين، أما اليهود فهم طائفة مشاركة في

إن حكم قتل الأمريكان وحلفائهم مدنيين وعسكريين وقتالهم فرضُ عين على كل مسلم أمكنه ذلك في كل بلد تيسر فيه. وذلك حتى يتحرر المسجد الأقصى والمسجد الحرام من قبضتهم، وحتى تخرج جيوشهم عن كل أرض الإسلام مفلولةَ الحدِ كسيرةَ الجناح عاجزةً عن تهديد أي مسلم. امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾. وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى

لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

أمتنا المسلمة:

إننا باسم الله ندعو كل مسلم يؤمن بالله ويرغب في ثوابه إلى امتثال أمر الله بقتل الأمريكان، ونهب أموالهم في أي مكان وجدهم فيه، وفي كل وقت أمكنه ذلك. كما ندعو علماء المسلمين العاملين وقادتهم المخلصين وشبابهم وجنودهم المؤمنين إلى شن الغارة على جنود إبليس الأمريكان ومن تحالف معهم من أعوان الشيطان، وأن يُشردوا بهم من خلفهم لعلهم يذكرون. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ {٣٨} إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١- الشيخ أسامة بن محمد بن لادن

٢- الدكتور أيمن الظواهري (أمير جماعة الجهاد بمصر)

٣- الشيخ "أبو ياسر "رفاعي طه (ممثلاً عن الجماعة الإسلامية بمصر)

٤- مولانا مير حمزة سكرتير جمعية علماء باكستان

٥- الشيخ فضل الرحمن خليل أمير حركة الأنصار بباكستان

٦- الشيخ عبد السلام محمد أمير حركة الجهاد ببنجلاديش".

تصويب: ورد في البيان أن الموقع رقم ٤ هو مولانا مير حمزة سكرتير جمعية علماء باكستان، والصواب: (جمعية علماء الإسلام).

إنشاء إسرائيل، والتفرقة بين اليهود والصهيونيين غير ذات معنى، لأن اليهود في أغلبهم الأعم يساندون إسرائيل، والنادر لا حكم له.

أما كيف نقاتل المدنيين؟ فإن الشريعة لا تقسم الناس لمدني وعسكري، ولكن الشريعة تقسم الناس لمقاتل وغير مقاتل، والمقاتل هو كل من قاتل بيده، أو أعان على القتال بماله أو برأيه. والحكومات الغربية وشعوبها هي بهذا المعنى مقاتلة، لأن الحكومات الغربية كلها بكافة أحزابها تؤيد وتدعم وتحمي وجود إسرائيل، وشعوب هذه الحكومات تنتخب أحزابها بحرية بناء على برامجها التي تعلن فيها تأييد إسرائيل، وتدفع الضرائب لتمويل هذه الحكومات، وتخدم في جيوشها وأجهزة أمنها. وهذه الحكومات المنتخبة بديقراطية تقتل، وتعين على قتل نسائنا وأطفالنا ومدنيينا في فلسطين وغيرها من ديار الإسلام.

أما كيف نبيح قتل النساء والأطفال؟ فالبيان لم يبح قتل النساء والأطفال، ولكن البيان دعا لقتل وقتال الأمريكان وحلفائهم، كما دعا القرآن في الآيات -التي استدل بها البيان- لقتال المشركين كافة، ثم حظرت السنة تقصد النساء والأطفال، أما إن قتلوا -تبعاً لغيرهم دون تقصد لهم- أثناء الجهاد الواجب أو الضروري لدفع العدوان المتتالي علينا فذلك أمر لم تحرمه الشريعة[1].

أما لماذا أدرجنا اسم الشيخ رفاعي طه فك الله أسره؟ مع أن الجماعة الإسلامية في موقعها على الشبكة قد أصدرت بياناً باسمه، ينفي توقيعه على بيان الجبهة. فالحقيقة التي لم يجرؤ على أن يذكرها أحد من الجماعة الإسلامية هي كالتالي:

كان الأخ أبو حفص القائد ~ هو المتولي لجمع التوقيعات على البيان المذكور، وكان رفاعي طه هو رئيس مجلس شورى الجماعة الإسلامية في ذلك الوقت، فتباحث أبو حفص مع المسؤول عن إخوة الجماعة الإسلامية في قندهار في ذلك الوقت، في أن يتصل برفاعي طه، ويعرض عليه البيان، ويطلب منه توقيعه، ولكن هذا المسؤول، تحمس للفكرة، وقال لأبي حفص: ضع توقيع رفاعي، وأنا ضامن لك موافقته، وسأتصل به فيما بعد، ولا تعطل البيان من أجل ذلك، وأصر على أبي حفص إصراراً شديداً وأكد الأمر تأكيداً متكرراً، مما دفع أبي حفص -رحمه الله- لإدراج اسم رفاعي طه. ثم بعد ذلك بدأت تظهر على ذلك المسؤول علامات ارتباك، وأصر على مغادرة أفغانستان لليمن، ورتب الإخوة له جواز سفر، وسافر لليمن، وفي اليمن سلم نفسه للسفارة المصرية، ورحل لمصر، وانضم لتراجعات الجماعة الإسلامية، ولم يجرؤ هو ولا الجماعة الإسلامية على ذكر الحقيقة.

---

[1] لمزيد من التفصيل حول هذه المسألة: راجع فتوى الشيخ حمود العقلاء -رحمه الله- بعنوان: (بيان من فضيلة الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي عما جرى في أمريكا من أحداث)، وشفاء صدور المؤمنين- القسم الثاني- المسألة الثانية: حكم رمى الكفار إذا اختلط بهم مسلمون أو من لا يجوز قتله.

وزارنا في قندهار أحد قيادات الجماعة الإسلامية، وتناقشت معه طويلاً في أحوالنا وأحوال الجماعة الإسلامية، وسألني عن السبب في إدراج اسم رفاعي طه، فرددت عليه بأن هذا السؤال يوجه للجماعة الإسلامية وليس لنا، وقصصت عليه القصة.

أما عن رفاعي -فك الله أسره- وعدد من أعيان الجماعة الإسلامية بما فيهم أميرهم الشيخ عمر عبد الرحمن فك الله أسره فقد بينوا موقفهم من قتل وقتال الأمريكان ومن مبادرة التراجع، التي أعلنها بعض قيادات الجماعة الإسلامية. قال الشيخ رفاعي في مقدمة كتابه (إماطة اللثام):

"إن الأمريكيين واليهود اليوم هم كفار معتدون صائلون على أرضنا وأعراضنا، وجب قتلهم في أي أرض كانوا وبأي طريقة أمكن ذلك، وأن ذلك واجب على كل مسلم قادر عليه، ولا يحتاج إلى إذن أحد، فإنه فرض عين لا يسقط عمن قدر عليه، وهذا حكم أجمع عليه العلماء سلفاً وخلفا"[1].

وبعد إعلان الجبهة رتب الشيخ أسامة بن لادن حملة دعائية للتعريف بالجبهة، ولتحريض الأمة على قتال الأمريكان واليهود، فعقد مؤتمراً صحفياً في خوست حضره عدد من الصحافيين الباكستانيين وصحفي صيني، وكان مؤتمراً ناجحاً بفضل الله، وأذكر أنه في أعقاب المؤتمر قال لي أحد كبار الصحافيين الباكستانيين:

"إن باكستان كلها معكم".

وبعد هذا المؤتمر بأيام التقى الشيخ أسامة بالصحفي الأمريكي جون ميلر من قناة إيه بي سي الأمريكية.

وكان مستغرباً أن القناة أصرت على إحضار شخص عراقي، زعم أن له مكتباً إعلامياً في أسبانيا، وأنه توسط في الترتيب للقاء، وأنه له بعض المشاريع الإعلامية، التي يود طرحها على أسامة بن لادن. ووافق الشيخ على حضوره، ولكن اعتذر عن مناقشته، ولكنه ألح حتى تكلم مع الشيخ لعدة دقائق حول مشاريع مزعومة، وكان واضحاً أنه جاء ليترجم الأحاديث العربية التي يتسمعها، ومن الطرائف أنه لما بدأ اللقاء وسلطت الأضواء على الشيخ أسامة وجون ميلر تجمع الذباب والحشرات من الظلام الدامس في الخارج، واستقر على صورة الخريطة، التي خلف الشيخ، فاستئذنه أحد الإخوة أن يخرجوا خارج الغرفة لدقائق، حتى يرش مبيداً حشرياً، حتى لا تظهر الحشرات في الصورة على الخريطة، فطُلب من الجميع الخروج لدقائق، وأخذ أحد الإخوة في رش مبيد حشري في الغرفة، ووقف ميلر والعراقي في الخارج وهما لا يفهمان شيئاً، وكنت أقف خلفهما تماماً، وهما غير منتبهان لي، فسأل ميلر العراقي: ماذا يفعلون؟ فقال

(1) إماطة اللثام عن بعض أحكام ذروة سنام الإسلام ص: ٤.

العراقي: لا أعرف إنهم يرشون شيئاً ما!! وضحكت في أعماقي على هذا المترجم، الذي أحضروه ليتسمع العربية، وهو لا ينتبه أن المكان ممتلئ بمن يتسمعون الإنجليزية!!

وكان الاتفاق مع ميلر أن يقدم أسئلة مكتوبة، وأن يسأل ما اتفق عليه فقط. فقدم أسئلة كثيرة، أحس الشيخ أسامة في بعضها رائحة تحقيق مباحثي، فرفضها، منها سؤال عن رمزي يوسف، يسأل: هل لرمزي يوسف صلة بك؟ خاصة وأنه ألقي القبض عليه في مضافة خاصة بك. ورفض الشيخ السؤال، فقد أحس فيه برائحة المباحث، كما أن رمزي لم يقبض عليه في مضافة خاصة بالشيخ أسامة. ولكن الصحافي في وسط التصوير قال فجأة: آه. هناك سؤال كنت أريد أن أسأله، ولا أدري كيف نسيته؟ هل لرمزي يوسف علاقة بك؟ خاصة وأنه قد قبض عليه في مضافة خاصة بك، وأجاب الشيخ بالنفي.

وعندما غادر ميلر المعسكر، وعبر الحدود لباكستان، توقف في أول مدينة حدودية واتصل بأمريكا، وأخطر من على الطرف الآخر: بأني قد أجريت اللقاء، وقد أنكر صلته برمزي يوسف! لقد بعثوه ليجمع التحريات، وهو غير منتبه أنه مراقب.

وجون ميلر ترك قناة الإيه بي سي، وعمل بعد ذلك في قسم محاربة الإرهاب في شرطة لوس أنجلوس، وهو اليوم مساعد مدير المباحث الفيدرالية للعلاقات العامة. إنه رجلهم.

وبعد إعلان الجبهة هاجم المجاهدون سفارتي أمريكا في تنزانيا ودار السلام. وكان منفذ عملية دار السلام هو الأخ أحمد عبد الله ~، وأحمد عبد الله ~ من إخوة الجماعة الإسلامية، وكان مدرباً متخصصاً في المتفجرات، وطلب أن يشارك في عملية ضد الأمريكان، وسمح له مسؤول الجماعة الإسلامية في قندهار بالمشاركة في التجهيز والمشورة الفنية فقط، لأن الجماعة الإسلامية قد أوقفت عملها الجهادي في داخل وخارج مصر، ولكن أحمد عبد الله أبلغ أبا حفصK أنه مصر على القيام بعملية استشهادية، وحتى يرفع أبو حفص ~ الحرج عن نفسه أمام الجماعة الإسلامية، طلب من أحمد عبد الله ~ أن يسجل وصية مرئية عن أسباب إقدامه على ذلك، وأنه أحد جنود جيش تحرير المقدسات، وهو الاسم الذي أعلنت به الجبهة عن تبنيها لعمليتي السفارتين، وهكذا شاركت الجماعة الإسلامية بما أعلنه أفاضل قيادتها وبدماء أبنائها في قتال الأمريكان، رغم كل محاولات المتراجعين.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

وبعد العمليتين المباركتين في نيروبي ودار السلام زادت أمريكا من سعيها في محاولات اغتيال أسامة بن لادن[1]، ولكن كعادة الأمريكان كان ينقصهم الشجاعة والحزم، فجاءت ضربتهم للمعسكرات في

---

[1] يزعم تقرير لجنة الكونجرس عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر أنه منذ خريف عام ١٩٩٧ حتى يونيو ١٩٩٨ أعدت السي آي إيه خطتين لاختطاف بن لادن بواسطة عناصر عميلة في القبائل البشتونية، الأولى بكمين يترصده في حركته من

خوست ضربة فاشلة. وزعم الأمريكان أن جورج تنت[١] أخبر كبار المسؤولين الأمريكان بأن أسامة بن لادن في طريقه لعقد مؤتمر في معسكر قرب خوست لكبار أعوانه وقياداته للتخطيط لهجمات مقبلة، وأن هذا الاجتماع سيحضره المئات. وأنه أفلت بأعجوبة من الهجوم قبل عدة ساعات من وقوعه، وأن بعض الضباط الباكستانيين ربما سربوا له الخبر[٢]، إلى آخر خرافات الأمريكان وتهويلاتهم. وهو كذب محض.

وحقيقة القصة التي عشتها يوماً بيوم؛ أن الشيخ أسامة كان بكامل حراسته وسياراته في كابل، وكان في مضافة العرب وقت وقوع الهجوم، ومن هذه المضافة اتصلت بهاتف القمر الصناعي بالصحفي الباكستاني المخضرم رحيم الله يوسف زي قبل الهجوم بيوم، وذلك لأن الطالبان طلبوا من الشيخ أسامة نفي صلته بتفجير السفارتين. فاتصلت بيوسف زي، وطلبت منه أن ينشر عن الشيخ أسامة –ما خلاصته– أنه لا صلة له بالحادث، ولكنه يباركه ويبارك من قام به، ثم بعد الحادث بيوم اتصلت به من نفس الهاتف، وطلبت منه أن ينشر أن الحرب قد بدأت لتوها، وأن رسالة الأمريكان قد وصلت، وعليهم بانتظار الرد. فأين ما ينشره الأمريكان من أنهم يحصون الأنفاس، ويتابعون كل شيء، نعم يجب أن نحذر منهم، ولكن لا يجب أن نصدق دجلهم.

الخلاصة أن الشيخ أسامة بن لادن كان وقت الحادث على بعد ٢٥٠ كيلومتر تقريباً إلى الشمال الغربي من المعسكر المستهدف.

وخرافة أخرى يخدع بها الأمريكان أنفسهم أنهم رصدوا في فبراير عام ١٩٩٩ معسكر صيد في الصحراء جنوب قندهار لأحد الأمراء الإماراتيين، وأن الشيخ أسامة بن لادن كان له معسكر صغير مجاور لمعسكر الإماراتيين، وأنه كان معتاداً على زيارة الإماراتيين، وبناء على ذلك قرر الأمريكان ضرب معسكر الإماراتيين صباح يوم الحادي عشر من فبراير، وبعد تجهيز كل شيء تخلوا عن الفكرة خوفاً على الأمير الإماراتي.

وهذه القصة من محض أوهام الاستخبارات الأمريكية وأدلة عجزها، وحقيقة القصة؛ أن الإماراتيين المذكورين فعلاً أقاموا هذا المعسكر في صحراء قندهار المتاخمة لقرية العرب قرب مطار قندهار، وأن إحدى دوريات المجاهدين بقيادة الأخ سيف العدل استوقفت مرة عدداً من السيارات قرب القرية، واكتشفت وجود عدد من العرب الخليجيين بها، ولما سألوهم عن سبب سيرهم في هذا المكان، أجابوا بأن لديهم معسكراً للصيد في الصحراء، وأنهم على ارتباط بالطالبان، والمشرف على وجودهم في الصحراء

قندهار لمجمعه السكني خارجها، وزعم العملاء القبليون أنهم حاولوا وفشلوا! أما الثانية فكانت عن طريق هجوم ليلي يقوم به عملاء من القبائل على سكن بن لادن. [9/11 COMMISSION REPORT, p: ١١٠ to ١١٥].

[١] مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية آنذاك.

[٢] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١١٦ & ١١٧.

هو الملا منصور وزير الطيران ومسؤول مطار قندهار، فاحتجزهم الإخوة لحين الاتصال بالملا منصور، الذي أكد ما قالوه، فتركهم الإخوة، وعرضوا عليهم من باب الضيافة الدعوة لتناول الطعام، ولكنهم أبوا وأصروا على الذهاب، وكانت وجوههم تنطق بالرعب، لأنهم أدركوا أنهم في قبضة المجاهدين التابعين لأسامة بن لادن، هذه هي حقيقة القصة بدون كل ذلك التهويل، ولو كان الأمريكان قصفوا ذلك المعسكر لكانوا قد قتلوا حلفاءهم الأمراء الإماراتيين وحاشيتهم، دون أن يمسوا أسامة بن لادن بأذى[١].

---

[١] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٣٧ & ١٣٨.

ونفس هذه القصة ذكرها متحسراً مايكل شوِر؛ رئيس وحدة بن لادن السابق في السي آي إيه -الذي ذُكِر في تقرير الكونجرس بالاسم الرمزي (Mike)- في حواره في البي بي سي الإنجليزية في برنامج (Interview).

الفصل الثالث:

قاعدة الجهاد

﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾

حَبَّذَا العَيشُ حينَ قَومي جَميعٌ لَمْ تُفَرِّقْ أُمورَهَا الأَهْواءُ[١]

كان من نعم الله العظيمة علينا أن وفقنا للوحدة مع القاعدة، فيما أصبح يعرف بقاعدة الجهاد، وهي نعمة أسأل الله أن يعينني على شكرها، ولا بد هنا أن أذكر الفضل لأهله، فقد كان من أهم من سعى في ذلك العمل المبارك الشهيد –كما نحسبه– أبو حفص القائد ~، وآخرون من أفاضل الدعاة والمجاهدين قد لا أستطيع أن أذكرهم الآن، ولكن الله يعلمهم، أسأله أن يجزيهم خير الجزاء.

وكنت مع مرور السنوات أدرك الضرورة الخطيرة للوحدة في العمل الإسلامي، وأنه لا بد للمجاهدين الذين اجتمعوا على العقيدة الصافية من الوحدة، ولا بد لهم من التنازل والذلة على المؤمنين، ولا بد لهم من تقديم الأهم على المهم، ولا بد لهم من التحرر من النزعات النفسية وقيود الأهواء الشخصية.

وكانت تجربتنا مع الجماعة الإسلامية مريرة، فقد تحطمت محاولات الوحدة بسبب تمسك الجماعة بقيادة الأسرى، وتبجيلهم الزائد لإخوة الصف الأول، أو من كانوا يسمونهم (بالإخوة الكبار)، وابتلع الصف الثاني هذا التبجيل، وسوقه لمن بعدهم، وقامت الجماعة على ذلك، بل لقد أعطوا لهؤلاء الإخوة الكبار في لائحة الجماعة حق اتخاذ القرارات المصيرية في الجماعة، ولم يبق للذين في الخارج إلا تنفيذ الخطوط العامة التي يرسلها لهم الإخوة الكبار.

وقد كانت هذه مشكلة بيننا وبين إخواننا في الجماعة الإسلامية، وتحطمت عليها العديد من محاولات الوحدة، فكان علينا أن نعرض كل ما سنتوصل إليه من اتفاق على الإخوة الكبار، فيقروا منه ما يشاءون، وكان علينا أن نقبل بقيادتهم الحقيقية، ولما كان هذا التصور منافياً للعقل فقد تحطمت على

[١] البيت لعبيد الله بن قيس الرقيات– الموسوعة الشعري– عبيد الله بن الرقيات.

صخرته العديد من محاولات الوحدة. تلك الوحدة التي لو قدر لها أن تقوم، فما يدري أحد كيف كانت ستسير الأمور؟ وسامح الله الإخوة الكبار.

ورغم اقتناع الكثير من القيادات في الخارج بمنطقنا إلا أنهم كانوا يصرحون لنا أن هذا أمر قد بنيت عليه الجماعة، ولا يمكن نقضه، لأن الجماعة قد بنيت على هذا الأساس، ولا نريد أن نهز كيانها، وأن علينا أن نتعامل معه كأمر واقع، وأن نجد من الحلول العملية ما نتكيف به معه، وكان ردنا أن هذا غير جائز وغير ممكن. وكنت أحذرهم من ذلك أيما تحذير، وكانوا يقرون معي بصحة قولي، ووقع ما حذرتهم منه للأسف الشديد.

وكانت نتيجة تبجيل إخوة الجماعة الإسلامية الزائد لقيادة السجن، التي كانت تفرض نفسها على قيادات الخارج، أن دفعوهم مبكراً للمواجهة، حتى يخففوا من ضغط الحكومة عليهم في السجون، ثم كانت الطامة حينما قتلوا الجماعة باستسلامهم في السجون من أجل الإفراج عنهم، حتى وإن أدى بهم ذلك للاعتراف بحسني مبارك رئيساً وبالسادات شهيداً، فخنقوا الجماعة وأزهقوا روحها.

المهم تلاعبت قوى الشر والمباحث بالإخوة الكبار، وبدأوا في إصدار مبادراتهم، وأصيب من في الخارج بالارتباك والاختلاط، ولكنهم كانوا يحرصون –رغم كل ما صدر عن إخوة السجن– على وحدة الجماعة، ولم يدركوا أن هذه الوحدة ستجرهم مع الإخوة الكبار لهوة المباحث.

وكنا إذا طالبناهم بالتصدي لهذه التنازلات يتذرعون بحجج ضعيفة، مثل أننا لا ندري حقيقة ما يجري، وأننا لا نريد أن نصعد المواجهة معهم، حتى لا يوغلوا أكثر في التنازل، وأننا أرسلنا لهم عبر وسطاء، وننتظر الرد، وأننا نحاول أن نصل معهم لحل وسط... إلى آخر هذه التعلات، وللأسف كان الوسطاء جزءاً من مؤامرة المباحث، واستمر المخطط المباحثي في النخر في عظام الجماعة الإسلامية مستغلين تلهف من بالداخل على الخروج من السجن وارتباك من بالخارج، واستمرارهم في العيش في وهم (الإخوة الكبار)، الذين يعلمون أكثر مما نعلم، والذين لا يمكن أن يتنازلوا. وفي محاولة لاحتواء الموقف أصدر من بالخارج بياناً للموافقة على المبادرة باعتبارها هدنة مع الحكومة، وكانت تلك خطوة على طريق تمزيق الجماعة وخنقها. فبينما وافق من بالخارج على وقف العمل العسكري والتحريض عليه، استمر الإخوة الكبار في التنازل حتى وصلوا للاعتراف بشرعية حسني مبارك بل والثناء عليه لحرصه على قضية فلسطين.. (تأمل) واعتبار السادات شهيداً، وأن الطالبان حمقى لأنهم لم يقبلوا عرض أمريكا بتسليم بن لادن، وأننا نحن الذين استفززنا أمريكا، التي لم تكن تسعى لعداء المسلمين، وأنهم سيتطوعون للإبلاغ عن أي شخص يشتبهون في عمله ضد الحكومة.

وهنا صرح بعض من قيادات الخارج؛ بأننا لم نوافق على ذلك ولم نقر به[1]، ولكن كان الوقت قد فات، وتم القضاء على الجماعة.

---

[1] ومن ذلك البيان الذي أصدره الشيخ محمد الإسلامبولي، وجاء فيه:

"أتابع في ذهول واندهاش ما ينشر عبر الصحف من تصريحات لقيادات الجماعة الإسلامية في السجون. وكان آخر تلك التصريحات هي ما نشرته مجلة المصور المصرية على مدار ثلاثة أسابيع.

-فإن صح ما نشر- أجدني قياماً بالواجب، وحتى لا يعد صمتي قبولاً لما يقال، فإنني أوضح موقفي اعذاراً إلي الله وصدعاً بالحق الذي تعودنا أن نقوله في الجماعة الإسلامية كما أمرنا الله به.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وتحذيراً من أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾. فأقول والله ولي التوفيق:

١ - لا يحق لإخوة السجن -مع تقديري لمكانتهم- أن يتخذوا مثل تلك القرارات الهامة في تاريخ الجماعة الإسلامية -التراجعات الفكرية، وما ينشر من تصريحات تخالف أفكار الجماعة المتفق عليها- دون مشورة من إخوانهم بالخارج ودون موافقة من الدكتور عمر عبد الرحمن أمير الجماعة الإسلامية.

٢ - وبناءً عليه فأقول وأنا مطمئن أن التصريحات التي أدلي بها قيادة السجن تعبر عن أصحابها، ولا تعبر عن الجماعة الإسلامية ولا عن كامل قيادتها، لأنهم يمثلون جزءً من القيادة.

٣ - لقد وافقنا من قبل على المبادرة السلمية تغليبا للمصالح ودرءاً للمفاسد وتهيئة للمناخ الذي كان يفترض أن يساهم في رفع الظلم والإرهاب الذي كان يمارس على المستضعفين في السجون والمعتقلات وعلى سائر أبناء الشعب المصري، أما أن يحاول النظام تحويل هذا الموقف بالاستمرار في ممارسة الضغوط وأساليب الابتزاز والإذلال على أبناء الجماعة فهذا أمر غير مقبول.

٤ - إنه لم يجر الاتفاق على اختيار بديل للشيخ عمر عبد الرحمن، وما نشر في هذا الصدد لا يعكس رأياً رسمياً للجماعة.

٥ - أن ما يحدث من قيادات السجن من تشويه لأبناء الجماعة الإسلامية وإظهارهم علي أنهم مجرمون وقتلة، وأن ما قام به هؤلاء الشباب مخالف للشرع وحرام، هو أمر خطير يجب التوبة منه، وهو تشويه للحقائق ومساعدة لهذا النظام المجرم علي إخفاء جرائمه وتلميع صورته القبيحة وعمالته المفضوحة.

٦ - إنني أتشرف أن أكون أحد أبناء الجماعة الإسلامية التي قدمت الشهداء تلو الشهداء في مصر وأفغانستان والشيشان والبوسنة والهرسك.. فداءً لدين الله ودفاعاً عن الحرمات والأعراض وجهاداً لطواغيت العصر ويشرفني أن يكون أخي هو خالد الإسلامبولي قاتل طاغية مصر. وأن القول بأن قتل السادات كان خطأ هو خيانة لله وللرسول وللأمة.

٧ - إنني أقول وبصراحة لإخواننا الذين أحببناهم ولا زلنا...

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.

وصبراً يا إخواننا في كل مكان فكلما تشتد المحن يقترب الفرج. والصبر الصبر فإنما النصر صبر ساعة والموعد الجنة.

﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾.

اللهم تقبل شهداءنا عندك وألحقنا بهم غير مبدلين ولا مفتونين

والسلام عليكم ورحمة الله.

ولما جاءت أحداث سبتمبر انطلق الإخوة الكبار ضد القاعدة، ليجنوا المكاسب الحقيقية!!

كل هذا لأن إخواننا في الجماعة أسلموا قيادهم لإخوتهم الكبار الذين تتحكم بهم المباحث حتى اليوم، ولا زالوا بعد الإفراج عنهم تحت مراقبتها الدقيقة، ولا يسمح لهم بلقاء وسائل الإعلام ولا حضور اللقاءات العامة إلا بموافقة الباشوات والبكوات في أمن الدولة، بل ويعاقبون على أي خروج عن الطاعة أو تمرد عليها، وما حدث لصلاح هاشم من تعذيب واعتقال لقرابة عام -رغم أنه أحد آباء التنازلات- دليل صارخ على ذلك.

المهم أن الذي يعنينا في هذا السياق؛ هو الحذر كل الحذر من قيادة الأسرى، وأن ما يصدر عنهم يجب أن يراجع بميزان الشرع، وبميزان الواقع ومصلحة الجهاد، وأن آراءهم وتوجيهاتهم يشوبها ما يشوبها، وأن الانزلاق الأعمى وراءها يؤدي لكوارث وخيمة.

وكم كنا نتمنى أن تكون الجماعة الإسلامية في تلك الوحدة، وأن يتمتعوا بما أنعم الله علينا من نكاية في الصليبيين وشرف جهادهم والتصدي لهم.

وعودة لحديث قاعدة الجهاد، فأقول أنه بهجرتنا لأفغانستان واحتكاكنا بالمواجهة العلنية مع قوى الكفر، انتقل عملنا الجهادي لخطوة متقدمة، وأصبحنا نحس بالعداء الصليبي العالمي ضد الإسلام والمسلمين، ونلمسه واقعاً، ونستشعر الحملة القادمة في الأفق. ولعل هذه الظروف مجتمعة كانت من العوامل -بعد توفيق الله ونعمته- التي دفعتنا لهذا العمل المبارك.

وللوحدة بركات عجيبة لا يلمسها إلا من أنعم الله عليه بها، ويكفي هذا الفرح والسرور والنصر المعنوي الكبير، الذي أدخلناه على قلوب المسلمين، وذلك الغم والذي ملأنا به قلوب أعداء الدين. وأذكر أن أحد المجاهدين السباقين انخرط باكياً من التأثر لما سمع بالخبر.

وكان يوم إعلان الوحدة يوماً مشهوداً بفضل الله، وأذكر من خطبتي يوم الوحدة -بالمعنى لا بالنص- أني قلت مخاطباً الشيخ أسامة حفظه الله:

"جئنا إليك نبايعك ونمد إليك أيدينا، وامتدت معنا أيدي موتى، لا تعرف لهم قبور، وأسرى لا تعرف لهم سجون، وثكالى لا يعرفن أين أبناؤهن، وأرامل لا يعرفون أين أزواجهن، وأيتام لا يعرفون أين آباؤهم، جاءوا معنا يبايعونك، ولا يسألونك نفعاً ولا مغنماً، ولكن يسألونك أن تثأر ممن ظلمهم، وجئنا إليك لا نحمل إلا همنا وأحزاننا، ولا نملك شيئاً، ولانسألك منصباً أو مغنماً إلا أن نقاتل في سبيل الله، حتى ننتصر أو نستشهد".

ثم خاطبت الحشد الحاضر، فقلت لهم:

محمد شوقي الإسلامبولي

الخميس ٢٤من ربيع الآخر. ٤ يوليو ٢٠٠٢".

"فيا شباب الإسلام كونوا كما قال سيدنا عبد الله بن رواحة >:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدثي ... يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

أو كما قال سيدنا حسان بن ثابت >:

من سره كرم الحياة فلا يزل ... في مقنب من صالحي الأنصار

الباذلين نفوسهم لنبيهم ... يوم الوغى لتعانق وكرار

والزائلين الناس عن أديانهم ... بالمشرفي وبالقنا الخطار

يتطهرون يرونه نسكاً لهم ... بدماء من علقوا من الكفار

........"

ثم قلت:

"وفي هذا الحفل فإني لأذكر إخوة كراماً، كان يسرهم أن يكونوا بيننا اليوم، ليشهدوا هذا الحدث الكبير، وأحسب منهم أخانا الكبير الشهيد -ولا نزكيه على الله- أبا عبيدة البنشيري ~، فنم قرير العين يا أبا عبيدة فقد تحققت الوحدة التي كنت تأملها".

وخطب الشيخ أسامة بن لادن حفظه الله، فقال في كلمته:

"إننا لن ننسى أسارى المسلمين في سجون الطواغيت".

وقال:

"إنني أشهد أن أخواننا في جماعة الجهاد كانوا أسهل منا في أثناء التحضير لقيام الوحدة".

فجزاه الله خير الجزاء.

وخطب الشيخ سليمان بو غيث حفظه الله، فكان مما قال:

"ربح البيع يا دكتور. ربح البيع يا دكتور".

فنزلت كلماته على صدري برداً وسلاماً.

وفي اليوم التالي قمنا بزيارة الإخوة المتدربين في معسكر الفاروق بميوند، وألقيت كلمات، منها كلمة جميلة للأخ الحبيب الشهيد -كما نحسبه ولا نزكيه على الله- أبي حفص القائد ~، قال فيها:

"نعيش نحن في ظل الشريعة الإسلامية، ونتجمع من كل أقطار العالم، ونتدرب هنا، ونعد أنفسنا هنا، وتتوحد الجماعات الإسلامية هنا، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى يريد من هنا شيئاً، يريد من هنا شيئاً. فأبشروا يا عباد الله، واثبتوا.

إن تحرير فلسطين هو من هنا، وتحرير أرض الجزيرة هو من هنا، وإعادة بلاد الإسلام إلى مظلة الإسلام وإلى حكم الشريعة هو من هنا.

فاثبتوا يا عباد الله، وأبشروا ووحدوا جهودكم، والتحقوا بهذه القافلة المباركة، التحقوا بها. حتى تكون أيها الأخ المجاهد جندياً تجاهد في سبيل الله، وتعيد مرة أخرى نشر الإسلام في أنحاء العالم كله.

لا بد أن نعود مرة أخرى إلى قيادة البشرية. هذا هو دورنا. نعم هذا هو دورنا، أن نعود إلى قيادة البشرية بمنهج الله. نحمد الله سبحانه وتعالى على هذه الخطوة المباركة، فهي نعمة من عند الله سبحانه وتعالى".

وبعد هذا اللقاء رأيت العديد من الإخوة المتدربين، يأتون للشيخ أسامة يبايعونه على العمل الاستشهادي.

واهتزت وسائل الإعلام للحدث في العالم كله، وأحسب أن إخواننا التسعة عشر قد وقع عليهم الخبر برداً وسلاماً، وزاد من عزيمتهم على النكاية في طاغوت العصر.

وحكي لي الشيخ أبو حفص القائد ~؛ أن الأخ الشهيد -كما نحسبه- أبو إسلام المصري ~ اتصل به من الشيشان، واشتكى له من تفرق المجاهدين وأثر ذلك على معنوياتهم، وحذره من مغبة الفرقة، فبشره أبو حفص ~ بأننا في أفغانستان قد أنعم الله علينا بالوحدة مع إخواننا في جماعة الجهاد.

وفي هذا الوقت توافد العديد من المجاهدين على الشيخ أسامة بن لادن يبايعونه على الجهاد في سبيل الله، وكأنها كانت إرهاصات المعركة الكبرى القادمة.

الفصل الرابع

الغزوات المباركات

رَمى بِكَ اللهُ بُرجَيها فَهَدَّمَها	وَلَو رَمى بِكَ غَيرُ اللهِ لَم يُصِبِ
مِن بَعدِ ما أَشَّبوها واثِقينَ بِها	وَاللهُ مِفتاحُ بابِ المَعقِلِ الأَشِبِ[1]
لَبَّيتَ صَوتاً زِبَطرِيّاً هَرَقتَ لَهُ	كَأسَ الكَرى وَرُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ[2]

---

[1] الأَشَبُ: شِدَّة التِفافِ الشجَرِ وكَثْرَتُه، حتى لا مجازَ فيه. يُقال: فيه موضع أَشِبٌ أَي كثير الشَجر، وغَيْضةٌ أَشِبةٌ، وغَيْضٌ أَشِبٌ أَي مُلْتَفٌّ.

.....

يقال: بَلْدةٌ أَشِبةٌ إِذا كانت ذات شجر. [لسان العرب- حرف الباء- أشب ج: ١ ص: ٢١٤ و٢١٥]. والمعنى: أنهم جعلوها متداخلة منيعة، لا يمكن اختراقها.

[2] زبطري: نسبة إلى زبطرة، وزبطرة: من ثغور المسلمين. غزاها الروم في عام ٢٢٣هـ في خلافة المعتصم. والصوت الزبطري: هو صوت المرأة الأسيرة من زبطرة، التي صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم: "وامعتصماه". فأجابها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك. ونهض من ساعته، وصاح في قصره: النفير النفير. [الكامل في التاريخ- ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين- ذكر فتح عمورية ج: ٦ ص: ٤٠].

وهذه الاستجابة من المعتصم هي التي أشار إليها الشاعر عمر أبو ريشة في قصيدته (بعد النكبة) حين هجا الحكام العرب بقوله:

رب وامعتصماه انطلقت   ملء أفواه الصبايا اليتم

أَجَبتَهُ مُعلِناً بِالسَيفِ مُنصَلِتاً	وَلَو أَجَبتَ بِغَيرِ السَيفِ لَم تُجِبِ
حَتّى تَرَكتَ عَمودَ الشِركِ مُنعَفِراً	وَلَم تُعَرِّجِ عَلى الأَوتادِ وَالطُنُبِ[1]

"إلى إخواننا في فلسطين نقول لهم إن دماء أبنائكم هي دماء أبنائنا، وإن دماءكم دماؤنا فالدم الدم والهدم الهدم، ونشهد الله العظيم أننا لن نخذلكم حتى يتم النصر أو نذوق ما ذاق حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه"[2].

المطلب الأول: في الطريق للغزوات.

المطلب الثاني: المعاني القتالية التي أبرزتها الغزوات.

المطلب الثالث: المعاني السياسية والفكرية التي أبرزتها الغزوات.

المطلب الرابع: الرواية الأمريكية عن الغزوات.

لامست أسماعهم لكنها لم تلامس نخوة المعتصم

الرضاب: الريق المرشوف. [لسان العرب- حرف الباء- رضب ج: ١ ص: ٤١٨].

الخُرَّد: جمع خريدة، وهي البكر التي لم تُمسس قط. [لسان العرب- حرف الدال- خرد ج: ٣ ص: ١٦٢].

العُرُب: جمع العَرُوب. وهي المتحببة إلى زوجها. [مختار الصحاح- باب العين- عرب].

[1] الأبيات لأبي تمام من ملحمته البائية الرائعة في وصف فتح عمورية. الموسوعة الشعرية- أبو تمام. وكأنه يصف الغزوات المباركات.

[2] الشيخ أسامة بن لادن حفظه الله. شريط تدمير المدمرة الأمريكية كول.

المطلب الأول

في الطريق للغزوات

الفرع الأول: محاولات أمريكا لضرب أفغانستان والقاعدة.

الفرع الثاني: المجاهدون والحشد والتحريض.

الفرع الأول:

محاولات أمريكا لضرب أفغانستان والقاعدة

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُنْ ذا عَزِيمَةٍ　　فإنَّ فَسادَ الرَّأْيِ أنْ تَتَرَدَّدا
ولا تُمْهِلِ الأَعْداءَ يَوْماً لِقُدْرَةٍ　　وبادِرْهُمُ أنْ يَمْلِكُوا مِثْلَها غَدا[١]

المطلب الأول: في الطريق للغزوات/ الفرع الأول: محاولات أمريكا لضرب أفغانستان والقاعدة

أستعرض هنا بإيجاز أهم محاولات أمريكا لضرب أفغانستان والقاعدة قبل الغزوات المباركات:

١- منذ صيف عام ١٩٩٧م بدأت المخابرات المركزية الأمريكية تناقش خططاً للعمل ضد الشيخ أسامة بن لادن[٢]. ومنذ خريف عام ١٩٩٧ حتى يونيو ١٩٩٨ أعدت السي آي إيه خطتين لاختطاف الشيخ أسامة بن لادن بواسطة عناصر عميلة في القبائل البشتونية، الأولى بكمين يترصده في حركته من قندهار لمجمعه السكني خارجها، وزعم العملاء القبليون أنهم حاولوا وفشلوا! أما الثانية فكانت عن طريق هجوم ليلي يقوم به عملاء من القبائل على سكن الشيخ أسامة بن لادن للقبض عليه ونقله للمحاكمة في أمريكا أو في بلد عربي حكومته عميلة لأمريكا. وقد تم التصديق على الخطة الأخيرة والتدرب عليها عدة مرات، وحدد يوم ٢٣ يونيو ١٩٩٨ لتنفيذها، ولكن الخطة ألغيت في آخر مايو ١٩٩٨ خوفاً من الخسائر وعدم قدرة القبائل على الحصول على الشيخ أسامة بن لادن حياً[٣].

أي أن أمريكا كانت تعد لخطف الشيخ أسامة بن لادن قبل إعلان الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين في فبراير ١٩٩٨م.

٢- وفي العشرين من أغسطس ١٩٩٨ أطلقت أمريكا وابلاً من الصواريخ على المعسكرات في خوست، فقتلت قرابة ثلاثين شهيداً، في محاولة منها لقتل الشيخ أسامة بن لادن ومعاونيه.

---

[١] البيتان للخليفة أبي جعفر المنصور: الحماسة البصرية- باب الأدب- الموسوعة الشعرية.

[٢] CIA memo,"DCI Talking Points Regarding Operations Against Usama Bin Ladin,"Aug. ٢٥, ١٩٩٧.

نقلتها عن: [٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٤٨٠].

[٣] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١١ to ١١٥.

٣- ما بعد الصواريخ:

أ- بدأ الجنرال شِلتون[١] منذ يوم إطلاق الصواريخ في إصدار أمر تخطيط لمتابعة الضربات، وللتفكير فيما هو أكثر من مجرد استخدام صواريخ كروز، وكانت الضربات المبدئية قد أعطيت الاسم الرمزي (الوصول اللامتناهي)، بينما أعطيت خطط المتابعة الاسم الرمزي (العزم اللامتناهي)[٢].

ب- بدأ ريتشارد كلارك[٣] بعد حملة الصواريخ يفكر في حملة متواصلة ضد الشيخ أسامة بن لادن، فرسم لدائرته المقربة (الخطة السياسية العسكرية؛ دالِندا[٤]، التي كانت تهدف أساساً إلى (إزالة أي خطر مؤثر على الأمريكيين من شبكة الشيخ أسامة بن لادن). وكانت تهدف لمجموعة من الجهود الدبلوماسية لتحرم القاعدة من المأوى، والأعمال السرية لإفشال الأنشطة الجهادية وأهم شيء القبض على الشيخ أسامة بن لادن ومعاونيه، وجلبهم للمحاكمة في أمريكا، وجهود لتجفيف إمداد الشيخ أسامة بن لادن بالمال، والاستعداد لمواصلة العمل العسكري. وكان جانب الخطة العسكري هو أكثرها وضوحاً، وكان يطرح حملة مستمر من الضربات ضد قواعد الشيخ أسامة بن لادن في أفغانستان وغيرها، حيثما يبدو أي هدف مستحقاً للضرب. ورغم توقعه بأن من يسميهم بالإرهابيين لن يجتمعوا مرة أخرى في مكان ظاهرين، فقد زعم أن مواصلة الضربات قد يقنع الطالبان بتسليم الشيخ أسامة بن لادن. وأن الضربات سوف تظهر أن ضربات أغسطس ليست آخر المطاف، وأن الولايات المتحدة مصممة بلا هوادة على تحطيم شبكة الشيخ أسامة بن لادن. ولكن كبار المسؤولين لم يقتنعوا بجدوى مواصلة الضربات ضد أهداف زهيدة، مما قد يزيد من شعبية الشيخ أسامة بن لادن[٥].

ج- وبدأ المسؤولون الأمريكيون يدرسون في الأسبوع الأخير من أغسطس ١٩٩٨ متابعة الضربات، وكان كلينتون مائلاً لتوجيه عدة ضربات عاجلاً وليس آجلاً[٦]. ولكن المشكلة أن وزارة الدفاع كانت تبحث عن أهداف ذات قيمة.

د- وفي محاولة لتحقيق ذلك فإن عدداً من موظفي وزارة الدفاع في مكتب مساعد الوزير لشؤون العمليات الخاصة والصراعات المحدودة قدموا خطة من ثمانية أجزاء، لا تنبني على مجرد توجيه ضربات،

---

[١] رئيس هيئة الأركان المشتركة الأمريكية من عام ١٩٩٧ إلى عام ٢٠٠١.

[٢] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٣٤.

[٣] المنسق الوطني الأمريكي لمكافحة الإرهاب من ١٩٩٧ إلى ٢٠٠١.

[٤] دالِندا كلمة لاتينية تعني: لا بد من تحطيم شيء ما.

[٥] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٢٠.

[٦] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٢٠.

ولكن على القيام بعمليات واسعة المدى تستفيد من كل الإمكانات العسكرية. لكي تكون وزارة الدفاع أكثر مبادرة وعدوانية، وإلا فإن المستقبل قد يجلب هجمات مروعة لأمريكا[١].

٤- في يونيو ١٩٩٩ اتصل كلينتون بنواز شريف، وحاول إقناعه -بكل طاقته- أن يضغط على حكومة طالبان لتطرد الشيخ أسامة بن لادن، وأن يهدد بقطع إمدادات البترول عن أفغانستان أو منع واردتها من كراتشي، واقترح نواز بدلاً من ذلك أن تقوم قوة باكستانية خاصة بالقبض على الشيخ أسامة بن لادن، وفي يوليو التالي قابل كلينتون نواز في واشنطن، وأعاد مناقشة المسألة، ووافق الأمريكان على ما اقترحه نواز؛ بأن يدرب الأمريكان قوة باكستانية خاصة، ويجهزوها بما يلزمها للقبض على الشيخ أسامة بن لادن[٢].

٥- وكجزء من رد كلنتون على تفجير السفارتين أصدر مذكرة تخول السي أي إيه صلاحية القبض على الشيخ أسامة بن لادن ومعاونيه باستخدام عملائها القبليين، أو مهاجمته بوسائل أخرى[٣].

٦- وفي ديسمبر ١٩٩٨ اجتمعت اللجنة الأمنية المصغرة بمجلس الأمن القومي لمناقشة خطر الشيخ أسامة بن لادن، وطرح الجنرالان شِلتون وزيني[٤] بدائل عسكرية، وفيما بعد أخطرت القوات الخاصة الأمريكية أنها قد تؤمر بشن غارة على الشيخ أبي حفص الموريتاني في الخرطوم أو الشيخ أسامة بن لادن في قندهار[٥].

٧- وفي العشرين من ديسمبر ١٩٩٨ وصلت معلومات للمخابرات المركزية بأن الشيخ أسامة بن لادن قد يبيت ليلته في منزل حاجي حبش، وهو كما يزعمون جزء من منزل حاكم قندهار، وعقد اجتماع عاجل لرؤساء المؤسسات الأمنية لأخذ قرار بضرب المنزل بالصواريخ، ولكن تراجعوا خشية إصابة مئات السكان والمسجد المجاور، وأن الشيخ أسامة ربما يكون قد غادر المكان[٦]. وليس هناك منزل لحاجي حبش، ولكن هناك مسجد حاجي حبش، وكان في الصف المقابل له وإلى الجنوب بقرابة ٣٠٠ متر ما كان يعرف بين الإخوة العرب (ببيت الرمان)، وكان مقراً لمعهد اللغة العربية، وليس مسكناً لحاكم قندهار، ولم يكن الشيخ أسامة يبيت فيه.

٨- وفي ديسمبر ١٩٩٨ أعدت هيئة الأركان المشتركة الأمريكية ورقة قرار لاستخدام نوع معين من طائرات الإيه سي ١٣٠ قادر على التحليق السريع والمرتفع ولا يكتشفه الرادار، ويستخدم قذائف من

---

(١) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٢١.

(٢) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٢٦.

(٣) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٢٦.

(٤) قائد القيادة المركزية للولايات المتحدة من عام ١٩٩٧ حتى عام ٢٠٠٠.

(٥) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٣٠.

(٦) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٣٠ & ١٣١.

عيارات ٢٥ و٤٠ و١٠٥ مم لإصابة أهدافه بدقة ضد الشيخ أسامة بن لادن[١]. ولكن القرار لم ينتقل للواقع العملي لظن المخططين عدم وجود أهداف محددة[٢].

٩- وفي ٤ ديسمبر ١٩٩٨ أصدر مدير السي آي إيه؛ جورج تنت[٣] مذكرة[٤] للعديد من مرؤوسيه ولرؤساء وكالات الاستخبارات الرئيسية نص فيها على:

"إننا في حرب مع أسامة بن لادن. ولا أريد توفير إمكانيات ولا رجال في هذا المجهود، سواء داخل السي آي إيه أو في الوسط (الاستخباري)" [٥].

١٠- وفي الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٩٨ صدق كلنتون على مذكرة تخول عملاء السي آي إيه القبليين القبض على الشيخ أسامة بن لادن ومعاونيه، أو قتلهم إذا بدا أن القبض عليهم لن ينجح[٦].

١١- وفي فبراير ١٩٩٩ أصدر كلنتون بناء على طلب السي آي إيه مذكرة تخول تحالف الشمال صلاحية مشابهة لما خوله للعملاء القبليين، ويذكر ضابط الاستخبارات شروين أن مسعود لما علم بأن أمريكا تريد منه أساساً أن يقبض على الشيخ أسامة بن لادن لا أن يقتله، أنه قال:

"أيها الناس إنكم مجانين، ولم تتغيروا قط" [٧].

١٢- وفي فبراير ١٩٩٩ أيضاً زعم الأمريكان رصدهم لمعسكر صيد لأمراء إماراتيين يزوره الشيخ أسامة بن لادن، وقد ذكرت القصة من قبل[٨].

١٣- ويزعم الأمريكان أنهم في مايو ١٩٩٩ رصدوا الشيخ أسامة بن لادن داخل وحول قندهار لمدة خمسة أيام، وتجهزوا لضربه بالصواريخ، ولكن لم يأتهم الأمر[٩]. هكذا يزعمون!

١٤- وفي الخامس والعشرين من يونيو ١٩٩٩ دعا ساندي برجر[١] المجموعة الأمنية المصغرة، لمناقشة لمناقشة قرار بضرب الشيخ أسامة بن لادن، وكانت قيادة الأركان الأمريكية قد أعدت خطة في مطلع

---

(١) DOD memo,"Summary of Conclusions: AC-١٣٠ Deployment Decision Paper," Jan. ١٢, ١٩٩٩.

نقلتها عن: [٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٤٨٦].

(٢) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٤٣ to ١٣٦.

(٣) مدير وكالة المخابرات المركزية من عام ١٩٩٧ إلى عام ٢٠٠٤.

(٤) CIA memo,Tenet to Gordon and others,"Usama Bin Ladin,"Dec. ٤, ١٩٩٨, p. ٢.

نقلتها عن: [٩/١١ COMMISSION REPORT, p:٥٦١].

(٥) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٣٥٧.

(٦) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٣٠, ١٣١ & ١٣٢.

(٧) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٣٣ & ١٣٩.

(٨) الفصل الثاني: الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين.

(٩) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٤٠.

نفس العام لحملة مركزة ضد مراكز الشيخ أسامة بن لادن والمراكز الحكومية للطالبان، ولكن لم يتخذ قرار بالضرب. لخشيتهم كما يزعمون من وجود عائلات في مجمع الشيخ أسامة بن لادن السكني[٢].

١٥- وفي يوليو ١٩٩٩ خول كلنتون السي آي إيه صلاحية العمل مع حكومات أخرى للقبض على الشيخ أسامة بن لادن أو مساعديه الرئيسيين، كما خولها صلاحية القيام بأعمال سرية -في حالات محددة- قد تؤدي لموت الشيخ أسامة بن لادن[٣].

١٦- وفي يوليو ١٩٩٩ أصدر كلينتون قراراً إدارياً باعتبار الإمارة الإسلامية بأفغانستان دولة راعية للإرهاب[٤].

١٧- وفي سبتمبر ١٩٩٩ كشف مدير السي آي إيه جورج تنت عن استراتيجية جديدة لمحاربة بن لادن سميت ببساطة (بالخطة)، وكانت تهدف لعمليات من التفكيك للخلايا والترحيل على مستوى العالم، ولتجنيد كفاءات في محاربة الإرهاب، وأيضاً لزيادة الاتصالات مع تحالف الشمال المناوئ للإمارة الإسلامية بأفغانستان[٥].

١٨- وبضغط من الولايات المتحدة أصدر مجلس الأمن القرار رقم ١٢٦٧ في أكتوبر ١٩٩٩ يطالب فيه أفغانستان بتسليم أسامة بن لادن خلال ثلاثين يوماً، وإلا تعرضت لعقوبات اقتصادية وضد طيرانها[٦].

١٩- وفي آخر أكتوبر ١٩٩٩ طارت مجموعة من ضباط مركز مكافحة الإرهاب الأمريكان بطائرات حوامة لوادي بنجشير للقاء مسعود، وهي رحلة تكررت عدة مرات فيما بعد[٧]، وقد بدا مسعود في اللقاء مصمماً على مساعدة الولايات المتحدة في جمع المعلومات عن أنشطة وأماكن وجود الشيخ أسامة بن لادن، كما وافق على أن يحاول القبض عليه إذا سنحت الفرصة[٨].

---

[١] مستشار الأمن القومي الأمريكي من عام ١٩٩٧ حتى عام ٢٠٠١.

[٢] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٤١.

[٣] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٤٢.

[٤] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٢٥.

[٥] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٤٢.

[٦] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٢٥ & ٤٨٣.

[٧] تكررت هذه الزيارة بعد ذلك مرتين على الأقل، مرة من ١٣ إلى ٢١ مارس ٢٠٠٠، ومرة أخرى من ٢٤ إلى ٢٨ أبريل ٢٠٠٠. [٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٥٠٥ & ٥٠٦].

[٨] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٤٢.

٢٠- وفي نهاية عام ١٩٩٩ بدأت السي آي إيه في النظر في احتمال إرسال أمريكيين لأفغانستان، وكانت قد ناقشت هذا الأمر مع قيادة القوات الخاصة، وكان تقديرها أن القوات الخاصة قادرة بنسبة ٩٥% على القبض على الشيخ أسامة بن لادن لو أرسلت لأفغانستان[١].

٢١- وفي منتصف ديسمبر ١٩٩٩ وقع كلنتون (مذكرة توجيه) تخول السي آي إيه صلاحية أوسع في أن تستخدم وكلاءها الخارجيين في القبض على مساعدي الشيخ أسامة بن لادن، دون الحاجة لنقلهم لمعتقلات الولايات المتحدة[٢]. وكانت صلاحية في أن يقبضوا لا أن يقتلوا، رغم أن القوة القاتلة ممكن استخدامها عند الضرورة[٣].

٢٢- وفي أواخر ديسمبر ١٩٩٩ أُرسل الجنرال زيني قائد القيادة المركزية كمبعوث خاص للرئيس الأمريكي إلى برويز مشرف ليتخذ أي إجراء يراه ضرورياً لحل مشكلة الشيخ أسامة بن لادن في أسرع وقت ممكن[٤].

٢٣- وفي يناير ٢٠٠٠ قابل مساعد وزير الخارجية الأمريكي كارل إيندرفورث[٥] و منسق قسم مكافحة الإرهاب بالوزارة ميتشل شيهان[٦] الجنرال مشرف في إسلام أباد، وقد أخبر مشرف المبعوثين أنه سيقابل الملا محمد عمر أمير إمارة أفغانستان الإسلامية، ويضغط عليه بشأن الشيخ أسامة بن لادن[٧].

٢٤- وفي مارس ٢٠٠٠ زار كلنتون باكستان، ورجا مشرف أن يساعدهم بشأن الشيخ أسامة بن لادن، وأغراه بمساعدات أمريكية وتطوير العلاقات بين البلدين لو وفى بوعده، وزار أفغانستان، وضغط على الملا محمد عمر لطرد الشيخ أسامة بن لادن[٨].

٢٥- وفي نهاية مارس ٢٠٠٠ زار نائب وزير الخارجية الأمريكي توماس بيكرينج باكستان لنفس الغرض[٩].

٢٦- وفي مايو ٢٠٠٠ زار وفد يمثل مسعود واشنطن، والتقى بريتشارد كلارك و ميتشل شيهان وكبار المديرين في السي آي إيه لمناقشة ما اتفق عليه من قبل[١٠].

---

(١) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٤٣.

(٢) أي للسجون السرية.

(٣) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٧٦.

(٤) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٧٦.

(٥) مساعد وزير الخارجية الأمريكي لجنوب آسيا من عام ١٩٩٧ إلى عام ٢٠٠١.

(٦) منسق مكافحة الإرهاب بوزارة الخارجية الأمريكية من عام ١٩٩٨ إلى عام ٢٠٠٠.

(٧) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٨٣.

(٨) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٨٣.

(٩) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٨٣.

(١٠) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٥٠٦.

٢٧- وفي يونيو ٢٠٠٠ زار جورج تنت مدير السي آي إيه باكستان بنفس الرسالة، واتفق معه مشرف على إنشاء مجموعة مكافحة إرهاب لتنسيق الجهود بين الوكالات الباكستانية والسي آي إيه[١].

٢٨- وفي صيف عام ٢٠٠٠ استمرت الخطط لضرب القاعدة وأفغانستان في التطور، وكانت السفن الحربية في بحر العرب على أهبة الاستعداد لضرب أهدافها في أفغانستان. وفي الصيف دقق العسكريون من قائمة أهدافهم وإمكانات العمليات الخاصة لمجموعة من ثلاثة عشر اختياراً ضمن عملية (العزم اللامتناهي)[٢].

٢٩- وخلال هذه الفترة كان كلنتون محبطاً من قلة البدائل العسكرية المتاحة للظفر بالشيخ أسامة بن لادن وقيادة القاعدة، وقد عبر عن ذلك للجنرال هيو شلتون حين قال له:

"أتعلم؟ سوف نخلع قلوب القاعدة، لو فجأة قفزت مجموعة من النينجا السوداء من حواماتها في وسط معسكرهم" [٣].

٣٠- وفي السابع من سبتمبر ٢٠٠٠ بدأت طائرة الاستطلاع بدون طيار (بريديتور) في التحليق فوق أفغانستان ضمن عملية (عيون أفغانية)، لمحاولة تحديد موقع الشيخ أسامة بن لادن أو أعوانه أو مخازن أسلحته، حتى يمكن ضربه بالطيران أو صواريخ كروز، وقامت تلك الطائرة بخمس عشرة رحلة، اعتبرت عشرة منها ناجحة. وزعم الأمريكان أنهم تمكنوا من تصوير الشيخ أسامة بن لادن مرتين[٤].

٣١- وفي سبتمبر ٢٠٠٠ اجتمع تومي فرانكس -القائد العام للقيادة المركزية الأمريكية[٥]- بكبار مديري القيادة المركزية، وقال عن ذلك في مذكراته:

"في صباح الثلاثاء أواخر سبتمبر ٢٠٠٠ جمعت كبار مديري القيادة الوسطى في مكتبي بتامبا لمراجعة موقف القيادة العملياتي تجاه القاعدة.

كانت مجموعة عمليات (الجنرال) ساندي ساندستروم قد حددت سلسلة من خيارات أهداف القاعدة اعتماداً على التصوير والمعلومات الالكترونية. وكان هذا يرتبط بمعسكرات تدريب معروفة أو محتملة، وما نسميه من ناحية متفائلة تسهيلات «الضيافة»، أي بعض البيوت والمكاتب، التي كانت الأوساط الاستخباراتية تعتقد أن أسامة ومساعديه يقومون بعملهم فيها بين حين وآخر. وإذا ما أخذنا بالحسبان نوعية معلوماتنا الاستخباراتية، فإنني لم أكن مقتنعاً بأن بوسعنا أن نقضي على القاعدة في أفغانستان باستخدام صواريخ كروز

---

(١) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٨٣ & ٥٠٣.

(٢) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٨٨.

(٣) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٨٩.

(٤) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٨٩ & ١٩٠.

(٥) قائد القيادة المركزية للولايات المتحدة من عام ٢٠٠١ حتى عام ٢٠٠٣.

والضربات الجوية فقط. ولكنني وجهت العاملين في مجموعة عمليات ساندي إلى العمل على نحو وثيق مع نائب الأدميرال ويلي مور، قائد بحريتنا لتحسين أوقات استجابة "قاذفات توماهوك" للحالات الضرورية.

وإذا ما كان لنا أن نشن هجوماً فعالاً ضد القاعدة فقد كنت أعرف أن ذلك سيتطلب عمليات برية. وكان سيتعين علينا أن ندخل، ونحصل على المعلومات، ونتصرف في ضوء ذلك.

ولكن أية غارة من جانب القوات الهجومية الاستراتيجية كان ينبغي أن تكون قوية بما فيه الكفاية، لإلحاق الهزيمة بحلقة القوات الأمنية، ذات القدرات والتسليح الثقيل المحيطة بأسامة بن لادن ومساعديه. وتتطلب مثل هذه العملية وحدات مهمات خاصة، أي تحليق طائرات على مناطق أكثر من دولة، والقيام بإجراءات التنظيم والإعداد، ومعلومات دقيقة كافية تبلغنا عن الموقع، الذي نستهدفه في ضرباتنا. والأكثر أهمية أن مثل هذه العملية تتطلب قرارات سياسية خطيرة. وكنت أعتقد أن بوسعنا أن نعالج موضوع الاستعداد وتحليق الطائرات، ولكن المصادقة الوطنية على شن عملية هجومية استراتيجية ذات مخاطر في أفغانستان، في ظل غياب معلومات دقيقة، لم تكن محتملة في عصر ما بعد مقديشو"[١].

٣٢- وفي منتصف نوفمبر ٢٠٠٠ طلب برجر من الجنرال شِلتون أن يعيد تقييم الخطط العسكرية للعمل بسرعة ضد الشيخ أسامة بن لادن. وطلب شلتون بدوره من الجنرال تومي فرانكس أن يراجع البدائل مرة أخرى. وأوجز شلتون لبرجر بدائل خطة (العزم اللامتناهي) التي تطورت منذ عام ١٩٩٨، والتي دققتها هيئة الأركان والقيادة المركزية إلى قائمة من ١٣ احتمالاً، كما أضافت القيادة المركزية مبدأً جديداً (للحملة المتدرجة) لنطاق أوسع للضربات، يشمل ضربات ضد الإمارة الإسلامية بأفغانستان. ولأول مرة كانت هذه الضربات ترمي لحملة جوية ضد أفغانستان لمدة غير محددة[٢].

٣٣- والتقى تومي فرانكس بريتشارد كلارك -مستشار الأمن القومي في عهدي كلينتون وبوش- في عام ٢٠٠٠ لتدارس القيام بعمليات عسكرية ضد القاعدة، وعن ذلك يقول في مذكراته:

"كان موضوع النقاش القاعدة وطالبان. وبدأ كلارك باستعراض المعلومات الاستخبارية المتاحة، ومع أن تلك المعلومات وصلت مؤخراً إلا أنها ربما لا تكون دقيقة.

....

---

[١] الشرق الأوسط ٢٠ أغسطس ٢٠٠٤- جندي أمريكي- الحلقة السادسة.

[٢] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٩٤.

ثم سألته عن المعلومات الاستخبارية عن القاعدة. قلت: ديك، من أجل أن تتمكن القيادة الوسطى من رسم خطط عملية للحرب، فإننا نحتاج إلى معلومات استخبارية قابلة للاستخدام. فصواريخ توماهوك قادرة على ضرب المواقع، التي تحدد لها بصورة مسبقة. ولكن التقرير الذي يقول إن أسامة بن لادن ربما يكون قد قضى ليلته في ذلك الكهف، لا تمثل أهدافاً محتملة. وربما تساعدنا مثل هذا التقارير على الوصول إلى نمط محدد لتحركاته، ولكننا نحتاج إلى معلومات دقيقة ومحددة زماناً ومكاناً حتى نستطيع استهدافه.

ابتسم كلارك ابتسامة العارفين وقال إنه يملك "تقنيات" يمكن أن تساعد في حل هذه المشكلة. واستنتجت مباشرة أنه يقصد طائرة الاستطلاع "بريديتور"، والتي تستطيع أن تحلق لساعات فوق أرض العدو، وترسل صوراً شديدة الوضوح ليلاً ونهاراً. وكانت "سي آي إيه" تحاول تسليح بريديتور بصواريخ هيلفاير، وقلت لنفسي إن هذا سيكون سلاحاً خطيراً جداً. ولكني تذكرت في نفس الوقت الحكمة العسكرية التي تقول: "من الخطير عدم التمييز بين الرغبة والقدرة".

وتساءلت عما إذا كان ديك كلارك قد سمع بهذه الحكمة.

كنت حريصاً على تدمير القاعدة. ولكن زيارتي لكلارك لم تقدمني خطوة واحدة تجاه هذا الهدف"[١].

٣٤- وقادت الولايات المتحدة حملة في الأمم المتحدة لفرض عقوبات جديدة على أفغانستان أدت لإصدار قرار مجلس الأمن رقم ١٣٣٣ في ديسمبر ٢٠٠٠، الذي يكرر الطلب بطرد الشيخ أسامة بن لادن، وتحظر على أية دولة أن تمد الإمارة الإسلامية بأفغانستان بالسلاح أو المساعدة العسكرية[٢].

٣٥- وفي ختام عام ٢٠٠٠ بدأت السي آي إيه ومجلس الأمن القومي يفكران في السياسة الجديدة التي سيقدمانها لإدارة بوش الجديدة بخصوص مقاومة الإرهاب. وبدأ مركز مقاومة الإرهاب في السي آي إيه يفترض أنه سيقدم أفضل ما عنده من أفكار، وأنه لن تكون عليه أية قيود مالية من أية سياسة سابقة، ولذا قدم ورقة أسماها بمذكرة (السماء الزرقاء) طرحت ما يلي:

- القيام بمجهود ضخم لدعم تحالف الشمال عبر تبادل الاستخبارات وزيادة التمويل، حتى يمكنه أن يحطم جيش الطالبان ويقيد القاعدة. ولم يكن هذا المجهود يهدف لإزالة

---

[١] الشرق الأوسط ٢٠ أغسطس ٢٠٠٤- جندي أمريكي- الحلقة السادسة.

[٢] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p:١٨٣.

الطالبان من السلطة، لأن هذا الهدف اعتبر غير عملي وشديد الكلفة على السي أي إيه وحدها.

- زيادة الدعم للأوزبك ليساعدوا أمريكا في مقاومتها للإرهاب.
- دعم المجموعات المناوئة لطالبان[١].

٣٦- ولما أوشكت مدة إدارة كلنتون على الانتهاء أعد كلارك وفريقه ورقة سياسة بعنوان (استراتيجية التخلص من تهديد شبكات جهاديي القاعدة- الواقع والتطلعات). وقد راجعت الورقة التهديد حتى كتابتها، وضمت الأفكار التي احتوتها مذكرة السي آي إيه؛ (السماء الزرقاء)، وطرحت عدة بدائل قريبة المدى. وقد توقع كلارك وفريقه أن يعيدوا القاعدة للوراء في خلال ثلاث إلى خمس سنوات، ويحولوها لمجموعة من البقايا، وقد رأت الورقة أن الجهود الحالية ضد القاعدة قد تمنع بعض الهجمات، ولكنها تعجز عن شل قدرة القاعدة على التخطيط وشن الهجمات. وقد أيدت الورقة الدعم السري لتحالف الشمال ولأوزبكستان، وتجديد طلعات طائرة البريديتور من مارس ٢٠٠١. كما طالبت بعمل عسكري لتدمير مراكز القاعدة للتحكم والسيطرة وبنيتها التحتية، وكذلك قدرات الطالبان القيادية والعسكرية[٢].

٣٧- وقبيل استلام بوش لرئاسته بأسبوع اجتمع به جورج تنت ليوجز له سياسة الوكالة، وسأله بوش: هل تستطيع السي آي إيه أن تقتل بن لادن؟ فرد تنت بأن قتل بن لادن سيكون له أثر، ولكنه لن ينهي التهديد. وقال تنت إن السي آي إيه لديها كل الصلاحيات التي تحتاجها[٣].

٣٨- وفي ديسمبر ٢٠٠٠ التقى بوش بكلنتون ليتناقشا في تحديات الأمن القومي والسياسة الخارجية قبيل مغادرة الأخير، وكان مما قاله كلنتون لبوش:

"أعتقد أنك ستجد أن بن لادن والقاعدة هما أكبر الأخطار قاطبة. وإن من أشد ما ندمت عليه في رئاستي أني لم أظفر لك ببن لادن، مع أني قد حاولت"[٤].

٣٩- ويقول تومي فرانكس عن اتصال كلارك به في ٩ يناير ٢٠٠١:

"في التاسع من يناير ٢٠٠١ وفي الأيام الأخيرة من عهد ادارة كلينتون اتصل بي ديك كلارك من مجلس الأمن القومي لمناقشة ملاحقة الحكومة لأسامة بن لادن والقاعدة.

[١] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٩٦ & ١٩٧.
[٢] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٩٧.
[٣] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٩٨, ١٩٩ & ٥٠٨.
[٤] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٩٩.

....

وكانت هناك معلومات حساسة في ما يتعلق ببرنامج عملية البريديتور. وقال إن العملية تسير قدماً وقد تحصد النتائج قريباً. كما قال إن أداء مصادر المعلومات البشرية يتحسن، ولكنه لا يتميز بالسعة والإتقان.

قلت: «هذا شيء عظيم. نحن مستعدون لتنسيق الأهداف».

ولم أتلق أبداً أية توصية عملياتية أو صفحة معلومات تتعلق بالعمل من ريتشارد كلارك" [١].

٤٠- ويقول عن لقائه بمشرف في ١٩يناير عام ٢٠٠١:

"ثم ركز[٢] *بعد ذلك على أفغانستان، وقال: "ليس أمامنا خيار سوى العمل مع طالبان. أستطيع أن أؤكد لك أننا نبغض نزعتهم المتطرفة، ولكنهم جلبوا الاستقرار إلى أفغانستان وأنهوا إراقة الدماء بعد مغادرة السوفيات. يجب أن نتمتع بالاستقرار على الأقل في حدود واحدة".*

....

قال[٣]*: "أنت تعرف أيها الجنرال أن طالبان معزولة. لدينا بعض النفوذ معهم، ولكننا لا نسيطر عليهم. سأبذل ما في وسعي للمساعدة ولكننا بحاجة إلى مساعدة من المجتمع الدولي".*

والمساعدة التي كان يفكر بها بالطبع هي المساعدة الاقتصادية والعسكرية الأمريكية. ولم أكن هناك لتقديم امتيازات. ولكني يمكن أن أنقل هذه الرسالة إلى واشنطن.

وقال طارحاً قضيته مباشرة: "إن باكستان يمكن أن تساعد في مشكلة أسامة بن لادن والقاعدة. وإذا ما استطعنا زيادة نفوذنا مع طالبان فإنه من المحتمل أن يوافقوا على طرده إلى دولة محايدة لينفى فيها أو لمحاكمته هناك".

قلت: "أنا هنا لأستمع أيها الجنرال مشرف".

وواصل مشرف حديثه، ولكن المعلومات الحاسمة قد جرى تبادلها. فإذا ما ساعدناه في تلبية حاجات باكستان، فإنه سيساعدنا في قضية بن لادن والقاعدة.

وبينما كنا نتحدث لفت انتباهي أنه من المناسب أننا نرتدي بدلاتنا العسكرية. فلسنوات كان المسؤولون والمبعوثون الدبلوماسيون الأمريكيون يرتدون البدلات المدنية

---

[١] الشرق الأوسط ٢٥ أغسطس ٢٠٠٤- جندي أمريكي- الحلقة الثامنة.

[٢] يقصد مشرف.

[٣] أي مشرف.

الرسمية ويتحدثون، بلغة متعالية، مع السياسيين العسكريين مثل برويز مشرف حول حقوق الإنسان والحكومات الدستورية. ومن الطبيعي أنني أؤمن بهذه القضايا بالمستوى ذاته من القناعة، ولكن في هذه المرحلة من التاريخ كنا بحاجة إلى تحديد الأولويات. إن إيقاف القاعدة من أهم هذه الأولويات، وكان مشرف مستعداً لتقديم المساعدة" [١].

٤١- وفي فبراير ٢٠٠١ كتب بوش لمشرف حول عدة مواضيع، وأكد على أن الشيخ أسامة بن لادن والقاعدة يشكلان تهديداً مباشراً –للولايات المتحدة ومصالحها- يجب التصدي له، وحث مشرف على استخدام نفوذه المزعوم لدى الإمارة الإسلامية بأفغانستان بشأن الشيخ أسامة بن لادن والقاعدة[٢].

٤٢- وفي ٣٠ أبريل ٢٠٠١ اجتمعت لجنة مندوبي الأجهزة الأمنية وتناقشت حول القاعدة. وقدمت السي آي إيه إيجازاً بالشرائح وصفت فيه القاعدة بأنها:

"أشد المجموعات التي نواجهها خطورة". مستشهدة *"بقيادتها وخبرتها وإمكاناتها وملاذها الآمن في أفغانستان، وتركيزها على مهاجمة الولايات المتحدة"*. وحذرت الشرائح من أنه *"ستكون هناك هجمات أكثر"*.

وأقرت اللجنة دعماً خفياً لأوزبكستان، أما بشأن التحالف الشمالي فاتفقوا على ألا يقوموا بأي توجه كبير في الوقت الحالي، وأن على واشنطن أولاً أن تدرس بدائل دعم المجموعات الأخرى المناوئة للطالبان. وفي نفس الوقت فعلى الإدارة أن تشرع في مراجعة شاملة لسياسة الولايات المتحدة تجاه باكستان. وتستكشف بدائلها السياسية حول أفغانستان، بما في ذلك بديل دعم تغيير النظام[٣].

٤٣- وفي ٢٩ مايو ٢٠٠١ عقدت رايس اجتماعاً مع تنت وعدداً من كبار المسؤولين المتصلين بمكافحة القاعدة. وتساءلت رايس: *"ألا يمكن أن نبادر بالهجوم؟"*. وهل من طريق يمكن سلوكه للتأثير على الشيخ أسامة بن لادن أو الطالبان؟ فرد كلارك وبلاك[٤] بأن إجراءات تمزيق القاعدة *"تبادر بالهجوم"*، ولكن الشيخ أسامة بن لادن لا يمكن ردعه. ودار نقاش موسع حول (قصم ظهر تنظيم الشيخ أسامة بن لادن)، وأكد تنت على الخطط الطموحة للعمل السري التي طورتها السي آي إيه منذ عام ٢٠٠٠.

[١] الشرق الأوسط ٢٥ أغسطس ٢٠٠٤- جندي أمريكي- الحلقة الثامنة.

[٢] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٢٠٧.

[٣] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٢٠٣.

[٤] كوفر بلاك: مدير مركز مكافحة الإرهاب في إدارة المخابرات المركزية من عام ١٩٩٩ حتى عام ٢٠٠٢.

وقد طُلِب من كلارك وبلاك أن يطوروا بدائل متراوحة من الأقل للأكثر طموحاً. وقد طلبت رايس وهادلي[١] من كلارك وفريقه أن يكتبوا مسودة توجيه رئاسي جديد. وفي ٧ يونيو وزع هادلي المسودة الأولى التي تهدف إلى: "التخلص من شبكة مجموعات القاعدة كتهديد للولايات المتحدة والحكومات الصديقة". وقد طالبت بمجهود متعدد السنوات يشمل الدبلوماسية والعمل السري والإجراءات الاقتصادية وتطبيق القانون والدبلوماسية الشعبية والمجهودات العسكرية عند اللزوم.

وكان على وزارة الخارجية أن تعمل مع الحكومات الأخرى لتقضي على كل ملاذات القاعدة، وأن تعمل مع وزارة الخزانة للقضاء على تمويل الإرهاب. وكان على السي آي إيه أن تطور برنامجاً موسعاً للعمل السري يتضمن تمويلاً إضافياً قيماً ودعماً للمجموعات المناوئة للطالبان.

وكلفت المسودة أيضاً (مكتب الإدارة والميزانية) أن يتأكد من توفير الاعتمادات اللازمة لهذا البرنامج في ميزانيات الأعوام المالية من ٢٠٠٢ إلى ٢٠٠٦.

وقد رأت رايس في مسودة هذا التوجيه تجسيداً لاستراتيجية جديدة شاملة تستخدم كل أدوات القوة الوطنية للتخلص من تهديد القاعدة[٢].

٤٤- وفي ١٨ يونيو ٢٠٠١ قابلت رايس وزير خارجية باكستان الزائر عبد الستار، ووبخته بقسوة، ونصح عبد الستار المسؤولين الأمريكيين بأن يتعاملوا مع الطالبان، وأن هذا المسار -وإن كان سيستغرق وقتاً- ولكنه قد يثمر[٣].

٤٥- وفي يونيو ٢٠٠١ أعادت الحكومة الأمريكية الضغط على الإمارة الإسلامية لتسلم الشيخ أسامة بن لادن لأية دولة، يمكن أن يواجه فيها ما تسميه أمريكا بالعدالة، وأعادت تهديدها بأن الإمارة الإسلامية بأفغانستان ستكون مسؤولة عن أية هجمات على مصالح الولايات المتحدة.

وفي أوائل يوليو ٢٠٠١ قابل السفير الأمريكي ميلام نائب وزير خارجية الإمارة الإسلامية الملا عبد الجليل في إسلام آباد، وأكد له أن الشيخ أسامة بن لادن لابد أن يطرد[٤].

٤٦- وفي ١ أغسطس ٢٠٠١ اجتمعت لجنة مندوبي الأجهزة الأمنية لتبحث مجدداً تسليح طائرات التجسس بدون طيار (البريديتور)، وخلصت اللجنة إلى أن من حق أمريكا أن تقتل الشيخ أسامة بن لادن أو أحد نوابه دفاعاً عن نفسها[٥].

---

[١] ستيفن هادلي: نائب مستشار الأمن القومي الأمريكي.

[٢] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p:٢٠٤ & ٢٠٥.

[٣] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٢٠٧.

[٤] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٢٠٥ & ٥١١.

[٥] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٢١٢.

٤٧- وفي ٤ أغسطس ٢٠٠١ كتب بوش لمشرف يسأله المساعدة في التصدي للإرهاب، وليحث باكستان على أن تعمل جاهدة ضد القاعدة[١].

٤٨- ويقول تومي فرانكس:

"في أول أسبوع من سبتمبر عملت مع جورج تنت ومع مساعدة وزيرة الخارجية كريستيانا روكا لترتيب لقاء مع الجنرال محمود أحمد مدير الاستخبارات الباكستاني خلال رحلة مقرر أن يقوم بها إلى واشنطن. كنت تواقاً للنظر بعمق إلى العلاقات التي تجمع باكستان بطالبان، ولتقييم إمكانية أن تقوم باكستان بمساعدتنا في الوصول إلى أسامة بن لادن والقاعدة عن طريق زيادة التعاون بين وكالاتنا. وتقرر أن يكون اللقاء به يوم ١٠ سبتمبر ٢٠٠١"[٢].

٤٩- وفي ١٠ سبتمبر ٢٠٠١ اجتمع مندوبي الأجهزة الأمنية الأمريكية وقرروا الاتفاق على خطة من ثلاثة مراحل.

المرحلة الأولى: يرسل وفد للإمارة الإسلامية بأفغانستان لمنحها الفرصة الأخيرة.

المرحلة الثانية: لو فشلت المرحلة الأولى يضاف للضغط الدبلوماسي المتواصل برنامج عمل سري مخطط، يشجع الأفغان المناوئين للإمارة الإسلامية بأفغانستان من كل المجموعات العرقية الأساسية على تضييق الخناق على الإمارة الإسلامية في الحرب الأهلية وعلى مهاجمة قواعد القاعدة، في الوقت الذي تشكل فيه الولايات المتحدة تحالفاً دولياً لتخلع النظام.

المرحلة الثالثة: لو لم تتغير سياسة الإمارة الإسلامية تقوم الولايات المتحدة بعمل سري لقلب نظامها من داخله.

وقد وافق المجتمعون على مراجعة توجيه القاعدة الرئاسي، الذي كان يجهز لتصديق الرئيس، لكي تضاف له هذه الخطة[٣].

والآن بعد هذا السرد الذي ربما يكون القارئ قد مل منه، أود أن أبين أني قد تعمدته، لأوضح للقارئ السعي الأمريكي الحثيث العدواني المتواصل في الهجوم والاعتداء على القاعدة والطالبان. وقد سردت هذه الخطوات والمساعي مما تيسر لي من المصادر، رغم قلة ما يتوفر لي، ورغم أن الأيام قد تكشف أكثر، أقول تعمدت أن أسرد هذه المساعي من المصادر الأمريكية الرسمية ومن مذكرات أحد كبار قادتهم. حتى أستدل بمصادر لا يتطرق لها الشك. وقراءة هذه المساعي تبين الآتي:

---

[١] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٢٠٧.

[٢] الشرق الأوسط ٢٥ أغسطس ٢٠٠٤- جندي أمريكي- الحلقة الثامنة.

[٣] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٢٠٦.

أ- أن الحكومة الأمريكية منذ صيف عام ١٩٩٧ وهي تحاول خطف أو قتل الشيخ أسامة بن لادن، كما بينت مذكرة السي آي إيه، التي استشهدت بها[١]. أي قبل إعلان (الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين)[٢]، وقبل تفجير السفارتين في نيروبي ودار السلام[٣].

ب- أي أن أمريكا تسعى لقتل أو خطف كل من تحس منه جدية في مقاومتها، أما الذين يعارضونها بشقشقة اللسان فهي تعرف قدرهم. وفي هذا رد على المنهزمين، الذين اتهموا أسامة بن لادن والقاعدة بأنهم سبب حرب أمريكا على العالم الإسلامي.

ج- وإذا كانت أمريكا لا تتساهل مع كل من تلمس منه جدية في مقاومتها، فليس لنا معها إلا طريقان، الأول هو أن نستسلم لعدوانها المستمر علينا منذ أربعينيات هذا القرن، وقد نخدع أنفسنا بالثرثرة حول جرائمها، أو أن نتصدى لعدوانها، حتى نعيش مسلمين أعزة شرفاء أحرار، وهنا ستندلع الحرب بيننا وبينها بكل ما تحمله هذه الحرب من صعاب ومشاق وتضحيات.

د- أن أمريكا كانت تسعى لقتل أو أسر الشيخ أسامة بن لادن وترويض الإمارة الإسلامية بأفغانستان، حتى تتحول لحكومة خانعة مثل بقية الدول التي تزعم أنها إسلامية، وكانت مستعدة لممارسة كل أنواع العنف والأعمال السرية والقذرة في سبيل ذلك.

هـ - أن أمريكا لم تنفذ كثيراً من خططها بسبب تردد قادتها في تحمل المسؤولية والخسائر، وهذا يظهر ضعف عدونا.

و- أن أمريكا قررت قبل الحادي عشر من سبتمبر أن تخضع الإمارة الإسلامية لمخططاتها وأن تحاول الظفر بأسامة بن لادن بكل ما تملكه من (كل أدوات القوة الوطنية)، وقد بلغت ذروة هذه المخططات بالخطة التي أقرت يوم ١٠ سبتمبر ٢٠٠١.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

وأود أن ألفت انتباه القارئ إلى أني لم أذكر المعلومات المتكررة التي كانت تصلنا عن الخطط الأمريكية وعن الحشود على حدود أفغانستان الشمالية، والتحركات الأمريكية في آسيا الوسطى، والدعم الإيراني المتواصل لتحالف الشمال، بل والجهد والضغط الإيراني لتجميع ذلك التحالف المهترئ. وإنما اقتصرت على ما نقلته عن مصادر الأمريكان الرسمية وشبه الرسمية.

---

[١] CIA memo,"DCI Talking Points Regarding Operations Against Usama Bin Ladin,"Aug. ٢٥, ١٩٩٧.

نقلتها عن: [٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٤٨٠].

[٢] في ٢٥ شوال ١٤١٨هـ الموافق ٢٢ فبراير ١٩٩٨م.

[٣] في ٧ أغسطس ١٩٩٨.

أمر آخر أود أن ألفت انتباه القارئ له؛ وهو كثرة ما ردده الأمريكان في كتاباتهم وأحاديثهم عن المعلومات التي كانت تصلهم عن استعدادات القاعدة لضربهم. وهذا من باب التهويل من قدراتهم، وأن لديهم استخبارات تراقب وتطلع على دقائق الأمور، وحقيقة الأمر أن الأمر لم يكن يحتاج لأية معلومات أو مصادر، فقد كرر الشيخ أسامة بن لادن، وأكثر من التكرار بأن المجاهدين قد خرجوا لضرب أمريكا، وكانت أحاديثه يتناقلها الناس وتنشرها وسائل الإعلام!!

يقول تومي فرانكس في لهجة دعائية مكشوفة:

"خلال ربيع ٢٠٠١ وحتى الدخول في الصيف ظلت حماية وحداتنا المنتشرة من هجمات الإرهابيين هي الهم الأساسي. قضيت أياماً كثيرة وعطل نهاية الأسبوع مع قادة القوات الجوية والبرية والبحرية، حيث بقينا نعمل من أجل التوثق من عدم تكرار مهاجمة أبراج الخبر ومهاجمة السفينة الحربية كول.

وعند حلول الصيف كان الأفراد العاملون في الاستخبارات يشتغلون مع "سي آي إيه" ووكالة الاستخبارات العسكرية لجمع وتحليل مؤشرات متواصلة عن نشاط يخطط له الإرهابيون في الشرق الأوسط، لكنها مؤشرات غير محددة. ومصادر هذه المعلومات كانت مزيجاً من استخبارات بشرية وتقنية" [١].

ويقول متظاهراً العلم ببواطن الأمور، مستعرضاً معلومات تضحك الثكلى، لا تساوى ثمن الحبر الذي كتبت به:

"ولم تعد ملاحقة القاعدة عبر التنصت على الاتصالات مهمة سهلة. ففي السابق كان أسامة بن لادن يستخدم هاتفاً عبر الأقمار الصناعية لكل شيء من تحديد مواقع قواته إلى الحديث مع والدته في السعودية!! ولكن أسامة تخلى عن الممارسة، بعد أن كشفت تسريبات الصحافة عن أن ضربات أغسطس من عام ١٩٩٨ الجوية بصواريخ توماهوك، بعد تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا، قد استهدفت آخر موقع معروف لهاتفه!! وتستخدم القاعدة في الوقت الحالي مجموعة من الهواتف السوفييتية المدنية، التي تعمل على الموجات القصيرة المدى، وطائفة من هواتف موتورولا اللاسلكية، والرسائل الإلكترونية التي ترسل من مقاهي الانترنت في دول العالم الثالث، إضافة إلى وسائل الملاحظات القديمة" [٢].

ثم قارن هذه الطريقة الاستعراضية والتهويلية لدى الأمريكان بكلام الشيخ أسامة بن لادن الواضح الصريح المتحدي المستعلي بالإيمان:

---

[١] الشرق الأوسط ٢٥ أغسطس ٢٠٠٤- جندي أمريكي- الحلقة الثامنة.

[٢] الشرق الأوسط ٢٠ أغسطس ٢٠٠٤- جندي أمريكي- الحلقة السادسة.

يقول الشيخ أسامة بن لادن –حفظه الله– في لقائه بالمجاهدين في معسكر الفاروق بميوند قبيل الغزوتين:

"بشرناكم بفضل الله سبحانه وتعالى، منذ أسابيع بأن إخواناً لكم قد خرجوا يحملون رؤوسهم على أكفهم يبتغون الموت مظانه من أجل رضوان الله سبحانه وتعالى، فأرجو الله سبحانه وتعالى أن يفتح عليهم وأن يسدد رميهم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

فاتصل الإخوة من هنا إلى إخوانهم هناك–أهل المعسكرات والمضافات– يبشرون إخوانهم هناك: أن هلموا إلينا قبل الضربات. خشية من أن تقفل الطرق. والكفر العالمي وأمريكا قد فرغت شعبة كاملة في جهاز الاستخبارات الأمريكي السي آي إيه تعمل على مدار الساعة يتناوب عليها ثلاثة فرق، كل ثمانية ساعات يبدأ دوام فرقة، شعبة خاصة بالمجاهدين في أفغانستان، بالمجاهدين هؤلاء الذين يجاهدون، وفرغوا لهم قمراً اصطناعياً لتصوير مواقعهم ولالتقاط الرسائل التي تخرج من هنا عبر الهواتف إلى بلاد العرب، فزاد هذا من خوفهم ومن رعبهم بفضل الله سبحانه وتعالى".

ورداً على سؤال من أحد المتدربين عن خطورة الإعلان عن الضربات على سير الخطة أجاب الشيخ حفظه الله:

"طيب هذا نحن لما نتكلم هنا نعلم أنه يصل بالضرورة، فنحن نبشركم، ونطلب منكم الدعاء من جهة، ونقوم بحرب نفسية على الخصم، نهز هيبته أمام العالم، ما في حرج إن شاء الله".

وقال أيضاً حفظه الله:

"فنحن على أبواب مقارعة عظيمة جداً، نتهيأ في هذه الأيام لمقارعة الكفار، إخوانكم خرجوا ليضربوا، وهم خرجوا ليضربوا، أمريكا خرجت وروسيا، يريدون أن يضربوا الإمارة الإسلامية في أفغانستان، ويضربوا المجاهدين في أفغانستان. فأوصي نفسي وإياكم بالصبر والتقوى.

....

أقسم بالله هذا العدد الذي أراه، أرجو الله أن يجعل فيه البركة، إن تصبروا وتتقوا، والله الذي لا إله إلا هو لنأكلن بكم الأخضر واليابس والعرب والعجم بإذن الله.

نحن اليوم –بفضل الله سبحانه وتعالى– نعيد رسم خريطة العالم الإسلامي لتصبح دولة واحدة تحت راية الخلافة بإذن الله سبحانه وتعالى، ونحن اليوم –بفضله سبحانه وتعالى– نكتب تاريخاً ناصعاً لأهل الإيمان في هذا الزمن، الذي ادلهمت فيه الظلم، وانتشر فيه الجور

والفساد والكفر في مشارق الأرض ومغاربها. فالسعيد من يثبته الله -سبحانه وتعالى- بجوار راية التوحيد".

الفرع الثاني: المجاهدون والحشد والتحريض

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾

تعرضت -فيما سبق- لجهود الشيخ أسامة في الدعوة والتحريض ضد الأمريكان، وما كان يقوم به من تحريض متصل ضد الأمريكان والصليبيين. وأود أن أركز هنا على الجانب المباشر في الإعداد، وهو الجانب التدريبي والتجهيزي والتخطيطي للمجاهدين في أفغانستان، وما أذكره هنا أذكره لسببين، أولهما أن هذه الأمور لم تكن سراً، وإن زعم الأمريكان أنهم يحصلون على فتات منها في تقاريرهم الاستخبارتية، تضخيماً لقدراتهم. ثم إن ما كان منها سراً لم يعد الآن سراً. وثانيهما أن أرجع الفضل لأهله، حتى تعلم الأمة مدى الجهد الذي بذله أبناؤها المجاهدون المهاجرون في أفغانستان، ويدركوا فضل الإمارة الإسلامية التي آوت المجاهدين ووفرت لهم فرصة الإعداد والتدريب والتجهيز ضد أعداء الإسلام والمسلمين، وحتى تدرك الأمة الفرق بين هذه الجهود الحثيثة -التي لا زالت مستمرة بفضل الله حتى اليوم- وبين المقبورين وهم أحياء في قبور العجز والجدل والتنظير والتحقير للمجاهدين، تلك القبور التي ما أظنهم خارجين منها لقرون، إلا أن ينعم الله عليهم بهداية تغير من أحوالهم.

لم تخل أفغانستان حتى بعد سقوط الحكومة الشيوعية في كابل من نشاط تدريبي لبقايا المهاجرين ومعظمهم من العرب، فقد كان هناك معسكر خلدن قرب خوست، وهو مركز العمل الدؤوب الصامت الذي قامت عليه فئة من خيار المهاجرين العرب وإخوانهم من بلاد أخرى، الذين بذلوا وقدموا في إخلاص وعطاء وصمت، والذي لم يتوقف منذ أن أنشأ في وقت السيطرة الشيوعية لأفغانستان حتى توحد مع معسكرات القاعدة قبيل الغزوتين المباركتين. ومن هذا المركز الذي لم يكل ولم يمل تخرج المئات الذين حضروا مختلف الدورات العسكرية، وكذلك الشرعية في المركز الذي أنشأه الشيخ أبو عبد الله المهاجر في داخل معسكر خلدن. وإذا كنت لا أستطيع أن أذكر كل من شاركوا في هذا العمل المخلص الجبار، فلا بد أن أذكر الأخوين ابن الشيخ الليبي -رحمه الله- وأبا زبيدة الفلسطيني فك الله أسره. اللذين عملا في دأب وإخلاص -والله حسيبهما- وصمت في إعداد الشباب المسلم للجهاد في سبيل

الله، إذ تكفل أبو زبيدة -فك الله أسره- بالجانب المالي والإداري والترحيلي، وتكفل ابن الشيخ بالعمل العسكري التدريبي التجهيزي.

وكانت هناك أيضاً معسكرات القاعدة في جاور قرب خوست، التي استمرت بعد رحيل معظم العرب في تقديم التدريب والخبرة الجهادية للتاجيك والأوزبك ومجاهدي القوقاز، ثم نشطت بعد رجوع الشيخ أسامة وصحبه لأفغانستان، وكان يتولاها في تلك الفترة الشيخ المجاهد المرابط الشهيد -كما نحسبه- أبو العطاء التونسي.

وبعد عودة الشيخ أسامة وتوافد أفواج المهاجرين والمجاهدين العرب على الإمارة الإسلامية نشطت الحركة التدريبية التجهيزية الجهادية.

فكان للقاعدة معسكر تشارسياب في لوجر، وكان يجاوره معسكر للإخوة من تركستان الشرقية المحتلة من قبل الصين، ثم انتقل معسكر القاعدة لمنجم عينك في لوجر، ثم أنشأ معسكر الفاروق في جرمه واك بميوند بهلمند، وقد ذكر الطالبان لإخوة القاعدة أنهم يتفاءلون بمنح القاعدة معسكراً في ميوند، لأن ميوند منها انطلق الجهاد ضد الانجليز.

والذي يتعامل مع الأفغان يعجب بهذا الاعتزاز الشديد بتاريخهم في الجهاد ضد الإنجليز ثم الروس ثم الأمريكان. والأفغان كمنجم الذهب لا تكتشف مكارمهم إلا بالمعاشرة، فمظهرهم البسيط المتواضع يخفي من ورائه تعظيماً شديداً للإسلام ومنظومة ثقافية وخلقية وسلوكية شديدة التمسك بقيم العزة والكرم والسخاء وحماية المستجير والثأر من الظالم، وجلد -تزول جبالهم الراسيات ولا يزول- في مقارعة المعتدي عليهم وقتاله، ثم فوق كل هذا حب لا يوصف للعرب بوصفهم قوم النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبناء الصحابة رضوان الله عليهم. ولا يعني هذا أن الأفغان قوم بلا عيوب، بل لهم عيوب ومثالب وجاهليات، ولكن لا بد أن نعترف بفضلهم ومزاياهم التي يتفردون بها عن كثير من غيرهم.

أذكر أني كنت أستأجر بيتاً في قندهار قبل غزوتي نيويورك وواشنطن بأشهر، فاكتشفت أن مالك البيت يتكلم الإنجليزية، فسألته أين تعلمتها؟ فقال: تعلمتها في أمريكا، حيث كان أخي مصاباً في قتال الشيوعيين، واستطاع أن يحصل على منحة للعلاج في أمريكا، وسافرت معه كمرافق. وقال لي: إن الشيوعيين قد قصفوا بيتنا، وقتل فيه أبي وكثير من أقاربي. ثم نظر إلي وقال: لقد استشهد جدي في قتال الإنجليز، واستشهد أبي في قتال الروس، ونحن سنقاتل معكم الأمريكان.

وعودة لحديث الإعداد فأقول؛ كان معسكر الفاروق في جرمه واك بميوند هو أكبر معسكر للقاعدة، وكان في الحقيقة عدة معسكرات، تدرس العديد من الدورات. ثم أنشأت القاعدة معسكراً آخراً —يعمل متزامناً مع معسكر ميوند- في الجزء الخارجي من قرية العرب بقندهار، بعد أن هجرها سكانها نظراً للاعتبارات الأمنية.

وبالإضافة لمعسكرات القاعدة كانت هناك العديد من المعسكرات، وقد ذكرنا من قبل معسكر خلدن، الذي انضم بكامله لمعسكرات القاعدة، وكان هناك معسكر للإخوة التركستانيين قرب كابل ثم انتقل لتلال توره بوره قرب جلال آباد، وكان هناك معسكر للأوزبك قرب كابل، كما أنشأ الشيخ أبو مصعب السوري معسكراً استمر لفترة من الزمن قرب كابل، وكذلك كان للشيخ أبي خباب معسكراً للسموم والتحضير الكيماوي قرب جلال آباد، ثم نقله لقرب كابل، وكان هناك أيضاً ملحق لمعسكر خلدن قرب معسكر الشيخ أبي خباب يديره أبو سليمان أسد الله الجزائري رحمه الله ويختص بالتدريب على المتفجرات، ومعسكر لكتيبة العرب التي كانت مع الشيخ حكمتيار وهجرت أفغانستان خوفاً من الإمارة الإسلامية، ولكن عاد أفرادها إلى أفغانستان بعد حصولهم على تأكيدات من الإمارة الإسلامية بعدم التعرض لهم بسوء إن رجعوا، وكذلك كان للجماعة الإسلامية المقاتلة الليبية معسكر في جبهة القتال شمال كابل، وكذلك كان للإخوة الأتراك معسكر، ثم لجماعة الجهاد معسكر آخر في نفس المنطقة، وكان للإخوة المغاربة معسكر قرب جلال آباد، وكان لأبي مصعب الزرقاوي -رحمه الله- معسكر قرب هيرات.

وبالإضافة لتلك المعسكرات كانت هناك الجماعات الباكستانية المجاهدة تنشأ معسكراتها في كابل وقرب خوست وقندهار.

وكل هذه المعسكرات كانت في نشاط مستمر وعمل دؤوب، لا يكاد يتوقف. تسابق الزمن في إعداد المجاهدين للقتال في سبيل الله، وبالإضافة لتلك المعسكرات كانت هناك دورات أخرى متعددة في الأمن والاستخبارات والإلكترونيات والتزوير إلى غيرها من الفنون الجهادية، بالإضافة للدورات الشرعية والسياسية المتعددة.

كانت أفغانستان وما زالت تمثل محضناً لروح الأمة المسلمة المتوثبة للنصر والرافضة للهزيمة والخنوع، والمصممة على الانتقام من أعداء الإسلام الذين طالما أجرموا في حقنا لقرون.

وهذه الروح الحية الفعالة المتعالية بإيمانها والمعتزة بإسلامها زادت في تناميها وتصاعدها بعد الغزوات المباركات بفضل الله، ولم تزدها الهجمة الصليبية على أفغانستان إلا نشاطاً وتوقداً.

وكان الشيخ أسامة بن لادن لا يكاد يترك فرصة إلا ويحرض فيها الشباب والمجاهدين على اللحاق بأرض الإعداد والرباط وعلى الإقدام على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله.

كان يحاضر في المعسكرات، ويعقد الاجتماعات والولائم في أيام الجمع وفي حفلات الزواج وفي الأعياد، وفي كل مناسبة يستطيع أن يبلغ فيها رسالة الجهاد والإسلام.

وأنشأ الشيخ أسامة لجنة إعلامية بدأت بإنتاج المواد الإعلامية، وكان من أهمها شريط (تدمير المدمرة الأمريكية كول) التحريضي، الذي هز الدنيا هزاً عند صدوره، وكان تحدياً صريحاً جريئاً للطغيان

الأمريكي، ودعوة للمسلمين لنهضة جهادية ضد السيطرة الصليبية اليهودية، ثم فوق كل ذلك وسيلة عملية لتحقيق ذلك عبر الالتحاق بمراكز ومعسكرات القاعدة التي أظهر الشريط صوراً مؤثرة من عملها.

واضطر تقرير الكونجرس عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر لأن يعترف بقوة هذا الشريط واتساع توزيعه وقوة تأثيره على المسلمين[١].

كل هذا وهم غلاظ القلوب لا يفقهون العربية، فما بالهم إذا كانت لهم قلوب يفقهون بها، ويعرفون العربية، واستمعوا لأسامة بن لادن وهو يلقي رائعة أبي حفص الموريتاني حفظهما الله:

ونجدٌ بها هبَّ الشبابُ مجاهداً ... وفي عدنٍ هبُّوا وثاروا ودَمَّرُوا

مدمرةً يخشى أُولُو البأسِ بأسَهَا ... تزيدُك رعباً حينَ تَرْسُو وَتُبْحِرُ

إلى حتفِهَا تسعى حثيثاً بِظِلْفِها ... بوهمٍ كبيرٍ كاذبٍ تَتَدثَّرُ

إلى زورقٍ يَلهُو به الموجُ يختفي ... معَ الموجِ حيناً ثم يَبْدُو ويظهَرُ

فلما التقى الجمعانِ جمعُ محمدٍ ... شهيدانِ باسمِ الله هَبُّوا وكبَّرُوا

وجمعٌ من الكفارِ جيشٌ يَقودُهمْ ... بحقدٍ صليبيّ المَنَابِعِ قيصَرُ

ودارت رحى الحربِ التي لم تكن سِوَى ... ثَوانيَ رُعْبٍ بل أقلُّ وأقْصَرُ

وكانَ مَعَ النصرِ المحقَّقِ موعدٌ ... فَلمْ يتقدمْ لا ولَمْ يَتَأَخَّرُ

فطارت رؤوسُ الكفرِ في كلّ وِجهَةٍ ... وأشلاؤُهَا من حولها تَتَبَعْثَرُ[٢]

المطلب الثاني

---

[١] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٩١.

[٢] نقلتها بتصرف عن شريط (تدمير المدمرة الأمريكية كول).

المعاني القتالية التي أبرزتها الغزوات

الفرع الأول: كيف يقاتل المجاهدون؟

الفرع الثاني: كيف يقاتل العدو؟

الفرع الأول:

كيف يقاتل المجاهدون؟

ففتكتكم في الكفر لم يُرَ مثلُها — وما فاق حتى الآن من هولها الكفرُ

فخرت قلاعُ الكفرِ للأرضِ بعدما — تبخرَ منه الشَطرُ واشتعلَ الشَطرُ

وأضحى حِمى الأعداءِ للنارِ مرتعاً — وكان حمىً حظراً وما نفعَ الحظرُ

فأدركتُم ثأراً من الكفرِ ضائعاً — بثأرٍ كهذا الثأرِ فليدركِ الثأرُ

وأيقظتمُ التاريخَ بعدَ سُباتِهِ — فقد نهضت حطين، واستيقظت بدرُ[1]

"في ١١ سبتمبر فقدت الأمة أكبر خسارة في الأرواح (٢٩٧٣) في تاريخها على أرضها نتيجة لهجوم معاد" [2].

(١) الأبيات لمولوي محب الله القندهاري من قصيدته (دموع في مآقي الزمن- قصيدة رثاء لشهداء الحرب الصليبية في أفغانستان).

(٢) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٣١١.

أبرزت الغزوات المباركات عدداً من المعاني القتالية أشير فيما يلي لبعضها:

١- نقل المعركة لأرض العدو.

استطاع المجاهدون في غزوات نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا أن ينقلوا المعركة لعقر دار العدو بهجوم ضخم جبار لم تشهد له أمريكا في تاريخها مثيلاً، ويفوق في قوته وآثاره الهجوم الياباني على بيرل هاربر – أثناء الحرب العالمية الثانية– بمراحل متضاعفة.

يقول تقرير الكونجرس عن الحادي عشر من سبتمبر:

"لقد كان هجوم الحادي عشر من سبتمبر حدثاً ذا تفرد لا يقارن، فأمريكا قد تعرضت لهجمات مباغتة من قبل، فبيرل هاربر حالة معلومة جيداً، وهجوم ١٩٥٠ الصيني في كوريا حالة أخرى. ولكن هذه كانت هجمات من قوى كبرى.

وبينما لم يكن هجوم ١١/ ٩ بحال مهدداً كما كان شن اليابان للحرب، إلا أنه كان بطريقة ما أكثر تدميراً.

لقد قامت به مجموعة ضئيلة من الأشخاص لا تكفي لتشكل فصيلاً كاملاً. وإذا قسناه على مستوى الحكومات فقد كانت الموارد خلفه تافهة. والمجموعة ذاتها أرسلت من منظمة تتمركز في واحدة من أفقر الدول وأقصاها وأقلها تصنيعاً"[١].

ففي بيرل هاربر أصيبت أمريكا بقتل وجرح ٣٠٠٠ شخص وإغراق أو إعطاب ٨ سفن حربية و١٣ سفينة بحرية أخرى وتدمير ٢٠٠ طائرة[٢]، أما في غزوات نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا فاعترفت أمريكا بقرابة ٣٠٠٠ قتيل، وكانت بيرل هاربر ميناءً في المحيط الهادي خارج قارة أمريكا، أما غزوات نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا فكانتا في قلب أمريكا؛ في عاصمتها السياسية وعاصمتها الاقتصادية، ولم تدمر الغزوات المباركات قاعدة حربية بل دمرت قيادة أمريكا العسكرية؛ البنتاجون، ودمرت رمز اقتصاد أمريكا؛ مركز التجارة العالمية.

وكانت خسارة أمريكا في بيرل هاربر خسارة عسكرية، أما في غزوات نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا المباركات فكانت –وما زالت– خسارة أمريكا عسكرية واقتصادية وسياسية واجتماعية ونفسية، بل خسارة للتسلط الإمبراطوري الذي فرضته أمريكا على العالم بزعمها أنها القوة الأقوى في تاريخ البشرية، بل وفوق كل ذلك خسارة في سمعتها الأخلاقية، التي انكشف مدى انحطاطها في دعواها الكاذبة بحمايتها للحرية والعدالة وحقوق الإنسان.

وفي بيرل هاربر استطاعت أمريكا أن تنتقم وترد هيبتها بعد هزيمة اليابان واستسلامها التام بعد أربع سنوات، أما أمريكا اليوم فما زالت بعد ثمان سنوات من الغزوات المباركات وهي تتورط من ورطة لأخرى

---

[١] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٣٣٩& ٣٤٠.

[٢] Microsoft Encarta Premium ٢٠٠٦- Pearl Harbor.

أشد منها، ويستمر نزيفها العسكري والاقتصادي في التدفق، وبدت هزيمتها في أفغانستان والعراق مؤكدة ووشيكة بإذن الله.

وفي بيرل هاربر تلقت أمريكا الضربة من إمبراطورية تعد إحدى القوى العظمي في وقتها، أما في الغزوات المباركات فممن تلقت أمريكا الضربة؟

وليسمح لي القارئ أن أتوقف هنا، لأفصل في إجابة هذا السؤال؛ ممن تلقت أمريكا الضربة؟ أو ما هو العدو الذي واجهته أمريكا في الحادي عشر من سبتمبر، ولا زالت تواجهه حتى اليوم؟

يزعم الأمريكان -في تضليل متعمد- أن عدوهم مجموعة من الإرهابيين القتلة المجرمين المتعطشين للدماء أنصاف المجانين[١] المتطرفين التكفيريين القطبيين الوهابيين المنغلقين المتعصبين...إلخ، يقدر عددهم بكذا ألف رجل، وميزانيتهم بكذا مليون دولار، ويؤيدهم كذا مليون شخص في العالمين العربي والإسلامي. وهؤلاء المتطرفون وجدوا مأوى في أفغانستان، فاستطاعوا أن يخططوا ويرتبوا لتلك العمليات في نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا.

وأن أمريكا بحملتها على أفغانستان قد أسقطت نظام طالبان الحاضن للقاعدة، ومزقت شبكة القاعدة ومراكز قيادتها ومعسكراتها وعقد اتصالاتها، وقتلت وقبضت على كذا من أعضائها... إلخ، ولم يبق إلا إحضار مجرمي القاعدة في القيود لأمريكا، ليواجهوا العدالة الأمريكية، ويتم النصر الأمريكي على الإرهاب الإسلامي.

وهذا التضليل والتمويه والتجهيل المتراكم المركب المتكبر، يحرم الأمريكان من معرفة حقيقة عدوهم، بل ويحرمهم من النصر، ويقودهم للكوارث، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

إن الحقيقة الكبرى الواضحة الجلية، التي تهرب أمريكا من مواجهتها والاعتراف بها، هي أن عدوها ليس ما تصوره القيادة الأمريكية وزعماؤها ورسموه لشعبهم، ولكن الحقيقة أنهم يواجهون خطراً، هم أنفسهم وصفوه بأنه أشد خطر واجههم في تاريخهم، خطر أقوى من اليابان ودول المحور وألمانيا النازية، التي استطاعوا الانتصار عليها.

إن عدوهم هو الأمة المسلمة بطليعتها الجهادية، التي قررت أن تتصدى لجرائم أمريكا.

---

[١] يزعم فريد زكريا الهندي الأصل في النيوزويك أن:

"الإرهاب الإسلامي اليوم لا تدفعه سياسة معينة، وإنما حقد عدمي ضد العالم المعاصر".

ويعلق مايكل شوِر عليه بأنه:

"يثبت مرة أخرى أن الباحثين المسلمين المتغربين من أسوأ من يعتمد عليهم كأدلاء في الحرب على القاعدة". [IMPERIAL HUBRIS, p: ١٢٧].

وأمريكا لا تستطيع أن تواجه هذه القوى، لأن أمريكا بمنتهى البساطة قوة مجرمة، تواجه أمة تلتزم بالحق، وتطالب به، وتقاتل عليه، وتموت من أجله. والمجرم ضعيف لأنه على الباطل، ﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

وهاتان الحقيقتان؛ حقيقة قوة الأمة المسلمة وطليعتها المجاهدة لأنها على الحق، وحقيقة الضعف الكامن في البنيان الأمريكي للجرائم المتتابعة، التي ارتكبتها أمريكا في حق المسلمين وكافة بني البشر، أقول: هاتان الحقيقتان إن لم تدفعا أمريكا لتنكفأ على نفسها لتدرس، وتراجع ذاتها وتاريخها وجرائمها، فلن تعرف -بإذن الله- إلى النصر سبيلاً، وستظل تنزف، حتى تنهار، كما انهارت الأمم الظالمة من قبلها.

وأشك شكاً شديداً أن أمريكا بتركيبتها المجرمة المتعجرفة المتكبرة تملك القدرة والشجاعة على تلك المراجعة. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ ٨٢ ﴾ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون ﴿ ٨٣ ﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿ ٨٤ ﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

ورغم أن هناك أصواتاً تعالت في أمريكا تدعوها -ليس لمراجعة جرائمها- ولكن لفهم طبيعة عدوها، حتى تستطيع أن تقاومه كما يجب، إلا أن هذه الأصوات لا زالت خافتة، وسط حملة الدجل الإعلامي والفكري المتواصلين.

يقول مايكل شور وهو يتحدث عن وفرة المواد العلنية المتاحة التي تظهر خطر بن لادن والقاعدة، وعن أنه سيورد في كتابه مصادر علنية غير سرية تدل على ذلك:

"وهذا لا يعوق تحليل الكتاب لموضوعنا المطروح، ولكنه يلقي الضوء على المأساة، لأنه يثبت أن تشكل وأبعاد وخطر مشكلة بن لادن -المختزلة لمواجهة أوسع بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي- ممكن أن يدركها أي شخص يبذل وقتاً ليقرأ ويتأمل عينة معبرة من المصادر العلنية المعتبرة.

والخلاصات التي سيخرج بها أي شخص محايد من هذا المسعى ستتضمن -كما أعتقد- ما يأتي:

- أن زعماء الولايات المتحدة يرفضون أن يقبلوا ما هو واضح: إننا نقاتل تمرداً إسلامياً عالمياً وليس إجراماً ولا إرهاباً، وسياستنا وإجراءاتنا قد فشلت في أن تحدث إلا أثراً ضئيلاً في قوى العدو.

- أن القوة العسكرية هي الآن أداة أمريكا الوحيدة، وستظل كذلك ما دامت سياساتنا الحالية سارية. ولن تُخرج أمريكا من هذه الحرب الدبلوماسية الشعبية ولا الإطراء الرئاسي للإسلام ولا النقاش السياسي المتقن الذي يحجب الحقيقة، وهي؛ أن الكثيرين من ال(١,٣) مليار مسلم يكرهوننا لأفعالنا لا لقيمنا[١].

- لقد كان بن لادن دقيقاً وهو يخبر أمريكا عن الأسباب التي يشن من أجلها الحرب علينا. وليس من هذه الأسباب ما له صلة بحريتنا وتحررنا وديمقراطيتنا، ولكنها ذات علاقة وطيدة بسياسات الولايات المتحدة وأفعالها في العالم الإسلامي.

....

ولم يكن لبن لادن أن يحرز هذا المستوى من النجاح الحاصل والمتزايد لو لم تكن عقيدة المسلمين وإخوانهم وثرواتهم وأرضهم تواجه عدوان الولايات المتحدة والغرب عامة.

وفي الحقيقة فإن سياسات الولايات المتحدة وأفعالها هن فقط حليفات بن لادن اللاتي لا غنى عنهن.

- ويمثل بترول الخليج الفارسي وعجز الولايات المتحدة عن تطوير بدائل حقيقية للطاقة لب قضية بن لادن. فأمريكا والغرب من أجل الحصول على بترول رخيص سهل المنال دعموا الطغاة المسلمين، الذين يسعى بن لادن وغيره من الإسلاميين للقضاء عليهم.

....

- وهذه الحرب لها إمكانية الاستمرار لما بعد حياة أطفالنا، وأن تخاض غالباً على التراب الأمريكي.

وإذا كانت هذه الاستنتاجات سهلة الإدراك، يمكن تحصيلها من المواد الموجودة في المكتبات العامة وعلى الإنترنت، فعلى الأمريكان أن يتعجبوا؛ لماذا لم يطرحها زعماؤهم السياسيون والاستخباراتيون والعسكريون والإعلاميون؟" [٢].

---

[١] هذا كلام مايكل شوِر، وهو يحتاج لتحرير، فإن المسلمين يكرهون كلاً من عقائد الكفار وجرائمهم. ولكن الحرب الدائرة الآن بين أمريكا والمسلمين هي بسبب جرائم أمريكا، وهي حرب دفاعية من المسلمين لكف جرائم الأمريكان عنهم. والساسة الغربيون يغالطون شعوبهم فيقولون لهم: إن المجاهدين يقاتلونهم بسبب قيمهم لا بسبب جرائمهم، حتى يبرروا لهم الاستمرار في جرائمهم. وإلا فلماذا ضرب المجاهدون أمريكا؟ ولم يضربوا فنلندا أو فيتنام مثلاً. والله أعلم.

[٢] IMPERIAL HUBRIS, p: IX & X.

ويقول أيضاً عن غطرسة القيادات الأمريكية:

"أما أنا -عن نفسي- فلست متفائلاً. يقول رالف بيتر في كتابه الماتع (القتال للمستقبل: هل ستنتصر أمريكا؟):

"كل ديانة كبرى حذرت معتنقيها من خطر الغرور، مستنكرة خطيئة الكبرياء، أو مشددة على أن التواضع قد يؤدي للتنور. وفي اندفاعنا بعيداً عن الدين -سواء كان هذا حقاً أو باطلاً- فإننا قد فقدنا بالتأكيد هذه البصيرة الجوهرية" .

والمحزن أن الله لو لم يخلص عيوننا من الغطرسة فإننا ضائعون. ولا أرى ما يدل على أننا نستطيع إزالتها، وأخشى أن القاعدة ترى العالم أوضح منا. يقول أيمن الظواهري في أواخر ٢٠٠٣:

"ونحمد الله إليكم أن أقر أعيننا بورطة الأمريكان في العراق من بعد أفغانستان، فالأمريكان في كلا البلدين بين نارين؛ إذا انسحبوا خسروا كل شيء، وإذا بقوا استمر نزيفهم حتى الموت" [١].

إذن أعود فأوجز ما فصلته من أن أمريكا نالت في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ما لم ينلها في بيرل هاربر بل في تاريخها كله.

وهذا الانتصار الكبير للمجاهدين تميز بنقل المعركة إلى عقر دار العدو، بعد أن ظل لقرون يخوض حروبه على أرضنا. وقد وفق الله المجاهدين بهذه النقلة لإصابة العدو في مقتلين: الأول أن خسائر المعركة ستكون على أرضه وفي مدنه ومنشآته واقتصاده وبين قومه، والثاني: أن أمريكا لم تعد القارة الآمنة التي يفصلها عن الدنيا محيطان شاسعان، بل صارت هدفاً لضربات المجاهدين. وصار الأمن والرعب قسمة مشتركة، أو كما قال الشيخ أسامة بن لادن حفظه الله:

"فإلى متى يبقى الخوف والقتل والدمار والتشريد واليتم والترميل حكراً علينا؟ ويبقى الأمن والاستقرار والسرور حكراً عليكم؟ هذه قسمة ضيزى، لقد آن الأوان لنستوي في البضاعة، فكما تقلتون تُقتلون، وكما تقصفون تُقصفون" [٢].

٢- تنفيذ مبدأ المباغتة.

استطاع المجاهدون أن يأخذوا أمريكا على غرة، فسقطت ضحية العديد من المفاجآت:

- مفاجأة أن الضربة في عقر دارها، بل في أهم مدينتين من مدنها.
- ومفاجأة أن الضربة بهذا الحجم الهائل.
- ومفاجأة أن الضربة بهذا التخطيط المتقن.

---

[١] IMPERIAL HUBRIS, p: ١٩ & ٢٠.

[٢] بيان للشعوب المتحالفة مع الحكومة الأمريكية- ٧ رمضان ١٤٢٣هـ الموافق ١٢ نوفمبر ٢٠٠٢م.

- ومفاجأة أن الضربة بهذه الجرأة والشجاعة.
- ومفاجأة أن الضربة وجهت لعدة أماكن في وقت واحد تقريباً.
- ومفاجأة أن الضربة اختارت أهدافاً ذات قيمة رمزية هائلة.
- ومفاجأة أن الضربة جاءت من عدو يراها ولا تراه.

وهكذا اكتشفت أمريكا أنها مكشوفة أمام عدوها، فأصابها سعار حاد مرتبك، ساقها لمنحدر الهزيمة الوشيكة -بإذن الله- في أفغانستان والعراق.

٣- قدرة المجاهدين على إدارة عمل أمني جهادي عملاق.

أثبتت الغزوتان أن المجاهدين المهاجرين، الذين يعتبرهم أكابر مجرمي الدنيا -ومعهم للأسف دعاة العجز والتراجع- لا يحسنون تخصصاً، ولا يتعمقون في فن ولا علم، قد استطاعوا أن يقوموا بهذا العمل الجبار الذي غير مجرى تاريخ البشرية.

ولم يصل المجاهدون للنجاح بسهولة ويسر، ولا مضوا إليه على طريق مفروش بالورود، بل مروا بمراحل كثيرة من التدريب والإعداد وتجهيز الوثائق وتمويه الرحلات والصبر والترقب والقلق، ثم كل هذا المجهود الجبار كان لا بد له من قاعدة دعوية تدريبية تحريضية، تجمع كفاءات الأمة، وتدربها، وتوعيها، وترفع من قدراتها، وتغرس في نفسها الثقة بدينها وأمتها، ثم تختار منها العناصر الصالحة لكل مهمة.

وهذه القاعدة التدريبية الدعوية التحريضية استغرقت سنيناً طويلة من والإعداد والدعوة والاتصالات والعلاقات وتنمية الثقة المتبادلة بين الحلفاء وبين القيادة والقاعدة، وهي أيضاً ثقة تنبني على رصيد ضخم من المشاركة في الجهاد وحمل هموم الأمة، والمبادرة للصف الأول عند كل ملمة تلم بالأمة.

بل استغرقت سنيناً من المشاركة الفاعلة في ميادين القتال، فقد حرص الشيخ أسامة بن لادن دائماً على أن يشارك جنوده في المعارك دفاعاً عن الإسلام، وكان يعتبر أن هذا بالإضافة لكونه واجباً شرعياً لنصرة المسلمين، إلا أنه أيضاً وسيلة من أفضل الوسائل لصقل العناصر وتنمية قدراتها واكتشاف حقيقتها.

وهذه الثقة التي أشرت إليها، لا يمكن أن تمنحها الأمة لجماعة لم تخض غبار المعارك، ولم تدفع ثمن مقاومة الباطل من شبابها ودمائها وأيتامها وأراملها وهجرتها، ولا يمكن أن يمنحها الجنود لقائد، يجلس بعيداً في ركن هادئ في وظيفة رتيبة في توائم وتعايش مع قوى الباطل والفساد والإفساد، يؤلف وينظر ويتخيل، بل ويفتش وينتقد ويجرح.

ولذلك فإن الإعداد لغزوتي نيويورك وواشنطن لم يقتصر فقط على اختيار جنودها التسعة عشر شهيداً كما نحسبهم، ولكنه انبنى على عمل دؤوب مثابر لسنين طويلة منذ بداية الغزو الشيوعي لأفغانستان مروراً بالعديد من الهجرات والتنقلات والمطاردات والطرد والحصار، عمل صمد للكثير من العوائق والموانع، بل وللأسف للكثير من التشكيك والتخذيل والتهوين.

عمل حملت عبأه مجموعة قيادية أحسبها من المخلصين، ولا أزكيها على الله، بدءاً من الشيخ أسامة بن لادن —حفظه الله– إمام هذا العصر في جهاد الأمة المسلمة ضد الحملة الصليبية، ثم ساعده الأيمن القائد البطل أستاذ الجيل أبي حفص القائد ~، ثم خالد شيخ محمد –فك الله أسره– ذلك العطاء المتواصل بلا كلل ولا ملل، في خدمة الصغير والكبير، والحرص على انتصار المجاهدين وأمنهم وسلامتهم. ذلك الرجل الذي ما كان ملك نفسه ولا أسرته ولا أهله، بل سخرهم جميعاً في خدمة الجهاد، ذلك الرجل المتعدد المواهب، الذي لا يهدأ طموحه في تعلم كل ما ينفعه، كان يتقن العربية والإنجليزية والأردو والفارسية والبشتو والبلوشية، ويملك قدرة عجيبة على التنظيم والإدارة والاستفادة من إخوانه، وكان كما يقال: حيثما وقع نفع، له جاذبية عجيبة وقدرة على اكتساب ود وصداقة من يلقاه من أول لقاء.

ثم أبو تراب الأردني ~، الجندي المعطاء الصامت، تراه في نحافته وخفة جسمه فيذكرك بقول الشاعر:

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور[١]

طالب للشهادة لا يمل، تعددت في جسمه الإصابات، وكسرت ساقه مرتين كسراً مضاعفاً، وفقد إحدى عينيه، وأصيب في الأخرى. وما زال يطلب الشهادة، حتى نالها مع رفيق دربه وقائده أبي حفص القائد K. صاحب كرم وشهامة وخلق راق. تشرفت بمصاهرته، فزوجته كبرى بناتي، فأنجب منها عبد الله ومريم، وترك وصية يطلب فيها من إخوانه أن يعتنوا بتربية ولده تربية جهادية، وألا ينشئوه على الترف والتدليل، ولكن يعودوه حياة الجد والقوة، حتى يشب مجاهداً جلداً قوياً. رحمه الله رحمة واسعة.

ثم رمزي بن الشيبة وخلاد (توفيق بن عتش) –فك الله أسرهما– ، وغيرهم ممن قد لا أستطيع ذكرهم، ولكن الله يعلمهم.

أخرج ابن أبي شيبة عن أبي عثمان النهدي –لما جاء لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب > بالبشارة بانتصار المسلمين في نهاوند– أنه قال: "ذهبت بالبشارة إلى عمر، فقال: ما فعل النعمان[٢]؟ قلت: قتل. قال: ما فعل فلان؟ قلت: قتل. قال: ما فعل فلان؟ قلت: قتل. فاسترجع. قلت: وآخرون لا نعلمهم. قال: لا نعلمهم، لكن الله يعلمهم"[٣].

وعمل انبنى أيضاً على قادة ميدانيين متفانين، أمثال قادة أسراب الشهادة؛ محمد عطا أمير النسور الاستشهادية ومروان الشحي وهاني حنجور وزياد الجراح، ومن أمثال الداعية أحمد الحزنوي والعالم العامل عبد العزيز العمري رحمهم الله أجمعين.

٤– استبسال المجاهدين وشجاعتهم وجرأتهم وإقدامهم:

أ– كل المجموعات حققت هدفها الأول فوراً، وبحسم.

---

[١] البيت لربيعة الرقي. الموسوعة الشعرية– ربيعة الرقي.

[٢] يقصد النعمان بن مقرن > أمير الجيش.

[٣] مصنف ابن أبي شيبة–كتاب التاريخ– في توجيه النعمان بن مقرن إلى نهاوند– حديث رقم: ٣٣٧٩٣ ج: ٦ ص: ٥٦٠.

(١) فالمجموعة الأولى بإمارة الشهيد –كما نحسبه– محمد عطا ~ أقلعت طائرتها في الساعة ٧,٥٩ صباحاً، وتم الاستيلاء عليها في الساعة ٨,١٤ صباحاً[١].

(٢) والمجموعة الثانية بإمارة الشهيد –كما نحسبه– مروان الشحي ~ أقلعت طائرتها في الساعة ٨,١٤ صباحاً، وتم الاستيلاء عليها مابين الساعة ٨,٤٢ إلى الساعة ٨,٤٦ صباحاً، وأفاد شهود عيان –كانوا يتصلون بهواتفهم من على متن الطائرة– أن المهاجمين استخدموا السكاكين ورذاذ (الميس[٢]) والتهديد بوجود قنبلة، وأنهم قتلوا الطيارين، وطعنوا عدداً من طاقم الطائرة[٣].

(٣) أما المجموعة الثالثة بإمارة الشهيد –كما نحسبه– هاني حنجور ~ فأقلعت طائرتها الساعة ٨,٢٠ صباحاً، وتم الاستيلاء عليها ما بين الساعة ٨,٥١ إلى الساعة ٨,٥٤ صباحاً، وأفاد شهود عيان –كانوا يتصلون بهواتفهم من على متن الطائرة– أن المهاجمين استخدموا السكاكين وقواطع الكرتون، وأزاحوا جميع الركاب –بما فيهم الطاقم– لمؤخرة الطائرة[٤].

(٤) أما المجموعة الرابعة بإمارة الشهيد –كما نحسبه– زياد الجراح فأقلعت طائرتها الساعة ٨،٤٢ صباحاً، وتم الاستيلاء عليها الساعة ٩،٢٨ صباحاً. وكان المفترض أن تقلع في حدود الساعة ٨،١٥ صباحاً، ولكن تأخرت بسبب زحام حركة الطيران، وكان تخطيط الإخوة أن يختاروا طائرات تقلع في وقت متقارب، حتى لا يمكن تحذير بقية الطائرات عند اكتشاف اختطاف طائرة أو أكثر، وقد تم فعلاً تحذير طائرة المجموعة الرابعة الساعة ٩,٢٤ صباحاً بالحذر من أي تدخل في قمرة القيادة، لأن هناك طائرتين ارتطمتا بمركز التجارة العالمية في نيويورك، ولكن لم يفدها التحذير بشيء[٥].

ب– وكان أمير النسور الاستشهادية محمد عطا ~ متأكداً أنه لن يجد صعوبة في اقتحام قمرة القيادة، فقد أورد تقرير الكونجرس عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر أن رمزي بن الشيبة –فك الله أسره– ذكر في التحقيق معه أن محمد عطا ~ أخبره أنه والشحي والجراح –رحمهم الله– لم يجدوا أية مشكلة في حملهم لقواطع الكرتون في رحلاتهم الاستكشافية بعرض أمريكا، وأن أفضل وقت لاقتحام قمرة القيادة سيكون ما بين ١٠ إلى ١٥ دقيقة من إقلاع الطائرة، حينما تفتح أبواب قمرة القيادة لأول مرة[٦].

---

(١) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٤.

(٢) الميْس (Mace): غاز سائل مُسيل للدموع، يمكن أن يرش عن طريق وعاء مضغوط. ويسبب هذا السائل إحساسًا حارقًا ويملأ العيون بالدموع. كما أنه يتسبب في عجز مؤقت دون أن تكون له تأثيرات باقية. [الموسوعة العربية العالمية].

(٣) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٧.

(٤) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٨.

(٥) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ١٠ & ١١.

(٦) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٢٤٥.

ج- قتل ضابط يهودي.

وبينما كان محمد عطا ~ يتحرك نحو قمرة القيادة هم راكب يهودي يدعى دانيال لوين بمهاجمته، حيث كان يجلس خلف محمد عطا وعبد العزيز العمري K، ولكنه طعن من الخلف غالباً بيد سطام السقامي ~، الذي كان يجلس خلفه لحماية ظهر عطا والعمري. وقد خدم دانيال لوين من قبل في الجيش الإسرائيلي كضابط لمدة أربع سنوات[١].

٥- استغلال نقاط ضعف الخصم:

استطاع المجاهدون أن يتفوقوا أمنياً على نظام الخصم، بل استطاعوا أن يضربوا الخصم من داخل نظامه.

أ- لم يعد الغرب لغزاً بالنسبة للمجاهدين، بل لقد فهم المجاهدون من نقاط الضعف في دفاعات الغرب ما لم تفهمه أجهزة أمن الغرب، التي تستهلك مئات المليارات من الدولارات سنوياً. ومن أمثلة ذلك:

(١) في ألمانيا تم تجنيد ثلاثة من أمراء الأسراب الاستشهادية، بل وسافروا لأفغانستان ثم عادوا للغرب دون أن ينتبه لهم أحد.

(٢) واستغل المجاهدون التسهيلات، التي تقدمها أمريكا للشباب الخليجي للسفر إليها والدراسة فيها، لتغرس فيهم الإعجاب والانبهار بالغرب، فقلبوا عليها سياستها، واستطاعوا أن يحصلوا على تأشيرات لستة عشر مجاهداً دون أن تنتبه لهم أجهزة الأمن الأمريكية. بل لم تنتبه أجهزة الأمن الأمريكية للتغييرات التي أحدثها المجاهدون في جوازات سفرهم[٢].

(٣) واستغل المجاهدون أمريكا نفسها لدراسة الطيران، فأمراء الأسراب الأربعة درسوا الطيران في أمريكا، واستطاعوا أن يتحركوا بحرية في أمريكا للتخطيط لضربتهم، واستطلاع نظم الخصم ودفاعاته.

كل هذا لأن المجاهدين تخلصوا من عقدة التدني أمام الغرب، وعقدة الرعب من الغرب، بينما لا يزال من يزعم -من يُحسب من الكتاب والمفكرين- أن أمريكا تملك ٩٩% من أوراق اللعبة، وأن أية مواجهة مع أمريكا محكوم علينا فيها بالفشل، وأن هجمات الحادي عشر من سبتمبر فلتة لن تتكرر إلى آخر معزوفة الخنوع والدونية.

وفي معركة اليرموك لما أقبل خالد > من العراق، قال رجل من نصارى العرب لخالد بن الوليد >:

"ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! !".

فقال خالد:

---

[١] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٥.

[٢] راجع ندم تقرير الكونجرس على عدم اكتشاف ذلك في:

.[٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٥٦٣ & ٥٦٤]

" ويلك، أتخوفني بالروم؟ إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر برأ من توجعه، وأنهم أضعفوا في العدد" .

وكان فرسه قد حفا واشتكى في مجيئه من العراق[١].

ب- درس المجاهدون النظام الأمني الأمريكي جيداً، فقد استفادوا مثلاً من أن أنظمة الأمن في الطيران الأمريكي لا تمنع حمل المدى الأقل من أربع بوصات. تلك المدى التي كانوا قد تدربوا على استخدامها، بل وعلى ذبح الخراف ونحر الجمال بها على يد الشهيد -كما نحسبه- أبو تراب الأردني ~.

يقول تقرير الكونجرس عن الحادي عشر من سبتمبر:

"لقد استغل الإرهابيون الإخفاقات المؤسسية العميقة في حكومتنا"[٢].

ويقول أيضاً:

"لقد أظهرت خبرة ١١/ ٩ أن الإرهابيين درسوا واستغلوا نقاط ضعف أمريكا"[٣].

٦- ابتكار أساليب جديدة في التصدي للحملة الصليبية الصهيونية.

إننا لن نلحق بالغرب في تقدمه التقني في هذه المرحلة، فقد تقدم عنا بمسافات ومراحل لأسباب عديدة منها ضعفنا وفسادنا السياسي، الذي أهملنا به النظر في العلوم الطبيعية، وانصرفنا لعلم الكلام والتصوف المنحرف والخرافات[٤]، ومنها سيطرته علينا وحرماننا من أي تقدم. فالخلاصة؛ أننا في هذه

---

[١] البداية والنهاية ج: ٧ ص: ١٣.

[٢] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٢٦٥.

[٣] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٣٨٨.

[٤] من المضحكات المبكيات في هذا الشأن، ما ذكره الجبرتي -رحمه الله- أن الشيخ أحمد الدمنهوري تحدى علماء عصره عند علي بك الكبير بأسئلة خمسة عويصة هي:

"الاول: في إبطال الجزء الذي لا يتجزأ. الثاني: في قول ابن سينا: ذات الله نفس الوجود المطلق. ما معناه؟ الثالث: في قول أبي منصور الماتريدي: معرفة الله واجبة بالعقل، مع أن المجهول من كل وجه يستحيل طلبه. الرابع: في قول البرجلي: أن من مات من المسلمين لسنا نتحقق موته على الإسلام. الخامس: في الاستثناء في الكلمة المشرفة هل هو متصل أو منفصل؟" [عجائب الآثار- سنة خمس وثمانين ومائة والف ج: ١ ص: ٤١٢].

ثم هؤلاء العلماء أنفسهم، الذين يسلم كل أحد برجاحة عقلهم وسعة علمهم وقوة فهمهم، هؤلاء العلماء وقفوا حائرين أمام الحملة الفرنسية التي دهمتهم بعد هذا التحدي -بهذه الأسئلة التي تحوي الأغلوطات المتقعرة- بسنوات قلائل، فيحكي الجبرتي -رحمه الله- عن هزيمة المماليك أمام الفرنسيين على مشارف القاهرة في صفر سنة ١٢١٣هـ:

"ثم إن الطابور الذي تقدم لقتال مراد بك انقسم على كيفية معلومة عندهم في الحرب، وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه، ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع، واشتد هبوب الريح، وانعقد الغبار، وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الرياح، وصمت الأسماع من توالي الضرب، بحيث

المرحلة لا يمكن أن ننتج أسلحة تكافئ أسلحته، ولكننا نستطيع أن نخرب له نظامه الاقتصادي والصناعي المعقد، وأن نستنزف قواته، التي تقاتل بلا عقيدة، حتى تفر هاربة. ولذلك كان على المجاهدين أن يبتكروا أساليب جديدة، لا تخطر على بال الغرب، ومن أمثلة هذا التفكير الجريء الشجاع؛ استخدام الطائرة كسلاح جبار.

خيل للناس أن الأرض تزلزلت، والسماء عليها سقطت، واستمر الحرب والقتال نحو ثلاث أرباع ساعة، ثم كانت هذه الهزيمة على العسكر الغربي" . [عجائب الآثار- سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف ج: ٢ ص: ١٨٩].

ثم هؤلاء العلماء الفطاحل -الذين أنهكوا عقولهم الجبارة في أغلوطات الكلام والتصوف- بهرهم الفرنسيون ببعض ألاعيب الكيمياء والفيزياء، التي يدركها اليوم طالب في المرحلة الإعدادية أو الثانوية، فيقول الجبرتي -رحمه الله- عن زيارة نفر من أولئك العلماء لمعمل من معامل الفرنسيين بعد احتلالهم لمصر:

"وأفردوا مكاناً في بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوي وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع وآلات تصاعيد الارواح وتقاطير المياه وخلاصات المفردات وأملاح الارمدة المستخرجة من الاعشاب والنباتات واستخراج المياه الجلاءة والحلالة، وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلوري المختلف الاشكال والهيئات على الرفوف والسدلات وبداخلها أنواع المستخرجات، ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئاً في كأس، ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى فعلا المآن، وصعد منه دخان ملون، حتى انقطع وجف مافي الكأس وصار حجراً أصفر، فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق، وباخرى فجمد حجراً أحمر ياقوتياً، وأخذ مرة شيئاً قليلاً حداً من غبار أبيض، ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة، انزعجنا منه فضحكوا منا، وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة في مقدار الشبر ضيقة القسم، فغمسها في ماء قراح موضوع في صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص وأدخل معها اخرى على غير هيئتها وأنزلهما في الماء، وأصعدهما بحركة انحبس بها الهواء في أحدهما، وآتى آخر بفتيلة مشتعلة، وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء، وقرب الآخر الشعلة اليها في الحال، فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل ايضاً، وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكمية تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع، ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاج فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف، ويظهر له صوت وطقطقة، وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفا متصلاً بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه، وارتعد جسمه، وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة، ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه أو شيئاً متصلاً به حصل له ذلك ولو كانوا ألفاً أو أكثر، ولهم فيه امور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا" . [عجائب الآثار- سنة ثلاثة عشرة ومائتين وألف ج: ٢ ص: ٢٣٥ و٢٣٦].

لا تسعها عقول هؤلاء الجهابذة، لأنهم أنهكوها في الجزء الذي لا يتجزأ وأغلوطات الكلام وشطحات التصوف، وهو الجدال الذي نهينا عنه، وتركوا علوم الطبيعة، التي أمرنا بالنظر فيها، وتركوا الإعداد للقتال والجهاد، ولو انشغلوا بما أمروا به، وأعدوا للجهاد عدته، لصرفوا عقولهم في النافع من العلوم، الذي به عمران الأرض، وحفظ الملة والبيضة. وتلك قصة أخرى عسى الله أن يعين على تأملها وتدبرها.

يقول تقرير الكونجرس عن الحادي عشر من سبتمبر:

"كان الرجال التسعة عشر على متن أربع رحلات عابرة للقارة. وكانوا يخططون لخطف هذه الطائرات، وتحويلها لصواريخ ضخمة موجهة، معبأة بما يصل إلى ١١٤٠٠ جالون من وقود النفاثات. وبحلول الساعة الثامنة من صباح الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كانوا قد هزموا كل طبقات الأمن، التي كانت لدى نظام أمن طيران أمريكا المدني لمنع الاختطاف" [١].

كذلك اختار الإخوة الطائرات البوينج ٧٦٧ العابرة لقارة أمريكا، لأنها تحمل مخزوناً أكبر من الوقود، ولم يختاروا الأير باس، لأن بها طياراً آلياً، يمنعها من الارتطام بالأرض[٢].

ومن أمثلة هذا التفكير الجريء الشجاع إلحاح الشيخ أسامة بن لادن -حفظه الله- على خالد شيخ محمد -فك الله أسره- أن يحاول تقديم موعد الهجمات إلى يونيو، ليتمكن من ضرب البيت الأبيض في أثناء زيارة شارون لبوش، وكان الاسم الرمزي لشارون (مشمش)!

٧- الحرب الجديدة على جبهتين:

أظهرت هجمات الحادي عشر من سبتمبر وما قبلها وما بعدها من أحداث أن الطليعة المجاهدة للأمة المسلمة قد أداها اجتهادها لأن تخوض ضد الغرب الصليبي نوعين من القتال:

النوع الأول: عصابات في كل مكان:

وهي ضربات المجموعات الصغيرة، التي تتصيد مصالح العدو حيثما وجدت، وتبتكر في ذلك الوسائل الجديدة، وتهاجمه حيث لا يتوقع. وقد مثلت غزوتي الحادي عشر من سبتمبر ذروة هذا النوع من القتال. يقول أبو عبيد القرشي:

"عسكرياً شكلت غزوة ١١ سبتمبر أكبر تهديد للوضع العسكري الأمريكي القائم. فالاستراتيجية غير المتوازية (Asymmetric) التي ينتهجها تنظيم القاعدة، والتي تقضي بأن يستخدم الخصم وسائل وأساليب يستحيل على المدافع عن نفسه أن يستخدمها أو يتعرف عليها أو يتفاداها، جعلت التفوق العسكري الهائل لأمريكا دون فائدة، مما قلل من فاعلية الردع العسكري الأمريكي دولياً. كما أن انتشار سلاح القنبلة الاستشهادية، وكونها لم تعد قاصرة على فلسطين، بل انتقلت إلى أهداف أمريكية أربك الحسابات الأمريكية، وجعل الإحساس الأمريكي بالأمن يتبخر." [٣].

---

[١] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٤.

[٢] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٢٤٥.

[٣] غزوة ١١ سبتمبر: المستحيل إذا صار ممكناً ص: ٣٠.

أما النوع الثاني: فهو حروب العصابات التقليدية في مسارح محددة كما يحدث في الشيشان وأفغانستان والعراق وفلسطين والصومال والجزائر. وقد أنهكت أمريكا إنهاكاً شديداً في مسرحي أفغانستان والعراق، بل قد لا أكون مبالغاً إذا قلت إن مسرح العراق يعد اليوم الميدان الأساسي في المواجهة بين الأمة المسلمة والحملة الصليبية الصهيونية. وفي كلاً من أفغانستان والعراق استطاعت الطليعة المسلمة المجاهدة مدعومة بتأييد الجماهير المسلمة أن تحقق انتصارات ضخمة، بل وتقترب حثيثاً من النصر الحاسم بإذن الله، ذلك النصر الذي سيكون له -بإذن الله- أكبر الأثر على وسط وشرق العالم الإسلامي، بل وعلى مسار الأحداث الدولية بأجمعها. يقول أبو عبيد القرشي:

"استراتيجياً دمر تنظيم القاعدة بغزوة ١١ سبتمبر ركائز الاستراتيجية الدفاعية الأمريكية، والتي لم يستطع الاتحاد السوفييتي السابق ولا أية دولة معادية النيل منها. وهذه الركائز هي: الإنذار المبكر، الهجوم الوقائي، ومبدأ الردع. كما سببت هذه الغزوة تمططًا كبيرًا لقدرات أمريكا، التي اضطرت لنشر قواتها في مسارح كثيرة، دون أن تحرز النصر في أي منها." [1].

٧- ومما سبق يتضح الدور الخطير الذي تمثله أفغانستان والشيشان والصومال وما شابهها من المناطق كمراكز للمقاومة ضد السيطرة الصليبية على العالم، مما يؤكد على وجوب دعم الأمة لها، حتى تستمر قلاعاً صامدة في وجه موجات الغزو والسيطرة الصليبية الصهيونية.

[1] غزوة ١١ سبتمبر: المستحيل إذا صار ممكناً ص: ٣٠.

الفرع الثاني:

كيف يقاتل العدو؟

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

أَغَرَّكُمُ طولُ الجُيوشِ وعَرضُها عَراقٌ شَروبٌ لِلجُيوشِ أَكولُ[1]

خَميسٌ[2] بِشَرقِ الأَرضِ وَالغَربِ زَحفُهُ
وَفي أُذُنِ الجَوزاءِ مِنهُ زَمازِمُ
تَجَمَّعَ فيهِ كُلُّ لِسنٍ وَأُمَّةٍ
فَما تُفهِمُ الحُدّاثَ إِلّا التَراجِمُ[3]

(1) البيت للمتنبي بعد استبدال كلمة (عراقٌ) بـ(عليٌ) . الموسوعة الشعرية- المتنبي. والمتنبي يسخر من اغترار الروم بكثرة جيوشهم، وعلي هو سيف الدولة، الذي يمدحه المتنبي.

(2) الخميس: الجيش.

(3) في هذا البيت والذي قبله يصف المتنبي ضخامة جيش الروم وتعدد أجناسه، وهو وصف ينطبق على روم اليوم؛ قوات التحالف الصليبي.

فَلِلَّهِ وَقْتٌ ذَوَّبَ الغِشَّ نَارُهُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلّا صَارِمٌ أَوْ ضُبَارِمُ[1]
تَقَطَّعَ مَا لا يَقْطَعُ الدِّرْعَ وَالقَنا
وَفَرَّ مِنَ الأَبْطالِ مَنْ لا يُصادِمُ
أَفي كُلِّ يَومٍ ذا الدُمُستُقُ[2] مُقدِمٌ
قَفاهُ عَلى الإِقْدامِ لِلوَجْهِ لائِمُ
وَلَسْتَ مَلِيكاً[3] هازِماً لِنَظيرِهِ
وَلَكِنَّكَ التَوحيدُ لِلشِركِ هازِمُ[4]

كشفت الغزوات المباركات وما تلتهما من أحداث عن سمات لقتال العدو الصليبي، أوجز بعضها هنا.

١- القصف والنصر الرخيص.

"الإرهابي هو الشخص الذي لديه قنبلة، وليس الذي لديه قوة جوية!!"[٥].

يلجأ العدو الصليبي الصهيوني عامة والأمريكي خاصة إلى استغلال تميزه الجوي بكل قذارة، فيصب من طائراته وصواريخه ناراً مدمرة على مدن وقرى أعدائه، مدمرة كل ما يمكنها أن تدمره، ويستمر في الضغط المتصاعد بالقصف لإحداث أكبر خسائر في السكان غير المحاربين من أجل الضغط على قيادة خصمه لكي تستسلم. كل هذا وهو أكثر المحتجين صراخاً بأن أعداءه قتلوا مدنييه ببعض العمليات الجهادية. وهذه النزعة في الفتك بالسكان غير المحاربين أصيلة وقديمة في تفكير وتخطيط الغرب الصليبي.

---

[١] الصارم: السيف، والضبارم: الأسد الشديد الخلق، ويقصد به المقاتل الشجاع.

[٢] الدمستق: اسم ملك الروم. ولو رفعت (ذا الدمستق) ووضعت في محلها (بوش الصليبي) لكان المعنى معبراً عما يجري اليوم.

[٣] لو رفعت كلمة (مليكاً) ووضعت في محلها (فريقاً) أو (كتيباً) لكان المعنى معبراً عما يجري اليوم.

[٤] الأبيات للمتنبي. الموسوعة الشعرية- المتنبي.

[٥] Rogue State, p: ٩٣.

يقول الصحافي البريطاني روبرت فيسك في صحيفة الإندبنت عن الحملة الإسرائيلية على غزة في نهاية عام ٢٠٠٨ وبداية عام ٢٠٠٩ أن:

"إسرائيل فتحت أبواب جهنم على الفلسطينيين بقتلها أربعين لاجئاً مدنياً في مدرسة تابعة للأمم المتحدة وثلاثة آخرين في مدرسة أخرى".

....

إن ما حدث لا ينبغي أن يصيبنا بالدهشة .فهل نسينا مقتل ١٧ ألفاً و٥٠٠ شخص -جلهم من المدنيين وأكثرهم من الأطفال والنساء- في الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، ومقتل ١٧٠٠ فلسطيني في مذبحة صابرا وشاتيلا، ومذبحة قانا عام ١٩٩٦ التي راح ضحيتها ١٠٦ لاجئين لبنانيين مدنيين -أكثر من نصفهم كانوا أطفالاً- في قاعدة تابعة للأمم المتحدة، ومذبحة لاجئي مروحين الذين أمرتهم إسرائيل بإخلال منازلهم عام ٢٠٠٦، ثم ذبحهم طاقم طائرة مروحية إسرائيلية، ولا ننسى أيضا موت ألف آخرين في نفس القصف عام ٢٠٠٦ جراء غزو الجنوب اللبناني، وكان معظمهم من المدنيين.

....

إن المدهش بحق هو أن كثيراً من زعماء الغرب والرؤساء ورؤساء الوزراء والمحررين والصحفيين انطلت عليهم الكذبة القديمة بأن (إسرائيل تبذل كل جهد ممكن لتجنب الخسائر المدنية

....

إن ترديد الجميع لهذه الكذبة كتبرير لتفادي وقف إطلاق النار يجعل أيديهم ملطخة بالدماء من مجزرة أمس. ولو كانت لدى بوش الشجاعة للمطالبة بوقف فوري لإطلاق النار قبل ٤٨ ساعة، لكان هؤلاء المدنيون الأربعين، من الشيوخ والنساء والأطفال، أحياء الآن".

وعبر فيسك عما حدث بأنه: "لم يكن مشيناً فقط بل خزياً وعاراً، وأن أقل وصف لذلك هو أنه جريمة حرب، وهذا ما كنا سنقوله لو أن حماس كانت هي التي ارتكبت هذه الشناعة

....

إن زعم إسرائيل أنها تخوض حربنا على "الإرهاب الدولي" بقتالها نيابة عنا في غزة ودفاعاً عن قيمنا الغربية وأمننا وسلامتنا ومقاييسنا يجعل منا أيضا شركاء لها في الوحشية التي تصب على غزة صباً

....

إن ما يحدث ليس إراقة دم عادية في الشرق الأوسط، ولكنها وحشية على مستوى حروب البلقان في تسعينيات القرن الماضي. وبالطبع عندما يستثار عربي غاضباً وينفث غضبه الأعمى والملتهب على الغرب، سنقول إن هذا الأمر ليس له علاقة بنا. ونتساءل عندها لماذا يكرهوننا؟ لكن دعونا لا نقل إننا لا نعرف الجواب" [١].

وليس هذا الكتاب هو مجال سرد الجرائم الأمريكية كإبادة الهنود الحمر، وكالقنابل النارية ضد المدن اليابانية[٢]، وضد المدن الألمانية مثل هامبورج ودرسدن[٣]، والقصف الذري لهيروشيما ونجازاكي[٤]، واستخدام العنصر البرتقالي[٥] والقصف المساحي في فيتنام، وقتل مليون طفل من الحصار في العراق[٦]،

---

(١) ليس غريباً أن يكره العرب الغرب.

(٢) يقدر عدد قتلاها بأربعمائة ألف نسمة. لمزيد من التفاصيل حول بشاعة قصف القنابل النارية على اليابان في الحرب العالمية الثانية راجع [فصل: بوش الدجال من كتاب: بل هي حرب على الإسلام ص: ٥٥].

(٣) في هامبورج قتلت القنابل النارية في ليلة واحدة ٦٠٠٠٠ قتيل في عام ١٩٤٣، وفي درسدن قتلت القنابل النارية في ليلة واحدة ١٣٥٠٠٠ قتيل عام ١٩٤٥. [Microsoft- Encarta Encyclopedia ٢٠٠٥- World war II.].

راجع أيضاً لمزيد من التفصيل حول قصف القنابل النارية على اليابان وألمانيا وقتل أمريكا للمدنيين: [حوار مع الدكتور محمد المسعري في محاضرة: استهداف أمريكا].

(٤) قتلت أمريكا فيهما أكثر من ١٥٠٠٠٠ ياباني من أجل الإسراع بإنهاء حرب كانت هزيمة اليابان فيها مؤكدة. راجع تقرير التايمز عن قصف هيروشيما في ٧ أغسطس ١٩٤٥.

[Microsoft Encarta Premium Suite ٢٠٠٣- Atomic Bomb- The Times Report on the Power of the Atomic Bombs Dropped on Japan].

(٥) العامل البرتقالي مادة قاتلة للأعشاب ومسقطة للأوراق استخدمتها القوات الأمريكية في فيتنام لإسقاط أوراق الغابات وتدمير المحاصيل لحرمان مقاتلي الفيت كونج من الغطاء النباتي الطبيعي وتجويعهم، وقد ألقت الطائرات الأمريكية في الفترة ما بين عامي ١٩٦٠ إلى ١٩٧٠ ما يزيد على ٨٦ مليون ليتر من مبيدات الأعشاب، على مساحة ستة ملايين أكر من فيتنام بالإضافة لأجزاء من لاوس وكمبوديا. وكان العامل البرتقالي أكثرها فاعلية في إتلاف الغابات، وقد اكتسب اسمه من لون البراميل التي كان يعبأ فيها. ويحتوي هذا العامل على مادة الديوكسين، التي تعد من أكثر المواد سمية في العالم، وتكفي منها ثلاث أوقيات في مصدر مياه نيويورك لتسميم سكانها بأكملهم. وقد ألقي على فيتنام ما يقارب ٥٠٠ رطل من الديوكسين، الذي تعرض له ما يقارب مليوني فيتنامي. ومن آثاره الخطيرة تشوهات المواليد، التي قد تمتد للجيل الثالث، وأنواع نادرة من السرطانات. وقدرت الحكومة الفيتنامية أن تلك الكيماويات تسببت في تشوه نصف مليون مولود. ولم تكبد الولايات المتحدة نفسها دفع أي تعويض للفيتناميين.

[Essential Histories, The Vietnam War ١٩٥٦-١٩٧٥, p: ٧٠; Rogue State, p: ١٠٥ & ١٠٦; Microsoft Encarta ٢٠٠٦- Agent Orange].

(٦) لما سئلت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة مادلين أولبرايت عن موت نصف مليون طفل بسبب العقوبات علقت بتعليقها الشهير: "كان الأمر يستحق ذلك". [القاعدة: التنظيم السري ص: ٢٢٤، نقله عن: برنامج ٦٠ دقيقة- محطة CBS-TV- ٥ ديسمبر ١٩٩٦].

ومئات الآلاف من المدنيين العزل غير المحاربين في العراق وأفغانستان، واستخدام اليورانيوم المنضب[١]، ناهيك عن الدعم الأمريكي المتواصل للجرائم الإسرائيلية. ولكني سأروي للقارئ المنصف الشريف تجربتي الشخصية مع القصف الأمريكي، وهي قصة تلخص الأسلوب الأمريكي المتعمد في استهداف وتقصد النساء والأطفال. في الساعة ١١ ليلاً تقريباً يوم ٢٩ شعبان ١٤٢٢هـ الموافق ١٥ نوفمبر ٢٠٠١م سقط أول صاروخ على بيت الشيخ جلال الدين حقاني في جرديز، فتهدم المنزل، واستطاعت اثنتان من بناتي واثنتان من ربائب أخي نصر فهمي نصر (محمد صلاح) ~ أن تخرجن من فتحة في سقف غرفتهن المتهدمة، وصعدن فوق سطح البيت، وأكبرهن لا يزيد عمرها عن اثنتي عشر عاماً، فلما شاهدتهن الطائرات الأمريكية -كما نقلت جريدة الحياة- كرت طائرة بغارة أخرى على البيت بعد حوالي خمس إلى عشر دقائق، لتتأكد أمريكا من القضاء على كل من في البيت، فقتلت سبعة عشر شهيداً كما نحسبهم، منهم ثلاث نساء وإحدى عشر طفلاً. حالة قتل متعمد أخرى للنساء والأطفال تضاف لسجل جرائم أمريكا الرهيبة ضد المسلمين بل والبشرية جمعاء.

وكما ذكرت في عنوان هذه الفقرة فإن النصر المتحصل بهذه الطريقة نصر رخيص، رخيص أخلاقياً، ورخيص عسكرياً لأنه لا يدوم، وما يحدث في أفغانستان والعراق دليل على فشل أساليب أمريكا الرخيصة في الحرب.

٢- استخدام الوكلاء والخونة:

السمة الثانية من سمات قتال العدو الصليبي وخاصة الأمريكي منه هي استخدام العملاء والخونة وحتى المرتزقة في القتال، ودفعهم للصفوف الأمامية بينما يقاتل الأمريكان من خلفهم، ولا يتدخلون إلا عند عجز عملائهم أو فقدان الثقة فيهم. ومن أمثلة ذلك:

أ- استخدام أمريكا لتحالف الشمال كقوة عميلة لها في أفغانستان:

---

[١] قذائف اليورانيوم المنضب أطلقت منها قوات أمريكا وحلفائها ٣٢٠ طناً على العراق في حرب الخليج الأولى، أما في أفغانستان وفي حرب الخليج الثانية فلا يعلم أحد كم ألقوا منه؟ ولكنه بالقطع أكثر مما أطلقوه في حرب الخليج الأولى باعتراف الأمريكيين، وخاصة عند قصفهم لبغداد.

واليورانيوم المنضب يضر الإنسان والبيئة بسبب إشعاعه وبسبب سميته الكيماوية إذا دخل الجسم، وخاصة من غباره المتصاعد من انفجار القذائف أو ارتطامها بأهدافها، ويسبب اليورانيوم المنضب عدداً من الأمراض الخطيرة مثل سرطان الدم وسرطانات الرئة والجهاز الهضمي والتلف الكلوي والتشوهات الخلقية والإجهاض. وفي عام ١٩٩٥ رفع المسؤولون في وزارة الصحة العراقية تقريراً للأمم المتحدة عن زيادة الأمراض المشار إليها بنسب عالية في أطفال العراق.

[Rogue State, Chapter ١٢, Depleted Uranium, p: ٩٦- ٩٩; Microsoft Encarta ٢٠٠٦- Depleted Uranium; and THE ECONOMIC COSTS OF THE IRAQ WAR, P: ١٠].

أشرت من قبل لاستخدام أمريكا لأحمد شاه مسعود وتحالفه الشمالي ضد القاعدة وطالبان قبل الغزوات المباركات.

وعندما همت أمريكا بعدها بغزو أفغانستان بحثت عن عميل أفغاني فلم تجد إلا تحالف الشمال، الذي كان في قتال مع الطالبان، وكانت له قوات في الميدان، فهرعت أمريكا لاستخدامه عله يرفع بعض العبء عن قواتها، ويقلل من عدد القتلى فيها، رغم الحالة المزرية التي وصل لها ذلك التحالف بعد قتل زعيمه؛ أحمد شاه مسعود، وعن ذلك يقول مايكل شوِر في عام ٢٠٠٤:

"أنهى موت مسعود فرص التحالف الشمالي في البقاء كقوة سياسية عسكرية قابلة للحياة، ناهيك عن أن يشكل إطاراً لحكومة وطنية.

....

كان مسعود هو التحالف الشمالي، ولم يُعِد خليفة من بعده، وكان واضحاً -في حياته- أن زعماء التحالف الآخرين -محمد فهيم وعبد الله عبد الله ورشيد دوستم ويونس قانوني.. إلخ- كانوا على أفضل الأحوال في المرتبة الثانية، وربما كانوا قادرين على العمل بكفاءة تحت توجيه الرجل الكبير، ولكنهم لا يستطيعون أن يحلوا محله. وكانوا يحظون باحترام قليل في التحالف، رغم أن قانوني كان مرهوباً كمسؤول أمن مسعود، وكان أياً منهم مجهولاً دولياً.

وفي مواجهة التشرذم التنظيمي والهزيمة العسكرية النهائية أمام الطالبان وجد زعماء التحالف الشمالي -في آخر لحظة- نظاماً لإنقاذ الحياة اسمه الولايات المتحدة الأمريكية، حينما هوجمت نيويورك وواشنطن العاصمة بواسطة القاعدة بعد ٤٨ ساعة من موت مسعود. ووسط مفاجأتها بالهجوم وعدم استعدادها الكامل للرد بقواتها العسكرية أعادت واشنطن إنعاش علاقاتها طويلة الأمد مع التحالف الشمالي مؤخرة انهياره الحتمي.

وفي الحقيقة فإن إدارة بوش باستعمالها له كتمويه محلي لفرض قوتها الجوية، قد أبقت على التحالف الشمالي حياً لدرجة أن قادته بدوا مقتنعين أنهم قد هزموا طالبان وكسبوا الحرب[١].

---

(١) من المضحكات المبكيات أني شاهدت برهان الدين رباني -الرئيس الأفغاني الأسبق والمعترف به دولياً أثناء حكم الإمارة الإسلامية بأفغانستان رغم سيطرة ميليشياته على أقل من ٥ بالمائة من أراضي أفغانستان- في قناة (العربية) في برنامج (نقطة نظام)، ينفي أن يكون قد دخل هو وتحالفه الشمالي كابل على ظهور الدبابات الأمريكية، ويتبجح بأنهم قد دخلوها بقوتهم. وصدق النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ"[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد]، والمتنبي يقول:

وَإِذا ما خَلا الجَبانُ بِأَرضٍ   طَلَبَ الطَعنَ وَحدَهُ وَالنِزالا.

....

وهكذا فإن معظم الحرب لا زالت لم تُخَض، إنها حرب لا يستطيع التحالف أن يكسبها إلا إذا وفرت أمريكا قوة مشاة أكبر بكثير، وهزمت تمرد القاعدة وطالبان، وقبلت باحتلال أفغانستان للأبد. وهذا السيناريو -حتى لرجال محظوظين كخلفاء مسعود- يبدو بعيد المنال"[1].

كتب شور هذا الكلام في عام ٢٠٠٤، فماذا عساه يكتب الآن؟ يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

والشيء المثير للانتباه أن حركة الإخوان المسلمين بفروعها المختلفة لم يبد منها أي اعتراض أو انتقاد أو توبيخ أو حتى عتاب لأمثال برهان الدين رباني وسياف على دخولهم كابل على ظهور الدبابات الأمريكية وفي حماية قاذفاتها وتحت راياتها، وهم شركاؤهم في التنظيم الدولي، وكانوا من قبل يفتخرون بهم.

ومن المضحكات المبكيات أن تحالف الشمال وأشباهه من عملاء أمريكا لا يكلون ولا يملون عن الحديث عن تبعية الطالبان لباكستان، وأنهم حاربوها دفاعاً عن استقلال أفغانستان، بينما ترفرف في كابل أعلام أكثر من أربعين دولة أرسلت قواتها المسلحة لاحتلال أفغانستان، وأوصلت هؤلاء العملاء لكرسي الحكم.

ولو كانت طالبان تابعة لباكستان لسلمت أسامة بن لادن لأمريكا منذ زمن طويل.

ب- استخدام أمريكا للنظام الباكستاني:

عبر الاستسلام التام لحكومة باكستان، استطاعت أمريكا أن تحولها لمؤسسة خدمات تابعة لها، فقد قدمت باكستان كل ما تستطيع من أجل إرضاء رغبات أمريكا إلى درجة قتل أبناء باكستان وتدمير قراهم والسماح للقوات الأمريكية بقصف أهدافها داخل باكستان. ناهيك عن المعتقلين الذين لا يعلم عددهم الحقيقي، وبسبب إصرار قادة باكستان على التضحية بها من أجل رشاوى أمريكا، وصلت باكستان لحالة تهدد كيانها ووجودها، فعلى مستوى الأمن القومي أصبح العدو الرئيسي الهند موجوداً شرقها وغربها، وحرمت باكستان نفسها من وجود أفغانستان الصديقة كعمق استراتيجي وظهير لها، وقدمت باكستان أسرار السلاح النووي لأمريكا، واستنزف قادة باكستان جيشهم في معارك خاسرة ضد شعبهم. حيث تشهد مناطق القبائل حرباً أهلية ممتدة بين طالبان باكستان تؤازرهم القبائل وبين الجيش والقوات المساندة له، وكلما شن الجيش حملة تنتهي بالفشل، فيلجأ لعقد اتفاقية مع طالبان

---

[1] IMPERIAL HUBRIS, P: ٣٤ &٣٥.

باكستان، ثم ينكث بها تحت الضغط الأمريكي، وتبدأ دورة جديدة من القتال ثم الهزيمة ثم المعاهدة ثم نكثها، وهكذا دواليك. وتدهورت الحالة المعنوية للجيش، الذي استفحل الهرب بين جنوده، فشاعت بين وحداته ظاهرة التسليم للطالبان بعد اشتباكات قليلة.

أما فكرة باكستان التي تدور حول إنشاء وطن للمسلمين في شبه القارة الهندية، فقد تدمرت، بعد أن شاهد الباكستانيون كيف تحولت باكستان لحكومة تقتل المسلمين في أفغانستان وباكستان بل وفي داخل المساجد كما حدث في المسجد الأحمر بأوامر مباشرة من أمريكا.

ومثال باكستان كغيره من الأمثلة في عالمنا الإسلامي يبرز الدور الخطير الذي يقوم به الحكام الخونة في إذلال المسلمين واستعبادهم واستباحة دمائهم وحرماتهم لصالح أعداء الإسلام. ولولا خيانة الحكومة الباكستانية لما استطاعت أمريكا أن تحتل أفغانستان، ناهيك عن أن تستمر فيها.

٣- الغدر:

يعد الغدر ونقض العهود من المعالم البارزة في قتال الصليبيين وسياستهم. وجيلي وما قبله درس في التاريخ ما فعله الإنجليز بالشريف حسين، فبعد أن وعدوه بإنشاء المملكة العربية، وعدوا اليهود في (وعد بلفور) بفلسطين، ووعدوا فرنسا في اتفاقية (سايكس بيكو) بالشام.

وفي الحملة الصليبية المعاصرة مارسوا نفس غدرهم، ومن أشهر أمثلته مأساة (قلعي جنكي[١] وسجن (شبرغان).

وأنا أقتطف هنا أجزاء من رواية الشيخ الفاضل عبد الهادي العراقي -فك الله أسره- قائد المجاهدين العرب في جبهة كابل ثم بعد ذلك نائب أمير لواء الأنصار قبل الغزوات المباركات، ثم القائد العسكري الميداني للقاعدة في أفغانستان بعدهما. وهي وثيقة منشورة على شبكة المعلومات.

"ملحمة قلعة جنك

.. الملحمة المنسية.. ملحمة الشهداء.. ملحمة الشهداء المنسيين.. شهداء قلعة جنك المجهولين.. أبطال رفضوا الهوان..

حقيقة احترت في اختيار عنوان لهم، يعبر عما قاموا به من بطولة ورفض للهوان والذل، الذي يمكن أن يتعرضوا له لو بقوا أحياء. فهم ليسوا كباقي القطعان الحية، يسوقهم أعداء الله بالعصا، وهم راضخين أذلاء مقابل البقاء أحياء متمتعين بزيف الدنيا.

كنت أميرهم، ولكن أقدار الله شاءت أن أبتعد عنهم في اللحظات الحاسمة الصعبة، وهى ليست المرة الأولى، التي أراها بعيني، فالشهادة اختيار واصطفاء من الله.

---

[١] جنكي أصلها بالفارسية جنگي، وتكتب بحرف (گ)، وهو ينطق كالجيم العامية المصرية، ولا مقابل له في العربية. ومعنى قلعي جنگي: القلعة الحربية.

عدة شهور مضت على اتخاذ قرار المشاركة في جبهات شمال أفغانستان، فاخترت المجموعة الأولى من المجتهدين، الذين أمضوا فترات طويلة في جبهة شمال كابل، فشكلت منهم مجموعة طيبة صابرة، لا توصف بعطائها وبذلها[١].

....

أسود جميعهم، لا تكاد تفاضل أحدهم على الأخر، وحسبنا أنهم ذهبوا إلى جوار رحمن رحيم كريم في أشرف ساحات الوغى وميادين الرجال ضد أعداء الله من الأمريكان والمنافقين.

كانت الحملة الصليبية الأمريكية قد بدأت على أفغانستان بعد عمليات مركز التجارة والبنتاغون البطولية، التي رد فيها المجاهدون بقوة على الاستعلاء الأمريكي واحتلالهم للمقدسات الإسلامية وإعانتهم لليهود ضد إخواننا الفلسطينيين.

وكان القصف قد اشتد على مزار شريف خصوصاً، لفسح المجال أمام قوات دوستم وحلفائه الهزارة (الشيعة) وغيرهم، للسيطرة على المدينة والمطار لعمل موطئ قدم ينزل فيه الأمريكان، لتوسيع عملياتهم لاكتساح مواقع الطلبة الصامدة إلى تلك الأيام أمام القصف العنيف والهجمات الشرسة، حتى أنهم -الأمريكان- تحيروا، وكادت خططهم تفشل، وأصيبوا بالإحباط، ولولا التطورات اللاحقة التي حصلت وحيرت المراقبين بل والغالبية في الطلبة أنفسهم، ومن كانوا يشاركونهم الدفاع عن دولة الشريعة والقرآن.

وكانت أوامر أمير المؤمنين لازالت واضحة قوية: (اصمدوا واجتهدوا في الدفاع عن مواقعكم إلى أخر رجل. وأن الحياة ليست ملكاً لبوش، الذي يهدد بسلبها، ممن سيبقى ويصمد).

بدأ القصف يزداد عنفاً لحظة بعد لحظة، وبدأت المعنويات تنهار شيئاً فشيئاً، فالقصف العنيف أخذ يتضاعف، وبدأ ينتشر على كل جبهات مزار شريف، ويمتد إلى خارج مركز قندهار إلى القرى المحيطة بعاصمة أمير المؤمنين ومخزن قواته، بحجة أن هناك مواقع مشبوهة ممكن أن يتواجد فيها أمير المؤمنين والشيخ أسامة بن لادن.

وبدأت أعداد الضحايا المدنيين في ازدياد على العكس من الضحايا في الجبهات[٢]، والتي كانت نسبتهم قليلة جداً، لو قورنت مع شدة القصف، ودخلت أخيراً قنابل زنة ٧ طن و٨ طن، والتي تأتي على سقف الأسلحة التقليدية وقبل مرحلة القنبلة النووية، أصيبت نفسيات الطلبة بالضعف الشديد، وهم يرون الأهوال من تلك القنابل، وتم الانسحاب

---

[١] لعله يقصد: لا توصف إلا بعطائها وبذلها.

[٢] لاحظ هنا اعتماد الأمريكان والصليبيين عموماً على إحداث الخسائر الكبرى في المدنيين للضغط على المقاتلين.

من مزار شريف بدون ترتيب وبلا سابق إنذار، وبعدها صدرت الأوامر بالانسحاب من جبهات تخار، والتي كان الإخوة العرب موجودين فيها وهم محور قصتنا هذه.

كانت مواقع لواء المجاهدين[1] (وهم يزيدون عن ١٢٠٠ مجاهد شكلهم أمير المؤمنين من المجاهدين غير الأفغان قبل عدة شهور) تمتد من ضفاف نهر جيحون على مركز مديرية خوجة غار (وخط الجبهة يمتد من هناك وإلى تخار وفيه الإخوة الطلبة)، وعلى حسب اجتهاد القائد العسكري لشمال أفغانستان -الملا فضل- صدر أمر الانسحاب من مقدمة جبهة تخار والعودة إلى قندز (التي تبعد حوالي ٧٠ كم عن طلقان مركز ولاية تخار) لتقليل الخسائر وتنظيم الصفوف. خصوصاً أن الشمال قد انفصل عن القيادة المركزية للطلبة في جنوب أفغانستان بعد سقوط مدن مزار شريف وسمنجان وبول خمري وبعدها باميان بأيدي قوات التحالف الشمالي الموالي للأمريكان والصليبيين، وحدوث فوضى واضطراب شديدين في صفوف الطلبة على الرغم من نداءات أمير المؤمنين المتكررة بالصمود والدفاع، وكلمته المشهورة التي يرددها [إما الحياة بعزة وغيرة على دين ومحارم الله أو الموت والشهادة، زندي به غيرت يا مرگ به شهادت].

في البداية رفض الإخوة في اللواء الانسحاب في ضوء المعنويات المرتفعة، فهم وعلى مدى يومين سابقين كانوا قد صدوا عدة هجمات للعدو، أخرها استمر ١٢ ساعة متواصلة، لم يستطع العدو التقدم شبراً واحداً، على الرغم من القصف المدفعي الثقيل الشديد والدعم الجوي الكبير للطيران الأمريكي الصليبي، وإلى أن أقنع قادة الطلبة الإخوة بالانسحاب كان قد مر على انسحاب بقية قطعات الطلبة أكثر من نهار كامل، ومع هذا تأخرت مجموعة يتراوح عددها بـ ٢٥ أخاً عربياً، رفضت الانسحاب إلى ما بعد يومين من استكمال انسحاب الجميع، طبعاً حاصرهم العدو، ولكن لم يسطيع اقتحام مواقعهم.

وكان خط الانسحاب من خوجة غار إلى دشت آرجي وإلى قندز مكشوفاً، يمر بمنطقة تلال صعبة قاحلة من أي أشجار، وطوال الطريق كان الطيران يقصف الآليات، ولكن لم تحدث أية خسارة على الإطلاق بتوفيق الله وحفظه.

وحين استقرت هذه القوات كلها حول مدينة قندز كانت قوات التحالف الشمالي قد أطبقت الحصار على المدينة، فمن ناحية كانت قوات جلام جم (دوستم والهزارة) قد وصلت من مزار شريف وقوات شورى نظار (والذي كان اغتيل قائدها المشهور مسعود قبل أسابيع) من الناحية الأخرى، وكانت المنافسة شديدة بينهم على من يدخل المدينة

[1] هو نفسه لواء الأنصار.

أولاً سينال الحظوة والأموال والمكافأة، فقوات دوستم محسوبة على الأمريكان، وقوات شورى نظار تتلقى دعمها الكامل من روسيا وإيران، على الرغم من أن الطرفين يتمتعان بالدعم الجوي الأمريكي المباشر.

رمى دوستم (الجنرال الشيوعي السابق) ثقله كاملاً لإجراء مفاوضات لدخول قندز سلماً، وعرض على الطلبة الاستسلام مقابل العفو وإيصال المقاتلين إلى أماكن سكناهم ....

وضغوط أهالي المنطقة تزداد لسحب الطلبة أو استسلامهم لتجنب مناطقهم الدمار من جراء القصف الجوي الذي لا يميز بين قطعة عسكرية وبين قرية أو تجمع سكاني مدني، ويزداد مع صمود الطلبة إلحاح دوستم على الطلبة للتسليم مقابل ضمانات كثيرة، ليسبق خصمه محمد فهيم قائد شورى نظار، ويدخل قندز ويضيفها إلى مناطق نفوذه ليقوي بها موقعه ومكانته عند أسياده الأمريكان.

لا ندري ما جرى حقيقة في المفاوضات فقد حصل الاتفاق فجأة على خروج غير الأفغان من هناك والتوجه إلى مزار شريف للحفاظ عليهم ابتداءً، وعند وصولهم إلى هناك يستكمل تسليم بقية قوات الطلبة لقوات دوستم، انطلقت السيارات الشاحنة تقل ٣٥٠ مجاهد، كل العرب وعددهم ١٥٤ أخ مع ١٠٠ من الأوزبك والطاجيك وبقية من المجاهدين الباكستانيين وقليل من الطلبة، ومعهم ٤ سيارات صغيرة من قوات دوستم ومن أفراد القومندان ناصر خروي البشتوني، بالتحديد كأمان لهم ودليل خلال الطريق، لم يعترض طريقهم أحد، وحين اقتربوا من مدينة مزار شريف كان الليل قد اقترب على نهايته، وبدأ الدليل يخفض من سرعة السيارة، إلى أن توقف قائلاً إن وجهتنا إلى بلخ الواقعة خلف مدينة مزار شريف، وهناك طريقان، أحدهما طويل يلف حول مزار، والأخر قصير يخترق المدينة، ولكنه خطر لأن هناك قوات من الهزارة، وهم لا يطيعون لنا، ونخاف أن يتعرضوا لكم، وتكون هناك مشاكل، ولكن الطريق الطويل خطر أيضاً، لأننا نريد أن نوصلكم إلى بلخ بدون علم دوستم، وإذا طلع النهار ممكن استخبارات دوستم تكشف الموضوع، ويعرقل الأمر، فلهذا سنرسل سيارة لتأمين طريق المدينة، ثم تعود لتسير بالقافلة، المهم تحركت السيارة باتجاه المدينة بسرعة، وبعد ساعة تحركت السيارة الثانية بحجة أن الأولى تأخرت، وعند بزوغ ضوء النهار تحركت الثالثة، وبعدها بقليل الرابعة لاستكشاف الأمر.

بدأ الشك يزداد عند الإخوة، نظروا حولهم فإذا هم في منطقة سهلة ليست فيها أي تضاريس أو وادي أو مرتفع، وفجأة سمعوا صوت مدرعات تتجه صوبهم، أمعن ناس

المقدمة فإذا هي فعلاً مدرعات، ولكنها لا تسير باتجاههم مباشرة، بل قسم منها ينحرف بعيداً إلى اليمين والأخر بعيداً إلى اليسار.

تشاور المسئولون بسرعة، وقرروا تشكيل خط دفاعي دائري، يكون العرب في المقدمة والأوزبك على الجناحين والباكستانيين يحمون المؤخرة، وفعلاً وبسرعة تنم عن خبرة قتالية توزعت الأعداد وأخذ المجاهدون أماكنهم، وكانت الأسلحة لحد الآن لم تسحب من عندهم، عندها كانت قوات العدو قد استكملت حصار المنطقة كاملاً، تخندق الإخوة وسحبوا أقسام الأسلحة إستعداداً لأي طارئ.

بدأت إحدى السيارات التي كانت قد غادرت لترتيب أمر عبور المدينة تتجه بسرعة إلى مركز تواجد الإخوة، تركها الإخوة تقترب، نزل مسؤولها، هرول إلى مسؤول المجموعات وكان الخوف يملأه.

....

المهم أن الأفغاني بدأ مهتماً بتهدئة الإخوة قائلاً أن الأمور بخير ولكن هناك مشكلة بسيطة وهي أن الجنرال دوستم قد عرف الأمر، وهو يصر على أن يذهب الجميع لمراكزه ليحافظ عليهم، فقط عليهم الآن تسليم أسلحتهم، طبعاً انتفض الإخوة، فكيف يكون ذلك ولحد هذه اللحظة لم يستطع المنافقون الاقتراب منهم؟ ولقد صدوا العديد من هجماتهم المدعمة بالقصف الأمريكي الصليبي العنيف، وعندما رأي الدليل الأفغاني إصرار الإخوة على عدم تسليم الأسلحة اقترح عليهم أن يتصلوا بالملا فضل في قندز، ليأخذوا منه التعليمات، وكان الإخوة قد نصبوا المخابرة[1] *هناك في الميدان*

....

المهم بعد انتهاء اتصالهم بنا تكلموا مع ملا فضل، حيث طلب منهم الرضوخ لمطالبهم وتسليم الأسلحة للحفاظ على بقية الطلبة الموجودين في قندز، قائلاً إننا لحد الآن لم نسلم أسلحتنا، ولكن إذا عملتم مشاكل فربما يبدأون بقصفنا والتعرض علينا، خصوصاً أن قواتهم بدأت تدخل المدينة، وقال لهم عليكم بالسمع والطاعة وأن عملي هذا الغرض منه لإنقاذ حياة أكبر عدد ممكن من الطلبة بأمر أمير المؤمنين؟!! تردد الإخوة بتسليم الأسلحة، فنادى ملا فضل الملا ذاكر عبد القيوم ليكلمهم على المخابرة، وكان ملا ذاكر هو أمير قطاع عملياتنا في خوجة غار ودشت أرجي.

---

[1] جهاز اللاسلكي.

بعدها رضخ الإخوة للطلب وتشاوروا على تسليم الأسلحة الكبيرة الظاهرة وإخفاء القنابل اليدوية والمسدسات والسكاكين للطوارئ، وبدأ وضع السلاح على الأرض والأغلبية غير مقتنعة تماماً، ومدهوشة بما يحصل.

بعد استكمال تسليم الأسلحة طلب الدليل من قسم من قوات العدو بالاقتراب واستلام الأسلحة، وطالب الإخوة بتسليم كل ما لديهم من سلاح، فأجابوه بأنه لم يبق شيء آخر، وإزاء هذا العناد طلب إليهم التوجه إلى السيارات للتحرك إلى مزار شريف.

انطلقت أمام القافلة سيارة الجرحى مع دليل واحد، وكان هناك أربعة من الجرحى، منهم أبو ناصر الأبيني وأسامة الحضرمي، وكانوا قد جرحوا في القصف سابقاً، أسرعت السيارة وسبقت القافلة، عند وصولها إلى داخل المدينة أوقفها حاجز لحزب وحدت الشيعي، وحينما عرفوا أن فيها عرباً أنزلوا الأفغاني الدليل، وعلى رغم توسله لهم قائلاً إنه منهم ومن أفراد قومندان ناصر، وهؤلاء مستسلمون، وسآخذهم إلى السجن. ولكن بدون فائدة. بدأوا بضربه وبسبه بشتى الألفاظ القاذعة، وانهالوا بالضرب على الجرحى غير آبهين بحالتهم، واقتادوا الجميع للسجن عندهم، وبدأوا بالتحقيق معهم، ونـدع أخاً طالباً أفغانياً - كان مجروحاً وركب معهم السيارة- يحكي القصة، حيث يقول: بدأوا بالضرب الشديد للجميع، ثم أوقفوا السيارة في الخارج، واستدعوني للتحقيق، فقلت لهم إنني لست معهم، بل أنا جريح وأتيت معهم فقط بالسيارة. فقالوا لي لا نعرف ذلك، وإذا أردت الخروج فكم ستعطينا؟ حينها تذكرت بأن الإخوة أخفوا مسدساً وبعض الأموال، التي جمعوها من بينهم خوفاً من السرقة، وأخفوها في محرك السيارة، ففكرت أنهم سيأخذون السيارة كلها، فلأفدي نفسي بالمسدس، ففاوضتهم على إعطائهم مقابل خروجي، فوافقوا فأرشدتهم إلى مكانه، فذهبوا وأخرجوه، ولكن عندما عادوا قالوا هذا لا يكفي نريد ورق أخضر (يقصدون الدولار). فأرشدتهم على مكان الأموال، وعندما رأوها قالوا لي اخرج، واترك لنا هؤلاء العرب نبيعهم بالدولار. فخرجت من عندهم، وأنا أسمع صيحات وتأوهات الإخوة الجرحى، حيث بدأ المنافقون بضربهم، ثم نقلوهم إلى المستشفى، ثم سلموهم للأمريكان.

ثم نعود للقافلة الكبيرة، حيث أخذوهم إلى قلعة جنكي، وهي قلعة كبيرة على أطراف مزار شريف، ترتفع عن الأرض كثيراً، يحيطها سور عريض، يمكن للدبابة أن تسير عليه، وخلفه قناة ماء، ومن داخلها كبيرة جداً، مكون[1] من عدة طبقات وفي الأسفل سراديب

[1] لعلها: مكونة.

وغرف، وهي قلعة عسكرية مجهزة للقتال والصمود أمام الحصار، ومخزن فيها أسلحة وذخائر كثيرة.

وعند وصولهم للقلعة دخلت السيارات إلى داخل القلعة، وكان قد سبقهم إليها أكابر قومندنات حزب وحدت الشيعي وأكابر قومندنات دوستم ورئيس استخباراته وكذلك قوات كبيرة تقدر بعدة مئات، كذلك مندوبين عن القوات الأجنبية الأمريكية وال CIA، وعند وصولهم تم تقسيمهم على الغرف، ثم بعد ذلك بدأت قوات العدو بفتح غرفة غرفة وإخراج الإخوة لتفتيشهم وتسجيل الأسماء والمعلومات، كان يشرف على التسجيل ضباط أمريكان وكبار ضباط دوستم والهزارة، وكان أفراد العدو والمحققين يتعمدون إساءة المعاملة والتلفظ بالكلمات القذرة على الإخوة والجهاد والدين، ويستهزؤن بالجميع، وحين رأى الإخوة ذلك، وقبل أن يستكمل الغرفة الأولى، تبادل عدد من الشباب الإشارات، وتقدم الأول للتفتيش واضعاً يده في جيبه، وانتبه لذلك المحقق فصاح عليه أن أخرج يدك يا ابن .. فشد الأول قبضة يده من جيبه، وفجأة دوى انفجار كبير أعقبه أخر، قتل الأخ مباشرة، وقتل على أثر انفجار القنبلتين اليدويتين أيضاً المحقق الأمريكي ورئيس استخبارات مزار وأكبر قومندانات لحزب وحدت وعدد من كبار قادة دوستم، وساد الهلع قوات العدو، وبدأوا يتناثرون كذر الغبار، اشتدت به الريح، سارع عدد من الإخوة إلى أسلحة المقتولين ليأخذوها، وسارع آخرون إلى بوابات القلعة، ليغلقوها لمنع العدو وبقية الأمريكان من الفرار، وذهب البقية لفتح أبواب الغرف لإخراج إخوانهم، وسادت فترة قصيرة من الصمت، ولكنها كانت رهيبة.

وانفتح بعدها باب جهنم على الأمريكان والأعداء، الذين فوجئوا بما حدث، فهم لم يروا ذلك من قبل، ناس في الأسر لا يصبرون على إهانات، هي عندهم في أعرافهم أمور عادية، يمكن يتبادلونها بينهم فرحاً. ولكن أنى يكون ذلك لحر عزيز ذاق طعم الجهاد، وما أنزل السلاح من على كتفه إلا قبل لحظات سمعاً وطاعة لأميره، ولكن على غير اقتناع وثقة في الطرف المقابل، الذي وضع يده بأيدي الكفرة والصليبيين لهدم صرح دولة الشريعة.

ودارت معركة رهيبة، كان العدو فيها كالجرذان المرعوبة، لا تدري أين الفرار؟ وبدأ قسم منهم يقفز من الجدران العالية، لا أحد منهم يجرؤ على المواجهة، فهم لم يأتوا للموت بل لجمع الأموال والتمتع بشهوة التسلط، وما سينعم به الأمريكان عليهم. وما هو إلا وقت قصير صفى فيها الإخوة أغلب الذين كانوا موجودين من العدو والأمريكان.

وبدأ الجد مرة أخرى، فالساعة ساعة حزم وأمر، تقسمت المجموعات، وتوزعت المهام بدقة، فالناس أصحاب خبرة قتالية سابقة. توجهت مجموعة لكسر المخازن واستخراج الأسلحة، وأخرى لجلب الذخيرة وتوزيعها، وأخرى لاستخراج ونصب الرشاشات الثقيلة والهاونات وهكذا، وبعد فترة عادت المجموعة المكلفة بإحصاء وجرد إصابات العدو وإصابات الإخوة، والنتيجة المذهلة [١٥ قتيل أمريكي- تقريباً ٢٠٠ قتيل من المنافقين]. لم يبق منهم أحد حي، لا خسائر ولا إصابات بين المجاهدين، عدا الأخ الذي ألقى القنبلتين اليدويتين في البداية.

ثم تشاوروا، وقرروا الصمود داخل القلعة، لأن العدو بدأ يتجمع في الخارج، والمدرعات والدبابات بدأت تحاصر القلعة، وصوت الطيران يستكشف المنطقة.

بدأ الشباب المجاهد توزيع المهام الدفاعية على الجميع، متوقعين أن العدو سيبدأ عملية اقتحام القلعة، بعدما رأو كثافة نيران الرشاشات والمدفعية الموجهة عليهم ونداءات طلب الاستسلام. ولكن استسلام من أسود لفئران مرعوبة!

وإلى صباح اليوم التالي لم يحاول أي فأر الاقتراب من عرين الأسود. ولكن مع إشراقة الصباح بدأ قصف جوي شديد، وكذلك قصف مدفعي من الأرض، واستمر الأمر إلى المغرب، ما استطاع الإخوة عمل شيء أكثر من إخلاء الجرحى للطابق السفلي، وكذلك تقليل الأعداد الموجودة في محيط القلعة للدفاع ضد أي معتدي، واستمر ذلك طوال الليل، ولم يكن هناك من الطعام إلا القليل جداً مع الماء، هدأ القصف ليلاً، ليعود مرة أخرى في الصباح بشدة أكبر مع محاولات لاقتراب دبابات، إلا أن الإخوة ردوها على أعقابها، ومع اشتداد القصف بدأ الدخان يتصاعد، والذخائر تنفجر، والدمار يتجاوز الطابق العلوي إلى الطوابق السفلية، ومع نهاية اليوم الثالث من القصف العنيف المستمر كان أغلب الموجودين قد دفن تحت الأنقاض، أو جرح جروحاً بليغة، ولم ينج من الجرحى إلا من لجأ إلى الخنادق العميقة تحت الأرض.

دخل عدد من أفراد العدو القلعة خفية، ليتأكدوا من مقتل الجميع وأعطوا إشارة للبقية بانتهاء المقاومة ومقتل الجميع، وعند اكتشافهم وجود عدد من الجرحى في الأنفاق، دخل اثنان من العدو لإخراجهم فأخرج الأخ مسدسه، وقتل الاثنين، ورفض الجميع نداءات العدو للخروج من الأنفاق، ففتح عليهم الماء لإجبارهم على الخروج، فلم يفلحوا، فبدأوا بإغراق هذه الأنفاق والملاجئ بالديزل والبنزين وأشعلوا النار، عندها اضطر من بقي على قيد الحياة ونجا من الحرق والاختناق إلى الخروج، وكان عدد من تبقى من هذه المذبحة ٨٠

أخاً، أغلبهم من الباكستان، ومن بين الجرحى الأخ الأمريكي، الذي أحرج بوش، الغير مصدق لوجود أمريكي في صفوف الطلبة.

وبهذا انتهت هذه الملحمة التي سطرها الشباب المجاهد الرافض لهذا الهوان الذي تعيشه الأمة، فضَّل لقاء ربه الكريم على حياة ملؤها الذل والخنوع، وما خاب وما خسر في اختياره، بل هو خروج من هذا السجن الكبير إلى جنات الرضوان مع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام في أعلى عليين.

وبعد ....

فهذه أحداث عايشناها ورأيناها، حفرت أخاديد عميقة في عقولنا وقلوبنا، أبطالها إخوة أفاضل سبقونا إلى ما كنا قد وضعنا أعيننا وتعاهدنا عليه، رضا الرحمن وجنات الرضوان، فنحن على طريقهم لن نكّل ولن نمّل، وقسماً نبره؛ فقد بعنا، وقد اشترى الرحمن. صفقة لن نندم عليها أبداً، نرويها لمن كان له قلب، وما زال به ذرة من إيمان أو رجولة أو نخوة لعل الله ينفعه بها.

نسأل الله القبول .. ولأمتنا الاستيقاظ والنهوض ولشبابنا العودة إلى الطريق التي ارتضاها الله لنا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبد الهادي العراقي

أخر ذو الحجة ١٤٢٢ هـ

١٤ مارس ٢٠٠٢م"

يقول روبرت فيسك في مقال له بعنوان (مجزرة سجن جانغي.. شاهدة على الإرهاب الغربي):

"لقد أصبحنا نحن معشر الغربيين مجرمي حرب في أفغانستان فالقوات الجوية الأميركية تقصف مزار الشريف نيابة عن قوات التحالف الشمالي، وحلفاؤها الأفغان الأبطال - الذين ذبحوا ٥٠ ألف إنسان في كابول ما بين عام ١٩٩٢ و١٩٩٦- تحركوا إلى داخل المدينة و أعدموا ٣٠٠ مقاتل من طالبان.

....

وعليه فإن جريمة حرب ارتكبت بمساعدة من سلاح الجو الأميركي. والآن لدينا "تمرد" سجن مزار الشريف، الذي فتح فيه الأسرى الطالبانيون النار على سجانيهم من التحالف الشمالي، ولكن تبين أن القوات الخاصة الأميركية والقوات الخاصة البريطانية ساعدت قوات التحالف الشمالي على إخماد "التمرد".

....

وعليه فإن القوات الخاصة البريطانية متهمة بارتكاب جريمة حرب.

....

وليس هناك عذر كاف للأميركيين لإخلاء مسؤوليتهم عن تلك المذبحة، فقد صرح وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد خلال حصار المدينة بأن الغارات الجوية الأميركية على المدافعين الطالبان عن المدينة المحاصرة سوف تتوقف "إذا طلب التحالف الشمالي وقفها". وتجاهل الحقيقة، التي كشفت أن سلاح الجو الأميركي متحالف مع مجرمين وسفاحين يسعون للانتقام من طالبان، فتصريحات رامسفيلد تجرم الدور الأميركي وتضع واشنطن في قفص الشهادة في أية محاكمة على جرائم الحرب، التي ارتكبت في قندوز، فقد كانت الولايات المتحدة تتصرف بتعاون عسكري كامل مع ميليشيات التحالف الشمالي.

....

فما الذي جرى للبوصلة الأخلاقية منذ ١١ سبتمبر؟ ربما أستطيع الإجابة: بعد كل من الحرب العالمية الأولى والثانية، طورنا نحن الغرب، غابة من التشريعات لمنع وقوع المزيد من جرائم الحرب.

....

وعلى مدى الخمسين عاما الماضية جلسنا على عرشنا الأخلاقي نلقي محاضرات على الصينيين والسوفيات والعرب والإفريقيين حول حقوق الإنسان، كما أصدرنا أحكامنا بخصوص الجرائم التي ارتكبت ضد حقوق الإنسان من قبل البوسنيين والكروات والصرب، ووضعنا الكثيرين منهم في قفص الاتهام، بالضبط مثلما فعلنا بالنازيين في نورمبيرغ.

....

ولكن فجأة، بعد ١١ سبتمبر ، أصبحنا مجانين .. فقصفنا القرى الأفغانية وحولناها وسكانها إلى هباء منثور، وألقينا اللوم على طالبان وأسامة بن لادن على المذبحة التي ارتكبناها، والآن سمحنا للميليشيات التي تحالفنا معها بأن تنفذ عمليات الإعدام دون محاكمة للأسرى.

وقد صادق الرئيس الأميركي جورج بوش على مجموعة من المحاكم العسكرية السرية لمحاكمة وتصفية أي شخص يعتقد بأنه مجرم إرهابي في نظر المخابرات الأميركية المعروفة بقدم كفاءتها، ويجب ألا نخطئ الفهم بأن هذه المحاكم عبارة عن فرق إعدام حكومية أميركية رسمية مشرعة قانوناً، وقد أوجدت بالطبع خصيصا لتصفية أسامة بن لادن ورجاله

في حالة وقوعهم في الأسر بدلاً من تعرضهم للقتل، ومن أجل ألا يكون لهم أي دفاع علني، بل مجرد محاكمة زائفة وفرقة إعدام بإطلاق الرصاص.

من الواضح تماماً ما الذي جرى، فعندما يقوم شعب ممن بشرتهم صفراء أو سوداء أو بنية لهم مؤهلات شيوعية أو قومية أو إسلامية، بقتل أسراهم أو قصف شامل ومدمر للقرى من أجل قتل أعدائهم أو إنشاء محاكم إعدامات يجب أن يدانوا من قبل الولايات المتحدة والعالم "المتحضر"، فنحن أسياد حقوق الإنسان والليبراليون والعظماء والأخيار الذين يستطيعون أن يلقوا مواعظ للجماهير الفقيرة والمعدمة، ولكن عندما يتعرض شعبنا إلى القتل وعندما تتعرض مبانينا للتدمير نقوم بتمزيق كل تشريع مكتوب ومتفق عليه بخصوص حقوق الإنسان، وترسل طائرات بي – ٥٢ إلى الجماهير الفقيرة والمعدمة ونبدأ في قتل أعدائنا.

....

ولكن ليست صدمة قوية حقاً؛ هو أن توني بلير وجاك شيراك وغيرهارد شرويدر وجميع صبيان التليفزيون ظلوا جميعا صامتين في وجه الجرائم، التي ارتكبت في أفغانستان، والتشريعات التي اتخذتها واشنطن على الطريقة الأوروبية الشرقية منذ ١١ سبتمبر. لكن هناك أشباحاً حولنا تذكرنا بعواقب جرائم الدولة، ففي فرنسا لا يذهب الجنرال إلى المحاكمة حتى بعد أن يعترف بارتكاب التعذيب الجرائم[1] في الحرب الجزائرية ١٩٥٤/١٩٦٢، لأنه أشار إلى أعماله بأنها "واجبات مبررة قام بها بدون سرور أو ندم". وفي بروكسل سيقوم أحد القضاة باتخاذ قرار حول ما إذا كان رئيس الوزراء الإسرائيلي ارييل شارون سيخضع للمحاكمة على مسؤوليته الشخصية، عن مذبحة صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢".

ثم تلت هذه المذبحة الغادرة مقتلة أخرى خارجة عن كل ضمير وشرف، وهي مقتل أكثر من ألف أسير أثناء رحلتهم في الحاويات خنقاً وعطشاً أثناء ترحيلهم لسجن شبرغان. بالإضافة لمن قتلوا في ذلك السجن البغيض.

ولم تحرك الأمم المتحدة ولا الدول المتحضرة ساكناً، بل صرح الأخضر الإبراهيمي –مندوب الأمم المتحدة لأفغانستان– بأن موضوع قلعي جنكي موضوع حساس لا داعي لفتحه الآن.

---

[1] لعل المقصود: جرائم التعذيب.

المطلب الثالث:

المعاني السياسية والفكرية التي أبرزتها الغزوات

"أقسم بالله العظيم، الذي رفع السماء بلا عمد، لن تحلم أمريكا ولا من يعيش في أمريكا بالأمن، قبل أن نعيشه واقعاً في فلسطين، وقبل أن تخرج جميع الجيوش الكافرة من أرض محمد صلى الله عليه وسلم"[١] .

أحدثت الغزوات المباركات في نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا ولا زالت تحدث آثاراً عظيمة متوالية، ولا زالت تفاعلاتها تتسع وتتزايد، وأنا هنا أورد بعض التأملات الموجزة في ذلك الشأن، وأوردها تحت الأفرع الآتية:

الفرع الأول: رسالة الغزوات.

الفرع الثاني: نقل المعركة لأرض العدو.

الفرع الثالث: آثار الغزوات.

الفرع الرابع: الانتصار الإعلامي للمجاهدين.

الفرع الخامس: كيف يخطط الصليبيون لحرب المجاهدين سياسياً وفكرياً.

[١] أسامة بن لادن مساء السابع من أكتوبر ٢٠٠١، بدء العدوان الأمريكي على أفغانستان.

الفرع الأول:

رسالة الغزوات

وأقسم الكلام هنا إلى العناوين التالية:

١- رسالة الغزوات للأمة المسلمة.

٢- رسالة الغزوات لأعداء الإسلام.

٣- رسالة الغزوات للمظلومين ضحايا أمريكا.

***

١- رسالة الغزوات للأمة المسلمة.

أ- الرد على ثقافة العجز والتراجع.

ردت الغزوات -بصورة لا نظير لها- على ثقافة العجز ومنهج التراجع، الذي ظل ولا يزال حتى اليوم يرضع أبناءه سم أن (العنف لا يؤدي إلا للفشل)، أو قد (ثبت يقيناً أن كل محاولات العنف فاشلة). فتركت الغزوات الصليبيين الأمريكان ليخبروا العاجزين المتراجعين أن الطليعة المجاهدة قد أنزلت بهم أكبر ضربة في تاريخهم.

وشمائلٌ شَهِدَ العدوُّ بفَضْلِها والفضلُ ما شَهِدَتْ به الأعداءُ[1]

لقد أثبتت الغزوات المباركات أن القوة العظمى ليست آلهة، وأنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تعلم الغيب ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾.

ب- القدوة الصالحة.

---

[1] البيت للسري الرفاء- الموسوعة الشعرية- السري الرفاء.

ضرب الأبطال التسعة عشر -رحمهم الله- أمثلة راقية من القدوة الصالحة للشباب المسلم، وأشير هنا لبعض صفاتهم النبيلة رحمهم الله.

(١) الشهداء التسعة عشر لم يكونوا جيشاً جراراً ولكنهم كانوا رجالاً أحراراً[١].

يقول الشهيد -كما نحسبه- أحمد الحزنوي ~ في وصيته:

"أما أنا فما رضيت -والله- حياة الذل، كما رضيها غيري، وأبت نفسي إلا أن تعيش عزيزة بدين ربها، وإن كلفها ذلك الهجرة والبعد عن أحبابها. فهذه ميادين الأسود قامت، والجنة هيئت لطلابها، فخرجت لقتال أعداء الله تعالى من الأمريكان في أي قطر يتسنى لي ذلك، بل وقتلهم وقتالهم في عقر دارهم، فأنا أطلب الشهادة، وأسعى لها، بعد إعزاز ديني وقتل أعدائه، فنفرت باحثاً عن أراضي الإعداد لقتل الأمريكان وأعداء الدين نصرة لدين ربي وثأراً لدماء إخواني، فنفرت أنا وإخواني، ولسان حالنا يقول:

خرجنا إلى الموت شم الأنوف ... كما تخرج الأسد من غابها

نمر على شفرات السيوف ... ونأتي المنية من بابها

ستعلم أمتنا أننا ... ركبنا الخطوب حناناً بها" [٢]

(٢) حرص المقاتلين على الشهادة:

يقول الشهيد -كما نحسبه- معتز الغامدي ~:

"اللهم اجعل دولة الكفر تسقط على أيدينا، واجعل دولة الإسلام تقوم على جماجمنا، واجعل في دمائنا حياة لأمتنا، اللهم إني أحتسب نفسي عندك. جار العدو علينا فما هنا ولا جبنا. اللهم اقبلني عندك شهيداً، اللهم إني أحببت لقاءك فاحبب لقائي" [٣].

ويقول الشهيد -كما نحسبه- أحمد الحزنوي ~ في وصيته:

"اللهم خذ من دمائنا اليوم حتى ترضى. اللهم لا تجعل لأجسادنا قبراً يضمها، ولا تراباً يواريها، ولا لحداً يغطيها" [٤].

وأربعة من التسعة عشر شهيداً —كما نحسبهم- استشهد كل منهم مع شقيقه. وليد الشهري ووائل الشهري Kمن سرية أمير النسور الاستشهادية محمد عطا ~، ونواف الحازمي وسالم الحازميKمن سرية هاني حنجور ~.

---

[١] هذا التعبير استعرته من الأستاذ سيف الدين الأنصاري [غزوة نيويورك وواشنطن: قراءة تأصيلية- ضمن كتاب: غزوة ١١ سبتمبر- رؤية متكاملة للحدث الذي هز العالم].

[٢] شريط (الوصية الأولى لشهداء الغزوتين- البطل الغازي أحمد الحزنوي).

[٣] شريط (الوصية الثالثة لشهداء الغزوتين- الغازي البطل سعيد الغامدي).

[٤] شريط (الوصية الأولى لشهداء الغزوتين- البطل الغازي أحمد الحزنوي).

وخمسة منهم متزوجون أو مقترنون، ومنهم من رزق بأطفال. ومع ذلك لم تؤخرهم رابطة الأخوة ولا الزوجية ولا الأبوة من التسابق للشهادة رحمهم الله.

(٣) التوكل على الله وتفريغ القلب ممن سواه وتفويض الأمر إليه، والحرص على متابعة السنة.

جاء في ورقة النصائح التي وزعت على الإخوة الاستشهاديين ليلة العملية:

"[أ] التبايع على الموت وتجديد البيعة.

[ب] معرفة الخطة جيداً من كل النواحي، وتوقع ردة الفعل أو المقاومة من العدو.

[ج] قراءة سورة التوبة والأنفال وتدبر معانيه[1]، وما أعده الله للمؤمنين من النعيم المقيم للشهداء.

[د] تذكير النفس بالسمع والطاعة تلك الليلة، وأنك ستتعرض لمواقف حاسمة لا بد فيها من السمع والطاعة (١٠٠%)، فروض نفسك، وفهمها وأقنعها وحرضها على ذلك.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

[هـ] قيام الليل والإلحاح في الدعاء بالنصر والتمكين والفتح المبين وتيسير الأمور والستر علينا.

[و] كثرة الذكر. واعلموا أن خير الذكر قراءة القرآن الكريم، وذلك بإجماع العلماء فيما أعلم، ويكفي لنا أنه كلام فاطر السموات والأرض، الذي أنت مقبل عليه.

[ز] صف قلبك، ونقه من الشوائب، وانس وتناس شيئاً اسمه دنيا، فقد مضى زمن اللعب، وجاء الموعد الحق، كم ضيعنا من أعمارنا من أوقات، أفلا نستغل تلك الساعات لتقديم القربات والطاعات؟

[ح] ليكن صدرك منشرحاً، فإنه ما بينك وبين زواجك إلا لحظات يسيرة، بها تبدأ الحياة السعيدة المرضية والنعيم الخالد مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً. نسأل الله من فضله. وكن متفائلاً، فإن عليه الصلاة والسلام (كان يحب الفأل في أمره كله).

[ط] ثم ضع نصب عينيك أنك إذا وقعت في ابتلاء كيف تتصرف؟ وكيف تثبت وتسترجع؟ وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن هذا الابتلاء من الله جل وعلا، ليرفع درجتك، ويكفر من ذنوبك. ثم اعلم أن لحظات ثم

---

[1] لعل المقصود: معانيها.

ينجلي بإذن الله. فهنيئاً لمن فاز بالأجر العظيم من الله. قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

[ي] ثم تذكروا قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ... الآية﴾، وبعد ذلك تذكروا ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ.. الآية﴾، وقوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

[ك] ذكر نفسك بالأدعية وإخوانك، وتدبر معانيها (أذكار الصباح والمساء- أذكار البلدة- أذكار المكان- أذكار لقاء العدو- إلخ).

[ل] النفث [على النفس- والشنطة- والملابس- والسكين- أدواتك- بطاقتك- (تذ)- جوازك- أوراقك كلها].

[م] تفقد سلاحك قبل الرحيل.... (وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته).

[ن] شد عليك ملابسك جيداً، وهذا هو نهج السلف الصالح رضوان الله عليهم، فكانوا يشدون ملابسهم عليهم قبل المعركة....

[س] صل الصبح في جماعة، وتدبر أجرها، وائت بالأذكار بعدها، ولا تخرج من شقتك إلا متوضئاً.

....

بعد ذلك المرحلة الثانية:

إذا نقلك التكسي إلى (م) فاذكر الله في السيارة ذكراً كثيراً (ذكر الركوب- ذكر البلدة- ذكر المكان- الأذكار الأخرى).

إذا وصلت ورأيت (م) ونزلت من التاكسي فقل دعاء المكان، وكل مكان تذهبه قل فيه دعاء المكان.

وابتسم واطمئن فإن الله مع المؤمنين، والملائكة تحرسك وأنت لا تشعر.

ثم قل دعاء (الله أعز من خلقه جميعاً...)، وقل (اللهم اكفينهم بما شئت)، وقل (اللهم إنا ندرأ بك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم)، وقل (اللهم اجعل لنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً، وأغشهم فهم لا يبصرون)، وقل (حسبنا الله ونعم الوكيل)

مستحضراً قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

فإنك بعدما تقوله سوف تجد أموراً تتيسر بدون حول منك ولا قوة، فإن الله قد وعد عباده الذين يقولون هذا الدعاء بما يلي:

١ – الانقلاب بنعمة من الله وفضله.

٢ – لم يمسسهم سوء.

٣ – اتباع رضوان الله.

قال تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

فإن أجهزتهم وأبواقهم وتكنلوجيتهم كلها لا تنفع ولا تضر إلا بإذن الله.

ولا يخاف منها المؤمنون، وإنما يخاف منها أولياء الشيطان الذين هم في الأصل يخافون الشيطان، وأصبحوا من أوليائه، والعياذ بالله. فإن الخوف عبادة عظيمة، لا تصرف إلا لله سبحانه وتعالى، وهو أحق بها. قال تعالى معقباً على تلك الآيات: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ المعجبين بحضارة الغرب، الذين شربوا حبهم وتقديسهم مع الماء البارد، وخافوا من معداتهم الضعيفة الواهية ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. فإن الخوف عبادة عظيمة، أولياء الله والمؤمنون لا يصرفونها إلا لله الواحد الأحد، الذي بيده كل شيء، وموقنين أشد اليقين أن الله سيبطل كيد الكافرين، فقد قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾.

ثم عليكم بذكر أظنه من أعظم الذكر، وخاصة يجب ألا يلاحظ عليك أنك تذكر قول (لا إله إلا الله).....

ومن عظمها قوله عليه الصلاة والسلام: (من قال لا إله إلا الله موقن بها قلبه دخل الجنة) أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

....

يكفي أنها كلمة التوحيد، الذي أنت أتيت لرفعها والقتال تحت رايتها، كما فعل الرسول –صلى الله عليه وسلم– وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة.

وأيضاً لا تظهر عليك مظاهر الارتباك وشد الأعصاب، وكن فرحاً سعيداً منشرح الصدر ومطمئناً، لأنك تقوم بعمل يحبه الله ويرضاه، ومن ثم سوف يكون يوم -بإذن الله- تقضيه مع الحور العين في الجنة.

تبسم بوجه الردى يا فتى   فإنك ماض لجنة خلد

....

المرحلة الثالثة:

عندما تركب (ط) أول ما تضع رجلك وقبل ما تدخلها فأت بالدعاء والأدعية واستحضر أنها غزوة في سبيل الله. وكما قال عليه الصلاة والسلام: (لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها) أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وعندما تضع رجلك في (ط) وتجلس على كرسيك فقل الأذكار، وأت بالأدعية المعروفة، التي ذكرناها سابقاً.

....

ثم إذا تحركت (ط) حركتها البسيطة وأصبحت تتوجه إلى (ق) فقل دعاء السفر، فإنك مسافر إلى الله تعالى، وأنعم بهذا السفر.

ثم ستجدها تقف، ثم تنطلق، وهذه هي ساعة التقاء الصفين، فادع الله تعالى كما ذكر تعالى في كتابه: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، وقول نبيه عليه الصلاة والسلام: (اللهم منزل الكتاب مجري السحاب هازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم. اللهم اهزمهم وزلزلهم).

ادع لنفسك ولإخوانك كلهم بالفتح والنصر والتمكين وإصابة الهدف والإثخان، واطلب من الله أن يرزقك الشهادة مقبلاً غير مدبر صابراً محتسباً.

ثم ليستعد كل واحد منكم للقيام بدوره على الوجه الذي يرضى الله عنه، وليشد على أسنانه، كما كان يفعل السلف رحمهم الله قبل الاشتباك في المعركة.

وعند الاشتباك فاضرب ضرب الأبطال، الذين لا يريدون الرجوع إلى الدنيا، وكبر فإن التكبير يدخل الرعب في قلوب الكافرين. قال تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

وإذا ذبحتم فاسلبوا من تقتلوه، لأن ذلك سنة من سنن المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولكن بشرط ألا ينشغل بالسلب، ويترك الانتباه للعدو وخيانته أو هجومه.

....

ولا تنتقم لنفسك، ولكن اجعل ضربك وكل شيء لله تعالى.

....

ثم طبقوا سنة الأسر، وأسروا منهم واقتلوا منهم، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

....

ولا تنسوا الأخذ من الغنيمة ولو فنجان أو كأس من الماء تسقي نفسك وإخوانك إن تيسر.

ثم إذا اقترب الوعد الحق وجاءت ساعة الصفر فشق بدلتك وافتح صدرك مرحباً بالموت في سبيل الله، وكن دائماً ذاكراً، وإن[1] أن تختم بالصلاة إن تيسر أن تشرع فيها قبل الهدف بثوان، أو يكون آخر كلامك؛ لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وبعدها -إن شاء الله- اللقاء في الفردوس الأعلى برحمة الله".

(٤) الزهد في الدنيا:

كان الإخوة الاستشهاديون حريصين على الاقتصاد قدر الإمكان، فكانوا لا ينزلون إلا في الفنادق الرخيصة، ولا يستخدمون إلا الرحلات المخفضة، إلا إذا تطلب العمل غير ذلك.

وفي نهاية مهمتهم أرجعوا ما تبقى معهم من أموال لإخوانهم، وقد قدره تقرير الكونجرس بحوالي ٢٦٠٠٠ دولار[2].

(٥) تألم المنفذين -رحمهم الله- لحال الأمة المسلمة واعتقادهم ألا مخرج لها إلا بالجهاد.

يقول الشهيد -كما نحسبه- سعيد الغامدي ~ في وصيته:

"إن المتأمل في حال الأمة اليوم ليجدها في وضع لا تحسد عليه؛ غاية الضعف وغاية الذل وفتنة وخلاف وتجاهل ولا حول ولا قوة إلا بالله، لا تكاد تجف دموعنا من ألم فاجعة حتى تتبعها أختها، كل ذلك يشرحه الحال بأبلغ من كل مقال، سفك للدماء وقتل

---

[1] أظنها: وإن استطعت أن....

[2] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ٢٥٢.

للأبرياء وهتك للأعراض وتدنيس للمقدسات. والعالم كله ينظر إلى هذه المجازر، التي أظهرت أبشع صور الحقد الصليبي اليهودي على الإسلام وأهله، ونعلم والله أنه لا سبيل لتخرج الأمة مما هي فيه إلا بإقامة الجهاد تلك الفريضة الغائبة" [1].

وفي قندهار قبل غزوات نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا بقرابة عام كان أبو حفص القائد ~ يلقي محاضرة في مجموعة من المتدربين حول فلسطين وأحوال المسلمين، وفي نهاية المحاضرة وقف البطل محمد عطا ~ وسأل أبا حفص القائد بجدية وحرقة: وكيف السبيل لدفع العدوان عن فلسطين؟

(٦) بغض المنفذين -رحمهم الله- لأمريكا.

يقول البطل الشهيد -كما نحسبه- عبد العزيز العمري ~ في وصيته:

"إن أمريكا سرقتنا وأهانت كرامتنا وسخرت من ديننا" [2].

ويقول الشهيد -كما نحسبه- سعيد الغامدي ~ في وصيته:

"وإن أعداء الإسلام من اليهود والنصارى وغيرهم نجدهم كأطراف لأخطبوط رأسه أمريكا، ونجدهم كأغصان لجذع هو أمريكا، فأمريكا -قاتلها الله- التي يسوسها أبناء القردة والخنازير، وهي التي تدعم وتناصر بالمال والسلاح والعتاد والجند وكل ما بوسعها للكفر وأهله لاستئصال الإسلام وإبادة أهله. فأولئك اليهود في فلسطين أبناء القردة والخنازير وما يفعلونه بإخواننا هناك.

....

فأمريكا والله هي العدو الصائل، الذي يفسد الدين والدنيا، والذي يتعين قتاله على كل مسلم" [3].

(٧) تألم المنفذين -رحمهم الله- لاحتلال بلاد الحرمين.

يقول الشهيد -كما نحسبه- سعيد الغامدي ~ في وصيته:

"وإن من المصائب العظام التي أصيبت بها الأمة الإسلامية هي احتلال بلاد الحرمين من قبل جيوش اليهودية الصليبية وعلى رأسها أمريكا، وإن هذا الاحتلال أكبر خيانة وكارثة في تاريخ الإسلام، فلم تغز جزيرة العرب بمثل هذه الجيوش الأمريكية الجرارة، التي تمخر أساطيلها بحار الجزيرة، وتظلل طائراتها سماء المنطقة، وتدب فيالقها فوق ترابها، ويعيث جنودها الفساد في البلاد، ويشربون الخمور، ويأكلون الخنزير، ويمارسون شعائرهم

---

[1] شريط (الوصية الثالثة لشهداء الغزوتين- الغازي البطل سعيد الغامدي).

[2] شريط (الوصية الثانية لشهداء الغزوتين- البطل الغازي عبد العزيز العمري).

[3] شريط (الوصية الثالثة لشهداء الغزوتين- الغازي البطل سعيد الغامدي).

الدينية في كنائس بنيت على أطهر بلاد الله؛ على أرض ولد عليها محمد صلى الله عليه وسلم، وهي مهبط الوحي ومنبع الرسالة وفيها الكعبة المشرفة قبلة المسلمين أجمعين.

وقد أمرنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بإخراجهم حيث قال: (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب) وقال: (أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب) وقال: (لا يبقى في جزيرة العرب دينان)"[١].

ويقول ~:

"فيجب على كل مسلم قتال هؤلاء الأنجاس المحتلين من اليهود والصليبيين وخاصة من الأمريكان، الذين قال الله فيهم وفي أمثالهم: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ *البقرة ١٢٠، وقال:* ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ *التوبة ١٠"*[٢].

(٨) رأي المنفذين -رحمهم الله- في حكام العرب:

يقول الشهيد -كما نحسبه- سعيد الغامدي ~ عن الملك فهد، الذي يسميه بأبي رغال في وصيته:

"ولكن أبا رغال وإخوانه -قاتلهم الله- أبوا إلا أن يظهروا مدى عمالتهم وخضوعهم لأمريكا، وإن نظرة عابرة إلى واقع وجوده في المنطقة عموماً وفي جزيرة العرب خصوصاً، تدل بوضوح أن البلاد ترزح تحت احتلالهم" .

ويقول ~ عن حكم آل سعود:

"إن هذا العداء الصريح[٣] *من الحكم المرتد في جزيرة العرب، والذي يتزعمه فهد بن عبد العزيز وإخوانه عبد الله وسلطان وسلمان ونايف قاتلهم الله، تحت الرعاية الغربية الكافرة ليس إلا حرباً لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، كما ثبت في الحديث الذي يرويه عن ربه عز وجل قال: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب).*

وإن هذا العداء الواضح لأولياء الله والولاء التام لأعدائه من الأمريكان وغيرهم هو أحد نواقض الإسلام كما قرر ذلك أهل العلم، وإن هؤلاء الطواغيت المرتدين من حكام المنطقة والذين يظهر كفرهم بجلاء للإنسان العادي دون الباحث المدقق، وأوجه خروجهم وخروج نظام حكمهم عن مقتضيات لا إله إلا الله ولوازمها عديدة"[٤].

(٩) رأي الشيخ أسامة بن لادن -حفظه الله- في أبطال الغزوات المباركات رحمهم الله:

---

[١] شريط (الوصية الثالثة لشهداء الغزوتين- الغازي البطل سعيد الغامدي).

[٢] شريط (الوصية الثالثة لشهداء الغزوتين- الغازي البطل سعيد الغامدي).

[٣] يقصد ~ عداءهم للعلماء الصادقين.

[٤] شريط (الوصية الثالثة لشهداء الغزوتين- الغازي البطل سعيد الغامدي).

"إن هؤلاء الأبطال شامة في وجه أمتنا، وإن كثيراً من أمم الأرض وشعوبها سرها ضرب الطغيان الأمريكي، وكان يشرفها لو أن في أبنائها أمثال هؤلاء الرجال، ليكونوا قدوة لأجيالها في الشجاعة والرفعة والإباء لزمن طويل، ولكن الله أدخر هذا الفضل العظيم كله لهذه الأمة وأبنائها لأولئك الرجال العظام أتباع نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

وإن أمم الأرض وشعوبها مدينة لهؤلاء الرجال، الذين كسّروا حاجز الخوف من طاغية العصر، عندما أصابوا عيره ونفيره في المقاتل العظام، وداسوا هيبته وكبريائه على الملأ، فأغرقه الله في بحر متلاطم من المصائب، والناس كلهم ينظرون في أحداث هائلة مهيبة مدوية كحال فرعون من قبل، قال الله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾" [1].

٢- رسالة الغزوات لأعداء الإسلام.

أ- لا للذل.

يقول الشهيد -كما نحسبه- أحمد الحزنوي ~ عن رسالته لأمريكا في وصيته:

"رسالة مفادها؛ قد انتهى وقت الذل والاستعباد، وقد حان الوقت لنقتل الأمريكان في عقر دارهم وبين أبنائهم وبجوار قواتهم واستخباراتهم.

....

رسالة مفادها؛ <u>إن أرادت القيادة الأمريكية سلامة شعبها وقواتها فلتخرج من الأراضي الإسلامية كلها ومن قبلة المسلمين</u>" [2].

ب- الجرائم لا تمر بلا عقاب.

الرسالة الثانية الهامة التي حملتها الغزوات لأعداء الإسلام؛ أن الجرائم لن تمر بلا عقاب كما اعتادوا منذ قرابة قرنين.

والمتأمل في تاريخ الأمم والممالك، يدرك أن القوى العظمى حينما يحجب الكبر والغطرسة عن بصيرتها رؤية الحق وضياء العقل لا بد أن تنتكس لنهايتها، وأن تلك القوى تمر بفترة من المكابرة والمعاندة، تكون سبباً في استمرارها في الحروب الخاسرة والمعارك الفاشلة، التي تنتهي بها للانهيار، وأقرب مثال لنا انهيار الاتحاد السوفييتي. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

---

[1] شريط (الوصية الثالثة لشهداء الغزوتين- الغازي البطل سعيد الغامدي).

[2] شريط (الوصية الأولى لشهداء الغزوتين- البطل الغازي أحمد الحزنوي).

ولذلك رفضت أمريكا فهم الرسالة، بل واندفعت لحرب العراق، وهذه هي مرحلة الغطرسة والكبرياء التي تسبق الانهيار بإذن الله.

٣- رسالة الغزوات للمظلومين ضحايا أمريكا.

الرسالة الأولى للمظلومين؛ أن عصر الطغيان الغربي الصهيوصليبي على البشرية قد لاحت بوادر انقشاعه، وأن المسلمين هم طليعة البشرية في تحطيم هذا الطغيان، وأن هذا هو دورهم عبر التاريخ، الذي أمرهم به المولى سبحانه وتعالى؛ وهو أن يحطموا الكيانات الجاهلية الطاغية الفاسدة، يقول عز من قائل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾.

الرسالة الثانية أن الإسلام هو سبيل الخلاص للبشرية من الظلم والبغي والفحشاء. ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿ ٢٨ ﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

الفرع الثاني: نقل المعركة لأرض العدو

تعد الغزوات المباركات أول معركة كبرى -في جهاد الأمة المسلمة للرد على الغزو الصليبي المعاصر- تضرب بقوة في أرض العدو، نعم سبقتها بعض المحاولات التمهيدية مثل قتل مائير كاهانا على يد البطل سيد نصير فك الله أسره، ومثل قتل أيمل كانسي -رحمه الله- لعميلي المخابرات الأمريكية، ومثل الهجوم الأول على مركز التجارة بقيادة البطل رمزي يوسف فك الله أسره، ولكن الغزوات المباركات هي أخطر وأنجح وأول معركة نوعية كبرى في العصر الحديث تقوم بقتال الكفار في عقر دارهم، بل في عقر دار زعيمتهم أمريكا.

لقد كانت أمريكا تظن أنها القارة العظيمة التي يحميها محيطان عظيمان، وأنها بوضعها الجغرافي الحصين وقوتها العسكرية المتفردة محمية من أي غزو خارجي، وأنها هي التي تلحق الأذى بأراضي غيرها، بينما لا يستطيع أحد أن ينال أرضها بسوء، وقد أكدت خبرة الحربين العالميتين هذا الظن، ففيما عدا الهجوم على بيرل هاربر فقد تمت كل المعارك الحربية الكبرى بعيداً عن الأراضي الأمريكية. أما في الغزوات المباركات فقد تبدد هذا الوهم، وأصبحت أمريكا في بؤرة الخطر، وأضحت كما تدين تدان.

يذكر تقرير الكونجرس عن الحادي عشر من سبتمبر:

"لقد كان معهوداً أن يقدر الأمن القومي بدراسة الجبهات الخارجية، ووزن المجموعات المخالفة من الدول، وقياس القوة الصناعية.

ولكي يكون العدو خطيراً كان يجب أن يحشد جيوشاً جرارة. وكانت الأخطار تبرز ببطء، وكثيراً بجلاء، لأن الأسلحة كانت تصنع، والجيوش تجند، والوحدات تدرب، وتحرك لمواضعها. ولأن الدول العظمى كانت أكثر قوة، فقد كان لديها ما تخسره، ويمكن أن تردع.

أما الآن فإن الأخطار يمكن أن تبرز بسرعة. فإن منظمة مثل القاعدة -تتمركز قيادتها في بلد على الجانب الآخر من الأرض، وفي منطقة فقيرة -لدرجة أن الكهرباء والهواتف

ندرت بها- استطاعت -رغم كل هذا- أن تخطط لاستخدام أسلحة ذات قوة تدميرية غير مسبوقة في أكبر مدن الولايات المتحدة.

ومن هذا المنظور فإن ٩/١١ قد علمنا أن الإرهاب ضد المصالح الأمريكية (بعيداً هناك) لا بد أن ينظر إليه كما ننظر للإرهاب ضد أمريكا (قريباً هنا)، وبهذا المعنى فإن الداخل الأمريكي هو كل الكوكب"[١].

[١] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT P: ٣٦٢.

الفرع الثالث:
آثار الغزوات المباركات

كان للغزوات المباركات على نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا آثار عظيمة منها:

١- آثار على الأمة المسلمة.

٢- آثار على الغرب الصليبي.

***

١- آثار على الأمة المسلمة:

أ- إعادة ثقة الأمة بنفسها.

(١) حتى تتخلص الأمة من عقدة العجز والضعف، التي تؤدي لدورة الخوف والعجز ثم الفشل ثم الخوف والعجز.

(٢) ولكن بعض أسرى العجز لم يتخلصوا من إدمانهم عليه حتى اليوم. ولا زالوا يصرون على أن المسلمين أعجز من القيام بذلك. وهؤلاء ولدوا في العجز، وعاشوا فيه، وتربوا عليه، وتعاطوه حتى أدمنوه، واختلط بدمائهم، فعلى الأمة أن تتخطى هؤلاء المساكين وتدعو لهم بالشفاء.

وبدأت حملة لمخاطبة أسرى العجز هؤلاء من جهات إعلامية عربية وغربية وشرقية عديدة، كان من أبرزها إيران[(١)]، وخلاصة هذه الحملة أن مجاهدي القاعدة لم يضربوا أمريكا في الحادي عشر من سبتمبر،

[(١)] الغريب أن إيران التي تصور نفسها على أنها قاهرة الأمريكان، وأن من سيقترب من ترابها ستدمره قبل أن يضغط على الزناد، وتصور حزب الله التابع لها على أنه قد حقق نصراً، لم تحققه الحكومات العربية ضد التحالف الأمريكي الصليبي، وأن ثورة الخميني قد تحدت وانتصرت على قوى الاستكبار العالمي، تنكر على غيرها ذلك. بل وتذهب إلى ما هو أبعد منه، فتزعم أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر خطة أمريكية يهودية لإيجاد ذريعة لضرب إيران!! والعجيب الغريب أن إيران لم تضرب بعد ثمان سنوات من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، التي زعمت أنها اصطنعت ذريعة لضربها، بل هي التي أعانت وتعاونت مع الأمريكان على احتلال أفغانستان والعراق، ولم تصدر من أي مرجع شيعي داخل إيران أو أفغانستان أو العراق أو خارجها فتوى واحدة بوجوب جهاد المحتل الصليبي الغازي لديار المسلمين وحمل السلاح في وجهه.

ونظرية المؤامرة الطفولية هذه تفتح الباب أمام استخدام نظرية المؤامرة في تفسير الثورة الإيرانية، فإن الخميني كان ضيفاً على فرنسا، وعاد لإيران على طائرة من فرنسا، وبضوء أخضر من أمريكا وموافقة منها. فإيران أولى بنظريات المؤامرة من غيرها.

بل يلاحظ الملاحظ المدقق أن الإيرانيين لا يستعملون لفظ الصليبية أو الصليبيين أبداً. وهو أمر يستدعي بحثاً مستقلاً.

وقد أدرك هذا الفارق بين موقف بن لادن من الغرب وموقف الخميني منه عدد من الكتاب الغربيين، ويلخص مايكل شور هذا الإدراك بقوله:

"كتب الصحفية والمؤلفة جنيف عبدو:

ولكن أمريكا هي التي ضربت نفسها!! فتأمل مقدار العجز الذي أدمنوه، أمريكا هي القادرة القاهرة

"لقد نجح بن لادن إلى هذا الحد حيث أخفق الخميني، فقد صدَّر أفكاره الثورية عبر العالم الإسلامي. وبينما كان هذا حلم الخميني، فإن قراءته الأصولية للإيمان لم تتعد أبداً أكثر من جنوب لبنان والمناطق الأخرى التي يغلب عليها إخوانه من طائفة الأقلية الشيعية" .

وإن كنت أظن أن برنارد لويس مخطئ في تسويته بين تحريض بن لادن وجاذبيته بتلك التي للخميني، التي حاول أن يعبر عنها في مقاله الجيد (مستهدف بتاريخ من الكراهية)، إلا أن لويس قد قدم وصفاً حقيقياً للفرق -الذي أراه- بين الزعيمين الإسلاميين. والذي يعود له لحد كبير نجاح بن لادن وإخفاق الخميني.

كتب لويس في الوول ستريت جورنال في سبتمبر ٢٠٠٢ :

"السؤال الأكثر أهمية، والذي قليلاً ما يُسأل هو؛ عن سبب الاحتقار الذي ينظر به إلينا الإسلاميون.

السبب الأساسي لهذا الاحتقار هو ما يتصورونه؛ أن تحلل ولا أخلاقية طريقة الحياة الأمريكية تستحق الازدراء ولكنها خطيرة أيضاً، لتأثيرها على المجتمعات المسلمة.

ماذا كان يعني آية الله الخميني حينما لقب أمريكا مراراً (بالشيطان الأكبر)؟

الإجابة واضحة. الشيطان ليس غازياً ولا استعمارياً ولا مستغلاً. إنه مغو ومغر، وهو حسب تعبير القرآن ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾" .

ولأن بن لادن يعتقد أن الولايات المتحدة (غازية واستعمارية ومستغلة)، ولأنه نجح في أن يصورها هكذا، فقد كان لحماسته أثر معاد لأمريكا أكبر من تلك التي للخميني.

فأولاً: بن لادن من أكثرية العالم الإسلامي السنية -وهو أيضاً سلفي، وهي أكثر طوائفها نمواً وأشدها محافظة وأكثرها ميلاً للقتال- وليس من الأقلية الشيعية كالخميني.

ثانياً: إنه ازدرى إدانة الخميني المعممة للغرب، وركز على ستة مسائل حياتية محددة، عليها اتفاق واسع بين المسلمين، حيثما وقعوا على مدى الطيف من التحرريين حتى المقاتلين:

- فمعظم المسلمين يودون رؤية أرض النبي وقد أخليت من غير المسلمين الكفار، كما قال محمد وهو على فراش موته؛ إنهم لا مكان لهم في جزيرة العرب.

- وبالمثل؛ فإن الكثيرين سيسعدون بإزالة إسرائيل وإقامة دولة فلسطينية مسلمة.

- والأغلبية العظمى ستؤيد أيضاً تحقيق فوائد أكثر من بيع إنتاج المسلمين من البترول والغاز الطبيعي لسائر العالم، واستخدام أمواله لتحسين مستوى معيشة المسلمين.

- أضف أيضاً؛ أن قلة من المسلمين ستعارض تحطيم مجموعة من الأنظمة المرتدة، التي تعتبر من أشد أنظمة عائلات الأرض الحاكمة قسوة وكبتاً وفساداً ونفاقاً، والتي تحوز فوائد بيع البترول لتنفق على فجورها، وتشتري ولاء رجال بنوكها ومستثمريها وأكاديمييها.

- وأخيراً؛ فإن قهر المسلمين خارج الوطن العربي -في كشمير والشيشان والهند وسنكيانج- قد أصبح أمراً متداولاً بين المسلمين بفضل حماسيات بن لادن، وكذلك للوجود المستشري للفضائيات المواكبة للأحداث المملوكة للمسلمين.

أهداف السياسة الخارجية الستة هذه تعد حلوى شهية لمعظم المسلمين، وقد ربطها بن لادن بالرسالة الإيجابية؛ أن الله قد وعد المسلمين بالنصر إذا سلكوا طريق الجهاد الذي أمر به، ووضحه رسوله ودعا إليه" .

.[IMPERIAL HUBRIS, P: ٢١١ & ٢١٢]

المالكة العالمة الجبارة، التي لا يمكن لأحد أن يمسها بسوء، وحتى إذا مست بسوء، فهي التي مست نفسها به!!

وتناسى أسرى العجز هؤلاء أن أمريكا قد ضُربت في فيتنام والصومال ولبنان وشرق أفريقيا واليمن، وأنها تهزم اليوم في العراق وأفغانستان والصومال. وأن الكثيرين الذين تطاردهم أمريكا لم تستطع القبض على أغلبهم، رغم أنهم يحتمون وسط إخوانهم المسلمين البسطاء، الذين يهزمون تقدم أمريكا وتفوقها وتقنيتها بسلاح العقيدة والإيمان.

ولكن المصيبة أن بعض هؤلاء -مع هذا العجز- يصرون على أن يتولوا قيادة الأمة وحركاتها الإسلامية.

وقسم منهم اضطر مكرهاً لقبول الحقيقة، فانتقل من الإنكار للشجب واللعن والاستنكار، وفي المقابل استجداء الغرب ألا يعاملهم كما يعامل المجاهدين، لأنهم مستأنسون عاشوا في كنفه واتسقوا في منظومته.

وكان من أسوأ الأمثلة على ذلك تلك الفتوى التي أطلقها الشيخ القرضاوي[(١)]، ووقع معه عليها كل من طارق البشري وهيثم الخياط ومحمد سليم العوا وفهمي هويدي وطه جابر العلواني[(٢)]، وهي الفتوى التي جاءت جواباً على سؤال من محمد عبد الرشيد كبير الوعاظ في القوات المسلحة الأمريكية، والذي تساءل عن جواز مشاركة الأفراد المسلمين العسكريين في القوات المسلحة الأمريكية في العمليات الحربية في أفغانستان وغيرها من البلاد الإسلامية، وفي سؤاله بين أن أهداف تلك العمليات الحربية هي:

١- الانتقام من أولئك الذين (يُظن أنهم قد شاركوا) في تخطيط وتمويل العمليات الانتحارية في ١١ سبتمبر.

٢- التخلص من العناصر التي استخدمت أفغانستان وغيرها كملجأ آمن، وردع الحكومات التي أوتهم وساندتهم.

٣- استعادة هيبة واحترام الولايات المتحدة باعتبارها القوة العظمى الوحيدة في العالم[(٣)].

وجاء في نص الفتوى:

---

(١) http://www.unc.edu/~kurzman/Qaradawi_et_al.htm

وأيضاً: جريدة "الشرق الأوسط" بتاريخ ٨ أكتوبر عام ٢٠٠١.

(٢) ويذكر الأستاذ جمال الشرقاوي أن كبير وعاظ القوات المسلحة الأمريكية محمد عبد الرشيد أرسل بالفتوى في رسالة للدكتور طه جابر العلواني، وهو متعاقد مع الجيش الأمريكي لتقديم خدمات تعليمية وتثقيفية، وقد أحالها العلواني بدوره إلى الدكتور محمد سليم العوا. [عن الفتوى الأمريكانية لجمال الشرقاوي- مجلة السنة- عدد ١١٠]. نقلتها عن موقع منبر التوحيد والجهاد.

(٣) لاحظ أن هدف الحملة العسكرية المشار إليه يتفق تماماً مع هدف الحملة الإعلامية، التي تقول؛ إن أمريكا الجبارة لم يضربها أحد، بل هي التي ضربت نفسها!

"السؤال يعرض قضية شديدة التعقيد وموقفاً بالغ الحساسية، يواجهه إخواننا العسكريون المسلمون في الجيش الأميركي، وفي غيره من الجيوش التي قد يوضعون فيها، في ظروف مشابهة".

أي أن هذه الفتوى لا تصلح فقط لإخوانهم العسكريين في الجيش الأمريكي، بل تصلح أيضاً لإخوانهم في الجيش الفرنسي والإنجليزي بل والإسرائيلي وغيرها من الجيوش.

وتضيف الفتوى:

"ولكن الحرج الذي يصيب العسكريين المسلمين في مقاتلة المسلمين الآخرين، مصدره أن القتال يصعب -أو يستحيل- التمييز فيه بين الجناة الحقيقيين المستهدفين به، وبين الأبرياء الذين لا ذنب لهم في ما حدث، وأن الحديث النبوي الصحيح يقول: «اذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار، قيل هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: قد أراد قتل صاحبه» (رواه البخاري ومسلم).

والواقع أن الحديث الشريف المذكور يتناول الحالة التي يملك فيها المسلم أمر نفسه، فيستطيع أن ينهض للقتال، ويستطيع أن يمتنع عنه، وهو لا يتناول الحالة، التي يكون المسلم فيها مواطناً وجندياً في جيش نظامي لدولة، يلتزم بطاعة الأوامر الصادرة إليه، وإلا كان ولاؤه لدولته محل شك مع ما يترتب على ذلك من أضرار عديدة.

....

وأما الحرج الذي يسببه كون القتال لا تمييز فيه، فإن المسلم يجب عليه أن ينوي مساهمته في هذا القتال، وأن يحق الحق ويبطل الباطل، وأن عمله يستهدف منع العدوان على الأبرياء أو الوصول إلى مرتكبيه لتقديمهم للعدالة".

أية عدالة هذه؟ التي سيقدم لها الجندي الأمريكي غيره من المسلمين؟ إنها العدالة الأمريكية، التي وصفها القرآن بقوله: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾، ثم لماذا لم يطالب القرضاوي وصحبه المسلمين بقتال أكابر المجرمين الأمريكان، ليجلبوهم للعدالة الشرعية الإسلامية لمحاسبتهم على جرائمهم ضد المسلمين منذ عقود؟

وتضيف الفتوى:

"واذا كان العسكريون المسلمون في الجيش الأميركي يستطيعون طلب الخدمة -مؤقتاً أثناء هذه المعارك الوشيكة- في الصفوف الخلفية للعمل في خدمات الإعاشة وما شابهها -كما ورد في السؤال- من دون أن يسبب لهم ذلك، ولا لغيرهم من المسلمين الأميركيين، حرجا ولا ضررا فإنه لا بأس عليهم من هذا الطلب. أما إذا كان هذا الطلب يسبب ضرراً

أو حرجاً، يتمثل في الشك في ولائهم، أو تعريضهم لسوء ظن، أو لاتهام باطل، أو لإيذائهم في مستقبلهم الوظيفي، أو للتشكيك في وطنيتهم، وأشباه ذلك، فانه لا يجوز عندئذ هذا الطلب".

أي أن مجرد الشك في الإيذاء في المستقبل الوظيفي، مثل تأخر الترقي مثلاً، يمنع المسلم من طلب الخدمة في الصفوف الخلفية، وعليه أن يقاتل إخوانه المسلمين ويقتلهم، حرصاً على مستقبله الوظيفي!!

وتضيف الفتوى الأمريكية:

"والخلاصة أنه لا بأس -إن شاء الله- على العسكريين المسلمين من المشاركة في القتال في المعارك المتوقعة ضد من "يظن" أنهم يمارسون الإرهاب، أو يؤوون الممارسين له، ويتيحون لهم فرص التدريب والانطلاق من بلادهم".

أي أن القرضاوي وصحبه لا يبيحون فقط القتال ضد المسلمين الممارسين لما يزعمونه إرهاباً حسب مذهبهم الأمريكي، بل أيضاً ضد من يظن ممارسته لذلك، أو يظن فيهم مساعدتهم عليه. ﴿كبرتْ كلمةً تخْرج منْ أفْواههمْ إن يقولون إلّا كذبًا﴾[1].

---

[1] ومما يتسق مع هذا المنحى في الإفتاء ما صدر من نفس القرضاوي حول القواعد الأمريكية في الخليج وحول التطبيع مع إسرائيل:

- أما ما صدر منه حول التطبيع مع إسرائيل:

فقد نقل موقع القرضاوي عنه تصريحاته الآتية في المؤتمر الخامس لمؤسسة القدس في مارس عام ٢٠٠٧ بالجزائر:

"وجه العلامة الدكتور يوسف القرضاوي -رئيس مؤسسة القدس الدولية- رسالة إلى القادة العرب المشاركين في قمة الرياض، يحثهم فيها على عدم اتخاذ أي خطوة نحو تطبيع العلاقات مع إسرائيل ما لم تنسحب من الأراضي المحتلة، وتسمح بإقامة دولة فلسطينية.

وقال الشيخ القرضاوي -رداً على سؤال بمؤتمر صحفي عما إذا كانت لديه رسالة إلى القمة:

"هناك اتجاهات في القمة، بعض الناس (دول عربية) قامت بالتطبيع مع إسرائيل، وبعضها ترفض الفكرة.. لن نطبع، ولا نقبل التطبيع ما دام الاحتلال قائما"

وتابع قائلاً: "نحن لا نقبل التطبيع مع إسرائيل إلا إذا قامت دولة فلسطينية حقيقية تملك سماءها وحدودها وحق الدفاع عن نفسها، وفي هذه الحالة فقط قد نفكر في الاعتراف بإسرائيل إذا كانت هناك ضرورة".

واعتبر القرضاوي:

"أن مؤسسة القدس لا تتدخل فيما يقرره القادة العرب، إلا أنه شدد في الوقت نفسه على رفضه التطبيع مع الإسرائيليين قبل انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة، وقيام الدولة الفلسطينية".

وهذه التصريحاتُ الخطيرة تدل على أن القرضاوي لا مانعَ لديه من الاعتراف بإسرائيل بل والتطبيع معها، إذا قامت ما يسميها بالدولة الفلسطينية على الفتات المتبقي من فلسطين.

- أما موقفه من القواعد الأمريكية في الخليج:

هذه الفتوى لو خرجت في دولة مسلمة أو كافرة تحترم نفسها لقدم أصحابها للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى. وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصدق المتنبي:

وَسِوى الرومِ خَلفَ ظَهرِكَ رومٌ فَعَلى أَيِّ جانِبَيكَ تَميلُ[1]

بل زاد الأمر ببعض أولئك العجزة أنهم يعرضون خدماتهم على الغرب الصليبي، بأنهم يمثلون إسلاماً آخر غير إسلام المجاهدين، وأنهم يستطيعون تسويقه وسط الأمة المسلمة للحد من خطر المجاهدين على الغرب.

وبرغم فتاوى العجزة والمستجدين رضا الغرب، فهناك من المسلمين التائبين في جيوش أمريكا والغرب -أو الذين أسلموا وهم في صفوف العسكر- من لم يغتر بحججهم الواهية ورفض أوامر قادته بالذهاب إلى أفغانستان والعراق للمشاركة في القتال ضد المسلمين، فمنهم من أُدخلوا السجن الحربي بسبب ذلك، ومنهم من قاتل زملاءه السابقين إعلاءً للحق وقمعاً للظلم، مثل الرائد نضال مالك حسن فك الله أسره.

ب- توحيد الأمة حول هدف عملي.

استطاعت الطليعة المجاهدة -بفضل الله- أن تجمع شمل معظم الأمة على عداء الحملة الصهيوصليبية بصورة عملية، بتقديمها نموذجاً فعلياً بضرب أمريكا في عقر دارها. وبذلك قدمت هدفاً في متناول طاقة الأمة، لا يمكن لأحد أن يعارضه إلا بتعريض نفسه للسخرية والازدراء والاحتقار وفقدان المصداقية، وهو الأمر الذي عجز عنه الكثير من الدعاة والعلماء.

وأذكر أن الشيخ أسامة -حفظه الله- بعد أحد دروسه -عن تحريض الأمة للتصدي للأمريكان واليهود في معسكرات الإعداد - جاءه أحد طلاب العلم من الجزيرة العربية، وقال للشيخ إنه لم يسمع هذا الكلام من علماء الجزيرة مع طول معاشرته لهم، وأن هذا كلام لا بد أن ينشر ويوزع بين الناس.

ج- تفعيل دور الأمة في جهاد الدفع بعد أن خانت الحكومات واستسلمت الهيئات.

فقد أثبتت الطليعة المجاهدة قدرتها على تحويل طاقة الرفض والتحدي والصمود لدى الأمة لعمل فعال مؤثر مؤلم للعدو، وهو الأمر الذي تنكرت له الحكومات، وهربت منه الهيئات والحركات الإسلامية المسالمة، التي تعترف بالواقع السياسي الفاسد، وتحاول أن تصلح من خلاله، كمن يبذر الحب التالف في

فقد دعا في برنامج "الشريعة والحياة" بتاريخ ١٦/ ٢/ ٢٠٠٣ إلى احترام الاتفاقات القديمة التي تمت بين الأمريكان وحكام المنطقة، والتي توجد بموجبها قواعد أمريكية في منطقة الخليج.

بل قد أكد الشيخ في حديث لموقع حقائق مصرية بتاريخ ٢٤ من ذي الحجة ١٤٢٣ هـ:

"أنه بالنسبة للقواعد الأمريكية القديمة المنتشرة في منطقة الخليج فإنها قامت بطريقة شرعية؛ لأنها جاءت بقرارات حكومات شرعية، فهذه نبقي عليها، بينما الإنزال الجاري حالياً لا توافق عليه غالبية الدول العربية والإسلامية، مما يجعله غير شرعي ومرفوضاً، ولا يجوز السماح لها بالتواجد من أجل احتلال أراضي المسلمين". [وقفات مع فتوى القرضاوي حول القواعد الأمريكية].

[1] البيت للمتنبي- الموسوعة الشعرية- المتنبي.

الأرض المتعفنة، بل بدأت تساوم على أهم قضية للأمة المسلمة؛ قضية فلسطين، وبلغ ذلك ذروته باتفاقية مكة، التي وقعتها قيادة حماس، وتعهدت فيها باحترام القرارات الدولية الخاصة بفلسطين.

د- ترسيخ وتقوية وإنضاج الطليعة المجاهدة للأمة المسلمة.

يقول الدكتور عبد الله النفيسي:

"بات واضحاً -بعد عملية البرجين ١١/٩/٢٠٠١ في مانهاتن- أن المشروع الأمريكي العالمي يستهدف -في العالم الإسلامي ما بين جاكرتا ونواكشوط- تحقيق أعلى درجة من علمنة النظم السياسية وعولمة القمع فيها أي في هذه النظم. إذن نستطيع أن نقول بأن حركة الولايات المتحدة في العالم الإسلامي بعد ١١/٩/٢٠٠١ سوف تتمحور في مجالين:

- علمنة النظم السياسية في العالم الإسلامي، أي الفصل -ما أمكن- بين هذه النظم والإسلام، بحيث يتجلى هذا الفصل ليس فقط في الاتجاه العام للنخبة الحاكمة بل يغوص إلى قاع العملية التعليمية والتشريعية والاقتصادية وتبعاً لذلك السياسية. نتيجة تلك العلمنة ستكون في تحويل الإسلام إلى كنيسة وكهنوت، أي إلى مسجد سيتحول بالممارسة إلى معتقل أليف للإسلام، يرفد العمل فيه فئة من الناس منفكين تماماً عن نبض الحياة اليومية لعموم الأمة الإسلامية، التي تعاني من الثالوث التاريخي المدمر: الطغيان السياسي وسوء توزيع الثروة والتحلل الاجتماعي.

- أما المجال الثاني الذي ستنشط فيه حركة الولايات المتحدة فهو دعم المقدرة القمعية للنظم السياسية في العالم الإسلامي، وتزويدها بثقافة القمع ومبتكراته، لكي تقوم بتصفية الحركة الأصولية الإسلامية بشتى راياتها ومسمياتها، وتشجيع كل الأطياف السياسية الأخرى المناوئة للأصولية الإسلامية، تماماً كما حصل في مرحلة السبعينيات عندما أدركت الولايات المتحدة أن الحركة الأصولية الإسلامية هي خير سلاح تشهره ضد الاحتلال السوفياتي للأفغان.

ونتوقع أن تولد هذه الحركة الأمريكية في هذين المجالين: علمنة النظم السياسية وعولمة القمع، نقول، نتوقع أن تولد -كنتيجة لذلك- المخاض الداخلي ضمن الأقطار الإسلامية بين الذين يؤيدون المسعى الأمريكي والذين يعارضونه. وسوف يساهم ذلك المخاض في إنضاج الإطارات الحركية للأصولية الإسلامية، وابتكار آليات جديدة للعمل المضاد للولايات المتحدة على رقعة شاسعة جدا من هذا العالم (ما بين جاكرتا ونواكشوط)،

وستجد الولايات المتحدة من الصعوبة بمكان السيطرة على تطوراته ووتائره[1]، مهما أبدت النظم السياسية في العالم الإسلامي استعدادها للتعاون مع المجهود الأمريكي.

لقد أصبح واضحاً أن الضغط الاستراتيجي الذي تمارسه الولايات المتحدة على الحركة الأصولية الإسلامية سوف يساهم -مستقبلاً- في بلورة مقاومة إسلامية عالمية، لم تكن قد توقعتها من قبل. إن توغل إدارة بوش في المجالين المذكورين ينم عن ضيق أفق سياسي، وتحركه عوامل أمريكية داخلية محضة مرتبطة باعتبارات انتخابية أمريكية، لكنه سوف يفرز وضعاً شعبياً -خاصة في آسيا- مناصراً ومؤيداً للأصولية الإسلامية ومناهضاً للهيمنة الأمريكية"[2].

٢- آثار على الغرب الصليبي.

أما آثار الغزوات على الغرب الصليبي فعديدة وخطيرة، فمنها:

أ- النزيف الاقتصادي.

فقد تورطت أمريكا وحلفاؤها في حرب لا تعلم متى نهايتها ضد ما أسمته الإرهاب، تزعم أنها قد أنفقت فيها حتى الآن ما يزيد على ٧٠٠ مليار دولار، وتسببت في عديد من الأزمات الاقتصادية بالإضافة لتدهور الدولار.

يقول الشيخ أسامة بن لادن -حفظه الله- في خطابه للشعب الأمريكي:

"فعلى سبيل المثال؛ إن القاعدة أنفقت ٥٠٠ ألف دولار في الحدث، بينما خسرت أميركا على أقل تقدير في الحدث وتداعياته أكثر من ٥٠٠ مليار دولار، أي أن كل دولار من القاعدة هزم مليون دولار بفضل الله تعالى.

علاوة على فقدها عدداً هائلاً من الوظائف، وأما عن حجم العجوزات المالية؛ فقد بلغت أرقاماً قياسية وفلكية تقدر بأكثر من تريليون دولار.

والأخطر والأمر على أميركا؛

أن المجاهدين اضطروا بوش -أخيراً- إلى أن يلجأ لميزانية الطوارئ لمواصلة القتال في أفغانستان وفي العراق، مما يدل على نجاح خطة الاستنزاف إلى درجة الإفلاس بإذن الله.

وصحيح أن هذا يوضح أن القاعدة كسبت، لكنه في المقابل يوضح أن إدارة بوش كسبت أيضا، لأن الناظر إلى ضخامة العقود التي نالتها الشركات الكبرى المشبوهة ك

[1] كلمة لم أفهمها.

[2] العالم ما بعد غزوة مانهاتن (٣٩) للدكتور عبد الله النفيسي.

"هاليبرتون" ومثيلاتها ذات الصلة ببوش وإدارته يتأكد له ذلك، وإن الخاسر في الحقيقة إنما هو أنتم؛ هو الشعب الأمريكي واقتصاده" [١].

ويذكر تقرير الكونجرس عن الحادي عشر من سبتمبر:

"إن الأمة قد رصدت إمكانات هائلة للأمن القومي ولمواجهة الإرهاب. ففيما بين العام المالي ٢٠٠١ -وهي آخر ميزانية أقرت قبل ٩/١١- والعام المالي الحالي ٢٠٠٤، فإن جملة الإنفاق الاتحادي على الدفاع (متضمناً النفقات على كل من العراق وأفغانستان) والأمن الداخلي والشؤون الدولية قد ارتفع بما يزيد عن ٥٠% من ٣٥٤ بليوناً لقرابة ٥٤٧ بليوناً، ولم تعهد الولايات المتحدة هذه الفورة في الإنفاق على الأمن الداخلي منذ الحرب الكورية" [٢].

ويقول عبد الباري عطوان:

"هذ وقد خلفت الهجمات تداعيات اقتصادية أخرى. فالمستثمرون العرب سحبوا مليارات الدولارات من المؤسسات المالية الغربية خشية تجميد أصولهم، واستثمروها عوضاً عن ذلك في العالم الإسلامي. فضلاً عن ذلك تستثمر اليوم إيرادات النفط الهائلة الناجمة عن تضخم أسعار النفط حالياً في دول الخليج نفسها، الأمر الذي يسبب فورة اقتصادية.

أضف أن هجمات المتمردين المنتظمة على أنابيب ومنشآت النفط في العراق قد أثرت في أسعار النفط.

....

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن للولايات المتحدة التزامات مهمة في أجزاء من أوروبا وفي شمال شرقي آسيا وشرق آسيا والشرق الأوسط وجنوبي غربي آسيا. فضلاً عن تورطها في النزاعات المحلية في أفغانستان وعلى وجه الخصوص في العراق. كذلك تتبنى الولايات المتحدة موقفاً مشاكساً من إيران، التي اغتنمت فرصة انهماك الولايات المتحدة في العراق لتعيد إحياء برنامجها النووي.

إضافة إلى ذلك يبدو أن الحرب في العراق قد بدأت تتحول بسرعة إلى حرب استنزاف، لا سيما بالنسبة إلى الاقتصاد الأمريكي. ففي أواخر شهر حزيران/ يونيو العام ٢٠٠٥ بلغت كلفة الحرب ٢٥٠ مليون دولار أمريكي بمعدل شهري يوازي ٥ مليارات

---

[١] رسالة إلى الشَّعبِ الأمرِيكِيّ (السَّبِيلُ لإنهَاءِ الحَربِ) ١٥ رمضان ١٤٢٥ هـ ٢٩ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٤ م.

[٢] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT P: ٣٦١.

شهرياً بحسب معظم التخمينات. بل إن بعض المعلقين يفترض أن الكلفة قد تزيد في النهاية على ٧٠٠ مليار دولار"[١].

بينما أظهرت دراسة قام بها اثنان من الاقتصاديين[٢] أن التكلفة الإجمالية لحرب العراق –بافتراض مسارين أحدهما متحفظ والآخر معتدل– ربما تصل لما بين ١ إلى ٢ تريليون دولار، كما بيناها في الجدول التالي[٣]:

التكاليف الاقتصادية الإجمالية لحرب العراق (ببليون دولار).

	متحفظ	معتدل
التكاليف المباشرة	٨٣٩	١١٨٩
الآثار الاقتصادية الضخمة	١٨٧	١٠٥٠
المجموع	١٠٢٦	٢٢٣٩

رغم أنهما قررا؛ أنهما لم يدرجا في هذه التكاليف تكلفة الحرب على أفغانستان، التي قررا أنها قد كلفت أمريكا –حتى تاريخ دراستهما في فبراير ٢٠٠٦– ٨٢ بليون دولار بمعدل بليون دولار شهرياً[٤].

وهذه الدراسة الهامة –التي نالت اهتماماً كبيراً من الرأي العام الأمريكي والدولي– لم تكتف بحساب التكاليف المتوقعة لحرب العراق فقط، ولكنها أيضاً ناقشت أسلوب إدارة بوش في دفع الأمة الأمريكية للحرب، وفي التهوين من تبعاتها.

فذكرت الدراسة أن لاري ليندسي –مستشار بوش الاقتصادي– عندما قال؛ إن تكلفة الحرب قد تصل لمائتي مليار دولار، رد البيت الأبيض بسرعة؛ بأن هذا الرقم سوء تقدير فادح، أما ميتش دانييل – مدير مكتب الإدارة والميزانية– فقد اعتبر تقدير ليندسي (مرتفع جداً جداً)، وقدر هو ووزير الدفاع

---

[١] التنظيم السري للقاعدة ص: ٣١٨ و٣١٩.

[٢] جوزيف ستيليتز الحائز على جائزة نوبل والأستاذ بجامعة كولومبيا وليندا بلمز خبيرة الميزانية بجامعة هارفارد.

[٣] THE ECONOMIC COSTS OF THE IRAQ WAR, P: ٣٠, Microsoft Encarta ٢٠٠٨- U.S.-Iraq War.

[٤] THE ECONOMIC COSTS OF THE IRAQ WAR, P: ٦.

رامسفلد أن تكلفة الحرب قد تصل إلى ٥٠- ٦٠ بليوناً، بعضها قد تموله دول أخرى. أما مساعد وزير الدفاع وولفتز فقد زعم أن العراق في الواقع قد تمول إعمارها، وذهب ليندسي للقول بأن الإدارة الناجحة للحرب ستكون مفيدة للاقتصاد.

وأضافت الدراسة أن العديد من جوانب مغامرة العراق قد تبين مخالفتها لما كان يتوقع منها، فلم تكتشف أية أسلحة للدمار الشامل، ولا أية علاقة واضحة مع القاعدة، ولم يثبت وجود خطر محدق يبرر الحرب الاستباقية. أما الأمريكان فلم يعدوا محررين بل محتلين، ولم يتحقق الاستقرار، وظهر بوضوح أن فوائد الحرب اختلفت تماما عما زعم عنها، وأن ليندسي قد أخطأ بتقليله الشديد لتكلفة الحرب[١].

وفي خاتمة الدراسة ذكر الباحثان أنهما لم يتطرقا لإجابة التساؤل حول ما إذا كان التباين بين الأرقام المتوقعة والأرقام الحقيقية ناتج عن محاولة متعمدة من الإدارة لخداع الشعب الأمريكي عن تكلفة الحرب، أم أنه ناتج من نقص كفاءة الإدارة، لكونها اعتمدت على معلومات غير موثوقة.

وذكرت الدراسة أن الإدارة فضلت -في مواجهة الاتهامات الموجهة إليها بسبب ما زعمته من وجود أسلحة الدمار الشامل في العراق، أو صلته بالقاعدة- أن تزعم أنها لم تتعمد خداع الشعب الأمريكي، وفضلت الاتهام بالقصور عن الاتهام بسوء القصد[٢].

وقد اعتمد الكونجرس خلال عام ٢٠٠٧ مبلغ ٥٠٠ بليون دولار لنفقات الحرب في العراق[٣].

ويذكر بيتر أورسزج مدير مكتب الكونجرس للميزانية في تقريره المقدم للجنة الميزانية بالكونجرس في أكتوبر ٢٠٠٧؛ أن عمليات أمريكا في العراق وأفغانستان وحربها الأوسع ضد ما يسمى بالإرهاب لها آثار وتبعات تتعدى الميزانية الاتحادية، ولكنه سيركز على جانبها الأضيق المتعلق بالاعتمادات والالتزامات المالية. وذكر أن تقدير التكاليف الكلية لعمليات أمريكا في العراق وأفغانستان والأنشطة الأخرى المتعلقة بالحرب على ما يسمى بالإرهاب قد تصل لمبلغ ١,٢ إلى ١,٧ تريليون دولار من السنة المالية ٢٠٠١ حتى ٢٠١٧[٤].

---

(١) THE ECONOMIC COSTS OF THE IRAQ WAR, P: ١.

(٢) THE ECONOMIC COSTS OF THE IRAQ WAR, P: ٣٣.

(٣) Microsoft Encarta ٢٠٠٨- U.S.-Iraq War.

(٤) Estimated Costs of U.S. Operations in Iraq and Afghanistan and of Other Activities Related to the War on Terrorism, p: ١.

وبالمثل فإن تقرير (مجموعة دراسة العراق) قدر قيمة الرعاية الصحية للجرحى وإحلال المعدات المعطوبة بمئات الملايين. وأوردت المجموعة تقديراً يصل إلى ٢ تريليون دولار للتكلفة النهائية للتدخل الأمريكي في العراق[١].

وفي يوليو ٢٠٠٨ صدر تقرير من مركز خدمات أبحاث الكونجرس الأمريكي، وورد فيه أن كلفة حرب العراق تقترب (حوالي ٩٤%) من كلفة حرب فيتنام، التي بلغت ٦٨٦ مليار دولار، والتي تعد ثاني أعلى الحروب تكلفة في التاريخ بعد الحرب العالمية الثانية.

أما إذا أضيف لحرب العراق تكاليف الحرب على الإرهاب فإن الكلفة تتجاوز كلفة حرب فيتنام.

وذكر الدكتور منذر سليمان –تعليقاً على ذلك التقرير– أن تقديرات بعض المحللين تتوقع أن تزيد تكاليف الحرب على ما يسمى بالإرهاب على ٣٠٠٠ مليار دولار، وخاصة إذا أخذ في الاعتبار النفقات المرافقة لتكلفة الأعمال العسكرية مثل نفقات الرعاية الصحية وتعويضات أسر القتلى[٢].

وما الأزمة الاقتصادية العالمية العنيفة التي تعصف بأمريكا والغرب وسائر العالم منذ خريف ٢٠٠٨ إلا أثر من آثار ضربات نيويورك وواشنطن ونزيف (الحرب على الإرهاب) الاقتصادي المتدفق.

فقد بدأت أسباب الأزمة بحالة الركود التي أصابت الاقتصاد الأمريكي، وفقدان ثقة المستثمرين في السوق، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فضخت الحكومة الاتحادية أموالاً ضخمةً من أموال دافعي الضرائب، وخفض البنك المركزي الفائدة على الديون إلى واحد بالمائة، فتوفرت لدى البنوك سيولة ضخمة، فشجعت الإقراض بأبسط الشروط، وكان شراء البيوت من أهم المجالات، التي تم تشجيعها، فاندفع الناس يقترضون لشراء البيوت وللمشتروات الاستهلاكية. فارتفعت أسعار العقارات، وكانت البنوك تقرض المقترضين، وهي تعلم عجزهم عن السداد طمعاً في الاستيلاء على بيوتهم، وإعادة بيعها بسعر أكبر، ظناً منها أن الارتفاع في سعر العقارات سيستمر، ثم عجز المقترضون عن سداد الديون، ، وبدأت البنوك تستولي على البيوت، وتتحايل على المقترضين ببيع ديونهم لبنوك أخرى بفوائد أكبر، ولكن المشكلة تفاقمت، وانخفضت أسعار العقارات، وصارت البيوت المرهونة تعرض للبيع بسعر أقل من سعر شرائها، ، فبدأت شركات الرهن العقاري في الإفلاس، ومعها البنوك التي لم تسترد أموالها، ثم انتشر الذعر بين البنوك، فلم تعد تقرض بعضها بعضاً، وأخيراً لجأت الحكومة الأمريكية وبعض الحكومات الغربية الأخرى، إلى ضخ الأموال في البنوك بمئات المليارات، وتحمل العبء دافعو الضرائب، الذين دفعت أموالهم لإنقاذ كبار الرأسماليين لحفظ النظام الربوي التحايلي من الانهيار.

---

[١] The Iraq Study Group Report, p: ٣٢. and Microsoft Encarta ٢٠٠٨- U.S.-Iraq War.

[٢] إذاعة البي بي سي العربية– ٢٧ يوليو ٢٠٠٨.

ومن هذا يتبين أن المشكلة لها ثلاثة أسباب، اثنان كامنان في النظام الرأسمالي، وهما الربا والغش، والثالث كامن في الطبيعة الصليبية العدوانية، وهو السياسة الظالمة التي تتبعها أمريكا وحليفاتها ضد المسلمين، والتي كانت من نتائجها أحداث الحادي عشر من سبتمبر ثم الحروب الصليبية الخاسرة التي تخوضها أمريكا وحليفاتها.

وعن هذا يقول أمجد شلتوني:

" هل استطاعت القاعدة اختراق أكبر البنوك الأمريكية من أمثال ليمان برذرز والتسلل لصناع القرار فيها؟ وهل التقت مصالح أخطر شبكة مصنفة باعتبارها العدو الأول لأمريكا مع سدنة الرأسمالية لتشكل أكبر أزمة مالية في التاريخ الحديث؟

لم يكن الأمر يستدعي هذا أو ذاك على ما يبدو فحسب النظرية التي قدمها البرنامج الوثائقي (نزيف الرهن العقاري)، وبثته قناة الجزيرة، فإن هذه الأزمة التي ربما دفعت أكبر الضرر بأمريكا وسمعتها ليست سوى واحدة من تداعيات هجمات الحادي عشر من سبتمبر!

وإذا كان الأثر المادي بخسائر تلك الهجمات[1] فإنها بأثرها الجديد تترك أسامة بن لادن في كهفه مسترخياً، وهو ينظر إلى ضرر لم يحلم يوماً أن يراه ينخر في جسد أمريكا وتأثيرها في العالم!

تقول النظرية إن تلك الهجمات أطاحت على نحو قصير المدى بأسعار الأسهم والسندات وشككت في أهليتها كضمان للاستثمارات وأدت إلى حالة من العزوف عن الاستهلاك، وهو ما دفع البنوك آنذاك لإغراء العملاء بالقروض الشخصية على شكل رهون عقارية ميسرة، وتولى الرئيس الأمريكي جورج بوش بنفسه حث مواطنيه على الإنفاق ببذخ لتجنب ركود اقتصادي بدا وشيكاً حينذاك.

تلك التوصيات والنصائح ضخمت من سوق العقار على نحو مبالغ فيه، ولم يكن ينتظر سوى الإبرة المتربصة به لتنفجر الفقاعة ولتظهر معها القيمة الحقيقية لتلك العقارات"[2].

ب- ولكني أظن أن أقوى آثار تلك الحرب هي في انكشاف تهافت منظومة القيم الغربية.

فقد استطاعت الغزوات المباركات كشف وتعرية الزيف الفكري للحضارة الغربية. وهذا الزيف وإن كان بادياً لأهل البصيرة منذ زمن بعيد، إلا أنه بعد الغزوتين أصبح حقيقة لا ينكرها إلا جاحد. لقد قال بلير قولته المشهورة:

---

(١) لعل صوابها: وإذا كان الأثر المادي السابق لخسائر تلك الهجمات كبيراً.

(٢) القاعدة تسببت في الأزمة المالية- أمجد شلتوني- الجزيرة توك- ١٥/١٠/ ٢٠٠٨.

"لقد تغيرت قواعد اللعبة" .

ولو كان صادقاً تماماً لقال: "لقد انكشفت قواعد اللعبة" .

يقول جوزيف ستيليتز وليندا بلمز:

"لقد كانت أمريكا دائماً تفاخر بحربها من أجل حقوق الإنسان، ولكن وجاهة أمريكا قد تلطخت بعد أبو غريب وجوانتانامو" [١].

فبسبب الاهتمام الإعلامي بمتابعة الغزوات المباركات وما تبعها من حرب أمريكا على الإسلام، التي تسميها الحرب على الإرهاب، لم يعد في إمكان التحالف الغربي الصليبي بقيادة أمريكا إخفاء جرائمه في قلعة جنكي وسجن شبرغان وصحراء دشت ليلى وجوانتانامو وأبو غريب والسجون السرية للمخابرات الأمريكية[٢].

يقول الدكتور عبد الله النفيسي:

"لا تعاني الإدارات الأمريكية المتعاقبة على البيت الأبيض من خلل هيكلي في (نظام القيم) فقط، بل هي تعاني كذلك من خلل كالمنخل في (نظام المفاهيم) أيضاً. على صعيد الخلل في (نظام القيم) لديها فهي تكذب يومياً -وقبل طلوع الشمس- على جميع العالم: تتحدث عن (السلام والاستقرار في العالم) وفي نفس الوقت تحتكر خمسين بالمائة من تجارة السلاح عالمياً، وتبيعه لجميع الأطراف المشتركين في نزاعات مسلحة على مستوى العالم، وتعاقب أي طرف ينافسها في هذه التجارة.

وتتحدث عن (الديمقراطية وحقوق الإنسان) وفي نفس الوقت -واستجابة لمصالحها- تدعم وتؤازر نظماً سياسية في أنحاء متفرقة من هذا العالم بينها والديمقراطية وحقوق الإنسان عداوة تاريخية.

وتتحدث عن إرادة (المجتمع الدولي والشرعية الدولية) وهي أكثر من لجأ إلى حق النقض (الفيتو) في مجلس الأمن لإعاقة إرادة المجتمع الدولي والشرعية الدولية.

البعض -تلطفاً- يسمي هذا الخلل لدى الإدارة الأمريكية (ازدواج معايير double standard)، بينما هو في واقع الحال: كذب في كذب ودجل في دجل.

بعد عملية البرجين ٢٠٠١/٩/١١ في مانهاتن انسحب هذا الخلل إلى (نظام المفاهيم) لدى الإدارة الأمريكية فلم تعد تتصرف -عالمياً- وفق مقاييس معقولة، بل تتصرف وكأن هذا العالم فراغ vacuum خال تماماً من الدول والشعوب والثقافات والمصالح والحضارات غير الأمريكية. ومن يتابع تصريحات بوش ورامسفيلد وتشيني ومايرز

---

[١] THE ECONOMIC COSTS OF THE IRAQ WAR, P: ٤.

[٢] راجع ما قاله نعوم تشومسكي عن المقاتلين الأعداء وجوانتانامو والإرهابيين المشبوهين [الهمينة أم البقاء ص: ٣٦].

وباول ومن يتابع صحافة الولايات المتحدة ومحطات التلفاز فيها ويستمع إلى إذاعة (صوت أمريكا VoA) لا يحتاج إلى كثير ذكاء لكي يكتشف أن الأمريكان عموماً – وبالأخص إدارتهم– قد تحولوا فعلاً إلى أمة: (تنظر في المرآة إلى نفسها دائماً، دون أن تطل من النافذة إلا لماماً). كما قال السناتور الأمريكي جوزيف بايدن. لقد وقع هذا الأخير في نفس الحفرة، عندما ذكر في مقالة له نشرها مؤخراً يقول فيها: إنه بعد عملية البرجين في مانهاتن (تستطيع الولايات المتحدة أن تحدد مستقبل العالم للسنوات الخمسين المقبلة وفق مصالحها الاستراتيجية). هكذا بكل بساطة ألغى هذا السناتور الأمريكي إيرادات الدول والشعوب في كل أنحاء العالم ووضعها في جيبه لمدة نصف قرن!!" [١].

---

[١] العالم ما بعد غزوة مانهاتن (٣٧) للدكتور عبد الله النفيسي.

الفرع الرابع: الانتصار الإعلامي للمجاهدين

يذكر تقرير الكونجرس عن الحادي عشر من سبتمبر:

"على الولايات المتحدة أن تقوم بالمزيد لتتواصل برسالتها. وقد تساءل ريتشارد هولبروك وهو يشير لنجاح بن لادن في الوصول للجمهور المسلم: "كيف يمكن لرجل في كهف[1] أن يكون أكثر تواصلاً من مجتمع اتصالات العالم المتقدم؟". وقد توجس لنا نائب وزير الخارجية ريتشارد أرميتاج من أن الأمريكان أصبحوا: "يصدرون مخاوفنا وغضبنا"، بدلاً من رؤيتنا الداعية إلى الفرصة والأمل"[2].

وقال بوش في خطابه الإذاعي الأسبوعي:

"الإرهابيون يحاولون التأثير على الرأي العام الأمريكي هنا. لديهم استراتيجية دعائية متطورة لتقسيم أمريكا وكسر إرادتنا"[3].

وقال دونالد رامسفِلد:

"إن أعداءنا قد تكيفوا بمهارة لخوض الحروب في عصرنا الإعلامي، أما نحن فلم نستطع التكيف"[4].

سأتناول في هذا الفرع -بمشيئة الله- الانتصار الإعلامي للمجاهدين تحت العناوين التالية:

١- انتشار الإعلام الجهادي على شبكة المعلومات والوسائل الإعلامية التقليدية.

٢- أثر الإعلام الجهادي على أنصاره والرأي العام.

---

[1] هذه من السخافات التي يصر الأمريكان وأجهزة دعاياتهم على أن يستغفلوا الناس بها، ولا يملون من تكرارها. رغم أنهم لا يملون من ترديد؛ أنهم لا يعرفون مكان الشيخ أسامة بن لادن حفظه الله. في محاولة لوصف عدوهم بأنه في حالة بائسة متخلفة، رغم أنهم يعترفون أنه وجماعته أكبر خطر يتهددهم.

[2] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ٣٧٧.

[3] الشرق الأوسط الاثنين ٢١ جمادى الأولى ١٤٢٦ هـ ٢٧ يونيو ٢٠٠٥ العدد ٩٧٠٨.

[4] BBC News, "U.S. Losing Media War to al-Qaeda," February ١٧, ٢٠٠٦, <http://news.bbc.co.uk/٢/hi/americas/٤٧٢٥٩٩٢.stm>

نقلتها عن: High-Tech Terror: Al-Qaeda's Use of New Technology.

٣- التحرر من حصار الإعلام التقليدي.

٤- الحرب الدعائية على الجهاد.

٥- انكشاف زيف حرية التعبير الغربية.

***

١- انتشار الإعلام الجهادي على شبكة المعلومات والوسائل الإعلامية التقليدية.

لقد صار النشاط الإعلامي لجماعة قاعدة الجهاد وسائر الحركات الجهادية الآن أقوى وأوسع انتشاراً مما كان عليه قبل غزوات نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا.

فبسبب الحسابات السياسية للإمارة الإسلامية في محاولة لتخفيف الضغوط عليها، بالإضافة لتهالك شبكة الاتصالات في أفغانستان كان التوزيع والحضور الإعلامي أقل بكثير، أما اليوم فالإعلام الجهادي -بفضل الله أولاً وآخراً- يصول ويجول على شبكة المعلومات، وتتلقف انتاجه الفضائيات، رغم تحويرها وتحريفها للكثير من محتوياته، ويصل لملايين المهتمين والمتعاطفين.

فقد اعترف إريك كلارك -المتحدث باسم القيادة المركزية للقوات الأمريكية- بأن تنظيم القاعدة ينتصر في الحرب الإعلامية ضد الولايات المتحدة في إطار بالحرب على الإرهاب، إلا أن ذلك يبقى -في زعمه- انتصاراً مؤقتاً، وأن المعركة مستمرة، ولم تنته بعد.

وقال كلارك إن القاعدة ومناصريها يستعملون في الوقت الراهن نحو ٤ آلاف موقع إلكتروني متطرّف عبر الكرة الأرضية.

وخلص كلارك الى أن الحدّ الأدنى من المهمة الذي فعلته القاعدة -في حملة الاتصالات الإستراتيجية- هو أفضل بكثير من التنسيق القائم بين الولايات المتّحدة وقوّات التحالف، لكن *"أؤكد لك أيضاً، بأنّ المعركة برمتها لم تنته بعد"* [١].

أما اللجنة التي شكلها مجلس الأمن لمتابعة القاعدة وطالبان فتقول في تقريرها في مايو ٢٠٠٨:

"نجحت قيادة القاعدة في الحفاظ على حضور إعلامي كبير بفضل شبكة معقدة من الأشخاص العاملين على إنتاج موادها الدعائية وترجمتها وتوزيعها عبر شبكة الإنترنت" [٢].

وتذكر إنجل راباسا وزملاؤها في الجزء الأول من كتابهم عن (ما بعد القاعدة)، الذي قامت به مؤسسة راند لحساب القوات الجوية الأمريكية أن فضاء الإنترنت يحوي قرابة ٤٠٠٠ موقع يدعم الجهاد، وأن القاعدة بدعايتها المتنوعة تشن حرباً نفسية معقدة، وأنها لم تتميز فقط في استخدامها للإنترنت، ولكن

---

[١] المتحدث بإسم القيادة المركزية الأميركية يقر بانتصار القاعدة إعلاميا- كلارك لـ"العربية.نت": ٤ آلاف موقع إلكتروني "إرهابي" يناصر بن لادن.

[٢] الأمم المتحدة (S/٢٠٠٨/٣٢٤)- مجلس الأمن- ١٤ مايو ٢٠٠٨ ص: ١٢.

أيضاً في تعدد الطرق التي تعمل بها في هذا الوسط، لتقوي تنظيمها بجعل عقيدتها واستراتيجياتها وتكتيكاتها متوفرة لأكبر عدد من المجندين المتوقعين[١].

وأن القاعدة تستفيد أيضاً من وسائط الإعلام الدولي، فالقنوات العربية كالجزيرة والعربية، والغربية مثل السي إن إن والبي بي سي والإيه بي سي والإم إس إن بي سي تنشر أشرطة القاعدة، وخاصة تلك التي لبن لادن، وموادها الأخرى كأشرطة فيديو التدريبات، ولذا لم يكن غريباً أن بيتر أرنت مذيع السي إن إن عندما سأل بن لادن عام ١٩٩٧ عن خططه المستقبلية، أجابه: "ستراها وتسمع عنها في الإعلام إن شاء الله"[٢].

ويذكر عبد الباري عطوان في كتابه عن القاعدة الصادر في ٢٠٠٧ أنه يوجد قرابة ٤٥٠٠ موقع إلكتروني جهادي علني يتعاطفون مع القاعدة كحركة عقائدية عالمية تضم أشخاصاً من جميع أنحاء العالم متشابهين في الأفكار والأمزجة[٣].

ويذكر عمر العقاد أن الإف بي أي قد أحصت قرابة ٦٠٠٠ موقع على الإنترنت تدعم ما يسمى بالإرهاب[٤].

***

٢- أثر الإعلام الجهادي على أنصاره والرأي العام.

يقر بيتر بيرجن[٥]:

" بأن الجهاديين أكثر فعالية منا في الجبهة الدعائية"[٦].

وأن نشطاء القاعدة ينهضون الآن بشكل كبير على الإنترنت، الذي يعد حقاً مقرهم الجديد لتبادل المعلومات وتجنيد عناصر جديدة. مضيفاً: لا شك أن نشر الفكر المتطرف كان دائماً هدفاً مركزياً للقاعدة، ولذا فإن الإنترنت ساهم في تقديم حركة "جهادية" بشكل أوسع[٧].

ويقول جاريت براتشمان[١] أنه:

---

[١] Beyond al-Qaeda. Part ١. The Global Jihadist Movement, p: ١٨ & ١٩.

[٢] Beyond al-Qaeda. Part ١. The Global Jihadist Movement, p: ١٩ & ٢٠.

[٣] القاعدة التنظيم السري ص: ١٥٣.

[٤] Terror goes digital.

[٥] زميل «مؤسسة أمريكا الجديدة» وخبير شؤون الارهاب بشبكة (سي إن إن) الأمريكية، ومخرج أول لقاء لشبكة السي إن إن مع الشيخ أسامة بن لادن في توره بوره، ومؤلف كتاب مؤسسة الحرب المقدسة: داخل عالم أسامة بن لادن السري (Holy War, Inc. Inside the Secret World of Osama bin Laden) وكتاب أسامة بن لادن الذي أعرفه (The Osama bin Laden I Know).

[٦] خصوم الولايات المتحدة يحركون حملة إعلامية ضمن ما يسمى بحرب الأفكار.

[٧] الشرق الأوسط الأثنين ٢١ جمادى الأولى ١٤٢٦ هـ ٢٧ يونيو ٢٠٠٥ العدد ٩٧٠٨.

"رغم الإمكانات الضخمة التي خصصتها الولايات المتحدة لمجابهة الإرهاب الجهادي منذ هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ إلا أن عدوها الإرهابي الرئيسي؛ القاعدة، قد تحور وصار أكثر خطورة، والقاعدة اليوم لا يمكن توصيفها بدقة على أنها منظمة أو شبكة أو شبكة لشبكات، بل -بالاستفادة من تقنية المعلومات والاتصالات الجديدة- حولت القاعدة نفسها لتصبح حركة اجتماعية عضوية، تجعل عقيدتها الضارية في متناول أي شخص معه حاسوب"[٢].

ويكتب كريستوفر ديكي في النيوزويك:

"يتوجس بعض المحللين الأمريكان من أن أمريكا لا تحارب بقوة كافية في حرب الأفكار على الشبكة العنكبوتية.

ويحذر سيفن أولف -وهو باحث مشارك في مركز مكافحة الإرهاب في ويست بوينت- من "أننا قد فشلنا أن نواجه الجهاديين بجد وفكرياً وثقافياً، وكنتيجة ذلك يتقدم تأثيرهم المزعج غير مقاوَم"[٣].

أما إنجِل راباسا وزملاؤها من مؤسسة راند فيذكرون أن؛ الرسائل الأصولية قد تغلغلت في المجتمعات الإسلامية عبر العالم عن طريق الإنترنت والإعلاميات الجديدة الخارجة عن تحكم الحكومات. وأن الجهود الممولة من الولايات المتحدة كراديو سوا وتلفاز الحرة يفتقدون حصافة التعامل مع المواضيع والاهتمامات المحلية، وفي كل الأحوال لا يعملون لتطوير نوافذ الإعلام المحلي المعتدلة[٤].

وتقول هنا روجان من مؤسسة أبحاث الدفاع النرويجية؛ أنه قد يكون من الصعب تقدير تأثير الإعلام الجهادي على مؤيدي الجهاد وعلى الرأي العام، ولكن يمكن القول أن حملة الجهاديين الإعلامية تحتل مكانة مرموقة بالنظر لغزارة انتاجها وتزايد جودتها والثناء الذي تحصل عليه من المؤيدين على الشبكة المعلوماتية بالإضافة للاهتمام المتزايد والقلق من وكالات مكافحة ما يسمى بالإرهاب[٥].

---

[١] جاريت براتشمان يعمل باحثاً في مركز مكافحة الإرهاب في الأكاديمية العسكرية للولايات المتحدة، وهو أيضاً مشارك في تأليف كتب:

(Militant Ideology Atlas)و(Harmony and Disharmony) و(Stealing Al-Qa'ida's Playbook) الصادرين عن نفس المركز، وكنت قد أشرت إلى بعض من سقطاتها العجيبة في المقدمة.

[٢] High-Tech Terror: Al-Qaeda's Use of New Technology, p: ١٤٩.

[٣] Internet Imams: Inside the Cyber-Jihad, Are we in danger of losing the war of ideas on the Web?

[٤] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٨٠.

[٥] Al-Qaeda's online media strategies: From Abu Reuter to Irhabi ٠٠٧, P: ١١٦.

أما ستيفن كورمان وجيل شيفلبين فيقرران أن قدرة الولايات المتحدة على مواجهة القاعدة محدودة[١]. كما يقرران أيضاً أن مصداقية الولايات المتحدة في العالم الإسلامي كانت دائماً منخفضة، وأن تصريحات بعض مسؤوليها مثل اعتراف بوش؛ أن حربه على الإرهاب هي حملة صليبية، قد استفادت منها استراتيجية الجهاد الأعلامية، فقد استطاعوا أن يصوروا القوات الأمريكية في الخليج على أنهم صليبيون محتلون، وأن ما يقومون به هو نسخة معاصرة من الحروب الصليبية. ويضيفان أن بعض الحوادث الأخرى مثل الأساءة للمعتقلين في أبو غريب وجوانتانامو قد استدل بها الجهاديون ليبينوا أن الولايات المتحدة لا تختلف عن النظام العراقي المنهزم والأنظمة المرتدة في العالم العربي. وباستحضار أن مصداقية الولايات المتحدة كانت منخفضة قبل الحرب على ما يسمى بالإرهاب، فإنها الآن ضئيلة أو منعدمة. وهذا يؤثر سلباً على التخطيط لأية استراتيجية لمواجهة الجهاديين في حرب الأفكار[٢].

وتقول إنجل راباسا وزملاؤها:

"إن الذي جعل دعاية القاعدة مميزة هو النزعة العالمية -التي لا تكل- في التوزيع وجودة إنتاجها. وكنتيجة لهذه الاستراتيجية الإعلامية فإن رسائل القاعدة قد تخللت بعمق في المجتمعات الإسلامية حول العالم، وتفترس أولئك المسلمين الذين يحسون بالعجز في كل من العالم العربي والمهاجر في الغرب"[٣].

ويضيفون أيضاً بأن القاعدة قد أتقنت استخدام تقنية المعلومات، وخاصة الإنترنت كأداة إرهابية، واستخدمت الإعلام الجماهيري لنشر دعايتها[٤].

ويذكرون أن القيمة الرمزية للشيخ أسامة بن لادن وسط الأصوليين الإسلاميين كخصم لدود للولايات المتحدة بالإضافة لزعامته للجهاد العالمي ضد ها لهما قوة تحريضية ضخمة وسط قطاعات معينة من المسلمين، وأن الأفكار التي يروج لها الشيخ أسامة بن لادن والظواهري -والتي يتردد صداها في دوائر ما يسمى بالمتطرفين في العالم الإسلامي- قد لعبت الدور الأكبر في دعم استمرار حملة الجهاد العالمي وتحويلها لتمرد دولي حقيقي[٥].

وأن دعايات القاعدة تتجاوب أصداؤها وسط ملايين المسلمين عبر العالم الإسلامي، الذين يبحثون عن تفسير مقنع لمعاناتهم ومعاناة إخوانهم في العقيدة وعن استراتيجية للتغيير الشخصي والسياسي[٦].

---

(١) Communication and Media Strategy in the Jihadi War of Ideas, p: ٤.

(٢) Communication and Media Strategy in the Jihadi War of Ideas, p: ١٧ & ١٨.

(٣) Beyond al-Qaeda. Part ١. The Global Jihadist Movement, p: xviii.

(٤) Beyond al-Qaeda. Part ١. The Global Jihadist Movement, p: xxvii.

(٥) Beyond al-Qaeda. Part ١. The Global Jihadist Movement, p: ٧ & ٨.

(٦) Beyond al-Qaeda. Part ١. The Global Jihadist Movement, p: ١٢.

وأن أكثر الدول تقدماً فقط هي التي تستطيع أن تجاري القاعدة في نشر دعايتها المتقدمة عبر العالم بسرعة[١].

وأن عدم اقتصار القاعدة على أسلوب واحد في إبلاغ رسالتها مكنها من الوصول لجماهير أوسع، وجعلها تتخطى حواجز التقنية والقراءة[٢].

وأن القاعدة -قبل كل شيء- هي المجموعة الإرهابية -في زعمهم- التي برزت بإحداثها انقلاباً في عملياتها باستخدامها الناجح لتقنية المعلومات[٣].

وأن استمرار دعاية القاعدة خلال التسع سنوات الماضية يرجح أنها تؤثر في جمهورها بالطريقة التي يراها زعماؤها مفيدة[٤].

وأن القاعدة قد أثرت بنجاح على الصحافيين الإجانب أيضاً، الذين يعتمدون على مواقع القاعدة كمصادر جادة لتقاريرهم، وبهذا أثرت القاعدة على مفاهيم الإعلام فيما يتعلق بنواياها وقدراتها مساراتها[٥].

ويضيف التقرير أنه يبدو أن دعاية القاعدة أيضاً تمارس الحرب النفسية ضد أعدائها وخاصة الولايات المتحدة، فتهديدات القاعدة منذ ١١ سبتمبر تلاقي اهتماماً فورياً من الإعلام العالمي، وقد رفعت هذه التصريحات أحياناً مستويات التأهب ضد ما يسمى بالإرهاب، كما أنها ترسل موجات متتابعة من الرعب إلى الجمهور الأمريكي.

وبهذا فإن دعاية القاعدة تبدو وقد حققت أهدافها: تحريض أتباعها، وتغيير الرأي العام، والتأثير في الإعلام العالمي، وبث الرعب في الإعداء[٦].

وكما يرى القارئ فإنها شهادة الخصم اللدود في خصمه.

وشمائلٌ شَهِدَ العدوُّ بفَضْلِها   والفضلُ ما شَهِدَتْ به الأعداءُ[٧]

يقول عبد الباري عطوان:

---

[١] Beyond al-Qaeda. Part ١. The Global Jihadist Movement, p: ١٥.

[٢] Beyond al-Qaeda. Part ١. The Global Jihadist Movement, p: ١٥ & ١٦.

[٣] Beyond al-Qaeda. Part ١. The Global Jihadist Movement, p: ١٧.

[٤] Beyond al-Qaeda. Part ١. The Global Jihadist Movement, p: ٢٠.

[٥] Beyond al-Qaeda. Part ١. The Global Jihadist Movement, p: ٢١.

[٦] Beyond al-Qaeda. Part ١. The Global Jihadist Movement, p: ٢١ & ٢٢.

[٧] البيت للسري الرفاء. الموسوعة الشعرية- السري الرفاء.

"الشيخ بن لادن ونائبه أيمن الظواهري نجحا في كسب عقول وقلوب الكثير من العرب والمسلمين المحبطين، سواءً بسبب المجازر، التي ترتكب في فلسطين والعراق، أو بسبب فساد الأنظمة الحاكمة"(١).

ويقول جوزيف ستيليتز وليندا بلمز عن حرب العراق:

"في بداية الحرب كان هناك كثير من الحديث حول كسب قلوب وعقول أولئك الذين في الشرق الأوسط. بينما تظهر استطلاعات الرأي الحديثة -التي تعكس الرأي العام في العالم العربي- أن العكس بالضبط هو الذي حدث"(٢).

ويقول روفين باز عن النشاط الجهادي على شبكة المعلومات وأثره على المسلمين:

"نستطيع أن نلحظ في بعض المجتمعات الإسلامية في الغرب -ولكن بالأخص في العالم العربي- دوراً متعاظماً لهذا التلقين في الرغبة في مساندة وتبرير والتطوع للحاق بالإرهابيين الجهاديين. وقد حلت هذه المواقع الجهادية منذ ٢٠٠١ بالتدريج محل مؤسسة (المدرسة(٣) *القديمة كأداة لتجنيد جيل الجهاديين الأول في الثمانينيات والتسعينيات. إن الإنترنت -في الواقع- قد أصبح (مدرسة) عالمية واحدة"*(٤).

ويقول أيضاً:

"لا بد أن نفهم دور الجهاد الذي تلعبه المظلة العقائدية المعاصرة للجهاد العالمي. إنه ليس فقط إرهاباً، ولكنه -وربما الأهم من ذلك- محور أساسي في بناء التضامن الحالي بين العرب والمسلمين"(٥).

ويقول كريستوفر بلانتشارد في تقريره المقدم للكونجرس الأمريكي:

"وعموماً فإن تصريحات بن لادن من منتصف التسعينيات حتى الآن تبين أنه ما زال يرى نفسه وأتباعه كطليعة لحركة دولية إسلامية، مصممة أساساً على إنهاء تدخل الولايات المتحدة في شؤون البلاد الإسلامية، وداعمة لجهود قلب وإعادة تشكيل المجتمعات الإسلامية تبعاً لتفسير سلفي ضيق للإسلام والشريعة الإسلامية. وما زالت التصريحات

---

(١) مفاجآت شريط زعيم القاعدة.

(٢) THE ECONOMIC COSTS OF THE IRAQ WAR, P: ٤.

(٣) يقصد المدارس الدينية.

(٤) Reading Their Lips: The Credibility of Jihadi Web Sites as 'Soft Power' in the War of the Minds, p: ٥.

(٥) Reading Their Lips: The Credibility of Jihadi Web Sites as 'Soft Power' in the War of the Minds, p: ١١.

العلنية التي يدلي بها هو ومعاونوه تلعب -على الأرجح- دوراً هاماً ومحسوباً في بلوغ أهدافه"[1].

ونشر موقع إيلاف الخبر التالي من واشنطن:

"من المقرر أن تغلق الولايات المتحدة الأميركية قناتها الفضائية الناطقة باللغة العربية (الحرة)، بعدما أدرك البيت الأبيض أن هذه القناة لا تستطيع أن تفي بالغرض. وبالتالي فإن ٣٥٠ مليون دولار التي أنفقتها الإدارة الأميركية على (الحرة) منذ فبراير ٢٠٠٤ ذهبت أدراج الرياح.

وقال هشام ملحم مدير قناة العربية بواشنطن، إنه على الرغم من هذه التكلفة فإن القناة "فشلت حتى في الحياز على المركز الرابع، على أقل تقدير، بالنسبة لتفضيل مشاهدي القنوات العربية.." وأضاف ملحم: "إنه نادرًا ما تجد أناس قد شاهدوا قناة الحرة. وربما تكون الحرة هي القناة رقم عشرة في قائمة ترتيب بحث المشاهدين عن القنوات المهمة... إذن الحرة لم تكن في الترتيب الأول ولا الثاني ولا الثالث... أو حتى الرابع". وقال ملحم إن مسؤولي القناة فشلوا في إيجاد مدخل يمكنهم لإقناع المشاهدين العرب. كما أنهم فشلوا في ايجاد تقديم أي شيء جديد ومختلف حول أميركا للعالم العربي" وأضاف ملحم: "لقد كلفت القناة الكثير..ولكن العطاء فيها أقل مما يتصور المرء".

وكان الهدف أن تنافس قناة "الحرة" القناتين الفضائيتين العربيتين "العربية" و"الجزيرة"، وتتمسك في الوقت نفسه باتجاهاتها الغربية. لكن سرعان ما أدركت إدارة "الحرة" أنها لن تستطيع تحقيق المهمة المطروحة على القناة، لأن استمالة الجمهور العربي من خلال الترويج للقيم الغربية أمر مستحيل، ولكنها استمرت في استثمار الاعتمادات المخصصة للقناة في غياب رؤية تتوخى تطوير القناة، فيما واصل العاملون في القناة عملهم من دون أن يعرف الكثيرون منهم ما هو مطلوب منهم، معتبرين أنهم معذورون لأن لا أحد يشاهد برامج قناتهم.

....

وخلص الخبراء في بداية هذا العام إلى استنتاج أن "الحرة" مشروع فاشل.

وقالت صحيفة واشنطن بوست إن الحرة فشلت في أداء مهمتها في العالم العربي. وأجمع بعض الخبراء الإعلاميين من العرب والأميركيين، الذين تحدثوا للصحيفة على أن القناة لم يعد لها أي حظوظ من النجاح في سوق الإعلام العربي.

---

[1] Al Qaeda: Statements and Evolving Ideology, p: ٦.

....

وكانت استطلاعات الرأي المتعاقبة خلال السنوات الفائتة قد أظهرت أن الحرة هي أقل الفضائيات الناطقة بالعربية مشاهدة. لكن مصادر أميركية كانت تصر على عدم إقفال الحرة، رافضة أن تلقي المحطة مصير مجلة هاي الشهرية، والتي قررت الخارجية إيقافها عن الصدور. وعلى الرغم من عمليات المراجعة والتقويم الشامل لأداء المحطة الا انها لم تتمكن من جذب الجمهور العربي .

....

ويصل عدد مشاهدي القناة إلى تسعة مليون أسبوعياً، ويتركزون بشكل أساسي في العراق.

....

وقالت جهات أميركية متخصصة في استطلاعات الرأي إن مشاهدي القناة في مصر يمثلون ثمانية بالمئة من سكان مصر، التي يتجاوز عدد سكانها الـ ٨٤ مليون فضلاً عن أنها قلب العالم العربي. وتفيد احصائيات جديدة أن الذين يشاهدون القناة في ١٣ قطر عربي لا يتجاوزون نسبة الـ ٢٨ مليون مشاهد أسبوعيًا من جملة عدد السكان العرب، الذين يبلغون ٢٠٠ مليون. غير أن مصادر أخرى قالت إنه من الصعوبة تأكيد هذه الارقام وأن جهات رسمية تابعة للكونغرس، ومعنية بالمصداقية الإحصائية، شككت في هذه الأرقام.

وقال البوست إن الحرة تملك قاعدة مشاهدة ضيقة جداً مقارنة بالجزيرة والعربية، بحيث أظهر استطلاع لجامعة ميرلاند ومؤسسة "زغبي انترناشونال" أن ٥٤% من المستطلعين يشاهدون الجزيرة، مقارنة بـ ٩ % يشاهدون العربية و٢% فقط يشاهدون الحرة"[1].

وتذكر إنجل راباسا وزملاؤها أن أهم وسائل الدبلوماسية العامة هي الإذاعة والقنوات الفضائية، وأساساً إذاعة (سوا) وفضائية (الحرة). ويقرون بأن فضائية (الحرة) قد فشلت في كسب مشاهدين، بينما نجحت إذاعة (سوا) -في زعمهم- في كسب مستمعين، ولكنهم يبادرون بالقول إن كسب مستمعين لا يعني بالضرورة نشر الأفكار المعتدلة، وبالتالي يتساءلون هل تكلفتهما العالية (٧٠٠ مليون دولار سنوياً) قد ساهمت فعلاً في تغيير المزاج العام في العالم الإسلامي إيجابياً تجاه سياسات الولايات المتحدة[2].

---

[1] أميركا تعلن فشل مشروعها الإعلامي: إقفال قناة الحرة قريبًا.

[2] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: xvii & xx.

وأنهم يرون أنه من الأفضل أن يصرف ما ينفق على قناة الحرة على وسائل الإعلام المحلية والصحافيين الملتزمين بقيم الديمقراطية والتعددية[١].

***

٣- التحرر من حصار الإعلام التقليدي.

استطاع المجاهدون -بفضل الله أولاً وآخراً، وببركة دماء الشهداء، وتضحيات الأسرى والجرحى- أن يفرضوا على العالم أن يسمع صوتهم، لأنهم أصحاب مصداقية عالية، فتواصلوا مع أمتهم، وكسروا طوق الحصار الإعلامي، الذي كان مفروضاً عليهم، وهي مصداقية يجب أن تحافظ عليها الحركة المجاهدة بكل ما تملك.

يقول الأستاذ سيف الدين الأنصاري عن الانتصار الإعلامي للمجاهدين في الحادي عشر من سبتمبر:

"ولكل واحد منكم أن يسأل: أين الإمبراطورية الأمنية؟ لماذا لم تتنبأ بالغزوة؟ لماذا لم تمنعها؟ لماذا لم تقدر على إيقافها؟ الجواب: إن أمريكا بشر، ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[النساء:٢٨]، ثم إنهم المجاهدون.. وحسبُك!! إذن بعد ١١ سبتمبر كل شيء ممكن!! والمستحيل هو أن تستمر أمريكا.

والحقيقة أن المجاهدين قد قدموا -عبر جهادهم الطويل- هذه الدروس مرات عديدة.. قدموها في أفغانستان ضد "الاتحاد السوفيتي"، وقدموها في البوسنة والهرسك ضد الصرب، ولا زالوا يقدمونها يومياً في الشيشان ضد الروس، ويتفنّنون في العرض مرة أخرى في أفغانستان مع أمريكا وحلفائها، لكن قليلٌ هم الذين سمعوا بتلك الدروس، وقليل من هذا القليل الذين استوعبوها، لأن السياسة الإعلامية العالمية تتحرك دائماً في الاتجاه، الذي يحرم الشريحة الواسعة من الأمة أن تذوق لذة النصر، أو تستفيد من الدرس.

أما في الغزوة المباركة فإن الإعلام لم يجد ما يخفيه، فقد قرر المجاهدون هذه المرة أن يكون الدرس على الهواء مباشرة، لكسر هيبة أمريكا أمام الجميع، ولتتحطم مع تحطم كبريائها تلك الأغلال المضروبة حول الإرادة الإسلامية، من خلال جعل ما هو مستحيل في تصور البعض داخلا تحت دائرة الممكن، وقد كان لهم -بفضل الله- ما أرادوا، وعلّموا الأمة الإسلامية أنها قادرة حين تريد، وأن مشكلتها الحقيقية ليست في قلة العدد أو العدة،

---

[١] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: xxiii, xxiv, ٥٦ & ١٤٤.

ولكنها كما قال صلى الله عليه وسلم: (بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يكثر فيكم الوهن)[أحمد]"[1].

وبتوفيق من الله ثم بجهد المخلصين من العاملين لنصرة الإسلام في صمت وإنكار للذات، مع تجاوب الأمة مع المجاهدين تحرر الإعلام الجهادي من سيطرة الصحف والقنوات الفضائية على الخبر.

والإعلام الجهادي ينقل اليوم الصورة الحقيقية للمعركة بين الصليبية والإسلام، وهي الصورة التي كان من المستحيل أن تنقلها وسائط الإعلام التقليدية.

فالصور الحية من ميادين الجهاد في أفغانستان والعراق والشيشان والصومال والجزائر وغيرها لم يكن ممكناً أبداً أن تنقلها وسائل الإعلام المحلية والدولية.

بل على العكس كانت تنقل صورة كاذبة مناقضة للحقيقة فضحها الإعلام الجهادي،

الذي فضح الإعلام الغربي، وبين أنه إعلام كاذب منحاز متلاعب بالحقائق، وبذلك انكشفت خدعة الغرب الكبرى في أنه راعي الحرية والشفافية والعدالة وحقوق الإنسان.

وهذه هزيمة أكبر من كل هزائمه العسكرية.

إنها هزيمة الحضارة الغربية التي ضبطها الإعلام الجهادي متلبسة بجريمة الكذب والتزوير.

يقول مايكل شوِر:

"منذ عام ١٩٩٦ صارت عمليات القاعدة الإعلامية أكثر تعقيداً وانتشاراً وتأثيراً. فمن عالم إعلامي -كانت القاعدة والزعماء الإسلاميين الآخرون فيه يحرضون المسلمين بتكرار وببساطة لخوض الجهاد في سبيل الله- نشأت تلك الجرائد الإلكترونية المعقدة متعددة المواضيع مثل الأنصار والنداء وصوت الجهاد.

واليوم يقدم ذراع القاعدة الإعلامي إرشادات دينية معمقة للمسلمين حول مبررات الجهاد المذكورة في القرآن وأحاديث النبي محمد [صلى الله عليه وسلم[2]*] وسنته والتاريخ الإسلامي. وحتى باستخدام أجزاء منتقاة من النصوص، فإن علماء القاعدة قد شكلوا أساساً دينياً مقنعاً لشن الجهاد الدفاعي، الذي اكتسب التأييد وسط عشرات الملايين من المسلمين وخاصة من الشباب. والمقاتلون الآن مدعمون بحجج دينية يردون بها -وبأسلوب تفكيرهم الخاص- على الحجج المضادة للجهاد من أولئك الذين يعتبرهم الغرب المسلمين (المعتدلين).*

---

[1] غزوة نيويورك وواشنطن: قراءة تأصيلية ص: ١٤.

[2] ما بين العلامتين [ ] من إضافتي.

ولقد طورت القاعدة أيضاً ما يمكن أن يعد حقاً جامعة ذات نجاح مذهل للاستراتيجية والتكتيكات والتدريب على حروب العصابات والعمليات الإرهابية (http://www.alsakifah.org).

وفي جرائد مثل المذكورة سابقاً وغيرها طور استراتيجيو ومحللو القاعدة نظرة للعالم توائم تماماً صراع الإسلاميين في سياق العلاقات الدولية المعاصرة، تشرح لماذا توجد أسباب جيوبوليتيكية متينة -مثل واقع السياسة الخارجية للولايات المتحدة في العالم الإسلامي، واعتماد الغرب على بترول المسلمين وحاجته للدفاع عن وصوله له- تجعل أهداف حرب القاعدة في (استنزاف أمريكا حتى الإفلاس) و(تشتيت القوة الأمريكية) أمراً يمكن إحرازه. (http://www.yaislah.org, December ٢٥, ٢٠٠٥).

....

وقد أظهرت منظمة السحاب الإعلامية -حديثاً جداً- قدرة على عرض -وإعانة الآخرين على عرض- تغطية إخبارية موثوقة المصدر وشبه آنية للمسلمين من جبهات الجهاد في العراق وأفغانستان. ومن العراق وأفغانستان -التي كان الطالبان فيها لا يعيرون أية أهمية للإعلام- تتدفق يومياً فيديوهات عالية الجودة لنشاط المجاهدين العسكري ضد قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة، وحوارات مع قادة المتمردين الهامين وأشرطة عن عقوبة المسلمين الذين يتعاونون مع (المحتلين).

وهذه الأشرطة مساهمة فعالة لتحقيق هدف القاعدة بتقليل انهزامية العرب والمسلمين، وتقديم اختيار إخباري ثالث للمسلمين حول العالم.

وبالإضافة للمنافذ الغربية مثل سي إن إن وفي أو إيه والبي بي سي، والقنوات الفضائية العربية مثل الجزيرة والعربية، فقد وفرت القاعدة وحليفاتها للمسلمين -عبر الإنترنت- خياراً آخر لمشاهدة الأنباء من مناطق الحروب، وهو وإن كان خياراً صارخاً، ولكنه ذو نزعة جهادية جيدة الإطلاع.

وبالإضافة لنجاحاتها في ميدان المعركة، فقد أحرزت القاعدة وحليفاتها إنجازاً إعلامياً مؤثراً، فقد انتقلت من حالة زعماء الجهاد المهللين، لحالة العاملين الإعلاميين الأكفاء المعاصرين جداً وأخصائيي الدعاية، الذين يركزون على التأثير في جمهور المستمعين المسلمين.

وبالإضافة لقدرة السحاب على السيطرة على الإعلام العالمي لعدة أيام عندما تقدم شريطاً صوتياً أو مرئياً جديداً لبن لادن أو أيمن الظواهري، فإنها ومنظمات الإعلام الأخرى -التي تؤيدها، أو تتعاون معها- قد شكلوا وجوداً إعلامياً منتشراً عبر الإنترنت.

وهذا لا يوفر فقط الإرشادات الدينية والعسكرية المطلوبة والتغطية الإخبارية شبه الآنية، ولكنه يحرم أيضاً القوات المسلحة الأمريكية وحلفاءها الغربيين أحد ركائز عقيدتهم العسكرية؛ السيطرة على المعلومات. فإن نجاح القاعدة والإسلاميين في ميدان الإعلام قد حرم المخططين العسكريين الغربيين كثيراً من قدرتهم السابقة على تصوير أجواء ميدان المعركة بالتحكم في تدفق المعلومات. وفي الحقيقة فإنه قد تكون القوات المسلحة الأمريكية وحلفاؤها في وضع من عليه أن يبحث عن سبل، يستطيع بها أن يخترق سيطرة الإسلاميين الإعلامية في ميادين المعارك والمناطق المتنافس عليها عبر العالم الإسلامي"[١].

***

٤- الحرب الدعائية على الجهاد.

كتب أندرو جريس في أبريل ٢٠٠٧ في صحيفة الإندبندنت أن الحكومة البريطانية أقرت بأنها مهددة بخسارة الحرب الدعائية في مقابل القاعدة، ولذا صرح توني بلير بأن الحكومة ستنشئ وحدة خاصة للبحث والاتصال لمكافحة عقيدة القاعدة[٢].

ولكن هل اتبعت هذه الوحدة الخاصة أساليب نزيهة في التصدي للقاعدة؟ يشكك في هذه النزاهة وفي تواطئ هيئة الإذاعة البريطانية (البي بي سي) معها ما نشرته صحيفة العرب القطرية في أغسطس ٢٠٠٨ عن وكالة يونايتد برس، التي ذكرت أن صحيفة الجارديان كشفت عن أن وحدة حكومية لمكافحة الإرهاب تستهدف هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) وغيرها ومن وسائل الإعلام في المملكة المتحدة في إطار حرب دعائية جديدة ضد تنظيم القاعدة بزعامة أسامة بن لادن.

وقالت الصحيفة إن وثيقة مسربة من وزارة الداخلية البريطانية كشفت أيضاً عن أن خبراء الحكومة في مجال مكافحة الإرهاب يعتزمون استغلال المواقع الإعلامية الجديدة وأجهزة الإعلام الأخرى لبث رسائل عن طريق متطوعين في منتديات الإنترنت كجزء من هذه الحملة الدعائية في خطوة ستثير الكثير من التساؤلات حول إدارات أجهزة الإعلام البريطانية.

وأضافت أن هذه الاستراتيجية وضعتها وحدة الاتصال والمعلومات والأبحاث التي أنشأتها وزارة الداخلية البريطانية العام الماضي للتصدي لدعاية تنظيم القاعدة.

وبحسب الصحيفة، فإن الحملة الدعائية ستهاجم القاعدة على ثلاث جبهات: تسليط الأضواء على تآكل دعم التنظيم، وأن القاعدة تعتزم إلحاق الضرر بالناس وأرزاقهم، وإلحاق الضرر بجميع الدول بلا استثناء.

ونقلت الغارديان عن الوثيقة المسرّبة القول نحن ندفع بهذه المادة إلى القنوات الإعلامية في المملكة

---

[١] Al-Qaeda's Media Doctrine: Evolution from Cheerleader to Opinion-Shaper.

[٢] Blair: West could lose al-Qa'ida propaganda war.

المتحدة، وعلى سبيل المثال بُث برنامج عبر إحدى إذاعات بي بي سي يفضح التوتر المتزايد بين قادة القاعدة ومؤيدي التنظيم، وسنقوم بتكليف مجموعة عمل محدودة لتوجيه مثل هذه الرسائل عبر أجهزة الإعلام ووسائل أخرى.

وأشارت الصحيفة إلى أن الوثيقة ستسلط الأضواء أيضاً على إدانة شخصيات دينية مسلمة لتنظيم القاعدة مثل سيد إمام الشريف المعروف باسم الدكتور فضل الزعيم السابق لتنظيم الجهاد الإسلامي في مصر، والداعية الإسلامي السعودي سلمان العودة، الذي كان قد وجّه رسالة مفتوحة إلى بن لادن وصف فيها أهداف القاعدة بأنها غير مشروعة وغير أخلاقية، وستبرز أيضاً تفاصيل عن الفظاعات، التي ارتكبها تنظيم القاعدة بزعم الوثيقة[١].

***

٥- انكشاف زيف حرية التعبير الغربية:

ذكر تقرير لجنة مجلس لمتابعة القاعدة والطالبان في مايو ٢٠٠٨ أن:

"اللجنة يمكن أن تنظر في إدراج[٢] مثل هذه المنافذ الإعلامية[٣] ومن يقف وراءها من أفراد رئيسيين وقائمين بالدعاية، على أساس أن أنشطتهم على شبكة الإنترنت تثبت ارتباطهم بالقاعدة.

....

ويعتقد الفريق[٤] أيضاً أن مجلس الأمن يمكن أن يدعو الدول الأعضاء إلى اتخاذ تدابير قانونية وعملية مناسبة لمنع استخدام شبكة الإنترنت بطرق تنتهك تدابير الجزاءات المفروضة ضد القاعدة والطالبان ومن يرتبط بهما"[٥].

وطالب السناتور اليهودي المستقل جوزيف ليبرمان -وهو مستقل ينتمي للمحافظين الجدد، ويرأس لجنة الأمن القومي والشؤون الحكومية في مجلس الشيوخ- بحذف جميع خُطَب قيادات القاعدة، وأفلام الهجمات على قوات الاحتلال الأمريكي في العراق، ومواد أخرى اعتبرها تسعى إلى تجنيد المتعاطفين مع

---

(١) صحيفة العرب القطرية- العدد ٧٣٨١- الأربعاء ٢٧ أغسطس ٢٠٠٨م الموافق ٢٦ شعبان ١٤٢٩هـ.

(٢) أي في قائمة اللجنة المذكورة للشخصيات والهيئات التي يجب فرض إجراءات الحظر والملاحقة القانونية ضدها.

(٣) ذكر التقارير أسماءها في الصفحة السابقة وهي: مؤسسة السحاب للإنتاج الإعلامي والجبهة الإعلامية الإسلامية العالمية ومركز الفجر للإعلام، واللجان الإعلامية لتنظيم القاعدة ببلاد المغرب الإسلامي ودولة العراق الإسلامية وأنصار السنة، ومنتديات الإخلاص والحسبة والبوارق. [لعلها البراق]

(٤) أي الفريق الذي كتب التقرير.

(٥) الأمم المتحدة (S/٢٠٠٨/٣٢٤)- مجلس الأمن- ١٤ مايو ٢٠٠٨ ص: ١٣.

القاعدة وتقديم تدريب على السلاح من موقع اليوتيوب المملوك لشركة جوجل. وذكَّر في خطاب الى رئيس مجلس الإدارة والمدير التنفيذي لشركة "جوجل" إريك شميدت:

"بتنفيذ سياستها الخاصة ضد هذا المحتوى المسيء، وحذف هذه اللقطات من "يوتيوب"، ومنعها من الظهور مجددًا".

مشيرا الى أن:

"المنظمات الإرهابية الإسلامية تعتمد اليوم بشكل واسع على الإنترنت في جذب المؤيدين ودفع قضيتهم".

وقالت الشركة في بيان على موقع "يوتيوب بلوغ" أنها تطلب من موظفيها بشكل دائم حذف بعض المواد، التي تحتوي على "*خطاب كراهية أو عنف او تنتهك المعايير الاجتماعية*". غير أنها لن تحذف كل المواد التي طالب ليبرمان بإلغائها.

وأشار الموقع المذكور إلى حذف "*عدد من التسجيلات التي تصور العنف غير المبرر وتروج له، وتلك المستخدم فيها تصريحات تحض على الكراهية*"، بجانب تلك التي تنتهك قواعد المجتمع الأمريكي.

إلا أن "يوتيوب" رفض الالتزام الكامل بالطلب لأن بعضاً من تلك الأشرطة "*غير عنيفة بالمعني القانوني أو لا تحض على الكراهية*"[١].

وتقول هنا روجان من مؤسسة أبحاث الدفاع النرويجية؛ أن المسؤولين عن مكافحة الإرهاب يدور بينهم نقاش حول إغلاق المواقع الجهادية على شبكة المعلومات أو تركها لمتابعتها، ويتعلق هذا النقاش أيضاً بالتوازن بين الأمن والحريات المدنية. وقد صدرت عدة قرارات وتصريحات أخيرة تدعو لمحاربة الدعاية الجهادية على الإنترنت، فمنها مثلاً قرار مجلس الأمن ١٦٢٤ (٢٠٠٥) الذي يدعو إلى أن:

"يحرم بالقانون التحريض على ارتكاب فعل أو أفعال إرهابية".

وكذلك خطة العمل لاستراتيجية الأمم المتحدة العالمية لمقاومة الإرهاب (A/RES/٦٠/٢٨٨)-٢٠٠٦ التي تدعو الدول الأعضاء إلى:

"جهود منسقة على المستويين العالمي والإقليمي لمحاربة الإرهاب بكل أشكاله ومظاهره على الإنترنت".

وكذلك إعلان قمة الثمانية (G-٨) في ١٦ يوليو ٢٠٠٦ الذي أكد على التعهد:

"بتطوير وتطبيق استراتيجية فعالة لمقاومة الدعاية والتجنيد الإرهابيين"[٢].

---

[١] شبكة الإخلاص الإسلامية/ المنتديات العامة/ منتدى الحدث (قضايا الأمة الإسلامية)- سيناتور أمريكي يطالب "يوتيوب" إزالة تسجيلات الشيخ أسامة- أحمد هاجر- ٢٠٠٨-٠٥-٢١، سلطان الجزيري- ٢٠٠٨-٠٥-٢١.

[٢] Al-Qaeda's online media strategies: From Abu Reuter to Irhabi ٠٠٧, P: ٤٦.

ولم يتوقف الأمر عند حجب النشر بل تعداه إلى اعتقال ومحاكمة وسجن كل من يستطيعون إثبات صلته بالإعلام الجهادي.

فينقل مارك تريفليان أن الجبهة العالمية الإسلامية الإعلامية ذكرت في بيان لها تخاطب الحكومات الغربية وأجهزة أمنها:

"بعد القبض على بعض الإخوة والإخوات -فك الله أسرهم- وبعد إزالة منتدى ومدونة الجبهة العالمية الإسلامية الإعلامية، نقول الآتي: إن الجبهة العالمية الإسلامية الإعلامية لازالت موجودة، وستواصل عملها، وللكفار الذين يحاولون أن يحاربونا، نقول: تستطيعون القيام بما تشاءون، وقوموا بما تشتهون من اعتقالات... لن تبلغوا أهدافكم. وسنواصل المسير دائماً حتى ننال النصر أو الشهادة" (١).

---

(١) Al Qaeda German mouthpiece resurfaces on the Web.

وممن اعتقلوا على ذمة قضية الجبهة العالمية الإسلامية الإعلامية محمد محمود في النمسا، وكان قد نشر البيان التالي على شبكة المعلومات:

"بيان من أسير إلي من يهمه الأمر

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

أنا الأسير محمد محمود، القابع في السجن ظلماً وعدواناً في النمسا، لا لشئ إلا أن أقول ربي الله، وأرفض الظلم الواقع على أمة الإسلام.

أعتقلت أنا وزوجتي بعد زواجنا بعشرة أيام بتهمة الإرهاب في القضية المعروفة بإسم الجبهة الإعلامية الإسلامية العالمية... تم إعتقالنا بطريقة وحشية، حيث تم تدمير منزل أهلي وضربي وإهانتي .. في يوم ١٢/٩/ ٢٠٠٧ اقتحمت قوة من القوات الخاصة النمساوية "كوبرا" مؤلفة من ٣٠-٤٠ جندي المنزل، حيث تم تفجير باب المنزل وتكسير أبواب الغرف وتكسير محتوياته.. انهال علي الجنود بالضرب والسب، اجتمع علي أكثر من ١٥ جندي، كبلوني ثم انهالوا علي ضرباً بدون سبب، سبوا الإسلام وسخروا منه.. أما زوجتي التي كانت عند أهلها، فقد اقتحم الجنود المنزل، وكسروا محتوياته، ثم اقتحموا غرفتها حيث كانت نائمة.. كشفوا عنها غطاءها.. وأجبروها علي الوقوف أمامهم لأكثر من ٢٠ دقيقة مصوبين أسلحتهم عليها، بدون السماح لها بأن تستر جسدها وتلبس حجابها... منذ الاعتقال تم تعذيبنا بأبشع الأساليب... حيث مُنعنا من النوم في العشرة أيام الأولى إلا نادراً.. حيث كان الجنود يمرون علينا في فترات متفاوتة، كل ساعة أكثر مرة من مرة، ويدخلون زنزاناتنا، ويجبرونا علي الوقوف أمامهم، حتى لا ننام... وفي الصباح يتم استدعاؤنا للتحقيق.. طبعاً كل على حدة.

في إحدى الأيام دخل الحارس ليلاً ، كنت أصلي.. أمرني بقطع صلاتي، فلم أستجب له.. حيث قام بسحبي بقوة من شعري، ثم نهال علي ضرباً بعصاة، ثم رطمني تجاه الحائط حتى سال الدم من أنفي.. أما

زوجتي كانوا يدخلون عليها، ويأمرونها أن تخلع حجابها.. فحينما ترفض يهددونها، ويسخرون منها ومن الإسلام... أحد الجنود قام بضربها ودفعها أرضاً بدون أي سبب.. حيث كانت حامل في شهرها الثالث، وأسقطت حملها، ولم يتحمل جسدها كل هذا التعذيب، قتلوا طفلنا قبل ولادته... كثيراً ما كانوا يتعمدون سب الله ورسوله، وهم واقفون خلف الزنزانة لاستفزازنا، وعندما يتم إحضارنا للمحامي أو الزيارة يتم تفتيشنا بطريقة مهينة للغاية.. حيث نجبر على الوقوف أمامهم عراة كما ولدتنا أمهاتنا حتى يفتشونا.. أثناء التفتيش نجبر علي إظهار الأعضاء التناسلية، حيث يتعمد الجنود إهانتنا بتفتيشها.. وعندما رفضت زوجتي كل هذه الإهانة، قامت الكومندون بتهديدها، بأنها إذ لم تستجب للتفتيش فإنهم سيحضرون جنوداً رجالاً، ليفتشوها ويخلعوا عنها ثيابها بالعنف.. عوملنا بعنصرية وعداوة لم يسبق لها مثيل.. منعنا من المشاركة في الأعياد مثل باقي المساجين المسلمين، ووضعوني مع مغتصبي الأطفال عمداً حتى يخطوني ويؤذوني... قال لي المحققون بأنهم اعتقلوا زوجتي حتى أعترف، لأنهم يعرفون أن أهم شيء للمسلم هو عرضه، كما يقولون، ولذلك إذا أنا أردت أن أوقف إنتهاك عرضي فعلي أن أعترف.. أول يوم وضعوني في غرفة ودخل علي ٧ جنود من ضمنهم أربع نساء.. كبلوني وضربوني، ثم عروني من ثيابي وجلسوا يضحكون، وهم يقولون: "نحن نعرف أكثر شئ يهينكم أيها الملاعين المسلمين".

كتبنا خطابات ورسائل لأكثر من جهة ووزارة، كل ما طلبناه هو معاملتنا مثل باقي المساجين واحترام ديننا لا أكثر... بل زادوا في تعذيبهم وأذيتهم.. حيث كانت المأمورة تتفنن في تعذيب زوجتي وإهانتها وتحطيم معنوياتها.. كانوا يتفننون في أساليب التعذيب والإهانة في فترة كانت زوجتي مريضة بالحمى.. طبعاً استغلوا هذة الفرصة، أجبرتها المأمورة على الوقوف في العراء في الثلج في فناء السجن حيث درجة الحرارة ١٠ تحت الصفر لأكثر من ساعتين، كانت علي وشك الموت لأكثر من مرة، كانوا يتفننون في تعذيبنا بعد ستة أشهر بدأت المحاكمة المزعومة.. ومنذ اليوم الأول قام القاضي بطرد زوجتي من المحكمة، وحرمها من الدفاع عن نفسها بسبب رفضها نزع النقاب وحجابها.. أما المحكمة فقد كانت محاكمة الإسلام في شخصنا، حيث زعم المدعي بأن الجهاد هو الإرهاب، وأن الشهادة معناها قتل الأبرياء وتفجير الأسواق... جريمتنا أننا نرفض احتلال بلاد المسلمين، ونقول أن من حق شعب أن يقاوم احتلال بلاده.. جريمتنا أننا نناصر مقاومة الاحتلال الأمريكي للعراق، ونقف مع المستضعفين في فلسطين والعراق وأفغانستان... أثناء جلسة المحكمة كان القاضي يقرأ نصوصاً من القرآن وأحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثم يسألني بخصوص هذة النصوص، وهل أومن بها؟ ويستخدمها إدانة.

في آخر جلسات المحاكمة قام القاضي بسب الحجاب والنقاب الشرعي، ووصفه باحتقار بالخرقة.. رفض القاضي السماح لنا بعرض أدلة إثبات براءتنا، ورفض حضور مختصين الكمبيوتر للشهادة.. باختصار رفض أي دليل قد يفضي إلي كشف زيف إدعاءاتهم وكذبهم، ومع ذلك فلقد شهد ٩ من الشهود أمام المحكمة بحقنا وبراءتنا، ومن ضمن هؤلاء الشهود شاهدين أكدا أمام المحكمة بأنهم أجبرا على الشهادة من قبل المخابرات على أقوال ضدنا أثناء التحقيقات وأكدوا براءتنا.. كما شهد أكثر من شخص بأني لم أكن موجوداً في المنزل يوم نشر شريط التهديد، ولكن القاضي ضرب بكل هذا عرض الحائط، وحُكم علينا بالسجن.. فحُكم علي بأربع سنوات، وعلى زوجتي بـ ٢٢ شهراً، هذا بعد حرماننا من أبسط حقوقنا؛ الدفاع عن أنفسنا. أثناء المحاكمة قام القاضي بعرض شريط ذبح الرهينة الأمريكي في العراق، وذلك للتأثير على المحلفين عاطفياً... برغم عدم وجود أي رابط بيننا وبين ذبح الأمريكي.. فلا نحن من أصدر هذا الشريط، ولا نحن من ذبحناه، ولا نحن من عرضنا هذا الشريط، بل هم من عرضوا هذا الشريط.. وفي أخر يوم للمحاكمة انهال علي الحراس بالضرب

وتقول هنا روجان من مؤسسة أبحاث الدفاع النرويجية؛ أن مواطناً كندياً قد ألقي القبض عليه بتهمة انتمائه للجبهة العالمية الإسلامية الإعلامية [١].

وتضيف بأن الحالات الأخيرة من المقبوض عليهم في أوروبا تدل على أن هناك عملاً متصاعداً[٢] قد بُدء بالشروع فيه، مثل القبض على يونس تسولي الذي كان يعرف على الشبكة بلقب (إرهابي ٠٠٧)، والذي أدين في يوليو ٢٠٠٧[٣] بالتحريض على القيام بأعمال إرهابية، وكذلك خمسة بريطانيين أدينوا في نفس الشهر لتنزيل والمشاركة في مواد متطرفة تتعلق بالإرهاب.

وكذلك فإن معظم المواقع الجهادية تعمل عبر موفري خدمة إنترنت (IPSs) غربيين وخاصة من الولايات المتحدة، الذين كثيراً ما يكونون غير مدركين لطبيعة عملائهم ولا لمحتوى الموقع، ويملك موفرو خدمة الإنترنت الصلاحية القانونية لإزالة المواقع التي تخالف القانون، أو تنتهك تعليماتهم، ولذا فإن السياسة المفضلة لدى بعض من يقاوم الإرهاب هو بإخطار هؤلاء الموفرين لخدمة الإنترنت عن هذه المواقع الجهادية التي يستضيفونها. وخلال صيف ٢٠٠٧ قامت بعض المبادرات الخاصة (بحملة إخطار) نتجت عن إغلاق حفنة من المواقع الجهادية[٤].

ومن الفقرات السابقة يتضح مدى النفاق الغربي والازدواجية في معاييره، فنشر صور قصف بغداد وأفغانستان، ودعوة بوش وبلير لغزو أفغانستان، ثم دعوتهما لغزو العراق بناء على أكاذيب تافهة، وإدلاء وزير خارجية أمريكا في مجلس الأمن ببيان كاذب مفترى عن أسلحة العراق للدمار الشامل وصلة القاعدة به، وأفلام الجنود الأمريكان عن قتالهم في أفغانستان والعراق، وتعذيبهم للمساجين فيه، ونشر صور معتقلي جوانتانامو، ونشر صور العدوان الرهيب على غزة في ديسمبر ٢٠٠٨ ويناير ٢٠٠٩،

المبرح أمام القاضي وهيئة المحكمة وأمام وسائل الإعلام المختلفة بدون أدنى سبب، وقد نقلت وسائل الإعلام بعض لقطات من هذا الظلم.

محمد محمود

رقم السجين ٨٦٠٢٣

مدينة يوسف Josefstadt". [من يعرف عن قضية الجبهة الإسلامية العالمية؟].

[١] Al-Qaeda's online media strategies: From Abu Reuter to Irhabi ٠٠٧, p: ٥٧.

[٢] تقصد عملاً ضد ما تسميه: الدعاية الجهادية على الإنترنت.

[٣] حكم على يونس تسولي بست عشرة سنة سجناً، وأدين معه كل من وسيم مغل وطارق الداور. لمزيد من التفاصيل عن قضيتهم راجع:

- Al-Qaeda's 'British propagandists.
- Al-Qaeda's ٠٠٧, The extraordinary story of the solitary computer geek in a Shepherds Bush bedsit who became the world's most wanted cyber-jihadis.
- إرهابي٠٠٧ من هو... كتاباته... انجازاته...ادخل لتعرف.

[٤] Al-Qaeda's online media strategies: From Abu Reuter to Irhabi ٠٠٧, P: ٤٧.

والدفاع عن إسرائيل على لسان بوش وأوباما وقادة الغرب، وأن ما قاموا به في غزة إنما هو للدفاع عن النفس، كل هذا ليس جريمة، ونشره وتوزيعه على أوسع نطاق على وسائط الإعلام الدولية الواسعة الانتشار ليس تآمراً على القتل والإرهاب، ولا تحريضاً عليه. ولكن أن ينشر مسلم أفلاماً أوصوراً أو أخباراً عما يقوم به المجاهدون في أفغانستان والعراق، فهذه جريمة كبرى لا بد من معاقبة فاعلها عقاباً يجعله عبرة لغيره.

وإرسال أمريكا وبريطانيا وحليفاتهما الغربيات لعشرات الألوف من الجنود للعراق وأفغانستان، وإمدادهما لإسرائيل بالمؤن والذخائر والأسلحة والدبابات والقنابل الذرية، كل هذا ليس تحريضاً على القتل ولا شروعاً فيه ولا ممارسة له، ولا يستحق أي تجريم أو تحريم أو عقاب، بل غالباً ما يستدعي الشكر والثناء. أما دعوة أي مسلم لإخوانه لصد العدوان عن إخوانهم المسلمين في العراق وأفغانستان والشيشان وفلسطين وغيرها فهو جريمة الجرائم، التي يجب أن تقمع وتمنع وتدفع ويعاقب عليها بأشد العقوبات.

إن الغرب الصليبي هنا يكشف عن سوأتين بشعتين:

الأولى: هي فوقيته في النظر لسائر بني البشر، وأن أهل الغرب يرون أنفسهم جنساً آخر، لا يجب أن يتساوى مع بقية الآدميين، فما هو حلال لهم، حرام على غيرهم حتى لو قاموا بجزء من الألف بل من المليون مما يقوم به أهل الغرب. وذلك أنهم يعتبرون أن الحرية هي حريتهم هم في أن يفعلوا بالآخرين ما يشاؤن، والديمقراطية هي حق أغلبيتهم في تقرير مصائر الآخرين، وأن هذه وأمثالها ممتلكات غربية لا يسمح لغيرهم بأن يشارك فيها إلا لمصلحتهم أو بالقدر الذي يسمحون له به.

الثانية: أن حرية النشر والتعبير -التي يتشدق بها الغرب زوراً- قد انكشفت وافتضحت وتعرت، وأصبحت مسخرة ومهزلة، وكل ذلك تم -بفضل الله وحده- على أيدي أهل الجهاد والرباط والتوحيد. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

***

الفرع الخامس:

كيف يخطط الصليبيون لحرب المجاهدين فكرياً؟

﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

چا ہے تو کرے کعبہ کو آتش کدہ فارس

چا ہے تو کرے اس میں فرنگی صنم آباد

قرآن بازیچہ تآویل بناکر

چا ہے تو خود ایک تازہ شریعت کرے ایجاد[١]

أتناول في هذا الفرع أمثلة للحرب الفكرية التي يشنها الصليبيون ومؤسساتهم وباحثوهم على المجاهدين خاصة والمسلمين عامة. والتي زادت وتصاعدت وتيرتها بصورة متعاظمة بعد الغزوات المباركات في نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا.

وتؤكد تشريل بينارد[٢] على:

---

[١] الشعر لشاعر الإسلام العلامة محمد إقبال رحمه الله. وترجمته:

يريدون أن يجعلوا الكعبة بيت نار فارس

يريدون أن يجعلوها بيت أصنام الإفرنج

يجعلون القرآن لعبة التأويل

يريدون إيجاد شريعة جديدة

[٢] تشريل بينارد كانت مديرة للبحث في معهد بولتزمان في النمسا، وهي مستشارة في مؤسسة راند بواشنطن، وهي أيضاً زوجة زلماي خليل زادة الأفغاني المهاجر لأمريكا، والذي التصق بالمحافظين الجدد، وكان يعد أحد رجال بول وولفيتز، وكان عضواً بمجلس الأمن القومي تحت رئاسة كونداليزا رايس، وقد عينه بوش سفيراً لأمريكا في أفغانستان ثم في العراق ثم في الأمم المتحدة. ولمزيد من التفاصيل حول تشريل بينارد وزوجها وكتابها عن الإسلام الديمقراطي المدني وأثره على السياسة الأمريكية يمكن مراجعة الحوار مع الدكتور عبد الله النفيسي في برنامج بلا حدود بقناة الجزيرة يوم ٢٣/ ٦/ ٢٠٠٤.

"أن فكرة -أن العالم الخارجي لا بد أن يحاول تشجيع تفسير وعرض حداثي وديمقراطي للإسلام- كانت رائجة لعدة عقود، ولكنها اكتسبت إلحاحاً ضخماً بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١"[1].

وسأقسم الكلام للمباحث الآتية:

١- المبحث الأول: محاربة العقيدة الجهادية.

٢- المبحث الثاني: حرب التشويه والكذب.

٣- المبحث الثالث: الضحالة الفكرية والعلمية.

٤- المبحث الرابع: ضرورة المواجهة الفكرية لحملة التضليل الصليبية.

٥- المبحث الخامس: التنبه للجانب السياسي والعسكري لحرب الصليبيين الفكرية.

---

[1] CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ١.

المبحث الأول: محاربة العقيدة الجهادية

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِـي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

"إنه يجب توقيف هؤلاء، ومنع المواقع الجهادية من التكاثر، ومن إيصال رسائلهم ودعاياتهم، يجب إقفال مواقعهم في الإنترنت، أما مفكروهم الذين يقرأون لمؤرخينا العسكريين الكبار، والذين يقومون بدراسة استراتيجيتنا العسكرية لاستغلالها ضدنا فيجب إسكاتهم" [١].

"لكي نكسب هذا الصراع، فلا بد في النهاية من إقناع المسلمين -بالبراهين أو باستخدام القوة- أن الأفكار الإسلامية الاستبدادية وخيمة العواقب" [٢].

سأحاول في هذا المبحث -بعون الله- أن أستعرض في إيجاز بعض الأمثلة للحملة الصليبية الفكرية في محاربة العقيدة الجهادية. وأقسم الكلام فيه تحت العناوين التالية:

١- تمهيد.

٢- ماذا يقصد الغرب بالمتشددين والسلفيين والأصوليين؟

٣- ماذا يقصد الغرب بالمعتدلين؟

٤- تشجيع ودعم من يسمون بالمعتدلين.

٥- الحرب ضد الجهاد يجب أن يقوم بها المنتسبون للإسلام من الزعماء والعلماء.

---

[١] الكلام لجاريت براتشمان في شريط (Le langage d'Al Qaida) من الدقيقة (٤٢،٠٦) إلى الدقيقة (٤٢،٣١). قاله تعليقاً على استدلالي بكلامه عن أهمية دعم أمريكا بالمال للمدخلي وتياره مدعي السلفية والإخوان المسلمين والشيعة في مواجهة التيار الجهادي. وجاريت براتشمان من الكتاب المهمين في مركز مكافحة الإرهاب بالجيش الأمريكي كما ذكرت آنفاً.

[٢] الكلام لجيمس فيليبس من محاضرة بعنوان (The Evolving Al-Qaeda Threat, p: ١٠).

٦- إنشاء إسلام لين مهادن أجدى من المواجهة الصريحة مع الإسلام.

***

١ - تمهيد.

يدرك الغرب الصليبي أن معركته مع المسلمين معركة عقائدية بالأساس، ولذا فإن الكتاب والمخططين الغربيين يولون أهمية قصوى لحرب العقائد والأفكار، ويدعون إلى محاولة تغيير عقائد المسلمين لتتماشى مع عقائد الغرب وأطماعه ومصالحه.

فقد أكدت وزارة الدفاع الأمريكية في تقريرها لمراجعة الدفاع الربع سنوي؛ أن الولايات المتحدة ضالعة في *"معركة بالأسلحة وأخرى بالأفكار"*، وأن النصر النهائي فيها سيحرز فقط *"عندما تُنبذ العقيدة الجهادية في أعين جماهيرها الداعمة وأنصارها الصامتين"*[(١)].

ويقول تقرير الكونجرس عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر:

"عدونا مزدوج: القاعدة وهي شبكة بلا دولة من الإرهابيين، التي ضربتنا في ٩/١١، وحركة أصولية عقائدية في العالم الإسلامي، تستلهم جزئياً من القاعدة، التي تفرخ المجموعات الإرهابية والعنف عبر العالم.

أما العدو الأول فقد أضعف، ولكن يستمر مشكلاً تهديداً خطيراً. والعدو الثاني يتجمع، وسيهدد الأمريكان والمصالح الأمريكية طويلاً بعد قتل أو القبض على بن لادن وجماعاته.

ولذا فإن استراتيجيتنا لا بد أن تتفق مع وسائلنا على طرفين: تفكيك شبكة القاعدة، والانتصار -في المدى الأبعد- على العقيدة التي أنتجت الإرهاب الإسلامي"[(٢)].

ويذكر نفس التقرير أيضاً:

"باختصار فإن على الولايات المتحدة أن تساعد في هزيمة عقيدة، وليس مجموعة من الأشخاص.

كيف يمكن للولايات المتحدة وأصدقائها أن يساعدوا المسلمين المعتدلين في مواجهة الأفكار المتطرفة؟

توصية: على الولايات المتحدة أن تحدد ما هي الرسالة؟ وماذا تؤيد؟

---

(١) U.S. Department of Defense, *Quadrennial Defense Review Report*, February ٦, ٢٠٠٦, pp. ٢١-٢٢.

نقلته عن: BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: xv & xvi.

(٢) ٩/ ١١ COMMISSION REPORT P: ٣٦٣.

لا بد أن نقدم مثالاً للريادة الأخلاقية في العالم، بالعزم على معاملة الناس بإنسانية، والالتزام بحكم القانون وأن نكون كراماً مع جيراننا.

ويمكن لأمريكا وأصدقائها المسلمين أن يتفقوا على احترام الكرامة الإنسانية والفرصة.

وبالنسبة للآباء المسلمين فالإرهابيون مثل بن لادن ليس لديهم ما يقدمونه لأطفالهم إلا رؤى من العنف والموت. ولكن أمريكا وأصدقاءها لديهم ميزة حاسمة، فنحن نستطيع أن نوفر لهؤلاء الآباء رؤية قد توفر لأطفالهم مستقبلاً أفضل. لو أننا انتبهنا لآراء الزعماء عميقي التفكير في العالم العربي والإسلامي فيمكن أن يتحقق إجماع معتدل"[1].

وألفت نظر القارئ إلى النفاق الظاهر في العبارات الآنفة، حيث يصر الأمريكان على أنهم أهل للريادة الأخلاقية للعالم متناسين مدى الجرائم والإفساد الذين مارسوهم في حق البشرية عامة وفي حق المسلمين خاصة.

وكأنهم أحسوا بعدم مصداقية عباراتهم فأشاروا عقب ذلك إلى أن السياسة الخارجية الأمريكية جزء من الرسالة، التي أشاروا إليها من قبل، وأن اختيارات السياسة الأمريكية لها تبعاتها، وبغض النظر عن صحة وصواب تلك السياسة فإن سياسة أمريكا تجاه الصراع العربي الإسرائيلي وأعمالها في العراق هي جزء أساسي من النقاش العام في العالم العربي والإسلامي[2].

أما إنجِل راباسا وزملاؤها من مؤسسة راند فيذكرون أن؛ الصراع الجاري الآن في معظم العالم الإسلامي هو أساساً حرب للأفكار، وأن حاصله سيؤثر على مستقبل العالم الإسلامي وعلى استمرار تهديد الإرهاب الإسلامي وكذلك سيؤثر بقوة على أمن الغرب[3].

ويذكر روهان جواناراتنا[4] أن:

"التهديد الإرهابي اليوم قد تعدى الشخص والمجموعة إلى العقيدة. وحتى لو قتل أو قبض على بن لادن أو استراتيجيه الرئيسي أيمن الظواهري فإن التهديد الإرهابي لن يقل. وحتى لو دمرت القاعدة تماماً فإن التهديد الإرهابي سيستمر.

---

(١) ٩/ ١١ COMMISSION REPORT P: ٣٧٦.

(٢) ٩/ ١١ COMMISSION REPORT P: ٣٧٦ & ٣٧٧.

(٣) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: iii.

(٤) روهان جواناراتنا هو رئيس المركز الدولي لبحث العنف السياسي والإرهاب في معهد الدفاع والدراسات الاستراتيجية في سنغافورة، وزميل أكبر في مركز مكافحة الإرهاب التابع للجيش الأمريكي. وهو صاحب كتاب (داخل القاعدة)، الذي ذكر فيه أن خصوم الشيخ عبد الله عزام –رحمه الله– المصريين يعتقد أنهم قد قتلوه، ونقل عنه هذه الكذبة تقرير الكونجرس عن الحادي عشر من سبتمبر، كما سيأتي إن شاء الله.

لقد استطاعت القاعدة بطرق عديدة أن تكمل مهمتها بأن تكون الطليعة أو رأس حربة الحركات الإسلامية، التي تطلع إليها عزام. وقبل أن تموت ستكون قد ألهمت جيلاً من المجموعات الحالية، وأوضحت الطريق لجيل ناشئ منها.

ولذا فإنه من اللازم تطوير استراتيجية حقيقية متعددة المستويات لتواجه الطبيعة المتعددة الأبعاد للإسلاميين العنيفين. وبدلاً من استهداف الخلايا الإرهابية المحددة تكتيكياً فإنه من الضروري منع تكون الإرهابيين استراتيجياً.

إن كتلة الدول ذات النفوذ في الغرب لا بد أن تعمل مع البلاد الإسلامية —بحكوماتها ومنظماتها الغير حكومية– لاستهداف العقيدة، التي تصنع الإرهابي.

لا بد من توجيه رسالة؛ أن القاعدة ومنظماتها المشاركة لها ليست منظمات قرآنية، وأنها تمثل نسخة فاسدة من الإسلام، عن طريق إساءة تفسير وإساءة تمثيل القرآن والنصوص الأخرى.

ولا يمكن أن يقل التهديد الإرهابي الحالي والناشئ إلا بمجابهة اعتقاد (أن المسلم الصالح يجب أن يجاهد[1]).

ولأن القاعدة تتكيف دائماً مع الواقع الأمني المتغير، وتحور من تركيبها، فإن مفتاح هزيمة القاعدة وتقليل التهديد الإرهابي هو بتطوير استراتيجية متعددة الجنسيات والتشريعات والمنظمات لمواجهة هذه العقيدة"[2].

وتقسم تشريل بينارد المسلمين إلى: أصوليين وتقليديين وحداثيين وعلمانيين، ثم تقول:

"لكي يشجعوا التغيير الإيجابي في العالم الإسلام -تجاه ديمقراطية أكثر وحداثة وتوافق مع نظام العالم الدولي المعاصر[3]- فإن الولايات والغرب يحتاجون لأن يحددوا بعناية شديدة أي العناصر والاتجاهات والقوى داخل الإسلام ينوون أن يقووها"[1].

---

(١) أي أنه يطالب بإسقاط ومحاربة فرضية الجهاد العينية في هذا الزمان ضد الغزاة الكفار المحتلين لديار الإسلام، حتى تنعم هذه القوات الغازية بالأمن والسلامة، وتستمر في سرقة ثروات المسلمين وتقسيم أراضيهم وتوسيع رقعة إسرائيل. ومن هنا يتبين المقصد الخبيث وراء تلك البحوث وأولئك الباحثين. ورغم أن كل أمم الأرض تعتبر أن مقاومة الغازي المعتدي حق طبيعي، إلا إن هذا الحق محرم على المسلمين، لأن البحث المسمى بالعلمي والإعلام والدعاية كلهم يعملون ضمن منظومة الحملة الصليبية ضد الإسلام والمسلمين. ثم يزيد الأمر وضوحاً بذكره أن التهديد الإرهابي الحالي والقادم لن يقل إلا بمحاربة هذه الفرضية العينية. أي باستسلام الأمة المسلمة للغزو الصليبي اليهودي، وحينئذ يصبح المسلمون معتدلين بريئين من تهمة الإرهاب، أما إذا قاوموا فهم إرهابيون.

(٢) The Post-Madrid Face of Al Qaeda, p: ٩٩ & ١٠٠.

(٣) ألفت انتباه القارئ لما ذكرته الكاتبة من أن أحد أهم أهداف أمريكا في مهاجمة الإسلام هو جعل العالم الإسلامي أكثر توافقاً مع النظام الدولي المعاصر، أي بعبارة أوضح: أكثر استسلاماً للقوى الحاكمة في العالم، وعلى رأسها أمريكا. وسأتناول هذا

ثم تقدم خطة لجعل العالم الإسلامي أكثر ديمقراطية وحداثة وتوافقاً مع الغرب، تلخصها فيما يلي:

" شجع الحداثيين أولاً[٢].*

- انشر ووزع أعمالهم بأسعار مدعومة[٣].

- شجعهم على أن يكتبوا لجماهير القراء وللشباب.

- أدخل آرائهم في مناهج التعليم الإسلامي[٤].

الهدف بشيء من التفصيل في المبحث الخامس -إن شاء الله- بعنوان (التنبه للجانب السياسي والعسكري لحرب الصليبيين الفكرية).

[١] CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: x.

وللدكتور عبد الله النفيسي تعليق جيد على هذا الكتاب في برنامج (بلا حدود) بقناة الجزيرة يوم ٢٣/ ٦/ ٢٠٠٤.

[٢] لاحظ أنها زعمت أن هذه الخطة تهدف -من ضمن أهدافها- لجعل العالم الإسلامي أكثر ديمقراطية، رغم أنها اعترفت قبيل ذلك بأسطر بأن الحداثيين والعلمانيين لا شعبية لهم في العالم الإسلامي، رغم أنها تعتبرهم حلفاء الغرب الأقرب له، الذي يجب عليه دعمهم، أي أنها تطالب بدعم الأقلية ضد الأغلبية، وهذا يهدم ويفضح ويناقض دعوتها للديمقراطية، وهذا التناقض في الفكر الغربي المعاصر يتكرر كثيراً، حتى يكاد أن يكون سمة من سماته، وسوف أتعرض بإذن الله لهذه النقطة بتفصيل أكثر إن شاء الله، ولكني هنا أكتفي بالتنبيه على تناقض دعاة الديمقراطية والحداثة أولئك.

[٣] أي بالتمويل والدعم الغربي الصليبي.

[٤] يلاحظ هنا تحريضها للغرب على تغيير مناهج التعليم في العالم الإسلامي، وحشوها بآراء الحداثيين أولياء الغرب.

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ محمد قطب حفظه الله:

"من كل الجوانب إذن كان لا بد للغازي الصليبي أن يبدأ عمله -بعد استتباب أوضاعه العسكرية- بتنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم..

ولكن هذه الخطوة وحدها لم تكن لتكفي..

فما الذي يمنع المسلمين من محاولة العودة إلى الشريعة؟

....

لا بد من تنفيرهم من الشريعة بحيث لا يفكرون في العودة أبداً

....

وذلك الذي خطط له الغزو الصليبي عن طريق "الغزو الفكري" بدءاً بمناهج التعليم، ومروراً بوسائل الإعلام.

وضعت مناهج تعليمية "علمانية" بدلا من المناهج الدينية التي كانت تعلم الناس أن الإسلام هو الأصل في حياة المسلمين، وأنه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون..

وحقيقة أن " التعليم الديني " الذي كان قائما يومئذ لم يكن هو الصورة الصحيحة للتعليم الديني كما ينبغي أن يكون، ولم يكن يخرّج المسلم الحق الذي يعرف حقيقة دينه ويمارسه على وعي وبصيرة، كما أنه كان خلواً من العلوم الكونية التي كانت تشكل جزءا أساسياً منه يوم كان المسلمون في الأندلس وغيرها من بلاد الإسلام هم المتعلمين حقاً في الأرض، وهم سادة الأرض..

....

وفي تلك المناهج العلمانية لم يكن هناك مجال للعلوم الشرعية، ولكن هناك حصة دين بائسة توضع في آخر الجدول المدرسي، والتلاميذ يتثاءبون من رغبة النعاس وإجهاد الدراسة اليوم بطوله، وينتظرون دق الجرس لينفلتوا من القيد، ويخرجوا إلى الطريق. ويندب لها من المدرسين أكبرهم سنا وأعجزهم عن النشاط والحركة وأدناهم إلى الفناء. والدرس ذاته عبارة عن نصوص تستظهر دون اهتمام بشرح معانيها وإحيائها في القلوب لتحريك الوجدان الديني في نفوس التلاميذ وربط قلوبهم بالله سبحانه وتعالى برباط متين.. ولن تكون نتيجة ذلك الدرس تعلق الصغار بدينهم، بل الأحرى تنفيرهم منه وإبعادهم عنه..

وفي درس التاريخ الإسلامي بالذات جرعة أخرى من السم تبعد الدارسين عن الإسلام وتلوي أعناقهم إلى الغرب ثم تستعبدهم له.. فبعد دراسة البعثة المحمدية يختصر التاريخ الإسلامي إلى جانبه السياسي وحده -وهو الذي وقع فيه أشد الانحراف في حياة المسلمين- ويطمس على الجانب العقدي، والجانب الحضاري، والجانب العلمي، والجانب الاجتماعي، وكيف فتح المسلمون البلاد لا للاستغلال الاقتصادي أو شهوة الغلبة والفتح ولكن لنشر الدعوة وإزالة الجهالة وتحويل البلاد إلى الأخوّة الإيمانية والسماحة الدينية.. وكأن تاريخ المسلمين كله لم يكن إلا صراعات على الحكم وشهوة السلطان! فإذا فُرّغ التاريخ الإسلامي من محتواه المشرق الحي، وركز على انحرافات ذلك التاريخ وحدها، وُجّه الطلاب إلى تاريخ أوربا.. فركّز على التقدم العلمي والحضاري وعلى الديمقراطية وحقوق الإنسان، وطمس على الاستعمار وجرائمه البشعة، وإذلال الشعوب واستلاب خيراتها، وطمس على التحلل الخلقي والروح المادية الصلدة والفساد العقدي وتقطع روابط الأسرة والمجتمع.. فتكون نتيجة تلك الدراسة بذر بذور النفور من التاريخ الإسلامي، وعدم التعلق بأمجاده، وعدم الاعتزاز به، والتوجه في الوقت ذاته إلى الغرب والتعلق به ومحاولة اللحاق به، أو بالأحرى اللهاث وراءه..

....

بل درّس في المدارس العلمانية ما هو أسوأ من ذلك!

درس للطلاب في درس الجغرافيا أن بلاد العالم الإسلامي متخلفة بسبب حرارة الجو التي تدعو إلى الكسل والخمول بينما الجو البارد في أوربا يبعث على النشاط والحركة. ومتخلفة لأنها زراعية لا يوجد فيها فحم ولا حديد، بينما أوربا متقدمة لوجود الصناعة فيها بسبب وجود الفحم والحديد! ومؤدى ذلك أن التخلف لعنة أبدية مكتوبة على العالم الإسلامي، بسبب ظروف قاهرة لا يد للإنسان فيها مهما حاول!

....

ثم.. لما كبر التلاميذ، وصاروا طلاباً في المدارس الثانوية وفي التعليم العالي درّس لهم ما هو أسوأ من ذلك!

درس لهم أن أوربا كانت تعيش في الظلمات بسبب سيطرة الدين على حياتها، وأنها لم تتقدم ولم تتحضر إلا بعد أن نبذت دينها.. وأن الواقع السيء الذي يعيشه المسلمون اليوم هو بسبب الدين الذي يتمثل فيه الجهل والخرافة، وأنهم لن يتقدموا ويتحضروا إلا حين يفعلون كما فعلت أوربا، فينبذون دينهم، ويتحررون من أغلاله..

وما أصدق المقولة الأولى ، وما أكذب الثانية!

....

ويجيء في هذا الصدد كلام الأب زويمر في مؤتمر القدس التنصيري عام ١٩٣٥م، حيث كان عدد من المنصرين قد شكا من الفشل الذريع في تنصير المسلمين على الرغم من كل الجهود المبذولة في ذلك، فرد عليهم زويمر مبينا أن الهدف ليس تنصير المسلمين، وإنما هو صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وإن المنصرين نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً، بفضل المدارس التنصيرية، ومناهج التعليم التي وضعها المنصرون للبلاد الإسلامية" .

[العلمانيون والإسلام ص: ٩٠ إلى ٩٥].

- وفر لهم منصة جماهيرية[(١)].

- اجعل آرائهم وأحكامهم المتعلقة بالأسئلة الأساسية في التفسير الديني متوفرة لعامة الجمهور، في تنافس مع تلك التي للأصوليين والتقلديين، الذين لديهم مواقع على الشبكة ودور نشر ومدارس ومعاهد ووسائل أخرى كثيرة لنشر أفكارهم.

- ضع العلمانية والحداثة كخيار ثقافي مضاد أمام الشباب الساخط[(٢)].

- يسر وشجع الوعي بتاريخهم وثقافتهم قبل الإسلام والمخالفة له[(٣)] في الإعلام والمناهج بالدول المناسبة.

- ادعم تطور المنظمات المدنية المستقلة، حتى تدفع الثقافة المدنية، وتوفر مساحة للمواطنين العاديين ليتعلموا بأنفسهم ما يتعلق بالعملية السياسية، ويبينوا آراءهم.

* ساند التقليديين ضد الأصوليين.

- روج نقد التقليديين لعنف وتطرف الأصوليين[(١)].

---

(١) مثل الصحف والقنوات الفضائية المدعومة من أمريكا.

(٢) وهذا يوضح البعد الأمريكي لكثير من الدعوات العلمانية والحداثية.

(٣) يقول العلامة محمود شاكر رحمه الله عن نشأة هذا المخطط المعادي للإسلام في مصر:

"ومضت الأيام والسنون، حتى جاء الاحتلال الإنجليزي في ثاني ذي القعدة سنة ١٢٩٩هـ (١٥ سبتمبر ١٨٨٢م)، وبدأ يرسخ قدميه في البلاد، وبعد قليل رأى الحزب الذي أنشأه الاستشراق الفرنسي غالباً على جمهور طلبة المدارس، فبدأ الاستشرق الإنجليزي يدمر كل ما أنشأه الفرنسيس من مدارس ويهشمها، فلما استقرت أقدام الاحتلال الإنجليزي في مصر، رأى الاستشراق الإنجليزي أن يبدأ في تكوين حزب قوي يناصره عن طريق التحكم في التعليم، فأسند أمر التعليم إلى قسيس مبشر عات خبيث هو (دنلوب).

....

وجاء (الاستشراق الإنجليزي) ليحدث في ثقافة الأمة المصرية صدعاً متفاقماً أخبث وأعتى من الصدع الذي أحدثه (الاستشراق الفرنسي)، ووضع دنلوب أسس (التفريع) الكامل لطلبة المدارس المصرية، أي تفريغ الطلبة من ماضيها المتدفق في دمائها مرتبطاً بالعربية والإسلام، ومهد إلى ملئه بماض آخر بائد في القدم والغموض، لم يبق من ثقافته شيء البتة، ليزاحم هذا الماضي الفارغ بقايا الماضي المتدفق الحي الذي يوشك أن يتمزق ويختنق بالتفريغ المتواصل، ويجعل أجيال طلبة المدارس في حيرة مدمرة بين انتمائين، بين الانتماء إلى الثقافة العربية الإسلامية الواضحة في كتب أسلافهم، وبين الانتماء إلى الفرعونية التي بادت وبادت ثقافتها، ولم يبق منها إلا أطلال من الحجارة، مهما بلغت في العظمة والجلال، فهي فارغة من ثقافة حية تتدفق في القلوب والعقول والألسنة، إنما هي آثار، لا تغني شيئاً، ولا تؤتي ثمرة.

وأيضاً فإن هذا التفريغ سوف ينشئ أجيالاً من (تلاميذ المدارس) تنهتك علاقتها التي تربطها بثقافتها العربية والإسلامية اجتماعياً وثقافياً ولغوياً، حتى يتم تفريغها تفريغاً كاملاً من ماضيهم كله، ثم يملأ هذا الفراغ علوم وآداب وفنون لا علاقة لها بماضيهم، وإنما هي علوم الغزاة، وفنون الغزاة، وآداب الغزاة، وتاريخ الغزاة، ولغات الغزاة. ومع كل ذلك، فإن هذا القدر من العلوم والفنون والآداب إنما هي قشور ومقتطفات توهم النفوس الظامئة المفرغة بأنها نالت شيئاً يذكر، والحقيقة أنها نالت غذاء تعيش به موتى في صورة أحياء لا غير". [رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص: ١٤٧ إلى ١٤٩].

- ثبط التحالفات بين التقليديين والأصوليين.

- شجع التعاون بين الحداثيين والتقليديين القريبين منهم.

- علِّم التقليديين -عندما يكون مناسباً- لترقي قدرتهم على الجدال مع الأصوليين ......

- زد من حضور ومكانة الحداثيين في مؤسسات التقليديين.

- فرق ما بين قطاعات التقليديين المختلفة. وشجع من لديهم القابلية للحداثة، مثل المذهب الحنفي[٢] في مقابل الآخرين. وشجعهم على إصدار آراء دينية، وعممها لتضعف من سلطة الأحكام الدينية المتخلفة المتأثرة بالوهابية.

---

[١] وهذا يدعو للنظر بتمعن وتحقيق لدعوات التهجم والاستنكار والاتهامات الملفقة ضد المجاهدين، التي تصدر من العلماء الرسميين وشبه الرسميين، الذين وإن لم تكن لهم وظائف رسمية، ولكنهم يتمتعون برعاية وعطف رسمي من أكثر من دولة، يفوق ما يتمتع به العلماء الرسميون.

[٢] القول بأن المذهب الحنفي أكثر قابلية للحداثة الصليبية من غيره من المذاهب، قول ناتج عن جهل أو سوء قصد، أو ربما الاثنين معاً. فالمذهب الحنفي هو مذهب الدولة العثمانية، التي دافعت عن العالم الإسلامي لخمسة قرون ضد المطامع الغربية، ومدرسة شاه ولي الله الدهلوي -رحمه الله- في الهند هي التي رفعت علم الجهاد ضد البريطانيين، ويذكر التاريخ فتوى ولده شاه عبد العزيز -رحمه الله- الشهيرة بأن الهند قد صارت دار حرب لاحتلال الإنجليز لها، ووجوب الجهاد على مسلمي الهند لطرد الغزاة منها. وهي الفتوى التي قامت عليها حركة السيد أحمد عرفان الشهيد -رحمه الله- الجهادية [الإمام المجدد والمحدث الشاه ولي الله الدهلوي- حياته ودعوته ص: ٢٢٠]. والأحناف في أفغانستان هم الذين طردوا الروس والشيوعيين، والأحناف من الطالبان هم الذين تحدوا أمريكا، ورفضوا الاستسلام لأوامرها بتسليم أسامة بن لادن لها، وهم الذين يذيقونها الهزائم في أفغانستان. هذه واحدة.

أما الثانية؛ فهي أن ما تطالب به الكاتبة وأمثالها من القائمين بالحرب الفكرية -الفاشلة بحمد الله وعونه- ضد الإسلام والجهاد يتصادم مع أصول عقائد كل المسلمين وليس مع الأحناف أو غيرهم من مذاهب المسلمين، فهم يطالبون المسلمين بإلغاء حاكمية الشريعة، وبإسقاط فرضية الجهاد العيني، ويطالبون باعتبار القرآن وثيقة تاريخية لا واقع لها الآن، وباعتبار الأحاديث مرجعاً لا يمكن الاستناد إليه، ويطالبون المسلمين بالاستسلام للنظام الدولي المعاصر ولما يسمونه بالشرعية الدولية، ويعتبرون العلمانيين الذين يرفضون الإسلام -بل والدين أي دين أصلاً- تياراً إسلامياً، يجب على المسلمين أن يقتدوا بهم في تهريج فكري يثير السخرية والشفقة، إلى آخر ما سأعرض بعضه في الصفحات القادمة إن شاء الله، وهذه قضايا من أصول العقيدة الإسلامية، من خرج عليها لا يمكن أن يكون مسلماً، ولا يختلف في ذلك مسلم حنفياً كان أو شافعياً أو منتمياً لأي مذهب إسلامي.

أما الثالثة فهي أن الكاتبة لم تدلل على هذا القول الساقط بأي دليل معتبر، وهو دأب كررته كثيراً، بل والأدهى -وهو ما سأعرض له لاحقاً إن شاء الله- أنها لم تدرج في مراجعها في كتابها هذا عن الإسلام الديمقراطي المدني (CIVIL DEMOCRATIC ISLAM) ولا في كتابها الآخر -الذي شاركت في تأليفه- عن بناء شبكات مسلمة معتدلة (BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS) أي مرجع إسلامي سواء القرآن الكريم أو كتاب من كتب الحديث الأساسية ولا أمهات كتب العقيدة والتفسير والفقه، وهذا يدلل على ضحالة القسم الأكبر من هؤلاء الباحثين، الذين يودون أن يرشدوا المسلمين ليغيروا من أصول دينهم، وهم لم يقرأوا عنه شيئاً من مراجعه الأساسية.

....

- شجع شعبية وقبول الصوفية.

** واجه وعارض الأصوليين.*

- تحد تفسيرهم للإسلام، واكشف أخطاءهم.

- وضح علاقاتهم بالمجموعات والأنشطة الغير قانونية.

- اظهر عجزهم عن الحكم، أو أن يحققوا تطوراً إيجابياً لبلادهم ومجتمعاتهم.

- وجه هذه الرسائل خاصة للشباب وجمهور التقليديين الأتقياء وللأقليات المسلمة في الغرب وللنساء.

- تجنب إظهار الاحترام أو الإعجاب بأعمال الأصوليين والمتطرفين والإرهابيين العنيفة. وصمهم بالمنحرفين الجبناء وليس بأبطال الشر.

- شجع الصحفيين على التحقيق في مسائل الفساد والنفاق واللاأخلاقية في دوائر الأصوليين والإرهابيين[1].

- شجع الفرقة بين الأصوليين.

** ادعم العلمانيين بانتقاء*[2].

- شجع تصور الأصولية كعدو مشترك.

- ثبط تحالف العلمانيين مع القوى المناوئة للولايات المتحدة على أسس القومية والعقيدة اليسارية.

---

[1] لاحظ أن هذه الكاتبة وأمثالها يخلطون عن عمد خبيث بين الأسر الحاكمة في جزيرة العرب والخليج وبين التيارات الإسلامية التي تعلن الجهاد على الغرب الصليبي وعملائه من أمثال تلك الأسر، ويعتبرون الجميع أصوليين ووهابيين إلى آخر تلك الأوصاف، ويحملون التيارات الإسلامية المجاهدة أوزار أولئك الفاسدين المنحرفين.

[2] ألفت انتباه القارئ هنا لأمرين:

الأول: أن الأمريكان والصليبيين لا يكتفون من العلمانيين بمعاداتهم وانسلاخهم من الإسلام فقط، بل لا بد ألا يعادوا المصالح والسياسات الأمريكية.

الثاني: أن الكاتبة -في هذا الكتاب الذي صدر عام ٢٠٠٣- تستبعد من الرعاية الأمريكية العلمانيين ذوي التوجهات القومية واليسارية والمناوئة للولايات المتحدة. إلا أنها في الكتاب الذي شاركت في تأليفه (بناء شبكات إسلامية معتدلة) -وصدر عن مؤسسة راند أيضاً في عام ٢٠٠٧- قد تساهلت في شروط قبول العلمانيين لحضن الرعاية الأمريكية، فقد قُسِم العلمانيون لثلاثة أقسام: العلمانيون المتحررون والعلمانيون أعداء رجال الدين والعلمانيون الاستبداديون من أمثال البعثيين والناصريين والشيوعيين الجدد والملتصقين بالأنظمة المستبدة. واستبعد فقط من أحقية الدعم والرعاية الأمريكية القسم الأخير.

[BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٧٠ & ٧١.]

فهل هذا التساهل نتج عن إدراك جديد مفاده أن الأغلبية الساحقة من العلمانيين بما فيهم من يعادي الولايات المتحدة لا خطر منهم على مصالحها، وأنهم على استعداد بل يرحبون بقبول الدعم والرعاية الأمريكية؟

- ادعم فكرة أن الدين والدولة يمكن أن ينفصلا في الإسلام أيضاً. وأن هذا لا يهدد الإيمان، بل في الحقيقة قد يقويه"[1].

وتذكر إنجل راباسا وزملاؤها في كتابهم (ما بعد القاعدة) الصادر عن مؤسسة راند؛ أن صناع السياسة عليهم أولاً أن يتدارسوا السبل الكفيلة بمهاجمة عقيدة القاعدة. لأن العقيدة هي مركز ثقل الظاهرة الجهادية العالمية. ولذا فلا بد من رصد انتشار أو تراجع العقيدة الجهادية العالمية، لأن العقيدة لو أخذت في الانتشار في العالم الإسلامي فسينضم مزيد من الإرهابيين لصفوف القاعدة والجماعات المرتبطة بها. والعكس بالعكس.

ولهذا فلا بد للاستراتيجية الشاملة للولايات المتحدة أن تتخطى حدود نظرية مقاومة التمرد التقليدية لتتعامل مع العوامل العقائدية والسياسية.

وعموماً فإن لهذه الاستراتيجية أربع شعب: أولاً: هاجم الأسس العقدية للجهاد العالمي، ثانياً: اسع في قطع العلائق -العقدية وغيرها- ما بين المجموعات في عناقيد السديم الإرهابي وبين الجهاد العالمي، ثالثاً: احرمهم من الملاذات، رابعاً: قوِ إمكانات دول المواجهة ومجموعات المجتمع المدني المعتدلة في مواجهة التهديدات الجهادية المحلية[2]، لكي تحرم القاعدة من الملاذات المحتملة وتقلل عناقيد الحركة الجهادية العالمية[3].

إذن نحن أمام حرب فكرية تصعد أمريكا والغرب الصليبي من وتيرتها ضد الإسلام والمسلمين، ازدادت حدتها بعد الغزوات المباركات في الحادي عشر من سبتمبر، وتهدف - في زعم أنصارها- لتحويل المسلمين عن عقائدهم الثابتة لعقائد أخرى، يرضى عنها الغرب الصليبي، وتجعل المسلمين منسجمين مع النظام الدولي المعاصر.

ولتوضيح المعالم الأساسية لتلك الحرب الفكرية بإيجاز أحاول أن أقدم للقارئ المنصف -مسلماً كان أو غير مسلم- فكرة عن من هم المتشددون؟ ومن هم المعتدلون؟ في نظر مفكري الغرب الصليبي، وكيف يمكن دعم الأخيرين؟ في زعمهم.

---

(١) CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: xi to xii.

(٢) ترجمة هذا عملياً هو دعم وإعانة مؤسسات القهر والتعذيب في بلادنا، وإرسال المعتقلين لهم ليتم تعذيبهم وحبسهم في سجون سرية لمدد غير محددة. ولتحيا قيم الحرية الأمريكية. وقد افتضحت هذه السياسة، ولم يعد بالإمكان إخفاؤها، وشهد بها حتى الرسميين الغربيين، فمنهم مثلاً سفير بريطانيا في أوزبكستان، الذي اتهم أمريكا بإرسال المشتبه بكونهم إرهابيين لأوزبكستان ليتم التحقيق معهم بالتعذيب.

[Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Torture]، وراجع أيضاً في نفس الموسوعة:

[Central Intelligence Agency/ Secret Prisons, Torture, and Renditions]

(٣) Beyond al-Qaeda, p: xxiii & xxiv.

***

٢- ماذا يقصد الغرب بالمتشددين والسلفيين والأصوليين؟

سوف نرى في الإجابة على هذا السؤال أن مفكري وكتاب الحملة الصليبية يعتبرون كل مسلم يطالب بتطبيق الشريعة أو إقامة الدولة الإسلامية متطرفاً، أي أنهم يعتبرون المسلمين متطرفين. لأن من ينكر وجوب تطبيق الشريعة ليس مسلماً.

تقول إنجِل راباسا وزملاؤها من مؤسسة راند؛ أن الكثير من المنظمات الإسلامية المعترف بها من الحكومات الأوروبية، والتي تعتبر نفسها معتدلة، هي في الحقيقة سلفية التفكير أو على علاقة بتنظيمات متطرفة، ويضربون مثالاً على ذلك بنديم إلياس الرئيس السابق للمركز الرسمي الألماني الإسلامي في هولندا، فهو في نظرهم ليس معتدلاً، لأنه لا يؤيد علانية، ولا يستنكر صراحة تطبيق الشريعة وتعدد الزوجات والعقوبات الإسلامية مثل الرجم[١].

أي أنهم لا يرضون منه بأقل من الرفض العلني لأحكام الشريعة الإسلامية حتى يكون معتدلاً.

ويضربون أيضاً مثالاً بالأئمة من الدانمارك، الذين كانوا يظن بأنهم معتدلون، وكانوا يتلقون لذلك دعماً حكومياً، ولكن تبين أنهم غير معتدلين على الإطلاق، فقد تسببوا في ضجة هائلة، بحملتهم ضد الرسوم الكرتونية المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم، التي انتشرت في أرجاء الدنيا[٢].

وكذلك المجلس الإسلامي ببريطانيا، لا يعتبرونه هيئة معتدلة، رغم أن المجلس يصف نفسه بذلك، وذلك لأنه على علاقة بمنظمات باكستانية متطرفة مثل الجماعة الإسلامية، وجمعية أهل الحديث، التي تزعم أن اليهود يسعون للسيطرة على العالم، واتحاد المسلمين في بريطانيا، الذي يجيز العمليات الانتحارية -حسب وصفهم- ضد المدنيين في إسرائيل. وكذلك فإن للمجلس تاريخاً في الدفاع عن الأصوليين الإسلاميين، كما حدث عندما أيد حزب التحرير لما سعى بلير في حظره[٣].

ولا يرحبون بفوز حركة حماس في فلسطين، التي يعتبرونها من الإسلاميين الأصوليين، ويقولون إن فوزها في الانتخابات يعطي مثالاً ظاهراً على أن العملية التحررية قد تؤدي لنتائج غير تحررية، مما يزيد القلق بشأن الضغط على الأنظمة الاستبدادية لمزيد من الانفتاح السياسي، الذي قد يؤدي لإحلال الأصوليين الإسلاميين محلها[٤].

---

(١) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٩٤.

(٢) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: xxiii, ٩٤ & ٩٥ & ١٤٤.

(٣) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٠١.

(٤) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٤٥.

وأن من أخطاء الولايات المتحدة أنها أحياناً تعمل مع وكلاء أو من خلال برامج لا تتفق مع القيم التحررية، بل وأحياناً تصادمها، مثل حزب العدالة والتنمية في المغرب وحركة الإخوان المسلمين في الأردن المعروفة باسم جبهة العمل الإسلامي[١].

ويشككون في عمل مركز دراسة الإسلام والديمقراطية، والذي يتلقى دعماً جزئياً من مكتب الديمقراطية وحقوق الإنسان والعمل في وزارة الخارجية، لأن المركز يرى إنشاء شبكات لمعتدلين، ومن ضمنهم إسلاميون، يرى المركز أنهم يلتزمون بالبرنامج الديمقراطي[٢].

أما تقرير الكونجرس عن الحادي عشر من سبتمبر فيعتبر أن بعض المدارس الإسلامية في باكستان محاضن للتطرف العنيف[٣].

وينقل نفس التقرير أيضاً عن وزير الدفاع السابق دونالد رمسفلد قوله:

"هل نحن نقبض على أو نقتل أو نردع ونثني -كل يوم- إرهابيين أكثر مما تجندهم المدارس[٤] والعلماء الأصوليين، ويدربونهم ويحركونهم ضدنا؟" [٥].

أما إنجل راباسا وزملاؤها من مؤسسة راند فترى أن المناهج ذات الرؤية الضيقة الرجعية والطائفية التي تنشر في المدارس المحافظة والأصولية يجب استبدالها بمناهج تنشر الديمقراطية والتعددية[٦].

أما تشريل بينارد فترى أن قاضي حسين أحمد -أمير الجماعة الإسلامية الباكستانية السابق- أصولي يقرن الإسلام بأهداف الإرهابيين، لأنه يعتبر الولايات المتحدة أسوأ أعداء الإسلام، وأن الإسلام هو العائق الرئيسي أمام تحقيق أهدافها الخفية في العالم، وأن التحالف ضد الإرهاب هو -في الحقيقة- صراع ضد الإسلام ، يهدف لإزالة دول إسلامية من العالم[٧].

وترى أيضاً أن المساجد والمراكز والبقالات الإسلامية في أمريكا تعلن عن كتابات المودودي، وذلك بفضل الأصوليين الباكستانيين، الذين يغرقون الأسواق العالمية بفيض من مطبوعاته في صورة نشرات رخيصة[٨].

---

[١] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٤٣.

[٢] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٤٧.

[٣] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT P: ٣٦٧.

[٤] يقصد الدينية.

[٥] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT P: ٣٧٥.

[٦] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٨١.

[٧] CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٣.

[٨] CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٤٢.

وهكذا تعتبر تشريل بينارد أن قاضي حسين أحمد والسيد أبا الأعلى المودودي –رحمه الله– وسائر الجماعة الإسلامية بباكستان أصوليون متطرفون، رغم أن الجماعة لا ترى العمل بالقوة، وتلتزم بالقوانين الباكستانية، وتعمل من خلالها.

بل وترى تشريل بينارد أن عدداً كبيراً من الحركات الإسلامية المنتشرة عبر العالم بما فيهم القاعدة وطالبان وحزب التحرير هم من الأصوليين المتطرفين. الذين يدعو كتابها عن الإسلام المدني الديمقراطي لمحاربتهم[١]. رغم أن حزب التحرير والجماعة الإسلامية الباكستانية لا ينهجان العمل المسلح، ويلتزمان بالعمل السياسي والفكري.

بل وتنتقد الشيخ يوسف القرضاوي –رغم أنها تعتبره من التقليديين وليس من الأصوليين– لأنه عارض شيخ الأزهر سيد طنطاوي في شجبه لقتل المدنيين والأبرياء –في زعمه– في إسرائيل، وتنتقد مطالبة الشيخ يوسف القرضاوي للحركة الإسلامية بأن تكون رهن إشارة المسلمين المضطهدين في أي مكان سواء في إريتريا أو السودان أو الفلبين أو كشمير، وتنتقد كذلك قوله بأن فلسطين هي القضية الإسلامية المركزية، التي تمر بمرحلة حرجة، تحاك فيها خطط لإنشاء إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ثم للحجاز والمدينة وخيبر[٢].

بل وتؤيد خطاب السناتور توم لانتوس لوزير الخارجية، الذي يستنكر فيه إدراج الوزارة –في أحد كتيباتها المعنون (بشبكة الإرهاب)– لأقوال يوسف القرضاوي وعبد الرحمن السديس في استنكار أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لأن القرضاوي يؤيد التفجيرات الانتحارية –في زعمهم[٣]– أما السديس فقد صدرت منه أحقر النعوت في معاداة السامية، وأن هؤلاء في (الحرب على الإرهاب) هم خصومنا، وليسوا أصدقاءنا، بغض النظر عما قالوه أو لم يقولوه عن الحادي عشر من سبتمبر، ولا يجب أن ننشر آراءهم بأية حال[٤].

وصدق الله العظيم: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

---

[١] CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٤.

[٢] CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٣٠ & ٣١.

[٣] لاحظ أن إذاعات الحملة الصليبية من أمثال البي بي سي تصر على تسمية العمليات الاستشهادية بالعمليات الانتحارية، ولما سئل مدير قسمها العربي حسام السكري مرة في برنامج (نقطة حوار): لماذا تسمونها بهذا الاسم؟ فكان جوابه العاجز؛ لأننا لا نستطيع أن نسميها بالعمليات الاستشهادية، حتى لا نكون متحيزين. فتأمل. أراد أن يهرب من التحيز للمسلمين فانحاز لليهود والصليبيين، ولو كان صادقاً في عدم تحيزه كما يزعم لأسماها بالعمليات (ذاتية التفجير) مثلاً، وصدق الله العظيم: ﴿قَدْ بدتِ الْبغْضاء مِنْ أفْواهِهِمْ وما تخْفِي صدورهمْ أكْبر﴾.

[٤] CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٦٥.

وتنتقد تسامح الهيئات الحكومية الأمريكية مع الحجاب، لأن هذا تأييد للأصوليين والتقليديين المحافظين ضد التقليديين الإصلاحيين والحداثيين والعلمانيين[١].

وتكتب عمن تسميهم بالتقليديين؛ بأن لديهم نزعة عدائية للغرب والقيم الغربية وبخاصة للولايات المتحدة، وهم في هذا لا يختلفون عن الأصوليين، بل إن التقليديين في أمريكا إذا اجتمعوا فإنهم يرددون آراء الأصوليين[٢]. الذين يجب على الغرب مقاومتهم والتصدي لهم.

وأن المجتمع المعاصر لا يتفق مع أحكام الشريعة، التي يطالب التقليديون بها[٣].

ومن هذا يتبين أن الأصوليين والمتشددين في نظر الحملة الفكرية الصليبية الغربية هم كل من يطالب بتطبيق الشريعة ويعادي الغرب، أي كل المسلمين في الحقيقة.

***

٣- ماذا يقصد الغرب بالمعتدلين؟

والآن بعد أن أخذنا لمحة سريعة عمن هم المتشددون في نظر الحملة الفكرية الصليبية الغربية، فلنذكر بإيجاز: من هؤلاء الذين يعتبرونهم معتدلين؟ ويمكن للغرب التعاون معهم.

تذكر إنجل راباسا وزملاؤها من مؤسسة راند علامات مميزة للمعتدلين، الذين يصلحون للتعاون مع الغرب ضد الجهاد والمجاهدين، وهذه العلامات المميزة هي:

أ- الديمقراطية:

ويقصدون بها التعهد بالديمقراطية كما تفهم في التقليد الغربي التحرري. والاتفاق على أن الشرعية السياسية تنبع من إرادة الشعب كما تظهرها انتخابات حرة[٤]. ولا بد أن يتضمن ذلك الاعتراف بالتعددية وبحقوق الإنسان المعترف بها دولياً، ومعارضة قيام الدولة الإسلامية.

ب- القبول بالمصادر غير الطائفية لمصادر القانون:

ويعنون بها رفض وجوب تطبيق الشريعة، لأن الشريعة حسب التفسير المحافظ -في زعمهم- لا تتفق مع الديمقراطية ولا مع حقوق الإنسان المعترف بها دولياً.

ج- احترام حقوق المرأة والأقليات الدينية، كما يفهمها الغرب.

د- معارضة الإرهاب والعنف خارج القانون[٥].

---

(١) CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ١٤.

(٢) CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٣١.

(٣) CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٣٣.

(٤) أرجو من القارئ أن ينتبه لهذا التعريف للديمقراطية والشرعية السياسية، الذي سأظهر تناقضهم معه في المبحث الرابع إن شاء الله.

(٥) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٦٦ to ٦٨ & ٧٠ to ٧٢.

أما تشريل بينارد فترى أن الحداثيين هم الذين يؤمنون بتاريخية الإسلام، أي أن الإسلام له جوهر أساسي وظروف تاريخية، جعلت ما كان صالحاً في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- غير صالح اليوم. وهذا الجوهر الأساسي يتضمن أولوية الضمير الشخصي والمجتمع المؤسس على المسؤولية الاجتماعية والمساواة والحرية، وهي قيم تتفق مع الديمقراطية المعاصرة. والحداثيون يختلفون في هذا مع التقليديين والأصوليين[1].

وتضيف بأن الحداثة وليست التقليدية هي التي تفيد الغرب. وهي تقتضي الابتعاد عن أو تحوير أو التجاهل الانتقائي لبعض العناصر في العقيدة الدينية الأصلية. وأن العهد القديم مثل القرآن يتضمن أشياء لا يمكن تصور ممارستها في المجتمع المعاصر، ولكننا (تقصد النصارى واليهود المعاصرين) غلبنا رؤيتنا للرسالة الحقيقية للنصرانية واليهودية على حرفية النصوص، التي اعتبرناها تاريخية ورمزية. وهذا بالضبط ما يريده المسلمون الحداثيون[2].

وأنا هنا أود أن ألفت انتباه القارئ لأمور:

الأول: أن الذي يرى تاريخية الإسلام لا يكون مسلماً. فالقرآن والسنة ممتلئان بالآيات والأحاديث التي تلزم كل مسلم بإطاعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في كل ما يقول، وتنفي الإيمان عن كل من لم يسلم لحكمه ويرضى به. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾، ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾، وأن ما أنزل إلى الرسول هو من وحي الله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾. وسوف يرى القارئ أن الكاتبة وأمثالها يحشرون وسط المسلمين من ليسوا مسلمين أصلاً، ولا يقبلون الإسلام، وسيتضح هذا التهريج الفكري عند الكلام على من يسمونهم بالعلمانيين الإسلاميين بل والملحدين.

الثاني: مساواتها للقرآن والعهد القديم من حيث عدم إمكانية تطبيق كل ما فيهما، وهذه مساواة تدل على مدى انحراف منهجها، فالقرآن الكريم يختلف تماماً عن العهد القديم الحالي الموجود بأيدي النصارى واليهود من وجوه عديدة لا يمكن إغفالها:

---

[1] CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٥.

[2] CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٣٧.

أ- فالقرآن الكريم نصه محفوظ حفظاً تاماً، بل إن حفظ القرآن يبين صدق نسبته للمولى سبحانه وتعالى، وذلك أن المولى سبحانه وتعالى قد تعهد بحفظه، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. بينما العهد القديم أو الجديد الحاليان ليست لهما أية مصداقية، لأن ثبوت نسبتهما لموسى أو عيسى عليهما السلام منتفية[١]، وبالتالي فإن أي إنسان ذي عقل وضمير، لا يمكن أن يقبلهما كنصوص ثابتة لا تقبل الشك.

بينما المسلمون وغير المسلمين مسلمون بثبوت نسبة القرآن للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- بلا شك ولا تبديل ولا تحريف[٢].

ب- القول بأن في القرآن أشياء لا يمكن قبولها أو تطبيقها في العصر الحديث، وهم وكذب، فالإسلام ظل حاكماً حتى القرن العشرين عندما سقطت الدولة العثمانية في عام ١٩٢٤، ولا زالت بلاد كثيرة تحكم بأجزاء منه وخاصة في الأحوال الشخصية والميراث وما أشبه. ومئات الملايين من المسلمين ترجع في أحكام تعاملاتها الخاصة والعامة لأحكام الشريعة، وفي الأزمة الاقتصادية الحالية نجت البنوك والمصارف والشركات الإسلامية من الخراب، الذي جره على العالم جشع الرأسمالية وحيلها في أكل أموال الناس بالباطل. حتى أن بابا الكاثوليك بنديكتوس دعا الغرب للاقتداء بالاقتصاد الإسلامي.

الثالث: أنها تريد من المسلمين أن يتعاملوا مع الإسلام كما تعاملوا هم في الغرب مع النصرانية واليهودية، فهي تريد أن تسحب تجربتهم التاريخية المريرة الدامية في الصراع البشع مع الكنيسة على الإسلام والمسلمين، وهذا مجافاة للمنطق والتاريخ والعقل، فإن الكنيسة في الغرب كانت تقدم عقيدة لا

---

[١] راجع لمزيد من التفصيل حول عدم ثبوت نسبة العهدين القديم والجديد -الموجودين حالياً بيد اليهود والنصارى- لموسى وعيسى عليهما السلام: التحفة المقدسية لأبي محمد المقدسي حفظه الله ص: ٦٦ و٦٧ التي نقل فيها كلاماً صريحاً في تحريف العهد الجديد من (المدخل إلى العهد الجديد) للأبوين صبحي حموي ويوسف قوشاقجي، في الطبعة الكاثوليكية للعهد الجديد ص: ١ إلى ٧، والجواب الصحيح لابن تيمية رحمه الله ج: ٢ ص: ٣٩٧ إلى ٤٠٢ و٤٠٥ و٤٠٦ وج: ٣ ص: ٢١ و٢٢ و٢٦ و٢٧، وكذلك:

Microsoft Encarta Encyclopedia ٢٠٠٨– Bible, VII. THE NEW TESTAMENT, A. Text, Canon, and Early Versions, ٣. The Canon; and Biblical Scholarship.

وكذلك لتفصيل أوسع في المسألة يمكن مراجعة كتاب (إظهار الحق) للعلامة رحمة الله الهندي رحمه الله- الباب الأول: بيان كتب العهد العتيق والجديد- الفصل الثاني: بيان أن أهل الكتاب لا يوجد عندهم سند متصل لكتاب من كتب العهد العتيق و الجديد ج:١ ص: ٦١ إلى ٩٢، وقد أثبت الشيخ -رحمه الله- في كتابه المذكور تسليم القسيسين له في المناظرة بغياب السند المتصل للكتاب المقدس، وكذلك كتاب (محاضرات في النصرانية) للعلامة الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله، وكذلك محاضرات الشيخ أحمد ديدات رحمه الله.

[٢] من نوادر تشريل بينارد المضحكة؛ أنها زعمت -في كتابها عن (الإسلام المدني الديمقراطي)- أن في القرآن سورتين ناقصتين، وهو ما سأتعرض له -إن شاء الله- في المبحث الثاني عن حملة التشويه والكذب.

يقبلها العقل، وكانت عامل تأخر وإعاقة للتقدم والتطور العلمي، ودكاناً لبيع صكوك الغفران، ومرتعاً للفساد وأهواء الرهبان والملوك[١] ضد الشعوب المسحوقة المظلومة[٢]. ولذلك تقدم الغرب علمياً ومادياً لما تحرر من أغلال الكنيسة[١].

---

[١] من الأمثلة الواضحة على استمرار تحالف الكنيسة مع الظلمة والطغاة حتى اليوم؛ ما قامت به الكنيسة الأرثوذكسية في مصر بإعلانها تأييد انتخاب حسني مبارك رئيساً لفترة رئاسية جديدة في الانتخابات الرئاسية الأخيرة. إنه نفس التحالف الآثم بين الكهان والسلاطين على مر العصور. لقد وقفت الكنيسة بهذا التأييد في صف الفساد والانحراف والظلم. ولا يمكن أن تتذرع الكنيسة بالإكراه، لأن الكثيرين أعلنوا رفضهم لإعادة انتخاب حسني مبارك علانية، ولم يمسهم أحد بسوء.

وصدق عبد الله بن المبارك -رحمه الله- حين قال:

"وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها"

ويقول توماس جفرسن:

"إن القسيس في كل بلد وفي كل عصر من أعداء الحرية، وهو دائماً حليف الحاكم المستبد، يعينه على سيئاته في نظير حمايته لسيئاته هو الآخر" [العلمانية نشأتها وتطورها ج: ١ ص: ١٤٧].

[٢] هنا نقطة أود أن أشير لها بإيجاز؛ وهي أن القيادة الدينية للأمة المسلمة كانت مبدئياً ضد الظلم، وتقف في مواجهة طغيان الحكام حتى وإن اعترفت بشرعيتهم أحياناً، لكنها في الأعم الأغلب كانت تقف ضد فسادهم وطغيانهم وظلمهم. وهذا يتضح في أمور:

١- أن القيادة الدينية المسلمة لم تكن معينة بقرار ولا لها هيكل كهنوتي ولا مؤسسة دينية، ولا تختارها طبقة معينة، بل كانت قيادتها وإمامتها بحب الأمة لها، وتعظيمها لقدرها، واقتدائها بها في زهدها وترفعها عن الدنيا. ويتضح هذا من اقتداء الأمة بالإئمة الأربعة وأئمة الفقه والحديث ومن سار على أثرهم من أمثال العز بن عبد السلام وابن تيمية رحمهم الله. بل إن العلماء قد فقدوا هيبتهم بين الناس ومحبة الناس لهم لما حاولت الأنظمة العلمانية -بعد سايكس بيكو- أن تجعل لهم مناصب ومؤسسات رسمية تابعة للدولة من أمثال وزارات الأوقاف وهيئات الإفتاء ورابطة العالم الإسلامي والمجمع الأعلى للبحوث الإسلامية وما أشبه.

٢- لم يتكلم أحد باسم الله في عالمنا الإسلامي، فلا الإمامة الدينية كانت معينة بوحي من الروح القدس، ولا الملوك كانوا يحكمون بالحق الإلهي، ولا كان البابوات يتوجونهم كما كان يجري في أوروبا، بل كان أئمة الأمة علماء مجتهدون وفقهاء محققون، لا يدعون لأنفسهم عصمة، ولا ينسبون أنفسهم لوحي، أما الملوك فكانوا في وعي الأمة الجمعي بشر أغلبهم من الظلمة، أو على الأقل ممن لا ينالون احترامها.

بل ويروي لنا التاريخ مساندة كبار الإئمة لعدد من الخارجين على الدولتين الأموية والعباسية، وحتى حينما كان الفقهاء يرون عدم الخروج على الأمراء الظلمة، فإنما كانوا يرون ذلك من باب المصلحة ودفع المفسدة، لا بسبب وجوب الاستسلام للحكام، وأنه إذا أمكن إزالة الفاسق بغير فتنة ولا ظلم وجب ذلك [فتح الباري ج: ١٣ ص: ٨]، وكذلك أجمعوا على أن الحكم لا يورث [مقدمة ابن خلدون ج: ١ ص: ١٠٩، الفصل لابن حزم ج: ٤ ص: ١٢٩]، والملوك الذين كانوا يتوارثون الحكم، إنما كانوا يحتالون على أخذ البيعة بأنهم أفضل المرشحين لها، أو باستلابها بحد السيف.

٣- القيادة الدينية كانت دائماً تحتفظ لنفسها بمسافة بعيداً عن الحكام، بل إن كثيراً من القضاة كانوا يعزلون أنفسهم احتجاجاً على الظلم.

صحيح أنه كانت هناك أمثلة للعلماء الذين تواطئوا مع الحكام على تسويغ الظلم، ولكن هؤلاء العلماء كانوا منبوذين بين الأمة ومحتقرين.

أما في العالم الإسلامي فقد كان الإسلام هو الباعث على التقدم والرقي الأخلاقي والسياسي والاجتماعي، وتدهورت أحوال المسلمين بقدر انحرافهم عن تعاليم الإسلام، ولم يكن لدى المسلمين كنيسة ولا كهنوت يتحدثان باسم الله. بل كان لديهم علماء وفقهاء أقوالهم قابلة للبحث والنظر.

أضف إلى ذلك أن الصحوة والنهضة الحالية في العالم الإسلامي -للتحرر من السيطرة الغربية ومن فساد الحكومات التابعة لها- تنبع أساساً من الالتزام بالإسلام والعودة إليه والحرص على تحكيم شريعته، وهذا ما اعترف به كتاب الحملة الصليبية الغربية، وحذروا من خطر هذه الصحوة والنهضة على الغرب ومصالحه.

وعودة لمن يعتبرهم مفكري الحملة الصليبية الغربية من المعتدلين الذين يمكن للغرب أن يتعاون معهم، فتذكر إنجل راباسا وزملاؤها من مؤسسة راند؛ أن المسلمين في أوروبا الذين يقبلون بالاندماج في المجتمع

وكان أئمة الأمة يتحاشون الحكام أو ينصحونهم أو يعترضون عليهم، بل وكثيراً ما كان ينالهم أذى الحكام الظلمة، فأبو حنيفة رحمه الله ضُرب، ومات في السجن لأنه أبى ولاية القضاء [سير أعلام النبلاء ج: ٦ ص: ٤٠١ و٤٠٢]، وضرب مالك -رحمه الله- بالسياط، وخُلِع كتفه، لأنه كان يرى أن بيعة الناس لبني العباس لا تصح لأنها بيعة عن إكراه [سير أعلام النبلاء ج: ٨ ص: ٧٩ إلى ٨١]، وحمل الشافعي من اليمن لبغداد مقيداً في الحديد [سير أعلام النبلاء ج: ١٠ ص: ٨٦]، أما أحمد بن حنبل فضرب بالسياط وهدد بالقتل [سير أعلام النبلاء ج: ١١ ص: ٢٥١].

٤- كان الأعم الأغلب من حركات الخروج ضد الحكام بدءاً من خروج الحسين -رضي الله عنه- حتى انتفاضة المصريين بقيادة السيد عمر مكرم -رحمه الله- ضد الوالي العثماني تطالب بمطلب أساسي؛ ألا وهو الكف عن الظلم بالعودة للشريعة، فكان الضمير الجمعي للأمة المسلمة يرى الشريعة هي العدل، وأن الظلم ينشأ من الخروج على أحكامها، حتى أن العامة في مصر مثلاً حينما ينتقدون ظالماً يقولون له: "حرام عليك" فالظلم والحرام في وعيهم وجهان لشيء واحد. بينما في أوروبا كان الدين المحرف والكنيسة المستبدة هما الظلم عينه، ولذلك كان شعار الثورة الفرنسية "اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس". بينما يحكي لنا التاريخ الإسلامي عن المواقف العديدة الكثيرة للعلماء في الاعتراض على الحكام، بل لم يستشر فساد الحكام وظلمهم إلا بعد أن تخلى العلماء عن هذا الدور العظيم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويرصد العلامة محمود شاكر -رحمه الله- هذا التحول في كتابه (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص: ١٢٦ إلى ١٣٠).

فبينما كان العلماء هم ملاذ المظلومين كانت الكنيسة هي الظلم نفسه.

وبينما كان الفقهاء يجتهدون في الشريعة بجهدهم الذي لا يزعمون عصمته كان البابوات -على جهلهم- يزعمون العصمة.

وبينما كان العلماء والإئمة ينأون بأنفسهم عن السلاطين والملوك وينصحونهم وأحياناً يوبخونهم ويأمرونهم بالمعروف كان البابوات يتوجون الملوك بحيلة الحق الإلهي في الحكم.

وبينما كانت الشريعة هي أمل المظلومين ومطلبهم لتحقيق العدل كانت الكنيسة هي الظالم المستبد الذي يستنزف الملايين.

وبينما ترى جماهير الأمة المسلمة أن خلاصها وعودتها لعزتها وسيادتها هو باتباع الشريعة وتحكيمها ترى جماهير الغرب أن تقدمها وكرامتها بالهروب من الدين أو بعزله في ركن بعيد عن شؤون الحياة.

(١) راجع لمزيد من التفصيل حول تجربة أوروبا مع الكنيسة: الإسلام والعلمانيون- فصل: أوروبا وتجربتها مع الدين للأستاذ محمد قطب حفظه الله، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة- الباب الأول: دين أوروبا أو النصرانية بين التحريف والإبداع.

الغربي –سواء اكتفوا بحصر ممارسة تدينهم في البيت والمسجد، أم أظهروا انتماءهم في المجتمع والعمل– هم الذين يمكن أن يتعاون الغرب معهم في إنشاء شبكات إسلامية معتدلة، أما الذين يريدون أن يطبقوا أقصى ما يستطيعون تطبيقه من الإسلام في أوروبا، والذين يريدون أن يتحاكموا للشريعة، التي يرون وجوب تطبيقها كنظام مواز للقانون الجنائي الغربي، والذين يريدون أن يكون للمسلمين في الغرب كيان متميز عن سائر المجتمع، فهؤلاء سلفيون لا يمكن التعاون معهم[١].

ومن الذين تعتبرهم إنجل راباسا وزملاؤها من مؤسسة راند من المسلمين المعتدلين –الذين يمكن استخدامهم في بناء شبكات إسلامية معتدلة– الإيراني مهدي مظفري، الذي كان رائداً في إصدار بيان (معاً في مواجهة الاستبداد الجديد)، الذي ورد به؛ أنه في أعقاب الضجة التي أثارتها الرسوم الكرتونية عن النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– لا بد من مواجهة الإسلامية باعتبارها نزعة استبدادية، تجب محاربتها ونشر المبادئ العلمانية بدلاً منها. ووقع على البيان معه إيان حرثي علي[٢] وابن الوراق[٣] وسلمان رشدي وتسليمة نسرين[٤].

ومنهم أيضاً مجموعة مشروع الإسلام الأوروبي[٥]، وهو مبادرة طلابية يدعمها منتدى (AEGEE). وتصدر مجلة تسمى (*Electrochoc*)، وقد أوردت هذه المجلة حديثاً تخيلياً مع النبي صلى الله عليه وسلم، يسأله فيه المحاور عن أسامة بن لادن، فأجابه النبي –صلى الله عليه وسلم– بأنه لو كان في زمانه لكان مسلماً جيداً، ولكنه اليوم مجرم عادي، لا يفهم الزمن، الذي يعيش فيه[٦].

ومن هؤلاء الذين يرشحونهم أيضاً للتعاون مع الغرب بسام طيبي في ألمانيا، وهو عضو في عدة مجموعات تدعم الحوار الإسلامي اليهودي والحوار الإسلامي المسيحي اليهودي، ويدعو للاندماج الكامل للمسلمين في الغرب، وأن عليهم أن يقبلوا قيمه وثقافته، ويعارض بشدة أي توجه لإنشاء نظام شرعي إسلامي مواز للنظام القانوني الأوروبي، ويرى أن العلاقة بين حقوق الإنسان والشريعة مثل العلاقة بين الماء والنار[٧].

---

(١) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٩٢ & ٩٣.

(٢) صومالية الأصل لجأت لهولندا زاعمة أنها أجبرت على الزواج، وخرجت من الإسلام، وأصبحت عضوة في البرلمان، ومعادية للإسلام والشريعة، واشتركت مع فان جوخ في إصدار فيلم عن المرأة المسلمة أثار استياء المسلمين، واعترفت مؤخراً بأنها قد زورت في البيانات، التي قدمتها للحصول على اللجوء السياسي.

[Microsoft Encarta ٢٠٠٨- The Netherlands].

(٣) اسم رمزي لمرتد، يفخر بخروجه عن الإسلام، كما سيأتي.

(٤) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٦٤ & ١٦٥.

(٥) Euro Islam Project.

(٦) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٩٥ & ٩٦.

(٧) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٩٧.

ومنهم أيضاً الهادي الصباح إمام مسجد باسوا في ألمانيا، الذي يدين الإرهاب والعنف، ويستنكر استخدام العنف لحل المشاكل الاجتماعية والسياسية[١].

ومنهم أيضاً شعيب بن شيخ، الذي يسمونه المفتي الأكبر بمرسيليا، الذي يرى الفصل بين الدين والدولة[٢]. والذي يقولون عنه؛ أنه يعتمد عليه في ابتكار استجابات يقبلها المسلمون المتدينون العاديون، دون تصعيد المشاكل الصعبة. فمثلاً في الجدال الذي دار حول الحجاب في فرنسا، كان يرى بأن المرأة المسلمة قد تعفى من الحجاب، إذا جعل المجتمع المحيط بها ارتداؤه صعباً، بل وأيد منع الحجاب في فرنسا[٣]، وفي الخلاف الذي دار حول الرسوم الكرتونية الساخرة من حضرة النبي –صلى الله عليه وسلم– كان رأيه أن العنف ليس هو الحل المناسب[٤].

ومنهم منصور إسكاردو، وهو رئيس منظمة (FEERI) العضوة في لجنة أسبانيا الإسلامية، التي تمولها الحكومة الأسبانية، وتعترف بها كممثل رسمي للمسلمين في أسبانيا، وقد أصدر فتوى بأن أسامة بن لادن والقاعدة مرتدون، لقيامهم بأحداث الحادي عشر من سبتمبر[٥].

ومنهم أيضاً عبد الهادي بلعزي مدير المعهد الثقافي للجالية المسلمة في إيطاليا، والذي يحارب الأصولية والتعصب، ومشارك في الحوار بين الأديان، وخاصة الحوار مع اليهود والنصارى. ويرى بلعزي – فيما يتعلق بالتوافق بين القانونين الإسلامي والعلماني– أن الشريعة تحرم على المسلم القيام بأي عمل – حتى لو كان جائزاً في القرآن– إذا كان يخالف قانون الدولة التي يعيش فيها. وفي عام ١٩٩٦ اشترك بلعزي مع أستاذ يهودي يدعى أشر إيدر في إنشاء الزمالة الإسلامية اليهودية، التي تدعم التعاون بين إسرائيل والدول الإسلامية، وبين اليهود والمسلمين[٦].

ويصل التهريج العلمي مداه بكتاب مؤسسة راند، حينما يصرون على أن المسلمين فيهم علمانيون بل وملحدون!!

فتذكر إنجل راباسا وزملاؤها أن العلمانية قد تكون موقفاً خطراً يتخذه أي مسلم! سواء كان ممارساً للشعائر أو غير ممارس لها، أو حتى لو انسلخ علانية أو فعلياً من الإسلام[٧]!!

---

(١) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٩٨.
(٢) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٣٢ & ١٣٣.
(٣) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٣٣.
(٤) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٩٨.
(٥) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٩٨ & ٩٩.
(٦) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٠٠ & ١٠١.
(٧) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٢٣.

أما تشريل بينارد فتقسم المسلمين لأربعة أقسام: أصوليين وتقليديين وحداثيين وعلمانيين، والأخيرون يريدون أن يتقبل العالم الإسلامي فصل الكنيسة[١] عن الدولة مثل الديمقراطيات الغربية[٢].

وإن المرء ليعجب من هذا الإصرار على حشر العلمانيين بل والملحدين في صفوف المسلمين، وهو إصرار يبين لأي مدى وصل التهريج الفكري لدى كتاب الحملة الصليبية الغربية.

وهل يقبلون أن نطبق عليهم نفس التناقضات، فنتحدث مثلاً عن الديمقراطي الاستبدادي، الذي يقول إن الديمقراطية مسألة شخصية، أما السياسة فلا يصلح فيها إلا الاستبداد والحكم المطلق بلا حساب، أو نتحدث مثلاً عن العلماني الإسلامي، الذي يقول إن العلمانية مسألة شخصية أما الحياة العامة فيجب أن تحكم بالدين؟

إذن لماذا يفرضون على غيرهم ما لا يقبلون به؟

هل هو التعالي الفكري على سائر البشر؛ في أن لهم الحق في أن يقولوا ما يشاءون، ولكن ليس لأحد أن يطالبهم بالمثل؟ بل إن من حقهم أن يحددوا للآخرين هويتهم وعقيدتهم، فيعرفون الإسلام والمسلم كما يشاءون!

أم هو اللؤم والتحايل لضرب الإسلام باسم تيارات معادية للإسلام تتسمى بإسلام أي إسلام؟

أم هما الاثنان معاً؟

وتمادياً منهم في ذلك التناقض في حشر العلمانيين بل والملحدين في صفوف المسلمين، يظهرون الإعجاب بشخص يكتب باسم وهمي؛ ابن الوراق. وهو مؤلف كتاب (لماذا لست مسلماً؟) وكتاب (ترك الإسلام: المرتدون يجهرون)، وهو مؤسس معهد علمنة المجتمع الإسلامي[٣]!!

فهل هذا يمكن أن يكون مسلماً لنسميه بالعلماني المسلم؟

ومثل إيان علي حرثي، التي ذكرتها من قبل، والتي لا تكف عن نقد الإسلام[٤]!! والتي يصفونها بأنها ملحدة علنية، ومنتقدة جهراً لجوانب من حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وللمعاملة السلبية التي تلقاها المرأة في الإسلام، والتي تنبع من أصول العقيدة الإسلامية[٥].

ومثل وفاء سلطان التي انتقدت الإسلام علناً على قناة الجزيرة، والتي صرحت بأنها تشك في كل تعليم من تعاليم القرآن، والتي تحرض على تبني القيم والثقافة الغربية[٦].

---

(١) تأمل هنا استخدامها لكلمة الكنيسة، وقد نبهت من قبل على مقارنتها القرآن بالعهد القديم.

(٢) CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ix & x.

(٣) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٢٤.

(٤) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٢٤.

(٥) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٣٥.

(٦) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٢٤ & ١٢٥.

ومثل السوري محمد شحرور الذي يرى بأن القرآن لم يتضمن أية عقوبة بالقتل، وأن الجهاد لا ينطبق على أوضاعنا المعاصرة، والذي يرفض السنة، ويعتبر النبي –صلى الله عليه وسلم– مجرد شخصية تستحق الاحترام، ولكنه غير كامل(١).

وأيضاً أدونيس، الذي لا يكتفي برأيه في إبعاد الدين عن الحياة، بل يظهر نفوره الشخصي من الدين، وليس من الإسلام فقط، ويرى أن الدين ما هو إلا نتاج الخوف من الحرية والمسؤولية(٢)، فكيف يمكن أن ينسب للإسلام؟

وكذلك نصر حامد أبو زيد، الذي يرى أن القرآن عمل أدبي يجب أن يخضع للتحليل الأدبي والعقلي، والذي صدر ضده حكم بالردة في مصر(٣)، فما صلته بالإسلام؟

وكذلك شاكر النابلسي الأردني المقيم بالولايات المتحدة، ومؤلف بيان العرب التحرريين الجدد، الذي جاء فيه أن القيم المقدسة السائدة والتقاليد والتشريعات والقيم الأخلاقية لا بد أن تفحص بعمق، وكذلك يصر على أن قوانين الشريعة يمكن فقط أن تفهم من خلال الفترة التاريخية التي تطورت فيها، ولذا فهي ليست صالحة لكل زمان. كما كان مشاركاً في الدعوى بمحاسبة الدعاة الأصوليين –الذين يؤيدون العنف– عن الحوادث الإرهابية(٤).

وكذلك يتكلمون عن المنظمات العلمانية الإسلامية، فيقسمونها لثلاثة أقسام: منظمات منصرفة لنشر الإسلام العلماني، ومنظمات مهتمة بالعلمانية والعقلانية والإنسانية، وتفرد قسماً في إعلامها للإسلام، والثالثة منظمات تحررية، ولكنها تشجع العلمانيين الإسلاميين مادياً أو إعلامياً(٥).

ومن أمثلة القسم الأول تحالف المسلمين الأحرار الذي له اثنا عشر فرعاً في الولايات المتحدة وواحد في كندا واثنان في مصر، ومؤسسه كمال نواش، وهو فلسطيني مهاجر لأمريكا، وكان مرشح الحزب الجمهوري لمجلس الشيوخ عن ولاية فرجينيا عام ٢٠٠٣، وعلى موقع هذا التحالف ورد الآتي:

> *"لا بد من إعادة تعليم المسلمين فوائد العلمانية، وأن فشل حكوماتهم في أن توفر لهم السلام والرفاهية ليس بسبب كونها علمانية، ويؤمن التحالف أيضاً بأن الديمقراطية لا يمكن أن تنجح إلا إذا هُزم الإرهاب ونُبذ التطرف الإسلامي"*(٦).

(١) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٢٦.
(٢) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٢٧.
(٣) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٢٧.
(٤) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٣٣.
(٥) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٢٨.
(٦) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٢٩.

وكذلك الاتحاد الإسلامي التقدمي، الذي أكد بيان مبادئه على تأييده لفصل الدين عن الدولة في كل مسائل السياسة العامة، وإدراكه للخطر المتعاظم للتطرف الديني، ورؤيته لتسييس الدين وإقحامه في السياسة على أنهما خطران توأمان على المجتمع المدني والحضارة البشرية[١].

وكذلك مركز دراسة المجتمع والعلمانية في بومباي، الذي يطرح العلمانية كحل وحيد للطائفية المتعاظمة، وأساس وحيد لمجتمع متماسك[٢].

وكذلك الكويتي أحمد البغدادي، الذي يربط بين الدراسات القرآنية والتخلف الثقافي والإرهاب، والذي يؤكد بشدة على ضرورة العلمانية[٣].

وكذلك طارق حجي المصري، الذي يرى نفسه ابناً للحضارة الغربية[٤].

ولا أدري إذا كانوا يذكرونه على سبيل الفخر والاعتزاز به، فلماذا لا يعتبرونه منهم؟ ما دام يزعم أنه ابنهم. ولماذا يلصقونه بنا نحن المسلمين؟

وكذلك يعتبرون من العلمانيات المسلمات الإيرانية الأصل هوما أرجمند الكندية، التي أسست الحملة ضد محاكم الشريعة في كندا وضد المدارس الإسلامية، والتي تعتبر الإسلام السياسي حركة رجعية معادية للإنسانية[٥].

وكذلك الممثلة الكوميدية شبانة رحمن الباكستانية الأصل، التي يعجبها أن تظهر على المسرح بالحجاب ثم تنزعه لتكشف عن رداء للسهرة، ثم تبدأ في السخرية من الشريعة[٦]. وقد جاء في جريدة الوطن السعودية أنها صدمت الجمهور النرويجي في مهرجان الرواية الذي يقام في مدينة "ليليهامر" عندما أمسكت القرآن بيد وشعلة نار بيد أخرى وقالت:

"إنها تمنت كثيراً أن يحرق ذلك الكتاب، لكنه يملك قوة غريبة وعجيبة من أي كتاب آخر في زماننا هذا، وإذا أحرقته فربما يملك قوة أكبر، وعلى ذلك يجب أن يحرق في هذه البلاد، وألا نخاف من حرقه وأن نخاف من ألا يحرق".

ولم تتجرأ الممثلة الباكستانية على حرق القرآن الكريم أمام الجمهور، الذي كان شبه مصدوم من كلامها[٧].

---

(١) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٢٩.

(٢) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٣٠.

(٣) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٣٣ & ١٣٤.

(٤) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٣٤ & ١٣٥.

(٥) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٣٥.

(٦) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٣٧.

(٧) باكستانية نرويجية مسلمة !!!تدعو الى حرق القرآن.

الأمر الهام الآخر الذي أوصى به كتاب راند هو الاهتمام بالصوفية وتشجيعهم، لأنهم يعتبرونهم من الحداثيين، ويعتبرون أنهم بموسيقاهم وأشعارهم وفلسفتهم يمثلون نقلة خارج الالتزامات الدينية[١]. كما أنهم يعتبرون الصوفية عامة حلفاء طبيعيين للغرب ضد الوهابية والأصولية[٢]، ويثنون على بعض طوائفهم كالأحباش في لبنان، ومجموعة فتح الله جولن في تركيا، الذي يرى أن الشريعة لا يجب أن تفرضها الحكومة، والذي يدعو للتسامح مع النصارى واليهود، ولذلك استقبل حاخاماً أكبر من إسرائيل، وكتب عن (الإسلام الأناضولي)، الذي يختلف مع تفسيرات الآخرين وخاصة إسلام العرب[٣].

فالخلاصة: أن من يعتبرهم كتاب الحملة الصليبية معتدلين يصلحون للتعاون منهم هم من يرفض تطبيق الشريعة، ومن يرى ضرورة فصل الدين عن الدولة، ومن يرى أن القرآن وثيقة تاريخية لا قداسة لها، بل من يرى أن الإسلام كله قصة تاريخية غابرة، ومن يشك بكل ما في القرآن، ومن يرى أن الدراسات القرآنية مرتبطة بالتخلف الثقافي، ومن يرى عدم حجية السنة، ومن يرى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مجرد شخصية تستحق الاحترام فقط، ومن يرى نفسه ابناً للغرب، ومن يسخر من الإسلام، ومن يفخر بردته، ومن يعلن إلحاده، ومن لا يقبل الدين أصلاً، ومن يرى أن الجهاد اليوم لا مكان له، ومن يرى ردة أسامة بن لادن والقاعدة، ومن يؤيد فرنسا في منعها للحجاب، ومن يرى أن المسلمين عليهم أن يطيعوا قوانين الدول التي يعيشون فيها، ، ومن يتعاون مع إسرائيل، ثم بيت القصيد؛ ومن يستنكر العنف والإرهاب بمفهوم الغرب.

هذه الفئة المنبوذة بين المسلمين هم المسلمون الصالحون، الذين يجب أن يُتعاون معهم ويدعموا، أما عامة الأمة المسلمة فهم إما تقليديون أو أصوليون، يجب على الغرب أن يعاديهم ويحاربهم فكرياً وثقافياً وعسكرياً.

وهنا نقطة هامة أود التنبيه لها، وهي أن دعاوى الأمريكان والغرب -بأنهم يريدون التعامل مع العالم الإسلامي على أساس من تبادل المصالح والمنافع- كلها أكاذيب، فهم لا يريدون أن يتعاملوا مع المسلمين كقوة عالمية موجودة لها عقيدة وثقافة ونظام مخالف لعقيدتهم وثقافتهم ونظامهم، كلا إنهم يريدون أن يفرضوا على المسلمين فئة من الخارجين على الإسلام، ويعينوهم بالمال والإعلام في محاولة -يائسة بفضل الله- لكي يغيروا عقيدة المسلمين، ويصرفوهم عن دينهم، كما انصرفت تلك الفئة المنبوذة الخارجة عن الإسلام، ثم بعد ذلك يتحول المسلمون -كما يتوهمون- للقمة سائغة لأطماعهم ومقاصدهم.

***

[١] CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٤٦.

[٢] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٧٣.

[٣] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٧٤.

٤- تشجيع ودعم من يسمون بالمعتدلين:

أوجزت فيما سبق من هم المتشددون ومن هم المعتدلون في نظر كتاب الحملة الصليبية الفكرية، وأوجز هنا ما هي الوسائل التي تقترح لدعم من يرضى عنهم الغرب الصليبي من المعتدلين والحداثيين وأشباههم من عيون وطلائع الحملات الصليبية.

تذكر إنجل راباسا وزملاؤها من مؤسسة راند أن الولايات المتحدة لو كانت حريصة حقاً على التأثير في نتيجة حرب الأفكار الدائرة في العالم الإسلامي، فلابد لها من أن تعقد العزم -كما صنعت في الحرب الباردة- على دعم وتنظيم حلفائها الطبيعيين[١].

وأن بعض من يسمونهم بالمثقفين التحررين المصريين أخبروهم بضرورة أن تساعد الولايات المتحدة في تضخيم الأصوات التحررية، حتى يُتعرف عليهم محلياً ودولياً[٢].

ومن أنشطة المعتدلين التي تذكرها في الشرق الأوسط؛ صندوق ابن رشد لحرية الفكر المسجل بألمانيا، والذي يدعم الأشخاص المستقلين متقدمي التفكير في العالم العربي. كما أنه يمنح جوائز لأولئك الذين يساهمون في الحرية والديمقراطية في العالم العربي.

وكذلك مركز دراسة الإسلام والديمقراطية[٣]، الذي مر بنا أنه يتلقى دعماً جزئياً من مكتب الديمقراطية وحقوق الإنسان والعمل في وزارة الخارجية، والذي يشارك في مشروع لتطوير مناهج تدريبية في القانون والديمقراطية وحقوق الإنسان، ويستأجر هذا المشروع مؤلفين محليين لإعادة كتابة كتب المناهج في أسلوب إسلامي[٤].

كما تذكر إنجل راباسا وزملاؤها من مؤسسة راند أن إنشاء شبكات ومؤسسات مسلمة معتدلة سوف يوفر منصة لتضخيم رسالة المعتدلين، بالإضافة لتوفير نوع من الحماية ضد العنف والابتزاز.

ولأن المعتدلين لا يملكون الإمكانات لعمل ذلك، فإنهم قد يحتاجون لعامل مساعد خارجي، وأن الولايات المتحدة -بخبرتها الواسعة في دعم شبكات المعتدلين في الحرب الباردة ضد الكتلة الشيوعية- لها دور محوري في تهيئة المناخ للمعتدلين، وأن ما يحتاج إليه في هذه المرحلة هو الاستفادة من خبرة الحرب الباردة، وتقدير مدى ملائمتها للتطبيق في ظروف العالم الإسلامي اليوم، وتطوير (خريطة طريق) لإنشاء شبكات مسلمة معتدلة ومتحررة[٥].

وتضيف إنجل راباسا وزملاؤها أن بناء شبكات معتدلة يمكن أن يمضي على ثلاثة مستويات:

---

[١] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٣٩.

[٢] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١١٣.

[٣] Center for the Study of Islam and Democracy.

[٤] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١١٦.

[٥] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: iii.

(١) تقوية الشبكات الموجودة، (٢) اكتشاف الشبكات المحتملة، وتسريع ابتدائها ونموها، (٣) المشاركة في الظروف الأساسية للتعددية والتسامح[١]، التي تحبذ نمو هذه الشبكات.

وكذلك فإن الولايات المتحدة -في دعمها لإنشاء شبكات معتدلة- سوف تتصادم مع كل من الظروف السياسية والاجتماعية القمعية ومع موجة العداء العالية لأمريكا في معظم العالم الإسلامي[٢].

وتضيف أيضاً أن مبادرة الشراكة للشرق الأوسط التي أعلنت عنها الولايات المتحدة، تدعم مباشرة المنظمات الأهلية المحلية بطريقة أكثر مرونة. وأن هذه المبادرة لا تعتمد أسلوب التعامل بين الحكومات، ولكنها تتعاقد مع منظمات أهلية أمريكية، لتوزيع هبات وإعانات للمنظمات الأهلية المحلية[٣].

وتضيف أيضاً أن تطور المجتمع المدني يرتبط ارتباطاً وثيقاً ببناء الشبكات المعتدلة. وأن جهود الولايات المتحدة في المجتمع المدني أوسع من نشر الديمقراطية، فهي تتضمن كل البرامج المصممة لنشر الديمقراطية[٤] بالإضافة لتلك البرامج التي تعنى بتطوير الفرص الاقتصادية والإعلام المستقل المسؤول[٥] وحماية البيئة وحقوق الجنسين والأقليات والرعاية الصحية والتعليم[١].

---

(١) سوف أتعرض -إن شاء الله- للمعاني السياسية للتسامح وقبول الآخر والتعددية في المبحث الخامس عن الجانب السياسي والعسكري لحرب الصليبيين الفكرية.

(٢) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: xvii & xviii.

(٣) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: xviii.

(٤) سوف أتعرض لجهود أمريكا لنشر الديمقراطية -إن شاء الله- في المبحث الرابع عن ضرورة المواجهة الفكرية لحملة التضليل الصليبية.

(٥) يقول عبد الباري عطوان:

"الإدارة الأمريكية وخبراؤها، والعرب منهم خاصة، نجحوا في ترويض معظم وسائط الإعلام العربية، واستخدموا العصا والجزرة، وفرضوا رجالاتهم ومحلليهم على الفضائيات، ورصدوا ملياري دولار للإنفاق على عملية التضليل التي يتبنونها، مرفوقة بقوائم سوداء تتضمن أسماء معينة متهمة بالتحريض.

التصنيفات الأمريكية جاهزة، ونجحت في اغتيال العديد من الشخصيات العربية. فمن يطالب بالمقاومة في فلسطين والعراق غوغائي، ومن يعارض الهيمنة الأمريكية ظلامي، ومن ينتقد أنظمة الفساد العربية وديكتاتوريتها إرهابي، أما من يتجرأ على الاختلاف مع الرئيس بوش ومشروعه والمتعاملين معه في العراق فهو أحد عملاء الديكتاتور صدام حسين!

الطفرة الإعلامية التي عاشتها المنطقة العربية في السنوات الخمس الماضية تتبخر بسرعة، وتواجه خطر الانقراض، لأن كل أحاديث الإدارة الأمريكية عن الديمقراطية والإصلاح السياسي مجرد أكاذيب، تماماً مثل أكاذيب أسلحة الدمار الشامل العراقية، والعلاقة الموثقة بين النظام العراقي وتنظيم القاعدة.

الإدارة الأمريكية الحالية تريد أن تعيد الإعلام العربي إلى عصر الظلمات، إلى عصر القنوات الحكومية الرسمية، إلى زمن الاتجاه الواحد، أي إلى زمن كان مفروضاً على المواطن أن لا يشاهد إلا الزعيم يخطب لثلاث ساعات، ثم بعد ذلك مطربه المفضل، ومذيعه المفضل، ومسلسلات إنجازاته العظيمة في كل المجالات.

وعندما تكتب إنجل راباسا وزملاؤها من مؤسسة راند عن شركاء أمريكا المحتملين في حربهم الفكرية الصليبية تذكر أن الأولوية يجب أن تعطى:

- للأكاديميين التحرريين والعلمانيين المسلمين[٢].
- ولشباب علماء الدين المعتدلين.
- والنشطاء الاجتماعيين.
- وللمجموعات النسوية الداعية للمساواة بين الجنسين.
- وللصحافيين والكتاب المعتدلين.

وأن الولايات المتحدة يجب أن توفر لهم ظهوراً ومنصات، فمثلاً ترى أنه لا بد من إدراجهم ضمن برامج زيارات الكونجرس، لكي يتعرفوا على صناع السياسة في أمريكا. كذلك يجب دعم وسائل الإعلام المعتدلة في مواجهة وسائل الإعلام التي يسيطر عليها أعداء الديمقراطية والمحافظون[٣].

وترى إنجل راباسا وزملاؤها أن من الدروس المستفادة من الحرب الباردة؛ أن المنظمات التي كانت حكومة الولايات المتحدة تمولها كان يسمح لها بالاختلاف مع سياسات الولايات المتحدة، وأن الكثيرين في حكومة الولايات المتحدة كانوا يرون أن مصداقية هذه المنظمات وهؤلاء الأشخاص تزداد بإظهار اختلافهم الجذري مع سياسة الولايات المتحدة. وقد صاغ مدير إذاعة الحرية هذه الوسيلة بقوله:

"إن الخطافية اليسرى هي أفضل لكمة توجه للكرملين" [٤].

وترى كذلك أن من تلك الدروس؛ النجاح الكبير الذي حققه ما يسمى بمؤتمر الحرية الثقافية، الذي جمع المجموعات المتناثرة من الأشخاص المتشابهي التفكير في شبكة دولية تحظى بدعم تنظيمي ومالي

هذا الإرهاب الإعلامي، من قبل كتائب التضليل الأمريكية وجنرالاتها، لن ينجح في حجب الحقائق، وتكميم الأفواه، فالمشكلة لم تكن في الإعلام العربي، ولا في فضائياته، وإنما في هذا الإذلال والقهر التعسف الأمريكي والإسرائيلي، فالأصل الأمريكي مجحف في ظلمه واستهدافه للعرب والمسلمين، وحتى لو صمتت الفضائيات ورضخت للضغوط، وجرى لجم الأقلام في الصحف، وخلا الجو لليبراليين العرب الجدد، فإن المقاومة، مقاومة المشاريع الأمريكية- الإسرائيلية ستستمر" [كتائب الإرهاب الإعلامية الأمريكية صحيفة القدس العربي ١٢ رمضان ١٤٢٥].

[١] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: xix, ٧٩ & ٨٠.

[٢] أضاف فقهاء الإسلام الأمريكي الجديد فئة جديدة لم يعرفها المسلمون من قبل وهي فئة المسلمين العلمانيين، وقد أشرت من قبل لهذا التناقض.

[٣] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: xxii & ٣.

[٤] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٣٢.

محدود من الولايات المتحدة، ولذا فقد يكون الهدف في المعركة مع التطرف هو إنشاء منظمة متعددة الجنسيات تعمل كمنصة ثقافية للإحياء الديمقراطي في العالم الإسلامي(١).

ومن دروس الحرب الباردة أيضاً ما اقترحه (دنيس روس)؛ بأن تتعرف الولايات المتحدة على الإصلاحيين المخلصين، لكي يبدأوا (دعوة علمانية)، تقدم خلالها القوى المعتدلة تحسينات ملحوظة في مستوى المعيشة، وهو ما كانت تقوم به هيئة المعونة الأمريكية وقوات السلام أثناء الحرب الباردة(٢).

وفي خط مواز أصدر الكونجرس تعديل براون باك للعام المالي ٢٠٠٥(٣)، الذي يخول هيئة المعونة الأمريكية(٤)، أن تتعامل وتدعم المنظمات الأهلية المصرية، بدون الحاجة لموافقة الحكومة المصرية(٥).

وتذكر وزملاؤها -في هذا السياق- تصريح سعد الدين إبراهيم -التي تقر بأن الحكومة الأمريكية قد تدخلت لإخراجه من السجن- الذي يقول فيه:

"إنني أقدر كل دعم استلمته" .

وكذلك نجيب محفوظ الذي تساءل:

"ما المشكلة إذا كان الأمريكان يريدون أن تكون لنا ديمقراطية؟ أحياناً قد تتفق مصالحنا"(٦).

وترى وزملاؤها؛ أن من الأفضل أن يتم دعم مؤسسات المعتدلين بصورة غير مباشرة، ولذا فإن دعم تلك المؤسسات عبر مقاولين غير حزبيين ولا حكوميين متعاقدين مع حكومة الولايات المتحدة أفضل من تقديم الدعم مباشرة لها، حتى لا تظهر الخيوط السياسية التي تربطها(٧).

وتذكر أيضاً وزملاؤها أن السؤال ليس هو؛ هل نقدم المساعدة؟ ولكن كيف نوصلها؟

ولأن المساعدة الخارجية موضوع حساس جداً في العالم الإسلامي، فتوصيل المساعدات يجب أن يكون بطرق متوائمة مع الظروف المحلية، وأن يتم قدر الإمكان عبر المنظمات غير الحكومية التي لها علاقات قائمة مع الدول المستقبلة، وأن مفتاح النجاح هو التعامل مع الشركاء الموثوقين مع إبقاء الدعم الخارجي خلف الستار(٨).

---

(١) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٨٥, ١٤٠ & ١٤١.

(٢) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٥٣.

(٣) The Brownback Amendment to the FY ٢٠٠٥ Consolidated Appropriations Act (P.L. ١٠٨-٤٤٧).

(٤) USAID.

(٥) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٥٢.

(٦) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٧٨.

(٧) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٤٧, ٤٨ ١٤٠.

(٨) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٧٨ &٧٩.

وتؤكد وزملاؤها على أهمية ترجمة كتابات من يسموهم بالمثقفين الغربيين والجنوب شرق أسيويين التقدميين إلى العربية والإنجليزية، وأن مؤسسة ليبفورال في أمريكا تقوم بذلك، وتنشرها في صورة كتب عادية أو على الإنترنت[١].

ويذكر كرستوفر هنزل؛ أن الغرب يريد أن يرى الطبقات العلمانية المتغربة في العالم الإسلامي ولها اليد العليا، ولكن هذه الطبقات نخب ضعيفة سياسياً، وتنظر إليها كل من الجماهير والأنظمة بارتياب.

وأي محاولة من الولايات المتحدة لدعم هذه النخب لا بد أن تكون مشروعاً ممتداً لعقود، وتتم بهدوء وبأقصى احتياط. لأن الولايات المتحدة ستخسر لو اعتبرت الجماهيرُ المسلمة النخبَ التحررية عملاء للهيمنة الدولية الساعية لحرمان الإسلام من مقاومة الثقافة الغربية، التي تعتبرها الأغلبية منحلة أخلاقياً.

وعلى الولايات المتحدة أن تعمل في شراكة مع الأنظمة الحالية في العالم السني لمقاومة الثوريين السلفيين. وأن تتعامل وتدعم هذه الأنظمة الغير ديمقراطية حتى تتمكن من تحقيق التواصل مع السلطات المحلية، وهو الأمر اللازم في الحرب على الإرهاب. ولا بد لواشنطن أن تنحي جانباً الآن طموحاتها في الثورة الديمقراطية في المنطقة، على الأقل حتى يتم احتواء الثورة السلفية. وأن تتجنب الولايات المتحدة أن تظهر كخصم للمؤسسات العلمية السنية التقليدية، أو أن تستفزها، فتتعاطف مع خصومها السابقين؛ الثوريين السلفيين. لأن عامة السنة لو تصوروا أن الولايات المتحدة تقوم بحملة لإضعاف أو إعادة صياغة الثقافة السنية التقليدية، فستستنتج فئات أكثر فأكثر من عامة السنة أن السلفيين -الذين لعنوهم من قبل- كان معهم كل الحق. وعند هذه اللحظة فسيرى العالم حقاً صراع الحضارات، الذي يسعى له كل من القاعدة وبعض المفكرين الأمريكيين[٢].

***

٥- الحرب ضد الجهاد يجب أن يقوم بها المنتسبون للإسلام من الزعماء والعلماء.

أشار العديد من كتاب الحملة الفكرية الصليبية إلى ضرورة أن يقوم بالهجوم على الجهاد الزعماء والعلماء المنتسبون للإسلام. حتى يدير الصليبيون الحرب الفكرية من وراء ستار.

يذكر ويليام ماكنتس وزملاؤه من مركز مقاومة الإرهاب في أكاديمية الولايات المتحدة العسكرية التابعة للجيش الأمريكي أن استنكار أعمال الجهاديين يكون ضاراً إذا جاء بالذات من ثلاث طوائف: الزعماء الدينيين المؤثرين، والجهاديين السابقين والجهاديين الحاليين البارزين[٣].

ويوصي أيضاً وزملاؤه بإبراز إدانة العلماء السلفيين البارزين في السعودية لما يسميه بالإرهاب الجهادي، وبإقناع المفكرين الجهاديين بشجب بعض أهداف الجهاديين وتكتيكاتهم[١].

---

(١) BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٨٨.

(٢) The Origins of al Qaeda's Ideology, p: ٧٩ & ٨٠.

(٣) Militant Ideology Atlas, Executive Report p: ١٠.

ويضيف وزملاؤه بأن الحكومات الغربية لا مصداقية لها في العالم الإسلامي، ولذا فإن عليها أن تتابع تلك الجهود بطريقة غير مباشرة. وأن العالم الإسلامي لا يوجد به علماء دين كثيرون يمكن وصفهم بالاعتدال على حسب المقاييس الغربية، ولكن حتى يوجدوا فعلى المجتمع الدولي أن يركز على عزل الجهاديين عن الحركة السلفية الأوسع. ورغم أنه قد يكون من الكريه العمل مع الزعماء السلفيين اللاعنيفين، إلا أنهم أفضل من يمكن أن ينزع الشرعية عن الجهاديين، ويراقب أنشطتهم[٢].

ويذكر براتشمان وماكنتس من مركز مقاومة الإرهاب في أكاديمية الولايات المتحدة العسكرية التابعة للجيش الأمريكي:

"تستطيع الولايات المتحدة أن تميز فتمول رموز التيارِ السلفي العامِ مثل (المدخلي)، المؤثر في اجتذاب التأييد من الجهاديين، والذي لا يشجع العنف (مثلاً بالإنفاقِ على المطبوعات والمحاضرات والمدارس الجديدة)".

إلى قولهما:

"وتستطيع الولايات المتحدة أن تمول أيضاً غير السلفيين، ولكنها حالياً تعوزها الخبرة اللازمة، لتحدد من هو الفعال حقيقةً. وربما كانت الاستراتيجية الأفضل على المدى القريبِ أن تضغط على حكومات الشرق الأوسط لتسمح بمشاركة سياسية أكبر وظهور للجماعات التي تهدد الجهاديين. وهذا التناول لا بد أن يختلف من قطر لآخر، فمثلاً في مصر سيكونون الإخوان المسلمين، وفي العربية السعودية الشيعة. ومرةً أخرى، فمن الضروري ألا ترى يد الولايات المتحدة"[٣].

وقال جيمس فيليبس في محاضرته التي ألقاها في مؤسسة التراث أنه لكي تردع شخصاً ما عن اللحاق بالقاعدة فمن المفيد أن تقنعه مسبقاً بأن القاعدة تخوض حرباً خاسرة، وأنها تؤذي المجتمع الإسلامي بأساليبها الفظة، وأن أهدافها البعيدة غير واقعية، وكثيراً ما تسبب الضرر للمسلمين[٤]. وأن على الولايات المتحدة أن تعتمد على الزعماء السياسيين والدينيين المسلمين لتحقيق ذلك[٥].

وقال أيضاً إن حرب الأفكار بنفس أهمية حرب ميادين القتال إذا أريد هزيمة القاعدة هزيمة حاسمة. والهدف المحوري على المدى البعيد هو انتقاص ونزع الشرعية عن العقيدة التي ينشرها الإرهابيون بين مؤيديهم ليبرروا القتل بالجملة. ولكي تحط من عقيدة بن لادن فعلى المسلمين أن يقتنعوا بأن برنامجه

---

(١) Militant Ideology Atlas, Executive Report p: ١١.

(٢) Militant Ideology Atlas, Executive Report p: ١١.

(٣) Stealing Al-Qa'ida's Playbook, p ٢٠ & ٢١.

(٤) لاحظ التشابه الشديد بين آرائه وكتابات المتراجعين وأصحاب وثائق الترشيد.

(٥) The Evolving Al-Qaeda Threat, p: ٧ & ٨.

الثوري غير واقعي، ويعرض المسلمين لتكاليف باهظة، وأن هناك طريقاً أفضل لينظموا حياتهم، ويعولوا أسرهم، ويمارسوا الإسلام الأصلي[١]. وهذه الحجج لا بد أن يسوقها الزعماء السياسيون والدينيون والتربيون والفكريون المسلمون. وعلى غير المسلمين أن يهتموا بمساعدتهم على نشر وإشاعة وحشد التأييد لتلك الأفكار. وعلى الحكومات أن تعمل مع الزعماء الدينيين والسياسيين المسلمين لكشف عقيدة القاعدة الدموية التي تنتهك التعاليم الإسلامية. وعلى العلماء المسلمين أخذ المبادرة في تحصين الشباب المسلم ضد فيروس الإرهابيين العقائدي السام. وعلى صناع الأفلام الوثائقية المسلمين أن يبينوا للعالم الإسلامي البؤس الذي كان يعيش فيه الأفغان تحت حكم الطالبان القمعي، الذي كانت تؤيده القاعدة. وبالإضافة لانتقاد عقيدة القاعدة، فلا بد من بذل الجهد في انتقاد تكتيكها المفضل؛ العمليات الانتحارية. كما زعم[٢].

وترى إنجل راباسا وزملاؤها أن الولايات المتحدة ودول الغرب الأخرى لا تملك إلا تأثيراً قليلاً على مصير (حرب الأفكار)، وأن المسلمين فقط هم الذين يملكون المصداقية لتحدي إساءة استخدام المتطرفين للإسلام. ولكن المعتدلين لن يتمكنوا من مواجهة الأصوليين بنجاح مالم تهيأ لهم الأرضية، وهو ما يستطيع أن يساعد فيه الغرب بدعم إنشاء شبكات مسلمة[٣].

ومن أمثلة اهتمام الغرب الصليبي بمهاجمة الجهاد عبر المسلمين؛ احتفاء العالم الغربي بتصريحات الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ والشيخ سلمان العودة والدكتور السيد إمام على المستويين الرسمي والفكري الإعلامي.

فمن أمثلة الاهتمام بتصريحاتهم على المستوى الرسمي ما ذكره تقرير فريق متابعة القاعدة والطالبان المشكل بقرار مجلس الأمن في رسالته الموجهة لرئيس مجلس الأمن في مايو ٢٠٠٨، حيث جاء فيها:

"وصدرت عدة بيانات هامة تدين القاعدة، ولا سيما البيان الصادر في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٧ عن أعلى سلطة دينية في المملكة العربية السعودية؛ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ، وقبل ذلك بشهر عن الشيخ سلمان العودة، وهو رجل دين مستقل وبارز معروف بانتقاده المفعم بالتحدي والتشدد للنظام القائم[٤]. كذلك أدار حلفاء

---

[١] تبوء مفكرو الحملة الصليبية منصب الإفتاء للتفريق بين الإسلام الأصلي والإسلام المزور. فتأمل.

[٢] The Evolving Al-Qaeda Threat, p: ٩.

[٣] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٣.

[٤] كان هذا قبل السجن، أما بعد السجن فقد انقلب على عقبيه، نسأل الله أن يعافيه مما هو فيه، ويثبتنا على الحق حتى نلقاه. وتقرير الفريق يخلط الأمور عن عمد.

سابقون آخرون ظهورهم للقاعدة، وأهمهم منظر الجهاد الإسلامي ذو النفوذ الواسع[١]، وأحد أقدم المرتبطين بأيمن الظواهري، وأوثقهم صلة به[٢]؛ سيد إمام الشريف، المعروف أيضاً بالدكتور فضل، المسجون حالياً في مصر. حيث أكد في (وثيقة الهداية الحقة للنشاط الجهادي في مصر والعالم[٣] التي أصدرها في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٧ أن القاعدة تجاوزت حدود قدراتها، وأن أعمالها تشكل انتهاكاً للشريعة الإسلامية. وبالتالي، فإن التلميح إلى إمكانية محاكمة أسامة بن لادن والظواهري غيابياً في محكمة إسلامية فكرة تستحق الدعم" [٤].

وكذلك يذكر تقرير الحكومة البريطانية المقدم للبرلمان في مارس ٢٠٠٩:

"إن القاعدة وأعوانها معرضون لتحد عقائدي فعال. وقد اتضح هذا واضحاً جداً في رفض عقيدة القاعدة بواسطة سيد إمام الشريف، والذي يعرف أيضاً بالدكتور فضل

......

ولم يكشف فضل منهجياً فقط الأخطاء في تفكير القاعدة، ولكن أيضاً أظهر الأضرار التي تسببها للمسلمين حول العالم" [٥].

وهكذا أصبح فقه المباحث وفقهاؤه محل الاهتمام والثناء الرسميين للحملة الصليبية.

وكذلك كان هناك احتفال إعلامي وفكري بتلك التصريحات، ومن أمثلة ذلك امتداح كارين هيوز الوكيلة السابقة بوزارة الخارجية الأمريكية للشيخ سلمان العودة في مقال خاص في صحيفة النيويورك تايمز، واعتبرت براءة سلمان العودة من الشيخ أسامة بن لادن دليلاً على أن هناك "شجعاناً في العالم الإسلامي"، يرفعون أصواتهم لرفض الجهاد تحت مسمى العنف والإرهاب[٦].

---

[١] ذكرت من قبل في الحلقة الأولى من اللقاء المفتوح الصادرة في ربيع الأول ١٤٢٩ بأن:"الإعلام الحكومي يستخدم أوصافاً لا حقيقة لها مثل مفتي القاعدة وأمير جماعة الجهاد بمصر والمستشار العسكري لطالبان".

[٢] كان هذا قبل أربعة عشر عاماً من كتابة هذا التقرير، ولكنه الخلط المتعمد.

[٣] يقصدون (وثيقة ترشيد الجهاد في مصر والعالم)، ولكنها الترجمة العربية للترجمة الإنجليزية، وهذا يدل على أن لا مترجم التقرير للعربية ولا أحد ممن شارك في مراجعة الترجمة قد اطلع على الوثيقة الأصلية.

[٤] الأمم المتحدة (S/٢٠٠٨/٣٢٤) ص: ٨.

[٥] Pursue Prevent Protect Prepare, The United Kingdom's Strategy for Countering International Terrorism, p: ٤٧.

[٦] جهاد برس- التقرير التاسع- جمادى الأولى ١٤٢٩ ص: ٤، جريدة الوطن السعودية يوم السبت ١٣ ذو الحجة ١٤٢٨هـ الموافق ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٧م العدد (٢٦٤٠) السنة الثامنة.

وكذلك رحب وأشاد ريتشارد بارِت[1] بتصريحات السيد إمام وسلمان العودة، ووصفها بأنها شكلت ضربات قوية لتبريرات القاعدة العقائدية للعنف[2].

***

٦- إنشاء إسلام لين مهادن أجدى من المواجهة الصريحة مع الإسلام.

تذكر تشريل بينارد أنها في حوار لها مع ابن الوراق -وهو الملحد الذي ذكرته من قبل، والذي حاولت أن تحشره تشريل بينارد في عداد المسلمين تعنتاً وتحكماً- اتفق معها أن النقد الصريح للإسلام في هذه المرحلة قد لا يكون عملياً، وأن الأفضل بذل الجهد في تشجيع إسلام ألطف وأسلس ومنزوع الأنياب[3]!

---

[1] شغل ريتشارد بارِت منذ عام ٢٠٠٤ منصب منسق فريق متابعة القاعدة والطالبان التابع لمجلس الأمن، كما أنه عضو في قوة مهام الأمين العام لدفع تطبيق استراتيجية مكافحة الإرهاب التي أقرتها الجمعية العامة عام ٢٠٠٦، وقبل التحاقه بالأمم المتحدة عمل بالحكومة البريطانية، وكان من مهامه الإشراف على مكافحة الإرهاب عبر البحار قبل وبعد الغزوات المباركات على نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا عام ٢٠٠١.

[2] Seven Years After ٩/١١: Al-Qaida's Strengths and Vulnerabilities, p: ٦.

[3] CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٤٩.

المبحث الثاني: حرب التشويه والكذب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

تَخَرُّصاً وَأَحاديثاً مُلَفَّقَةً   لَيسَت بِنَبعٍ إِذا عُدَّت وَلا غَرَبِ[1]

في المبحث السابق ضربت أمثلة بإيجاز لجهود الحملة الصليبية الغربية الفكرية المعاصرة ضد الجهاد والمجاهدين، ومن وسائل هذه الحملة حرب التشويه والكذب، ولكني آثرت أن أفردها هنا بمبحث مستقل لأهميتها. وسوف أضرب هنا أمثلة من سيل الأكاذيب الذي يتدفق ضد المجاهدين:

١- قتل عبد الله عزام.

٢- استخدام كذبة قتل الأبرياء.

٣- تشويه صورة القاعدة لدى الباكستانيين بتصويرها على أنها عربية فاشية مادية مهووسة بتكفير الحكومات.

٤- القاعدة تكفيريون، يكفرون كل من خالفهم.

٥- القاعدة قطبيون.

٦- القاعدة تتضاءل شعبيتها.

٧- الطالبان والقاعدة في أفغانستان مارسوا الزواج القسري.

***

١- قتل عبد الله عزام

ذكر تقرير الكونجرس عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر في يوليو ٢٠٠٤ حول -ما زعمه- الخلاف بين الشيخ عبد الله عزام -رحمه الله- وبين الشيخ أسامة بن لادن -حفظه الله- ما يأتي:

---

[1] البيت لأبي تمام في وصف وقعة عمورية. الموسوعة الشعرية- أبو تمام.

"وسواء كان النزاع حول السلطة أو الخلافات الشخصية أو الاستراتيجية، فقد انتهى في ٢٤ نوفمبر ١٩٨٩، عندما قتلت سيارة مفخخة -بتحكم عن بعد- عزام وكلا ولديه. أما القتلة فقد افترض أنهم من المصريين المنافسين"(١).

ثم أشار التقرير لهامش ملحق جاء فيه:

"انظر تقرير الإف بي آي في التحريات- التحقيق مع جمال الفضل ١٠ نوفمبر ١٩٩٦، وجواناراتنا- داخل القاعدة ص: ٢٣"(٢).

ثم ذكر كينيث كاتزمان في أغسطس ٢٠٠٥ في تقرير مقدم للكونجرس:

"في نوفمبر ١٩٨٩ اغتيل عزام، وزعم البعض أن بن لادن قد يكون مسؤولاً عن القتل، لكي يحسم ذلك النزاع حول السلطة"(٣).

وفي نوفمبر ٢٠٠٦ ذكر ويليام ماكنتس وزملاؤه من مركز مكافحة الإرهاب في الجيش الأمريكي:

"في ٢٤ نوفمبر ١٩٨٩ انفجرت ثلاث قنابل على طريق عبد الله عزام -الذي يعبره بانتظام في طريقه للمسجد- عند عبوره، فقتل الشيخ مع ولديه، وقد ربطت شائعات بصورة ثابتة أسامة بن لادن باغتيال عزام، رغم أنه لا دليل على هذا الربط"(٤).

وهكذا يردد الأمريكان هذه الأكذوبة الفاجرة بصيغة التشكيك لتمريرها، وقد ضربت ثلاثة أمثلة لذلك من ثلاث جهات رسمية، أحدها تقرير الكونجرس الرسمي عن الحادي عشر من سبتمبر، والآخر تقرير أحد الخبراء المقدم للكونجرس من خدمة أبحاث الكونجرس التابعة لمكتبة الكونجرس، والثالث من مركز مكافحة الإرهاب في الجيش الأمريكي، وكلهم يلقون التهم بلا دليل، في محاولة خبيثة منهم لنشرها.

ومثال رابع أذكره من كاتب، يزعم أنه خبير في القاعدة، وفي العبد الضعيف، وهو لورانس رايت، حيث ذكر في سلسلته، التي نشرها في مجلة (النيويوركر) عن شخصي الضعيف ما ترجمته:

"شوه الظواهري مكانة عزام بنشر إشاعات أنه كان جاسوساً"

ثم ينقل عن شخص انشق عن الجماعة الإسلامية -أسأل الله أن يهديه، ويرده للحق رداً جميلاً- أن:

"الظواهري قال إنه يعتقد أن عبد الله عزام كان يعمل لصالح الأمريكان، وأن الشيخ عبد الله عزام قتل في تلك الليلة".

وإذا كنت كذوباً فكن ذكوراً، فإن الشيخ عبد الله عزام -رحمه الله- لم يقتل في الليل، بل قتل قبل الظهر، وهو في طريقه لصلاة الجمعة.

---

(١) ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ٥٦.

(٢) ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ٤٦٧.

(٣) Al Qaeda: Profile and Threat Assessment, P: ٦.

(٤) Militant Ideology Atlas, RESEARCH COMPENDIUM, p: ٢٨٨.

ثم يضيف لورانس رايت:

"وفي ٢٤ نوفمبر ١٩٨٩ فُجر عزام وولديه بسيارة مفخخة، وهم يستقلونها في طريقهم لمسجد في بشاور، ورغم أن أحداً لم يدعي المسؤولية عن هذا القتل، إلا أن الكثيرين قد اتُهموا، من ضمنهم الظواهري نفسه، وحتى بن لادن، وفي عزاء عزام ألقى الظواهري كلمة تأبين"[١].

ولورانس رايت لم يكذب في أصل المسألة فقط، بل حتى في التفاصيل التي أحاط بها كذبته الكبرى، فالشيخ عبد الله -رحمه الله- لم يقتل ليلاً، ولم يقتل بسيارة مفخخة، بل بعبوة وضعت له على جانب الطريق، كما أني لم ألق كلمة تأبين في عزائه. فالكذب يكتنفه أصلاً وفروعاً.

قال النابغة الذبياني:

لَئِن كُنتَ قَد بُلِّغتَ عَنّي وشايةً   لَمُبلِغُكَ الواشي أَغَشُّ وَأَكذَبُ[٢]

وهذه الأكاذيب ليست تصرفاً ينافي فقط البحث العلمي النزيه، ولكنه ينافي أبسط مبادئ الأخلاق، ولا يجرؤ أحد من كتاب تلك الدراسات والكتب، أن يمارس نفس الأسلوب مع أي شخص في بلده، وإلا لجره للقضاء، وحصل منه على اعتذار وتعويض باهظ، ولكن ما هو حرام معهم حلال معنا، وهذا دأب وسمت مطرد في الغرب الصليبي.

وأود هنا أن أتوقف مع الأدلة، أو على التحقيق الشبهات، التي استند إليها تقرير الكونجرس في إيراده لهذه الفرية، فقد ذكر التقرير في الهامش مصدرين، أحدهما جمال الفضل، والآخر كتاب (في داخل القاعدة) للمدعو روهان جواناراتنا، الذي أشرت إليه في المبحث الأول.

فمن هو جمال الفضل؟ جمال الفضل باعتراف تقرير الكونجرس عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر هو عضو القاعدة، الذي اختلس من الشيخ أسامة بن لادن ١١٠ ألف دولار، ورفض ردها، وأنه بعد ترك الشيخ أسامة للسودان تقدم بنفسه لسفارة أمريكية في أفريقيا، وأثبت انتماءه للقاعدة، وانشق

---

[١] THE MAN BEHIND BIN LADEN, VI—COURTING BIN LADEN.

وللورانس رايت في تلك السلسلة كذبات كثيرة، وليس من وظيفتي أن أصححها له، فمن الواضح أنه على صلة وثيقة بالمخابرات، ولكن منها على سبيل المثال ما نقله -بحسن قصد أو بسوئه- عن منتصر الزيات ، أني صديقه وزميله، وأنه كان يتحدث معي في سجن القلعة عبر ثقب في الجدار، وأنه سألني عن سبب فشل العملية (قتل السادات والانقلاب عليه)، وإني قلت له أني كنت لا أشجع الاغتيال، وإني كنت أفضل الانتظار حتى نستطيع خلع النظام من جذوره، عبر انقلاب عسكري. وهذا كله اختلاق من عالم الأوهام والخيالات. وقد أشرت من قبل لمزاعم منتصر الزيات أنه صديقي وزميلي ووكيلي عند الكلام عن الأستاذ فتحي رضوان رحمه الله، وعند الكلام غن العمليات في مصر. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

[٢] البيت للنابغة الذبياني. الموسوعة الشعرية- النابغة الذبياني.

للولايات المتحدة، وقدم معلومات شكلت -بزعمهم- نقلة مفاجئة ضخمة في الاستخبارات عن القاعدة[١].

وهذا الذي ذكره التقرير هو جزء من الحقيقة، فجمال الفضل كان عضواً في القاعدة، ثم عينه الشيخ أسامة بن لادن في إحدى شركاته في الخرطوم، فاختلس منها أموالاً كثيرة، وأضاف إليها أموالاً أخرى احتال على أخذها من إخوة آخرين، ثم عاش حياة من الاحتيال والغش، وكانت إحدى آخر مغامراته شراكة تجارية مع أحد أصحاب النفوذ في السودان، ثم لما غش كالعادة، وهرب بالمال، أحس بأن الخناق قد ضيق عليه في السودان، ففي هذه الفترة سلم نفسه للأمريكان، ليحاول أن يستثمر ما لديه من حقائق مخلوطة بأكاذيب للأمريكان، الذين رحبوا به، ووضعوه تحت رعاية برنامج حماية الشهود، ثم إنه حاول استدراج صهره محمد النافع لألمانيا بحجة وجود فرص للعمل، فلما جاءه قبض عليه الأمريكان، وطالبوه بالتعاون معهم مثل جمال الفضل، فلما أبى، حكموا عليه بالسجن عشر سنوات. ثم مارس دوره أكثر من مرة مع المخابرات والمحاكم الأمريكية.

هذا هو جمال الفضل الذي يستند إليه تقرير الكونجرس الأمريكي، الذي يعبر عن إرادة الأمة الأمريكية، ومن هذا يتبين أن ذلك التقرير قد احتوى كذباً أتى من خائن كذاب.

أما روهان جواناراتنا فكذاب آخر لا يملك إلا ترويج الإشاعات، في صورة خبير في الإرهاب، وهي الدجاجة التي تبيض ذهباً في هذا الزمان.

***

٢- استخدام كذبة قتل الأبرياء:

يذكر ويليام ماكنتس وزملاؤه من مركز مكافحة الإرهاب في أكاديمية الولايات المتحدة العسكرية بالجيش الأمريكي:

"يفقد الجهاديون المصداقية في أوساط عامة المسلمين حينما يهاجمون النساء والأطفال والمسنين وثروة الأمة".

وأن الدعاية الجهادية يمكن مقاومتها برسائل منها:

"إن الرسالة الجهادية ضعيفة جداً وغير مقبولة، لدرجة أنهم يضطرون لاستخدام العنف لإقناع الناس"[٢].

وقال جيمس فيليبس في محاضرته أمام مؤسسة التراث[٣] إن الولايات المتحدة يجب أن تدفع الإصلاحات الديمقراطية وحرية السوق حتى تقوي المسلمين سياسياً واقتصادياً، وأن تنتهز كل فرصة

---

[١] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ٦٢, ١٠٩ & ٤٣٥.

[٢] Militant Ideology Atlas, Executive Report p: ٥, ٦ & ١١.

[٣] Heritage Foundation.

لمواجهة برنامج القاعدة والمنظمات المماثلة التي لا تقدم إلا قتلاً ودماراً لا ينتهيان. ولا بد من نشر جرائم القاعدة، وخاصة ضد المسلمين، ونشر اعترافات المنشقين عن القاعدة، وكشف جهود القاعدة وحزب الله والمجموعات الإرهابية في تهريب المخدرات، التي أدمنتها أعداد غفيرة من المسلمين وملايين من غير المسلمين.

ولا بد للولايات المتحدة أن تظهر بن لادن على أنه يهدد العالم الإسلامي، كما يهدد الغرب. ولا بد من أن نبذل أقصى الجهد لإثبات أن بن لادن قد قتل من المسلمين أكثر مما قتل من غير المسلمين، ومن الأفغان أكثر مما قتل من الأمريكان[١].

وهذا مثال للكذب الأمريكي الفاجر، فأكبر القتلة في التاريخ المعاصر، يرمون غيرهم بما وقعوا في الآلاف من أضعافه، وقد تعرضت بإيجاز من قبل لأسلوب الغرب الصليبي في الحرب[٢]، بما يغني عن إعادته، ولكني هنا أضيف قليلاً من المعلومات عن أسلوب الأمريكان في الحرب حتى تظهر الطبيعة الإجرامية المتأصلة في السلوك الأمريكي.

تذكر ديبوره نيلسون في كتابها (الحرب من خلفي)، التي درست فيه مع زميلها المؤرخ العسكري نيكولاس تُرس أرشيف الجيش الأمريكي عن جرائم الحرب في فيتنام:

"إن مجموعة الأرشيف تحتوي على مئات من الإفادات -تحت القَسَم- من جنود ومحاربين قدامى، من الذين ارتكبوا أو شهدوا على حوادث الاغتصاب والقتل والتعذيب والمذابح والأفعال غير القانونية.

....

ولما أدخلنا المعلومات يدوياً في قائمة مجدولة تبين بوضوح أن المشكلة أكبر من كونها مشكلة بعض الأشخاص السيئين، فكل فرقة رئيسية خدمت في فيتنام كانت ممثلة. وقد أحصينا أكثر من ٣٠٠ ادعاء في حالات ثبتت بالدليل بناء على تحقيقات الجيش نفسه. وبعضها لم تُكشف قط، وبعضها أُنكرت علناً، بينما ظل الجيش صامتاً حول نتائج تحقيقه.

ولم يمكن إثبات ٥٠٠ ادعاء، أو لم يستكمل التحقيق فيها. وطبقاً للضباط الذين ساعدوا في تجميع تلكم التسجيلات: فإن تلك الأرقام تمثل فقط جزءاً يسيراً من جرائم الحرب، التي ارتكبت في فيتنام".

---

(١) The Evolving Al-Qaeda Threat, p: ١٠.

(٢) الجزء الأول: التفاتة للماضي/ الباب الرابع: العودة لأفغانستان/ الفصل الرابع: الغزوات المباركات/ المطلب الثاني: المعاني القتالية التي أبرزتها الغزوات/ الفرع الثاني: كيف يقاتل العدو؟

وتذكر أيضاً أن جون كيري[1]، الذي كان زعيماً في منظمة (قدامى محاربي فيتنام ضد الحرب[2]) أدلى بشهادته في الكونجرس في ٢٢ أبريل ١٩٧١، والتي قال فيها إن القوات الأمريكية في فيتنام:

"انتهكت الأعراض، وقطعت الآذان، وقطعت الرؤوس، ولفت الأسلاك من الهواتف النقالة حول أعضاء التناسل البشرية، ثم شغلت الكهرباء، وبترت الأعضاء، وفجرت الجثث، وأطلقت النار عشوائياً على المدنيين، ودمرت القرى بأسلوب يذكر بجنكيز خان، وأطلقت النار على الأبقار والكلاب للتسلي، وسممت مخازن الغذاء، وعلى العموم خربت ريف جنوب فيتنام، بالإضافة لتخريب الحرب المعتاد" [3].

وذكرت أيضاً أنها وزميلها:

"قد أحصيا سبع مذابح مؤكدة في أرشيف أركان الجيش، سوى مذبحة ماي لاي، وأربعة وثلاثين تقريراً عن مقتلات جماعية، لم تثبتها تحقيقات قسم التحقيقات الجنائية" [4].

أما ما هي مذبحة ماي لاي؟

وقعت مذبحة ماي لاي في مارس ١٩٦٨ على يد الجيش الأمريكي في فيتنام أثناء هجومه على قرية ماي لاي الصغيرة، وهي جزء من مجمع قرية سونج ماي في مقاطعة كوانج نجاي في جنوب فيتنام، وقتل فيها قرابة ٥٠٠ مدني.

ففي صباح ١٦ مارس أُخبِر الجنود من قوة مهام باركر من اللواء الحادي عشر من فرقة (أمريكال) أن عليهم أن يهاجموا مركزاً للأعداء، وأن يتجهزوا لقتل كل من يلاقونه، ولكن لما بلغوا المكان لم يكن به إلا النساء والأطفال والرجال المسنون، يمارسون أنشطتهم العادية، فوصلت فصيلة بقيادة الملازم ويليام كالي، وأخذت في تجميع السكان في مجموعات لإعدامهم، فقتلوا في ماي لاي ٣٥٧ شخصاً، وفي قرية صغيرة مجاورة قرابة ١٥٠ آخرين، كما أن كثيراً من القرويين قد انتهكت أعراضهم ومُثل بهم. وطوال كل الهجوم لم تكن هناك أية نيران معادية من القرية.

وفي البداية قام الجيش بالتغطية على المذبحة، ولكن فيما بعد صورت المذبحة للجمهور الأمريكي على أنها انتصار باهر على مقاتلي عصابات جبهة التحرير الوطنية، ولم تنكشف الوقائع الحقيقية إلا بعد عام من وقوعها.

---

[1] الذي ترشح للرئاسة عام ٢٠٠٤ منافساً لجورج بوش في انتخابات عهدته الثانية.

[2] Vietnam Veterans Against the War.

[3] The War Behind Me, p: ٣.

[4] The War Behind Me, p: ٤٣.

ولقد كانت المساعي لحماية المدنيين طوال حرب فيتنام ضئيلة، وكان كل فيتنامي يشك في دعمه لجبهة التحرير الوطنية يعد هدفاً لا نزاع فيه، ولكن المذبحة المتعمدة لسكان القرية غير المقاومين اعتبرت جريمة حرب خطيرة، لدرجة أن كل مستويات القيادة في فرقة (أمريكال) تواطئت على التغطية عليها.

وقد اقتصر التحقيق المبدئي للجيش على ١٢ من الضباط صغار الرتب والمجندين. وفي النهاية أحيل خمسة لمجلس عسكري. ووجد أحدهم وهو الملازم كالي مذنباً، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة. ولكن تلقى الرئيس نيكسون على مدى الشهرين التاليين للحكم ١٥٠٠٠ رسالة تحتج على الحكم، وكذلك استقالت كل لجان التجنيد، وشرع تنظيم (المحاربين القدماء في حروب الولايات المتحدة الخارجية) حملة بعنوان (أطلقوا كالي). وفي نفس الوقت استهزأ بالحكم، وزعم أن كالي كان كبش فداء في حرب، كانت هي ذاتها مجرمة.

وعقد التنظيم تحقيقاً جندياً شتوياً، أدلى فيه ١٠٠ من قدامى المحاربين بشهاداتهم أمام عدسات شبكات التلفاز، قرروا فيها أن الفظائع الشبيهة بفظائع ماي لاي كانت تعد إجراءات عملياتية عادية طوال فترة الحرب، حتى وإن لم تكن على نفس الدرجة. وأشاروا إلى أن غارات القصف كثيراً ما محت قرى بأكملها في دقائق، ولما بدأ مسؤولو الجيش في تهديد قدامى المحاربين أولئك، انطلقت موجة اعتراض من محاربين قدامى آخرين في كل أمريكا، بدأوا في ذكر حوادث مماثلة.

وفي النهاية صار الرأي العام الأمريكي مقتنعاً بأن كالي إما أنه ما كان يجب أن يدان أصلاً على أدائه لواجبه، أو أنه ضحي به لتغطية أفعال رؤسائه. وفي النهاية أمضى كالي أربعة أعوام في اعتقال منزلي، وعفي عنه في ١٩٧٤. أما رؤساء كالي فقد برؤوا[١]!!

وتنقل ديبوره نيلسون عن ستيفن شوكالا[٢] أن تناول الإدارة لتحقيقات ماي لاي قد حطم معنويات قسم التحقيقات الجنائية، فقد رُشح للاتهام ٣٠ شخصاً، وُجهت التهم لستة عشر منهم، وحوكم خمسة، وأدين الملازم ويليام كالي فقط، وفي أبريل ١٩٧١ أمر نيكسون بأن يسمح له بقضاء العقوبة في منزله. فكيف يمكن أن يعاقب أي شخص آخر بعد هذا؟ لقد أصاب هذا التوجه النظام القضائي العسكري بالعجز، فالقادة تراجعوا عن متابعة التهم، والمحامون لم يرغبوا في الادعاء، والمحلفون عزفوا عن الإدانة[٣].

---

(١) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, My Lai Massacre.

راجع أيضاً لمزيد من التفاصيل عن مذبحة ماي لاي وغيرها:

Encyclopedia of Prisoners of War and Internment, MY LAI MASSACRE, p: ٢٧٦.

ومقال (أمريكا بدأت هجومها العام والشامل على الإسلام. بن لادن– وليس أبو جهل و أبو لهب – هو الحل).

(٢) كان ستيفن شوكالا أعلى مستشار قانوني لهنري تفتس قائد قسم التحقيقات الجنائية بالجيش خلال حرب فيتنام.

(٣) The War Behind Me, p: ١٤٧.

وذكرت أيضاً عن قضية أنتوني هربر، أنه رغم أن قسم التحقيقات الجنائية قد أثبت حفنة فقط من ادعاءاته، إلا أن ما أثبته يعد حالات بشعة. فإحداها تعلقت بقتل ثمانية أسرى على يد جنود فيتناميين جنوبيين تحت إشراف مستشار أمريكي. ويقول هربرت أنه لما وصل كانوا يذبحون امرأة فيتنامية وطفلها متعلق برجلها. وتضمنت أربع ادعاءات أخرى حوادث تعذيب للمعتقلين باستخدام الماء والصعق الكهربي والعصي. وذكرت مذكرة لرئيس قسم التحقيقات الجنائية أن المحققين في ادعاءات هربر قد وصلوا لأدلة على استخدام محققي الاستخبارات العسكرية للتعذيب بواسطة الهواتف الميدانية والماء والعصي[١].

وتذكر أيضاً نقلاً عن الجندي جامي هنري أنه في يوم ٧ فبراير ١٩٦٨ تلقت سريته أمراً بتمشيط الحقول والقرى المجاورة، وطلب منهم قتل أي شيء يتحرك. وفيما بعد اكتشف جنود الفصيلة رجلاً في حفرة بحقل، فأمسك به اثنان من الجنود، وثبتاه على الأرض أمام ناقلة جنود مدرعة، مرت عليه بجنزيرها الأيمن، ولكنه لم يمت، فرجعت عليه مرة أخرى.

وفيما بعد سمع هنري ملازماً من السرية يخبر قائده باللاسلكي؛ أن رجاله قد قبضوا على ١٩ مدنياً، ويسأل عما يتوجب عليهم أن يفعلوه بهم؟ فرد عليه بأن (الأعلى) قد قال بقتل كل شيء يتحرك. ثم جمع الجنود النساء والأطفال فوق بعضهم في كومة، وأخذ الملازم وجنوده يصوبون عليهم أسلحتهم، ثم أتى جنديان بفتاة مراهقة عارية يجرناها، وألقياها فوق كومة النساء والأطفال، التي كان فيها أيضاً رضع، وما أن فعلا ذلك حتى شرعوا بإطلاق النار عليهم[٢]. وقد كشفت قضية هنري حقيقة أخرى في جرائم الحرب الأمريكية، فبعد أن عد هنري كاذباً، أعيد النظر في قضيته مرة أخرى، وأثبت المحققون أن سريته قد قامت بمذبحة ضد ١٩ مدنياً، ولكن أحداً من المتهمين لم يحل لمحكمة عسكرية[٣].

وتذكر ديبوره نيلسون أنه في السنوات الأربع الأولى من الحرب لم يتتبع الجيش العديد من الادعاءات، ولكن بعد مذبحة ماي لاي ظهرت مئات الادعاءات عن جرائم حرب، ولكن الزيادة جاءت في العدد وليس في الجودة، وكثير من هذه الحالات جرى فيها تحقيق سطحي، ومن هذه الحالات اتهامات بمذبحة للنساء والأطفال في مقاطعة كوانج نجاي في عام ١٩٦٧ على يد وحدة استطلاع قوة النمر[٤]، وهي الفصيلة التي ارتبطت بفورة من حوادث القتل، استمرت لسبعة أشهر في الأراضي العليا المركزية، أخفاها

---

(١) The War Behind Me, p: ٤٩.

(٢) The War Behind Me, p: ١٢& ١٣.

(٣) The War Behind Me, p: ١٤١ & ١٤٢.

(٤) Tiger Force.

الجيش الأمريكي، ولكن كشفتها جريدة (النصل الطليطلي)[١]. وأنها قد أحصت ٥٣ حالة اعتبرها قسم التحقيقات الجنائية مؤكدة، ولكنها أغلقت لأنها اعتبرت غير مثبتة، لأن المحققين اعتبروا أن كثيراً منها لا تشكل جريمة، والكثير من حالات تشويه الجثث هي من هذا الصنف، لأن المحققين لم يستطيعوا التأكد من أن الجندي الذي يحوز أذناً أو جمجمةً، هو نفسه الذي قطعها من الجسد. وتذكر بأنه كانت هناك زيادة في التحقيقات بعد مذبحة ماي لاي، ولكن هذه الزيادة لم تترجم إلى زيادة في الإدانات، لأن قسم التحقيقات الجنائية كان قد حقق مع ٢٨٤ مشتبهاً به في جرائم حرب غير ماي لاي، أدين منهم فقط ٣٠.

وتذكر أيضاً أنها قد بحثت في أرشيف الجيش عن التحقيقات التي اعتبرها قسم التحقيقات الجنائية ثابتة، وفصلت منها أشد الجرائم، وهي الجرائم ضد النفس، فأحصت ١٩١ مشتبهاً به، فوجدت أن ٥٢ منهم قد حوكموا، وأدين منهم ٢٣. وكل هذه الـ ٢٣ حالة كانت جرائم بشعة من القتل والاغتصاب والتعذيب، ولكن عوقب منهم ١٤ فقط بالسجن، ورغم أن أحكام السجن تراوحت من ستة أشهر لعشرين سنة، إلا أن نصفهم -على الأقل- أمضوا أقل من سنة في الحبس. وكانت أشد الأحكام في الأرشيف بحق محقق في الاستخبارات العسكرية أدين بانتهاك عرض فتاة في الثالثة عشر من عمرها في مجمع للأسرى، وقد صدر بحقه حكم بعشرين سنة مع الأشغال الشاقة، وغرامة كاملة، وطرد غير مشرف. ولكن عند الاستئناف خفض الحكم لسنة مع الأشغال الشاقة وغرامة جزئية، ولكنه أمضى فعلياً سبعة أشهر وستة عشر يوماً محبوساً[٢].

وتذكر قصة أخرى يرويها بيتر ن. مَرتِنسن الذي كان يعمل في الوحدة ٥٤١ من المخابرات الحربية، حيث شهد بأنه قد أُتي له بأسير، لا يعرف من أين جاء؟ ولا ماذا كان يفعل؟ وبدأ يسأله عن الفيت كونج، فأنكر معرفته بشيء، فانهال عليه ضرباً، وظل الأسير ينكر، ثم جاء ضابط، وكرر الضرب، ثم أوصله بسلكي هاتف ميداني، أوصلهما أولاً بيديه، ثم بأعضائه التناسلية، وهذا الهاتف إذ شغلته يحدث صدمة كهربائية مزعجة ومؤلمة جداً.

ثم أخذت الأمور منحى أظلم حين التحق بالوحدة ١٧٢ من المخابرات الحربية، حيث شاهد تعذيباً، لم يشاهده من قبل في أية عملية خاصة في فيتنام. وأنهم في مرة استقبلوا مجموعة كبيرة من الأسرى، وكان مع الاستخبارات منشق عن الفيت كونج، يرشدهم عن زملائه السابقين. وقد أشار هذا المرشد لأحد الأسرى، بأنه يظن أنه قيادة محلية في الفيت كونج في المثلث الحديدي، وبدأ التحقيق معه بعد الظهر،

---

[١] Michael D. Sallah, Mitch Weiss, and Joe Mahr, "Buried Secrets, Brutal Truths," *Toledo Blade,* October ١٩–٢٢, ٢٠٠٣.

وهو المسلسل الحائز على جائزة بوليتزر.

[٢] The War Behind Me, p: ١٤٠ to ١٤٣.

وفي الليل جاء النقيب الذي كان يحقق معه، وأخبرهم بأنه كان يصعقه بالكهرباء، ولكن الأسير مات بعد أن كان قد وصل لحافة الانهيار، وأوشك على الاعتراف[١].

وتذكر قصة أخرى يرويها روبرت ستمي، الذي كان يعمل في الاستخبارات الحربية الملحقة بالفرقة ١٧٣ المحمولة جواً. فيذكر ستمي أن أحد مخبريه أخبره عن مستوصف يديره الفيت كونج، وأبلغ ستمي قيادته عنه، وأنه كان محروساً حراسة خفيفة، وظن ستمي أن القوات الأمريكية أو الفيتنامية، ستقبض على الحراس، وتخلي المرضى والجرحى لمستشفى.

ولكن بعد عدة أيام نبهه أحد محدثيه لقمة أحد الجبال، وقال له: انظر. فشاهد منظراً رهيباً، حيث رأى طائرات السي ١٣٠ تلقي بالفسفور الأبيض فوق المستوصف، وما لبث الفوسفور الأبيض أن اشتعل، فخنق وأحرق المرضى[٢].

وتضيف ناقلة عن ستمي أيضاً؛ أن الضرب والصعق كانا من الوسائل المعتادة، وأن المحققين كان يستخدمون أيضاً (خرقة الماء)، وهي وسيلة شبيهة بالأغراق بالماء الذي يستخدم الآن، حيث كانت توضع خرقة من قماش على وجه الأسير، ثم يصب عليها الماء حتى يوشك على الغرق، وإذا حدث ومات الأسير أثناء العملية، فإن التقارير الرسمية تشير لحالة مرضية كسبب للوفاة[٣].

وتذكر أنها وزميلها المؤرخ العسكري نيكولاس تُرس عثرا على أرشيف العقيد هنري تفتس قائد قسم التحقيقات الجنائية بالجيش الأمريكي في مكتبة جامعة متشجان، وأن هذا الأرشيف يحوي كومة ملفات يبلغ ارتفاعها ستة أقدام، اختلسها تفتس من قسم التحقيقات الجنائية قبل عزله عن قيادته. ويحوي هذا الأرشيف قضايا هامة عن جرائم الحرب الأمريكية في فيتنام، مثل موجة المذابح التي قامت بها فصيلة القوات الخاصة من قوة النمر لمدة سبعة أشهر في الأراضي العليا المركزية. وأنها وزميلها أحصيا في ذلك الأرشيف أكثر من مائة ادعاء بالتعذيب وتغطية الحقائق في الفترة ما بين مارس ١٩٦٨ وأكتوبر ١٩٦٩. وتؤكد أن المشكلة بالتأكيد كانت أكبر من ذلك. وأنهما جمعا من ذلك الأرشيف أسماء عشرين مشتبه به، اعترف ثمانية منهم -على الأقل- بالجرم، وأقروا بأن استخدام الهواتف الميدانية في الصعق، و(خرقة الماء) لكتم الأنفاس، واللكم والضرب بالعصي كانوا من الوسائل المعتادة. ولم يثبت أن أياً من هؤلاء المشتبه بهم -حتى الذين اعترفوا- قد واجهوا أية محاكمة عسكرية.

وتضيف أن أكثر المشتبه بهم ذكراً كان الرقيب دافيد كامرون، وأن زميلها نيكولاس تُرس استطاع التواصل معه عبر البريد الإلكتروني، وأنه أرسل له أسئلة، وتلقى منه أجوبتها، وكان منها:

" - أين تعلمت طرق الهاتف الميداني وخرقة الماء؟

---

[١] The War Behind Me, p: ٥٠ & ٥١.

[٢] The War Behind Me, p: ٥٤ & ٥٥.

[٣] The War Behind Me, p: ٥٦.

- من المترجمين (المحققين) الفيتناميين، ومن الشرطة الوطنية الفيتنامية.

- وهل كانت تلك الوسائل مقصورة على الوحدة ١٧٢ استخبارات حربية؟

- لا".

ثم ختم كامرون أجوبته بقوله:

"أنا لست نادماً على أي شيء فعلته، وسأتصرف غالباً بنفس الطريقة، لو وضعت في موقف من نوع فيتنام مرة أخرى.

....

لقد خدمت بلادي بأقصى طاقتي، وأنا فخور للغاية بخدمتي".

وفي رسالة تالية بالبريد الألكتروني أجاب عندما سئل؛ هل تلك الوسائل في التعذيب كانت تستخدمها وحدات الاستخبارات العسكرية الأخرى:

"هذه الوسائل استخدمت بواسطة كل الوحدات... الضباط، المقدمون، وما دونهم شهدوا تحقيقات عديدة، والكثيرون شجعوا إساءة معاملة أسرى الحرب... لقد كانت حرباً وحشية. وليس في ذهني أي شك أن كل شخص كان لديه علم".

ثم أخبرهما أنه غير راغب في استمرار التواصل معهما، وأجابهما بإجابة جامعة، جاء فيها:

"أنتم تصنعون المشاكل لي ولكل الجنود الآخرين، الذين عزموا على القتال والموت من أجل ما اعتقدوه قضية عادلة".

ولما سألته أن يوضح، أجاب بجواب جاء فيه:

"ركزا على تحريض الجمهور ليدعم الرئيس في حرب العراق".

وفي آخر تواصل معه رد بإجابة جاء فيها:

"أعتقد أني واثق من القول بأن كل شخص تقريباً كان مدركاً لوسائل التحقيق"[١].

وتذكر ديبوره نيلسون أن مقالاً بمجلة النيوزويك عام ١٩٧٢ قدر أن آلاف المدنيين الفيتناميين قد قتلوا عن عمد على يد القوات الأمريكية. وقد أشار المقال لعملية (الإكسبريس السريع[٢])، وهي عملية قتالية لمدة ستة أشهر في عام ١٩٦٨ لاستئصال جبهة التحرير الوطنية من كين هو، وهي مقاطعة رئيسية في دلتا الميكونج. وقد سجلت فرقة المشاة التاسعة أن ١٠٨٩٩ عدواً قد قتلوا، ولكن جمعت ٧٤٨ سلاحاً فقط! وقد حاور المراسل المحقق[٣] كيفن ب. بكلي السكان، وراجع سجلات المستشفيات

---

[١] The War Behind Me, p: ٦١ to ٦٦.

[٢] Speedy Express.

[٣] بمجلة النيوزويك.

المدنية، واستشار مصادر عسكرية، وقدر أنه في حدود خمسة آلاف مدني قد هلكوا في العملية، وقد دفعه هذا الرقم المذهل لأن يستخلص أن:

"مذبحة ماي لاي تعد تافهة بالمقارنة".

وقد رفض الجنرال إبرامز[١] التحدث لبكلي[٢].

وتذكر ديبوره نيلسون أنه في فبراير ١٩٧٠ قتلت دورية أمريكية خمس نساء غير مسلحات وإحدى عشر طفلاً في سون ثانج في مقاطعة كوانج نام. وقد حظيت القضية بتغطية إعلامية، وألف عنها جاري د. سوليس كتابه (سون ثانج: جريمة الحرب الأمريكية). وقد حوكم في هذه الحادثة أربع رجال أمام محكمة عسكرية، أدانت اثنين منهما، حكمت على أحدهما بالسجن المؤبد والآخر بخمس سنوات، ولكن كلا الحكمين تم تخفيضه إلى سنة واحدة بواسطة قائدهما[٣].

وقد اتصلت ديبوره نيلسون بسوليس الذي خدم في فيتنام، وكان يدرس قانون الحرب في أكاديمية وست بوينت، فقال لها:

"إنني متأكد من وجود حوادث قتل عديدة علي أيدي الأفراد الأمريكيين في جنوب فيتنام، وهي تشكل جرائم حرب".

وقد قال لها إن مراجعته المستفيضة لتلك الحوادث أظهرت له أنه:

"لم يكن هناك تسجيل رسمي لتلك الحوادث، لأن تلك التسجيلات لم تكن مرغوباً بها، كما أنها لم تحفظ بصورة رسمية".

وذكرت أيضاً أن هيونك كُوُن -المتخصص بعلم الإنسان الاجتماعي بجامعة إدنبره، والذي درس المذابح في حرب فيتنام- أخبرها أنه قد وجد أدلة قوية على وقوع الكثير منها في مقاطعة كوانج نام، ولكن أُغفل ذكرها، وأن أسوأ موجة وقعت في أواخر الستينات، وأن الضغط على القوات لتحقيق نتائج ملموسة -في صورة أعداد كبيرة من القتلى- حتماً دفعها لقتل المدنيين الأسهل استهدافاً[٤].

وأضاف لها كُوُن:

"إن ما حدث في ماي لاي لم يكن على بشاعته غير عادي في ١٩٦٦- ١٩٦٩ في كوانج نام وكوانج نجاي"[٥].

---

[١] الجنرال جريتون دبليو إبرامز تولى قيادة العمليات العسكرية في فيتنام من عام ١٩٦٨.

.

[٢] The War Behind Me, p: ٨٩ & ٩٠.

[٣] The War Behind Me, p: ١٣٤.

[٤] The War Behind Me, p: ١٣٥ & ١٣٦.

[٥] The War Behind Me, p: ١٣٦ & ١٣٧.

وأنا أود أن ألفت انتباه القارئ هنا إلى التوجه العام للرأي العام في أمريكا، وأن معظم الأمريكان لا يهمهم إلا تبرئة مجرميهم، الذين تلقوا في النهاية عقوبات صورية. كما اتضح جلياً في الغضبة الشعبية العارمة على محاكمة الملازم كالي. كما أنبه القارئ أيضاً إلى أن نفس العقوبات الصورية قد صدرت بحق بعض مجرمي الولايات المتحدة في فضيحة أبو غريب[١].

فإذا تذكر القارئ أن فيتنام فقدت خمسة ملايين قتيل، بالإضافة للدمار الرهيب الذي لحق بها، وإذا تذكر أن الولايات المتحدة لم تتحمل أية مسؤولية عما ارتكبت في فيتنام لا مادية ولا معنوية، ولم تعوض الفيتناميين بأي تعويض، إذا تذكر القارئ كل هذا يدرك الطبيعة الإجرامية للولايات المتحدة.

فإذا قرن القارئ هذا السجل الإجرامي المتواصل للولايات المتحدة مع ما تمارسه الآن من جرائم في أفغانستان والعراق وفلسطين والصومال، لأدرك مدى فجور وغش كتاب الحملة الصليبية في مؤسسة راند ومركز مكافحة الإرهاب في الجيش الأمريكي ومؤسسة التراث وغيرها في اتهامهم لغيرهم بالتعرض للمدنيين، وإجرامهم في حقهم. ولأدرك أن جريمة أولئك الكتاب مضاعفة فهم يرمون غيرهم بافتراء، بينما هم أكبر المجرمين في هذه الدنيا.

هذه الوسائل استخدمتها أمريكا ولا زالت تستخدمها في كل حروبها، ومع ذلك خسرت حربها في فيتنام، وستخسر أيضاً معها حربها على الإسلام (الإرهاب).

وأمريكا التي توبخ صديقاتها من الأنظمة القمعية كل عام في تقرير وزارة خارجيتها عن حقوق الإنسان، كانت ولا زالت تستخدم نفس حيل تلك الأنظمة التي تصفها أمريكا بالاستبدادية وغير الديمقراطية:

أ- إنكار وقوع التعذيب، وما افتضح منه إنما هو حالات فردية تم التحقيق فيها ومعاقبة من ثبت عليهم.

ب- التوقيع على اتفاقيات دولية بشأن الأسرى ومنع التعذيب، ثم إلقاؤها في سلة المهملات.

ج- في حالة الاضطرار للاعتراف بوقوع التعديات على الأسرى فإن التبرير هو ضرورة الأمن والحفاظ على أمن الدولة والشعب.

وهذا يقدم نموذجاً للنفاق المتأصل في الحضارة الغربية، فهم يعتبرون:

---

[١] انتهت كل ضجة أبو غريب إلى إعفاء ١٧ جندياً من الخدمة، وتوجيه التهم لسبعة، و أنزلت رتبة قائدة السجن من عميد لعقيد، وفي النهاية حكم على اثنين؛ بعشرة وثلاث سنوات، ومما سبق يتبين لنا أنه لا تلازم بين الأحكام الصادرة، وفترة السجن التي يقضيها المتهم.

[Encyclopedia of Prisoners of War and Internment, ABU GHRAIB PRISON, p: ٢].

أ- أن حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية وحسن معاملة الأسرى إنما تتعلق فقط بإنسانهم وحريتهم وديمقراطيتهم وأسراهم، ولذا فلا شأن لبقية البشر بها، وهو ما يكشف النظرة الاستعلائية للآخرين، وأنهم أقل من درجة البشر، رغم صياحهم الممل عن الاعتراف بالآخر.

ب- أن ما هو حلال لهم حرام على غيرهم. فالمحكمة الدولية التي تطارد بها أمريكا الرئيس السوداني عمر البشير، ترفض أمريكا أصلاً تطبيق قوانينها وأحكامها على أي فرد أمريكي، وأسلحة الدمار الشامل التي تمتلكها وتكدس بها مخازن إسرائيل حرام على غيرها، فتأمل التناقض بين التفاخر بالعقيدة وبالالتزام بالقوانين والقيم الأمريكية وبين الدجل الأمريكي في نفس الوقت.

ولا يفوتني هنا قبل أن أنهي الكلام على الدجل الأمريكي في مسألة قتل الأبرياء والاعتداء عليهم، أن أذكر القارئ بالاطلاع على رسالة صغيرة الحجم ولكنها معبرة وموضحة لحقيقة الأمريكان، صنفها الشيخ أبو يحيى الليبي -حفظه الله- بعنوان (حقيقة ما يجري وراء قضبان سجون الأمريكان)، يصف فيها تجربته في سجون الأمريكان في باكستان وأفغانستان، ومدى خسة الأمريكان في تعاملهم مع أسراهم.

***

٣- تشويه صورة القاعدة لدى المسلمين غير العرب بتصويرها على أنها عربية فاشية مادية مهووسة بتكفير الحكومات.

تقول إنجل راباسا وزملاؤها من مؤسسة راند ناصحين مخططي السياسة والدعاية الصليبية:

"افصم العلاقات مابين الجهاد العالمي والمحلي.

....

في الدول الإسلامية غير العربية يمكن التأكيد على النزعة العربية للنواة الصلبة للقاعدة، وكذلك على هوس القاعدة بالأنظمة (المرتدة) في الشرق الأوسط.

وهذا التناول يمكن أن يكمل السياقات السياسية الموازية، التي تبرز خصائص النواة الصلبة للقاعدة المادية والفاشية الجديدة وانتماءها للطبقة العليا والوسطى، أو بعبارة أخرى إبراز الطبيعة الإصولية الأجنبية لأشخاص مثل بن لادن والظواهري" [(١)].

وهذا التوجيه من مفكري الحملة الصليبية في مؤسسة راند، يدعونا للحذر من كل من يثير النعرات العصبية للسعي في التفريق بين الأمة ومجاهديها في الإعلام.

وهو يدل على تخوفهم من التعاطف الكبير الذي يبديه المسلمون في باكستان وأفغانستان لإخوانهم المهاجرين من العرب والترك وأهل القوقاز وشرق آسيا وغيرهم من المسلمين.

٤- القاعدة تكفيريون يكفرون كل من خالفهم:

---

(١) Beyond al-Qaeda, p: xxvi.

وهي الكذبة التي يرددها علماء السلطان في الجزيرة والأحزاب الشيعية في العراق وكُتاب مركز مكافحة الإرهاب بالجيش الأمريكي.

ذكر تقرير الكونجرس الأمريكي عن الحادي عشر من سبتمبر:

"يفضل معظم المسلمين نظرة مسالمة وشاملة لإيمانهم، وليست طائفية بن لادن العنيفة، ويُدعى أتباع بن لادن وسط العرب بالتكفيريين، وتعني (الذين يعتبرون غيرهم من المسلمين كفاراً)، بسبب استعدادهم لوصم وقتل من يختلفون معهم" [١].

وقد ذكرت من قبل في المقدمة، ما ذكره كتاب (التناسق وعدم التناسق) الصادر عن مركز مكافحة الإرهاب بالجيش الأمريكي، في تعريفه للردة عند القاعدة بأنها: تضم كل أولئك الذين يختلفون مع تفسير القاعدة للإسلام[٢]!

كان ما ذكرته من قبل آراء وكتابات من هيئات رسمية صليبية تحاول أن تشوه صورة المجاهدين، ولكن المؤسف والمؤلم أن يشارك في هذه الحملة أيضاً من ينسبون للعمل الإسلامي، مثل الدكتور عزام التميمي مدير معهد الفكر الإسلامي بلندن، فقد ذكر في فيلم أعدته البي بي سي، وهي الهيئة المعروفة بعدائها للإسلام، فقد أنشأتها المخابرات البريطانية في العشرينيات لنشر الدعاية البريطانية، والفيلم بعنوان (قوة الكوابيس)، ويدور حول فكرة أن المجاهدين وخاصة القاعدة يشتركون مع المحافظين الجدد في أمريكا في محاولة السيطرة على البشر عن طريق التخويف والإرعاب.

يقول عزام التميمي في ذلك الفيلم ما ترجمته:

"إن أيمن الظواهري وصل لقناعة؛ أنه مادام لديك ما يمكن وصفه بالهدف السامي، فإن الوسائل ممكن أن تكون كأسوأ ما تكون، تستطيع أن تقتل من تشاء من الناس، لأن الغاية نبيلة. وكان المنطق؛ أننا الطليعة، وأننا المسلمون الصحيحون، وكل ما عدانا خاطئ، وليس فقط خاطئاً، بل كل ما عدانا غير مسلم، والوسائل الوحيدة المتاحة لنا اليوم هي أن نشق طريقاً إلى الكمال قتلاً" [٣].

وإني لأتعجب من هذا الافتراء الصريح، وما قلته وكتبته كثير منه منشور والحمد لله، ولذا فإني أدعو من يتهمني بهذا الاتهام أن يورد حرفاً واحداً من كلامي يؤيد ما يقوله، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

٥- القاعدة قطبيون:

من حيل الحملة الصليبية الفكرية إلصاق وصف (القطبيين) بالقاعدة. يذكر تقرير الكونجرس عن الحادي عشر من سبتمبر:

---

[١] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ٥٤.

[٢] Harmony and Disharmony p: ٥٧.

[٣] THE POWER OF NIGHTMARES, part one, min.: ٤٦,٢٤- ٤٧,٠٤.

" بن لادن يعتمد أيضاً بقوة على الكاتب المصري سيد قطب" .

وأن سيد قطب يعتقد:

"أن أي مسلم يرفض آراءه هو مجرد كافر، يستحق التدمير.

ويشارك بن لادن قطب في نظرته الحادة، مما سمح له وأتباعه بتبرير حتى القتل الجماعي غير المبرر باعتباره الدفاع الصحيح عن العقيدة المحاربة" (١).

وينصح ويليام ماكنتس وزملاؤه من مركز مكافحة الإرهاب بالجيش الأمريكي بأن توسم الحركة الجهادية (بالقطبية)، لأنهم يقتبسون من سيد قطب أكثر من أي كاتب معاصر آخر، وأن المعارضين للجهاديين بما فيهم من يسمون أنفسهم بالسلفيين يلصقون هذا الوصف بالجهاديين، لأن هذا يعني أنهم يتبعون بشراً، وأنهم طائفة منحرفة، وينفر الجهاديون من ذلك الوصف، ويفضلون خيراً منه وصف (الجهادي) أو (السلفي)، كما أن استخدام ذلك الوصف سيزيل من كلام السياسيين الرسميين الأوصاف المنفرة مثل (الفاشيين الإسلاميين)، كما أنه سيصنفهم باعتبارهم تيار غير إسلامي(٢).

وهكذا أوضح كُتاب مركز مكافحة الإرهاب بالجيش الأمريكي الغرض السيء من هذا الاتهام.

والمجاهدون عامة والقاعدة خاصة -مع احترامهم للأستاذ سيد قطب -رحمه الله- ولجهاده- لا يعتبرون أنفسهم قطبيين ولا وهابيين، بل هم مسلمون على عقيدة أهل السنة والجماعة والسلف الصالح يتبعون الدليل من الكتاب والسنة.

وأنا هنا أود أن ألفت نظر القارئ الذكي إلى أن توجيهات مفكري الحملة الصليبية من اتهام المجاهدين بقتل الأبرياء وبتكفير المسلمين وبالقطبية، هي نفسها وعينها دعاوى علماء السلاطين وفقهاء التسول ضد المجاهدين، فتأمل التشابه وابحث عن سر الرابطة بين الفئتين، والله المستعان على ما تصفون.

***

٦- القاعدة تتضاءل شعبيتها:

تحرص بعض الدراسات -التي تدعي البحث العلمي- على التهوين من قدر القاعدة، وأنها في اضمحلال واندثار، وسأضرب مثلاً بدراسة صادرة عن المعهد الملكي للدراسات الدولية أو مركز تشاتم هاوس الشهير بانجلترا للباحثة مها عزام بعنوان (القاعدة بعد خمس سنوات: التهديد والتحدي).

وتزعم كاتبة الدراسة أن القاعدة قد ضعفت لحد كبير نظراً للقيود الأمنية، التي فرضت عليها. وأن القاعدة تتآكل شرعيتها نظراً لإدانة المؤسسات الإسلامية التقليدية في العالم الإسلامي لأساليبها. بينما

---

(١) ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ٥١.

(٢) Militant Ideology Atlas, Executive Report p: ١٠.

تتزايد شعبية التنظيمات الأسلامية المعتدلة الغير عنيفة، كما اتضح في فوز الإخوان المسلمين في الانتخابات بمصر[١].

وأن القاعدة قد فشلت في حيازة تأييد الأغلبية، ولكنها نجحت في زعزعة الوضع الراهن، والاشتباك مع الولايات المتحدة بطريقة تستثمرها هي[٢].

وأنه برغم أن الحكومات قد شجعت العلماء على نشر التفسير الغير العنيف للإسلام، إلا أن العلماء والتجمعات الإسلامية عليهم دور أصيل في حماية الإسلام من العدوان على مبادئه، وأنهم قد يشكلون أهم الفاعلين في الحرب على القاعدة، وأن المعركة العقائدية هي أخطر ما يهددها[٣].

وأن مواجهة التفسيرات الأصولية للإسلام هي جزء من عملية طويلة، وأن الهجوم العقائدي المضاد من العلماء هو أحد جوانبها الإيجابية، وكذلك مراجعة المناهج الدراسية في السعودية والتضييق على المدارس في باكستان، لكبح الدعوة الأصولية بين الشباب وإعاقة مراكز تجنيدهم[٤].

وأن الصراع العربي الإسرائيلي لا يزال يمثل جرحاً نازفاً، وأن أقل ما يمكن تقديمه لدعم الاعتدال في العالم الإسلامي هو الإنشاء العاجل لدولة فلسطينية قابلة للحياة، لها بعض السيادة -على الأقل- على أجزاء من القدس الشرقية، رغم أن أحداً الآن لا يطالب بتطبيق القرار ٢٤٢[٥].

وأعلق بإيجاز على تلك الدراسة ببعض الملاحظات:

١- القصور المنهجي:

أ- لم تكلف كاتبة الدراسة نفسها تقديم أية أدلة على دعاواها العريضة، ولم تسق إلا انطباعاتها الشخصية التي أعطتها صورة الأحكام.

ب- بمراجعة مصادرها، فإنها لم تكلف نفسها بمراجعة إصدارات القاعدة، ولكنها نقلت عمن سمع أو قرأ إصدارات القاعدة، مع أن إصدارات القاعدة مشهورة ومتداولة. فهل هذا هو مجهود الباحثين المنهجيين؟ الذين يكتبون عن القاعدة، ولم ينقلوا عن أي من إصداراتها.

ج- ليس هذا فحسب بل نقلت عمن نقل عن مصادر مشبوهة محرفة، فنقلت مثلاً عن كتاب فواز جرجس[٦]، الذي ينقل عن ما نشرته الشرق الأوسط من كتاب (فرسان تحت راية النبي صلى الله عليه

---

[١] Al-Qaeda Five Years On: The Threat and the Challenge, p: ٢, ٤ & ٥.

[٢] Al-Qaeda Five Years On: The Threat and the Challenge, p: ٤.

[٣] Al-Qaeda Five Years On: The Threat and the Challenge, p: ٥.

[٤] Al-Qaeda Five Years On: The Threat and the Challenge, p: ٦.

[٥] Al-Qaeda Five Years On: The Threat and the Challenge, p: ٧.

[٦] The Far Enemy: Why Jihad went Global?

وسلم)[1]. فهي لم تنقل حتى عن الشرق الأوسط، التي تصدر عندها من لندن، فما بالك إذا كانت الشرق الأوسط قد أخذت نسخة الكتاب من المخابرات الأمريكية، واخترعت قصة مضحكة عن حصولها عليه، ثم زادت في الكتاب ونقصت.

ولو كانت هذه النقائص المنهجية في مبحث عن منظمة غربية لكانت كافية في رفضه، ولكن لما كانت في مبحث في الهجوم على القاعدة والمجاهدين، فلا بأس، فلا بواكي لهم. وليقل فيهم من يشاء ما يشاء، حتى ولو صدر من ما يدعونه المعهد الملكي وأمثال ذلك من الأسماء الرنانة.

٢- كان هذا عن قصور البحث من حيث المنهج المحايد وأمانة النقل والاستسهال في الكتابة. أما من حيث النقائص الموضوعية فعديدة، ومنها:

أ- قولها إن القاعدة قد تضاءلت شعبيتها. وقد رد عليها عبد الباري عطوان في قناة الجزيرة حيث قال:

"أنا أختلف مع تقييم تشاتم هاوس، معهد الدراسات الاستراتيجية، وأنا عضو فيه، أختلف؛ إن تنظيم القاعدة لم يضعف، بالعكس، يعني إذا شاهدت إن تنظيم القاعدة بعد ١١ سبتمبر أقوى منه بكثير مما كان عليه قبل ١١ سبتمبر، إحنا قبل ١١ سبتمبر كان هناك محصور في جمهورية القاعدة في توره بوره، غير هيك مش موجود تنظيم القاعدة، لم يكن موجوداً في لندن، لم يكن موجوداً في العراق، لم يكن موجوداً في مثلاً الغرب.

....

الآن أصبح التنظيم أفقي. قيادة معروفة ومختفية. عندنا قيادة القاعدة في السعودية، عندنا قيادة القاعدة في أوروبا، عندنا قيادة القاعدة في العراق.

....

هنا عبقرية التنظيم، لأول مرة في التاريخ يوجد تنظيم عالمي، يعني كل تنظيم. الفلسطينيين كانوا محصورة في فلسطين، العراقيين محصورين في العراق، اللبنانيين حزب الله محصور في مثلاً في لبنان، لكن لأول مرة هناك تنظيم إسلامي عنده مظلة عالمية، عنده رؤية عالمية.

....

دليل تطور هذا الفكر أنه استطاع أن يربط المسلمين في بريطانيا في أميركا في أفريقيا في آسيا في الوطن العربي كله خلف تنظيم القاعدة"[2].

---

[1] Al-Qaeda Five Years On: The Threat and the Challenge, p: ٧.

[2] قناة الجزيرة- التغطية الخاصة الخامسة لأحداث ١١-٩- ندوة (تأثير الحرب على الإرهاب على تنظيم القاعدة بعد ٥ سنوات على ١١-٩).

ب- قولها إن فوز الإخوان في الانتخابات المصرية دليل على تحول الناس من تأييد القاعدة إلى منهج الإخوان المسلمين!

ولا أدري هل خاضت القاعدة انتخابات منافسة للإخوان المسلمين ففاز الإخوان عليها؟ حتى تتخذ الكاتبة ما زعمته فوزاً للإخوان في مصر مقياساً لنمو التأييد للإخوان وتضائله للقاعدة!

وهل يسمح للقاعدة بواحد على مئة من الحرية التي تسمح بها أمريكا والنظام المصري للإخوان؟ بل هل يأمن من يظهر تأييداً للقاعدة على نفسه؟

وهل فوز الإخوان في الانتخابات يعد مؤشراً على تأييد الجماهير لنهج الإخوان؟ أم يعد تأييداً من الجماهير المسلمة لكل من يرفع الإسلام شعاراً؟ ولذا يؤيدون الإخوان، الذين يسمح لهم النظام ومن ورائه أمريكا بحرية الحركة، لأسباب يطول شرحها.

وهذا يذكرنا بالقول الطريف للدكتور محمد عباس -حفظه الله- حول تعليق الدكتور عصام العريان على كلامي عن الإخوان[١]، حيث قال الدكتور محمد عباس حفظه الله:

"لقد بدأ العريان في الانفصال عن ضمير الناس.. وقد أجرت الجزيرة استطلاعا اكتشفت منه أن ٥٨% من الناس يؤيدون كل ما قاله الظواهري، و أن ١٦% يؤيدونه جزئيا..أي أن النسبة حوالي ٧٥%.. وهو ما يعني أنه في انتخابات حرة يمكن أن يكون الظواهري رئيسا أو خليفة بينما يسقط عصام العريان"[٢].

---

[١] علق الدكتور عصام العريان على كلمة لي نشرتها قناة الجزيرة بتاريخ السادس من ذي الحجة لعام ١٤٢٦هـ. وقال في تعليقه:

"نحن أمام منهجين في العمل يتصارعان على الإصلاح في العمل الإسلامي منذ عقود. وإذا كان هناك منهج ومدرسة تعتمدها الإخوان المسلمون وهي تقوية الأمة وتغييرها من أسفل وفقاً للآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. فقد ارتأى بعض الإسلاميين الآخرين أن الطريق لهذا يتم عبر السلطة ولذلك يركزون على السلطة وعلى الحكم وعلى الحكومات يريدون أن يزيحوها من الطريق ليغيروا بعد ذلك كما يشاءون بقوة السلطان وليس بقوة الشعب الذي يريد أن يغير ما بنفسه.

....

وقد أثبتت التجارب أن المنهج الإنقلابي على عكس ما يقوله الدكتور أيمن الظواهري يواجه الفشل بعد الفشل لأنه يعتمد أداة خطيرة جداً وهي التغيير من فوق. أما المنهج الإصلاحي الذي يتبناه الإخوان المسلمون هذا المنهج يثبت كل يوم أنه يزداد ترسخاً ونفوذا وإيجابية".

أظن أن كتابي (الحصاد المر: الإخوان المسلمون في ستين عاماً) قد حشد الأدلة على الفشل العقدي والسياسي والأخلاقي للإخوان المسلمين، ولم يرد الإخوان حتى اليوم -رغم صدور الكتاب منذ أكثر من عشرين عاماً- بحرف واحد على ما قدمته من أدلة ضدهم. وسأتعرض للإخوان وتدهورهم في الجزء الثاني من الكتاب إن شاء الله.

[٢] بلاغ إلى هيئة الأمن القومي: مذبحة السودانيين تخطيط صليبي صهيوني.

وطبعاً لا يعد الاستفتاء في قناة فضائية دليلاً على زيادة أو نقصان الشعبية، وما أظن الدكتور محمد عباس -حفظه الله- أراد بملاحظته إلا تنبيه عصام العريان، ولكن على الأقل فقد قدم الدكتور محمد عباس -حفظه الله- شيئاً من دليل، أما كاتبة الدراسة فلم تقدم أي شيء.

ج- وقولها إن القاعدة قد تآكلت شعبيتها نظراً لإدانة المؤسسات الإسلامية التقليدية في العالم الإسلامي لأساليبها.

ويبدو أن الكاتبة منفصلة عن مشاعر الشارع الإسلامي، فمن تصفهم بالمؤسسات الإسلامية التقليدية ومنهم علماء السلاطين كشيخ الأزهر الذي صافح بيريز في نيويورك، والذي أنكر معرفته بحصار غزة، أو كمفتي السعودية الذي اعتبر أن التظاهر من أجل غزة (طعطعة) تلهي عن ذكر الله. هذه المؤسسات لا أثر لها في حس الشارع، بعد أن انكشفت أمام الغزوة الصليبية الصهيونية على الإسلام والمسلمين.

د- قولها بأن أقل ما يمكن أن يقدمه الغرب لنصرة التيار المعتدل في العالم الإسلامي؛ هو بإنشاء دولة قابلة للحياة في فلسطين، لها بعض السيادة -على الأقل- على أجزاء من القدس الشرقية، رغم أن أحداً الآن لا يطالب بتطبيق القرار ٢٤٢.

ولا أدري ما هو ذلك التيار المعتدل الذي تشجع الغرب على تأييده؟ أليس هو التيار الذي يرضى بالتنازل عن معظم فلسطين؟ وبإنشاء دولة فلسطينية تابعة لإسرائيل على فتات فلسطين؟ لخداع الأمة المسلمة بأن فلسطين قد تحررت، فلماذا الجهاد ضد الغرب وكراهيته إذن؟

هـ- قدمت الكاتبة نفسها -وهي ذات الأصول العربية والإسلامية- مرشدة ومعينة للغرب في حربه على الإسلام والمسلمين، بتنبيهه أن المعركة يجب أن تركز ليس فقط على تنظيم القاعدة بل على ما هو أوسع من ذلك؛ على عقيدة المسلمين والمناهج الدراسية والمدارس الدينية.

وهي معركة مكتوب على الغرب فيها الهزيمة -بلا شك- بعون الله. فقد تكفل بذلك الحق سبحانه، الذي يقول في كتابه الكريم: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

ولكن ما كتبته يذكرني بقول شاعر الإسلام العظيم العلامة محمد إقبال رحمه الله:

شکایت ہے مجھے یا رب خداوندان مکتب سے

سبق شاہین بچوں کو دے رہے ہیں خاکبازی کا

وترجمته:

إن مجمع شكايتي يارب يا إلهي من المكتب[١]

الذي يعلم أبناء الصقور اللعب في الطين[٢]

***

٧- الطالبان والقاعدة في أفغانستان مارسوا الزواج القسري.

تقول تشريل بينارد في كتابها (الإسلام المدني الديمقراطي) الصادر عن مؤسسة راند: بأن:

"الطالبان والقاعدة المتمركزة في أفغانستان مارسوا أيضاً الزواج القسري، الذي يبيحه القرآن في حالة الحرب"[٣].

أي أن الطالبان والقاعدة قد سبوا نساء مخالفيهم في أفغانستان!! وأنا لن أرد على هذا الكذب المفضوح، ولكني أذكر القراء والكاتبة -التي تناست تاريخها- بتصرفات جنود أمريكا رائدة الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان في فيتنام.

تذكر ديبوره نيلسون في كتابها (الحرب من خلفي) عن الجندي جوزي فيكتور دافيلا فالو أنه قال في التحقيق معه؛ أنه لاحظ عند دخوله السكن أنه رأى المرأة والفتاة عاريتين، وأنه رأى المرأة تمارس اللواط الفمي مع الرقيب من وحدة (إيه بي سي)، وأنه بعد عدة دقائق -بعد أن عاد لدخول السكن- سمع ما يشبه الطلقات، وأن الفتاة الصغيرة صرخت، وبدأت في العدو خارج السكن، وأنهم حاولوا إيقافها، ولكنها استطاعت أن تخرج هاربة، وأنهم ذهبوا للمدخل الأمامي للسكن، ووجدوا الفتاة، وقد ألقت بنفسها أمام البنادق، التي كانت تطلق نيرانها على تجمع المدنيين، وقد قُتلت الفتاة نفسها. وذكر أنه قبل بداية هذه العملية بالذات فإنهم كانوا قد تلقوا أوامر من الرتب الأعلى بقتل كل شيء يتنفس[٤].

وكذلك أذكرها بقصة أخرى شهيرة من العراق، يرويها الدكتور محمد عباس -حفظه الله- حيث يقول:

"هل تعرفون لماذا فعل منتظر الزيدي[٥] ما فعل؟!..

---

[١] يقصد الشاعر بالمكتب: المدرسة العصرية، التي يطلق عليها في شبه القارة الهندية وأفغانستان (مكتب)، أما لفظة (مدرسة) فتقصر على المدرسة الإسلامية.

[٢] ويقصد -رحمه الله- أن مناهج التعليم العصري قد حولت المسلمين أبناء الصحابة الكرام -رضي الله عنهم- والفاتحين العظام، الذين من شأنهم العزة والسيادة والريادة، إلى جموع تافهة ترضى بالسفاسف.

[٣] CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ١٥.

[٤] The War Behind Me, p: ٢٠.

[٥] الصحفي الذي رمى بوش بحذائه.

قال شقيقه أن قصة الفتاة عبير من المحمودية جعلته يبكي، عندما قام خمسة جنود باغتصاب الفتاة عبير الجنابي، التي لم يكن عمرها يتجاوز الرابعة عشرة عام ٢٠٠٦، ولم يعتذر الأمريكيون عن الجريمة.

يقول أحد جيران منزل عبير، إنه في العاشر من شهر آذار (مارس): "داهمت قوة أمريكية مؤلفة من خمسة عشر إلى عشرين عنصراً، منزل السيد قاسم حمزة الجنابي في المحمودية، وهو قريب إلى دارنا"، ويضيف: "كانوا قد جاءوا من أجل عبير، فلم يكن هناك من شيء قد حصل في المنطقة من أجل تلك المداهمة، كانت أمها تخشى عليها من هؤلاء الجنود، سيطرتهم كانت تبعد نحو ١٥ متراً من منزل عبير، عيونهم كانت تراقبها كلما دخلت أو خرجت من منزلها، كانت الفتاة -رحمها الله- جميلة، وعائلتها عائلة كريمة، ومثل هذه الأشياء كانت أكثر ما يخيفها".

عبير -وبحسب روايات جيرانها في المحمودية- كانت جميلة، وعيون الجنود الأمريكان الشرهة كانت تتابعها، كلما دخلت أو خرجت، وكانت تشكو لأمها تلك المضايقات، وشعرت الأم بالخطر على ابنتها، فطلبت من أحد الجيران، أن يبيتها عندهم كل يوم، من أجل تجنب أي مداهمة ليلية قد تقوم بها تلك القوات.

ويؤكد الجيران، أن الطفلة بدأت تنام بصحبة بنات أحد الجيران، ولكنه وبعد ليلة واحدة، قضتها خارج منزلها فقط، لم يمهلها الجنود الأمريكان أكثر من ذلك، وبدلا من أن يداهموا المنزل ليلاً، داهموه في وضح النهار، واقترفوا جريمتهم.

يقول أحد الجيران:

"..................................

في الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم، داهمت تلك القوات منزل الشهيد قاسم، حيث قاموا باحتجازه وزوجته وابنتهم هديل، في أحد غرف المنزل، وأطلقوا أربع رصاصات عليهم، مما أدى إلى وفاتهم على الفور، بعد ذلك قاموا بسحب عبير إلى غرفة مجاورة، وقاموا بنزع ثيابها بالقوة، بعد أن ضربوها على رأسها، ثم تناوب أربعة منهم على اغتصابها، مما أدى إلى إصابتها بحالة إغماء شديد ونزيف، وهو ما أثبته الطب الشرعي أثناء تشريح الجثة، وليقوم بعدها الجنود بحرق الجثة، من أجل إخفاء آثار الجريمة".

الجيران الذين هرعوا إلى منزل قاسم المجاور، فوجئوا بالقوات الأمريكية وهي تقص روايتها المختلقة، بأن مجاميع مسلحة من القاعدة، قامت بحرق عائلة شيعية، مع علم الجميع أن العائلة سنية معروفة لأهل المنطقة. وجاءت قوات من الحرس الوطني العراقي إلى

الموقع، واستمعوا لشرح من القوات الأمريكية حول وجود عناصر من القاعدة قامت بحرق عائلة شيعية.

وفي المساء قامت تلك القوات، بنقل الجثث الأربعة إلى إحدى القواعد القريبة، قبل أن يتم تسليم الجثث إلى مستشفى المحمودية في اليوم الثاني، ومن ثم إلى أقارب الضحايا، ليدفنوا في إحدى المقابر القريبة من المحمودية، وكادت أن تدفن معهم واحدة من أشد قصص الإجرام التي ارتكبتها القوات الأمريكية" [١].

وكذلك أذكرها بالممارسات المعتادة لجنود بلدها في سجونهم ضد المسلمين. يقول الشيخ أبو يحيى الليبي -حفظه الله- وهو يعدد أمثلة لأساليب التعذيب في سجون الأمريكان:

" ٦ - انتهاك أعراض بعض المعتقلين بارتكاب فاحشة قوم لوط بهم، والتهديد بها لبعضٍ آخرين بالتحرش المستمر، واستخدام الكلام الفاضح الفاحش البذئ، كما أن بعض الأخوة تم اعتقالهم في منازلهم حيث كانوا مقيمين مع زوجاتهم وأولادهم، فانفصلوا عنهم من لحظات الاعتقال الأولى، فمن حينها لا يعرف الأخ الأسير ما هو مصير أهله وأبنائه؟ وهل هم معتقلون معه أم لا؟ فيستغل الصليبيون ذلك بإعلامه والتأكيد له أن أهله وأبناءه عندهم وفي قبضتهم، وأنهم سينتهكون -أو انتهكوا- أعراضهم، وأنهم سيأخذون أبناءه إلى دول إباحية وبيئات فاسدة وأماكن مجهولة، ليقوموا بتربيتهم وتنشئتهم كما يشاؤون، فيصبح الأخ في عذاب نفسي وصراع داخلي، لا يعلم قدره إلا الواحد الأحد، ولا ينفك عنه ذلك إلا حينما يعرف مصير أهله الحقيقي عن طريق بعض السجناء الجدد ممن يعرفهم.

٧- الصعق بالكهرباء العالية في المناطق الحساسة من الجسم، وترك السجين في غرفة إنفرادية مقطوعاً عن العالم انقطاعاً تاماً ولمدة طويلة" [٢].

أظن أن في ماذكرته من أمثلة -يعرفها الكثيرون- ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أما المستكبرون المعاندون فقد قال الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

---

[١] القدس.. وغزة.. وبغداد.. عروس عروبتكم للدكتور محمد عباس.

[٢] حقيقة ما يجري وراء قضبان سجون الأمريكان ص: ١١.

المبحث الثالث: الضحالة الفكرية والعلمية

في هذا المبحث أشير بإيجاز لأمثلة من الضحالة العلمية والفكرية لكتاب الحملة الصليبية الفكرية، وكنت قد أشرت -من قبل- في المقدمة لبعض الأخطاء المضحكة من مركز مكافحة الإرهاب في الجيش الأمريكي، الذي يفتخرون به، ويعتبرونه من المراجع في شأن القاعدة والجهاد والسلفية، وأضيف إليها الأمثلة الآتية:

١- جهلهم بالقرآن.

٢- من المسلم به -على نطاق واسع- أن القرآن قد فقدت منه سورتان.

٣- القرآن أمر الرجال والنساء بالاحتشام فقط ولم يأمر النساء بتغطية أجسادهن.

٤- الأصوليون يرون أن على الرجال تقصير شعر الرأس.

***

١- جهلهم بالقرآن:

يتمتع الباحثون الغربيون بسطحية وجهل في التعامل مع القرآن وفهمه.

ومن الأمثلة على ذلك أن ستيفن كورمان وجيل شيفلبين لما أرادا أن يستدلا على أن القرآن يعارض -ما يزعمانه- عنف الجهاديين وقتلهم لأطفال المسلمين استدلا بقول الحق تبارك وتعالى في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾. فتأمل قوة الاستدلال ومتانة الاحتجاج[١]!!

***

٢- من المسلم به -على نطاق واسع- أن القرآن قد فقدت منه سورتان على الأقل:

تقول تشريل بينارد عن جمع القرآن الكريم:

"من المسلم به -على نطاق واسع- أن القرآن قد فقدت منه سورتان -على الأقل- في تلك العملية"[٢].

---

[١] Communication and Media Strategy in the Jihadi War of Ideas, p: ٦.

[٢] CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٢٤.

والملاحظ أن الكاتبة التي تعتبر نفسها حجة ومرجعاً في الأسلام وأهله لم تذكر في مراجعها القرآن ولا ترجمته ولا واحداً من أمهات كتب الحديث ولا الفقه ولا العقيدة ولا التفسير. ولكنها تنقل عن آخرين، وهذه دلالة على الضحالة العلمية فهي لم تطلع مصادر الإسلام الأساسية ولم ترجع إليها في كتابتها، ولكنها تصول وتجول طعناً في القرآن والحديث.

وحتى الأحاديث والآيات القرآنية التي نقلتها عن ما زعمته الخلاف حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نقلتها عن بحث لباحث يدعي محمد الأسي[١]، ولم تنقلها من القرآن أو كتب السنة، وقد فحصت قائمة مراجعها فلم أجد فيها أي مصدر من القرآن أو الحديث أو أمهات الكتب الإسلامية.

أما في دعواها تلك بأن القرآن قد فقدت منه سورتان، فلم تسندها لأي مرجع، فالأمر عندها واضح لا يحتاج لتدليل عليه!!

هذا هو مبلغ جهابذة (راند) من المنهجية العلمية وأمانة النقل والاطلاع على ما يكتبون فيه!

٣- القرآن أمر الرجال والنساء بالاحتشام فقط ولم يأمر النساء بتغطية أجسادهن:

تذكر تشريل بينارد أيضاً أن القول بأن على المرأة المسلمة أن تغطي جسدها ما عدا الوجه واليدين قول خاطئ، وأن ما أمر به القرآن؛ أن على كلٍ من النساء والرجال الاحتشام[٢].

وهذا قول لا يصدر إلا ممن لم تقرأ القرآن، وهذا ما أظنه، أو ممن قرأته، ولكن بلغت بها الجرأة أن تكذب عليه بلا حياء.

فإذا كانت قد قرأت القرآن، ألم تقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؟ وألم تقرأ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؟

٤- الأصوليون يرون أن على الرجال تقصير شعر الرأس:

وهذه أيضاً من درر تشريل بينارد[١].

---

[١] CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٥٣.

[٢] CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٤٣.

---

(١) CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ١٠.

المبحث الرابع:
تحطيم صنم الهوى
ضرورة المواجهة الفكرية لحملة التضليل الصليبية

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾

واضرب بسيف الوحي كل معطل ضـرب المجاهد فوق كل بنـان

واجـعل كتـاب الله والسـنن الـتي ثبتـت سـلاحك ثم صح بجنان

مـن ذا يبـارز فليقـدم نـفسه أو مـن يسـابق يبـد في الميدان

واصدع بما قال الرسول ولا تخف مــن قـلـة الأنـصــار والأعــوان

فالله ناصر دينه وكتابه — والله كاف عبده بأمان

لا تخش من كيد العدو ومكرهم — فقتالهم بالكذب والبهتان

فجنود أتباع الرسول ملائك — وجنودهم فعساكر الشيطان

واثبت وقاتل تحت رايات الهدى — واصبر فنصر الله ربك دان

لا تخش كثرتهم فهم همج الورى — وذبابه أتخاف من ذبان

وتعر من ثوبين من يلبسهما — يلقى الردى بمذمة وهوان

ثوب من الجهل المركب فوقه — ثوب التعصب بئست الثوبان

وتحل بالإنصاف أفخر حلة — زينت بها الأعطاف والكتفان

والحق منصور وممتحن فلا   تعجب فهذي سنة الرحمن

لكنما العقبى لأهل الحق إن   فاتت هنا كانت لدى الديان

وأتى فريق ثم قال ألا اسمعوا   قد جئتكم من مطلع الإيمان

من أرض طيبة من مهاجر أحمد   بالحق والبرهان والتبيان

سافرت في طلب الإله فدلني ال   هادي عليه ومحكم القرآن

مع فطرة الرحمن جل جلاله   وصريح عقلي فاعقلي ببيان

فتوافق الوحي الصريح وفطرة الـ   رحمن والمعقول في إيماني[1]

بعد أن أشرت بإيجاز في المبحث السابق لعدد من أهم توجهات مفكري وكتاب الحملة الصليبية الفكرية، فإني –مستعيناً بالله– أشير في هذا المبحث بإيجاز لعدد من أهم ثغرات الحملة الصليبية الفكرية،

---

[1] الأبيات مقتطفة من نونية ابن القيم –رحمه الله– ج: ١ ص: ١٧ و١٨.

وفي نفس الوقت أستحث كل صاحب قلم غيور من أهل الإسلام أن يتصدى لهذه الحملة الصليبية الفكرية، ويكشف عوارها وضعفها وتهافتها والله المستعان.

ومن المؤسف أن هناك عدة مقولات فاسدة تسربت لأذهان العديد من كثرة تكرارها، وانضوائها في المناهج الدراسية بل وفي الكثير من أنشطة المجتمع، وللأسف إن من هؤلاء الذين تأثروا بهذه الأباطيل بعض من يعملون في حركات تعمل للإسلام. وتمادى الأمر حتى شب عليه الصغير وهرم عليه الكبير.

ولعل من أسباب ذلك الجهل وعدم التثبت، وعدم تفحص ما يقال، ولعل من أسبابه الهزيمة النفسية من البعض، الذين يسرهم أن ترضى عنهم القوى الغربية، وتثني عليهم، ولعل من أسبابها أغراض سياسية أخرى، ولربما اجتمعت كل تلك الأسباب. وسأسعى -بعون الله- لتناول بعض تلك الثغرات الفكرية تحت العناوين التالية:

١- أهم أركان الفكر الغربي المحارب للإسلام

أ- السؤال الأول: الله أم الطاغوت؟

ب- أصنام الطاغوت الأربعة:

(١) اللادينية (العلمانية).

(٢) استبداد هوى الأغلبية (الديمقراطية).

(٣) حقوق الإنسان (الأبيض).

(٤) الدولة القومية.

٢- شبهات العلمانيين وأضرابهم:

أ- الاستبداد السياسي

ب- التخلف بين الدول

ج- اضطهاد الأقليات

د- اضطهاد المرأة

٣- الحل: دولة الخلافة.

***

١- أهم أركان الفكر الغربي المحارب للإسلام

أ- السؤال الأول: الله أم الطاغوت؟

أصل النزاع بين أهل الإسلام وسائر الدعوات المناهضة له خاصة وللأديان عموماً؛ هو هل لهذا الكون خالق مدبر رازق حكم عدل له وحده حق التشريع والطاعة والعبادة؟ أم لا؟ هذه القضية المحورية يجب أن تكون هي بداية ونهاية الجدال مع كل أولئك الذين يعارضون حكم الإسلام، بما فيهم دعاة الحملة الصليبية الفكرية وأعوانهم.

وهذه الحقيقة من الوضوح في كتاب الله بما لا يدع مجالاً لتمييعها أو للالتفاف حولها ناهيك عن الشك بها، وهو كما رأينا أحد أهداف الحملة الصليبية الفكرية.

فقد أكد القرآن الكريم أن كل معبود أو مطاع سوى المولى سبحانه وتعالى يجب الكفر به والتبرؤ منه.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٥﴾ اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

يقول ابن القيم رحمه الله:

"والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع؛ فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله؛ فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم عدلوا من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته"[1].

[1] أعلام الموقعين ج: ١ ص: ٦٠.

يقول الشهيد –كما نحسبه– الأستاذ سيد قطب رحمه الله[1]:

[1] قد يلحظ القارئ أني فيما تأتي من الصفحات سأكثر من النقل عن كاتبين، الأول هو الشهيد –كما نحسبه– الأستاذ سيد قطب رحمه الله، والثاني هو الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله.

أما الأستاذ سيد قطب –رحمه الله– فهو من أفضل من عبر بكتاباته عن حقيقة التوحيد ومنافاتها للواقع الجاهلي المعاصر، وقد ظُلم الأستاذ –رحمه الله– ظلماً شديداً، ورُمي بالتكفير، وضبطت عليه بضعة عبارات، استنتج منها أنه يرمي المجتمع بالكفر. وأغلب هذه العبارات لا تفيد أو لا يلزم منها ذلك. وللأسف فقد كان من أشد من انتقده كبير فقهاء المارينز. كان أولى بهذا الفقيه المارينزي ألا يفتي بإباحة قتال المسلمين والقبض عليهم لجلبهم لعدالة الجاهلية الأمريكية، قبل أن يتهم غيره بأنه يكفر المجتمعات المعاصرة، لأنه وصفها بالجاهلية.

يا أَيُّها الرَجُلُ المعَلِّمُ غَيرَهُ   هَلا لِنَفسِكَ كانَ ذا التَعليمُ
تَصِفُ الدَّواءَ لِذي السَّقامِ وَذي الضَّنا   كيما يَصِحّ بِهِ وَأَنتَ سَقيمُ
وَتَراكَ تُصلِحُ بالرشادِ عُقولَنا   أَبَداً وَأَنتَ مِن الرَّشادِ عَديمُ
فابدأ بِنَفسِكَ فانهَها عَن غَيِّها   فَإِذا انتَهَت عَنهُ فأنتَ حَكيمُ
فَهُناكَ يُقبَلُ ما تَقولُ وَيُهتَدي   بِالقَولِ منك وَينفَعُ التعليمُ
لا تَنهَ عَن خُلُقٍ وَتأتِيَ مِثلَهُ   عارٌ عَلَيكَ إِذا فعلتَ عَظيمُ

وسيد قطب ليس معصوماً، وكانت له أخطاء، كما أني لست قطبياً، ولكني مسلم أتحاكم للكتاب والسنة وعقيدة السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان من الأئمة العلماء الذين أجمعت الأمة جيلاً بعد جيل على محبتهم وتوقيرهم.

وعموماً فكل يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نقلت عن الأستاذ الشهيد –رحمه الله– ما رأيت فيه صواباً وفائدة وتوضيحاً للحقائق وكشفاً للجاهلية والضلال. وسيرى القارئ أني قد اسهبت في النقل في مواضع عن الأستاذ الشهيد رحمه الله، لفائدة ارتأيتها، حيث وجدت أن كلامه يلمس معان خطيرة بأسلوب راق، رأيت أن أطلع القارئ عليه.

وإذا كنت قد نقلت عن الأستاذ الشهيد –كما نحسبه– سيد قطب بإسهاب، لأنه يجلي بكتاباته حقيقة التوحيد في مواجهة الجاهلية المعاصرة، فإني قد أسهبت أيضاً في النقل عن الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله، لأنه قد أجاد في وصف القطب الآخر للصراع، ألا وهو المادية المعاصرة عموماً والعلمانية خصوصاً.

وقد يتساءل القارئ؛ لماذا هذا التوسع في النقل عن كاتب واحد في أمر المادية والعلمانية؟ ولماذا الدكتور عبد الوهاب المسيري –رحمه الله– بالذات؟ وهل يعني هذا النقل والثناء على الدكتور المسيري –رحمه الله– تبنياً لكل آرائه؟

فأما جوابي عن السؤال الأول؛ فهو أني وجدت عند الدكتور المسيري –رحمه الله– فهماً عميقاً لفلسفات الغرب المادية عامة واللادينية (العلمانية) خاصة، وهو ما لم أجده عند غيره من الكتاب، الذين اطلعت على كتاباتهم. الأمر الثاني في الإجابة على هذا السؤال هو أني وجدت الدكتور المسيري –رحمه الله– يتناول بعض القضايا –التي أراها خطيرة– بأسلوب الخبير المجرب المتعمق، فآثرت أن أنقلها عنه بإسهاب لأترك القارئ ليطلع على آراء المسيري دون تدخل مني في كثير من المواضع.

أما جوابي عن السؤال الثاني: ولماذا النقل عن الدكتور المسيري –رحمه الله– بالذات؟ فهو –بالإضافة لما سبق– أني آثرت ألا أكتفي في عرضي لأركان الفكر الغربي بما كتبه الكتاب المسلمون، الذين نشأوا في حضن العقيدة الإسلامية، حتى لا يتهمني الماديون العلمانيون بأني لم أنقل عنهم، فنقلت عن العديد من رؤوسهم، ثم أردت أيضاً أن أواجههم برجل كان منهم خبر معتقداتهم، ثم كفر بفسادها وفسادهم، فالدكتور المسيري كان علمانياً شيوعياً، ثم من الله عليه بالهداية للإسلام، وهو ما كان يفخر به رحمه الله، فأعلن أن الإسلام هو المنقذ للبشرية وليس الفكر المادي العلماني، بل أعلن أن الإسلام هو الوحيد الكفيل بالتصدي لذلك الفكر المتهاوي وهزيمته. كما نقلته عنه –رحمه الله– عند الكلام عن وجوب التنبه للجانب السياسي لحرب الصليبيين الفكرية.

" والطاغوت صيغة من الطغيان، تفيد كل ما يطغى على الوعي، ويجور على الحق، ويتجاوز الحدود التي رسمها الله للعباد، ولا يكون له ضابط من العقيدة في الله، ومن الشريعة التي يسنها الله، ومنه كل منهج غير مستمد من الله، وكل تصور أو وضع أو أدب أو تقليد لا يستمد من الله. فمن يكفر بهذا كله في كل صورة من صوره ويؤمن بالله وحده ويستمد من الله وحده فقد نجا.. وتتمثل نجاته في استمساكه بالعروة الوثقى لا انفصام لها" [١].

ويقول أيضاً رحمه الله:

"إن الطاغوت لا يقوم في الأرض إلا مدعياً أخص خصائص الألوهية، وهو الربوبية. أي حق تعبيد الناس لأمره وشرعه، ودينونتهم لفكره وقانونه. وهو إذ يزاول هذا في عالم الواقع يدعيه -ولو لم يقله بلسانه- فالعمل دليل أقوى من القول.

وإن الطاغوت لا يقوم إلا في غيبة الدين القيم والعقيدة الخالصة عن قلوب الناس. فما يمكن أن يقوم وقد استقر في اعتقاد الناس فعلاً أن الحكم لله وحده، لأن العبادة لا تكون إلا لله وحده. والخضوع للحكم عبادة. بل هي أصلاً مدلول العبادة" [٢].

فهذا هو مفترق الطرق بين أهل الإسلام وبينهم، ومن هنا تستقيم أحوال البشرية، ومن هنا بدأ انحرافها على مر العصور، وقد بلغت الحضارة الغربية في ذلك الانحراف شأناً بعيداً، بل -وكما ذكرت- تأثر بها عدد من المنتسبين للعمل الإسلامي، بل ومن كبار قادتهم. مما يدل على انتشار الخلل العقدي في الكثير من صفوف وقيادات الحركات المنتسبة للعمل الإسلامي، فمثلاً يقول عبد المنعم أبو الفتوح وهو عضو مكتب الإرشاد في جماعة الإخوان المسلمين:

"أيوه يا سيدي، هي دي قضيتنا الأساسية وقضية المجتمع المصري كله مش الإخوان فقط، قضية الحريات مع.. قضية الحريات، وحقوق الإنسان، والعدالة، هي دي قضيتنا- إحنا ليس قضيتنا مع الحكومة هي قضية الإسلام، الحكومة حكومة مسلمة، والدولة دولة مسلمة، والناس يحبون الإسلام، ونحن لسنا أفضل منهم في حبهم لدين الله، لأننا لا ندعي هذا، ولا نسمح لأحد أن يدعي أنه وصي على الدين، لا إحنا ولا نطلب من الحكومة،

أما جوابي عن السؤال الثالث: هل يعني هذا النقل والثناء على الدكتور المسيري -رحمه الله- تبنياً لكل آرائه؟ فهو أن هذا لا يلزم، فقد نقلت عنه ما رأيته حقاً، ولا شأن لي بغير ذلك من الآراء، وحتى فيما نقلته عنه فقد علقت على بعض التفاصيل، التي لم أوافقه عليها. مثل تعليقي على تفسيره للباعث وراء وعد نابليون لليهود بتملك فلسطين. والله أعلى وأعلم وأحكم.

[١] في ظلال القرآن- تفسير سورة البقرة- الدرس الرابع: ٢٥٦ - ٢٥٧ الإيمان والكفر والمؤمنون والكافرون- تفسير قوله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور؛ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾.. الآيات.

[٢] في ظلال القرآن- سورة يوسف- الآيات من ٣٥ إلى ٥٣ ج: ٤ ص: ١٩٩١.

ولا نقبل منها هذا، فبالتالي إن الأزمة اللي بيننا وبين الحكومة أزمة على الحريات، وعلى حقوق الإنسان.. وعلى احترام الدستور" [(١)].

الحكومة المصرية -تأمل- حكومة مسلمة، والدولة دولة مسلمة، وليس بينه -أو بينهم- وبين تلك الحكومة خلاف حول الإسلام. وليس هو قضيتهم مع الحكومة!

ومع أية حكومة؟ مع حكومة حسني مبارك التي لم يشهد التاريخ المعاصر لمصر حكومة أكثر منها عداءً للإسلام، وعمالة لأعدائه.

أليست هذه صورة فجة صلفة من الإرجاء المعاصر؟

لذا يجب على كل غيور على الإسلام أن يتعرض لهذا الخلل العقائدي الغربي، وأن يظهر تهافته وهشاشته وعوراته، وأنه ما قام إلا على تعظيم طاغوت الهوى.

ولما كان هذا الكتاب ليس كتاباً متخصصاً في العقيدة والرد على المنحرفين عنها، فإني سأشير في إيجاز هنا لانحرافات الحضارة الغربية الأساسية، والتي تسعى الحملة الفكرية الصليبية إلى جر المسلمين لمتابعتها.

وانحرافات الحضارة الغربية الأساسية عن جادة التوحيد انبثقت من رفضها العبودية لله ورضاها بالعبودية لغيره من الطواغيت، وأشهر انحرافاتها نبعت من طاغوت الهوى، وهي التي يمكن تسميتها بأصنام الطواغيت الأربعة، التي يجب على الحملة الفكرية الجهادية الإسلامية أن تحطمها بعون الله وقوته. وهذه الأصنام الأربعة هي: اللادينية واستبداد هوى الأغلبية وحقوق الإنسان (الأبيض) والدولة القومية، وأنا فيما يلي أتعرض بإيجاز لكل منها. والله المستعان.

ب- أصنام الطاغوت الأربعة:

(١) اللادينية (العلمانية).

(٢) استبداد هوى الأغلبية (الديمقراطية).

(٣) حقوق الإنسان (الأبيض).

(٤) الدولة القومية.

***

(١) اللادينية: وسأتناولها بعون الله تحت العناوين التالية:

(أ) اللفظ والمعنى

(ب) هل اللادينية قسمان؟

(ج) ثمار اللادينية:

---

(١) المستقبل السياسي للإخوان المسلمين في مصر، برنامج بلا حدود، قناة الجزيرة الفضائية.

(د) هل تخلصت اللادينية من نزعتها الصليبية المعادية للإسلام؟

***

(أ) اللفظ والمعنى:

اللادينية هي التي شاعت بين الناس بلفظة (العلمانية)، سواء نطقوها بكسر العين نسبة للعلم، أو بفتح العين نسبة للعالم، وكلا النطقين خطأ، فلا صلة لها بالعلم ولا بالعالم، وإنما هي إبعاد الدين عن شؤون الحياة العامة كلها، بل ورفض الدين[١].

فهي ترجمة لكلمة (سكيولاريزم secularism) الإنجليزية. والكلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية (سَيكولوم saeculum) وتعني (العالم) أو (الدنيا) (في مقابل الكنيسة)[٢].

وينقل الدكتور محمد عمارة عن الدكتور السيد فرج أن أول من ترجمها هو لويس بقطر، الذي خدم في جيش الاحتلال الفرنسي، ثم رحل مع الفرنسيين لباريس لتدريس العامية المصرية، وذلك أنه ترجم كلمة (Lailque) لكلمة العَلمانية نسبة إلى (العالَم) أي (الدنيا) في مقابل (الدين)، وذلك في المعجم الفرنسي العربي الذي أصدره عام ١٨٢٨م[٣].

هذا عن ترجمة الكلمة وأصلها ومدلولها اللفظي، ولكن الأمر أوسع من ذلك، فإن الدكتور عبد الوهاب المسيري -رحمه الله- في محاولته لتفسير العلمانية، قام بجمع المصطلحات متقاربة الدلالة التي تصف الرؤية الغربية العلمانية للعالم، ورأى أنها على تنوعها فإنها يمكن اعتبارها مصطلحات تصف نفس العملية من زوايا مختلفة، والتي تتلخص في:

"١- ينتقل مركز الكون من الإنسان (المتجاوز، متعدد الأبعاد، الحر، المسئول أخلاقياً)، إلى الطبيعة/المادة (المبرمَجة، الحتمية، الخاضعة لقانون واحد صارم وأية تنويعات عليها مثل: الشيء- السلعة- السوق/المصنع- الدولة- العقلانية التكنولوجية- الكفاءة البيروقراطية- النماذج الكمية).

---

[١] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Encarta Dictionaries, secularism.

[٢] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع: العلمانية الشاملة- الباب الثاني: إشكالية اختلاط الحقل الدلالي لمصطلح ومفهوم "علمانية"- إشكالية اختلاط الحقل الدلالى لمصطلح "علمانية"والمفاهيم الكامنة وراءه- التعريف المعجمى لمصطلح "علمانية" فى العالم الغربى ج: ١ ص: ١٢٧.

[٣] معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام- العلمانية ص: ٢٧.

وكذلك يتساءل الأستاذ محمد قطب حفظه الله:

"لا أدري من الذي بدأ استخدام كلمة (الاستعمار) ترجمة لكلمة (Colonisation) التي تعني الاحتلال ولكني أرجح أنهم ذات المترجمين الأرمن واللبنانيين الذين كان الغزو الصليبي يستخدمهم في البلاد الإسلامية، والذين ترجموا لفظة (Secularism) بالعلمانية للإيهام بأن لها صلة بالعلم!" [العلمانيون والإسلام ص: ٩٢].

٢ – تُلغَى ثنائية الإنسان والطبيعة (الصلبة)، وتسود الواحدية المادية إذ أن ثمة قوانين عامة (طبيعية/مادية) تسري على الإنسان سريانها على الطبيعة، أي أن الإنسان يتم تفكيكه ورده إلى عالم الطبيعة/المادة ويتم استيعابه تماماً فيها (أي يتم تطبيعه)، فتختفي المنظومات القيمية والمعرفية الإنسانية المستقلة عن عالم الطبيعة/المادة والمقصورة على الإنسان .

٣– يفقد الإنسان أي تميُّز، ويُزاح عن المركز، وتُنزَع عنه القداسة، ويُجرَد من خصائصه الإنسانية، وتُسقَط عنه السمات الشخصية، ويصبح وسيلة لا غاية، ويتم تحييده وترشيده والتوحيد بينه وبين بقية الكائنات الطبيعية/المادية.

٤– تخضع الأشياء كافة (ومنها الإنسان) لمنطق العلوم الطبيعية، والنماذج الكمية الرياضية (منطق الأشياء) ليصبح عقله ذاته عقلاً أداتياً قادراً على التفكيك وغير قادر على التركيب أو الوصول إلى جوهر الطبيعة الإنسانية، فيدخل الإنسان إلى القفص الحديدي، أي إلى عالم الحسابات الرشيدة، حيث تتم برمجة الأشياء كافة والتحكم فيها، فتسود العلاقات التعاقدية المحسوبة في المجتمع وتختفي العلاقات التكافلية التراحمية، أي يتم (تهويد) المجتمع، حسب تعبير ماركس، ويتم تشييئ وتسليع[(١)] الإنسان.

٥– الإنسان لا يتسم، حسب تعبير ماركس، بالتركيب أو بالمقدرة على التجاوز؛ فهو كائن بسيط، ذو بُعد واحد، وظيفي، مُنمَّط، مُبرمَج، جزء لا يتجزأ من المادة، مغترب عن جوهره الإنساني.

٦ – الطبيعة نفسها يتم تحريرها من سحرها وجلالها، ويُنزَع السر عن كل الظواهر، فكل الأمور (في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير) طبيعية/مادية، كل الأمور نسبية. ولذا يتحول العالم إلى ساحة صراع الإنسان فيها ذئب لأخيه الإنسان والبقاء فيها للأصلح، عالم يتسم باللامعيارية.

٧– العالم (الإنسان والطبيعة) عالم واحدي، متشابهة أجزاؤه، لا فارق فيه بين المقدَّس والزمني، لا غاية له ولا هدف ولا معنى، يمكن معرفته والتحكم فيه من خلال هذه المعرفة، هو مادة استعمالية يمكن توظيفها ونقلها (ترانسفير) وحوسلتها[(٢)]، والإمبريالي صاحب القوة هو وحده القادر على غزو العالم وتوظيفه لحسابه.

---

(١) أي تحويله إلى (شيء) و(سلعة).

(٢) الحوسلة: مصطلح نحته الدكتور المسيري، ويعني به تحويل الشيء لوسيلة، وهو ترجمة للمصطلح الإنجليزي (instrumentalization). [موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية– المجلد الأول: الإطار النظري– الجزء الرابع: العلمانية الشاملة– الباب الرابع: مصطلحات الواحدية والاستيعاب فيها ج: ١ ص: ١٤٨].

٨- تتلاقى المجتمعات جميعاً (في نهاية الأمر) لتخضع لنموذج الطبيعة/المادة، وتتزايد معرفة الإنسان بقوانين الطبيعة حتى تسود الواحدية المادية والعقلانية التكنولوجية وينتهي التاريخ"[1].

هذا هو الوجه البشع للادينية الذي يحرص العلمانيون على إخفائه وهم يدعون للادينية التي يسموها العلمانية.

إن العلمانيين (اللادينيين) يتحدثون عن الحرية والمساواة وحقوق الإنسان والانعتاق... إلخ، ولكنهم لا يتحدثون عن أن عقيدتهم مادية جبرية قهرية تخضع الحجر والبشر لقوانين الطبيعة التي لا تعرف خلقاً ولا قيماً ولا رحمة ولا شفقة.

وقد يستغرب الإنسان العاقل كيف يمكن أن يتقبل العقل الغربي هذه الخرافات، ولكن العقل الغربي ذا الأصول الإغريقية، الذي كان يؤمن بأساطير الإغريق حول الآلهة وصراعها مع بعضها ومع الإنسان، والذي آمن بعد ذلك بالنصرانية بكل ما فيها من مغالطات كالتثليث والخطيئة الأصلية وعقيدة الفداء وتجسد المسيح والكتب المقدسة التي لا يعرف لها كاتب ولا سند، والتي اختار رجال الدين بعضها فقط من كثرة كاثرة، وأسموها بالكتب القانونية، دون إبداء سبب أو تعليل[2]، وحق الكنيسة في غفران الذنوب، بل وفي بيع صكوك الغفران، وعصمة الكنيسة والبابوات[3]، مع أن فضائحهم تزكم أنف التاريخ.

إن العقل الذي كان يقبل بكل تلك الأغاليط ويرضى بها لأن الأقوياء يفرضونها، لا يستغرب منه أن يؤمن بأغاليط معاصرة طالما أن الأقوياء أيضاً يؤمنون بها، ويحاولون فرضها على الآخرين، وليس بمستغرب

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع: العلمانية الشاملة- الباب الثالث: نموذج تفسيري مركب وشامل للعلمانية- نحو نموذج تفسيرى مركب وشامل للعلمانية- العلمانية : التعريف من خلال دراسة مجموعة من المصطلحات المتقاربة ذات الحقل الدلالى المشترك أو المتداخل ج: ١ ص: ١٣٩.

(٢) Microsoft Encarta Encyclopedia ٢٠٠٨- Bible, VII. THE NEW TESTAMENT, A. Text, Canon, and Early Versions, ٣. The Canon.

(٣) يزعم النصارى في إنجيلهم أن السيد المسيح -عليه السلام- قال لحواريه بطرس: "أنت بطرس. وعلى هذه الصخرة ابن كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه في الأرض يكون مربوطاً في السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات!!" [إنجيل متى، الإصحاح السادس عشر، (١٩- ٢٠)]. وأن بطرس -في زعمهم- قد فوض بابوات الكنيسة من بعده، فهم معصومون، ويحل فيهم الروح القدس. وكذلك ينسبون للسيد المسيح -عليه السلام- قوله: "أدّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله". فبابا الكنيسة المعصوم ما يحله ويربطه في الأرض لا يحل ولا يربط في السماء، ولكنه لا يستطيع أن يتدخل في شأن قيصر، فهل هو تناقض أم صفقة؟

بالتالي أن يتابعهم المنهزمون نفسياً -من غيرهم- على أغاليطهم لأنهم الأقوى والأغنى والأكثر تمدناً كما يزعمون.

(ب) هل اللادينية قسمان؟

يزعم اللادينيون -العلمانيون كما يسمون أنفسهم- أنهم ليسوا فئة واحدة، ولكن منهم أصحاب اللادينية الشاملة، وهم من يعرفون بالملحدين، ومنهم أصحاب اللادينية الجزئية، الذين يزعمون أنهم يؤمنون بالله، ويحترمون شعائر الدين، ولا يعادونه، وقد يزعمون أنهم متدينون، ولكنهم يرون -بأي سبب أو حيلة- أن الدين أمر شخصي، لا شأن له بشأن من شؤون الحياة العامة. وسأحاول فيما يلي أن أشير بإيجاز لكل منهما ثم في النهاية ما هو حكم الشرع فيهما تحت العناوين التالية:

[١] اللادينية (العلمانية) الشاملة.

[٢] اللادينية (العلمانية) الجزئية.

[٣] كلاهما إلحاد.

***

[١] اللادينية (العلمانية) الشاملة:

[أ] تقوم النظرة الغربية للكون والحياة على الإلحاد، حتى لو ادعى الكثيرون أنهم مؤمنون بالله، وذلك أنهم إما ينفون وجود المولى سبحانه وتعالى أو يشلون وجوده، فإلههم إما إله غائب أو مشلول، فهم يدورون بين إلحادين إلحاد نفي أو إلحاد تعطيل، وكلاهما إلحاد.

أما الملحدون النفاة الذين ينكرون وجود الباري سبحانه، فيرون أن هذا الوجود بأجرامه ومخلوقاته وأحيائه إنما نشأ صدفة، ويمضى إلى غير غاية، ووصل لما وصل له بسلسلة من الأفعال وردود الأفعال العشوائية. وهؤلاء هم الذين كانوا يسمون بالدهريين عند علماء المسلمين. فيقول جوليان هكسلي:

"لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير! فكذلك كان الكون الموجود الآن نتيجة لعمليات عمياء، ظلت تدور في (المادة) لبلايين السنين"[١].

ويعبر برتراند رسل الفيلسوف الملحد الشهير عن هذه النظرة اللاعقلية الموحشة البغيضة بقوله:

"والإنسان وليد عوامل ليست بذات أهداف، إن بدأه ونشوءه وأمانيه ومخاوفه وحبه وعقائده كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضي اتفاقي في نظام الذرة، والقبر ينهى حياة الإنسان. ولا تستطيع أية قوة إحياءه مرة أخرى. إن هذه المجهودات الطويلة والتضحيات

[١] الإسلام يتحدى ج: ١ ص: ٨٥.

والأفكار الجميلة والبطولات العبقرية كلها سوف تدفن تحت أنقاض الكون، ولو لم تكن هذه الأفكار قطعية فإنها أقرب ما تكون إلى الحقيقة، حتى إن أية فلسفة تحاول إنكارها ستلقى فنائها تلقائياً".

ويعلق وحيد الدين خان على قول رسل بقوله:

"ويكاد هذا الاقتباس أن يكون خلاصة الفكر المادي فالكون -في ضوء هذا الفكر المادي- يكاد يفقد أهدافه ولا يبقى غير الظلام الحالك؛ الظلام الذي تتلاشى فيه معايير الخير والشر حتى إن إبادة الناس بالقنابل لا تعد ظلماً لأنهم سوف يلقون حتفهم على أية حال يوما ما. أما الفكر الديني فهو فكر الضوء والأمل. الموت والحياة مرتبطان فيه بأهداف معينة وكل القيم والأفكار الإنسانية السامية تجد لها مكانا فيه"[1].

كذلك تأثرت الاتجاهات المادية اللادينية أيما تأثر بنظرية دارون في النشوء والأرتقاء، وإن كان دارون لم ينف وجود المولى سبحانه، ولكنه زعم أن تطور الإنسان من كائن وحيد الخلية بسيط إلى الإنسان الحالي لا يحتاج في تفسيره لافتراض وجود الله، حيث يقول:

"إن تفسير الحياة بتدخل الله يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت"!

وحيث يقول:

"إن الطبيعة تخلق كل شيء، ولا حد لقدرتها"[2] !

وأن هذا التطور تم عشوائياً، وأن البقاء كان للكائنات الأقوى أو الأقدر تكيفاً على البقاء، التي استطاعت البقاء عبر الصراع مع غيرها من الكائنات، والتكيف مع عوامل الطبيعة.

يقول الدكتور المسيري:

"ويمكن القول بأن الداروينية هي النموذج المعرفي الكامن وراء معظم الفلسفات العلمانية الشاملة، إن لم يكن كله.

....

ولعله لا توجد فلسفة أثرت في عصرنا الحديث أكثر من الفلسفة الداروينية، كما لا توجد فلسفة بلورت الرؤية العلمانية للكون أكثر من الفلسفة الداروينية"[3].

[ب] ولذلك فقد عرف الدكتور المسيري -رحمه الله- العلمانية الشاملة بقوله:

---

[1] الإسلام يتحدى ج: ١ ص: ٤٦ و٤٧.

[2] جاهلية القرن العشرين. ص: ٤٠.

[3] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري - الباب الخامس: مصطلحات تشير إلى تفكيك الإنسان وتقويضه- الداروينية الاجتماعية ج: ١ ص: ١٥٥ و١٥٦.

"العلمانية الشاملة (التي يمكن أن نسميها أيضاً "العلمانية المادية" أو "العلمانية العدمية") هي رؤية شاملة للعالم، عقلانية مادية، تدور في إطار المرجعية الكامنة والواحدية المادية، التي ترى أن مركز الكون كامن فيه، غير مفارق أو متجاوز له، وأن العالم بأسره مُكوَّن أساساً من مادة واحدة، ليست لها أية قداسة ولا تحوي أية أسرار، وفي حالة حركة دائمة لا غاية لها ولا هدف، ولا تكترث بالخصوصيات أو التَفرُّد أو المطلقات أو الثوابت. هذه المادة تشكل كلاًّ من الإنسان والطبيعة، فهي رؤية واحدية كونية مادية" [1].

[ج] وقد يحاول بعض هؤلاء اللادينيين الدهريين أن يتجنب معاداة الدين، ولكنك لو سألته عن مرجعياته وعقائده، فلن تجد للباري سبحانه وتعالى أي وجود فيها.

فالاتحاد السوفييتي السابق -وهو تجسيد اللادينية الشاملة- كان يزعم أنه يسمح بحرية الأديان، ويترك بعض المساجد تعمل للدعاية، وللدوران بالسياح عليها، رغم حربه الضروس على الدين عموماً والإسلام خصوصاً عقيدة وعملاً.

ولذلك يؤكد الدكتور عبد الوهاب المسيري -رحمه الله، وهو الماركسي السابق- على أهمية النظر لمرجعية أصحاب العلمانية الشاملة بغض النظر عن أقوالهم وأفعالهم. فيقول:

"وفي تصوُّرنا أن أفضل طريقة لتناول قضية العلمانية والعلمنة هي قضية المرجعية (كامنة أم متجاوزة). فالعلمانية (الشاملة) قد لا تكون إلحادية أو معادية للإنسان على مستوى القول والنموذج المعلن (فهي قد لا تنكر وجود الخالق أو مركزية الإنسان في الكون أو القيم المطلقة، الإنسانية أو الأخلاقية أو الدينية، بشكل صريح ومباشر). ولكنها على المستوى النماذجي الفعال ومستوى المرجعية النهائية، تستبعد الإله، وأية مطلقات، من عملية الحصول على المعرفة ومن عملية صياغة المنظومات الأخلاقية، كما تستبعد الإنسان من مركز الكون بشراسة وبحدة وتنكر عليه مركزيته وحريته" [2].

وقد لاحظت شخصياً أن العديد من الشيوعيين يتجنبون الحديث عن الدين تماماً، بل إن بعضهم قد يظهر احتراماً للدين أو يمارس بعض الشعائر، والبعض إذا أحرجته في النقاش يتهرب بأن النقاش حول الدين له المتخصصون فيه، لأنه يعلم أن الناس بطبيعتهم ينفرون من هذه المادية الكئيبة المنافية للفطرة.

وهذا ما يلفت الانتباه له الدكتور المسيري، حيث يقول عند كلامه عن أن العلمانية الجزئية ما هي إلا مرحلة في متتالية تؤدي للعلمانية الشاملة:

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع :العلمانية الشاملة- الباب التاسع: العلمانية الشاملة: تاريخ موجز وتعريف- العلمانية الشاملة: تعريف ج: ١ ص: ٢١٤.

(٢) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع :العلمانية الشاملة- الباب التاسع: العلمانية الشاملة: تاريخ موجز وتعريف- العلمانية الشاملة: تعريف ج: ١ ص: ٢١٤ و٢١٥.

"ومع هذا، تجب الإشارة إلى بعض الأفراد ممن يتبنون نماذج علمانية شاملة ويستخدمون ديباجات جزئية عن وعي وبدهاء مقصود، لأن الناس ينفرون بفطرتهم الإنسانية من العلمانية الشاملة بسبب وحشيتها وعدميتها"[1].

[د] والرد على الملاحدة النفاة ربما يخرج عن موضوع هذا الكتاب.

"١" ولكني أقول للذين يرون أن هذا الكون قد وجد صدفة، بتفاعل بعض العناصر، التي كانت موجودة في ظروف معينة ونسب معينة وأزمنة معينة، وكذلك الحياة نشأت بتفاعل بعض العناصر في ظروف معينة فجاءت صدفة.

أقول له: إذا كان كل هذا قد وجد صدفة، فمن الذي أوجد الصدفة؟ من الذي أوجد العناصر اللازمة بالنسبة اللازمة في الأحوال الضرورية اللازمة في الأزمنة اللازمة بالحركات اللازمة بالشروط اللازمة لتلك الصدفة؟

إن قال: لا أعلم. قلنا له: فلم علمت أن الكون قد وجد صدفة؟

وإن قال: إنما أوجد الصدفة صدفة قبلها. قلنا له: نحن في حاجة لعدد ضخم من الصدف، فكل عنصر من العناصر نشأ صدفة، وكذلك الظروف الضرورية من الحرارة والضغط والحركة والمكان والزمان والسرعة واتجاه السير... إلخ كل منها أوجدته صدفة، ثم جاءت صدفة فجمعت كل هذه الصدف، ثم جاءت صدفة أخرى فجعلتها تتفاعل مع بعضها؟

ثم لا بد أن تتسلسل الأسئلة: فمن أوجد صدفة الصدفة؟ ومن أوجد صدفة صدفة الصدفة؟ في عبث لا متناهي من الضلال. تتميز به الحضارة الغربية الصليبية المعاصرة، التي تزعم تقديس العقل، بينما هي في حقيقة أمرها تلهث مسعورة وراء أهوائها ورغباتها.

ثم نقول له: نحن لم نسألك -فقط- كيف توفرت ظروف الصدفة؟ ولكن نسألك -أيضاً و بإلحاح- من أنشأ الصدفة؟ من هو المتسبب في إيجادها؟ أتلكم العناصر والظروف التي وفرت الصدفة أوجدت نفسها؟ أم أوجدها موجد غيرها؟؟؟ وصدق الله العظيم: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾.

وبنفس المنطق يقال لأمثال جوليان هكسلي صاحب مثال القردة الستة والآلة الكاتبة؛ من الذي أوجد القردة الستة؟ ومن الذي أوجد الآلة الكاتبة؟ ومن الذي جمعهم في مكان واحد؟ ومن الذي مد في عمر القردة لبلايين السنين؟ ومن الذي منح الآلة الكاتبة الصلابة حتى تستمر في العمل لبلايين السنين؟ دون أن تتلف أو تحتاج لصيانة أوتبلى أو تنبري من شدة الطرق عليها؟ ومن الذي أمدها بالورق؟ وأدخله فيها؟ ومن الذي أمدها بالحبر؟ وداوم على إمدادها به؟ ومن الذي أجبر القردة على البقاء

---

[1] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع: العلمانية الشاملة- الباب الأول: إشكالية تعريف العلمانية- إشكالية العلمانيتين: علمانية جزئية وعلمانية شاملة ج: ١ ص: ١٢٦.

يطرقون على الآلة الكاتبة لملايين السنين دون أن يملوا ويفروا؟ هل كان معهم مراقب يجبرهم على العمل المتواصل؟ ومن هو؟

ثم إذا كان العمل لمدة ملايين السنين قد أنتج قصيدة واحدة أو احتمال قصيدة -في زعمك- لشكسبير، فكم من الزمن سيحتاج لإنتاج كل قصائده؟ وكم من الزمن يلزم لإنتاج كل قصائد الشعراء الإنجليز؟ وكم من الزمن يلزم لإنتاج شعر كل شعراء الدنيا؟ وكم من الزمن يلزم لإنتاج كل الأدب في الدنيا؟ وكم؟ وكم؟ وكم؟.....؟

ثم إذا كنت تقول إن بلايين النسخ التي لا معنى لها وجدت من بينها ورقة واحدة فيها قصيدة لشكسبير، فيلزم من كلامك أن إنتاج عالم واحد بالصدفة لا بد أن يصاحبه بلايين العوالم وبلايين المخلوقات المعطوبة الفاسدة المحطمة، وأن بلايين النسخ الفاسدة هذه هي الغالبة الطاغية، فأين هي؟؟

وصدق الله وكذبتَ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

ثم يقال لمن قال إن العالم حدث ويجري بالصدفة وبطريقة آلية: أنت أولى أن يقال لك إن ما تزعمه نظريات عميقة وأفكاراً رصينةً ليست إلا مجرد أصوات صدرت من فمك، أو حروف على ورق تجمعت بالصدفة فظهرت كما تنطقها، أو تكتبها، وحقيقتها عبث لا فائدة منه ولا هدف ولا غاية، ولم تقصدها، بل والأفكار التي في رأسك ما هي إلا مجموعة من التفاعلات الكيماوية العشوائية الآلية حدثت في خلايا الدماغ العصبية بطريق الصدفة، فأنتجت هذا الهراء.

أفهذا الكون المحكم الصنع المحير المبهر حدث صدفة؟ وأنت فكرك رصين مقصود، نشأ عن نظر متأن وقواعد محكمة ومقدمات يقينية ونتائج لازمة، وهو فكر ذو غاية وهدف يسبر أغوار الحقيقة! لماذا يكون فكرك استثناءً عن الكون؟

ثم نقول له: لو افترضنا أنك اكتشفت يد لص، وقد اندست في جيبك، فأمسكت بها وبه متلبساً بجريمة السرقة، ثم لما علم اللص أنك من المجادلين بالصدفة، قال لك: إنما دخلت يدي لجيبك بالصدفة. فماذا أنت قائل له؟ هل تقول له: مرحباً بأخي في العقيدة؟ أم تسوقه للشرطة؟ وإذا سألك سائل: لماذا تسوقه للشرطة؟ فماذا أنت قائل له؟ أفتقول له: لكي تأخذ العدالة مجراها من هذا اللص الأثيم، الذي لا يعرف خلقاً ولا قيماً. فأية عدالة وأي خلق وأية قيم هذه؟

العدالة تتطلب حقاً مسلوباً لتوصله لمستحقه، فما هو الحق؟ وما هو المستحق؟ في عالم كله صدفة في صدفة وعبث في عبث.

ثم إن العدالة تتطلب شريعة تنفذها، والشريعة تتطلب أخلاقاً وقيماً تنتجها، فأي أخلاق وأية قيم إذا كان كل شيء خبط عشواء وصدفة، وليس هناك قيمة ولا مرجعية عندك إلا واقعك الذي حدث بالصدفة.

وقد يماحك عبد الصدفة فيقول: إن الشريعة والأخلاق هي ما اتفق عليه العقلاء. فهذه إجابة تثير أسئلة أكثر، منها على سبيل الإيجاز؛ على ماذا اتفق العقلاء؟ هل اتفقوا على خلق العالم بالصدفة؟ ثم كيف يتفقون؟ بالإجماع أم بأغلبية الناخبين الديمقراطية؟ لو كان الأمر بالديمقراطية فمعنى هذا أن ذلك اللص الذي ذكرناه، لو كان معه ثلاثة آخرون وقابلوا عبد الصدفة في صحراء ليس فيها غيرهم، فمن حقهم أن يسلبوه ماله، وربما ملابسه أيضاً، وحينئذ سيعدونها من محاسن الصدف، أو رب صدفة خير من ألف ميعاد!!

ثم إن العدالة تتطلب فصلاً بين الخصومات، وهذا يتطلب سلطة محايدة لا تتأثر بالأهواء والنزعات ولا الميول لتفصل بين الموجودات، ولا يتحقق ذلك إلا في المولى سبحانه وتعالى المنزه عن النقائص.

ثم إن الحكم على الشيء -كما يقولون- فرع عن تصوره، ولذا لا يمكن للحاكم أن يحكم في قضية إلا إذا تصورها، وكلما كان تصوره أقرب للحقيقة كلما اقترب حكمه من الصواب، والعكس بالعكس، وحيث أن الإنسان -باتفاق الملحدين والمؤمنين- يجهل عن نفسه بل وعن سائر الكون-بأضعاف رهيبة- أكثر مما يعلم، لذا فإن القادر الوحيد على الحكم الصحيح هو المولى سبحانه وتعالى. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1].

"٢" وكذلك أقول لمن يقول إن هذا الوجود والحياة نشئا بلا هدف ولا غاية، له: أنت أيضاً كلامك هذا -الذي هو جزء من هذا الوجود- يلزمك أن يكون عبثاً بلا غاية ولا قصد، وليس برأي حكيم ولا نظرية متماسكة، بل عبث وهراء بغير قصد ولا هدف؟

ثم لماذا نراك متحمساً تضيع عمرك ووقتك في الدفاع عن نظرياتك ونشرها والرد على مخالفيها؟ إن كان الأمر كله عبث في عبث. لم لا تدع مخالفيك يعبثون مع العابثين؟

ولذلك يعلق الدكتور المسيري على فلاسفة العبث وما بعد الحداثة بقوله:

"ولكن كيف تأتّى لفلاسفة ما بعد الحداثة أن يدركوا غياب المرجعية والمعيارية وهيمنة القوة وسيطرة الصيرورة دون الاستناد إلى مرجعية ما ومعيارية ما ومعرفة بعالم عادل فيه

[1] راجع للمزيد من التفصيل في الرد على القول بتكون العالم بالصدفة: الإسلام يتحدى ج: ١ ص: من ٨٤ إلى ٩٣.

كليات ثابتة؟ وكيف يكتبون وهم يعرفون أنهم لن يصلوا إلى شيء؟ لم لا يحجمون عن الكتابة والتفكير وكتابة المجلدات الفلسفية المعقدة؟ أليس من الأجدى لهم أن يبقوا في عالم الصيرورة الأكيدة الحسية ويحتسوا أفخر الخمور ويضاجعوا أجمل النساء والغلمان كما فعل الرومان في أواخر أيام الإمبراطورية، وكما يفعل الوثنيون العدميون عندما يشعرون بالعدمية تُطبق عليهم؟ ففي الخمر والنساء صيرورة ويقين الغياب والعدم. لا يُوجَد رد على هذا داخل النظام ما بعد الحداثي وإن كان دريدا قد حاول مرة الإجابة بقوله بأنه يعترف بأنه يقف داخل النظام الميتافيزيقي ويدرك هذا، أما الآخرون فيقفون في نظمهم الميتافيزيقية ولا يدركون هذه الحقيقة. وهذا هراء إذ تظل المشكلة قائمة: لم الكتابة المضنية إذن، وسهر الليالي، بدلاً من الصيرورة السهلة والانزلاق المستمر؟ من أجل مَنْ كل هذا العناء وكل هذه المعاناة؟" [١].

وأزيد على قول الدكتور المسيري رحمه الله؛ أن هذا الانزلاق للملذات الشهوانية هو حالهم، أو هو ما يؤولون له، وهو ما يبتغونه.

ولذلك شهد عليهم الدكتور المسيري شهادة الشاهد الخبير المعاين حين قال في كتابه (رحلتي الفكرية- الجذور والبذور والثمر):

"كنت قد بدأت ألاحظ أن السلوك الشخصي للرفاق كان متناقضاً مع أي نوع من أنواع المثاليات الدينية أو الإنسانية، وأن كمية النرجسية عند بعضهم كانت ضخمة للغاية. وأنا لا أمانع في وجود قدر من النرجسية عند البشر، فهذا أمر أساسي بالنسبة لهم، وخصوصا بالنسبة للثائر، فالنرجسية آلية نفسية يدافع من خلالها عن نفسه ضد مجتمع يود ابتلاعه. ولكن النرجسية التي لاحظتها في كثير من الرفاق كانت بالفعل متطرفة، والحريات الخلقية التي كانوا يسمحون لأنفسهم بها كانت كاملة، أي أنهم في واقع الأمر كانوا شخصيات نيتشوية داروينية، لا علاقة لها بالماركسية ولا بأي منظومة أخلاقية، خاصة أن بعضهم كانت ماركسيته تنبع من حقد طبقي أعمى وليس من إيمان بضرورة إقامة العدل في الأرض. بل كثيراً ما كنت أشعر أن بعضهم كان ماركسياً بحكم وضعه الطبقي وأنه لو سنحت الفرصة أمامه للفرار من طبقته والانضمام للطبقات المستغلة الظالمة لفعل دون تردد وطلق ماركسيته طلاقا بائناً. لكل هذا قدمت استقالتي" [٢].

---

[١] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع: العلمانية الشاملة- الباب السابع: الثنائية الصلبة والسيولة الشاملة وما بعد الحداثة- ما بعد الحداثة- المقولات الأساسية لرؤية دعاة ما بعد الحداثة ج: ١ ص: ١٧٧.

[٢] بل هي حرب على الإسلام ص: ١٨٤.

"٣" وكذلك الذين يقولون إن الإنسان نشأ تبعاً لنظرية النشوء والارتقاء من كائنات بسيطة تطورت بلا هدف ولا غاية ولا إرادة حتى وصلت للإنسان الحالي.

أقول لهم ليس من شأن هذا الكتاب التطرق للثغرات الكثيرة فيما تقولون، ولكني أسألهم:

لو أن هناك كائنات تطورت من بعضها، فهل هي طورت نفسها؟ أم هناك من طورها؟ ومن هو؟؟

ولو أن مصنعاً مشهوراً ينتج كل سنة طرازاً جديداً من منتج معين (سيارة- حاسوب- مذياع..)، وعادة يكون بين الطرز المتتالية تشابه، كما أن المصنع يضع شعاره على كل طراز، فهل يمكن أن يكون التشابه بين الطرز المتتالية دليلاً على أن كل طراز قد نشأ وتطور من الطراز الذي قبله، أم يكون دليلاً على أن جهة الإنتاج واحدة؟

ثم لو جاء أفاق محتال لصاحب ذلك المصنع، فخاصمه أمام المحكمة بألا حق له في احتكار هذه المنتجات والاستئثار بفوائدها التجارية والقانونية، لأن هذه المنتجات نشأت بفعل تلاطم وتصادم عوامل عديدة خبط عشواء بلا ترتيب ولا قصد ولا غاية ولا سعي حثيث ولا إرادة في إنتاجها، وبالتالي فإن نسبتها لذلك المصنع وصاحبه وعدمها سواء، كما أن عدم نسبتها للمحتال الأفاق ونسبتها سواء، فهل يمكن أن تقبل دعوى ذلك المحتال الأفاق أمام أي قاض، حتى لو كان ذلك القاضي ملحداً مادياً متعصباً لنظرية دارون في النشوء والأرتقاء.

ثم السؤال الأهم؛ أليس المولى -سبحانه وتعالى- بقادر على أن يخلق آدم في الجنة، ثم ينزله للدنيا في أي وقت يشاء، سواء تطورت الكائنات أم لم تتطور؟

إذن القضية المحورية بيننا وبينكم هي في المولى سبحانه وتعالى، الذي تنكرون وجوده، أو تعطلون صفاته.

هذه هي القضية، وهي قضية البشرية في صراع الإسلام والكفر من بدايتها لنهايتها.

المشكلة أن هؤلاء القوم قد تصادمت اكتشافاتهم عن تاريخ نشوء الحياة على الأرض مع حكايات التوراة المحرفة[1]، فصدروا لنا مشكلتهم، وتلك عادتهم.

[٢] اللادينية (العلمانية) الجزئية.

[أ] النوع الآخر من اللادينية التي يدعيها اللادينيون هي اللادينية الجزئية. وهي قسم أكثر مخاتلة ومخادعة. إذ أن أصحابها يزعمون أنهم متدينون، ولكنهم يرون أن من المصلحة فصل الدين عن الشؤون العامة.

---

(١) راجع حول التناقض بين النصرانية والعلم مقال (العلمانية ودورها في تشويه العلاقة بين الدين والعلم).

يقول الأستاذ الشهيد -كما نحسبه- سيد قطب رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾:

"وهذه حقيقة لها وزنها.. إن الرسول ليس مجرد "واعظ" يلقي كلمته ويمضي. لتذهب في الهواء -بلا سلطان- كما يقول المخادعون عن طبيعة الدين وطبيعة الرسل؛ أو كما يفهم الذين لا يفهمون مدلول "الدين".

إن الدين منهج حياة. منهج حياة واقعية. بتشكيلاتها وتنظيماتها، وأوضاعها، وقيمها، وأخلاقها وآدابها. وعباداتها وشعائرها كذلك.

وهذا كله يقضي أن يكون للرسالة سلطان. سلطان يحقق المنهج، وتخضع له النفوس خضوع طاعة وتنفيذ.. والله أرسل رسله ليطاعوا -بإذنه وفي حدود شرعه- في تحقيق منهج الدين. منهج الله الذي أراده لتصريف هذه الحياة. وما من رسول إلا أرسله الله، ليطاع، بإذن الله. فتكون طاعته طاعة لله.. ولم يرسل الرسل لمجرد التأثر الوجداني، والشعائر التعبدية.. فهذا وهم في فهم الدين؛ لا يستقيم مع حكمة الله من إرسال الرسل. وهي إقامة منهج معين للحياة، في واقع الحياة.. وإلا فما أهون دنيا كل وظيفة الرسول فيها أن يقف واعظاً. لا يعنيه إلا أن يقول كلمته ويمضي. يستهتر بها المستهترون، ويبتذلها المبتذلون!!!

ومن هنا كان تاريخ الإسلام كما كان.. كان دعوة وبلاغاً. ونظاماً وحكماً. وخلافة بعد ذلك عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تقوم بقوة الشريعة والنظام، على تنفيذ الشريعة والنظام. لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول. وتحقيق إرادة الله من إرسال الرسول. وليست هنالك صورة أخرى يقال لها: الإسلام. أو يقال لها: الدين. إلا أن تكون طاعة للرسول، محققة في وضع وفي تنظيم. ثم تختلف أشكال هذا الوضع ما تختلف؛ ويبقى أصلها الثابت. وحقيقتها التي لا توجد بغيرها.. استسلام لمنهج الله، وتحقيق لمنهج رسول الله. وتحاكم إلى شريعة الله. وطاعة للرسول فيما بلغ عن الله، وإفراد لله -سبحانه- بالألوهية [شهادة أن لا إله إلا الله] ومن ثم إفراده بالحاكمية التي تجعل التشريع ابتداء حقا لله، لا يشاركه فيه سواه. وعدم احتكام إلى الطاغوت. في كثير ولا قليل"[1].

---

[1] في ظلال القرآن- سورة النساء- الآيات من ٥٨ إلى ٧٠ ج: ٢ ص: ٦٩٥ و٦٩٦.

[ب] وهذه اللادينية الجزئية غالباً ما تعرف بأنها (فصل الدين عن الدولة). يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري:

"(فصل الدين عن الدولة) ترجمة للعبارة الإنجليزية (سيباريشن أوف تشيرش آند ستيت separation of church and state)، وهي أكثر تعريفات العلمانية شيوعاً في العالم، سواء في الغرب أو في الشرق. وهي عبارة تعني حرفياً (فصل المؤسسات الدينية "الكنيسة" عن المؤسسات السياسية "الدولة"). والعبارة تحصر عمليات العلمنة في المجال السياسي وربما الاقتصادي أيضاً (رقعة الحياة العامة) وتَستبعد شتى النشاطات الإنسانية الأخرى، أي أنها تشير إلى العلمانية الجزئية وحسب"(١).

[ج] وهذا القسم من اللادينية أكثر قبولاً في عقول عوام الغربيين، فالمسيحي لا يجد غضاضة في أن يمارس حياته تبعاً للقوانين والدساتير وقواعد الاقتصاد والمواثيق الدولية، ثم يذهب يوم الأحد للكنيسة، ويعترف بذنوبه أمام القسيس. ولا يرى في ذلك أي تناقض، لأن المسيح -كما زعموا- يقول: "أدّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله"(٢). أما في عقيدة الإسلام، فهذا الخلط غير مقبول بالمرة، بل هو شرك بالله كما سنبين إن شاء الله. ولذلك فإن ما يسمونه بالعلمانية الجزئية تعد حلاً متوافقاً مع عقيدتهم المنحرفة للهروب من تسلط الكنيسة وجبروتها.

أما في ديار المسلمين فهي حيلة لتمرير العلمانية الكاملة والانسلاخ التام من الدين.

[د] ولكن هل بقيت العلمانية الجزئية جزئية كما بدأت في مراحلها الأولى أم استشرت وتغولت. يقول الدكتور المسيري رحمه الله:

"ولكن هذه العلمانية الجزئية (المرتبطة بالمراحل الأولى لتطور العلمانية الغربية) تراجعت وهُمِّشت إذ تصاعدت معدلات العلمنة بحيث تجاوزت مجالات الاقتصاد والسياسة والأيديولوجيا وأصبحت العلمنة ظاهرة اجتماعية كاسحة، وتحولاً بنيوياً عميقاً يتجاوز عملية فصل الدين عن الدولة وعملية التنظيم الاجتماعي (الرأسمالي والاشتراكي) ويتجاوز أية تعريفات معجمية وأية تصورات فكرية قاصرة محدودة، فلم تَعُد هناك رقعة للحياة العامة مستقلة عن الحياة الخاصة. فالدولة العلمانية والمؤسسات التربوية والترفيهية والإعلامية وصلت إلى وجدان الإنسان وتغلغلت في أحلامه ووجهت سلوكه وعلاقته

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع: العلمانية الشاملة- الباب الأول: إشكالية تعريف العلمانية- إشكالية العلمانيتين: علمانية جزئية وعلمانية شاملة- إشكالية تعريف العلمانية باعتبارها فصل الدين عن الدولة ج: ١ ص: ١٢٣.

(٢) راجع كلاماً نفيساً للأستاذ محمد قطب لنقد فهم الكنيسة لهذا القول المنسوب للسيد المسيح في كتاب [مذاهب فكرية معاصرة ص: ١١ إلى ١٣ و٤٣ إلى٤٦].

بأعضاء أسرته النووية، ولم يعد من الممكن الحديث عن فصل هذا عن ذاك. بل إننا يمكننا أن نتحدث لا عن (فصل الدين عن الدولة) وإنما عن (هيمنة الدولة على الدين)" [١].

ويزيد الأمر وضوحاً عن تطور العلمانية الجزئية في الغرب في العالمين الرأسمالي والاشتراكي فيقول:

"ولكن الأمور تغيَّرت إذ تتابعت حلقات المتتالية بخطى أخذت تتزايد في السرعة (إلى أن اكتملت في منتصف الستينيات). فقد ازدادت الدولة العلمانية قوة، وتغولت وأصبحت الدولة التنين، التي تنبأ بها هوبز، وأحكمت بمؤسساتها الأمنية قبضتها على الفرد من الخارج. كما أحكمت مؤسساتها التربوية قبضتها عليه من الداخل، تساعدها في ذلك وسائل الإعلام وقطاع اللذة اللذان تمدَّدا وتغولا بطريقة تفوق تغوُّل الدولة وتنينيتها. واتسع نطاق العلمنة وتخطى عالم السياسة والاقتصاد ووصل إلى عالم الفلسفة (فلسفة الاستنارة والعقلانية المادية)، ثم عالم الوجدان. وأخيراً إلى عالم السلوك اليومي، أي أن الإنسان تم ترشيده وتدجينه تماماً من الداخل والخارج، ولم يَعُد هناك أي أثر للمرجعية المتجاوزة، ولم يعد هناك أي أساس لأية معيارية، إذ أصبح لكل مجال من مجالات الحياة معياريته (غير الإنسانية) المستقلة. فتآكلت بقايا القيم المسيحية والقيم الإنسانية الهيومانية[٢]*، ومات الإله (على حد قول نيتشه)، وظهرت الفلسفات المعادية للإنسان، مثل البنيوية وما بعد الحداثة، التي تُنكر على الإنسان المقدرة على التجاوز.*

وقد حدث الشيء نفسه للمنظومة الاشتراكية. فبدلاً من التأرجح بين المرجعية المتجاوزة (الإنسان والقيم الإنسانية المطلقة) والمرجعية الكامنة (وسائل الإنتاج- حركة المادة- إشباع الحاجات والملذات المادية)، تَغوَّلت الدولة السوفيتية وتَغوَّل الحزب ووسائل الإعلام وقطاع اللذة وزاد التركيز على الاشتراكية العلمية في صفوف النخب الحاكمة الاشتراكية، وأصبح اللحاق بالغرب الذي يدور في إطار الطبيعة/المادة (وليس تحقيق إمكانات الإنسان المتجاوزة) هو المثل الأعلى. فتم ترشيد الإنسان وتدجينه، وبدأ يختفي تدريجياً أي إحساس بمطلقات متجاوزة (ظلال الإله) إلى أن اختفى الإنسان ومات الإله وسادت النسبية والنفعية.

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع: العلمانية الشاملة- الباب الأول: إشكالية تعريف العلمانية- إشكالية العلمانيتين: علمانية جزئية وعلمانية شاملة- إشكالية تعريف العلمانية باعتبارها فصل الدين عن الدولة ج: ١ ص: ١٢٣ و١٢٤.

(٢) الهيومانية هي النزعة أو الفلسفة الإنسانية، وهي منظومة مادية من الأفكار تقوم على القيم والخصائص والسلوكيات التي تتحقق في أفضل صورها في الكائن البشري، بغض النظر عن أية سلطة فوق الطبيعة.

ثم تتالت الحلقات، وبعد أن تمت السيطرة على الإنسان تماماً وأصبح مذعناً لقانون الطبيعة والأشياء وسقط تماماً في دوامة الصيرورة والنسبية، اتسع نطاق الصيرورة ليبتلع الطبيعة/المادة نفسها، كمصدر للمعيارية ومركز للعالم، ودخل العالم عصر ما بعد الحداثة والسيولة الشاملة واللامعيارية.

والفرق بين ما نسميه "العلمانية الجزئية" وما نسميه "العلمانية الشاملة" هو في واقع الأمر الفرق بين مراحل تاريخية لنفس النموذج؛ حلقات في نفس المتتالية. ففي المراحل الأولى للمتتالية تتسم العلمانية بالجزئية حينما يكون مجالها مقصوراً على المجالين الاقتصادي والسياسي، حين يكون هناك بقايا مطلقات مسيحية وإنسانية، وحين تتسم الدولة ووسائل الإعلام وقطاع اللذة بالضعف والعجز عن اقتحام (أو استعمار) كل مجالات الحياة، وحين يكون هناك معيارية إنسانية أو طبيعية/مادية. ولكن، في المراحل الأخيرة، ومع تزايد قوة الدولة ووسائل الإعلام وقطاع اللذة وتَمكُّنه من الوصول إلى الفرد وإحكام القبضة عليه من الداخل والخارج، ومع اتساع مجال عمليات العلمنة وضمور المطلقات واختفائها وتهميش الإنسان وسيادة النسبية الأخلاقية ثم النسبية المعرفية، تظهر العلمانية الشاملة"(١).

[٣] كلاهما إلحاد:

[أ] الإلحاد منه إلحاد النفي وإلحاد التعطيل.

قد يتوارد إلى الأذهان أن كلمة ملحد تنصرف فقط إلى من ينكر وجود الله، ولكن هذا غير صحيح، فمعنى الملحد أعم من ذلك؛ فإن الملحد لغة: هو المائل عن القصد، والملحد في الدين هو من طعن فيه(٢).

قال الإمام القرطبي رحمه الله:

"قوله تعالى ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فيه مسألتان:-

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع: العلمانية الشاملة- الباب الأول: إشكالية تعريف العلمانية- إشكالية العلمانيتين: علمانية جزئية وعلمانية شاملة ج: ١ ص: ١٢٦.

(٢) جاء في المعجم الوسيط: "لَحَدَ: مال عن طريق القصد... و - في الدين: طعن... المُلْحِد: الطاعن في الدين المائل عنه" [باب اللام- مادة: لحد ص: ٨١٧].

الأولى: قوله تعالى: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ الإلحاد: الميل وترك القصد؛ يقال: ألحد الرجل في الدين. وألحد إذا مال. ومنه اللحد في القبر؛ لأنه في ناحيته. وقرئ ﴿يَلْحَدُونَ﴾ لغتان. والإلحاد يكون بثلاثة أوجه:

أحدها: بالتغيير فيها كما فعله المشركون، وذلك أنهم عدلوا بها عما هي عليه فسموا بها أوثانهم؛ فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان قاله ابن عباس وقتادة. الثاني: بالزيادة فيها. الثالث: بالنقصان منها؛ كما يفعله الجهال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الله تعالى بغير أسمائه، ويذكرون بغير ما يذكر من أفعاله؛ إلى غير ذلك مما لا يليق به.

....

الثانية: معنى الزيادة في الأسماء التشبيه، والنقصان التعطيل. فإن المشبهة وصفوه بما لم يأذن فيه، والمعطلة سلبوه ما اتصف به، ولذلك قال أهل الحق: إن ديننا طريق بين طريقين، لا بتشبيه ولا بتعطيل"[1].

فالإمام القرطبي –رحمه الله– هنا ذكر ثلاثة أنواع من الإلحاد في أسماء الله وصفاته، منها إلحاد التعطيل. ولا شك أن هؤلاء الملاحدة (العلمانيين الجزئيين) قد عطلوا صفات من صفات الله، ومنها صفة الحُكْم، فالله هو الحَكَم. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾. وأخرج النسائي وصححه الألباني رحمهما الله: "أَنَّ أَبَا شُرَيْحٍ هَانِئَ بْنَ يَزِيدَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– لَمَّا وَفَدَ إِلَى رَسُول اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مَعَ قَوْمِهِ، سَمِعَهُمْ يُكَنُّونَهُ بِأَبِي الْحَكَمِ. فَقَال لَهُ رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ، فَلِمَ تُكَنَّى أَبَا الْحَكَمِ؟ فَقَال: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلاَ الْفَرِيقَيْنِ. فَقَال رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا أَحْسَنَ هَذَا. فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟". قَال: لِي شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ. قَال: "فَمَا أَكْبَرُهُمْ؟". قُلْتُ: شُرَيْحٌ. قَال: "أَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ". وَدَعَا لَهُ وَلِوَلَدِهِ"[2].

والله سبحانه وتعالى له وحده الخلق، وله وحده الأمر. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا

---

[1] تفسير القرطبي– سورة الأعراف آية ١٨٠– تفسير قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ج: ٧ ص: ٣٢٨.

[2] إرواء الغليل ج: ٨ ص: ٣٥٥.

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. فمن أثبت له الخلق، ونفى عنه الأمر، فقد عطل صفة من صفات الله، فهو ملحد في صفات الله سبحانه وتعالى.

والذي يعطل بعض صفات الله وينسبها لغيره فهو ملحد وهو أيضاً مشرك بالله، سواء كان هذا الإشراك إشراك الوثنيات القديمة أم إشراك الوثنيات المعاصرة.

يقول الشهيد -كما نحسبه- الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- في كلام طويل نفيس، وأنا أستسمح القارئ أن أنقل في هذا المبحث عدة مواضع من كلام الأستاذ الشهيد -رحمه الله- بشيء من الاستطراد لأهمية الكلام ونفاسته. فليصبر معي القارئ، فلن يجد إلا خيراً بتوفيق الله.

يقول الأستاذ الشهيد رحمه الله:

"إن الناس يقيمون لهم اليوم آلهة يسمونها "القوم" ويسمونها "الوطن"، ويسمونها "الشعب". . إلى آخر ما يسمون. وهي لا تعدو أن تكون أصناماً غير مجسدة كالأصنام الساذجة التي كان يقيمها الوثنيون. ولا تعدو أن تكون آلهة تشارك الله -سبحانه- في خلقه، وينذر لها الأبناء كما كانوا ينذرون للآلهة القديمة! ويضحون لها كالذبائح التي كانت تقدم في المعابد على نطاق واسع!

إن الناس يعترفون بالله رباً. ولكنهم ينبذون أوامره وشرائعه من ورائهم ظهرياً، بينما يجعلون أوامر هذه الآلهة ومطالبها "مقدسة". تخالف في سبيلها أوامر الله وشرائعه، بل تنبذ نبذاً. فكيف تكون الآلهة؟ وكيف يكون الشرك؟ وكيف يكون نصيب الشركاء في الأبناء. . إن لم يكن هو هذا الذي تزاوله الجاهلية الحديثة!!

ولقد كانت الجاهلية القديمة أكثر أدباً مع الله.. لقد كانت تتخذ من دونه آلهة تقدم لها هذه التقدمات من الشرك في الأبناء والثمار والذبائح لتقرب الناس من الله زلفى! فكان الله في حسها هو الأعلى. فأما الجاهلية الحديثة فهي تجعل الآلهة الأخرى أعلى من الله عندها. فتقدس ما تأمر به هذه الآلهة وتنبذ ما يأمر به الله نبذاً!

إننا نخدع أنفسنا حين نقف بالوثنية عند الشكل الساذج للأصنام والآلهة القديمة، والشعائر التي كان الناس يزاولونها في عبادتها واتخاذها شفعاء عند الله.. إن شكل الأصنام والوثنية فقط هو الذي تغير. كما أن الشعائر هي التي تعقدت، واتخذت لها عنوانات جديدة.. أما طبيعة الشرك وحقيقته فهي القائمة من وراء الأشكال والشعائر المتغيرة..

وهذا ما ينبغي ألا يخدعنا عن الحقيقة!

إن الله -سبحانه- يأمر بالعفة والحشمة والفضيلة. ولكن "الوطن" أو "الإنتاج" يأمر بأن تخرج المرأة وتتبرج وتغري وتعمل مضيفة في الفنادق في صورة فتيات الجيشا في اليابان الوثنية! فمن الإله الذي تتبع أوامره؟ أهو الله سبحانه؟ أم أنها الآلهة المدعاة؟

إن الله -سبحانه- يأمر أن تكون رابطة التجمع هي العقيدة.. ولكن "القومية" أو "الوطن" يأمر باستبعاد العقيدة من قاعدة التجمع؛ وأن يكون الجنس أو القوم هو القاعدة..! فمن هو الإله الذي تتبع أوامره؟ أهو الله -سبحانه- أم هي الآلهة المدعاة؟

إن الله -سبحانه- يأمر أن تكون شريعته هي الحاكمة. ولكن عبداً من العبيد -أو مجموعة من "الشعب" - تقول: كلا! إن العبيد هم الذين يشرعون وشريعتهم هي الحاكمة.. فمن هو الإله الذي تتبع أوامره؟ أهو الله سبحانه أم هي الآلهة المدعاة؟!

إنها أمثلة لما يجري في الأرض كلها اليوم؛ ولما تتعارف عليه البشرية الضالة.. أمثلة تكشف عن حقيقة الوثنية السائدة، وحقيقة الأصنام المعبودة، المقامة اليوم بديلاً من تلك الوثنية الصريحة، ومن تلك الأصنام المنظورة! ويجب ألا تخدعنا الأشكال المتغيرة للوثنية والشرك عن حقيقتها الثابتة!!!

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢)﴾.

ولقد كان القرآن يحاور أصحاب تلك الوثنية الساذجة؛ وتلك الجاهلية الصريحة؛ ويخاطب عقولهم البشرية لإيقاظها من تلك الغفلة التي لا تليق بالعقل البشري -أيّاً كانت طفولته- فيعقب على ذلك المثل الذي ضربه لهم، وصور فيه مدارج الشرك في النفس:

﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون؟..﴾.

إن الذي يخلق هو الذي يستحق أن يعبد! وآلهتهم المدعاة -كلها- لا تخلق شيئاً بل هي تُخلق! فكيف يشركون بها؟ كيف يجعلون لها شركاً مع الله في نفوسهم وفي أولادهم؟

وإن الذي يملك أن ينصر عباده بقوته ويحميهم هو الذي ينبغي أن يعبد. فالقوة والقهر والسلطان هي خصائص الألوهية وموجبات العبادة والعبودية.. وآلهتهم المدعاة -كلها- لا قوة لها ولا سلطان؛ فهم لا يستطيعون نصرهم، ولا نصر أنفسهم! فكيف يجعلون لها شركاً مع الله في نفوسهم وفي أولادهم؟

ومع أن برهان الخلق والقدرة هذا كان يوجه إلى أصحاب تلك الجاهلية الساذجة، فهو ما يزال هو هو الذي يحاج به أصحاب الجاهلية الحاضرة! إنهم يقيمون لهم أصناماً أخرى

يعبدونها ويتبعون ما تأمر به؛ ويجعلون لها شركاً في أنفسهم وأبنائهم وأموالهم.. فمن منها يخلق من السماوات والأرض شيئاً؟ ومن منها يملك لهم أو لنفسه نصراً؟

إن العقل البشري -لو خلي بينه وبين هذا الواقع- لا يقره، ولا يرضاه! ولكنها الشهوات والأهواء والتضليل والخداع.. هي التي تجعل البشرية بعد أربعة عشر قرناً من نزول هذا القرآن ترتد إلى هذه الجاهلية[1] *-في صورتها الجديدة- فتشرك ما لا يَخلقون شيئاً وهم يُخلقون، ولا يملكون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون!*

---

[1] اتهم البعض الأستاذ الشهيد سيد قطب -رحمه الله- بأنه يكفر المجتمعات المعاصرة لأنه يصفها بالجاهلية. والوصف بالجاهلية لا يستلزم الحكم بالكفر، وإنما يصف حالة مخالفة للعقيدة الإسلامية. وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لسيدنا أبي ذر -رضي الله عنه- لما عير رجلاً بأمه: "أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ". وبوب البخاري -رحمه الله- للباب بقوله: "بَاب الْمَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلَّا بِالشِّرْكِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ...". [صحيح البخاري- كتاب: الإيمان- باب: المعاصي من أمر الشرك ولا يكفر صاحبها إلا بالشرك...- حديث رقم: ٢٩ ج: ١ ص: ٥١].

ومن المثير للانتباه أن هذه التهمة -تهمة أن من يصف المجتمعات والأنظمة المعاصرة بأنها جاهلية إنما هو خارجي تكفيري- هي نفس التهمة التي ألصقتها النيابة العامة -الحاكمة بغير شريعة الله والناصرة للدستور والقانون العلمانيين- بالمتهمين في قضية الجهاد الكبرى، والتي تصدى فيها فضيلة الشيخ الدكتور عمر عبد الرحمن -فك الله أسره- لتلك الأباطيل في مرافعته المشهورة، والتي أخرجها بعد ذلك في كتاب (كلمة حق). حيث يقول فرج الله عنه:

"قالت النيابة: " أن قذف مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة بأنها جاهلية تارة أو كافرة تارة أخرى أو أنها تحكم بأحكام الكفر، فحكم جائر متجنٍ يخالف شريعة الرحمن" ...

عجباً لمن يتهم الناس بقول الحق وحديث الصدق! عجباً لمن يكذب على نفسه وعلى الناس وعلى الله! لقد أصبح الصدق في عرف النيابة كذباً والعدل ظلماً والحقيقة جرماً! هل قالت شريعة الرحمن إن حكم اليوم وفق شريعة الرحمن حتى يكون القائل بغير ذلك متجنياً جائراً مخالفاً للشريعة؟ أيتها النيابة الصادقة الغير جائرة ولا متجنية أصدقينا القول ولا تحرفي الكلم عن مواضعه: بم يُحكم المجتمع الآن؟..

أي الأحكام تطبق في المجتمعات الإسلامية المعاصرة؟ أجيبي يا أمينة يا صادقة يا من لا تعرفين التجني ولا تعشقينه ويا من لا تخالفين شريعة الرحمن!! أشريعة الرحمن تبيح الزنا؟ أشريعة الرحمن تبيح الخمور؟ أشريعة الرحمن تبيح الربا وتنشره وتعلنه؟ إن الشريعة التي يصدر منها هذا إنما هي شريعة الشيطان التي أنتم سندها وخدمها وأنصارها والقائمون عليها، شريعة التمرد والعصيان: على شريعة الواحد الديان، ولا ينكر الشمس أحد وهو يبصرها إلا جاحد أو مجنون..

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

ونهاية.. فإننا نوضح أمراً غاب عن أذهان الكثيرين:

إن إطلاق لفظ الجاهلية على مجتمع لأنه يحكم بغير شرع الله لا يعني هذا أن أفراد المجتمع كفار، لا بل قد يطلق على الدار أنها دار كفر لأنها تحكم بشرع غير شرع الله مع أنه قد يوجد بها الآلاف أو الملايين من المسلمين، فها هي مكة بعد البعثة وقبل الهجرة يسمى المجتمع فيها مجتمعاً جاهلياً مع أنها تضم في هذا المجتمع خيرة خلق الله من السابقين الأولين من المهاجرين..

إن هذه البشرية لفي حاجة اليوم -كما كانت في حاجة بالأمس- إلى أن تخاطب بهذا القرآن مرة أخرى. في حاجة إلى من يقودها من الجاهلية إلى الإسلام؛ ومن يخرجها من الظلمات إلى النور؛ ومن ينقذ عقولها وقلوبها من هذه الوثنية الجديدة؛ بل من هذا السخف الجديد الذي تلج فيه؛ كما أنقذها هذا الدين أول مرة!" [(١)] .

ويقول أيضاً رحمه الله:

"إن الشرك بالله -المخالف لشهادة أن لا إله إلا الله- يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده. ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته، بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله، حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته.. وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة.. والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته.. إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده؛ ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر. بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية و السياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله. ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله. ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء -مخالفة لشرع الله وأمره- إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته؛ ويخالف عن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله في أخص حقيقتها.. وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع، وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان!

وهذا أبو بكر الصديق والصحابة أجمعون يقاتلون مانعي الزكاة المقرين بوجوبها وهم مسلمون، ويسمونهم مرتدين، وعرفت هذه الحروب بحروب الردة، لأن فعلهم فعل المرتدين، أما الواحد منهم فلا يقال عنه إنه مرتد، بل هو مسلم عاص لا شك في ذلك، وفقهاء الأمة سلفاً وخلفاً متفقون على أن هناك فرقاً بين الحكم على طائفة تحمل اعتقاداً باطلاً وإطلاق اسم الكفر عليها وبين الحكم على الشخص المعين فيها وتكفيره، فهم يقولون إن الجهمية كفار، والجهمية فرقة تنتسب إلى الإسلام وفي عقيدتها مخالفات لعقيدة السلف الصالح، ولكن لم يقل أحد بأن الواحد منهم كافر إلا بعد أن تقام الحجة عليه ويستقصى حاله، أما قبل ذلك فيحكم له بالإسلام. هذا يعرفه كل من طالع كتب العقيدة التي وضعها سلفنا الصالح فهل كان علماء النيابة في غفلة عنها؟ أم أنه الصد عن سبيل الله وتطويع الأحكام لتخدم الحكام". [كلمة حق ص: ٨٠ و٨١].

[(١)] في ظلال القرآن- سورة الأعراف- الآيات ١٧٢ إلى ١٩٨ ج: ٣ ص: ١٤١٣ و١٤١٤.

والأصنام.. ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة.. فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت، يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها، وضمان دينونتهم له من خلالها..

إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر.. إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها؛ يتمتم حولها بالتعاويذ والرقي.. ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها!

فإذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان، ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين والقيم والموازين والتصرفات والأعمال... فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها!

إذا رفعت "القومية " شعاراً، أو رفع "الوطن" شعاراً، أو رفع "الشعب" شعاراً، أو رفعت "الطبقة" شعاراً... ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله؛ وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض. بحيث كلما تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها، نحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه، ونفذت إرادة تلك الشعارات -أو بالتعبير الصحيح الدقيق: إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات- كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله.. فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة؛ ولقد يكون الصنم مذهباً أو شعاراً!

إن الإسلام لم يجيء لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية! ولم تبذل فيه تلك الجهود الموصولة، من موكب الرسل الموصول؛ ولم تقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك العذابات والآلام، لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب!

إنما جاء الإسلام ليقيم مفرق الطريق بين الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن، وبين الدينونة لغيره في كل هيئة وفي كل صورة.. ولا بد من تتبع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة، وتقرير ما إذا كانت توحيداً أم شركاً؟ دينونة لله وحده أم دينونة لشتى الطواغيت والأرباب والأصنام!

....

إن دين الله ليس بهذا الهزال الذي يتصوره من يزعمون أنفسهم "مسلمين" في مشارق الأرض ومغاربها! إن دين الله منهج شامل لجزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها. والدينونة لله وحده في كل تفصيل وكل جزئية من جزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها -فضلاً على أصولها وكلياتها- هي دين الله، وهي الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه.

وإن الشرك بالله لا يتمثل فحسب في الاعتقاد بألوهية غيره معه؛ ولكنه يتمثل ابتداء في تحكيم أرباب غيره معه..

وإن عبادة الأصنام لا تتمثل في إقامة أحجار وأخشاب؛ بقدر ما تتمثل في إقامة شعارات لها كل ما لتلك الأصنام من نفوذ ومقتضيات!

ولينظر الناس في كل بلد لمن المقام الأعلى في حياتهم؟ ولمن الدينونة الكاملة؟ ولمن الطاعة والاتباع والامتثال؟.. فإن كان هذا كله لله فهم في دين الله. وإن كان لغير الله -معه أو من دونه- فهم في دين الطواغيت والأصنام.. والعياذ بالله!..

هذا بلاغ للناس، ولينذروا به. وليعلموا أنما هو إله واحد، وليذكر أولو الألباب"[1].

[ب] إن مشركي العرب الذين دعاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- للتوحيد، وقاتلهم عليه، كان لهم دين شعائره أكثر من الشعائر التي يمارسها الملاحدة المعطلون أو من يسمون أنفسهم بالعلمانيين الجزئيين.

ومشركو العرب الذين نزل عليهم القرآن لم يكونوا ينفون وجود الباري سبحانه، بل كانوا يؤمنون به، ولكنهم كانوا يشركون معه آلهة أخرى أقل منه شأناً، يتخذونها وسائطاً بينهم وبينه، فهم أحسن حالاً من علمانيي هذا العصر الذين يصفون أنفسهم بالعلمانيين المعتدلين وهم في حقيقة أمرهم مشركون أسوأ حالاً من مشركي العرب، فإن مشركي العرب كانوا يعتبرون المولى سبحانه وتعالى هو الإله الأعظم الأعلى، أما أولئك فيقولون إن الله لا شأن له بحياتهم، وإن البرلمانات والانتخابات أعظم منه شأناً وأنفذ حكماً وأبعد تأثيراً[2].

[ج] الملاحدة النفاة في طول التاريخ البشري قلة، وقد تضعضعت أحوالهم في هذا الزمان بعد سقوط الشيوعية. ولكن الملاحدة المعطلين هم أكثر فئات الضالين، ومعهم كانت معظم معارك الرسل والموحدين.

يقول الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله:

"إن هذا الدين شريعته كعقيدته في تقرير صفة الشرك أو صفة الإسلام. بل إن شريعته من عقيدته في هذه الدلالة... بل إن شريعته هي عقيدته.. إذ هي الترجمة الواقعية لها... كما تتجلى هذه الحقيقة الأساسية من خلال النصوص القرآنية، وعرضها في المنهج القرآني..

---

[1] في ظلال القرآن- سورة إبراهيم- الآيات من ٢٨ إلى ٥٢ ج: ٤ ص: ٢١١٤ إلى ٢١١٦.

[2] لمزيد من التفصيل حول هذه المسألة يمكن مراجعة: العلمانية نشأتها وتطورها ج: ٢ ص: ٧٠ إلى ٧٣، وكذلك رسالة (القواعد الأربع التي تفرق بين دين المسلمين ودين العلمانيين). وكذلك مقال الأستاذ يحيى هاشم حسن فرغل القيم بعنوان (العلمانية ودورها في إنشاء ديانة شمعية ميتة).

وهذه هي الحقيقة التي زحزح مفهوم "الدين" في نفوس أهل هذا الدين عنها زحزحة مطردة خلال قرون طويلة، بشتى الأساليب الجهنمية الخبيثة.. حتى انتهى الأمر بأكثر المتحمسين لهذا الدين -ودعك من أعدائه والمستهزئين والمستهترين الذين لا يحفلونه- أن تصبح قضية الحاكمية في نفوسهم قضية منفصلة عن قضية العقيدة! لا تجيش لها نفوسهم كما تجيش للعقيدة! ولا يعدون المروق منها مروقاً من الدين، كالذي يمرق من عقيدة أو عبادة! وهذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة. إنما هي الزحزحة التي زاولتها أجهزة مدربة، قروناً طويلة، حتى انتهت مسألة الحاكمية الى هذه الصورة الباهتة، حتى في حس أشد المتحمسين لهذا الدين!

....

إن الذين يحكمون على عابد الوثن بالشرك، ولا يحكمون على المتحاكم إلى الطاغوت بالشرك. ويتحرجون من هذه ولا يتحرجون من تلك.. إن هؤلاء لا يقرأون القرآن. ولا يعرفون طبيعة هذا الدين.. فليقرأوا القرآن كما أنزله الله، وليأخذوا قول الله بجد ﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾..

....

إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله. فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين.. وإن مشكلة هذا الدين في الأرض اليوم، لهي قيام الطواغيت التي تعتدي على ألوهية الله، وتغتصب سلطانه، وتجعل لأنفسها حق التشريع بالإباحة والمنع في الأنفس والأموال والأولاد.. وهي هي المشكلة التي كان يواجهها القرآن الكريم بهذا الحشد من المؤثرات والمقررات والبيانات، ويربطها بقضية الألوهية والعبودية، ويجعلها مناط الإيمان أو الكفر، وميزان الجاهلية أو الإسلام.

إن المعركة الحقيقية التي خاضها الإسلام ليقرر "وجوده" لم تكن هي المعركة مع الإلحاد، حتى يكون مجرد "التدين" هو ما يسعى إليه المتحمسون لهذا الدين! ولم تكن هي المعركة مع الفساد الاجتماعي أو الفساد الأخلاقي - فهذه معارك تالية لمعركة "وجود" هذا الدين!.. لقد كانت المعركة الأولى التي خاضها الإسلام ليقرر "وجوده" هي معركة "الحاكمية" وتقرير لمن تكون.. لذلك خاضها وهو في مكة. خاضها وهو ينشيء العقيدة، ولا يتعرض للنظام والشريعة. خاضها ليثبت في الضمير أن الحاكمية لله وحده، لا يدعيها

لنفسه مسلم، ولا يقر مدعيها على دعواه مسلم.. فلما أن رسخت هذه العقيدة في نفوس العصبة المسلمة في مكة، يسر الله لهم مزاولتها الواقعية في المدينة"[1].

ويقول أيضاً رحمه الله:

"وما كان الخلاف على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام؛ ولا كانت المعركة بين الحق والطاغوت، على ألوهية الله -سبحانه- للكون؛ وتصريف أموره في عالم الأسباب والنواميس الكونية: إنما كان الخلاف وكانت المعركة على من يكون هو رب الناس، الذي يحكمهم بشرعه، ويصرفهم بأمره، ويدينهم بطاعته؟

لقد كان الطواغيت المجرمون في الأرض يغتصبون هذا الحق ويزاولونه في حياة الناس، ويذلونهم بهذا الاغتصاب لسلطان الله، ويجعلونهم عبيداً لهم من دون الله. وكانت الرسالات والرسل والدعوات الإسلامية تجاهد دائما لانتزاع هذا السلطان المغتصب من أيدي الطواغيت ورده إلى صاحبه الشرعي.. الله سبحانه" [2].

[د] وهذه اللادينية الجزئية أو إلحاد التعطيل أو ما يسمونه بالعلمانية الجزئية تؤدي بصاحبها إلى تمزق نفسه بين معبودات متعددة، فتنتهي به إلى التمزق والحيرة والضياع والاغتراب وكل الظواهر المرضية التي هوت إليها الحضارة الغربية، وفي المقابل فإن التوحيد هو مصدر قوة الأمة المسلمة قديماً وحديثاً، وهو مدخلها الحقيقي الوحيد للحرية والكرامة والسكينة والريادة.

يقول الأستاذ الشهيد -كما نحسبه- سيد قطب رحمه الله:

"إن هذا التصور إذ يتناول الأمور على هذا النحو الشامل -بكل معاني الشمول- يخاطب الكينونة البشرية بكل جوانبها، وبكل أشواقها، وبكل حاجاتها، وبكل اتجاهاتها، ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها، جهة تطلب عندها كل شيء، وتتوجه إليها بكل شيء. جهة واحدة ترجوها وتخشاها، وتتقي غضبها وتبتغي رضاها جهة واحدة تملك لها كل شيء، لأنها خالقة كل شيء، ومالكة كل شيء، ومدبرة كل شيء.

كذلك يرد الكينونة الإنسانية إلى مصدر واحد، تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها، وقيمها وموازينها، وشرائعها وقوانينها. وتجد عنده إجابة عن كل سؤال يجيش فيها وهي تواجه الكون والحياة والإنسان، بكل ما يثيره كل منها من علامات الاستفهام.

عندئذ تتجمع هذه الكينونة.. تتجمع شعوراً وسلوكاً، وتصوراً واستجابة. في شأن العقيدة والمنهج.

---

[1] في ظلال القرآن- سورة الأنعام- الآيات ١٣٦ إلى ١٥٣ ج: ٣ ص: ١٢١٦ و١٢١٧.

[2] في ظلال القرآن- سورة هود- الآيات من ١ إلى ٢٤ ج: ٤ ص: ١٨٥٢.

وشأن الاستمداد والتلقي. وشأن الحياة والموت. وشأن السعي والحركة. وشأن الصحة والرزق. وشأن الدنيا والآخرة. فلا تتفرق مزقاً؛ ولا تتجه إلى شتى السبل والآفاق، ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق!

والكينونة الإنسانية حين تتجمع على هذا النحو، تصبح في خير حالاتها. لأنها تكون حينئذ في حالة "الوحدة" التي هي طابع الحقيقة في كل مجالاتها.. فالوحدة هي حقيقة الخالق -سبحانه- والوحدة هي حقيقة هذا الكون -على تنوع المظاهر والأشكال والأحوال- والوحدة هي حقيقة الحياة والأحياء -على تنوع الأنواع والأجناس- والوحدة هي حقيقة الإنسان -على تنوع الأفراد والاستعدادات- والوحدة هي غاية الوجود الإنساني وهي العبادة- على تنوع مجالات العبادة وهيئاتها- وهكذا حيثما بحث الإنسان عن الحقيقة في هذا الوجود..

وحين تكون الكينونة الإنسانية في الوضع الذي يطابق "الحقيقة" في كل مجالاتها، تكون في أوج قوتها الذاتية؛ وفي أوج تناسقها -كذلك- مع "حقيقة" هذا الكون الذي تعيش فيه، وتتعامل معه؛ ومع "حقيقة" كل شيء في هذا الوجود، مما تتأثر به وتؤثر فيه.. وهذا التناسق هو الذي يتيح لها أن تنشئ أعظم الآثار، وأن تؤدي أعظم الأدوار.

وحينما بلغت هذه الحقيقة أوجها في المجموعة المختارة من المسلمين الأوائل، صنع الله بها في الأرض أدوارا عميقة الآثار في كيان الوجود الإنساني، وفي كيان التاريخ الإنساني..

وحين توجد هذه الحقيقة مرة أخرى -وهي لا بد كائنة بإذن الله- سيصنع الله بها الكثير، مهما يكن في طريقها من العراقيل. ذلك أن وجود هذه الحقيقة في ذاته ينشيء قوة لا تقاوم؛ لأنها من صميم قوة هذا الكون؛ وفي اتجاه قوة المبدع لهذا الكون أيضاً.

.. إن هذه الحقيقة ليست أهميتها فقط في تصحيح التصور الإيماني. وإن كان هذا التصحيح في ذاته غاية ضخمة يقوم عليها بناء الحياة كله- بل إن أهميتها كذلك في حسن تذوق الحياة، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق. فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله؛ وحين يصبح كل نشاط فيها -صغر أم كبر- جزءاً من هذه العبادة؛ أو كل العبادة، متى نظرنا إلى المعنى الكبير الكامن فيه. وهو إفراد الله - سبحانه- بالألوهية والإقرار له وحده بالعبودية.. هذا المقام الذي لا يرتفع الإنسان إلى ما هو أعلى منه؛ ولا يبلغ كماله الإنساني إلا في تحقيقه"[1].

(ج) ثمار اللادينية:

---

[1] في ظلال القرآن- سورة هود- الآيات من ١٠١ إلى ١٢٣ ج: ٤ ص: ١٩٣٨ و١٩٣٩.

كان لانتشار التيارات اللادينية آثار مدمرة على فكر الإنسان وأخلاقه وسلوكه ونظرته للكون ولنفسه وللآخرين، وسأشير إلى بعض تلك المشاكل العملية عند الحديث عن استبداد هوى الأغلبية (الديمقراطية)، ولكني هنا أشير إلى بعض النزعات الفكرية الخطيرة التي ظهرت كنتيجة لازمة للادينية.

[أ] ظهور وسقوط الشيوعية:

لعل من أهم آثار انتشار العلمانية هو قيام الفلسفة الماركسية ثم تجسدها في الاتحاد السوفييتي والصين ودول أوروبا الشرقية وغيرها.

وقد شاهدت البشرية بأم أعينها مدى البشاعة التي يمكن أن تنتجها الفلسفات المادية اللادينية، وبعد قرابة ستين عاماً من قيام الدولة الشيوعية في روسيا، انهار الاتحاد السوفييتي وانتهت الشيوعية من العالم إلا في زوايا نادرة، وكفرت البشرية كلها بهذه الفلسفة المادية الإلحادية التي أذاقت البشرية عموماً والمسلمين خصوصاً الويلات والنكبات. وتمردت عليها كل الشعوب التي وقعت تحت قهرها وظلمها، وإني لأذكر أني لما كنت في السجن في داغستان كانت كلمة (كميونست: أي شيوعي) سبة تعني الشخص الحقود الشحيح سيئ الطوية.

وسقوط الشيوعية لا يعد انتصاراً للغرب ونظمه الفكرية والسياسية والاقتصادية، كما تصور مفكرو الغرب، الذين اعتبروا سقوط الاتحاد السوفييتي بداية نهاية التاريخ وسيادة القيم الغربية، بل هو -بإذن الله- مقدمة سقوط الغرب الرأسمالي اللاديني، فكلتا الشيوعية والرأسمالية نشأتا من نفس البذرة الدينية اللادينية. وستنتهيان لنفس النتيجة إن شاء الله. وسأتعرض بإيجاز لذلك إن شاء الله.

[ب] النسبية المعرفية والأخلاقية:

كان من نتائج اللادينية كما ذكرنا سقوط المرجعيات الدينية والأخلاقية، وتحول العالم والإنسان -في أذهان المجتمعات اللادينية- لأشياء تحركها القوانين الطبيعية المادية، التي لا تعرف خلقاً ولا رحمة، ناهيك أن تعرف إلهاً، ووصل الأمر لعبث ما بعد الحداثة. وكان لهذه النسبية المعرفية والأخلاقية آثار مدمرة على الإنسان يقول عنها الدكتور المسيري رحمه الله:

"قد يكون تَزايُد معدلات النسبية المعرفية والأخلاقية من أهم آليات تحويل الإنسان الرباني إلى إنسان وظيفي تعاقدي. فمع اختفاء القيم الأخلاقية المتجاوزة لذات الإنسان، يتمركز الإنسان حول ذاته ويصبح هو المعيار الأوحد، وهو ما يؤدي إلى ظهور إرادة القوة وإنسان نيتشه والحرية الكاملة. ولكن تمركزه حول ذاته دون وجود منظومات معرفية وأخلاقية تحظى بقبول المجتمع ككل، ومع ظهور فكرة القانون الطبيعي/المادي العام الذي يتجاوز كل الغائيات الإنسانية ولا يمكن تجاوزه، فإنه ينتهي إلى أن يفقد ذاته ويتمركز حول الموضوع ويقع ضحية لأية منظومة أخلاقية قوية سائدة، فيُذعن لكل ما يَصدُر إليه من أوامر، الأمر الذي يؤدي إلى ظهور أخلاقيات التكيف البرجماتي والإنسان البيروقراطي

والجبرية الكاملة. وهذا هو الاستقطاب بين التمركز حول الذات والتمركز حول الموضوع الذي يسم المنظومات الحلولية الكمونية[1]*، وضمن ذلك العلمانية، بميسمه"*[2].

[ج] كذلك كان من الآثار المدمرة للادينية ظهور اللاعقلانية، التي تعد اللادينية المادية مقدمتها الطبيعية، وهكذا بدء اللادينيون حربهم على الكنيسة باسم العقل فانتهوا لتغييب العقل. يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري -رحمه الله- عن مصطلح (اللامعيارية [اللاعقلانية المادية]):

"ويُستخدَم الاصطلاح أحياناً كمرادف لمصطلح "الاغتراب" حيث يصبح الفرد بلا جذور فيفقد الاتجاه، ويسبب له هذا اختلالاً نفسياً. وقد عدَّل روبرت مرتون معنى كلمة "أنومي[3]*" قليلاً. فبدلاً من الحديث عن غياب المعيارية، تحدَّث عن الصراع بين المعايير، أي أن حالة الأنومي تظهر حينما يواجه المرء أهدافاً غير متسقة في حياته، أو حينما يُطرَح عليه حلم مستحيل (هدف نهائي دون توفير الوسائل التي تُمكّنِه من تحقيق الهدف)، أو حينما تتناقض الأهداف الاجتماعية مع المقاييس السلوكية التي تساعد على تحقيقها. ففي الولايات المتحدة -على سبيل المثال- يؤكد الحلم الأمريكي أن تحقيق الثروة هو الهدف من الحياة، وهو ما عُبّرِ عنه بمقولة "من الأسمال إلى الثروة"، ولكن الوسائل المتاحة لتحقيق هذا محدودة جداً والفرد الأمريكي لا يتمكن من تحقيق حلمه من خلال القنوات الشرعية مهما*

---

[1] يقارن السيد أبو الحسن الندوي بين الانحراف العقدي عند أصحاب وحدة الوجود في الشرق والانحراف العقدي في الغرب عامة والماركسي خاصة، فيقول:

"التصوف المادي الغربي ووحدة الوجود الاقتصادي:

وقد بلغ النظر المادي والفكر المادي في أوربا درجة الاستغراق فيه والفناء ونسيان ما سوى القيم المادية، ولنضرب بذلك مثلاً بكارل ماركس ١٨١٨ - ١٨٨٣ م مؤسس الفلسفة الشيوعية.

يرى كارل ماركس أن النظام الاقتصادي هو روح الاجتماع وأن الدين والحضارة وفلسفة الحياة والفنون الجميلة كلها عكس لهذا النظام الاقتصادي.

....

فهذا هو -كما ترى- التصوف المادي الغربي، وهذه هي فلسفة وحدة الوجود وحدة الاقتصاد، ولما كان الشرقيون إنما يغلبهم الروح الديني والتأله نفى المتألهون منهم والمغلوبون وجود كل شيء سوى الله، وهتفوا في سكرهم وغلبة الحال عليهم: لا موجود إلا الله، ولما كان المفكرون الأوربيون إنما تغلبهم المادية نفوا وجود كل شيء سوى الناحية الاقتصادية وهتفوا: لا موجود إلا البطن والمعدة". [ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص: ٢٠٢ إلى ٢٠٤].

[2] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الخامس: الجماعات الوظيفية- الباب الثاني: الجماعات الوظيفية والحلولية والعلمانية الشاملة- المجتمعات العلمانية والعلاقات الوظيفية (التعاقدية)-آليات تحويل الإنسان التراحمي (أو الإنسان الرباني متعدد الأبعاد) إلى إنسان تعاقدي وظيفي ج: ١ ص: ٢٣٥ و٢٣٦.

[3] الأنومي تعريب كلمة anomie بالفرنسية والإنجليزية، وتعني اللامعيارية.

قمع ذاته وبذل من تضحيات (على عكس ما تزعمه الأسطورة). ولذا، تبدأ حالة الأنومي في الظهور ويلجأ الفرد لوسائل غير مشروعة مثل الانحراف والجريمة وتعاطي المخدرات، إما لتحقيق الهدف المستحيل أو لتحقيق التوازن الذي فقده الإنسان نتيجة الحلم المستحيل.

ويمكن أن نضيف إلى كل هذا اكتشاف الفرد تفاهة الحلم أو المثل الأعلى الذي يسعى إلى تحقيقه. ففي المجتمعات الاستهلاكية، كثيراً ما يقوم الفرد بعملية قمع هائلة لإنسانيته وتلقائيته ويحقق النجاح المنشود ويصل إلى الفردوس الأرضي ويحقق الثراء ويمتلك كل ما يفترض فيه أنه سيحقق السعادة له (منزلاً كبيراً- منزلاً صيفياً- قارباً- سيارتين- زوجة- طفلين- كلب.. إلخ). ولكنه يكتشف أن ثمة فراغاً في حياته، وأنه لا يمارس أي إشباع روحي رغم النجاح المادي الكامل (فالنجاح لم يحقق جوهره الإنساني المتكامل المركب المتجاوز). وهنا يصاب المرء بحالة الأنومي، فيتمرد على وضعه بأن يقرر أن يجرب الفشل بدلاً من النجاح، والفقر بدلاً من الثراء، والحياة البوهيمية بدلاً من الانضباط الشديد الذي أدى إلى نجاحه.

ويمكن أن نطور المصطلح ليكتسب بُعداً معرفياً ونقول إن اللامعيارية إمكانية كامنة في النماذج المادية التي تطمح لأن يولّد الإنسان المعيارية إما من عقله أو من الطبيعة/المادة. ومن خلال التطور يكتشف الإنسان أن عقله بدون مرجعية يدور حول ذاته ويُقدس القوة وأن الطبيعة/المادة هي حركة بلا غاية أو هدف ومن ثم لا تَصلُح مصدراً للمعيارية. ومن ثم يتم الانتقال من العقلانية المادية إلى اللاعقلانية المادية ومن التحديث والحداثة إلى ما بعد الحداثة، واللامعيارية هي جوهر ما بعد الحداثة"[1].

[د] كذلك كان من الآثار الخطيرة للنزعات والفلسفات اللادينية (العلمانية) تأثرها الشديد بنظرية دارون في النشوء والارتقاء، ولم يكتفوا بالتسليم بها كحقيقة -كما يزعمون- في مجال الأحياء، بل نقلوها للعديد من النظريات والفلسفات الإنسانية والاجتماعية.

يقول الأستاذ محمد قطب حفظه الله:

" إن فكرة التطور لم تنحصر في الدراسة المعملية التي قام عليها دارون، ولا كان في الإمكان أن تنحصر في هذا النطاق. وإنما انطلقت تصيب العلماء والجماهير، فتدير رءوسهم حتى لم يعودوا يرون شيئاً "ثابتاً" في الوجود كله، حتى فكرة العقيدة.. حتى فكرة الله!"[2].

---

[1] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع: العلمانية الشاملة- الباب الخامس: مصطلحات تشير إلى تفكيك الإنسان وتقويضه- اللامعيارية (اللاعقلانية المادية) ج: ١ ص: ١٥٩.

[2] جاهلية القرن العشرين ص: ٣٨.

ويقول أيضاً:

"لقد ظل الإنسان -على ضلالته كلها وجهالاته كلها- يظن في نفسه أنه إنسان!.. حتى جاءه دارون يقول له في توكيد "علمي" إنه حيوان!

لقد بعث الله رسله للبشرية منذ مولد الإنسان حتى خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم.. يؤكدون "إنسانية" الإنسان، ويجاهدون ليرفعوا الإنسان إلى أقصى ما ترتفع إليه طاقاته، بموجب هذه "الإنسانية" التي جاءوا يؤكدونها، وينيرون لها السبيل لتهتدي بهدى الله، فترتفع وتشف.. وتأتي بما يشبه المعجزات.

ولكن رسول "العلم" في القرن التاسع عشر، جاء يؤكد حيوانية الإنسان!

بريئاً.. أو غير بريء.. هل كان إلا رسول الشيطان؟!

إن هذا العلم المزيف الذي "اهتدى" إليه دارون [سنبين زيفه بعد لحظة] قد فعل بالبشرية في جاهليتها الحديثة ما لم تصنعه شياطين الإنس والجن في ألوف من السنين!

حيوان.. ماذا تنتظر من الحيوان؟!

لقد سرت إيحاءات الداروينية المسمومة في كل مجالات الفكر الغربي.. في السياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس والأخلاق والفن.. لم تترك مجالاً واحداً لم تلحقه بالتشويه!

فما دام الإنسان قد صار في نظر نفسه حيواناً، فلا بد أن تتبع ذلك نتائج "حتمية"!

والنتائج الحتمية لهذا التصور الجاهل المنحرف، هي أن تهبط مفاهيم الإنسان وأخلاقه، ومشاعره وارتباطاته، حتى تصير في مستوى "الحيوان" الذي صار إليه بفكره، على هدى التفسير الحيواني للإنسان!" [(١)].

طبعاً كان هذا في أوروبا والغرب، أما في الشرق الإسلامي، فإن نظرية دارون كان لها أثر طفيف، وكذلك سائر التيارات اللادينية واليسارية والماركسية وما أشبه، وبقي الإسلام والتيار الإسلامي والفكر الإسلامي هو السائد وسط الجماهير والمثقفين والمتعلمين، على رغم ما قد يعلق به من شوائب وانحرافات في الفهم، ولكن تبقى الأغلبية من الجماهير المسلمة بعوامها وخواصها ومتعلميها ومثقفيها محبة للإسلام ومتعلقة به، وذلك -والله أعلم- لسببين:

أولهما: قوة العقيدة الإسلامية، فهي عقيدة توافق العقل، ويسكن إليها القلب، وقد ثبتت بصحيح النقل.

---

(١) جاهلية القرن العشرين ص: ٨٩.

وثانيهما: إن ما ورد في القرآن من آيات عن الخلق والكون يتفق أو لا يتعارض مع الاكتشافات العلمية، بل لقد أمر القرآن في العديد من الآيات بالتفكر والتدبر في خلق الكون وفي خلق الإنسان بل وفي بدء الحياة ونشأتها وإعادتها. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

وعودة لتأثر اللادينية بالدارونية، فكان من أمثلة هذا التأثر ظهور الدارونية الاجتماعية، التي يقول عنها الدكتور المسيري رحمه الله:

""الداروينية" ترجمة لكلمة "داروينيزم Darwinism" الإنجليزية، ويُقال لها أيضاً "الداروينية الاجتماعية". وهي كلمة منسوبة إلى اسم تشارلز داروين (١٧٣١ - ١٨٢٠). وهي فلسفة علمانية شاملة، واحدية عقلانية مادية كمونية تنكر أية مرجعية غير مادية، وتستبعد الخالق من المنظومة المعرفية والأخلاقية وتَرُد العالم بأسره إلى مبدأ مادي واحد كامن في المادة وتدور في نطاق الصورة المجازية العضوية والآلية للكون. والآلية الكبرى للحركة في الداروينية هي الصراع والتَقدُّم اللانهائي وهو صفة من صفات الوجود الإنساني. وقد حققت الداروينية الاجتماعية ذيوعاً في أواخر القرن التاسع عشر.

....

ويمكن القول بأن الداروينية هي النموذج المعرفي الكامن وراء معظم الفلسفات العلمانية الشاملة، إن لم يكن كلها.

....

وهذا هو تَصوُّر داروين أو فرضيته. ولكنه كان في واقع الأمر عاجزاً تماماً من الناحية العلمية عن إثبات كثير من فرضياته. ولذا فهناك حديث عن الحلقة المفقودة، وهي تعني

وجود مسافة بين القرد والإنسان، ولذا فقد تحدثوا عن الطفرة بمعنى سَد الثغرة في الزمان بدون سبب واضح، وتم فرض الاستمرارية والواحدية دون وجود شواهد مادية علمية. ومع هذا، ذهب دعاة الداروينية الاجتماعية إلى أن فرضية داروين نظرية وحقيقة علمية، ثم نقلوا هذه الفرضية من عالم الطبيعة إلى عالم الإنسان، وقرروا أن العلاقة بين الكائنات الحية في الطبيعة لا تختلف عن العلاقات بين الأفراد داخل المجتمعات الإنسانية، ولا عن العلاقات بين المجتمعات والدول. وعلى هذا، تم استخدام النموذج الدارويني لا لتفسير الطبيعة/المادة وحسب وإنما لتفسير حياة الإنسان الفرد في المجتمعات، وفي تفسير العلاقات بين الدول والمجتمعات على المستوى الدولي.

....

ويمكن تلخيص الأطروحات الأساسية في الداروينية الاجتماعية على النحو التالي:

....

٧- مهما كانت آلية البقاء، لا علاقة لها بأية قيم مطلقة متجاوزة، مثل الأمانة أو الأخلاق أو الجمال، فالبقاء هو القيمة المحورية في المنظومة الداروينية التي تتجاوز الخير والشر والحزن والفرح.

٨- النوع الذي ينتصر يورث الخصائص التي أدت إلى انتصاره (سر بقائه) إلى بقية أعضاء النوع، بمعنى أن التفوق يصبح عنصراً وراثياً.

٩- هذا يعني استحالة وجود مساواة مبدئية بين الأنواع أو بين أعضاء الجنس البشري.

١٠- مع تزايد معدلات التطور، تصبح هناك كائنات أكثر رقياً من الكائنات الأخرى بحكم بنيتها البيولوجية، ومن ثم يصبح للتفاوت الثقافي أساس بيولوجي حتمي.

ولعله لا توجد فلسفة أثرت في عصرنا الحديث أكثر من الفلسفة الداروينية، كما لا توجد فلسفة بلورت الرؤية العلمانية للكون أكثر من الفلسفة الداروينية.

....

والإنسان، شأنه شأن الأميبا، لا يتمتع بأية حرية ولا يحمل أية أعباء أخلاقية، فالقوانين الأخلاقية هي مجرد تَطوُّر لأشكال من السلوك الحيواني الأقل تطوراً والحرص الغريزي على البقاء البيولوجي. وهذا يعني أن القانون الأخلاقي، وكل القوانين، هي قوانين مؤقتة نسبية، ترتبط بحلقة التطور التي أفرزتها، ولذا يتم الاحتفاظ بالقوانين طالما أنها تخدم المرحلة. ومن ثم فإن الأخلاق المطلقة تقف ضد التقدم العقلاني المادي، وخصوصاً إذا كانت أخلاقاً دينية تدعو إلى حماية الأضعف والأقل مقدرة إلى الإشفاق عليه والعناية به. وهذا يعني أن كل الأمور نسبية تماماً ولا توجد أية مطلقات.

....

وكما قال أحد الباحثين فإن هذا يعني في واقع الأمر عدم وجود أي فارق أساسي بين مجموعة من الشبان الذين يختطفون فتاة ويغتصبونها ثم يقتلونها وقطيع من الذئاب تهاجم ظبياً وتلتهمه. فكلاهما تدفعه غريزة طبيعية مادية قوية. ولعل الفارق الثانوي الوحيد أن الشبان قد هاجموا عضواً من نفس نوعهم، وهو الأمر الذي يعوق عملية البقاء (وهذا هو المنطق الوحيد المقبول في إطار دارويني عقلاني مادي).

....

وينطبق الشيء نفسه على نظرية الأخلاق، فالبقاء هو القيمة الوحيدة، والصراع هو الآلية، والأنانية وحب الذات هما مصدر الحركة، ولذا فإن العالم هو ساحة قتال بين الذئاب من البشر (والإنسان ذئب يفترس أخاه الإنسان) وبين الأمم التي لابد أن تصرع بعضها بعضاً لغاية البقاء، فهي حرب الجميع ضد الجميع"[١].

وسوف نرى في المبحث الخامس -إن شاء الله- كيف وظفت الدارونية الاجتماعية لتبرير استقرار الظلم والاستبداد والاحتلال والاستغلال.

وقد يجادل بعض اللادينيين بأن الدارونية الاجتماعية يعارضها الكثير من المفكرين والفلاسفة وعلماء الاجتماع، ولكنهم لا يستطيعون أن يجادلوا في أن معظم التيارات اللادينية قد تأثرت بنظرية دارون.

كانت هذه بعض آثار اللادينية على الإنسان والبشرية، وهي الآثار التي يتجنب دعاة اللادينية الإشارة إليها ويتجاهلونها. حتى لقد سجل الدكتورالمسيري ذلك على من يسمون (بالمفكرين العلمانيين العرب)، فقال عن تعريفاتهم للعلمانية:

"لم تتناول أي من التعريفات الحياة اليومية في المجتمعات العلمانية في الوقت الحاضر، وماذا حدث للإنسان بعد أربعة قرون من ازدهار العلمانية وترعرعها في المجتمعات الغربية (ظهور ثقافة شعبية منحطة- انتشار العنف- انتشار المخدرات- أمركة العالم).

....

وربما كان الأجدى أن ينظروا إلى تاريخ أوربا الاستعماري من نهب وسرق وتدمير (لبلادنا ولبلاد غيرنا) ولعلهم لو فعلوا لعرفوا أن العقل لم يحكم حضارة العقل كثيراً، ولو نظروا لتاريخ أوربا المعاصر، ورأوا هتلر وستالين ومسرح العبث وسياسات النظام العالمي

---

[١] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري - الباب الخامس: مصطلحات تشير إلى تفكيك الإنسان وتقويضه- الداروينية الاجتماعية ج: ١ ص: ١٥٥ و١٥٦. راجع أيضاً: Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Social Darwinism.

الجديد والعنصرية القديمة والنازية القديمة والجديدة ومادونا وأفلام العنف لأدركوا أن المقدمات العقلية للعلمانية لم تؤد دائماً إلى ازدهار العقل والمرشد" [١].

(د) هل تخلصت اللادينية من نزعتها الصليبية المعادية للإسلام؟

لم تتخل اللادينية الغربية -التي زعمت التحرر من أسر الدين والكنيسة- عن عدائها الصليبي للإسلام، فيقول كرومر -المندوب السامي البريطاني في مصر- عن موقف العلماني العربي اللاهث للحاق بالغرب:

"إنه يجهل أنه لا يستطيع أن يجاري زميله الغربي ويكون نداً له، فإن المسيحي المتحضر وإن لم يكن راسخاً في دينه، فإنه إلى حد كبير نتاج المسيحية، فإن لم تكن المسيحية التي مضى عليها ألف وتسع مائة سنة رصيده وسنده، لم يكن قط حيث هو الآن" [٢].

أما جيمي كارتر -أول رئيس أمريكي يعتز بانتمائه لتيار المسيحية الصهيونية- فيعبر عن حقيقة الرباط العقدي بين اليهود والمسيحية الأمريكية في خطاب له أمام الكنيست الإسرائيلي عام ١٩٧٩، قال فيه:

"إن علاقة أميركا بإسرائيل أكثر من مجرد علاقة خاصة.. لقد كانت ولا تزال علاقة فريدة، وهي علاقة لا يمكن تقويضها، لأنها متأصلة في وجدان وأخلاق وديانة ومعتقدات الشعب الأميركي" [٣].

ولا يفوتنا في هذا السياق تذكر أداء أوباما صلاة اليهود أمام حائط المبكى وعلى رأسه طاقية اليهود، وخطابه في اللوبي الصهيوني قبيل فوزه في الانتخابات، الذي تعهد فيه بضمان أمن إسرائيل وتفوقها العسكري، والاعتراف بالقدس عاصمة موحدة دائمة لإسرائيل. وأوباما يزعم أنه مسيحي حريص على الصلاة كل أحد في الكنيسة.

وعن هذه الظاهرة البارزة الملموسة الواضحة يقول الأستاذ محمد قطب حفظه الله:

---

[١] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع: العلمانية الشاملة- الباب الثاني: إشكالية اختلاط الحقل الدلالي لمصطلح ومفهوم "علمانية"- تعريف مفهوم "العلمانية" عند بعض المفكرين العلمانيين فى العالم العربى- مشكلات أساسية في التعريفات السابقة ج: ١ ص: ١٣٤ و١٣٥.

[٢] لمَ كل هذا التحامل على ديدات؟

[٣] يعتبرون رضاها من رضا الرب: "المسيحيون الصهاينة".. في خدمة إسرائيل. من الجدير بالذكر أن كارتر كان مبشراً بروتستانتياً في الستينيات.

[Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Jimmy Carter, III. EARLY CAREER, A. Governor of Georgia].

كذلك راجع لدور كارتر في التيار المسيحي الصهيوني: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- الباب الثالث: صهيونية غير اليهود المسيحية- الصهيونية ذات الديباجة المسيحية ج: ٦ ص: ١١٣.

"نعم! لقد نبذت أوربا دينها، فلم تعد تتحرك به داخل بلادها.. ولكنها لم تنس قط الروح الصليبية الكامنة في دمائها، والتي تحركها دائماً ضد الإسلام و المسلمين! وهذه الحقيقة –حقيقة نبذ أوربا لدينها، وبقاء الحقد الصليبي تجاه الإسلام مشتعلاً رغم ذلك– قد أشار إليها المستشرق النمساوي "محمد أسد" في كتابه الشهير "الإسلام على مفترق الطرق" الذي ألفه بعد أن أعلن إسلامه، وحاول فيه تفسير هذه الظاهرة الغريبة التي قال: إنه لم يحدث مثلها في التاريخ، فقال: "إن هذا الحقد قد ولد في نفوس الأوروبيين في فترة طفولتهم الفكرية والحضارية، فلم تستطع فترة النضج التالية أن تمحوه من نفوسهم، لأن ما ينطبع في الطفولة يتبقى عالقاً في النفس!!.

ولسنا نحن في حاجة إلى شهادة محمد أسد ولا تفسيره، وعندنا شهادة الله سبحانه وتعالى وتقريره:

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾" [1].

ويقول محمد عبد الحكيم دياب –وهو كاتب قومي– عن المطلوب أمريكياً من المنطقة:

"فبضاعتهم المراد تسويقها للمنطقة هي الديمقراطية، بمعناها الأمريكي، وتقوم علي عدة ركائز، الأولي: القبول بالدولة الصهيونية، كدولة طبيعية في المنطقة، والتخلي بالكامل عن كل طموح عربي أو إسلامي لتفكيك نظام التمييز العنصري (الأبارتايد) الصهيوني وتحرير فلسطين، وهذا المخطط يقوم علي ضرورة تحمل المنطقة مسؤولية حماية الدولة الصهيونية وضمان أمنها. والثاني: هو الحفاظ علي مصالح أمريكا، وتمكينها من مصادر الطاقة، كأحد أدواتها في معركتها المتوقعة مع القوي الدولية الكبرى الصاعدة، مثل الصين والاتحاد الأوربي، والثالث: تصفية الثقافة العربية والإسلامية، باعتبارها ثقافة مفرخة للإرهاب، وهي في حقيقتها معادية لمخطط المحافظين الجدد، واستخدام كل الوسائل الممكنة في ذلك، مثل التطهير العرقي كما هو جار علي الساحة الفلسطينية، وضد جماعات المقاومة المسلحة، وطنية وقومية وإسلامية، والغزو والاحتلال المباشر، كما حدث في أفغانستان والعراق، وكما هو متوقع للسودان وإيران وسورية والسعودية ومصر، وبتزكية النعرات العرقية والمذهبية، وتفتيت المنطقة، وفق خريطة عرقية ومذهبية، وإفقار اقتصادي، وإضعاف عسكري، وتجهيل تاريخي وثقافي، وعودة فرق التبشير ومدارس الإرساليات، وهيمنة التعليم الأجنبي، وتغيير مناهج التعليم الديني والوطني والقومي، ونشر الانحلال والإباحية والعري في أجهزة الإعلام العامة والخاصة".

[1] هلم نخرج من ظلمات التيه ص: ١٣.

ويواصل محمد عبد الحكيم دياب قوله:

"وجمال مبارك لا يرفض خدمة هذه التوجهات، ووالده لا يمانع من تبنيها، وإذا ما نظرنا إلي تفاقم مشكلة الحريات وزيادة مستوي الاستبداد الذي أصبح لا يحتمل." [١].

وسأكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة البارزة على هذا التوجه الصليبي المعادي للإسلام لدى الغرب العلماني:

[١] إعلان نابليون بونابرت دعم فرنسا لسعي اليهود لإقامة دولتهم في فلسطين:

كانت حكومة الإدارة الفرنسية العلمانية -التي ثارت على الملكية والإقطاع والكنيسة في الثورة الفرنسية الشهيرة، التي كان شعارها (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس)- قد أعدت خطة لإقامة كومنولث يهودي في فلسطين، وذلك مقابل تقديم المموِّلين اليهود قروضاً مالية للحكومة الفرنسية، التي كانت تمر آنذاك بضائقة مالية. وكان المفروض أن يموِّل اليهود الحملة المتجهة صوب الشرق، وأن يتعهدوا ببث الفوضى وإشعال الفتنة وإحلال الأزمات في المناطق التي سيرتادها الجيش الفرنسي لتسهيل أمر احتلالها. ويبدو أن نابليون كان مطلعاً على الخطة[٢]. ولذا فعندما توجه للشام -بعد غزوه لمصر- ليفتحها، واستعصت عليه عكا في عام ١٧٩٩م، أصدر نداءه الشهير الذي نص على:

"من نابليون القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين.

أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذين لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبهم اسمهم ووجودهم القومي وإن كانت قد سلبتهم أرض الأجداد فقط.

إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين -وإن لم تكن لهم مواهب المتنبئين مثل أشعياء ويوئيل- قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع من دمار وشيك لمملكتهم ووطنهم: أدركوا أن عتقاء الإله سيعودون لصهيون وهم يُغنّون، وسيُولَد الابتهاج بتَملُّكهم إرثهم دون إزعاج، فرحاً دائماً في نفوسهم (أشعياء ١٠/ ٣٥).

انهضوا إذن بسرور أيها المبعدون. إن حرباً لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، تخوضها أمة دفاعاً عن نفسها بعد أن اعتبر أعداؤها أرضها التي توارثوها عن الأجداد غنيمة ينبغي أن تُقسَّم بينهم حسب أهوائهم. وبجرة قلم من مجلس الوزراء تقوم للثأر وللعار الذي لحق بها وبالأمم الأخرى البعيدة. ولقد نُسي ذلك العار تحت قيد العبودية والخزي الذي أصابكم

---

[١] أمريكا بدأت هجومها العام والشامل على الإسلام، ابن لادن-وليس أبو جهل و أبو لهب- هو الحل. نقلها عن: صحيفة القدس العربي-١٩/ ٢/ ٢٠٠٥.

[٢] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الثالث: الجماعات اليهودية: التحديث والثقافة- الباب الثالث: التحديث وأعضاء الجماعات اليهودية- نابليون بونابرت ج: ٣ ص: ٣٤.

منذ ألفي عام. ولئن كان الوقت والظروف غير ملائمة للتصريح بمطالبكم أو التعبير عنها، بل وإرغامكم على التخلي عنها، فإن فرنسا تقدم لكم إرث إسرائيل في هذا الوقت بالذات، وعلى عكس جميع التوقعات.

إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به، والذي يقوده العدل ويواكبه النصر، جعل القدس مقراً لقيادتي، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي لم تَعُد تُرهب مدينة داود.

يا ورثة فلسطين الشرعيين:

إن الأمة التي لا تتاجر بالرجال والأوطان[1]، كما فعل أولئك الذين باعوا أجدادهم لجميع الشعوب (يوئيل ٤/ ٦) تدعوكم لا للاستيلاء على إرثكم بل لأخذ ما تم فتحه والاحتفاظ به بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء.

انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تُخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالُفهم الأخوي شرفاً لإسبرطة وروما (مكابيون ١٢/١٥) وأن معاملة العبودية التي دامت ألفي عام لم تُفلح في إخمادها.

سارعوا! إن هذه هي اللحظة المناسبة -التي قد لا تتكرر لآلاف السنين- للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سُلبت منكم لآلاف السنين، وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم، وحقكم الطبيعي في عبادة يهوه، طبقاً لعقيدتكم، علناً وإلى الأبد. (يوئيل ٤/٢٠).

بونابرت"[2].

وبهذا يتبين مدى العداء الأوروبي للإسلام والمسلمين سواء كانت أوروبا تحت سيطرة الكنيسة أو تحت سيطرة الحكومات العلمانية الكافرة بالكنيسة، ويتبين أن إعلان نابليون لم يكن ضربة لازب، وإنما كان جزءاً من سياسة متعمدة تبنتها الحكومة الفرنسية العلمانية.

ويعتبر الدكتور المسيري -رحمه الله- أن نابليون بونابرت يعد بهذا:

---

[1] يقصد الأمة الفرنسية.

[2] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد السادس: الصهيونية- الجزء الأول: إشكاليات وموضوعات أساسية- الباب الثالث: العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية- الوعود البلفورية ج: ٦ ص: ٢٧، المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل- الكتاب الأول: الأسطورة والأمبراطورية والدولة اليهودية ص: ٣٠ إلى ٣٣.

"أول سياسي يدعو اليهود، من حيث هم يهود، إلى الاستيطان في فلسطين، محاولاً الاستفادة منهم كمادة استيطانية في مشروعه الاستعماري"[1].

"أي أن نابليون أصدر أول وعد بلفوري في تاريخ أوربا.

والنمط الكامن في تفكير نابليون هو أيضاً النمط الكامن في النظرية الاستعمارية الغربية تجاه الشرق وتجاه أعضاء الجماعات اليهودية، وقد تبدى هذا النمط في وعد بلفور في بداية الأمر، ثم وصل ذروته مع توقيع الاتفاق الإستراتيجي بين إسرائيل والولايات المتحدة عام ١٩٨٢"[2].

ومما يجدر الالتفات له أن هذه السياسة الفرنسية استغلت ما يزعمونه وعوداً في العهد القديم، وهو جزء أساسي من التراث المسيحي الصليبي، في تقديم المبرر لها والمحرض عليها.

ولا يصح أن يقال؛ بأن نابليون علماني لا يحترم أية عقيدة دينية، وإنما يستغل الدين لمصلحته، فكما وعد اليهود بوطن في فلسطين، فإنه أيضاً لما وصل لمصر أظهر احتراماً وتبجيلاً للمسلمين، وزعم نفسه صديقاً للمسلمين وللخليفة العثماني[3].

فالفارق بين الادعائين واضح، يقول عنه محمد حسنين هيكل:

"وإذا كان نداؤه للمسلمين خدعة فإن نداءه إلى اليهود كان شيئاً مختلفاً.

لقد كان نداؤه إلى المسلمين في مصر نداءً إلى كتلة بشرية عددهم في ذلك الوقت يفوق المليونين، وفي استطاعتهم إذا قاموا أن يجعلوا مصر مصيدة لجيوشه وليس رأس جسر، وهو لهذا مستعد لخديعتهم وللكذب عليهم.

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الثاني: الجماعات اليهودية: إشكاليات- الجزء الأول: طبيعة اليهود في كل زمان ومكان- الباب الرابع: إشكالية العزلة والخصوصية اليهودية ج: ٢ ص: ٦٤ و٦٥.

(٢) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الثالث: الجماعات اليهودية: التحديث والثقافة- الجزء الأول: التحديث- الباب الثالث: التحديث وأعضاء الجماعات اليهودية- نابليون بونابرت ج: ٣ ص: ٣٤ و٣٥.

(٣) يصف العلامة محمود شاكر -رحمه الله- نابليون بأنه: الصليبي المكيافِلي المغامر المفتون الفاجر، والفتى الصليبي المحترق، ويرى -رحمه الله- أن نابليون قدم لمصر لوأد النهضة العلمية، التي بدأت تدب فيها، والتي حذر منها المستشرقون، ولتخريب القاهرة [رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص: ٨٨ إلى ١٠٠]، فيقول رحمه الله:

"رحلت فلول جيش الفتى السفاح المغرور "نابليون"، وجلت عن بلاد واسعة عريضة تركتها بلقعاً تصفر فيه الريح، وانكشحت عن عاصمة عتيقة تركتها خراباً. كان خراباً شاملاً، وتدميراً لمدينة زاهرة من أجمل مدن العالم يومئذ، بعمارتها وفنونها، وبركاتها ومتنزهاتها، أقدم على تدميرها تدميراً كاملاً بربري جاهل مُسْتَخْف في زي متحضر! ولكن صار هذا التدمير، في عين حياتنا الأدبية الفاسدة، هو رسول الحضارة الذي جاء ليخرجنا من ظلمات الجهل إلى عصر النور والتنوير!! لا تضحك ولا تبك. ولكن أطرق إطراقة الخزي والمهانة والعار. وكيف لا تطرق إطراقة الخزي إذا انكشف لك الحجاب عن نية هذا المكيافِلي الخبيث" [المصدر السابق ص: ٩٦].

أما نداؤه لليهود فهو حالة مختلفة لأن اليهود في فلسطين في ذلك الوقت لم يزد عددهم على ألفين"[1].

فإذا أخذنا في الاعتبار أن ذلك الإعلان يدمر صورة نابليون في مصر، وهي الصورة التي كانت قد انكشفت فعلاً كغاز صليبي معاد للإسلام والمسلمين، لأدركنا أن هذا النداء لليهود ليس من قبيل الحرب الدعائية، بل هو يضر بها، ولكنه أمر آخر، إنه سياسة متعمدة مدبرة ونزعة كامنة في نفوس الفرنسيين العلمانيين عقيدةً الصليبيين روحاً!!

ثم إننا يهمنا الأمر الواقع أكثر من الدوافع الخفية، وخاصة إذا كان ذلك الأمر الواقع موجهاً ضدنا، فإذا كانت السياسة والعدوان الموجهان ضدنا تسيران على النمط الصليبي ولو في ظاهرهما، فإننا نعتبرها سياسة صليبية وعدواناً صليبياً بغض النظر عن دافع القائمين عليها.

وكم من منكر للحق وجاحد له من أجل الدنيا والمنافع لا تصديقاً بالباطل ولا إيماناً به، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾. وذكر ابن سعد -رحمه الله- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال عن المقوقس عظيم القبط لما أبى الإسلام: "ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه"[2].

[٢] ترافق التبشير مع قوات الحكومات الغربية العلمانية الغازية:

يتحدث الدكتور عبد الوهاب المسيري -رحمه الله- عن ارتباط الدين والتبشير بالمشاريع الاستعمارية الأوروبية فيذكر أن:

"من أنجح الأساليب التي تتبعها الدول الاستعمارية الكبرى في تنفيذ مخططاتها ما يُسمَّى "حماية الأقليات". إذ تقوم إحدى الدول الكبرى التي لها أطماع في دولة ما بإعلان مسئوليتها عن أقلية تعيش داخل حدود الدولة المستهدفة فتضعها تحت "حمايتها"، أي تتدخل في شئون الدولة التي تعيش الأقلية في كنفها بحجة الدفاع عن مصالح هذه الأقلية. وقد تكون هذه الأقلية دينية (الكاثوليك في لبنان- الأقباط في مصر)، أو إثنية (الدروز في لبنان وسوريا) أو عِرْقية دينية (الأرمن في الدولة العثمانية).

....

---

[1] المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل- الكتاب الأول: الأسطورة والأمبراطورية والدولة اليهودية ص: ٣٠ إلى ٣٣.

[2] الطبقات الكبرى- ذكر بعثة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الرسل بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وما كتب به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لناس من العرب وغيرهم ج: ١ ص: ٢٦٠ و٢٦١، زاد المعاد- فصل في كتبه ورسله -صلى الله عليه وسلم- إلى الملوك ج: ١ ص: ٧٩.

ولفهم صراع الدول الغربية حول حماية الأقليات، لابد أن ندرس البُعد الديني في العملية الاستعمارية الغربية. فالإمبريالية الغربية، شأنها شأن كل الأنساق العلمانية، وظفت النصوص الدينية كديباجات لتجنيد جماهيرها ولتجييش الجيوش. وبهذا المعنى، فإننا نتحدث عن البُعد الديني للاستعمار الغربي كتوظيف علماني غير ديني للدين" [1].

إلا أنه يجب ملاحظة أن الدول الاستعمارية لا تستطيع استخدام مادة دعائية ليس لها تأثير في قلوب المستهدفين بها، فلولا أن العداء للإسلام قائم في مشاعر الحكومات والشعوب والجيوش والأحزاب الأوروبية (العلمانية) لما أمكن تحريضهم بالنصوص الدينية المسيحية واليهودية.

وكما ذكرت من قبل عند مناقشة دوافع نابليون بونابرت بشأن بيانه لليهود، فإننا لا يجب أن يكون اهتمامنا الأكبر بدوافع ونوايا البرامج والخطط والحملات المعادية للإسلام، بل يجب أن يكون اهتمامنا الأكبر بمواجهة تلك البرامج والخطط والحملات كما تظهر لنا، فإذا أظهرت العداء للإسلام وتظاهرت بالصليبية ونصرة الصهيونية، فهي صليبية صهيونية معادية للإسلام، حتى وإن كان القائمون عليها لا دين لهم.

وقد علمنا القرآن الكريم أن أحبار الدين أنفسهم، وليس فقط الساسة والحكام والقواد، قد يستغلون الدين لأغراضهم ومطامعهم الشخصية. يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

بل وأن منهم من لم يؤمن إيماناً حقيقياً، وأنهم يأكلون السحت ويحرفون آيات الله ويتولون الذين كفروا.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ

[1] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الرابع: الجماعات اليهودية: تواريخ- الجزء الثاني: تواريخ الجماعات اليهودية فى العالم الإسلامي- الباب الثالث: الدولة العثمانية وفارس بعد انتشار الإسلام- حماية اليهود (والأقليات الأخرى) ج: ٤ ص: ١٧٨ و١٧٩.

أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ ﴿ ٧٧ ﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿ ٧٨ ﴾ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿ ٧٩ ﴾ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿ ٨٠ ﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

بل ومنهم من يفضل دين الأوثان والمشركين على الإسلام.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً﴾.

صحيح أننا لا يجب أن نغفل الدوافع وراء العداء، حتى نفهم طبيعة الأعداء والعداء، ولكن مقصدي هنا أن أبين أن العلمانية الأوروبية قد استغلت العداء الصليبي المكنون لديها لمحاربة الإسلام، حتى وإن ادعت أنها لا تتبع الدين ولا رجاله ولا كنيسته، وأنها رغم علمانيتها وماديتها ولا دينيتها لا زالت صليبية معادية للإسلام، وأنها رغم تمردها على الكنيسة، لا زالت تحمل المشاعر الكنسية الصليبية ضد الإسلام. وعودة للدكتور المسيري حيث يقول:

"وقد بدأ المشروع الاستعماري الغربي بالاستعمار الكاثوليكي، البرتغالي والإسباني، الذي حقَّق الاندفاعة الأولى التي تم من خلالها استعمار أمريكا الجنوبية. ولكن، بعد هذه الاندفاعة، توقف التشكيل الاستعماري الكاثوليكي إذ أن إسبانيا والبرتغال دخل عليهما الجمود وكانت إيطاليا مجزأة، ولم تكن هناك قوة استعمارية كاثوليكية سوى فرنسا. ولكن الثورة الفرنسية وهزيمة نابليون أدَّت إلى إبطاء المشروع الاستعماري الفرنسي، ولم ينشط مرة أخرى إلا في أفريقيا في ستينيات القرن الماضي، ولكن ظهور ألمانيا أجهز عليه في السبعينيات وهو ما جعلها ترضى بدور التابع لإنجلترا إلى حدٍّ كبير.

ومع تَراجُع المشروع الاستعماري الكاثوليكي، ظهر المشروع الاستعماري البروتستانتي وانتقل مركز الثقل من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي. فظهرت هولندا

كقوة استعمارية وتبعتها إنجلترا التي تزايدت قوتها وأصبح لها مركز الصدارة في العالم. وقد زاحمتها ألمانيا بعض الوقت في نهاية القرن التاسع عشر. ولكن ظهور الولايات المتحدة باعتبارها القوة الرأسمالية العظمى رجح كفة التشكيل الأنجلو ساكسوني داخل التشكيل الاستعماري البروتستانتي.

وفي القرن الثامن عشر ظهرت روسيا باعتبارها القوة الاستعمارية الأرثوذكسية. ويُلاحَظ أن التقسيم الثلاثي الديني: كاثوليك- بروتستانت- أرثوذكس، يقابله تقسيم ثلاثي عرْقي: لاتين- أنجلو ساكسون- سلاف، وهذا يدل على أن الدين إن هو إلا ديباجة وقشرة رقيقة تغطي المصالح الاقتصادية والرؤى العرْقية.

وقد عبَّر الصراع بين القوى الاستعمارية المختلفة بديباجاتها الدينية عن نفسه، فكانت كل دولة تحاول حماية أقلية دينية ما وتحفظ لها حقوقها، وهذا يعني في واقع الأمر وضعها داخل مجال نفوذ الدولة الحامية وتحويلها إلى مادة بشرية تابعة لها. فكانت فرنسا تدعم الكاثوليك وتحميهم، وقامت روسيا بدعم الأرثوذكس. وقد كانوا يظنون أنه، مع سقوط الدولة العثمانية، سيقوم الرعايا الكاثوليك والأرثوذكس بالمطالبة بفلسطين لدولهم الراعية (ولذا حرص الصهاينة على إقناع الإيطاليين والفرنسيين بأن النشاط الصهيوني لن يُعرّض مصالحهم للخطر)" [1].

ويقول محمد حسنين هيكل عن قصة احتلال الفلبين في سبتمبر ١٨٩٨م:

"استقبل الرئيس الأمريكي "ماكينلي" وفداً من قساوسة جمعية الكنائس التبشيرية الذين فوجئوا به بعد أن انتهت جلسته يقول لهم: "عودوا إلى مقاعدكم أيها السادة لأني أريد أن أقص عليكم نبأ وحي سماوي ألهمني، أريد أن أقول لكم أنني منذ أيام لم أنم الليل بسبب التفكير فيما عسى أن نصنعه بتلك الجزرة البعيدة (الفلبين)، ولم تكن لدى أدنى فكرة عما يصح عمله ورحت أذرع غرفة نومي ذهاباً وجيئة أدعو الله أن يلهمني الصواب ثم وجدت اليقين يحل في قلبي والضوء يسطع على طريقي، إن الجزرة جاءتنا من السماء فنحن لم نطلبها ولكنها وصلت إلى أيدينا منة من خالقنا، ولا يصح أن نردها وحتى إذا حاولنا ردها فلن نعرف لمن ؟ ولا كيف؟

وقد بدا لي أولاً أنه من زيادة الجبن وقلة الشرف والتخلي على الواجب أن نعيدها إلى أسبانيا، ومن ناحية ثانية وجدت من سوء التصرف والتبديد أن نعهد بها إلى قوة أوروبية

---

[1] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الرابع: الجماعات اليهودية: تواريخ- الجزء الثاني: تواريخ الجماعات اليهودية فى العالم الإسلامي- الباب الثالث: الدولة العثمانية وفارس بعد انتشار الإسلام- حماية اليهود (والأقليات الأخرى) ج: ٤ ص: ١٧٨ و١٧٩.

متنافسة على المستعمرات في آسيا مثل فرنسا وألمانيا، ومن ناحية ثالثة أحسست أنه من غير الملائم أن نترك هذه الجرزة لحماقة وجهل سكان محليين لا يصلحون لتولى المسؤولية، وكذلك فإن الخيارات المقترحة أمامنا تركزت في حل واحد هو في الواقع لمصلحة الفلبين قبل أي طرف آخر، وهذا الحل هو ضم الجزر إلى أملاكنا، بحث نستطيع تعليم سكانها ورفع مستواهم وترقية عقائدهم المسيحية ليكونوا حيث تريد لهم مشيئة الرب أخوة لنا فدتهم تضحية المسيح كم فدتنا" [(١)].

وكتب كرومر —المعتمد البريطاني في مصر زمان الاحتلال— في مذكراته المسماة "مصر الحديثة "Modern Egypt":

"إن مهمة الرجل الأبيض -الذي وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد- هي تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن، بحيث تصبح هي أساس العلاقات بين الناس، وإن كان من الواجب —منعاً من إثارة الشكوك— ألا يعمل رسمياً على تنصير المسلمين، وأن يرعى من منصبه الرسمي المظاهر الزائفة للدين الإسلامي، كالاحتفالات الدينية وما شابه ذلك" [(٢)].

ويتحدث الداعية الشيخ أحمد ديدات -رحمه الله- عن كتاب (إظهار الحق) للشيخ رحمة الله الهندي رحمه الله، فيقول:

"هذا الكتاب يتناول الهجمة التبشيرية المسيحية على وطني الأصلي (الهند)، ذلك أن البريطانيين لما هزموا الهند، كانوا يُوقنون أنهم إذا تعرضوا لأية مشاكل في المستقبل فلن تأتي إلاَّ من المسلمين الهنود، لأن السلطة والحكم والسيادة قد انتزعت غصباً من أيديهم، ولأنهم قد عرفوا السلطة وتذوقوها من قبل، فإنهم لا بد وأن يطمحوا فيها مرة أُخرى. ومعروف عن المسلمين أنهم مناضلون أشدّاء، بعكس الهندوس، فإنهم مستسلمون ولا خوف منهم.

وعلى هذا الأساس خطط الإنجليز لتنصير المسلمين ليضمنوا الاستمرار في البقاء في الهند لألف عام. وبدأوا في استقدام موجات المبشرين المسيحيين إلى الهند، وهدفهم الأساسي هو تنصير المسلمين" [(٣)].

وفي أمريكا قدم القس الأصولي المنصر الأمريكي "بات روبرتسون" في إحدى الاحتفالات -التي أقيمت داخل البيت الأبيض- للرئيس الأمريكي جورج بوش الابن قائمة بالمشروعات "الخيرية" التي تستحق دعماً من الحكومة، على الرغم من أن الكنائس الأمريكية تعتبر أغنى من الحكومة الفيدرالية، التي

[(١)] الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق ص: ٦٦ و٦٧.

[(٢)] هلم نخرج من ظلمات التيه ص: ١٢.

[(٣)] هذه حياتي سيرتي ومسيرتي ص: ١٥.

تعاني من الديون الضخمة، في حين تملك هذه الكنائس موازنات بمئات الآلاف من الملايين، في صورة استثمارات صناعية وإعانات ضخمة من قبل رجال الأعمال ذوي الاتجاهات اليمينية، الذين لا يترددون في دعمها بآلاف الملايين من الدولارات سنوياً، وبالفعل حصل روبرتسون من الرئيس الأمريكي على شيك بمبلغ عشرة ملايين دولار كدفعة أولى[١].

أما في البوسنة فقد اتهم محرم عمر دتش -المسؤول عن ملف التنصير في المشيخة الإسلامية- القوات الدولية بعد الحرب بالقيام بعمليات تنصير حيث قامت بتوزيع هدايا على إحدى القرى القريبة من توزلا مصحوبة بنسخة من الإنجيل باللغة المحلية[٢].

أما في أفريقيا فقد ارتبط الاستعمار والتنصير ارتباطاً وثيقاً، تقول سالي هاني الباحثة السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة عن الاستعباد التنصيري في غرب أفريقيا:

" وقد تميزت المحطات التنصيرية منذ البداية بالاستغلال الذي بدأ بالاستعباد التنصيري وذلك منذ إقامتها خاصة في غرب إفريقيا في ضوء مثلث الأطلنطي للتجارة الذي مثل العنصر البشري الإفريقي الذي اقتلع من جذوره في ظل تجارة الرقيق لينقل للعالم الحديث

---

(١) القس الأمريكي "بات روبرتسون" يعد من أبرز الشخصيات اليمينية المتطرفة في الولايات المتحدة، وهو من أشد المؤيدين لإسرائيل ولسياساتها العنصرية تجاه الشعب الفلسطيني، وقد سبق لروبرتسون أن حذر الرئيس الأمريكي بوش خلال حملته الانتخابية من أنه سيفقد أصوات المسيحيين الإنجيليين، إذا ما أصر على الحديث عن دولة للفلسطينيين، كما أعلن أكثر من مرة تأييده للحرب الأمريكية في العراق، باعتبارها خطوة على طريق المعركة الكبرى التي تحقق حلم المحافظين الجدد بعودة السيد المسيح.

وكان روبرتسون قد أسس عام ١٩٦٠ أول شبكة تلفزيون تبشيرية أمريكية وهي وكالة "سي بي إن"، التي تنتج برامج تبشيرية بأكثر من سبعين لغة، منها العربية والروسية والفرنسية والصينية، ويعد برنامج "نادي السبعمائة" الذي يقدمه روبرتسون نفسه من خلال هذه الشبكة أحد أكثر البرامج الدينية مشاهدة في الولايات المتحدة. كما قام روبرتسون بتأسيس منظمة سياسية باسم "التحالف المسيحي"، من أجل توحيد أصوات المسيحيين الأصوليين في الانتخابات الأمريكية، وتمكن من ضم نحو مليوني شخص لهذه المنظمة، التي لعبت دورا كبيرا في منتصف التسعينات في جذب أصوات الناخبين لصالح المرشحين ذوي الاتجاهات الأصولية المتشددة.

وقد شن روبرتسون من خلال برنامجه التليفزيوني الشهير هجوماً عنيفاً على المسلمين خلال السنوات الأخيرة، ووصفهم بالجنون تارة، وبأنهم عدوانيون تارة أخرى. كما زعم أن القرآن يطالب المسلمين بقتل المخالفين لهم في العقيدة أينما وجدوهم، وعدم التعايش السلمي أو إقامة أية صداقات معهم، وانتقد روبرتسون أيضا سياسات الهجرة في أوربا وأمريكا، والتي تسببت على حد زعمه، في تشكيل خلايا "إرهابية" لضرب اقتصاديات الدول غير الإسلامية، كما زعم أن المسلمين في أوربا وأمريكا يحلمون بالهيمنة على هذه المجتمعات وتحويلها إلى مجتمعات إسلامية.

ويرتبط روبرتسون بعلاقات وثيقة مع الرئيس بوش، الذي يهتم، بصورة لم يسبق لها مثيل من رئيس أمريكي، بدعم المؤسسات الكنسية داخل الولايات المتحدة الأمريكية، والتي يطلق عليها اسم "جيوش الرحمة"، ويعتبر دورها أهم وأجدى بكثير من مؤسسات وجمعيات الضمان الاجتماعي الحكومية. [لماذا لا يعامل "بات روبرتسون" كإرهابي].

(٢) الجمعيات التنصيرية تثير مخاوف مسلمي البوسنة.

أهم أضلاعه بحيث أطلق عليه "المثلث الذهبي". ويتم فيها -المحطات التنصيرية- تجنيد العبيد وبيعهم وتشغيلهم وتقسيم القبائل والممالك، وقصر تعليم الأغلبية على التعليم الابتدائي وتعليمهم الصلاة. ومن هنا كانت تعد وبحق مقاطعات استعمارية، ولم يكن لها دور مسيحي له اليد العليا في حياة المواطنين؛ فكان الأهالي في المناسبات الحزينة أو السعيدة يعتمدون على رجال الديانة التقليدية بشكل أساسي، ثم يأتي القس فقط ليقول الكلمات الأخيرة. وعليه فقد استمر الاستغلال في استخدام المحطات للنشاط التجاري وجمع الأموال.

ولعل أهم ما واجه المسيحية في إفريقيا من صعوبات عرقلت نشاطها هو صبغها بالصبغة الاستعمارية؛ حيث نظر إليها على أنها أداة استعمارية وملحقة بالإدارة الاستعمارية عاشت على حذوها أياً كانت تلك الإدارة، ومن ثم فإن رفض الاستعمار تضمن بالطبيعة رفض كل ما ارتبط به من قيم بما فيها المسيحية، والمنصِّر المسيحي كان رائداً لدخول الرجل الأبيض للقارة؛ فالمنصرون كانوا طليعيين للاستعمار الغربي في إفريقيا؛ فقد سبقوا الجيوش الاستعمارية ووطدوا لها، كما جاؤوا في ركابها؛ حيث لم تخل الجيوش الاستعمارية من المنصرين ليعملوا على فتح القلوب. وتضمنت الاتفاقيات التي أبرمت بين النظم الاستعمارية والزعامات الإفريقية حيثما وجدت بنداً ينص على إطلاق حرية التنصير في طول البلاد وعرضها، كما عاش المنصرون على الحظوة والتفضيل الإمبريالي والسياسي، وارتبطت مصالحهم بمصالح دولهم المستعمرة خاصة، وارتأوا استمرار الوضع القائم الذي يمكنهم من القيام بمهامهم، وبنفس المثل استخدمتهم النظم الاستعمارية على اختلافها لتحقيق أهدافها؛ فالعلاقة بينهم متبادلة وكذلك المصالح. فالعلاقة بينهم تكافل بالدرجة الأولى؛ ومن هنا فقد استخدم البعض تعبير (إمبريالية الجماعات التنصيرية) أو (الإمبريالية التنصيرية) رمزاً لتسلط الإرساليات في إفريقيا وسياستها في السيطرة على مقدرات الشعوب وتسييرها وفقاً للسياسات الاستعمارية والقضاء على أي تراث ثقافي قائم غير التراث الغربي المسيحي. وكان المدخل الواسع للتنصير ونشاطه هو التعليم الذي كان نحو ٩٥% منه على يد المنصرين في ظل الغارة الاستعمارية، وكان التعميد هو المتطلب السابق للتعليم في معظم الحالات، لكن في بعض الحالات قام الإفريقيون فيما بعد بإحراق المدارس والكنائس على أساس أنها مرتبطة بالسلطة ومن ثم بالإخضاع. وكما يعبر البعض من الإفريقيين أن الشر الأساسي للتنصير في إفريقيا هو تراثها النفساني. فالمسيحية هي دين الأسياد الجائرين الأجانب، وقد ينظر إلى زيادة انتشارها بين شعب يحاول أن ينفض عنه آثار سيادة

الجائرين نظرة ريبة. وليست فكرة إقناع الرجل الأسود برب الرجل الأبيض سوى ترادف لإقناعه بقبول دوره الأدنى.

ومما يلاحظ في هذا المجال أنه في الوقت الذي ربطت فيه الشعوب الإفريقية بين الاستعمار والمسيحية -حيث قدمت المسيحية على أي حال من جانب مواطنين ينتمون على وجه الخصوص لدول مستعمرة- فإن الإسلام على العكس ارتبط في أذهان الكثيرين بالوقوف في وجه الاستعمار لا كمجرد دعاية أو تصور ولكن كحقيقة موضوعية؛ فمن ناحية واجهت محاولة الجيوش الاستعمارية فرض السيطرة من جانب الدول الأوروبية مقاومة شديدة من جانب الزعماء الدينيين المسلمين الذين أطلقوا على الأوروبيين من الغزاة اسم الكفار. وقد شهدت القارة الإفريقية في الواقع هذه الظاهرة التي انتشرت من مكان لآخر مع اختلاف مسمياتها، وجميعها أمثلة حية على ما يمكن أن نطلق عليه الحروب المقدسة تحت راية الإسلام لمقاومة الغزو الأوروبي والتسلط الاستعماري. ويلاحظ أن الإسلام كان بطيء الانتشار في القارة الإفريقية عامة حتى القرن التاسع عشر، حتى فرض الاستعمار سيطرته على القارة، ومن وقتها انتشر بسرعة واضحة؛ حتى أصبح متغلغلاً في كل دول القارة مع الاختلاف بينها في نسبة المسلمين العددية؛ فما من دولة في القارة اليوم إلا وفيها نسبة من المسلمين بما في ذلك أنجولا معقل الكاثوليكية وركيزة البرتغال بالقارة لقرون. وهم مع قلتهم ظاهرة تدرس في كيفية الصمود والاستمرار رغم الجهود المكثفة للتنصير بالمنطقة ولقرون"[1].

وإذا كانت سالي هاني قد أشارت للمحطات التنصيرية في غرب أفريقيا، فشرق إفريقيا يحدثنا عنه خلفان خميس إسماعيل حيث يقول:

"أما النصارى فلما دانت لهم بلاد المسلمين في الأندلس، لم يكتفوا بإعمال السيوف في رقاب المسلمين يقتلونهم دون رحمة ولا شفقة فحسب، بل ازدادت قلوبهم عطشاً لدمائهم؛ فكشروا عن أنيابهم وشرعوا يلاحقون المسلمين أينما وجدوا، فنزلت سفنهم تضرب البحار فيما سُمّيت زوراً وبهتاناً بالكشوف الجغرافية بحثاً عن المسلمين، ومحاولة تطويق العالم الإسلامي.

فتحركوا نحو الجنوب مروراً برأس الرجاء الصالح، وكانوا لا يمرون بمدينة إلا وأنزلوا فيها بأسهم وبطشهم ينشرون الرعب بين المواطنين قتلاً وتشريداً.

---

[1] إفريقيا بين التنصير والتغريب لسالي هاني.

ولما وصلوا إلى (مُمباسا) المدينة الإسلامية على الساحل الكيني قتلوا أهلها المسلمين في مذابح جماعية، ثم حرقوها خمس مرات!، وفعلوا مثل ذلك في مدينة (غيدي) و(لامو) وغيرها، باستثناء مدينة (ماليندي) حيث صالحهم أميرها، وقدم لهم المساعدات ليواصلوا رحلتهم الاستكشافية!! المزورة على التاريخ.. والذي يثير الأسف: أنه أثناء تواجد البرتغاليين في (مُمباسا) بنوا قلعة يسوع لنشر المسيحية، كما بنى فاسكو دي جاما منارة في مدينة (ماليندي)، وكل ذلك مما يدل على أن الكشوف الجغرافية عندهم تعني تعذيب المسلمين ونشر المسيحية.

هذه الرحلات كانت واضحة الأهداف والوسائل، ومثلها مثل كل الرحلات التي يقوم بها الصليبيون في العالم الإسلامي؛ يدرسون مداخله ومخارجه، ثم يرجعون إلى حكوماتهم ليدلوها على منافذ التسلل إلى بلاد المسلمين، وإلا.. فهل كانت هذه البلاد المكتشفة! خالية من السكان؟ أولم يكن يعرفها أحد على الإطلاق؟!.

من المعروف أن الأوربيين لما وصلوا إلى ما يسمى (بالعالم الجديد) ولم يكن جديداً أبادوا السكان الأصليين وهم (الهنود الحمر).

وهذا يعني: أن هذه البلاد كانت آهلة بالسكان قبل مقدم المكتشفين، وكذلك كان الحال في إفريقيا شرقها وغربها، إذن: تسمية هذه الرحلات استكشافية افتراء وتزوير على التاريخ، لقد كانت تلك الرحلات تنصيرية بكل معاني الكلمة، سواء أكان ذلك من حيث الدافع أو من حيث الهدف والوسيلة.

وماذا بعد اللعبة الخبيثة؟:

وبهذه اللعبة الخبيثة تعتبر الكاثوليكية هي الطائفة الأولى وصولاً إلى شرق إفريقيا وذلك في الموجة الأولى تحت ستار (الكشوف الجغرافية) التي قام بها فاسكو دي جاما وأعوانه في القرن الخامس عشر، إلا أن هذه الموجه لم تؤت أكلها لعدم اعتناق النصرانية إلا من قِبَلِ نفر قليل، وقد تغلب العُمانيون عليهم بعد حروب دامت قرنين من الزمن، وفي القرن التاسع عشر: هبت الموجة النصرانية الثانية على بلاد شرق إفريقيا، وعاودت الكرّة من جديد، وكانت البروتستانتية هي الرائدة في هذه الموجة وبأسلوب يختلف عن أسلوب الموجة الأولى، ولما جاء الاستعمار البريطاني عام ١٨٨٤م أخذ العمل التنصيري طابعاً رسمياً؛ وذلك بوقوف الحكومة البريطانية مع رجال التبشير، وتقديم الدعم السخي في سبيل نشر النصرانية بمختلف الوسائل. ومما يلاحظ: أن النشاط التنصيري آنذاك كان قاصراً على المناطق الساحلية ذات الأغلبية المسلمة في الموجة الأولى، لكن في بداية الموجة الثانية أي: من القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين بدأ التسلل إلى عمق الأراضي الكينية،

وبدأت الإرساليات التنصيرية الأجنبية المتمركزة في المنطقة الساحلية تنتقل إلى الداخل، عملاً بنصيحة المؤتمرات التنصيرية بأن يسبقوا المسلمين إلى الوثنيين.

وفعلاً أسسوا مراكزهم من: مدارس، ومستشفيات، وكنائس، وغيرها في مختلف المناطق الداخلية الوسطى والغربية مثل: (فوي) و(ليمورو) و(كيسومو) وغيرها"[١].

أما جنوب إفريقيا فيقول عنها أبو إسلام أحمد عبد الله:

"مع بداية القرن التاسع عشر توغلت حركة الكشف الأوروبية في قلب إفريقيا، وكثرت البعوث والإرساليات الدينية التنصيرية، ثم تبعتهما حركات الاحتلال الأجنبي الذي فتح الطرق المسدودة أمام التنصير، فكان هذا القرن حقاً هو العصر الذهبي للتنصير في إفريقيا، ولم يبدأ القرن العشرون إلا وكان للنصرانية تواجدها المحسوس والملموس والمرئي بشتى مذاهبها ومللها وكنائسها"[٢].

أما جنوب السودان الجرح النازف فله قصة دامية لا زالت مستمرة حتى الآن، تظهر التواطؤ بين الغرب العلماني والتبشير التنصيري.

فقد كتب اللورد كتشنر[٣] في نهاية القرن التاسع عشر عن جنوب السودان قائلاً:

"ليس من شك في أن الدين الإسلامي يلقى ترحيباً حاراً من أهالي هذه البلاد فإذا لم تقبض القوى النصرانية على ناصية الأمر في إفريقيا فأعتقد أن العرب سيخطون هذه الخطوة، وسيصبح لهم مركز في وسط القارة يستطيعون منه طرد كافة التأثيرات الحضارية إلى الساحل، وستقع البلاد في هذه العبودية"[٤].

ويشرح مصعب الطيب بابكر جذور تلك المأساة، التي تواطأ عليها الحكم الإنجليزي العلماني والكنيسة التنصيرية في عمل تبعثه الروح الصليبية الدفينة المعادية للإسلام فيقول:

"إن مجمل السياسات الجنوبية المصيرية في عهد الحكم الثنائي (الإنجليزي المصري) كانت تصنع في الكنيسة؛ إذ أنها تملك الحضور الفاعل في الميدان، وتملك المعلومات الاستخباراتية من شبكات كنائسها المنتشرة في كل النواحي، وتملك أدوات التأثير والضغط على الإدارة الحكومية، وتملك كذلك التمويل اللازم لتنفيذ سياساتها؛ ولذا كانت توجهات

---

(١) جهود المنصرين في كينيا.. أضواء على الخطط القائمة لاستئصال المسلمين.

(٢) تاريخ الوجود التنصيري في إفريقيا- أبو إسلام أحمد عبد الله.

(٣) هوراتيو هربرت كتشنر: ضابط بريطاني شهير ترقى حتى وصل لمنصب وزير االدولة للحرب في الحرب العالمية الأولى، وكان سرداراً للجيش المصري بعد الاحتلال البريطاني لمصر، ثم هزم قوات الدولة المهدية في معركة أم درمان عام ١٨٩٨.
[Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Horatio Herbert Kitchener].

(٤) الجنوب.. مدخل الصليبية إلى السودان.

الإدارة الاستعمارية تسير باتجاه فصل الجنوب؛ يتحدث عن ذلك السكرتير الإداري (ماكمايكل) فيقول:

"إنه من المعلوم أن تلجأ البعوث النصرانية خوفاً من التغلغل الإسلامي المتزايد إلى استخدام نفوذها في اتجاه فصل الجنوب"، وعلى إثر ذلك أصدرت سياسة الجنوب والمناطق المقفولة، كما كانت المؤسسات الإدارية الشمالية تقام بمعزل عن رصيفاتها الجنوبية، وعملت الكنائس على إيجاد أبعاد أخرى لمسوغات الانفصال بعد تحويل ديانة الجنوب إلى النصرانية كتعميق العنصرية، وإثارة الضغائن ضد المسلمين من أهل الشمال، وتقوية اللهجات المحلية مع جعل الإنجليزية هي لغة التواصل والثقافة. غير أن الإدارة الاستعمارية لأمر ما قد عدلت آخر أمرها عن فصل الجنوب، فأصدر السكرتير الإداري (جيمس روبرتسون) في ديسمبر عام ١٩٤٦م أمراً بإلغاء سياسة الجنوب، وأقام مؤتمر جوبا عام ١٩٤٧م، ليرفع بعده توصياته للحاكم العام بأن الجنوبيين يفضلون الوحدة مع الشمال، ولم تكن مطالب الحركات الجنوبية أيام الاستقلال تتعدى الحكم الذاتي، وبعض المشاركة في الحكومة المركزية.

....

لقد سلكت المؤسسات الصليبية كل السبل التي تحقق أطماعها بلا حدود أو حقوق أو تسامح، وتصرفت وكأنها تأخذ ثأراً قديماً لها مع الإسلام، وهذه الأساليب نوجز منها ما يلي:

١- سياسة الجنوب:

بدأ التنفيذ الصارم لما يعرف بسياسة الجنوب في يناير ١٩٣٠م، إلا أن البدايات العملية لها استؤنفت قبل ذلك التاريخ بكثير؛ ففي عام ١٩١٧م استُبدل كل الجنود الشماليين بجنوبيين، وفي ١٩١٨م اعتُمدت الإنجليزية لغة رسمية وجعل الأحد عطلة أسبوعية، وفي ١٩٢٢م وما بعدها أصدر قانون المناطق المقفولة الذي مُنِع بموجبه الشماليون المسلمون من دخول المناطق الجنوبية، وبموجب تلك السياسة فإن الإدارة الاستعمارية عملت على:

١- محاربة اللغة العربية والأسماء الإسلامية وقصر التعامل على الإنجليزية.

٢- محاربة الشعائر والعادات الإسلامية وكل ما يتعلق بها من زي أو هندام.

٣- طرد الشماليين تجاراً وإداريين.

٤- إعادة العمل بالأحكام القبلية وإحياء اللهجات المحلية.

لقد كانت الحكومة تعاقب بشدة كل من يضبط وهو ينطق العربية أو يؤدي شعائر إسلامية؛ كما كانت تفضل أن يظل الجنوبيون عرايا على أن يلبسوا أزياءً إسلامية أو شمالية، وكانت تستعمل أرقاماً معينة لمناداة كل من يرفض تغيير اسمه إلى اسم غربي أو قبلي، لقد أخليت تلك المناطق تماماً إلا من النفوذ الكنسي الذي أسندت إليه شؤون الإدارة والتشريع والتعليم والتوجيه، والانفراد الكامل لربع قرن بتشكيل ثقافة ذلك المجتمع وتوجهاته. "إن الحكمة وراء سياسات المناطق المقفولة تكمن في نشر الجهد التمديني التنصيري على كل ميادين جنوب السودان الممتد" كما يقول "روبت هاو" حاكم السودان العام في تلك الفترة. إذن فهو غزو صليبي تقوده الحكومة الإنجليزية، وليست القضية تراتيب إدارية أو أطماعاً اقتصادية أو أي شيء آخر، ولا يمكن لعاقل أن يدّعي بأن هذا الاضطهاد والتطهير العرقي، هو نوع من الديمقراطية والتسامح الذي يجب على الإسلام وحده أن يتحلى بهما.

٢ - إثارة الحقد والبغضاء ضد الإسلام:

لقد دُجّن الطلاب الجنوبيون باعتبارهم مسيحيين في المدارس الإرسالية التي كانت وحدها في الساحة، وكانت المسيحية تُمَثَّل بأنها ديانة متفوقة، ولم يكن من الصعب بناء أحقاد جنوبية ضد الشمال في مدارس الجنوب التي كانت يدرس في تاريخها دوْر العرب في شراء وبيع الأفارقة كرقيق.

....

لقد عملت الكنيسة بخبث على ربط الإسلام بتجارة الرق؛ في حين أن التجار الغربيين هم أصحاب هذه التجارة، وعملت على إذكاء نار التفريق العنصري وإلصاقه بالإسلام؛ بينما لا تتحدث مطلقاً عما في كتابهم المحرف (الكتاب المقدس الإصحاح التاسع): عن حام جد الأفارقة: "فلما استيقظ نوح من خمرة علم به ابنه الصغير فقال: عبد العبيد يكون لإخوته، وقال: مبارك إله سام وليكن كنعان عبداً لهم". لقد صورت الكنيسة الدعوة إلى الإسلام على أنها حرب عنصرية ضد الجنوبيين، وأنه لا مناص من الانضمام إلى صف الكنيسة من أجل بقائهم، وأن كل جنوبي هو بالضرورة مضطهد من المستعمرين الشماليين الذين تعمل الكنيسة على محاربتهم من أجله. وهكذا استطاعت الكنيسة أن تضمن تشبث تلك المجموعات بها بنفس القدر الذي تضمن به شحنها ضد أي نشاط دعوي يمكن أن يبذله المسلمون.

٣ - رسل الحرب والسلام:

تمارس الكنيسة والمنظمات التنصيرية لعبة الحرب والسلام، كلاعب محترف لا يفرط أو يتهاون في مكاسبه أو مبادئه، ولكنه أيضاً لا يضيّع فرص تكريسها وتأمينها؛ فمنذ عام ١٩١٠م، أسس الجنرال "ونجت" الحاكم العام "الفرقة الاستوائية" على أساس ديني وعنصري؛ بحيث تكونت فقط من الجنوبيين المتنصرين من أبناء الإرساليات لتكون أساساً لجيش يمكن استعماله ضد أي انبعاث يحمل توجيهات الإسلام الجهادية في الشمال، كما يقول الكاتب الإنجليزي "وبرت كولنس"، وهي نفس الفرقة التي تمردت في أغسطس ١٩٥٥م بعد أن اجتمع بهم القس "بلم تري" وبارك مساعيهم لذبح الشماليين. ثم استمرت الكنيسة من بعد في احتضان كل حركات التمرد الجنوبية من رابطة السودان المسيحية (SCA) إلى الاتحاد الوطني للمناطق المقفولة بالسودان الإفريقي (SACDNU) إلى الاتحاد الإفريقي "سانو" (SANU) ومنظمة الأنانيا ثم أخيراً الحركة الشعبية لتحرير السودان (SPLM) والفصائل المنشقة عنها. توفر الكنائس لهذه الحركات الدعم المباشر والدعم الحكومي عبر جماعات الضغط التي تمثلها، كما توفر لها الخبراء العسكريين والتغطية الإعلامية، وهناك أكثر من ١٦٠ منظمة وهيئة إغاثية تعمل بهذا الاتجاه الذي يشمل أيضاً التسليح والإمداد التقني المساعد. نشرت مجلة (نيوزويك) في ١٠/٤/٢٠٠١م تقريراً عن جنوب السودان بعنوان "جنود المسيح" قالت فيه: إن الحرب في جنوب السودان أصبحت حرباً صليبية، وذكرت أن منظمة واحدة فقط هي "الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية": "قد وفرت بلا علم الحكومة السودانية طبعاً مبلغ ١٧ مليون دولار للجهات التي تعمل في السودان، ثم ذكرت أن أكثر تلك المنظمات حظوة هي "برنامج المساعد الشعبي النرويجي" الذي وصفه تقرير طلبته الحكومة النرويجية بأنه "يتجاوز حدود ما يعتبر أعمالاً إنسانية"!! إذن ما تقوم به هذه الإغاثات الموجهة ليس إلا خط إمداد حربي وإدارة تجسس استخباراتية تلعب دورها في الحرب، كما تلعب دورها في السلام. أما السلام فلم يكن يعني أكثر من محاولة الحصول على المزيد من الفرص لتمكين المشروع الصليبي في السودان. إن المجالس الكنسية تكاد لا تغيب عن أي من المفاوضات مع حركات التمرد كراعٍ لها أو مراقب فيها. وحينما أبرمت اتفاقية (أديس أبابا) في فبراير ١٩٧٢م برعاية الإمبراطور النصراني هيلاسي لاسي كانت قد خرجت تلك المجموعات التي مهدت لهذه الاتفاقية بضمانات كافية بعدم نشر الثقافة العربية والإسلامية في الجنوب، وعلى إثر هذه الاتفاقية أقام السودان لأول مرة علاقات دبلوماسية مع الفاتيكان في أغسطس عام ١٩٧٢م، وقد بدا حينها أن الاتفاقية لا تعدو أن تكون (صفقة) تتنازل

الحكومة بموجبها عن الجنوب للكنائس؛ ومن ثم تتم إعادة إنتاج نسخة أخرى من (سياسة الجنوب) التي نفذت إبان الحكم الثنائي"(١).

ولذلك يقول الدكتور المسيري رحمه الله عن سياسة الحكومة البريطانية في جنوب السودان:

*"كما يُلاحَظ أن الاستعمار الإنجليزي أخذ شكل الاستعمار الاستيطاني الإحلالي في جنوب السودان، حيث قام بنقل (ترانسفير) السودانيين المسلمين، حتى يجعل الجنوب خالياً من العرب (بالألمانية: أراب راين **Arabrein**)"(٢).*

[٣] ومن الأمثلة على تغلغل الروح الصليبية في العلمانية الغربية المعاصرة، تعزية الرؤساء الثلاثة كارتر وكلنتون وبوش في البابا (يوحنا بولس الثاني)، وهو تقليد غير مسبوق في السياسة الأمريكية، كما أنه ليس على مذهبهم، فهم بروتستانت والبابا كاثوليكي. وذلك تقديراً لدوره الكبير في خدمة المصالح الغربية، ولإعفائه اليهود من دم المسيح، ودوره في محاربة الشيوعية، وكذلك دوره في تنشيط التنصير، وكذلك سعياً منهم في إذكاء الروح الصليبية في مواجهة صحوة الأمة المسلمة.

يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في مقاله القيم (بابا روما، وصهينة النصرانية) عن تبرئة البابا يوحنا بولس الثاني لليهود من دم المسيح وعن اعتذاره لهم عن المحرقة النازية:

"لقد ارتكب البابا جناية عظمى على النصرانية، وجعل الكنيسة الكاثوليكية في خدمة الصهيونية الذين كانوا وما زالوا أشد الناس عداوة للكنيسة. واعتذار البابا لليهود عن الذنب الذي لم ترتكبه الكنيسة اعتذار في غير موقعه. واستنكافه أن يعتذر للمسلمين عن الجرائم الكبرى التي ارتكبتها الكنيسة مع المسلمين في حروبها الصليبية على مدى ثلاثمائة سنة. وفي إبادتهم جميع المسلمين في الأندلس في ظل ما عرف بمحاكم التفتيش. استنكاف البابا أن يعترف بذلك جرم آخر في حق الكنيسة. لقد أسقط البابا (بولس الثاني) الكنيسة الغربية إلى الأبد"(٣).

---

(١) الجنوب .. مدخل الصليبية إلى السودان.

(٢) المجلد السابع: إسرائيل.. المستوطن الصهيوني– الجزء الأول: إشكالية التطبيع والدولة الوظيفية– الباب الأول: إشكالية التطبيع– تطبيع المصطلح ج: ٧ ص: ٣.

(٣) بابا روما وصهينة النصرانية للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق. راجع أيضاً لمزيد من التفصيل عن أعمال ذلك البابا مقال الأستاذ محمد مصطفى المقرئ (جدير بالشيخ القرضاوي أن يعود)، الذي طالب فيه الشيخ يوسف القرضاوي أن يعود عن تعزيته الكاثوليك في البابا يوحنا بولس الثاني.

راجع أيضاً لتنازلات الكنيسة الكاثوليكية في عهد البابا جون الثالث عشر ثم في عهد البابا جون بول الثاني أمام اليهود وأمام إسرائيل، وكذلك تنازلات الكنائس البروتستانتية:

[Microsoft Encarta ٢٠٠٨, HOLOCAUST, XIII. AFTERMATH AND LEGACY OF THE HOLOCAUST, C. Church Actions].

[٤] وكذلك من آثار هذه الروح الصليبية في الغرب العلماني استقبال كلنتون لسلمان رشدي ومنح ملكة بريطانيا لقب فارس له.

[٥] ومن آثار هذه الروح إعلان بوش حربه الصليبية على الإرهاب، أو في الحقيقة حربه الصليبية على الإسلام.

[٦] ومن آثار هذه الروح منع فرنسا للطالبات اللاتي يغطين رؤوسهن من الدراسة في المدارس الفرنسية، وسب رئيسها ساركوزي للبرقع بأنه علامة الاستعباد والانحطاط، وتعهده بمحاربته، ثم صدور قانون بمنع النقاب.

وبهذا الاستعراض السريع الموجز للادينية التي يسمونها خطأً العلمانية، يتبين أن تلك الدعوة التي ثارت على الكنيسة والدين من أجل تمجيد العقل وحرية الإنسان قد انتهت لمادية لا عقلانية جبرية حتمية حولت الإنسان لحيوان أو سلعة أو لشيء في هذا الوجود ثم انتهت -كما يتوقع لها ولأي عقيدة لا مرجعية لها- إلى العبث والعدم، وتبين لنا أن التفريق بين العلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية تفريق لا أثر له في ميزان الإسلام، فكلاهما إلحاد، والعلمانية الجزئية لا بد منتهية إلى العلمانية الشاملة، وما هي إلا مرحلة في الطريق إليها، وقد بدأ سقوط العلمانية بانهيار الشيوعية وضياع الرأسمالية، وباشتداد عود الصحوة الإسلامية التي ترفض هذا الضلال، وسأتعرض فيما يلي لضلال الرأسمالية الغربية وهي في طريقها للهاوية، كما سأتعرض في المبحث القادم -إن شاء الله- لسلوك اللادينية البشع في السياسة والحرب والاقتصاد، ولماذا يحرص الغرب على أن نترك الإسلام ونعتنق اللادينية.

(٢) استبداد هوى الأغلبية (الديمقراطية).

تعرضت فيما سبق -بإيجاز واختصار- للادينية كأحد أصنام الطاغوت الأربعة، التي يقوم عليها طاغوت الهوى الغربي المعاصر. وأنا هنا -بعون الله- أتعرض للصنم الثاني من تلك الأصنام وهو استبداد هوى الأغلبية الذي يسمونه الديمقراطية.

وكما ذكرت من قبل عند الحديث عن اللادينية فإن احترام استبداد هوى الأغلبية (الديمقراطية) قد تسرب لعقول الكثيرين، بل منهم قيادات في حركات تنتسب للإسلام، ومنهم عبد المنعم أبو الفتوح عضو مكتب الإرشاد لجماعة الإخوان المسلمين الذي استشهدت به من قبل، حيث يقول:

"وننظر إلى هذه النظم جميعها التي جاءت ضد رغبة شعوبها. على أنها نظم غير مشروعة ولن نعترف بمشروعيتها الدستورية إلا إذا جاءت من خلال صندوق الانتخابات. ونحن نحترم أي نظام -حتى لو لم يرفع شعارات الإسلام- جاء من خلال صندوق

الانتخابات. وسنظل في صدام مع كل نظام غير دستوري وغير معبر عن إرادة الشعب أو جاء ضد رغبة الشعب، ونظل في صدام معاه. لكن لن نكون في صداماً مسلحاً معاه"[1].

والخلط هنا واضح بين المشروعية وبين الحصول على الأغلبية في الانتخابات، دون النظر إلى الدستور والقانون الذي تتم على أساسه هذه الانتخابات، ودون النظر إلى شرعية النظام الذي يمثله ذلك الدستور والقانون.

فإسرائيل دولة غير شرعية، ولكن الحكومة فيها -التي تلتزم بالدستور والقانون الإسرائيلي وتحرص على اغتصاب فلسطين المسلمة وإقامة إسرائيل عليها، وفرض وجودها بالقوة والسلاح والحرب- جاءت بالانتخابات، ولكنها لا يمكن أن تكون محترمة، لأنها حكومة غاصبة معتدية غير شرعية.

والحكومتان اللتان أقامهما الاحتلال الأمريكي في العراق وأفغانستان، لا يمكن أن تكونا حكومتين محترمتين، فهما حكومتان عميلتان سواء صحت نتيجة الانتخابات التي جاءت بهما أو لم تصح.

والحكومة الأمريكية والبريطانية وسائر الحكومات الغربية التي تقوم على اتباع هوى الجماهير -والتي جاءت عبر انتخابات صحيحة، والتي صوتت برلماناتها بأغلبياتها على العدوان على أفغانستان والعراق، ومن قبلهما على إنشاء إسرائيل على فلسطين المسلمة إلى آخر جرائمهم التي ارتكبتها ضد المسلمين- حكومات ديمقراطية جاءت عبر انتخابات صحيحة، هذه الحكومات حكومات جاهلية معتدية مجرمة ظالمة، لا يمكن أن تكون محترمة.

وأية حكومة تقوم على دستور علماني أو إلحادي أو مخالف للإسلام لا يمكن أن تكون حكومة محترمة لأنها حكومة غير شرعية جاهلية. ولا يمكن أن يقبل أن يعطيها قيادي في الإخوان شهادة احترام، حتى وإن جاءت بانتخابات صحيحة.

وهذا الخلط قد يتساهل فيه مع من لم يدرك الأسس العقائدية للإسلام، أما من قيادي في حركة تزعم أنها كبرى الحركات الإسلامية، فالأمر يحتاج لوقفة تأمل كبيرة في مدى الانحراف العقائدي في حركة تزعم ذلك الزعم العريض.

والمؤسف أيضاً أنه يؤكد -بما لا يسمح بالاعتذار له والتبرير- على احترامه لكل نظام جاء عبر صندوق الانتخابات، حتى ولو لم يرفع شعارات الإسلام!!

فلننظر أيها القارئ الكريم في هذا الذي يحترمه ذلك القيادي، ثم لنتساءل هل ما يحترمه يستحق الاحترام أم لا؟

وسأتناول استبداد هوى الأغلبية -إن شاء الله- تحت العناوين التالية:

(أ) استبداد هوى الأغلبية نظرياً:

---

[1] الأحزاب السياسية العربية وعلاقتها بتحركات الشارع العربي، قناة الجزيرة الفضائية، برنامج حوار مفتوح.

(ب) استبداد هوى الأغلبية عملياً.

***

(أ) استبداد هوى الأغلبية نظرياً.

يعرف قاموس وبستر الملحق بالموسوعة البريطانية (الديمقراطية) بأنها:

" ١ - أ- حكومة الشعب، وخاصة حكم الأغلبية.

ب- حكومة تناط السلطة العليا فيها بالشعب، وتمارس عن طريقه مباشرة أو غير مباشرة، عبر نظام للتمثيل، عادة ما يتضمن انتخابات حرة تجرى دورياً.

٢ - وحدة ديمقراطية لديها نظام ديمقراطي.

٣- بحرف استهلالي كبير[١]: مبادئ وسياسات الحزب الديمقراطي بالولايات المتحدة.

٤- عامة الناس، وخاصة إذا مثلوا مصدر السلطة السياسية.

٥- غياب المزايا والفروق الطبقية الوراثية أو الاستبدادية" [٢].

ومن هذا التعريف يتبين أن الديمقراطية هي سلطة الشعب دون الالتزام بأي قيمة أو مرجعية أخلاقية أو دينية أو قيمية، وليست إلا إرادة الشعب ورغبته وميله وهواه[٣].

وينقل الشيخ سفر الحوالي عن سمول قوله:

"إن رأسمالنا الأخلاقي -إذا تحدثنا بوجه عام- إنما يتكون من مجموعة من الأخلاقيات الإقليمية يعوزها التجانس، وبهذه الأخلاقيات يحتفظ المجتمع بحركته، ولكنه رغم هذا يبعثر مجهوداً هائلاً يبذله في تلك الاحتكاكات التي تعوق حركته، إننا لا نملك مستوى أخلاقياً عاماً تستطيع أن تحتكم إليه طبقة من الناس ضد أخرى، وتستمد منه حكماً تلتزم بقبوله الطبقة التي تخسر القضية.

فلنفترض -على سبيل المثال- أننا وسط صراع من صراعات العمال وأصحاب الأعمال، وقد اقترح أن تحال المشكلة إلى التحكيم، ثم تقابل ممثلو الطرفين المتنازعين؛ فإنه سرعان ما يتبين أن النزاع لا يمكن الفصل فيه على أسس أخلاقية، فإن للأطراف المتنازعة وربما لهيئة التحكيم -أيضاً- مستوى أخلاقياً مختلفاً، فأخلاقيات العاملين تقوم على أساس

---

[١] أي إذا كتبت بحرف استهلالي كبير.

[٢] ENCYCLOPEDIA BRITANNICA ٢٠٠٥ Delux Edition CD, Dictionary, Merriam Webster's Collegiate Dictionary, democracy.

[٣] راجع ما نقلته سابقاً عن الدكتور عبد الوهاب المسيري -رحمه الله- وهو يذكر (نسبية كل الأمور، وتحول العالم إلى ساحة صراع الإنسان فيها ذئب لأخيه الإنسان والبقاء فيها للأصلح، وإلى عالم يتسم باللامعيارية) أثناء جمعه للمصطلحات متقاربة الدلالة التي تصف الرؤية الغربية العلمانية للعالم.

فكرة حق العمل، أما أخلاقيات المحكمين فإنها قد تتأرجح بين تفسير رجل القانون للقانون المدني، وبين فكرة الفيلسوف المتأمل عن الحقوق المثالية الإنسانية للإنسان بوصفه إنساناً، أي أنه لا يوجد أخلاقيات مشتركة نرجع إليها، فلا المتقاضون ولا المحكمون يستطيع أيهم أن يقنع الآخرين بضرورة التسليم بقاعدة عليا من الحق"[١].

وتقوم الأصول الفكرية لاستبداد هوى الأغلبية (الديمقراطية) على أسس ثلاثة: سيادة الأمة ومبدأ المشروعية وحماية الحقوق والحريات العامة.

أما سيادة الأمة فيقول عنها الدكتور صلاح الصاوي:

"والسيادة هي الحاكمية العليا. أو السلطة العليا الآمرة التي تستأثر بالحق في توجيه الخطاب الملزم إلى الكافة، والتي لا تعرف فيما تنظمه من علاقات سلطة أخرى تساويها أو تساميها.

....

ومن خصائصها:

- التفرد: فلا يوجد على الأقليم الواحد إلا سيادة واحدة، إرادتها هي القانون، وتوجيهاتها هي الشريعة الملزمة.

....

- السمو: فهي إرادة تعلو جميع الإرادات، وسلطة تسمو على كافة السلطات.

- الأصالة: فهي قائمة بذاتها لم تتلق هذا العلو من إرادة سابقة عليها أو إرادة أعلى منها.

- العصمة من الخطأ: فكل ما يصدر عن الإرادة العامة للأمة فهو مشروع لمجرد صدوره منها، فهي تنزع إلى تأليه هذه الإرادة واعتبارها السلطة المطلقة، حتى عبر أحد رواد هذه النظرية عن هذا المعنى بقوله: لقد انتقلنا من الحق الإلهي للملوك إلى الحق الإلهي للبرلمانات"[٢].

إذن فنحن أمام إله أو آلهة تعبد من دون الله، تأمر وتنهى ولا تُسأل عما تفعل. نحن أمام أوثان معنوية لا تقل -بل تزيد- في سلطانها وجبروتها وتألهها على الأوثان المادية القديمة، نحن أمام ارتداد بشري تاريخي من التوحيد للشرك، ومن عبادة الله الواحد الأحد -الذي وصف نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ

(١) العلمانية نشأتها وتطورها ج: ٢ ص: ١١٠، ١١١.

(٢) التعددية السياسية في الدولة الإسلامية ص: ٨ و٩.

إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾- إلى آلهة وضعية مادية تعبد في معابد الشهوات والأهواء والصراعات. وعن هذا الشرك العصري في مقابل التوحيد يقول الأستاذ الشهيد -كما نحسبه- سيد قطب، في تفسيره لفواتح سورة الأعراف، وأستأذن القارئ مرة أخرى في أن أسهب في النقل عن الأستاذ الشهيد:

"﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

كتاب أنزل إليك للإنذار به والتذكير.. كتاب للصدع بما فيه من الحق ولمواجهة الناس بما لا يحبون؛ ولمجابهة عقائد وتقاليد وارتباطات؛ ولمعارضة نظم وأوضاع ومجتمعات. فالحرج في طريقه كثير، والمشقة في الإنذار به قائمة.. لا يدرك ذلك -كما قلنا في التعريف بالسورة- إلا من يقف بهذا الكتاب هذا الموقف؛

﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾.

وإلا من يعاني من الصدع به هذه المعاناة؛ وإلا من يستهدف من التغيير الكامل الشامل في قواعد الحياة البشرية وجذورها، وفي مظاهرها وفروعها، ما كان يستهدفه حامل هذا الكتاب أول مرة [ص] ليواجه به الجاهلية الطاغية في الجزيرة العربية وفي الأرض كلها..

وهذا الموقف ليس مقصوراً على ما كان في الجزيرة العربية يومذاك، وما كان في الأرض من حولها.. إن الإسلام ليس حادثاً تاريخياً، وقع مرة، ثم مضى التاريخ وخلفه وراءه!.. إن الإسلام مواجهة دائمة لهذه البشرية إلى يوم القيامة.. وهو يواجهها كما واجهها أول مرة، كلما انحرفت هي وارتدت إلى مثل ما كانت فيه أول مرة!.. إن البشرية تنتكس بين فترة وأخرى وترجع إلى جاهليتها -وهذه هي "الرجعية" البائسة المرذولة- وعندئذ يتقدم الإسلام مرة أخرى ليؤدي دوره في انتشالها من هذه "الرجعية" مرة أخرى كذلك؛ والأخذ بيدها في طريق التقدم والحضارة؛ ويتعرض حامل دعوته والمنذر بكتابه للحرج الذي تعرض له الداعية الأول [ص] وهو يواجه البشرية بغير ما استكانت إليه من الارتكاس في وحل الجاهلية؛ والغيبوبة في ظلامها الطاغي! ظلام التصورات. وظلام الشهوات. وظلام الطغيان والذل. وظلام العبودية للهوى الذاتي ولأهواء العبيد أيضاً!

....

....

لقد جاء هذا الدين ليغير وجه العالم، وليقيم عالماً آخر، يقر فيه سلطان الله وحده ويبطل سلطان الطواغيت. عالماً يعبد فيه الله وحده -بمعني "العبادة" الشامل- ولا يعبد معه أحد من العبيد. عالماً يخرج الله فيه -من شاء- من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. عالماً يولد فيه "الإنسان" الحر الكريم النظيف.. المتحرر من شهوته وهواه، تحرره من العبودية لغير الله.

جاء هذا الدين ليقيم قاعدة: "أشهد أن لا إله إلا الله" التي جاء بها كل نبي إلى قومه على مدار التاريخ البشري -كما تقرر هذه السورة وغيرها من سور القرآن الكريم- وشهادة أن لا إله إلا الله ليس لها مدلول إلا أن تكون الحاكمية العليا لله في حياة البشر، كما أن له الحاكمية العليا في نظام الكون سواء. فهو المتحكم في الكون والعباد بقضائه وقدره، وهو المتحكم في حياة العباد بمنهجه وشريعته.. وبناء على هذه القاعدة لا يعتقد المسلم أن لله شريكاً في خلق الكون وتدبيره وتصريفه؛ ولا يتقدم المسلم بالشعائر التعبدية إلاّ لله وحده. ولا يتلقى الشرائع والقوانين، والقيم والموازين، والعقائد والتصورات إلا من الله، ولا يسمح لطاغوت من العبيد أن يدعي حق الحاكمية في شيء من هذا كله مع الله.

....

وعاد حامل هذا الكتاب يواجه الحرج الذي كان يواجهه رسول الله [ص]

....

وهو يستهدف ابتداء إنشاء عقيدة وتصور في قلوب الناس وعقولهم تقوم على قاعدة: أشهد أن لا إله إلا الله. وإنشاء واقع في الأرض .... يتحرر فيه الإنسان من عبادة العبيد، ومن عبادة هواه!

إن الإسلام ليس حادثاً تاريخياً، وقع مرة، ثم مضى التاريخ وخلفه وراءه.. إنه اليوم مدعو لأداء دوره الذي أداه مرة؛ في مثل الظروف والملابسات والأوضاع والأنظمة والتصورات والعقائد والقيم والموازين والتقاليد... التي واجهها أول مرة.

إن الجاهلية حالة ووضع؛ وليست فترة تاريخية زمنية

....

إنها تقوم ابتداء على قاعدة: "حاكمية العباد للعباد"، ورفض حاكمية الله المطلقة للعباد. تقوم على أساس أن يكون "هوى الإنسان" في أية صورة من صوره هو الإله المتحكم.

....

إنه حين تكون الحاكمية العليا لله وحده في مجتمع -متمثلة في سيادة شريعته الربانية- تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً حقيقياً كاملاً من العبودية للهوى البشري ومن العبودية للعبيد. وتكون هذه هي الصورة الوحيدة للإسلام أو للحضارة -كما هي في ميزان الله- لأن الحضارة التي يريدها الله للناس تقوم على قاعدة أساسية من الكرامة والتحرر لكل فرد. ولا كرامة ولا تحرر مع العبودية لعبد.. لا كرامة ولا تحرر في مجتمع بعضه أرباب يشرعون ويزاولون حق الحاكمية العليا؛ وبعضهم عبيد يخضعون ويتبعون هؤلاء الأرباب! والتشريع لا ينحصر في الأحكام القانونية. فالقيم والموازين والأخلاق والتقاليد.. كلها تشريع يخضع الأفراد لضغطه شاعرين أو غير شاعرين!.. ومجتمع هذه صفته هو مجتمع رجعي متخلف.. أو بالاصطلاح الإسلامي: "مجتمع جاهلي مشرك"!

وحين تكون آصرة التجمع في مجتمع هي العقيدة والتصور والفكر ومنهج الحياة. ويكون هذا كله صادراً من الله، لا من هوى فرد، ولا من إرادة عبد. فإن هذا المجتمع يكون مجتمعاً متحضراً متقدماً. أو بالاصطلاح الإسلامي: مجتمعاً ربانياً مسلماً.. لأن التجمع حينئذ يكون ممثلاً لأعلى ما في "الإنسان" من خصائص -خصائص الروح والفكر- فأما حين تكون آصرة التجمع هي الجنس واللون والقوم والأرض... وما إلى ذلك من الروابط.. فإنه يكون مجتمعاً رجعياً متخلفاً.. أو بالاصطلاح الإسلامي: مجتمعاً جاهلياً مشركاً.. ذلك أن الجنس واللون والقوم والأرض.... وما إلى ذلك من الروابط لا تمثل الحقيقة العليا في "الإنسان". فالإنسان يبقى إنساناً بعد الجنس واللون والقوم والأرض. ولكنه لا يبقى إنساناً بعد الروح والفكر!

ثم هو يملك بإرادته الإنسانية الحرة -وهي أسمى ما أكرمه الله به- أن يغير عقيدته وتصوره وفكره ومنهج حياته من ضلال إلى هدى عن طريق الإدراك والفهم والاقتناع والاتجاه. ولكنه لا يملك أبداً أن يغير جنسه، ولا لونه، ولا قومه. لا يملك أن يحدد سلفاً مولده في جنس ولا لون؛ كما لا يمكنه أن يحدد سلفاً مولده في قوم أو أرض.. فالمجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة هو بدون شك أرقى وأمثل وأقوم من المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمور خارجة عن إرادتهم ولا يد لهم فيه.

وحين تكون "إنسانية الإنسان" هي القيمة العليا في مجتمع؛ وتكون "الخصائص الإنسانية" فيه موضع التكريم والرعاية، يكون هذا المجتمع متحضرا متقدماً.. أو بالاصطلاح الإسلامي: ربانياً مسلماً.. فأما حين تكون "المادة" -في أية صورة من

صورها- هي القيمة العليا.. سواء في صورة "النظرية" كما في الماركسية، أو في صورة "الإنتاج المادي" كما في أمريكا وأوروبا وسائر المجتمعات التي تعتبر الإنتاج المادي هو القيمة العليا، التي تهدر في سبيلها كل القيم والخصائص الإنسانية -وفي أولها القيم الأخلاقية- فإن هذا المجتمع يكون مجتمعاً رجعياً متخلفاً.. أو بالاصطلاح الإسلامي: مجتمعاً جاهلياً مشركاً[١]..

....

والقيم "الإنسانية" والأخلاق "الإنسانية" ليست مسألة غامضة ولا مائعة؛ وليست كذلك قيماً وأخلاقاً متغيرة لا تستقر على حال -كما يزعم الذين يريدون أن يشيعوا الفوضى في الموازين، فلا يبقى هنالك أصل ثابت يرجع إليه في وزن ولا تقييم.. إنها القيم والأخلاق التي تنمي في الإنسان "خصائص الإنسان" التي ينفرد بها دون الحيوان. وتُغلب فيه هذا الجانب الذي يميزه ويجعل منه إنساناً. وليست هي القيم والأخلاق التي تنمي فيه الجوانب المشتركة بينه وبين الحيوان.. وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم وثابت، لا يقبل عملية التمييع المستمرة التي يحاولها "التطوريون"! عندئذ لا تكون هناك أخلاق زراعية وأخرى صناعية. ولا أخلاق رأسمالية وأخرى اشتراكية. ولا أخلاق صعلوكية وأخرى برجوازية! لا تكون هناك أخلاق من صنع البيئة ومن مستوى المعيشة، على اعتبار أن هذه العوامل مستقلة في صنع القيم والأخلاق والاصطلاح عليها، وحتمية في نشأتها وتقريرها.. إنما تكون هناك فقط "قيم وأخلاق إنسانية" يصطلح عليها المسلمون في المجتمع المتحضر. "وقيم وأخلاق حيوانية" -إذا صح هذا التعبير- يصطلح عليها الناس في المجتمع المتخلف.. أو بالاصطلاح الإسلامي تكون هناك قيم وأخلاق ربانية إسلامية، وقيم وأخلاق رجعية جاهلية!

إن المجتمعات التي <u>تسود فيها القيم والأخلاق والنزعات الحيوانية</u>، <u>لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة</u>، <u>مهما تبلغ من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي</u>! إن هذا المقياس لا يخطيء في قياس مدى التقدم في الإنسان ذاته

....

مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة غير متحضرة- من وجهة النظر "الإنسانية". وبمقياس خط التقدم الإنساني.. وهي كذلك غير إسلامية.. <u>لأن خط الإسلام هو خط تحرير الإنسان من شهواته</u>، <u>وتنمية خصائصه الإنسانية</u>، <u>وتغلبها على نزعاته الحيوانية</u>..

---

[١] راجع ما نقلته سابقاً عن الدكتور عبد الوهاب المسيري -رحمه الله- وهو يذكر (تشييئ وتسليع) الإنسان أثناء جمعه للمصطلحات متقاربة الدلالة، التي تصف الرؤية الغربية العلمانية للعالم.

ولا نملك أن نمضي أكثر من هذا في وصف المجتمعات البشرية الحاضرة، وإغراقها في الجاهلية.. من العقيدة إلى الخلق. ومن التصور إلى أوضاع الحياة.. ونحسب أن هذه الإشارات المجملة تكفي لتقرير ملامح الجاهلية في المجتمعات البشرية الحاضرة. ولتقرير حقيقة ما تستهدفه الدعوة الإسلامية اليوم وما يستهدفه الدعاة إلى دين الله.. إنها دعوة البشرية من جديد إلى الدخول في الإسلام: عقيدة وخلقاً ونظاماً.. إنها ذات المحاولة التي كان يتصدى لها رسول الله [ص] وإنها ذات النقطة التي بدأ منها دعوته أول مرة. وإنه ذات الموقف الذي وقفه بهذا الكتاب الذي أنزل إليه؛ وربه -سبحانه- يخاطبه:

﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾"[1].

ثم أقول: ما الفارق من ناحية العقل والإخلاق بين حاكمية الجماهير وحاكمية الملوك وحاكمية الطبقة -سواء كانت طبقة رجال دين أو نبلاء أو كادحين- وحاكمية الحكماء وحاكمية العلماء وحاكمية الشيوخ والزعماء وحاكمية الأغنياء وحاكمية الأقوياء ... إلخ؟

ما هو الدليل العقلي الذي يمكن أن يطرح في مقابل رأي أفلاطون؛ أن أفضل حكومة هي التي تقودها أقلية من أكثر الأشخاص أهلية؛ ارستقراطية من (الملوك الفلاسفة)[2]؟

وما هو الدليل العقلي الذي يمكن أن يطرح في مقابل الرأي القائل أن حكم الخبراء أفضل من حكم الدهماء، الذين لا يفقهون في المشاكل المعقدة، وأن رأي خبير اقتصادي أو عالم في فرع من فروع العلم أو قائد عسكري محنك أفضل من آراء الجماهير التي لا تنظر إلا لمصالحها الآنية، حتى وإن أضاعت المصالح العامة؟

وما هو الدليل الأخلاقي الذي يمكن أن يطرح في مقابل الرأي القائل بأن حكم الشرفاء الأمناء أصحاب الأخلاق والقيم -وإن كانوا أقلية- أفضل من حكم الجماهير، التي تتحكم فيها الأهواء؟

إذا كان جواب الديمقراطيين أن حاكمية الجماهير هي أفضلهم، فإن سألنا لماذا؟ سيجيبون لأنها أقلهم شراً وأكثرهم خيراً وأقربهم للعدالة، وهنا يتناقضون، إذ ما هو الشر وما هو الخير وما هي العدالة؟ والأمر كله راجع لهوى الجماهير دون أي قيد أو مرجعية، وقد يجمع الديمقراطيون بين التناقض والمكابرة فيقولون: قد لا نملك الأساس الأخلاقي والعقلي لتفضيل حاكمية الجماهير على ما سواها من الحاكميات، ولكننا باستقراء التاريخ وجدنا أنها أقرب للعدالة والخير وأبعدها عن الظلم والشر.

---

[1] في ظلال القرآن- سورة الأعراف- الآيات١ إلى ٩- ج: ٣ ص: ١٢٥٤ إلى ١٢٥٩.

[2] ENCYCLOPEDIA BRITANNICA ٢٠٠٥ Delux Edition CD, democracy, Fundamental questions.

وهذا قول متناقض كسابقه، وربما أشد تناقضاً، ويقال لقائله أخبرنا أولاً عن هذا الخير وذلك الشر وتلك العدالة المسلم بهم لدى جميع البشر حتى نحاكمك إليها. بل حتى المسلم بها لدى أمة واحدة أو شعب واحد.

وإذا كانوا يعرفون الخير والشر والعدالة، فلماذا لم يحكموها بدلاً من هوى الجماهير؟ ولماذا كل هذا العنت في دخول الانتخابات والصراعات السياسية، أليس من الأوفر للجهد والمال، وأروح للأعصاب، وأذهب للخصومات أن تعرض أية قضية على هذا الخير وذلك الشر وتلك العدالة فيقبل ما يوافقها وينبذ ما يخالفها؟

وإذا كانت كل تلك الإجابات على الأسئلة السابقة بهذا المستوى من التناقض والتخبط، فماذا تكون إجابتهم إذا سئلوا: أيهما أفضل وأحق وأوجب وأصلح حكم الخالق العليم الخبير أم حكم المخلوق الجهول الظلوم؟؟؟

ويكشف الدكتور المسيري -رحمه الله- خبيئة الديمقراطية، حين يتكلم عن تناقض الحضارة الغربية وهي تحاكم المسؤولين الألمان المتورطين في الإبادة النازية:

"وتتبلور هذه النقطة في قضية المسئولية الخُلقية للتنفيذيين النازيين، فهناك من ينطلق من المنظور الترشيدي المادي الإجرائي المنفصل عن القيمة ويذهب إلى أن المواطن النازي الذي اشترك في عمليات الإبادة لم يكن سوى بيروقراطي، موظف تنفيذي ("عبد المأمور"، كما نقول بالعامية المصرية)، يؤدي عمله بكفاءة عالية، ويُنفذ ما يصدر إليه من أوامر تأتيه من علٍ، ولا يتساءل عن مضمونها الأخلاقي ويُنفذها حتى لو تنافت مع القيم الأخلاقية والإنسانية المطلقة. فهذا الموظف لا يدين بالولاء الكامل إلا للدولة والوطن ولا يعيش في ازدواجية الدين والدولة أو الأخلاق والدولة، فالمطلق الوحيد الذي يؤمن به، شأنه في هذا شأن أي إنسان علماني شامل، هو الدولة والوطن، ولذا فعليه أن يذعن لما يصدر له من أوامر تأتيه من هذه الدولة التي تخدم صالح الوطن. وهذا ينطبق على الأوامر النازية الخاصة بالإبادة!

ولكن هناك آخرون، ممن يؤمنون بالمطلقات الأخلاقية والإنسانية، يذهبون إلى أن الإنسان الفرد كائن حر مسئول، ولذا فعليه أن يتحمل المسئولية الأخلاقية الكاملة لما يأتيه من أفعال، ومن ثم عليه أن يقف ضد عمليات إبادة الضعفاء (من المسنين والمعوقين وأعضاء الأقليات)، حتى لو كانت عملية الإبادة تخدم "الصالح العام" أي صالح الدولة والوطن! أي أن الإنسان الفرد يدين بالولاء لمجموعة من القيم الأخلاقية والإنسانية المطلقة تتجاوز ولاءه للدولة والوطن وكفاءة الأداء في الوظيفة.

وهذه إشكالية فلسفية وأخلاقية وإنسانية عميقة تواجهها المنظومة العلمانية الشاملة، فهي منظومة فلسفية تنكر الميتافيزيقا والثنائيات والمطلقات وتؤكد نسبية المعرفة وكل القيم الأخلاقية، وهو ما يعني، بطبيعة الحال، غياب المرجعية المتجاوزة (التي تتجاوز الأفراد) وظهور المرجعية المادية الكامنة، حين يحدد كل إنسان قيمه بنفسه دون العودة إلى أية مطلقات أو ثوابت إنسانية (كما يدعو فكر ما بعد الحداثة). وإذا كان الألمان، انطلاقاً من المرجعية المادية الكامنة فيهم، قد حدَّدوا قيمهم الأخلاقية على أسس نفعية مادية داروينية، وسلكوا على هذا الأساس، فكيف يمكن لنا أن نتجاوز ذاتيتهم الكامنة فيهم؟ وكيف يمكن لنا أن نهيب بقيم أخلاقية وإنسانية، عامة مطلقة، تقع خارج نطاق مُثُلهم الذاتية؟ كيف يمكن أن نفعل ذلك إن كنا نحن أنفسنا نؤمن بالنسبية المطلقة؟ كيف يمكن اختراق المطلق الذاتي؟ كيف يمكن أن نبيّن للشعب المختار، صاحب الحقوق المطلقة، المسلح بالمدافع الرشاشة والقنابل النووية، أن ثمة إنسانية عامة وثمة قيم أخلاقية عامة، إن كنا نحن أنفسنا نسبيين، علمانيين شاملين حركيين نرفض الثبات ولا نرى إلا حركة المادة وقوانينها الصماء؟ يقول البعض ممن يحاول اتخاذ موقف أخلاقي دون الإهابة بأية مرجعية متجاوزة، إن الإنسان بوسعه أن يأخذ موقفاً ذاتياً وجودياً، ويرفض إبادة الآخر بإصرار وعناد، أي أن الإنسان بوسعه أن يتبنى موقفاً أخلاقياً دون السقوط في الميتافيزيقا ودون الإهابة بأية مرجعية متجاوزة أو كليات مجردة. ولكن هل يمكن محاكمة الآخر من هذا المنظور إن كان لا يؤمن به؟ ألا يعني هذا أنني أفرض ذاتيتي الأخلاقية الوجودية على ذاتيته الداروينية النفعية المادية؟

هذه هي الإشكالية التي نبهنا لها ماكس فيبر وغيره من علماء الاجتماع والمفكرين الغربيين حينما بدأوا في إطلاق التحذيرات، منذ أواخر القرن التاسع عشر، من العلم المنفصل عن القيمة، وهي إشكالية تثيرها، وبحدة، الإبادة النازية لليهود والأطفال والمعوقين والعجزة والغجر، وكل من لا فائدة له، من المنظور النازي. والحوار الدائر في الغرب بشأن الإبادة يُركِّز على تفاصيل مثل عدد الضحايا وهل هم يهود فقط أو غيرهم (مما أسميه "لعبة الأرقام") ويهمل قضية إنسانية جوهرية مثل هذه تتجاوز حدود الإبادة النازية لتصل إلى مستوى المجتمع الحديث بأسره، ومستقبل الإنسان على هذه الأرض.

وقد أثيرت مؤخراً قضية وثيقة الصلة تماماً بقضية انفصال العلم عن القيمة ألا وهي قضية انفصال الإجراءات الديموقراطية عن القيمة. فالديموقراطية هي في واقع الأمر اتفاق على مجموعة من الإجراءات تمكن من خلالها معرفة رأي الأغلبية، وجوهر هذه الإجراءات كمي، أي حساب عدد الأصوات المؤيدة والمعارضة، فإن زادت الأصوات المؤيدة عن

الأصوات المعارضة ولو صوتاً واحداً تم تمرير مشروع القانون، وإن نقصت ولو صوتاً واحداً رُفض المشروع. فالاتفاق هنا اتفاق بشأن الإجراءات وحسب (وقوانين اللعبة، كما تُسمَّى)، وليس متصلاً بمضمونها أو اتجاهها، فهذه أمور تحددها العملية الديموقراطية نفسها، دون الالتزام بأية قيم أو مرجعيات مسبقة، أي أن الديموقراطية تدور في إطار النسبية الكاملة ولا تتقيد بأية قيم أخلاقية مطلقة. ومن ثم سُمِّيت الأخلاق الحاكمة للديموقراطية بأنها "أخلاقيات الإجراءات والصيرورة" (بالإنجليزية: إثيكس أوف بروسيس ethics of process). فالديموقراطية، شأنها شأن الترشيد الإجرائي، معقمة من الميتافيزيقا والكليات والمطلقات والثوابت. فكما أن العلم انفصل عن الغائيات والقيم الإنسانية وأصبح مرجعية نفسه، انفصلت الإجراءات الديموقراطية عن الغائيات والقيم الإنسانية وأصبحت مرجعية ذاتها، ولا يمكن محاكمتها من خلال مرجعية متجاوزة لها.

والقضية التي تثيرها النازية هي أن هتلر وصل إلى الحكم من خلال إجراءات ديموقراطية سليمة، تماماً كما أن المشروع الإمبريالي الغربي قامت به حكومات تم انتخابها بطرق ديموقراطية سليمة. ومن المعروف أن عمليات السخرة والإبادة التي قام بها النظام النازي كانت تحظى بموافقة الأغلبية الساحقة للشعب الألماني. وهذا لا يختلف كثيراً عما حدث في الولايات المتحدة حينما قامت الحكومة الأمريكية بوضع ألوف المواطنين الأمريكيين من أصل ياباني في معسكرات اعتقال إبَّان الحرب العالمية الثانية كإجراء أمني، وقد حظى القرار العنصري الإرهابي بموافقة الأغلبية[1]*. وتصبح القضية أكثر خطورة حينما تظهر بين جماهير الشعب نزعات عسكرية وإمبريالية تتجاوز طموحات النخبة الحاكمة، الأمر الذي يضطرها إلى القيام بعمليات عسكرية عدوانية لتحظى برضى الجماهير. ويُلاحَظ أثناء حملات الرئاسة الأمريكية أن حكومة الولايات المتحدة تأخذ مواقف عسكرية متشددة قد لا تضطر لاتخاذها بعد الانتخاب. وتظهر المشكلة بشكل أكثر حدة حينما يرى أحد الشعوب أن قطاع الاتجار في المخدرات هو عصب اقتصادها الوطني، وتُنتخب حكومة تدافع عن مثل هذه السياسة. ومؤخراً رشحت إحدى نجمات أفلام الإباحية نفسها في*

---

[1] تماماً كما يحدث في جوانتانامو والسجون السرية، والدول التي تسلم إليها أمريكا المعتقلين، في حربها على الإسلام باسم الإرهاب، فقد منحت أمريكا نفسها الحق في التنصل من اتفاقيات جنيف، ومن ميثاقهم لحقوق الإنسان (الأبيض)، وأعطت نفسها صلاحية اعتقال من تشاء من حيث ما تشاء، واعتقاله وتعذيبه أينما تشاء، أو تسليمه لمن تشاء، ولأية فترة تشاء، وتحت أية ظروف تشاء، وبموجب أية قوانين تشاء، ثم التصرف بشأنه بعد ذلك بما تشاء، دون رقيب من اتفاقيات الغرب ولا مواثيقه. إن الحرب على الإسلام باسم الإرهاب لم تهزم الغرب عسكرياً واقتصادياً فقط، ولكنها قبل كل ذلك هزمته معنوياً وخلقياً، وكشفت عن حقيقة تفوقه المزعوم.

انتخابات البرلمان الإيطالي، وكانت حملتها الانتخابية تتلخص في خلعها لملابسها لإقناع وإغواء الناخبين (وقد نجحت في حملتها وتم انتخابها بالفعل بتفوق). وفي الجيوب الاستيطانية، مثل إسرائيل وجنوب أفريقيا، عادةً ما تحكمها حكومات تم انتخابها بطريقة ديموقراطية لا شبهة فيها، وهذه الجيوب تستند إلى فعل سرقة تاريخي تقبل به أغلبية المستوطنين الساحقة، وتصوت (بل تقاتل) من أجل استمراره. ففعل الاغتصاب الإرهابي يحظى بدعم سياسي وقبول ديموقراطي.

والسؤال الآن هو: هل علينا أن نقبل بمثل هذه القرارات (ابتداءً من الإبادة النازية وانتهاءً بقبول المخدرات والإباحية واغتصاب الأوطان) باعتبار أنها تعبير عن إرادة الشعب وصوت الجماهير طالما أنها اتبعت الإجراءات الديموقراطية السليمة، أم ينبغي علينا أن نرفض مثل هذه القرارات الديموقراطية، استناداً إلى مرجعية أخلاقية متجاوزة للإجراءات الديموقراطية؟ ولكن هل يحق لنا أن نسأل أي سؤال يقع خارج نطاق أخلاقيات الإجراءات والصيرورة؟ ألا يُشكِّل هذا سقوطاً في الميتافيزيقا والماهوية والمطلقية؟"[1].

يقول الأستاذ الشهيد -كما نحسبه- سيد قطب -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾:

"إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص. فالجاهلية -كما يصفها الله ويحددها قرآنه- هي حكم البشر للبشر، لأنها هي عبودية البشر للبشر.

....

إن الجاهلية -في ضوء هذا النص- ليست فترة من الزمان؛ ولكنها وضع من الأوضاع. هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غداً، فيأخذ صفة الجاهلية، المقابلة للإسلام، والمناقضة للإسلام.

والناس -في أي زمان وفي أي مكان- إما أنهم يحكمون بشريعة الله -دون فتنة عن بعض منها- ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً، فهم إذن في دين الله. وإما إنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر -في أي صورة من الصور- ويقبلونها فهم إذن في جاهلية؛ وهم في دين من يحكمون بشريعته، وليسوا بحال في دين الله. والذي لا يبتغى حكم الله يبتغي حكم الجاهلية؛ والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية، ويعيش في الجاهلية.

---

[1] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الثاني: الجماعات اليهودية: إشكاليات- الجزء الرابع: عداء الأغيار الأزلي لليهود واليهودية- الباب الخامس: بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوربا- إشكالية انفصال القيمة الأخلاقية والغائية الإنسانية عن العلم والتكنولوجيا ج: ٢ ص: ٣٢٧ و٢١٨.

وهذا مفرق الطريق، يقف الله الناس عليه. وهم بعد ذلك بالخيار!

ثم يسألهم سؤال استنكار لابتغائهم حكم الجاهلية؛ وسؤال تقرير لأفضلية حكم الله.

ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟..

....

إنه مفرق الطريق، الذي لا معدى عنده من الاختيار؛ ولا فائدة في المماحكة عنده ولا الجدال..

إما إسلام وإما جاهلية. إما إيمان وإما كفر. إما حكم الله وإما حكم الجاهلية" [1].

(ب) استبداد هوى الأغلبية عملياً:

وبعد أن تعرضت بإيجاز للأساس النظري لاستبداد هوى الأغلبية أو ما يسمونه بالديمقراطية، أتعرض لها من الناحية العملية تحت العناوين التالية:

[١] تساؤلات حول استبداد هوى الأغلبية (الديمقراطية).

[أ] هل الديمقراطية تمثل الأمة؟

[ب] هل الديمقراطية توفر الحرية؟

[ج] هل الديمقراطية توفر المساواة؟

[د] هل الديمقراطية توفر العدالة؟

[٢] أمثلة من ثمار الديمقراطية.

***

[١] تساؤلات حول استبداد هوى الأغلبية (الديمقراطية):

[أ] هل الديمقراطية تمثل الأمة؟

بعد أن أكد دعاة الديمقراطية على سيادة الأمة باعتبارها السلطة العليا التي لا تنازع، تراجعوا بعد أول خطوة، فقالوا: إن الديمقراطية تعطي السلطة لإرادة الأغلبية –وليس كل الأمة– ضد إرادة الأقلية، ثم تراجعوا بعد ثاني خطوة، فقالوا: إن الديمقراطية تمارس عبر نظام تمثيل ينبني على الاقتراع، الذي يعطي السلطة لأغلبية المقترعين، وليس لأغلبية الأمة، ثم تراجعوا بعد ثالث خطوة، فقالوا: إن الديمقراطية تعطي السلطة لأغلبية نواب المقترعين.

وإذا تبين لنا أن الديمقراطية لا تمثل الأمة، وإنما تمثل أغلبية نواب البرلمان، فهل هؤلاء يمثلون أغلبية الأمة؟

---

[1] في ظلال القرآن– سورة المائدة– الآيات من ٤١ إلى ٥٠ ج٢: ص: ٩٠٤ و٩٠٥.

إذا استبعدنا العوامل القوية التأثير في آراء الناخبين مثل قوة المال والإعلام والضغوط السياسية... إلخ، وركزنا فقط على عملية الانتخاب والتصويت، فإن نسبة المشاركة في الانتخابات تكون أقل من ١٠٠%. ففي الولايات المتحدة مثلاً عادة ما تكون نسبة المشاركة في الانتخابات القومية الرئاسية أقل من ٥٠% من الناخبين المسجلين وليس كل من لهم حق التصويت، ومن لهم حق التصويت لا يشكلون كل سكان أمريكا. وأن تلك النسبة لا تزيد عن ٣٠% في انتخابات الكونجرس في غير سنوات الانتخابات الرئاسية، بل وتقل عن ذلك في انتخابات الولايات. بينما تصل في الدول الأوروبية لأكثر من ٨٠%[١]. إلا أن الدراسات قد سجلت انخفاضاً طويل المدى في نسبة المشاركة في الانتخابات منذ السبعينيات[٢]. ففي المملكة المتحدة كانت نسبة المشاركة في الانتخابات عام ١٩٩٢ ٧٨% من المسجلين، بينما انخفضت في عام ١٩٩٧ إلى ٧١%، وتدنت النسبة إلى ٥٩% في عام ٢٠٠١، ثم ارتفعت قليلاً في عام ٢٠٠٥ إلى ٦١%[٣].

أما في داخل البرلمان فإن النصاب المطلوب لعقد الجلسات عادة ما يكون النصف زائد واحد. فمثلاً في مجلس النواب الأمريكي ينعقد النصاب بحضور ٢١٨ نائباً من مجموع ٤٣٥ نائباً، بينما في مجلس الشيوخ ينعقد النصاب بحضور ٥١ عضواً من مجموع ١٠٠ عضو[٤].

فلو افترضنا صورة خيالية لا وجود لها في الواقع تتكون من عدد من الممتنعات المتراكبة، وقلنا أن كل البالغين في وطن ما يحق لهم التصويت، وأن كل من يحق له التصويت سجل نفسه في قائمة المقترعين، وأن كل المسجلين في قوائم المقترعين قد شاركوا في الانتخابات، وأن كل من شارك في الانتخابات كانت أصواتهم صحيحة وليست باطلة مستبعدة، فمعنى هذا أن الفائزين في الانتخابات يمثلون ١٠٠% من الشعب، فإذا ذهبوا للبرلمان، فإن ٥١% يمكنهم أن يعقدوا جلسة قانونية، وفي تلك الجلسة يمكن لـ ٢٦% أن يمرروا معظم القوانين، أي أن من يمثلون ٢٦% من الشعب يمكنهم أن يفرضوا إرادتهم، ويتحكموا في أنفس وأموال وتصرفات وحرية ٧٤% من الشعب. أما القرارات الاستثنائية التي يتطلب إقرارها ثلثي الأعضاء، فإن ٣٣,٦٦% يمكنهم أن يفرضوا إرادتهم على ٦٧,٤٤% من الشعب.

أما إذا اعتبرنا صورة عملية، واعتبرنا النسبة للقصوى للمشاركة، وفرضنا أن الانتخابات قد شارك فيها ٨٠% من الناخبين المسجلين، وفاز حزب فيها بالأغلبية بنسبة ٦٠% (أي أنه يمثل ٤٨% من مجموع

---

(١) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Election.

(٢) ENCYCLOPEDIA BRITANNICA ٢٠٠٥ Delux Edition CD, election, Participation in elections

(٣) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, United Kingdom.

(٤) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Congress of the United States, Congressional Glossary, Quorum.

من الناخبين المسجلين، وليس كل الشعب)، فإذا عقدت جلسة البرلمان بنسبة ٥١% من النواب (أي بنواب يمثلون ٤٠,٨% من الناخبين المسجلين)، فإن حزب الأغلبية سيكون له ٣٠,٦% من عدد النواب (يمثلون ٢٤,٤٨% من مجموع الناخبين المسجلين). ويكفي لتمرير معظم القوانين الأغلبية المطلقة فقط (أي ما يزيد عن ٢٠,٤% من مجموع الناخبين المسجلين)، أي أن معظم القوانين يمكن أن تفرضها أقلية تمثل ٢٠,٥% من مجموع الناخبين المسجلين على ٧٩,٥% من مجموع الناخبين المسجلين. وحتى في بعض الحالات الاستثنائية التي يتطلب تمريرها ثلثي الأعضاء فإن من يمثلون ٢٦,٩٣% يملكون أن يفرضوا إرادتهم على من يمثلون ٧٣,٠٧% من مجموع الناخبين المسجلين.

والمثال السابق حسبناه باعتبار النسبة الأقصى للمشاركة وهي ٨٠% من عدد الناخبين المسجلين، فإذا حسبناه باعتبار الحد الأدنى وهو ٣٠% فستكون النتيجة مهزلة مضحكة.

فإذا علمت أن مجموع الناخبين المسجلين أقل من عدد الذين يحق لهم التصويت، وأن عدد الذين لهم حق التصويت لا يشكلون كل أفراد الشعب، تبين لك مدى الخداع في أن الديمقراطية هي حكم الشعب أو حتى حكم أغلب الشعب، وهنا يمكن القول -عند التحقيق العملي- أن ما سميته نظرياً (استبداد هوى الأغلبية) هو عملياً (استبداد هوى الأقلية). ولذلك يتكلمون كثيراً عن الأغلبية الصامتة!!

هذا باعتبار خيالي وهو أن الظروف السياسية نزيهة أمينة بعيدة عن تأثير الإعلام وتجارة اللذة ورؤوس الأموال. أما إذا هبطنا للواقع العملي فسيتبين لكل ذي عينين أن الديمقراطية الغربية هي في الحقيقة استبداد أصحاب النفوذ والسلطة في المجتمع، ولا يمكن بأي حال أن تمثل أغلبية الشعب.

يقول هارولد لاسكي:

"إن الدولة الديمقراطية تبذل الكثير في سبيل تحقيق المساواة بين المواطنين فيما تمنحهم من ضمانات، كما تتجه أوامرها القانونية إلى حماية الملكية القائمة للامتيازات أكثر مما تعمل على توسيع نطاقها، فانقسام المجتمع إلى فقراء وأغنياء يجعل أوامر الدولة القانونية تعمل لصالح الأغنياء... إذ أن نفوذهم يرغم نواب الدولة وذوي السلطة فيها على أن يكون لرغباتهم الاعتبار الأول.

وتعبر الدولة عن رغبات أولئك الذين يسيطرون على النظام الاقتصادي، فالنظام القانوني بمثابة قناع تختفي وراءه مصلحة اقتصادية مسيطرة لتضمن الاستفادة من النفوذ السياسي، فالدولة أثناء ممارستها لسلطتها لا تعمد إلى تحقيق العدالة العامة أو المنفعة العامة، وإنما تعمل على تحقيق المصلحة للطبقة المسيطرة في المجتمع بأوسع معاني هذه المصلحة.

إن الحرية والمساواة اللتين حصلنا عليهما كانتا أولاً وقبل كل شئ حرية ومساواة لمالك الثروة"[1].

[ب] هل الديمقراطية توفر الحرية؟

"١" الحرية الحقيقية في العبودية لله. وطالما كانت مرجعية الإنسان في تصوراته واعتقاداته وتشريعاته وأحكامه وأخلاقه وآدابه من إنسان أو أناس مثله، فلن يكون إلا عبداً لهم، يتحكمون فيه بما تزين لهم أهواؤهم وآراؤهم. يقول الأستاذ الشهيد –كما نحسبه– سيد قطب –رحمه الله– عن منهج الإسلام:

"إنه المنهج الوحيد الذي يتحرر فيه الإنسان من العبودية للإنسان.. ففي كل منهج –غير المنهج الإسلامي– يتعبد الناس الناس. ويعبد الناس الناس. وفي المنهج الإسلامي –وحده– يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك..

إن أخص خصائص الألوهية –كما أسلفنا– هي الحاكمية.. والذي يشرع لمجموعة من الناس يأخذ فيهم مكان الألوهية ويستخدم خصائصها. فهم عبيده لا عبيد الله، وهم في دينه لا في دين الله[2].

والإسلام حين يجعل الشريعة لله وحده، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ويعلن تحرير الإنسان. بل يعلن "ميلاد الإنسان".. فالإنسان لا يولد، ولا يوجد، إلا حيث تتحرر رقبته من حكم إنسان مثله وإلا حين يتساوى في هذا الشأن مع الناس جميعاً أمام رب الناس..

إن هذه القضية التي تعالجها نصوص هذا الدرس هي أخطر وأكبر قضايا العقيدة.. إنها قضية الألوهية والعبودية. قضية العدل والصلاح. قضية الحرية والمساواة. قضية تحرر الإنسان –بل ميلاد الإنسان– وهي من أجل هذا كله كانت قضية الكفر أو الإيمان، وقضية الجاهلية أو الإسلام..

والجاهلية ليست فترة تاريخية؛ إنما هي حالة توجد كلما وجدت مقوماتها في وضع أو نظام.. وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر، لا إلى منهج الله وشريعته للحياة. ويستوي أن تكون هذه الأهواء أهواء فرد، أو أهواء طبقة، أو أهواء أمة، أو أهواء جيل كامل من الناس.. فكلها.. ما دامت لا ترجع إلى شريعة الله.. أهواء..

يشرع فرد لجماعة فإذا هي جاهلية. لأن هواه هو القانون.. أو رأيه هو القانون.. لا فرق إلا في العبارات!

---

[1] العلمانية نشأتها وتطورها ج: ١ ص: ٢٠٥.

[2] أي إن أطاعوه في تشريعه من دون الله عن رضا وعلم.

وتشرع طبقه لسائر الطبقات فإذا هي جاهلية. لأن مصالح تلك الطبقة هي القانون – أو رأي الأغلبية البرلمانية هو القانون– فلا فرق إلا في العبارات!

ويشرع ممثلو جميع الطبقات وجميع القطاعات في الأمة لأنفسهم فإذا هي جاهلية.. لأن أهواء الناس الذين لا يتجردون أبداً من الأهواء، ولأن جهل الناس الذين لا يتجردون أبداً من الجهل، هو القانون –أو لأن رأي الشعب هو القانون– فلا فرق إلا في العبارات!

وتشرع مجموعة من الأمم للبشرية فإذا هي جاهلية. لأن أهدافها القومية هي القانون – أو رأي المجامع الدولية هو القانون– فلا فرق إلا في العبارات!

ويشرع خالق الأفراد، وخالق الجماعات، وخالق الأمم والأجيال، للجميع، فإذا هي شريعة الله التي لا محاباة فيها لأحد على حساب أحد. لا لفرد ولا لجماعة ولا لدولة، ولا لجيل من الأجيال. لأن الله رب الجميع والكل لديه سواء. ولأن الله يعلم حقيقة الجميع ومصلحة الجميع، فلا يفوته –سبحانه– أن يرعى مصالحهم وحاجاتهم بدون تفريط ولا إفراط.

ويشرع غير الله للناس.. فإذا هم عبيد من يشرع لهم. كائناً من كان. فرداً أو طبقة أو أمة أو مجموعة من الأمم..

ويشرع الله للناس.. فإذا هم كلهم أحرار متساوون، لا يحنون جباههم إلا لله، ولا يعبدون إلا الله. ومن هنا خطورة هذه القضية في حياة بني الإنسان، وفي نظام الكون كله"[1].

ويقول أيضاً رحمه الله:

"ولقد حدث أن الذين فسقوا عن الدينونة لله وحده، فأتاحوا لنفر منهم أن يحكموهم بغير شريعته، قد وقعوا في النهاية في شقوة العبودية لغيره. العبودية التي تأكل إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم، مهما اختلفت أشكال الأنظمة التي تحكمهم، والتي ظنوا في بعضها أنها تكفل لهم الإنسانية والحرية والكرامة.

لقد هربت أوربا من الله –في أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية الباغية باسم الدين الزائف– وثارت على الله –سبحانه– في أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التي أهدرت كل القيم الإنسانية في عنفوان سطوتها الغاشمة! ثم ظن الناس أنهم يجدون إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم –ومصالحهم كذلك– في ظل الأنظمة الفردية [الديمقراطية] وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية، والأوضاع النيابية البرلمانية،

---

[1] في ظلال القرآن– سورة المائدة– الآيات من ٤١ إلى ٥٠ ج: ٢ ص: ٨٩٠ و٨٩١.

والحريات الصحفية، والضمانات القضائية والتشريعية، وحكم الأغلبية المنتخبة... إلى آخر هذه الهالات التي أحيطت بها تلك الأنظمة.. ثم ماذا كانت العاقبة؟ كانت العاقبة هي طغيان "الرأسمالية" ذلك الطغيان الذي أحال كل تلك الضمانات، وكل تلك التشكيلات، إلى مجرد لافتات ، أو إلى مجرد خيالات! ووقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال.

فتملك معه الأغلبية البرلمانية! والدساتير الوضعية! والحريات الصحفية! وسائر الضمانات التي ظنها الناس هناك كفيلة بضمان إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم، في معزل عن الله سبحانه!!!

ثم هرب فريق من الناس هناك من الأنظمة الفردية التي يطغي فيها "رأس المال" و"الطبقة" إلى الأنظمة الجماعية! فماذا فعلوا؟ لقد استبدلوا بالدينونة لطبقة "الرأسماليين" الدينونة لطبقة "الصعاليك"! أو استبدلوا بالدينونة لأصحاب رؤوس الأموال والشركات الدينونة للدولة التي تملك المال إلى جانب السلطان! فتصبح أخطر من طبقة الرأسماليين!

وفي كل حالة، وفي كل وضع، وفي كل نظام، دان البشر فيه للبشر، دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبة الفادحة. دفعوها للأرباب المتنوعة في كل حال.

إنه لا بد من عبودية! فإن لا تكن لله وحده تكن لغير الله.. والعبودية لله وحده تطلق الناس أحرارا كراما شرفاء أعلياء.. والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم. ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية.

من أجل ذلك كله تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلك العناية في رسالات الله - سبحانه- وفي كتبه.. وهذه السورة(١) نموذج من تلك العناية.. فهي قضية لا تتعلق بعبدة الأصنام والأوثان في الجاهليات الساذجة البعيدة. ولكنها تتعلق بالإنسان كله، في كل زمان وفي كل مكان؛ وتتعلق بالجاهليات كلها.. جاهليات ما قبل التاريخ، وجاهليات التاريخ. وجاهلية القرن العشرين. وكل جاهلية تقوم على أساس من عبادة العباد للعباد" (٢)

.

"٢" الديمقراطية أساساً هي استبداد الأغلبية ونزع حرية الأقلية، ولا تقوم إلا على ذلك، فلا بد من نزع حرية فئة من الشعب وقهرها على حكم الأغلبية، أياً كانت هذه الأغلبية. فالديمقراطية نظرياً هي فرض إرادة الأغلبية على الأقلية، أي أن الأقلية هنا -من الناحية النظرية- لا بد أن تتنازل عن حريتها للأكثرية مهما كان الفارق ضئيلاً بينهما. فلا بد من وجود فئة مقهورة في المجتمع حتى ولو بلغت ٤٩%

---

(١) سورة هود.

(٢) في ظلال القرآن- سورة هود- الآيات من ١٠١ إلى ١٢٣ ج: ٤ ص: ١٩٤٢ و١٩٤٣.

منه، ومقهورة لمن؟ لأناس عاديين قد يكونون أسوأ منهم أو أفضل أو مثلهم في ميزان الأخلاق والمبادئ والقيم، لا فرق.

هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فالديمقراطية -كما أسلفت- هي خضوع أكثرية الشعب لأقلية منه، استطاعت أن توصل ممثليها ليشكلوا أغلبية في البرلمان.

"٣" أمثلة من تقييد الحرية باسم الديمقراطية.

أسوق هنا بإيجاز بعض الأمثلة الواضحة على منع الديمقراطيات الغربية لحرية غيرها ممن يختلفون معها في عقائدها وتوجهاتها. وقد يؤدي ذلك المنع إلى إدانتهم وسجنهم بل وحصارهم وشن الحروب عليهم.

"أ" من أبرز الأمثلة على عدم احترام الديمقراطيات الغربية للحرية بل حتى لكل الديمقراطية موقفها من فوز الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر وحركة حماس في فلسطين بالانتخابات. ففي الحالة الأولى حركت فرنسا أبناءها في الجيش الجزائري فاكتسحت صناديق الانتخابات بجنازير الدبابات، وألقت بزعماء الجبهة وأعضائها في السجون، وبارك العالم الغربي كله ما جرى، بل واعترف بالحكومات التي قامت على هذا الانقلاب وبنتائج كل الانتخابات التي تلته، وتمت على أيدي رجالها. أما في الحالة الثانية ففرضت الديمقراطيات الغربية الحصار على غزة، وفرضت عليها شروط اللجنة الرباعية الاستسلامية في مقابل رفع الحصار عنها والاعتراف بها.

وقد ذكرت في (المبحث الأول: محاربة العقيدة الجهادية) أن كُتاب مؤسسة راند لا يرحبون بفوز حركة حماس في فلسطين، التي يعتبرونها من الإسلاميين الأصوليين، ويقولون إن فوزها في الانتخابات يعطي مثالاً ظاهراً على أن العملية التحررية قد تؤدي لنتائج غير تحررية، مما يزيد القلق بشأن الضغط على الأنظمة الاستبدادية لمزيد من الانفتاح السياسي، الذي قد يؤدي لإحلال الأصوليين الإسلاميين محلها[١].

أي أن الضغط على الأنظمة الاستبدادية لمزيد من الانفتاح السياسي ليس مطلوباً لذاته، بل للسماح بنمو وانتشار مجموعات من الليبراليين الديمقراطيين المعادين للإسلام، أما إذا أدى هذا الضغط لانتشار نفوذ الاتجاهات الإسلامية، فهنا يجب الحذر وإعادة النظر في ذلك الانفتاح السياسي، الذي قد يجلب المشاكل، التي تتكفل الأنظمة القمعية الطاغية المحاربة للإسلام بحلها، بطرقها الخاصة التي غالباً ما تكون قذرة وغير ديمقراطية.

ورغم موقفهم غير الديمقراطي من فوز حماس بالانتخابات، فإن كُتاب مؤسسة راند لا يخجلون ولا يشعرون بالحرج أن يذكروا -بعد قرابة خمسين صفحة من قلقهم هذا- أن من أهم علامات تمييز

---

[١] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٤٥.

المسلمين المعتدلين؛ التزامهم بالديمقراطية كما تفهمها التقاليد التحررية الغربية، واتفاقهم على أن الشرعية السياسية تستمد من إرادة الشعب عبر انتخابات ديمقراطية حرة[١].

ما معنى هذا التناقض؟

معنى هذا التناقض أمور هامة يجب التنبه لها:

{١} فالغرب يرى أن الديمقراطية لعبة غربية، لا يستحقها غيرهم من مخلوقات الله البشرية التي تشاركهم الكرة الأرضية، وأن ديمقراطية هؤلاء التابعين الأدنى درجة تُقبل فقط إذا كانت تتفق مع أهواء ومصالح الغرب الأعلى درجة، فإن خالفتها، فيجب إيقاف تلك اللعبة، لأن اللاعبين أفسدوها، أو لم يحسنوا لعبها.

{٢} وهذا هو الدرس المتكرر الذي يجب أن تفهمه الحركات المنتسبة للإسلام، التي تخلت عن حاكمية الشريعة، ورضيبت بخوض الانتخابات المبنية على الدساتير العلمانية. تلك الحركات التي زعمت أنها تمارس العمل السياسي، وأنها أدرى بأحوال الدنيا وغياهب السياسة وتلافيف الحكم وغياهب الدول، وزعمت أن من ينتقدها، ويطالبها بالالتزام بعقائد الإسلام، وعدم التخلي عن حاكمية الإسلام، قبل أن تصل للحكم، وأن من بين لها أن حاكمية الشريعة لا يمكن التنازل عنها من أجل بضعة مقاعد في برلمان ملفق انتجته انتخابات مزورة، ولا يمكن التخلي عنها من أجل حكومة محاصرة مشلولة غير معترف بها، تحترم القرارات الدولية ولا تكف عن الثناء وكيل المدح لأكابر المجرمين باعة الدين والشرف والأرض والعرض، زعمت أن ذلك الناقد لا يفهم في شؤون الدنيا ما تفهم، وأنه متحجر على مبادئ لا تتفق مع الفكر الوسطي والفهم المتطور، الذي تمرست به تلك الحركات، وأتقنته حتى سار صبغة لها وسمة، وسرى في عروقها فميع ثوابت، وزحزح رواسي.

كان أحرى بتلك الحركات -بعد تلك الدروس المؤلمة- أن تكف عما تمارسه من تنازلات وترجع عما تزاوله من تفاهم وتناغم وتواد مع أعداء الإسلام وأكابر المجرمين. بعد أن تنازلت عن ثوابت الدين ولم تصل لذي بال من الدنيا، ولكن....

أَمَرتُهُمُ أَمري بِمُنعَرَجِ اللِوى فَلَم يَستَبينوا النُصحَ إِلّا ضُحى الغَدِ[٢]

{٣} وأن الديمقراطية التي يريدها الغرب منا ليست الاحتكام لإرادة أغلبية الشعب -إذا اختار ما تقدمه الحركات المتورطة في الانتخابات على أنه الإسلام- كما توهم وظن المتنازلون عن ثوابت الشريعة وحاكميتها، ولكنها الاحتكام لقيم الديمقراطية الغربية ومفاهيم العدالة وحقوق الإنسان (الأبيض) التي ارتضاها العالم الحر، فمن وافقها فهم الديمقراطيون، حتى وإن كانوا أقلية ضئيلة، ومن خالفها فهم المتشددون، حتى وأن كانوا الأكثرية الغالبة.

---

[١] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٦٦.

[٢] البيت لدُرَيد بن الصَمّة- الموسوعة الشعرية- دريد بن الصمة.

{٤} ثم هذه الديمقراطية الغربية التي يصرون على مطالبتنا بها وإرغامنا عليها، ما هي مرجعيتها؟
إن مرجعيتها هي أغلبية المصوتين -وليست حتى أغلبية الشعب- في الغرب.

إذن ففي عقيدة هؤلاء الغربيين أن أغلبية المصوتين في العالم الغربي ليس من حقهم فقط أن يفرضوا ما يريدونه على العالم الغربي بحكم أغلبية المصوتين وليس أغلبية الشعب، ولكن من حقهم أيضاً أن يفرضوا معتقداتهم ومبادئهم وتصوراتهم للحياة على بقية شعوب الدنيا وخاصة على الأمة المسلمة، وأن من يخالفهم أصولي متشدد يجب محاربته وقتاله ومدافعته بالقنبلة والكلمة والمال والدعاية.

{٥} وهنا يبرز التناقض بين ما يدعون تقديسه من ديمقراطية وبين ما يصرون عليه من ضرورة إبعاد الدين والإسلام والشريعة تحديداً عن الحياة، فإذا اختار الشعب الحركات المنتسبة للإسلام في انتخابات حرة، فإنهم يعدون اختياره هذا تصرفاً غير ديمقراطي، لأن ديمقراطيتهم لا تستند على أغلبية شعبية، ولكن تستند على عقيدة فوقية قررها وأقرها الغرب، وعلى بقية البشر أن يقلدوه فيها، حتى وإن كانت الغالبية في العالم الإسلامي تخالفها.

تؤكد إنجل راباسا وزملاؤها من مؤسسة راند على علامات مميزة للمعتدلين -من المسلمين في زعمهم- الذين يمكن للغرب أن يتفاهم معهم، فتذكر من أولى تلك المميزات الالتزام بالديمقراطية على أساس من الفهم التحرري الغربي، وأن ذلك يستلزم معارضة مبدأ إقامة الدولة الإسلامية[١].

إذن القضية ليست قضية مرجعية الأغلبية، وإنما مرجعية الغرب في أن يفرض على البشرية ما يريد من قيم وتصورات.

"ب" ومن أمثلة احتقار الدول الديمقراطية الغربية لما يدعون إليه من ديمقراطية -إذا تعارضت مع سيادتهم على العالم ومصالحهم- ما يمارسونه في الأمم المتحدة، حيث يعطون لخمسة من الدول الأقوى حق النقض، الذي يسيطرون به فعلياً على سياسة الأمم المتحدة، بينما يتركون سائر شعوب البشر يتصايحون كما يحلو لهم في الجمعية العامة.

"ج" ومن أمثلة محاربة الدول الغربية الديمقراطية لحرية التعبير، التي يزعمون تقديسها، تجريمهم لأي رأي أو دراسة تنكر أو تشكك أو تقلل من المحرقة النازية.

يقول الدكتور المسيري رحمه الله:

"(إنكار الإبادة) مصطلح يتواتر الآن في الصحف الغربية وفي بعض الأدبيات الخاصة بالإبادة النازية لليهود، وهو يشير إلى أي كتاب أو مؤلف تجرَّأ صاحبه وكتب دراسة (علمية أو غير علمية) تطعن فيما ذهب إليه الكثيرون من أن عدد ضحايا النازية من

---

[١] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ٦٦.

اليهود ستة ملايين، أو تثير الشكوك بخصوص أفران الغاز وغاز زيكلون بي. وقد صدرت في السنوات الأخيرة عدة كتب ودراسات تدور حول هذا المحور:

*١- كتب بول راسينيه **Paul Rassinier** في الخمسينيات دراسة ضخمة بعنوان أسطورة غرف الغاز. وكان المؤلف قد رُحِّل إلى أحد معسكرات الاعتقال. وفند في كتابه وجود مثل هذه الغرف أساساً وبيَّن أنها أكذوبة تاريخية وأورد إحصاءات ديموجرافية (رسمية) عن عدد اليهود في كل أوربا قبل الحرب وبعدها، وعقب صدور الكتاب حُوكم راسينيه وناشره وعُوقب بالسجن (مع إيقاف التنفيذ) كما فُرضت عليه غرامة مالية فادحة.*

....

*٤- قدَّم هنري روكيه **Henri Roques** برسالة للدكتوراه إلى جامعة نانت يُشكك فيها في وجود غُرف الإعدام بالغاز «زيكلون بي». وقد أجازت الجامعة الرسالة ومنحته الدرجة العلمية بامتياز. ولكن الحكومة الفرنسية ألغت قرار اللجنة وسحبت منه الدرجة. ويُعَدُّ هذا التدخل سابقة ليس لها مثيل في تاريخ الجامعات الفرنسية الذي يمتد ألف عام.*

*٥- أصدر ستاجليش **Staglish**، أحد قضاة مدينة هامبورج، كتاباً بعنوان أسطورة أوشفيتس. والكتاب هو رسالة للدكتوراه كان القاضي قد قدمها إلى جامعة جوتينجن، وتوصَّل فيها إلى أن كثيراً من النصوص وشهادات الشهود بخصوص معسكر أوشفيتس أو عما كان يجري فيه غير صحيح بالمرة ومليئة بالتناقضات. وقد أُجيزت الدكتوراه بالفعل. وما إن صدر الكتاب حتى قررت الجامعة سحب الدكتوراه من الرجل. كما أصدرت السلطات القضائية قراراً بخصم ١٠% من راتبه.*

*٦- يتعرض المؤرخ البريطاني ديفيد إيرفينج **David Irving** للمطاردة منذ نهاية الثمانينيات لأنه ينكر الإبادة رغم أن مجلة ذا نيويورك ريفيو أوف بوكس **The New York Review of Books** وصفته بأنه "يعرف عن الاشتراكية الوطنية (أي النازية) أكثر من أي عالم آخر متخصص في هذا الحقل"، وأشارت إلى كتابه عن حرب هتلر بأنه "أحسن دراسة عن الجانب الألماني في الحرب". ورغم كل هذا طُرد من كندا وبعد ذلك من أستراليا، ومُنع من إلقاء محاضراته فيهما. وأصدرت إحدى المحاكم الألمانية حكماً بتغريمه عشرة آلاف مارك لمجرد أنه نفى أن اليهود كانوا يموتون في غرف الغاز في معسكر أوشفيتس" [١].*

---

[١] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الثاني: الجماعات اليهودية: إشكاليات- الجزء الرابع: عداء الأغيار الأزلي لليهود واليهودية- الباب الخامس: بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوربا- إنكار الإبادة والخطاب الحضاري الغربي ج: ٢ ص: ٣٣١.

في يوم ٢٠ فبراير ٢٠٠٦م حكمت محكمة نمساوية على المؤرخ الإنجليزي دافيد إرفينج بالسجن ثلاث سنوات لإنكاره المحرقة النازية وغرف الغاز ومقتل ستة ملايين يهودي على يد النازيين، وحضر للمحكمة والقيد في يديه، وهو يحمل كتابه المعنون (بحرب هتلر).

ويضيف الدكتور المسيري:

"وقد وصل هذا الاتجاه إلى ذروته (أو هوته) مع صدور قانون فابيوس[1] (رقم ٤٣) في مايو ١٩٩٠ المسمى "قانون جيسو" (وهو اسم النائب الشيوعي الذيَ تبنَّى هذا القانون). ويُجرّمِ هذا القانون أي تشكيك في الجرائم المقترفة ضد الإنسانية بإضافة المادة ٢٤ مكرر إلى قانون حرية الصحافة عام ١٨٨١، جاء فيها: "يُعاقب بإحدى العقوبات المنصوص عليها في الفقرة السادسة من المادة ٢٤، كل من ينكر وجود أي من الجرائم المرتكبة ضد الإنسانية كما وردت في المادة ٦ من النظام الأساسي للمحكمة العسكرية الدولية الملحق باتفاق لندن الموقع في ٨ أغسطس ١٩٤٥"[2].

وكذلك اعتبرت سويسرا انكار المحرقة النازية لليهود جريمة عام ١٩٩٤[3].

ثم يتحدث الدكتور المسيري عن أن المحرقة النازية أصبحت من المسلمات التي لا يمكن مناقشتها فيقول:

"فالإبادة بهذا المعنى أصبحت من المسلمات، التي تُشكّلِ فَهْم الإنسان الغربي المسبق، شأنها في هذا شأن مقولة "عبء الرجل الأبيض" في القرن التاسع عشر، وشأن إحساس الغرب بمركزيته في القرن العشرين أو الإيمان بالتقدم المادي وتحقيق الذات باعتبارهما الغاية النهائية لوجود الإنسان في الأرض. والمسلمات هي الركيزة الأساسية للنموذج، فهي التي تحدد حلاله وحرامه، وما هو مقدَّس وما هو مدنَّس. ومن ثم أصبح التساؤل بشأن الإبادة هو تساؤل بشأن إحدى المسلمات (المقدسات أو المطلقات، إن شئت) وهو ما لا يمكن لأية حضارة، مهما بلغت من سعة صدر وليبرالية وتعددية قبوله.

وقد يُقال إنهم في الغرب ينتجون أفلاماً تُعرّضِ بالسيد المسيح عليه السلام مثل فيلم "سكورسيزي Scorsese الإغواء الأخير للمسيح"، وأعمالاً فنية *مثل لوحة الفنان أندريه سيرانو **Andre Serrano** الشهيرة بعنوان "فلتتبول على المسيح **(Piss***

---

[1] في فرنسا.

[2] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الثاني: الجماعات اليهودية: إشكاليات- الجزء الرابع: عداء الأغيار الأزلي لليهود واليهودية- الباب الخامس: بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوربا- إنكار الإبادة والخطاب الحضاري الغربي ج: ٢ ص: ٣٣١.

[3] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Switzerland, VI. GOVERNMENT.

(Christ" حيث وَضَع الفنان صورة المسيح على الصليب في البول، وعرضها في معرض قامت الدولة بتمويله، إن كانوا يفعلون ذلك فلم لا يقبلون بفتح ملفات الإبادة؟ والرد على هذا هو أن السيد المسيح لم يعد ضمن المقدسات، أما الإبادة فقد أصبحت كذلك. وقل الشيء نفسه عن الشذوذ الجنسي، فحتى الستينيات كان الخطاب الغربي يرى أن ثمة معيارية ما وثمة انحراف عنها، ولهذا كان هناك مفهوم للشذوذ والانحراف، ولكن مع غياب المعيارية تآكل بالتالي مفهوم الشذوذ تماماً، وبالتدريج أصبح الشذوذ شكلاً من أشكال تأكيد الحرية الفردية المطلقة (التي تتجاوز أية معيارية اجتماعية)، وتعبيراً عن حق الفرد في اختيار الهوية الجنسية التي تعجبه والتي يمكنه من خلالها تحقيق ذاته على أفضل وجه ممكن. وبذلك تحوَّل الشذوذ الجنسي من كونه انحرافاً إلى علامة من علامات التفرد وتعبيراً نماذجياً متبلوراً عن المنظومة الحضارية والأخلاقية السائدة في المجتمع في تمركزها حول الذات والمتعة (وفي عدم اكتراثها بالقيم الدينية والاجتماعية أو بأية ثوابت إنسانية). وأصبح تقبل الشذوذ الجنسي علامة من علامات التحضر وسعة الأفق والتعددية، وأصبح رفضها دليلاً قاطعاً على تزمت الشخص وتطرفه بل "أصوليته" .

لكل هذا أصبح من الممكن، داخل الخطاب الحضاري الغربي، ربط الشذوذ بالمقدسات العلمانية (المادية) الجديدة. وهذا بالضبط ما يفعله الروائي الأمريكي اليهودي ليف روفائيل، فهو يربط بين الشذوذ الجنسي والهولوكوست، فبطل إحدى رواياته يهودي يخاف من تأكيد الأبعاد الثلاثة لهويته: هويته اليهودية، وهويته كشاذ جنسي، وهويته كأحد ضحايا الهولوكوست. فيقوم صديقه الذي يعيش معه بتشجيعه على تجاوز مخاوفه. ومنذ عدة سنوات أُقيم مؤتمر للشواذ والسحاقيات في إسرائيل، وأقام أعضاء المؤتمر صلاة القاديش في نصب ياد فاشيم من أجل الشواذ جنسياً والسحاقيات ممن سقطوا ضحايا للاضطهاد النازي. ولا شك في أن ربط الشذوذ الجنسي بالهوية اليهودية بالهولوكوست تصدمنا، ولكن علينا أن ندرك ما هو مقدَّس وما هو مدنَّس في خطاب الآخر قبل أن نشعر بالصدمة، والهولوكوست أيقونة مقدَّسة والشذوذ أمر عادي، بل أمر محبب، ومن يدري لعله أصبح أمراً له «قداسته» الخاصة، ونحن لا نعرف بعد، إذ أننا لا نتابع ما يجري هناك بكفاءة عالية؟"[(١)].

[(١)] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية– المجلد الثاني: الجماعات اليهودية: إشكاليات– الجزء الرابع: عداء الأغيار الأزلي لليهود واليهودية– الباب الخامس: بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوربا– إنكار الإبادة والخطاب الحضاري الغربي ج: ٢ ص: ٣٣٢ و٣٣٣.

وبناء على هذا التفسير يمكن أن نفهم لماذا يستهينون -بل وربما يفرحون- بالاستهزاء بنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، ويزعمون أن الاستهزاء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- هو ممارسة لحرية الرأي والتعبير المقدسة لديهم، بينما لا يتقبلون أي تشكيك في الإبادة النازية لليهود ولا أي مساس بالشواذ جنسياً. وذلك لأن الدين والأنبياء لم يعودوا من المقدسات -بل وربما صاروا من المدنسات- لديهم، بينما المحرقة النازية والشذوذ صارا من المقدسات.

"د" ومن الأمثلة الصارخة على تلاعب الغرب بما يزعمونه من تقديس الحرية الشخصية، منع الحجاب في العديد من الدول الغربية. ففي فرنسا مثلاً يباح للمرأة أن تتعرى كما تشاء وأن تعاشر من تشاء، وأن تمنح عرضها لمن تشاء، وأن تبيعه لمن تشاء، ولكن يحرم عليها أن تغطي رأسها في المدارس، أو أن ترتدي النقاب في الأماكن العامة، مما يكشف عن حقدهم الدفين ضد الإسلام، وأن الحرية عندهم هي في متابعتهم والخضوع لهم وليست في مخالفتهم ولا المساس بمصالحهم.

"هـ" ومن الأمثلة الصارخة على احتكار الدول الديمقراطية للحرية لتستأثر بها لنفسها، وتحرم غيرها منها؛ موقف بريطانيا المتناقض من سلمان رشدي والشيخ أبي قتادة فك الله أسره. فكلاهما أبدى رأيه ومعتقده، ولكن الموقف من كليهما كان مختلفاً تمام الاختلاف.

فسلمان رشدي سب النبي صلى الله عليه وسلم، فاحتفت به بريطانيا وسائر الغرب أشد احتفاء، واعتبروه مع بذاءته، التي لا تشكل رأياً ولا فكراً، ضحية الاضطهاد والتعصب، ورمز حرية الرأي ومثالها، وأعطوه الجوائز، كيف لا وهو رجل من أصل مسلم يسب نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، بل واستقبله كلنتون في البيت الأبيض، كما منحته ملكة بريطانيا رتبة فارس. لقد أهاب سلمان رشدي في تصريح له بالوسط الثقافي في بريطانيا وخارجها أن يسانده، فقال:

"إنني أناشد الوسط الثقافي في هذا البلد وخارجه أن يقفوا مع حرية التفكير، وهو أمر أكبر بكثير من كتابي، أو بالأحرى من حياتي"[1].

فبادرته بريطانيا والغرب بالتأييد والحماية بل وبالإكرام والتبجيل قبل أن يطلبه وبعده، لأنه ساب للنبي -صلى الله عليه وسلم- من أصل مسلم.

وفي المقابل لم تتسع حرية بريطانية وتقديسها لحرية الرأي -في سب النبي صلى الله عليه وسلم- لرجل مثل الشيخ أبي قتادة، رغم أنه لم يسب ولم يسف، ولم يكتب بذاءات، بل هو صاحب قلم وحامل فكر وداعية عقيدة.

فقد اتسع صدر بريطانيا لسلمان رشدي ليكتب مقالاً في التايمز يدعو فيه المسلمين للتوائم مع الحضارة الغربية، ويشكك فيه في الذات الإلهية وفي القرآن، ويدعو فيه المسلمين لقبول قيم الغرب

---

(١) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Salman Rushdie, Qutations.

كالشذوذ الجنسي[1]، ولكن صدرها لم يتسع للشيخ أبي قتادة الذي اعتقلته في نفس اليوم مع تسعة آخرين، بعد أن وقعت اتفاقية مع الأردن وباكستان لتسليم المطلوبين لهما، مع يقين الحكومة البريطانية أن من يسلم لهما لن ينجو من التعذيب وربما القتل.

وإذا كان الإنجليز يكرمون سلمان رشدي إكراماً للمدافعين عن الحرية فلماذا لا يكرمون الملايين، الذين قُتلوا في آسيا وأفريقيا دفاعاً عن حريتهم ضد الاحتلال البريطاني؟ ولماذا لا يكرمون مئات الألاف من الفلسطينيين، الذين قتلوا بسبب تسليم فلسطين لليهود؟ ولماذا لا يكرمون المؤرخ البريطاني ديفيد إرفينج، الذي حكمت عليه محكمة نمساوية بالسجن ثلاث سنوات لإنكاره المحرقة النازية وغرف الغاز ومقتل ستة ملايين يهودي على يد النازيين، قطعاً لا تستطيع ملكة بريطانيا رئيسة كنيسة انجلترا أن تكرمه، لأنها لا تستطيع أن تتمرد على سادتها اليهود.

ولنترك الشيخ أبا قتادة يروي جزءاً من مأساته مع انجلترا حامية الحريات، حيث يقول –فك الله أسره– في رسالة له بعنوان (بيان إلى المسلمين):

"كانت الحالة التي عشتها في سجني الأول

....

كنا في تلك المرحلة مع إخواني في زنازين إنفرادية نمكث فيها أكثر من ثلاث وعشرين ساعة في الليل والنهار حيث لا يرى المرء أحداً بل يكون خالياً متفرداً.

كان هذا السجن –ثلاث سنوات– بلا تهمة ولا محاكمة ولا يجوز لك كذلك أن تطلع على الأدلة التي تزعم الحكومة أنك مسجون بسببها، فقد أقر "برلمانهم" قانوناً يجيز للدولة أن تسجن أي غريب أجنبي لا يملك الجنسية البريطانية إلى أمد غير محدود بأدلة سرية.

هذا القانون يعد فعلاً تجديدياً لأكلة الآلهة الباطلة كما سميته، إذ أننا نعلم ما كان بعض المشركين يفعله قديماً في تعبدهم الشركي، فكانوا يصنعون أصناماً من تمر ثم يعبدونها، فإذا جاعوا أكلوها، وكذلك فعلت الحكومة الإنجليزية، فهي التي تزعم أنها تحترم الإنسان بغض النظر عن دينه ولونه ولغته وجنسيته، فها هي الآن تأكل إلهها، وتأتي بهذا القانون الذي يفرق بين إنسان وإنسان.

....

لقد هزمنا الحكومة البريطانية بفضل الله تعالى، وكان في سجننا كشف لخبثها وإجرامها وكذب دعاويها الإنسانية، واستطعنا أن نكشف للمسلمين في بريطانيا خصوصاً أن

---

[1] هيئة الإذاعة البريطانية يوم الخميس ٦ رجب ١٤٢٦هـ الموافق ١١ أغسطس ٢٠٠٥م.

الحكومة البريطانية حكومة تعادي الإسلام والمسلمين، وحصل الشرخ -بفضل الله- الذي لن تستطيع أن تجبره أبداً بعد ذلك.

لقد انتهى عهد الأكاذيب، وانتشر بين الناس هنا أن هناك غوانتينامو في بريطانيا هو سجن بلمارش كما في أمريكا غوانتينامو سواء، ونشأ جيل جديد من الشباب المسلم وخاصة من إخواننا القادمين من القارة الهندية لم يعد لديهم الانبهار بالمسؤول الإنجليزي ولا بالقيم الإنجليزية، بل هم يحتقرونه ويعلمون عداءه لهم فصاروا له أعداء كذلك.

لم يكن أحد يتصور أن يسجن أحد هذه المدة بلا تهمة ولا محكمة في بريطانيا، لكنها الحقيقة، وهي الوجه الحقيقي للإنسان المتعجرف الذي يرى أن الآخر هو مجرد رقم لا قيمة له.

بعد ثلاث سنوات أصدر مجلس اللوردات البريطاني قراراً بإبطال هذا القانون، وقالوا فيه أقوالاً شديدة فلم يتم التجديد له ولكن تم إقرار قانون آخر بديلاً عنه وهو قانون يفوض الحكومة البريطانية بتقييد أي إنسان بقيود وهو خارج السجن، وذلك بمنعه زمناً من الخروج من البيت ومنعه من استخدام التلفون والكمبيوتر أو مقابلة بعض الناس أو الذهاب لبعض الاماكن أو تحديد مكان ذهابه.

خرجنا من سجن بلمارش العنصري "وغوانتينامو بريطانيا" تحت هذا القانون أنا وإخواني، ومكثت في الخارج ما يقارب خمسة شهور لعبت الحكومة البريطانية لعبة جديدة، وهي أنها عقدت صفقات شخصية (نعم صفقات شخصية) ليس لها أي وجه قانوني أو تشريعي بحسب دينهم وقوانينهم، مع الأردن وليبيا يتم بسببها تسليم المسلمين إلى بلادهم.

بعد صلاة الفجر داهمت بيوتنا الشرطة واقتادتنا إلى السجن مرة أخرى، وبلا تهمة ولا محكمة مدنية، بل بمحكمة خاصة وبأدلة سرية، أي خاصة للأجانب دون بني جلدتهم، ووضعنا أكثر من سبعة عشر أخاً في قسم مستقل، نعيش معاً، كان فينا الفلسطيني والأردني والليبي والجزائري، ثم بعد مدة خرج الليبيون لما أطلقت الحكومة الليبية سراح الأطباء البلغار المتهمين بنشر الإيدز بوساطة فرنسية ولم تعط للإنجليز، فانتقمت الحكومة البريطانية بأن أخرجت الليبيين.

لم تنجح الحكومة البريطانية بعقد صفقة مع الجزائر فدخلت في دوامة مع الجزائريين، وبقيت لعبتهم مع من يحملون الجنسية الأردنية.

....

بعد خروج الليبيين بمدة طويلة استطعنا جميعاً الحصول على خروج بالكفالة في إنتظار قرار محكمة اللوردات في قضيتنا وبعد أقل من خمسة شهور هاجموا بيتي فجراً واقتادوني إلى

بلمارش تحت دعوى أنني كسرت شروط الكفالة، وذلك أنني فكرت أن أهرب من بريطانيا.

تأمل هذه التهمة ((فكرت أن أهرب))، في الحقيقة لم تكن كذلك بل هي كما قيلت في الأوراق: "أنه يمكن له أن يفكر أن يهرب".

هذا هو القضاء البريطاني النزيه كما يقول زنادقة بلادنا.

رجعت إلى السجن وقد زاد التضييق والإيذاء في السجن، حيث وضعت في درجة أمنية عالية إذ يتم تفتيشي عارياً مرتين في كل شهر.

....

الآن وبعد أن صدر قرار محكمة اللوردات بموافقة الحكومة على تسليمي للحكومة الأردنية ماذا يمكن أن يقال:-

لقد قال قضاة هذا البلد، ومن كل طبقاتهم أن الأردن فيها عدالة، وأن المحاكم العسكرية فيها تحقق العدالة اللازمة، وأن التعذيب في السجون وفي دوائر المخابرات أمر يمكن تفهمه.

هذه خلاصة قراراتهم وبلا رتوش أو مزينات، وهذا يعني لذوي الحجى والعقول أن الأردن هي إبنة بريطانيا كياناً ونظاماً وأمناً، ومن لم يفهم هذا فالكلام معه إضاعة وقت.

لقد أكرمني الله تعالى بأن كشف في قضيتي هذه القضاء البريطاني، لأن بعض الناس لغفلتهم يبرؤون القضاء البريطاني من المؤسسة الإجرامية فيها أي التشريعية والتنفيذية، وأقول:- إن قضيتي واحدة -في الحق- من هذه القضايا التي تظهر عنصرية القضاء البريطاني وحقده ضد الإسلام والمسلمين.

لا أستطيع في هذه الورقات- وهي رسالة سريعة- أن أفصل وأشرح، لكن يكفيني أن أقول كلمة قالها أحد القضاة وهو يناقش قضية ترحيل عيد الله السمامرة (أبي شيماء) إلى الأردن حين عرضت عليه وصية الشيخ فقال القاضي: هذه الوصية تذكرني بوصايا المسلمين في الحروب الصليبية.

لقد قدّر لي أن التقي لمدة قصيرة هنا في هذا "القسم المنفرد" حيث عزلنا عن العالم وعن بقية المساجين بالدكتور محمد عشا، وهو الذي اتهم مع الدكتور العراقي بلال عبدالله "وهو أخ التقيت به في المسجد حين كنت في الوحدة الانفرادية في بلمارش ويوم الجمعة ثم التقيت به في سيارة النقل التي كانت تحمله إلى المحكمة" وهذا الدكتور بلال عبدالله رجل من رجالات الإسلام بحق علماً وعملاً وثباتاً ورجولة، فهو يحفظ كتاب الله، وعالم فقه وحديث، وقد وقف موقفاً إيمانياً في المحكمة قال فيه كلاماً يُرفع إلى كلام السلف رضوان

الله عليهم، لقد استصغرت نفسي وهو يقول: لقد تأثرت من أشرطتك السمعية كثيراً، فالحمد لله رب العالمين"، أقول: لقد قال لي الدكتور محمد عشا -وهو تخصص جراحة أعصاب- أن المدعي العام في المحكمة كان يقول في اثبات التهمة ضده:-

"صحيح أن عشا لا توجد ضده أدلة لكن تذكروا أنه ذكي وهذا يكفي"

"صحيح أن عشا لا توجد ضده أدلة لكن تذكروا أنه فلسطيني الأصل وهذا يكفي"

هذه هي مراسم المحاكم في القضاء البريطاني حين يكون المتهم أمامهم مسلماً.

هل أذكر لكم أخرى؟!

يكفيكم واحدة هنا:-

وزير الداخلية السابق ديفيد بلانكيت هو الذي وقع قانوناً عجيباً بين الحكومة البريطانية وبين أمريكا لتسليم من تطلبهم أمريكا من بريطانيا، وسبب عجبه أن هذا القانون ملزم لبريطانيا وغير ملزم لأمريكا، أي أن بريطانيا ملزمة بتسليم من تطلبه أمريكا، وأمريكا غير ملزمة بتسليم من تطلبه أمريكا، وكما يقولون "ما علينا" لأن المقصود غير هذا.

الذي حصل التالي:-

قامت أمريكا بطلب شخص بريطاني -غير مسلم- متهم عندها بأعمال في الإنترنت مخالفة للقانون الأمريكي، وقررت المحاكم تسليمه، لكن أعضاء البرلمان اعترضوا على هذا القرار، وكان أشد المعترضين هو ديفيد بلانكت نفسه، وقد إستجابت الحكومة لضغوط البرلمان وهي تدرس الآن إمكانية محاكمته هنا وتسليمه لأمريكا.

الاتفاقية إذاً هي ضد المسلمين، وضعت خاصة لأبي حمزة المصري وبقية الأخوان.

الوقت يتسع لحادثة أخرى:-

حكم على أبي حمزة المصري سنين طويلة تحت تهمة إثارة الكراهية، وبعبارات موهمة غير صريحة ألبسوها ما يريدون من المعاني، وبعد أيام حوكم قائد حزب بريطاني معروف بالتعصب اسمه نيكولاس غريفن بنفس التهمة وبعبارات أقوى من عبارات هتلر النازية وخرج البريطاني بريئاً.

لا بأس واحدة أخرى:-

عندما تم القبض على بابر أحمد قامت الشرطة بضربه ضرباً شديداً وهو وزوجته -العروس يومها- وصار وجهه كالقربة من الضرب، وظهرت الكدمات الشديدة على كل جسمه، ولما رفع الأمر إلى القضاء كان جواب القاضي:- شكراً للشرطة البريطانية في محافظتها على الأمن.

إنني أنا أبو قتادة أقر وأعترف أنني مع كوني فلسطينياً، ولدت في فلسطين، ومع معرفتي بتاريخ الحكومة البريطانية في جرائمها عامة وجريمتها الخاصة في فلسطين إلا أني كنت جاهلاً بهذا الحقد وهذه الكراهية التي تكنها هذه الحكومات البريطانية ضد الإسلام والمسلمين والعرب، ولذلك فأنا في مرات كثيرة أتمنى أن يسجن كل المسلمين هنا في بريطانيا -لمدة لا تقل عن سنة- ليروا بأم أعينهم حقيقة ما أقول، لأن مئات المجلدات لن توصل الحقائق التي يعيشها صاحبها عن كثب ورؤية وإحساس"[١].

ترى لو عومل سلمان رشدي كما عومل الشيخ أبو قتادة، فماذا سيكون رد فعل الدول الديمقراطية؟

لو أطلقنا لخيالنا العنان، فتصورنا أن سلمان رشدي قد ذهب لبلد تصور أنها ستوفر له الأمن، ثم فوجئ بشرطتها تقبض عليه، وتحبسه لسنوات عديدات دون توجيه أية تهمة، ثم تسعى في ترحيله لبلد يتوقع أن يعذب فيه، وربما يعدم. فلنتخيل بركان الثورة الذي سيشب في الغرب دفاعاً عن حرية سلمان رشدي!! وسيشعل تلك الثورة باسم الدفاع عن الحرية نفس الذين يسجنون الشيخ أبا قتادة ورفاقه وأمثاله، فتأمل وتألم وتعلم؛ ما هي الديمقراطية وما هي حقيقتها؟ وتأمل وتعلم وتألم من مدى تجاهل وتخاذل بعض المسلمين لمعاناة مجاهديهم وعلمائهم ودعاتهم -أمثال أبي قتادة والشيخ عمر عبد الرحمن وأسرى قاعدة بغرام وجوانتانامو وغيرهما- القابعين وراء قضبان سجون ومعتقلات الصليبيين وعملائهم.

"و" ولا يكتفي دعاة الحرية الغربية بسجن الدعاة المسلمين، بل يطالبون بقطع رؤوسهم، فتطالب إنجل راباسا وزملاؤها في كتابهم (ما بعد القاعدة) الصادر عن مؤسسة راند؛ بتوسيع استراتيجية (قطع الرؤوس) من القادة العملياتيين إلى المنظرين العقائدين، لأنهم هم الذين يبررون العمليات الإرهابية، وتشيد في هذا الصدد بسجن أبي حمزة المصري في لندن، وأبي بكر باعشير في إندونيسيا، وبالسعي في إجراءات ترحيل أبي قتادة للأردن[٢].

وقد أوردت سابقاً في مقدمة مبحث (محاربة العقيدة الجهادية) قول جاريت براتشمان الداعي لتصفية وإسكات مفكري الحركة الجهادية، الذين تجرأوا وردوا على مفكري مركز محاربة الإرهاب بالجيش الأمريكي وغيرهم من كتاب مفكري وكتاب الحرب الصليبية الفكرية. فتأمل.

"ز" كما أذكر القارئ الذكي بأن الدول الغربية الديمقراطية، التي تسعى لتعليمنا الحرية، هي التي احتلت بلاد المسلمين ومعظم آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية لقرون وارتكبت فيها من الفظائع ما يندى له

---

[١] بيان إلى المسلمين من أبي قتادة عمر بن محمود أبو عمر تعليقاً على قرار محكمة اللوردات البريطانية بإقرار الحكومة في تسليمه إلى الحكومة الأردنية.

[٢] Beyond al-Qaeda, p: xxiv & xxv.

الجبين، وهي التي نقلت -منذ النصف الثاني للقرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر- عبر الأطلنطي للعالم الجديد أكثر من ١٠ ملايين أفريقي في أكبر تجارة للعبيد في التاريخ[١].

وهذه الدول المعتدية الغازية المحتلة كانت دولاً ديمقراطية، وانتخبت حكومات ديمقراطية، احتلت بلادنا، وأقرت تصرفاتها برلمانات ديمقراطية. والحروب والمجازر التي تمارس ضدنا في فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال تشنها علينا دول ديمقراطية، بل إسرائيل التي تحتل فلسطين دولة ديمقراطية.

وبريطانيا العظمى حامية الحريات منعت الشيخ حسن البنا -رحمه الله- من الترشيح للبرلمان مرة، وأسقطته بالتزوير مرة تالية.

وأنا شخصياً لي تجربة مريرة مع ميراث بريطانيا العظمى حامية الحريات، فقد حكم علي في قضية الجهاد الكبرى بالسجن لثلاث سنوات، وبعد انقضاء المدة، تواطئت النيابة العامة مع الشرطة على فرض إجراءات الرقابة الجبرية علي، مع أن التهمة التي أدنت بسببها وهي حيازة أسلحة وذخائر، لا تنطبق عليها إجراءات الرقابة الجبرية، وكان علي بناء على تلك الإجراءات ألا أغادر منزلي من الغروب للشروق، وأن يتم التحقق من ملازمتي المنزل كل ليلة، وأن أثبت حضوري في قسم الشرطة كل جمعة، ويحق لضابط الشرطة أن يحتجزني في القسم طيلة الليل، إن أراد. فدفعني ذلك لأن أقرأ حول هذه الإجراءات، فاكتشفت أنها أدخلت في مصر على يد الاحتلال البريطاني لتقييد المقاومين للاحتلال. فأدركت النسب الخبيث.

والذي يجب أن ندركه وننتبه له أن الديمقراطية لا علاقة لها بالحرية ولا الأخلاق ولا القيم والمبادئ ولا أية مرجعيات، الديمقراطية تعني بوضوح سيادة الأغلبية وفقط، أو عملياً سيادة أغلبية النواب في جلسة قانونية للبرلمان، فلو قررت تلك الأغلبية أن تفعل ما تشاء، ولو كان تدمير شعب بأكمله، أو استعباده، فما فعلته شرعي وقانوني وديمقراطي. ولا معقب على تلك الأغلبية فيما تشاء وتختار!! ولذا فإن من أهم أسس الديمقراطية هو نسبية المعايير والمبادئ، وليس ثمة أية ثوابت.

يقول الشيخ حامد العلي عن العلمانيين العرب:

"إنهم لا يزيدون على استنساخ التناقض الغربي نفسه الذي صفق لنجيب محفوظ لاكتشافه العظيم!! في رواية "أولاد حارتنا"، وصفق لنصر أبو زيد لاكتشافاته المذهلة في الاستهزاء باليوم الآخر!! وفعل مثل ذلك لسلمان رشدي، وسائر الأذناب، زاعماً أنهم مفكرون أحرار، ثم هذا الغرب نفسه يقتل ٦٠٠٠٠ طفل عراقي كل شهر بسبب الحصار، ويسحق بدعمه للكيان الصهيوني شعباً بأكمله، وينفق على التسلح لإرهاب العالم آلاف

---

[١] ENCYCLOPEDIA BRITANNICA ٢٠٠٥ Delux Edition CD, slavery, Historical survey, Slave-owning societies; and Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Slavery in the United States, II. INTRODUCTION OF SLAVERY, A. Slave Trade.

المليارات، ويلقي بمليارات الأطنان من منتجاته الغذائية في المحيطات حفاظاً على أسعارها، بينما تموت شعوب تحت الفقر والجوع والتخلف، ويدعي مع ذلك أنه العالم الحر المتحضر.

وخلاصة وصفهم أن الغرب أرادهم أحراراً عندما يطعنون في دينهم، وأرادهم عبيداً له في كل ما سوى ذلك، فكانوا كما أرادهم في كلا الأمرين، ثم يتفاخرون علينا متباهين أنهم أبطال الحرية!!" [(١)].

[ج] هل الديمقراطية توفر المساواة؟

"١" المساواة الحقيقية هي بين الناس في أصل العبودية لله، ثم يتفاضل الناس بأعمالهم الصالحة. لن يتساوى الناس إلا إذا وقفوا جميعاً أمام خالقهم سواسية يتفاضلون بالتقوى، ولا يدين أحدهم بالحاكمية والتبعية للأخر، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

"٢" أما الديمقراطية فتفرق بين الناس بأمرين:

"أ" الأول هو القومية والجنسية، لأن الديمقراطية -كما سنرى- لا تتحقق إلا في الدولة القومية. فصاحب البلد وحامل الجنسية أعلى درجة ممن لا يملك الجنسية. والجنسية أمر لا خيار للإنسان فيه في الأغلب الأعظم.

"ب" ثم تفرق بين الناس ممن يحملون الجنسية بعدد المصوتين، فمن حق المصوتين الأكثر عدداً أن يسلبوا حرية ويقهروا المصوتين الأقل عدداً. وذلك معيار لا محل فيه للأخلاق والقيم والمبادئ.

ومن هنا يتضح الفرق بين دين الله الذي يفرق بين الناس بناء على العمل الصالح، وبين الديمقراطية التي تفرق بين الناس بالموازين الفاسدة. فالديمقراطية تفرق بين الناس على أساس القومية، لأنها تلازم الدولة القومية، ثم تفرق بين الناس في داخل الدولة على أساس الأغلبية، وهذا هو الفرق بين الإسلام الذي يفرق بين الناس بالأعمال الصالحة، وبين الديمقراطية التي تفرق بين الناس بالجنسية وعدد المصوتين.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في حجة الوداع:

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى. أَبَلَّغْتُ؟" قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثُمَّ قَالَ: "أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟" . قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ. ثُمَّ قَالَ: "أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟" . قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ: "أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟" . قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ. قَالَ: "فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ" . قَالَ: وَلَا أَدْرِي قَالَ: "أَوْ أَعْرَاضَكُمْ" . أَمْ لَا .

---

(١) حقيقة العلمانيين العرب لحامد بن عبد الله العلي.

"كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَلَّغْتُ؟" . قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: "لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ" [1].

"٣" ولهذا تدعو الدول الديمقراطية للمساواة ثم تتناقض معها في تصرفات عديدة، فهل مثلاً:

"أ" تتساوى الدول الخمسة القوية في مجلس الأمن مع سائر حكومات بني البشر؟

"ب" وهل تتساوى المحجبة مع العارية في فرنسا؟

"ج" وهل يتساوى العربي مع غير العربي في إسرائيل[2]؟

"د" وهل تتساوى المساجد مع الكنائس في سويسرا، التي تزعم الديمقراطية والعلمانية والحرية الدينية؟ سويسرا التي تم التصويت فيها على منع المآذن في مساجد المسلمين[3]. ترى لو منعت دولة تنتسب للإسلام أبراج الكنائس فيها بناء على استفتاء، فماذا سيكون رد الغرب اللاديني الديمقراطي؟ ألا يحتمل أن يصل الرد لحملة عسكرية لتحقيق الحرية الدينية؟

[د] هل الديمقراطية توفر العدالة؟

كما ذكرت أن الديمقراطية وهي استبداد هوى الأغلبية لا تلتزم بأي قيمة سوى هوى الأغلبية، ولذلك لا تلتزم بالعدالة، فمثلاً:

"١" أمريكا راعية الديمقراطية في العالم تمتنع عن التحاكم للمحكمة الجنائية الدولية، رغم أنها تلزم الآخرين كالسودان بالتحاكم لها.

"٢" وانجلترا حامية الديمقراطية أوقفت التحقيق في صفقة اليمامة، وتسترت على الرشاوى الضخمة التي اغتصبها كبار الأمراء السعوديين، حرصاً على المصالح الاقتصادية، التي يعتبرها القضاء البريطاني أهم من العدالة ومن النزاهة، وبهذا يصدق عليهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ. وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا"[4].

[٢] أمثلة من ثمار الديمقراطية.

---

[1] مسند أحمد- حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم- حديث رقم: ٢٢٣٩١ ج: ٤٧ ص: ٤٧٨.

[2] لمزيد من التفصيل حول الإجابة على هذا السؤال يمكن الرجوع إلى: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد السابع: إسرائيل.. المستوطن الصهيوني- الجزء الثالث: العنصرية والإرهاب الصهيونيان- الباب الأول: العنصرية الصهيونية- المضمون الصهيوني للممارسات الإسرائيلية العنصرية ج: ٧ ص: ٨٩ إلى ٩٢.

[3] إذاعة البي بي سي العربية- ١٢ ذو الحجة ١٤٣٠هـ الموافق ٢٩ نوفمبر ٢٠٠٩م.

[4] صحيح البخاري -كتاب الحدود- بَاب كَرَاهِيَةِ الشَّفَاعَةِ فِي الْحَدِّ إِذَا رُفِعَ إِلَى السُّلْطَانِ- حديث رقم: ٦٤٠٦ ج: ٦ ص: ٢٤٩١.

قبل أن أختم هذا العرض الموجز لاستبداد هوى الأغلبية، أسوق عدداً من الأمثلة على الفساد الذي جره ذلك الاستبداد على البشر والبشرية. تحت العناوين التالية:

[أ] الحروب والدمار الشامل.

[ب] إفساد البيئة.

[ج] الربا.

[د] موقف الحضارة الغربية من المرأة.

[هـ] الأمراض الرهيبة التي ابتليت بها البشرية بسبب النظام الغربي الديمقراطي.

[و] تفكك الأسرة.

[ز] تحريم تعدد الزوجات.

***

[أ] الحروب والدمار الشامل.

قامت الحكومات الديمقراطية بأشد وأعنف الحروب في التاريخ البشري، ففي الحربين العالميتين الأولى والثانية كانت أعداد القتلى كالتالي[١]:

	القتلى		
	قتلى المحاربين	قتلى المدنيين	المجموع
الحرب العالمية الأولى	أكثر من ١٠ ملايين	١٣ مليوناً	٢٣ مليوناً
الحرب العالمية الثانية	٢٥ مليوناً	٣٠ مليوناً	٥٥ مليوناً[٢]

وقد كانت الخسائر في الحرب العالمية الأولى غير مسبوقة في تاريخ البشرية، ولكن جاءت الحرب العالمية الثانية ففاقتها عنفاً وضراوة في الصراع بين دول كثير منها يزعم التحضر والديمقراطية.

[١] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, World War I, X. AFTERMATH OF WORLD WAR I, B. Legacy of the War, & World War II, IV. COST OF THE WAR; and ENCYCLOPEDIA BRITANNICA ٢٠٠٥ Delux Edition CD, World War I, Killed, wounded, and missing, & World War II, Killed, wounded, and missing.

[٢] تقدر الموسوعة البريطانية مجموع قتلى الحرب العالمية الثانية بأكثر من ٦٠ مليون قتيل.

وبعد الحرب العالمية الأولى حدثت صدمة ثقافية في العالم الغربي، الذي كان يمجد الفلسفة الإنسانية المادية التي تعظم من شأن الإنسان، وتتنبأ له بمستقبل باهر في طوره الحديث المتحرر من الكنيسة. حتى أن موسوعة إنكارتا تذكر؛ أن التفاؤل المتعلق بالطبيعة البشرية، وبالمستقبل الواعد للحضارة قد تبدد، لما قام جنود أكثر الدول حضارة على وجه الأرض بذبح بعضهم البعض بلا رحمة. وبدأ الفنانون ينتجون أعمالاً تسخر من الثقة في مبادئ الفلسفة الإنسانية، وتظهر دناءة الحياة المعاصرة. وبدأ علماء الاجتماع والنفس يبحثون عن سر العدوان البشري لتفسير العنف المعربد الذي وقع، وأخذ الفلاسفة ينعون تفسخ الحضارة وانحطاط الغرب(١).

يقول جون بورن(٢):

"إن الأثر الفعلي للحرب كان أخلاقياً، فإن الخسائر قد وجهت ضربة لثقة أوروبا بنفسها ولدعواها بالتفوق الحضاري"(٣).

والحديث عن الحرب العالمية الأولى يجرنا للحديث عن ثمرة أخرى من ثمار الديمقراطية التي لا تتقيد بأية أخلاق أو قيم، ألا وهي نكث العهود والمواثيق بلا تثريب ولا خجل، فالحكومة في أي بلد ديمقراطي يمكنها أن تتنصل من أي وعد أو عهد أو اتفاق طالما أن ما تقوم به يحظى بموافقة الأغلبية في البرلمان. ومن أظهر الأمثلة على ذلك نكث الحكومة البريطانية لوعودها للشريف حسين، الذي أغرته بالثورة على الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى في مقابل أن تمنحه ملك الدولة العربية بعد الحرب، ولكنها في نفس الوقت كانت تعد اليهود بفلسطين، وتتفاوض مع فرنسا على منحها الشام في اتفاقية سايكس بيكو، بل حرمته حتى من ملك جزيرة العرب فمنحت معظمها لابن سعود!!

يقول جون بورن:

"إنه بحلول عام ١٩١٨ كانت الحكومة البريطانية تنتهج سياسة شرق أوسطية استعمارية صريحة (بالتعاون مع فرنسا)، ففي نفس الوقت الذي كانت تشجع فيه توجهات القومية العربية، كانت تعد بدعم إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. لقد كانت حقاً حرب الخدع"(٤).

---

(١) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, World War I, X. AFTERMATH OF WORLD WAR I, B. Legacy of the War.

(٢) جون بورن محاضر أول للتاريخ المعاصر في جامعة برمنجهام.

(٣) THE OXFORD HISTORY OF MODERN WAR, p: ١٣٧.

(٤) THE OXFORD HISTORY OF MODERN WAR, p: ١٢٥.

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فعمت وطمت وزادت، واستخدم فيها لأول مرة في تاريخ البشر السلاح الذري، الذي قتلت به أمريكا راعية الديمقراطية وحامية حماها أكثر من ١٥٠٠٠٠ ياباني من أجل الإسراع بإنهاء حرب كانت هزيمة اليابان فيها مؤكدة.

ثم يثير الأمريكان سخرية العقلاء حينما يبررون امتلاك إسرائيل للسلاح الذري بأنها دولة ديمقراطية تستأمن على ذلك السلاح!!

[ب] إفساد البيئة والمناخ وتهديد مستقبل كوكب الأرض، الناتج عن ظاهرة الاحتباس الحراري، الذي تسبب فيه جشع الدول الغربية الديمقراطية، بزيادة انتاج الغازات المضرة المنبعثة من مصانعها، ذلك الجشع الذي تدفع ثمنه الأمم الفقيرة، التي تعاني من الجفاف والفيضانات وطغيان الماء على اليابسة.

[ج] الدول الديمقراطية يقوم اقتصادها أساساً على الربا، الذي يعد قيمة أساسية في الحضارة الغربية. والذي تفننوا فيه بكل الوسائل حتى تسببوا في الأزمة الاقتصادية الحالية.

[د] موقف الحضارة الغربية من المرأة:

الدول الغربية الديمقراطية التي تزعم الدفاع عن حرية المرأة، تنظر إليها كسلعة ووسيلة لجلب الزبائن والمتعة، وتعد تجارة توفير اللذة والفاحشة نشاطاً أساسياً في الحضارة الغربية. وسأحاول أن أقدم بعض الأمثلة بإيجاز على ذلك الجانب الذي يحرص العلمانيون وعملاء الغرب على إخفائه:

"١" حق العميل الدافع:

تتبنى الدول الغربية الديمقراطية مبدأ <u>حق العميل الدافع</u> في الحصول على مقابل ما يدفعه، حتى لو كان المقابل يتنافى مع الكثير من القيم الأخلاقية. وتحمي حق العميل بالقوانين الديمقراطية.

فالمضيفة في الطائرة لا تستطيع أن تتوقف عن الابتسام والمعاملة بلطف، وكذلك البائعة في المحل، وفتاة الإعلان المتعاقدة مع شركة الإعلان لا تستطيع أن تتجهم، ولا أن تحتج على الصورة التي يخرجونها فيها، والساقية في الملهى لا تستطيع أن تمتنع عن ارتداء الزي الذي يفرضه عليها الملهى، ولا أن تتجهم في وجه العملاء، والراقصة في الملهى لا تستطيع أن تمتنع عن الرقص لأنها تعتبر العملاء مثلاً حقيري المستوى، والمومس في بيت الدعارة المرخص لا تستطيع أن ترفض إتيان عميل لها لأنها لا ترغب فيه.

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري -رحمه الله- عن قطاع اللذة الذي تحميه القوانين الديمقراطية في المجتمعات العلمانية المعاصرة:

> *"وقطاع اللذة شكل جديد من أشكال الجماعات الوظيفية في العصر الحديث وهو جزء من قطاع تزجية أوقات الفراغ. ولفهم وضع هذه الجماعات، لابد أن نشير إلى أن <u>النموذج العلماني للمجتمع يدور حول مفهومين أساسيين هما المنفعة واللذة</u>، ولكن المفهومين متداخلان منذ البداية إذ أن ما يُدخل اللذة على أكبر عدد ممكن من الناس يُعدُّ خيّراً ونافعاً. بل إن المنفعة واللذة يكادان يكونان مترادفين لأن كليهما عُرِّف داخل*

إطار المرجعية المادية. ومع هذا، يبدو أن جانب المنفعة العملية هو الذي ساد في الفترة التقشفية التراكمية الرأسمالية حتى نهاية القرن التاسع عشر، ثم بدأ جانب اللذة يسود بالتدريج في الفترة الاستهلاكية أو الفردوسية، إلى أن أصبح مفهوماً أساسياً وهدفاً أسمى للإنسان في المجتمعات العلمانية. وقد عُرِّفت اللذة بشكل حسي إلى أن أصبح العنصر الجنسي تدريجياً أساساً فيها.

وقد نشأت الصناعات المختلفة للذة التي تهدف إلى إشباع الرغبات وإلى إثارتها في آن واحد، بل نجد أن عنصر اللذة بدأ يصبح عنصراً أساسياً في كثير من الوظائف العملية (إذ يُعرَّف نفع الوظيفة بمقدار إدخالها اللذة على المستهلك). ويُلاحَظ أن قطاع الإعلانات في المجتمعات الاستهلاكية من أهم القطاعات التي تلتقي فيها المنفعة باللذة، ولذا يُستخدَم الجنس للإعلان عن سلع نفعية محضة ليست لها علاقة باللذة مثل صابون الحمام والسفر على الطائرة، وتُستخدَم أجمل الفتيات بأكثر الطرق إثارة للإعلان عن أكثر السلع نفعاً! وبعد أن كانت البغيّ في الماضي تقوم بإشباع اللذة بمعزل عن المنفعة، بدأت تظهر شخصيات أخرى تُعَدُّ تنويعات حديثة على شخصية البغي (تختلف في قربها وبُعدها عنها) تمزج المنفعة واللذة.

....

ومن أهم التنويعات الحديثة على هذا النمط (حيث يصبح النفع الأساسي للوظيفة هو اللذة التي تمنحها للمستهلك) نجمات السينما، وخصوصاً ملكات الإغراء الجنسي (بالإنجليزية: سكس كوينز ***sex queens****). فالنجمة السينمائية هي العنصر الأساسي في استثمار ضخم هو صناعة الأفلام التي تهدف إلى إشباع رغبة المتفرجين في اللذة، ولذا تضع النجمة السينمائية نفسها (قلباً وقالباً، روحاً [إن كان هناك مثل هذا الروح داخلها] وجسداً) تحت تَصرُّف المجتمع: مخرج الفيلم ووسائل الإعلام والجمهور الذي يحلم بنجمته. ولذا، يتعين عليها أن تربي أردافها وأن تظهر دائماً في أحسن صورة وأكثرها خلاعةً وترتدي آخر الموضات. ولابد أن يكون الماكياج فاقعاً وكذلك الأصباغ وأن تعطي إشارات حسية واضحة (فالاحتشام يشوه صورتها الإعلامية التي يروج لها وكيل أعمالها). كما يتعيَّن عليها ألا تظهر "على الطبيعة" وإلا أصبحت بشراً عادياً مثلنا وانفض المعجبون عنها (ولذا، نجد أن رؤية النجمة "على الطبيعة"، تُعدُّ دائماً مسألة نادرة تثير الدهشة وخيبة الأمل، وعادةً ما يُقال "إن النجمة فلانة عادية جداً في الحياة الواقعية"!). كما أن حياتها الخاصة لابد أن تكون جزءاً من الصورة الإعلامية، تُوظَّف في خدمة النجومية. وحينما ترتكب فضائح أخلاقية، فهذه مسألة طريفة ومسلية. وتظهر مجلات كاملة مهمتها تزويد*

الجمهور بآخر الأخبار المسلية عن فضائح النجوم وزيجاتهم وطلاقهم ومغامراتهم وصورهم العارية وغير العارية، وهذه عملية حوسلة تعاقدية كاملة.

وتُعَد المضيفة أيضاً استمراراً لنفس النمط، فمهمتها إسعاد الركاب لا مجرد خدمتهم. ولذا، فلابد أن تكون جميلة وصغيرة ولابد أن تكون أنثى (وكم ستكون خيبة أمل الركاب لو أن شاغل هذه الوظيفة ذكر له شوارب)، ولابد أن تبتسم المضيفة للجميع وأن تكون ظريفة معهم ومع أولادهم وأن تقول في نهاية الرحلة ذات الهدف العملي النفعي (الانتقال من مكان لآخر) "أرجو أن تكونوا قد استمتعتم برحلتكم". ومع هذا، لابد أن تظل العلاقة تعاقدية باردة، ولذا فهي ترتدي زياً يفصلها عن الركاب، كما ينبغي ألا تقضي وقتاً طويلاً مع راكب بعينه، أي لابد أن توزع وقتها بطريقة تعاقدية باردة (ولذا، فإن نصيب راكب الدرجة الأولى من وقت المضيفة يزيد عن نصيب راكب الدرجة الثانية). ولعل ما يلخص الموقف هو العبارة الإنجليزية "كوفي، تي، نوت مي coffee, tea, not me" (أي: أطلب ما شئت، قهوة أو شاياً، وليس المضيفة نفسها)، وفي رواية أخرى "كوفي، تي، أور مي coffee, tea, or me" (أي: أطلب ما شئت، قهوة أو شاياً، أو حتى المضيفة نفسها). والمسألة على كلٍّ خاضعة للتفاوض، كما هو الحال في معظم العلاقات الوظيفية، فهي موجودة في بقعة رمادية، ولكن البنية الأساسية لهذه العلاقة تظل تعاقدية تماماً. وتنضوي العاملات في المطاعم والملاهي تحت نفس النمط حيث تختلط المنفعة باللذة".[1]

"٢" البغاء:

يعد البغاء نشاطاً اقتصادياً هاماً في كثير من الدول الديمقراطية بل إنه يعد من أهمها في البعض منها.

ففي معظم المدن الغربية يعد البغاء نشاطاً مقبولاً أو متسامحاً معه، ويكون هم أجهزة تطبيق القانون تتبع الجرائم التي تصاحبه فقط.

ففي بعض البلاد مثل تايلاند يعد أهم مصدر للدخل القومي، وفي هولندا يعد البغاء مشروعاً، وإن كان متغاضىً عنه لقرن سبق، أما في الدول الاسكندنافية فتهتم الإجراءات القانونية بتأكيد الإجراءات الصحية والفحص المتكرر وضرورة علاج من يصاب بالأمراض الجنسية، وفي بريطانيا منع القانون الصادر في عام ١٩٥٩م الإغواء العلني الظاهر فقط، ولكنه سمح للمومسات بممارسة البغاء في منازلهن. أما في

---

[1] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الخامس: الجماعات الوظيفية- الباب الثانى: الجماعات الوظيفية والحلولية والعلمانية الشاملة- أشكال جديدة من الجماعات الوظيفية فى المجتمعات الحديثة- ٣- قطاع اللذة ج: ١ ص: ٢٣٧ و٢٣٨.

الولايات المتحدة فقد سمح بالبغاء قانونياً فقط في ولاية نيفادا، بينما أظهرت استطلاعات الرأي أن قرابة نصف الأمريكيين يفضلون عدم تجريم البغاء في كل أمريكا[١].

ولكن في كل الحالات فإن العقوبة -في البلاد التي تعاقب على البغاء- تقع على المومس فقط، أما الزاني فبريء لا أثم عليه ولا حرج.

ويلاحظ الدكتور عبد الوهاب المسيري أن الإنسان الذي خلقه الله متكاملاً مركباً قد تحول لإنسان موظف خاضع لقوانين الطبيعة دون مرجعيات قيمية، ويرى أن عملية التحويل هذه لها ثلاثة أوجه: الوجه الاقتصادي وهو ما يسميه (باللحظة السنغافورية)، والوجه الإمبريالي الصهيوني أو النازي وهو ما يسميه (باللحظة النازية)، والوجه الجسماني الشهواني وهو ما يسميه (باللحظة التايلاندية)، وعن الأخيرة -وهي التي تعنينا هنا في حديثنا عن الديمقراطية وثمارها اللاأخلاقية التي تحميها بقوانينها- يقول:

"اللحظة التايلاندية: نسبة إلى تايلاند، وهي بلد آسيوي أصبح قطاع البغاء فيه من أهم مصادر الدخل القومي وتكوَّن فيه لوبي قوي من ملوك البغاء والمخدرات حتى أصبح من المستحيل الآن تَخيُّل تايلاند بدون هذا القطاع البالغ الأهمية. واللحظة التايلاندية تعبير عن الإنسان الجسماني حيث يتحول الإنسان تماماً إلى أداة للمتعة (في عصر ما بعد الحداثة والاستهلاكية العالمية). وإذا كانت الدعوة إلى تحويل كل البلاد إلى تايلاند مسألة صعبة، إذ يفزع الناس من نزع القداسة تماماً عنهم، إلا أن الحديث عن السياحة وتطوير القطاع السياحي يخبئ عادةً نزعة تايلاندية عميقة يتحاشى الجميع مواجهتها.

....

ونحن نعرف تماماً، من خلال معرفتنا بالترشيد الإجرائي أو الأداتي، وأخلاق الصيرورة، أن طبيعة العمل والهدف منه ليست لهما أية أهمية، فالمهم هو كيفية إدارته (الأداء والإجراءات) وكيفية توظيف الطاقة البشرية بأقل التكاليف لتحقيق أعلى عائد.

....

ولا يتحدث أحد أثناء اللحظة السنغافورية عن توظيف الإنسان وتَسلُّعه وإنما عن "تحسين مستوى المعيشة وزيادة الإنتاج، وتوفير الرفاهية والرخاء لأكبر عدد ممكن"، دون أية إشارة للأبعاد الكلية والنهائية. وتحييد المصطلحات في حالة اللحظة التايلاندية يستحق قدراً من التوقف، فإذا كان تحييد المصطلح في حالة اللحظة النازية مأساوياً، فهو هنا ولا شك كوميدي. إذ يتحول البغاء إلى أهم القطاعات الاقتصادية (كما هو الحال في بعض الدول الآسيوية). ومن ثم، تصبح البغيّ (التي يُقال لها في اللغة التقليدية

---

[١] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Prostitution, & The Netherlands; and ENCYCLOPEDIA BRITANNICA ٢٠٠٥ Delux Edition CD, prostitution.

"بروستيتيوت prostitute") في بداية الأمر مجرد عاملة جنس (بالإنجليزية: سكس وركر Sex worker)، عضو في البروليتاريا الكادحة تقوم بنشاط اقتصادي منتج، ثم تتحول بالتدريج إلى بطلة قومية. وبعد قليل، قد يصبح من واجب الجميع أن يؤدوا واجبهم القومي بتجريد كامل وحياد شديد. (والعياذ بالله)"[١].

ومما هو جدير بالذكر أن تشجيع تجارة البغاء أو السماح بها أو غض الطرف عنها، يقتضي أيضاً غض الطرف عن تجارة الرقيق الأبيض، التي تعد الرافد الأساسي للبغايا، وجلبهن من الدول التي توفرهن بأجور أرخص كدول آسيا وأوروبا الشرقية.

هذه هي الديمقراطية وما جلبته على المرأة، إذ قننت تحويل المرأة لسلعة لإرضاء الزبائن الدافعين، وأباحت لها في الكثير من البلدان أن تبيع جسدها، وفي البلاد التي تجرم البغاء تعاقب البغي فقط، بينما ينجو الزبون الدافع من العقوبة، فهل هذا نظام تشريعي يحترم المرأة؟ أم أنه كما أسلفت يخضع لهوى الأغلبية، التي تتلهف على المتاجرة بجسد المرأة (السلعة).

[هـ] الأمراض الرهيبة التي ابتليت بها البشرية بسبب النظام الغربي الديمقراطي:

سأتعرض هنا بإيجاز لبعض الأمراض الرهيبة التي ابتليت بها البلدان الغربية، وسأشير بإيجاز للاضطرابات العقلية والانتحار والأمراض الجنسية والإدمان.

"١" الاضطرابات العقلية:

في عام ١٩٩٩م أصدر كبير أطباء الولايات المتحدة أول تقرير له عن الأمراض العقلية، وجاء فيه أن ١ من ٥ في الولايات المتحدة يعاني من مرض عقلي في أي سنة من السنين، كما قرر أن المرض العقلي هو ثاني أهم سبب للإعاقة، وثاني أهم سبب للموت المبكر في الولايات المتحدة. كذلك ذكر التقرير أن قرابة ٥٠ مليون أمريكي لديهم مرض عقلي قابل للتشخيص في أي وقت من الأوقات[٢]. كذلك أظهرت دراسة قام بها مسح الأمراض المتشاركة في المعهد القومي للصحة العقلية بالولايات المتحدة أن ٤٦,٤% من الأمريكيين فوق ١٨ سنة قد عانوا في فترة من حياتهم من مرض عقلي[٣].

---

[١] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الباب السادس: مصطلحات جديدة لبلورة النموذج الكامن- اللحظة العلمانية الشاملة النماذجية ج: ١ ص: ١٦٤ إلى ١٦٦.

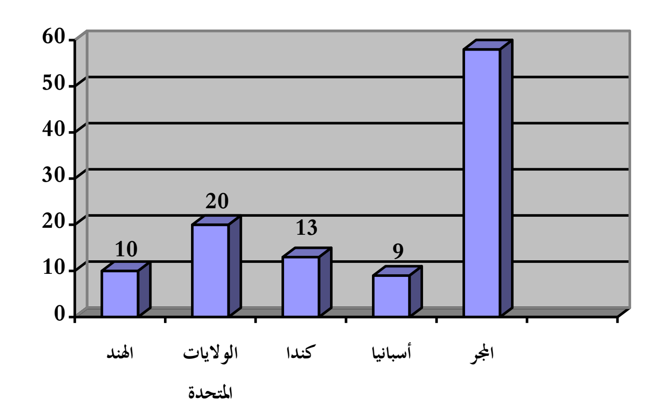
[٢] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Mental Health, Archives, ١٩٩٩: Mental Illness: Surgeon General Issues First Report on Mental Illness.

[٣] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Mental Illness, VI. PREVALENCE.

فقارن هذه النتائج ببلد مثل الهند، الذي يبلغ فيه معدل انتشار الأمراض العقلية ٣٥ لكل ١٠٠٠٠٠ من الجمهور[١].

"٢" الانتحار:

الانتحار ليس دائماً مرضاً عقلياً، ولكنه نقص اجتماعي خطير، وخاصة إذا ارتفعت معدلاته، لأنه يعبر عن يأس قطاع من الجمهور من الحياة، وبؤس المصير الذي يقودهم له نظامهم. ومن الجدير بالذكر أن أعداد المنتحرين تخفي خلفها قاعدة أوسع من اليائسين والمحبطين، الذين لم يتخذوا قراراً بالانتحار.



رسم بياني يبن

معدل الانتحار السنوي لكل مئة ألف من الجمهور في عدد من الدول[٢]

وأكثر الدول في معدلات الانتحار تضم ليتوانيا وروسيا وبيلروسيا وأوكرانيا وسريلانكا ولاتفيا. أما أقل الدول في معدلات الانتحار فتضم هندوراس والدومينيكان والأردن ومصر وسوريا[٣].

---

[١] SHORT TEXTBOOK OF PSYCHIATRY, ٢٩. COMMUNITY PSYCHIATRY p: ٢٩,٢.

[٢] CURRENT Medical Diagnosis & Treatment, ٢٥ Psychiatric Disorders, MOOD DISORDERS (Depression & Mania), Complications, p: ١٠٦٧; Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Suicide, II. PREVALENCE AND TRENDS; and SHORT TEXTBOOK OF PSYCHIATRY, ٢٧. PSYCHIATRIC EMERGENCIES. I. SUICIDE. p: ٢٧,١.

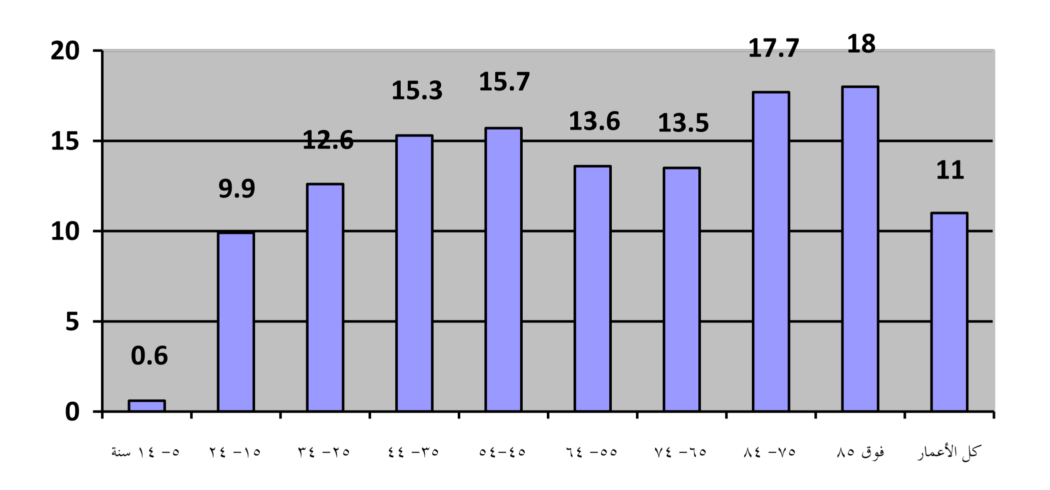
ومعدل الانتحار الذي أثبته في الرسم البياني للولايات المتحدة (٢٠ لكل مئة ألف) نقلته عن (CURRENT Medical Diagnosis & Treatment)، أما الرقم الذي أوردته موسوعة إنكارتا فهو (١١- ١٣ لكل مئة ألف). وعلى كل حال فهو معدل مرتفع على أي تقدير.

[٣] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Suicide, II. PREVALENCE AND TRENDS.

ويلاحظ أن المجموعة الأولى تضم ست دول خمسة منها تحولت من النظام الشيوعي للنظام الديمقراطي الرأسمالي.

ويلاحظ ازدياد معدلات الانتحار بين المصابين بعدد من الأمراض المستعصية، إلا أن من أبرزهم مرضى الإيدز بصفة خاصة، الذين تزيد معدلات الانتحار بينهم ثلاثين ضعفاً عن عموم الجمهور[١]. مما يوضح مدى بشاعة المآسي المركبة لمخالفة الفطرة.

أما في الولايات المتحدة بالذات فإن الانتحار هو أحد أكثر عشر أسباب للموت، وتعد أعلى معدلاته بين الرجال البيض الذين تزيد أعمارهم عن ٧٥ سنة.



رسم

بياني يبين معدلات الانتحار لكل مئة ألف للفئات العمرية المختلفة في الولايات المتحدة[٢]

ويرجع ذلك إلى طبيعة المجتمع المادية القاسية، التي تؤدي للتفكك الأسري وفقدان التراحم، فلا يجد المسنون إلا دور العجزة لتؤويهم، أضف لذلك ارتفاع نسبة الأمراض في المسنين، وطبيعة الحياة المادية التي لا تهتدي بالدين، مما يودي بالكثير من المسنين إلى هوة اليأس والقنوط.

ويعد الانتحار هو الثالث من أهم أسباب الموت في الفئة العمرية من ١٥- ٢٤ سنة من الأمريكان، وقد تضاعف معدل انتحارها ثلاث مرات في الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٩٠ مرتفعاً من ٤,٥ إلى ١٣,١، ثم تدنت قليلاً وثبتت على ١٠ لكل مئة ألف. ومن أهم أسباب هذا التضاعف ازدياد معدل الأمراض العقلية وتعاطي المخدرات في هذه الفئة العمرية. ومن اللافت للانتباه أيضاً أن ٩٠% من المنتحرين هم من البيض[٣]. الذين يفترض أنهم أكثر الأجناس تميزاً في الولايات المتحدة، ولكن الأرقام تبين أنهم أكثر

---

[١] CURRENT Medical Diagnosis & Treatment, ٢٥. Psychiatric Disorders, MOOD DISORDERS (Depression & Mania), Complications, p: ١٠٦٧.

[٢] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Suicide, II. PREVALENCE AND TRENDS.

[٣] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Suicide, II. PREVALENCE AND TRENDS.

الأجناس يأساً وقنوطاً. مما يدل على أن حضارة الرجل الأبيض قد جلبت عليه وعلى البشرية البؤس والإحباط.

"٣" الأمراض الجنسية:

تعد الأمراض الجنسية إحدى الثمار الخبيثة التي أثمرتها الديمقراطية، التي تدافع عن الحرية الجنسية بفلسفتها ودساتيرها وقوانينها. والمؤسف أن ازدياد انتشار الأمراض الجنسية -وعلى رأسها الإيدز- لم تدفع الديمقراطيات عامة والغربية خاصة للتأمل والتدبر ومراجعة النفس، بل على العكس صاحبه انتشار أكذوبتين:

الأولى: أن الإصابة بالأمراض الجنسية هي نتيجة الجهل بالقواعد الصحية، وأن من يلتزم بالقواعد الصحية يأمن من الإصابة بها، ويتناسون أنهم كلما احترزوا من مرض نشأ آخر، ولا يعلم -إلا الله- ماذا يخبئ الغيب لهم؟

والثانية: أن المصابين بالأمراض الجنسية -وخاصة الإيدز- هم ضحايا يجب العطف عليهم، ورعايتهم والشفقة عليهم، وعدم تعييرهم بما وقعوا فيه، وهذه نصف الحقيقة، التي هي أسوأ من الكذب. فلا شك أن الشفقة والرحمة بالمرضى ورعايتهم والعطف عليهم خلق كريم لا يختلف فيه أحد، ولكن النصف الآخر من الحقيقة؛ أن المريض يجب أن يعرَّف بسبب مرضه لكي يحذره هو وغيره، فالمصاب مثلاً بسرطان الرئة من كثرة التدخين يجب أن يعرف مضار التدخين، وهذا واجب طبيبه المعالج، وكذلك المصاب بسوء التغذية، يجب على معالجه أن يرشده؛ أن سبب مرضه هو سوء التغذية، وكذلك المصاب بسرطان المثانة نتيجة للبلهارسيا أو للعمل في صناعات الأصباغ، لا بد أن يحذره طبيبه من سبب مرضه ويعرفه به، وكذلك المصاب بمرض جنسي وبالإيدز خاصة، لا بد أن يعرف أن سبب مرضه؛ هو -في الأغلب الأعم من الأحوال- بسبب الانحلال الخلقي والإباحية الجنسية وخاصة الشذوذ الجنسي. وأن عليه بالتالي أن يقلع عن هذا المسلك، ويتوب لله ويراجع أسلوب حياته، ليتبع سلوكاً من العفة والطهارة، وليس في هذا تعييراً له بالذنب، ولا يعني أن غيره أفضل منه، فكل البشر خطاءون، وباب التوبة مفتوح، ومن يتب يبدل الله سيئاته حسنات، ويفرح بتوبته، ويعوضه خيراً. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ فَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ"[1].

[1] مسند أحمد- مسند أنس بن مالك رضي الله عنه- حديث رقم: ١٣٠٧٢ ج: ٣ ص: ١٩٨.

أمر آخر أود أن أشير إليه فيما يتعلق بالإيدز خاصة والأمراض الجنسية عامة، وهو أن الكنيسة الكاثوليكية التي تحرم الطلاق وترحب بالترهبن وتمتنع عن قبول عشرات الآلاف من طلبات الرهبان والراهبات الراغبين في الخروج من سلك الرهبنة، معاداة للفطرة التي خلق الله الناس عليها، وعدولاً عن سنة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم، هذه الكنيسة تحرم على المريض بالإيدز أن يستخدم الواقي الذكري لمنع الحمل، لأن منع الحمل في قولها حرام على كل حال، ولذا على المريض بالإيدز التابع لها إما أن يعتزل زوجته تماماً، ولا يأتيها، وبالتالي يعادي فطرته، ويحرم زوجته من حقها، ويعرضها للفتنة، حتى نهاية عمرها أو عمره، لأن الطلاق محرم في العقيدة الكاثوليكية، وإما أن يأتيها فيصيبها وولدها بالإيدز، حتى ترضى الكنيسة ويرضى فقهها الأعوج.

وازدياد انتشار الأمراض الجنسية بدأ بصورة ملحوظة في الستينيات من هذا القرن حيث صاحب ما سمي "بالثورة الجنسية"، التي اعتبرها العلمانيون الغربيون رمزاً من رموز تحرر الإنسان من الدين وقيود التخلف. حتى أن المومسات لم يعدن في الولايات المتحدة يمثلن إلا نسبة صغيرة من حالات الأمراض المنقولة جنسياً، لأن الحرية الجنسية المتزايدة جعلت صغار السن والشباب هم المصدر الأساسي لتلك الأمراض[١].

وقد أظهرت الدراسات الحديثة أنه نتيجة لازدياد الإباحية الجنسية منذ الستينيات فإن قرابة ٥٠% من المراهقين تحت سن ١٥ عاماً و٧٥% تحت سن ١٩ عاماً قد مارسوا الجماع، مما أدى لزيادة معدل المواليد غير الشرعيين والأمراض المنقولة جنسياً[٢].

حتى أن الأمراض المنقولة جنسياً أصبحت من أكثر أنواع العدوى شيوعاً، ففي الولايات المتحدة يصاب سنوياً ١٥ مليون شخص بواحد أو أكثر من تلك الأمراض. والولايات المتحدة لديها أعلى نسبة إصابة بالأمراض المنقولة جنسياً في كل العالم الصناعي، فقرابة نصف الأمريكيين يصابون بتلك الأمراض قبل سن ٣٥ سنة[٣].

وتتزايد حالات الإصابة بتلك الأمراض -في العقود الأخيرة- حتى مع الزيادة في استخدام الواقي الذكري، لأن سن ممارسة الجنس -لأول مرة- قد تدنى، كما أن عدد الشركاء الذين يمارس معهم الشخص الواحد الجنس قد ازداد[٤].

هذا عن الأمراض المنقولة جنسياً عامة، أما عن الإيدز خاصة فإن عدد المصابين به يقدر بنحو ٤٠ مليون مريض في العالم، وتبين الإحصاءات الحالية أن سبعمائة ألف أمريكي مصابون بفيروس إتش آي

---

(١) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Prostitution.

(٢) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Adolescence.

(٣) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Sexually Transmitted Infections.

(٤) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Sexually Transmitted Infections.

في، ٥١% منهم من الرجال الشواذ أو ثنائيي الممارسة، و٢٦% منهم من معاشري الجنس الآخر، الذين يتعاطون المخدرات بالوريد، و٢١% منهم من معاشري الجنس الآخر الذين لا يتعاطون المخدرات بالوريد.

ويبين الجدول التالي نسب خطورة الإصابة بالإيدز المنقول جنسياً، حسب ترتيب الأعلى خطورة فالأدنى[١]:

نوع الممارسة	نسبة الإصابة
المستقبلون في الجماع الشرجي	١: ٣٠ إلى ١٠٠
المولجون في الجماع الشرجي	١: ١٠٠٠
المستقبلات في الجماع المهبلي	١: ١٠٠٠
المستقبلون في الجماع الفمي مع القذف	١: ١٠٠٠
المولجون في الجماع المهبلي	١: ١٠٠٠٠

ومن الأرقام السابقة يتبين أن أكثر المتعرضين للإصابة بالإيدز هم اللواطون المستقبلون، يليهم اللواطون المولجون والمستقبلات في الجماع المهبلي، وأكثرهن تعرضاً للخطر المومسات، وتتزايد خطورة ونسبة الإصابة إذا اقترن بذلك تعاطي المخدرات بالوريد. وقد أشرت من قبل إلى أن نسبة الانتحار في مرضى الإيدز تزيد ٣٠ ضعفاً عن غيرهم من المنتحرين. ومن ذلك يتبين أنه كلما زادت مخالفة الفطرة كلما زادت المصيبة.

فهل اتعظ الغرب بشيء من ذلك؟ بالعكس؛ ففي عام ١٩٩٦ تم تعديل قانون حقوق الإنسان الكندي ليجرم التمييز المنبني على الميل الجنسي. ودول أخرى جرمت ذلك أيضاً مثل هولند والنرويج والسويد وجنوب أفريقيا وأستراليا ونيوزيلندا[٢].

ولم يتوقف الأمر على تجريم التمييز ضد الشواذ، بل تعداه إلى تقنين زواجهم، فهولندا عام ٢٠٠٠ كانت أول دولة تسمح للزوجين الشاذين بأن يتزوجا! (تأمل) بنفس الشروط القانونية للزوجين المختلفين جنسياً[٣]، أي البشر العاديين! ثم تبعتها بلجيكا عام ٢٠٠٣ وأسبانيا وكندا في ٢٠٠٥، واعترفت عدد من الدول الأوروبية بزواج المثليين جنسياً، ولكنها أسمته "القران المدني" أو "الشراكة المسجلة" مثل المملكة المتحدة عام ٢٠٠٥. ثم تبعتهم جنوب أفريقيا عام ٢٠٠٦. أما في الولايات المتحدة فيمكن للشواذ أن

(١) CURRENT Medical Diagnosis & Treatment, ٣١. HIV Infection, P.١٣١٩.
(٢) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Homosexuality, III. GAY RIGHTS ACTIVISM.
(٣) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, The Netherlands.

يتزوجوا زواجاً رسمياً في ولاية ماساتشوستس، ولكن ولايات عديدة تسمح به تحت مسمى "القران المدني" أو "الشراكة المنزلية" مثل كونكتيكت ونيوجيرسي وفيرمونت وفلوريدا[١] .

بل وأنشئت كنائس لخدمة الشواذ جنسياً. وفي عام ٢٠٠٣ عينت الكنيسة الأسقفية بالولايات المتحدة شخصاً يجاهر بشذوذه أسقفاً لنيو هامشير، وهو يعد أول أسقف مجاهر بشذوذه في الكنائس الأمريكية[٢].

وأذكر أني كنت في لندن في أواخر الثمانينيات، وكانت الكنيسة الإنجليزية تعقد مؤتمراً لمناقشة تعيين قسيسين شواذ، وشاهدت حينها مناقشة في التلفاز البريطاني حول المسألة، وقد استضاف البرنامج قساً معارضاً وآخر مؤيداً، فقال القس المعارض: إن تعيين الشواذ في الكنيسة يتعارض مع ما في الكتاب المقدس، فرد القس المؤيد للشواذ ببساطة أدهشتني بأن الكتاب المقدس كثيراً ما تغير!!

ولا أدري إذا وقف أولئك القسيسون يعظون المصلين بما في قصة لوط -عليه السلام- من عبر وعظات، فماذا سيقولون لهم؟ هل سيقولون لهم إن لوطاً كان متشدداً متحجراً يحرم قومه من حقوقهم، ويتدخل في حريتهم الشخصية؟ أم سيسقطون قصة لوط من التوراة والإنجيل؟ اللذين كثيراً ما تغيرا!!

وصدق الله العظيم: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وفي عام ٢٠٠٣ أبطلت المحكمة العليا في الولايات المتحدة كل القوانين التي تجرم الشذوذ الجنسي[٣].

وصدق الله العظيم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ

---

[١] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Homosexuality, IV. SAME-SEX UNION AND GAY MARRIAGE.

[٢] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Homosexuality, V. OTHER ARENAS OF ACTIVISM.

[٣] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Homosexuality, VI. RECENT DEVELOPMENTS.

﴿ ٤٣ ﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿ ٤٤ ﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

يقول الدكتور المسيري رحمه الله:

*"يتحدثون في الغرب الآن عن "التفضيل أو الميل الجنسي" (بالإنجليزية: سكشوال بريفيرنس **sexual preference**) بدلاً من الطبيعة الجنسية الثابتة للإنسان، بمعنى أن الإنسان يختار الممارسات أو الهوية الجنسية التي يميل لها. فإذا كان المرء ذكراً، فيمكنه أن يمارس الجنس مع ذكر مثله، فهو جنسمثلي أو شاذ جنسياً (بالإنجليزية: هوموسكشوال **homosexual**) مثل .... وإذا كان المرء أنثى، فهي تمارسه مع أنثى مثلها، فهي مساحقة (بالإنجليزية: لزبيان **lesbian**) مثل كثير من زعيمات حركة التمركز حول الأنثى. وهناك من يفضل الآن ممارسة الجنس مع الحيوانات (بالإنجليزية: زوفيليا **zoophilia**)، ويُقال إن ..... كان يحب ملاعبة القرود بطريقة جنسية، كما أن هناك من يفضل ممارسة الجنس مع الأطفال (بالإنجليزية: بيدوفيليا **pedophilia**) كما يُقال عن....... ويمكن إضافة أذواق غير معروفة في البلاد المتخلفة، مثل "ترانسفستايت **transvestite**" وهو الميال إلى ارتداء أزياء الجنس الآخر والتشبه بسلوكه، "أندروجيناس **androgynous**" وهو الخنثى الذي لا يمكن تصنيفه ذكراً أو أنثى (ويؤكد مايكل جاكسون هذا المظهر في هويته). وهناك "ترانس سكشوال **transsexual**" وهو شكل طريف جداً بدأ يظهر مؤخراً في الغرب، فهو مثلاً رجل يصر على أن يكون امرأة، بل يحاول أن تُجرَى له عملية جراحية ليصبح من الجنس الآخر (والعكس بالعكس).*

....

*ونضيف إلى هذه القائمة الترانسفيرية "أسكشوال **asexual**" وهو المحايد جنسياً تماماً. وهناك أخيراً (حتى لا ننسى الأصل) "هيتروسكشوال **heterosexuel**" وهم البشر التقليديون العاديون الذين يختارون أن يشتهوا أعضاء من الجنس الآخر (وإذا أردنا أن نتوخى الدقة تماماً، فإن علينا أن نُسقط كلمة "الأصل" لأن المساواة تحت رايات ما بعد الحداثة تصل إلى درجة إنكار الأصل والمركز تماماً)"* [١].

ويقول الأستاذ الشهيد –كما نحسبه– سيد قطب رحمه الله:

---

[١] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية– المجلد الأول: الإطار النظري– الجزء الرابع: العلمانية الشاملة– الباب الثامن: العلمانية الشاملة والإمبريالية– الترانسفير: رؤية معرفية ج: ١ ص: ١٩٦ و١٩٧.

"إن المجتمعات التي تسود فيها القيم والأخلاق والنزعات الحيوانية، لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة، مهما تبلغ من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي! إن هذا المقياس لا يخطيء في قياس مدى التقدم في الإنسان ذاته.

وفي المجتمعات الجاهلية الحديثة ينحسر المفهوم الأخلاقي بحيث يتخلى عن كل ما له علاقة بالتميز الإنساني عن الحيوان. ففي هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية -ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة- رذيلة أخلاقية! إن المفهوم "الأخلاقي" ينحصر في المعاملات الشخصية والاقتصادية والسياسية -أحياناً في حدود مصلحة الدولة!- والكتاب والصحفيون والروائيون وكل أجهزة التوجيه والإعلام في هذه المجتمعات الجاهلية تقولها صريحة للفتيات والزوجات والفتيان والشبان: إن الاتصالات الجنسية الحرة ليست رذائل أخلاقية!

مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة غير متحضرة -من وجهة النظر "الإنسانية ". وبمقياس خط التقدم الإنساني.. وهي كذلك غير إسلامية.. لأن خط الإسلام هو خط تحرير الإنسان من شهواته، وتنمية خصائصه الإنسانية، وتغلبها على نزعاته الحيوانية.."[1].

"٤" الإدمان:

الإدمان هو أحد الثمرات الخبيثات للعلمانية الديمقراطية، وسأشير هنا -بعون الله- بإيجاز لنوعين من الإدمان:

"أ" الإدمان على الكحول.

"ب" الإدمان على المخدرات.

***

"أ" الإدمان على الكحول:

معاقرة الخمر وما يترتب عليها من مشاكل خطيرة مختلفة هي إحدى السمات البارزة للحضارة الغربية، التي تزعم العقلانية والرقي بالإنسان وتحريره إلى آخر دعاواها.

وكيف يمكن أن تكون حضارة عاقلة محترمة، وهي تبيح وتقنن وتحمي تغييب العقل؟

{١} مدى انتشار المشاكل المتعلقة بتناول الكحول وإدمانه:

والإسراف في معاقرة الخمر والإدمان عليها ليس من المشاكل الهينة في العالم الغربي، بل هو من المصائب المستفحلة المستشرية.

---

[1] في ظلال القرآن- سورة الأعراف- الآيات١ إلى ٩- ج: ٣ ص: ١٢٥٨ إلى ١٢٥٩.

فقد قدرت منظمة الصحة العالمية أن ٧٦ مليون شخص في العالم يعانون من مشاكل تتعلق بشرب الكحول[١]. وأن إدمان الكحول وما يتعلق بتناوله من مشاكل يهددون الصحة العالمية، فهم يشكلون ٣,٥% من كل حالات المرضي في العالم. وهذا الرقم يساوي مخاطر الأمراض الجنسية، ويزيد عن سببين آخرين يهددان الصحة، وهما التبغ والمخدرات[٢].

وفي الولايات المتحدة يقدر عدد معاقري الخمر بأكثر من ١٠٠ مليون شخص، منهم ١٢– ١٥ مليون مدمن[٣].

وبما إن الوصول لمرحلة الإدمان للكحول يستغرق عدة سنوات، فمن المفترض أن هناك قاعدة من "ما قبل المدمنين" أو المسرفين في الخمر، يتحول منهم كل عام عدة مئات من الألوف لمدمني خمر، وبناء على الإحصاءات القومية في الولايات المتحدة لأنماط شرب الخمر في العقود السابقة، فإن عدد "ما قبل المدمنين" يقدر بأربعة ملايين شخص. وهؤلاء بالإضافة لمدمني الخمر يمثلون "الشاربين المعضلة".

ووجود هذا العدد الضخم يجعل مشكلة إدمان الكحول من مشاكل الصحة العامة ذات الأولوية الأولى في الولايات المتحدة. وتظهر خطورة المشكلة من معرفة أن نسبة الوفيات في أولئك المدمنين أكثر مرتين ونصف من المعدل العام، ومعدل الانتحار كذلك، ومعدل الموت بسبب الحوادث أكثر سبعة مرات من المعدل العام، وكذلك لدى هؤلاء المدمنين معدلات أعلى –على العموم– للإصابة بالأمراض.

وقد أظهرت إحدى الدراسات أن من يعدون مدمني خمر في المستشفيات العامة يتروا حون من ١٣ إلى ٢٩ بالمئة، وأن الاضطرابات النفسية المرتبطة بإدمان الكحول تمثل ١٥% من الذكور وقرابة ٣ إلى ٤% من الإناث المدخلين للمستشفيات النفسية، وأن الداخلين من مدمني الخمر بغير اضطرابات نفسية –الذين يرغبون عادة في المشاركة في برامج علاج إدمان الكحول– يمثلون ٤٠% من الرجال و١٣%

---

(١) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Alcoholism, II. PREVALENCE.

(٢) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Alcoholism, IV. SOCIAL EFFECTS OF ALCOHOLISM.

(٣) SHORT TEXTBOOK OF PSYCHIATRY, ٨. ALCOHOL AND OTHER PSYCHOACTIVE SUBSTANCE USE DISORDERS, I. ALCOHOL RELATED DISORDERS, Prevalence, p: ٨٤.

بينما تقدر الموسوعة البريطانية عدد مدمني الكحول في الولايات المتحدة بقرابة ٥,٤ مليون نسمة، منهم ٤,٥ مليون رجل، و ٠,٩ مليون امرأة، أي ٧,٣% من الرجال، و ١,٣% من النساء، أو ٤,٢% من البالغين فوق عشرين سنة من العمر كلهم مدمنون للخمر.

[ENCYCLOPEDIA BRITANNICA ٢٠٠٥ Delux Edition CD, alcoholism, Prevalence of alcoholism].

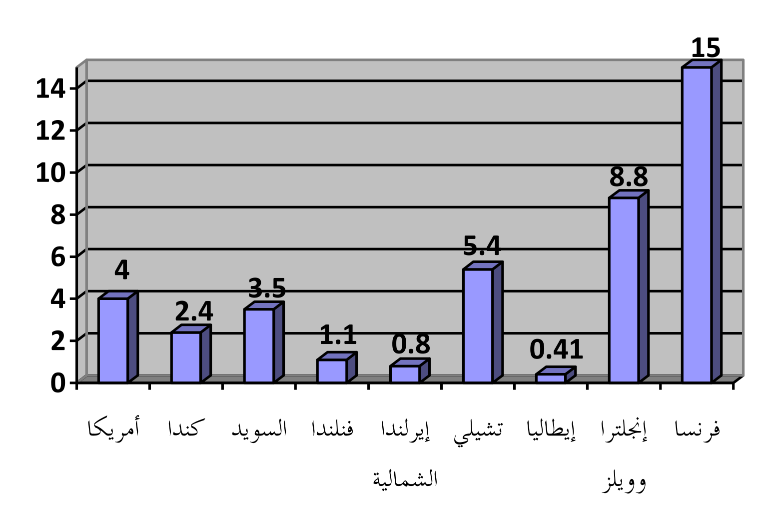
بينما تقدرهم موسوعة إنكارتا بقرابة ١٢,٥ مليوناً أي قرابة ٤% من السكان.

[Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Alcoholism, II. PREVALENCE].

من النساء المدخلين للمستشفيات العقلية العامة، و٥١% من الرجال و٤٤% من النساء المدخلين للمستشفيات العقلية الخاصة. وهذه التقديرات لا تشمل "ما قبل المدمنين"[١].

أما الخسارة المادية الناشئة عن إدمان الكحول في الولايات المتحدة فتقدر بأكثر من ١٨٥ بليون دولار سنوياً، بسبب نقص الإنتاجية والمرض والموت المبكر[٢].

ويبين الرسم البياني التالي نسبة المدمنين المئوية من عدد السكان في عدد من الدول الغربية، ويلاحظ الارتفاع الكبير في فرنسا.



رسم بياني يبين نسبة المدمنين المئوية من عدد السكان في عدد من الدول الغربية[٣]

أما في الاتحاد السوفييتي فرغم عدم وجود إحصاءات معلنة عن عدد المدمنين إلا أن هناك انزعاجاً قوياً من أن الإدمان واسع الانتشار وخطير[١]. حيث يقدر أن ثلث كل الوفيات ترجع مباشرة أو غير مباشرة للإسراف في تناول الكحول[٢].

---

[١] ENCYCLOPEDIA BRITANNICA ٢٠٠٥ Delux Edition CD, alcoholism, Prevalence of alcoholism.

[٢] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Alcoholism, IV. SOCIAL EFFECTS OF ALCOHOLISM.

[٣] ENCYCLOPEDIA BRITANNICA ٢٠٠٥ Delux Edition CD, alcoholism, Prevalence of alcoholism; and Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Alcoholism, II. PREVALENCE.

كل البيانات التي في هذا الرسم البياني من الموسوعة البريطانية ما عدا النسبة في الولايات المتحدة وكندا فمن موسوعة إنكارتا.

{٢} الآثار الخطيرة لمعاقرة الخمر:

لمعاقرة الخمر فضلاً عن الإدمان عليها آثار خطيرة يدركها كل عاقل، فلو لم يكن إلا تغييبها للعقل لكفى بهذا بلاء، ولكن لها أيضاً آثار اجتماعية وصحية خطيرة، وقد يكون تتبع هذه الآثار خارج نطاق ذلك الكتاب، ولكني أذكر بإيجاز أن من أسوأ آثار الكحول الصحية هو ما يحدثه من اختلال عقلي متزايد يصل إلى حد الخلل العقلي الدائم، وكذلك أثره الخطير على الكبد، حيث يسبب التهابه ثم تليفه، مما يسبب الموت في نهاية الأمر، وتليف الكبد الكحولي هو السبب الأهم لتليف الكبد في العالم الغربي، إلا أن هناك أثراً آخراً خطيراً، قد لا ينتبه له الكثير من الناس أو أغلبهم، وهو أثر الكحول على الأجنة، فالمرأة الحامل المعاقرة للخمر، وخاصة المسرفة في شربه، قد تسبب عيوباً خلقية لجنينها، وهي ما تسمى (بمتلازمة الكحول الجنينية)، ولا يقتصر الخطر على المسرفات في الشرب فقط، بل حتى المعتدلات في الشرب أيضاً قد تعاني أجنتهن من هذا المرض. والمشكلة أن أثر الكحول التسممي على الجنين يبدأ مع أول شهرين في الحمل، وهي الفترة التي قد لا تعلم المرأة عادة أنها حامل فيها، فحتى لو توقفت عن الخمر بعد معرفتها بالحمل، فإن الأثر الضار عادة ما يكون قد وقع.

ويقدر بأن من ٣٠ إلى ٤٠% من الحوامل المسرفات في الشرب يلدن أجنة مصابين (بمتلازمة الكحول الجنينية). وأهم مشاكل هذا المرض هو التخلف العقلي المصحوب بالضعف العضلي وسحنة وجهية خاصة. ويبلغ معدل هذا المرض ٠,٥ إلى ٣ من كل ألف مولود حي في البلاد الغربية، ويعد ذلك المرض أكثر أسباب عيوب المواليد، وأكثر أسباب التخلف العقلي في العالم الغربي[٣].

وهكذا تنتقل المصيبة من جيل لجيل، وتجني الأم على جنينها.

{٣} وقد حاول بعض العقلاء في الولايات المتحدة وغيرها من الدول الغربية أن يدفعوا شرور الخمر بأن طالبوا بتجريم إنتاج وبيع الخمر، ولذلك قصة يحسن الوقوف عندها، لأنها تكشف حقيقة الديمقراطية.

بحلول عشرينيات القرن التاسع عشر الميلادي كان جمهور الولايات المتحدة يحتسون الخمر بمعدل ٢٧ ليتراً من الكحول النقي في السنة لكل فرد. وبدأ العديد من الزعماء الدينيين والسياسيين يرون ذلك لعنة سياسية.

---

(١) ENCYCLOPEDIA BRITANNICA ٢٠٠٥ Delux Edition CD, alcoholism, Prevalence of alcoholism.

(٢) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Alcoholism, II. PREVALENCE.

(٣) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Alcoholism, VII. HEALTH CONSEQUENCES; and ENCYCLOPEDIA BRITANNICA ٢٠٠٥ Delux Edition CD, fetal alcohol syndrome.

واعتقد الكثيرون أن هناك صلة وثيقة بين السكر وارتفاع معدل الجريمة والفقر والعنف، واستنتجوا أن الوسيلة الوحيدة لحماية المجتمع من ذلك هي إلغاء تجارة صناعة الخمر. وكانت ولاية مين أول ولاية تحرم إنتاج وبيع الخمر في عام ١٨٥١م، ثم تبعتها ١٣ ولاية من ٣١ بحلول عام ١٨٥٥م. وفي هذا الوقت انخفض معدل استهلاك الخمر السنوي للكحول النقي إلى ٨ ليترات لكل فرد في أمريكا.

ولكن حلول الحرب الأهلية أدى للتراخي في هذا التوجه، وبنهاية تلك الحرب كان هناك أكثر من مائة ألف حانة في أمريكا، أي حانة لكل ٤٠٠ فرد في أمريكا. وقد شجعت تلك الحانات الدعارة والقمار والعنف وبيع الخمر للقاصرين.

وانبثقت كرد فعل لذلك ما سميت (بحرب النساء) الاستثنائية، وانتشرت عبر أمريكا عام ١٨٧٣م. فكانت آلاف النساء يسرن من الاجتماعات الكنسية إلى الحانات، حيث يتلون الصلوات، وينشدن الأهازيج، مطالبات أصحاب الحانات بإغلاقها.

وبحلول عام ١٩٠٠م، بدأ ملايين الرجال والنساء ينضمون لحركة معاداة الحانات، ويعتبرونها أكثر الشرور المهددة للعائلة. ونشأت رابطة مكافحة الحانات في أوهايو، وانتشرت في كل الولايات، وبدأت تمارس ضغطاً سياسياً، استطاعت من خلاله بحلول عام ١٩١٦م أن تدفع ٢٣ من ٤٨ ولاية، لأن تجرم صناعة الخمر، وتغلق الحانات. وبحلول عام ١٩١٧م استطاعت أن تحقق أغلبية في الكونجرس مكنتها من أن تقدم للولايات التعديل الثامن عشر للدستور، الذي يجرم إنتاج وبيع ونقل (المشروبات المسَمِمة)، وقد تم التصديق على ذلك التعديل في يناير ١٩١٩م.

وقد جارت معظم الدول الغربية البروتستانتية أمريكا في ذلك، فقيدت بريطانيا شرب الخمر في عام ١٩٢٠م، والسويد أممت صناعة الخمر في عام ١٩٢٢م، وحددت بيع الخمر بلتر واحد لكل أسرة أسبوعياً، وفي النرويج تم تحريم بيع المشروبات التي تحتوي على أكثر من ١٢% من الكحول في عام ١٩١٩، وفي نفس العام جرمت فنلندا بيع المشروبات المحتوية على أكثر من ٢% من الكحول. ثم تبعتهم كندا أيضاً.

وقد أدى هذا التوجه لانخفاض ملحوظ في استهلاك الفرد الخمر، الذي هبط في أمريكا من ٩,٨ ليتر قبل الحظر (١٩٠٦- ١٩١٠م) إلى ٣,٧ ليتر بعد الحظر (١٩٣٤م)[(١)].

ورغم جهود الحكومة الأمريكية المتعددة في محاربة الخمر[(٢)]، فقد بدأ الجمهور الأمريكي يمل من الحظر، وبدأت القوى المعارضة له تتنامي، وكان من أهم أسباب ذلك أنه بنهاية العشرينيات بدأت تظهر مجتمعات المدن الصناعية الكبيرة، التي كان توسيع وحماية الحرية الشخصية عندها أهم من حماية الأسرة.

---

(١) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Prohibition.

(٢) ينقل السيد أبو الحسن الندوي عن السيد أبي الأعلى المودودي قوله عن حظر الخمر في أمريكا في كتابه (تنقيحات):

وبحلول ديسمبر من عام ١٩٣٣م صدر التعديل الحادي والعشرين للدستور الأمريكي، الذي نسخ التعديل الثامن عشر، وتبعت الدول الأخرى -التي حرمت الخمر- أمريكا في نفس الفترة.

ونتيجة لذلك ارتفع معدل استهلاك الفرد الأمريكي بعد إلغاء الحظر من ٤,٥ ليترات سنوياً (١٩٣٤م) إلى ١٠,٢ ليترات عام ١٩٧٥م[١].

كانت تلك باختصار وإيجاز قصة تحريم الخمر في أمريكا، وهي تدل على عدة دلالات:

الأولى: أن الديمقراطية ليست إلا وسيلة في يد الأغلبية بلا أية قيمة خلقية ولا منطقية أو عقلية حتى، وأن الأغلبية هي التي تفرض ما تريد حتى ولو كان مخالفاً لكل مبدأ أو خلق أو مصلحة مسلم بها.

الثانية: أن الديمقراطية غير قادرة على حمل الجمهور على مكارم الأخلاق وكفه عن مساوئها، حتى لو كانت الأغلبية مقتنعة بتجريم إحدى تلك المساوئ.

الثالثة: أن العقيدة الدينية الصحيحة هي القادرة وحدها -إذا كانت لها قوة القانون- أن تحمل الجمهور على مكارم الأخلاق وأن تكفه عن مساوئها.

لأن العقيدة الدينية لا تكتفي بالترهيب والترغيب القانونيين، ولكنها تخاطب عقل الإنسان وقلبه ومشاعره، وتتغلغل في نفسه، وتربطه بخالق الكون الذي يعمل لرضاه وحده دون أحد سواه ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ولذلك لما نزل تحريم القرآن استجابت الجماعة المسلمة فوراً وبلا تردد، لأن العقيدة كانت قد ترسخت في نفوسها أولاً.

فعن ابن بريدة، عن أبيه قال: بينما نحن قعود على شرابٍ لنا، ونحن على رَمْلة، ونحن ثلاثة أو أربعة، وعندنا باطِيةٌ[٢] لنا، ونحن نشرب الخمر حِلاً إذ قمت حتى آتي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأسلم عليه، وقد نزل تحريم الخمر:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ

"منعت امريكا الخمر، وطاردتها في بلادها، واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور والسينما لتهجين شربها وبيان مضارها ومفاسدها، ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ٦٠ مليون دولار، وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على ١٠ ملايين صفحة، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاماً لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيه، وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس، وسجن ٥٣٢٣٣٥ نفس، وبلغت الغرامات إلى ١٦ مليون جنيه، وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة ملايين جنيه" [ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- الباب الثاني: من الجاهلية إلى الإسلام- الفصل الأول: منهج الأنبياء في الإصلاح والتغيير ص: ٩٧].

(١) Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Prohibition.

(٢) الباطية: هي إناء عظيم من زجاج، تملأ من الشراب، وتوضع بين الشرب يغرفون منها ويشربون.

الشَّيْطَانِ﴾، إلى آخر الآيتين،﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، فجئت إلى أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ قال: وبعض القوم شربته في يده، قد شرب بعضًا وبقي بعضٌ في الإناء، فقال بالإناء[١] تحت شفته العليا كما يفعل الحجّام. ثم صبوا ما في باطيتهم، فقالوا: انتهينا ربّنا! انتهينا ربَّنا!"[٢].

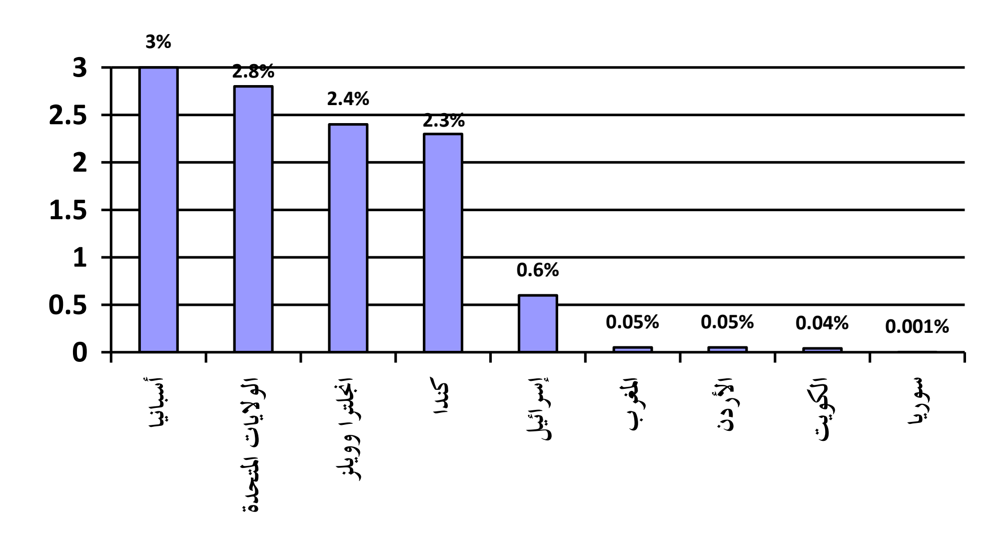
وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "كُنْتُ سَاقِيَ الْقَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ، وَكَانَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الْفَضِيخَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُنَادِيًا يُنَادِي: أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ. قَالَ: فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ فَأَهْرِقْهَا. فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا، فَجَرَتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ"[٣].

ولا زالت الشعوب المسلمة حتى اليوم -رغم أن معظم الدول الإسلامية لا تحرم شرب الخمر- هي أقل شعوب الدنيا شرباً للخمر، بل إن الشاربين هم الأقلية بين جمهور المسلمين، وذلك بسبب أثر العقيدة الدينية في نفوسهم.

والغريب أن الدول الغربية تحرم أموراً كثيرة حفاظاً على الصحة، والجميع يذكر المقاطعة التي فرضت على لحوم الأبقار البريطانية، وكذلك يحرمون التدخين في الأماكن العامة، ولكنهم لا يحرمون الخمر، لأن شربها هو هوى الأغلبية، والديمقراطية هي استبداد هوى الأغلبية.

"ب" الإدمان على المخدرات:

ينتشر إدمان المخدرات في الدول الغربية بصورة واسعة.



---

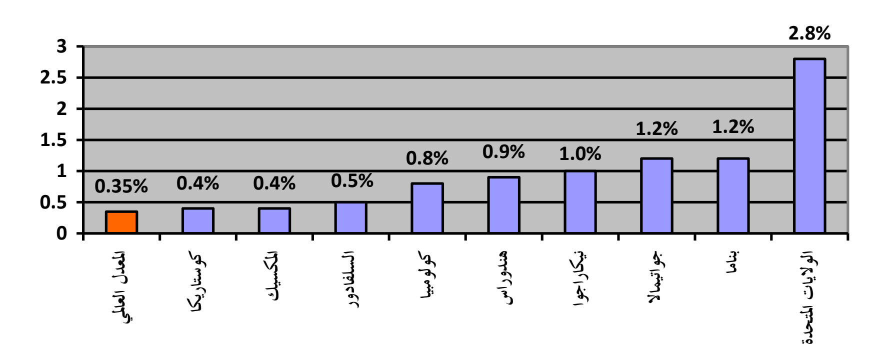
[١] يعني: أماله ثم نزعه، كفعل الحجام وهو ينزع كأس الحجامة.

[٢] تفسير الطبري- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ المائدة (٩١) ج: ١٠ ص: ٥٧٢.

[٣] متفق عليه: صحيح البخاري- كتاب الْمَظَالِمِ وَالْغَصْبِ- بَاب صَبِّ الْخَمْرِ فِي الطَّرِيقِ- حديث رقم: ٢٢٨٤ ج: ٨ ص: ٣٤٩، صحيح مسلم- كِتَاب الْأَشْرِبَةِ- بَاب تَحْرِيمِ الْخَمْرِ وَبَيَانِ أَنَّهَا تَكُونُ مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ وَمِنْ التَّمْرِ وَالْبُسْرِ وَالزَّبِيبِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يُسْكِرُ- حديث رقم: ٣٦٦٢ ج: ١٠ ص: ١٨١.

جدول يبين النسبة المئوية للانتشار السنوي لتعاطي الكوكايين في بعض البلدان بين البالغين[(١)].

ويلاحظ في الجدول ارتفاع نسبة المتعاطين للكوكايين في الدول الغربية المبينة به مقارنة بالمعدل العالمي (٠,٣٥%)، المبين بالجدول التالي.



جدول يبين النسبة المئوية للبالغين (١٥– ٦٤ سنة) المتعاطين للكوكايين في سنة ٢٠٠٦ في أمريكا الوسطى والولايات المتحدة[(٢)].

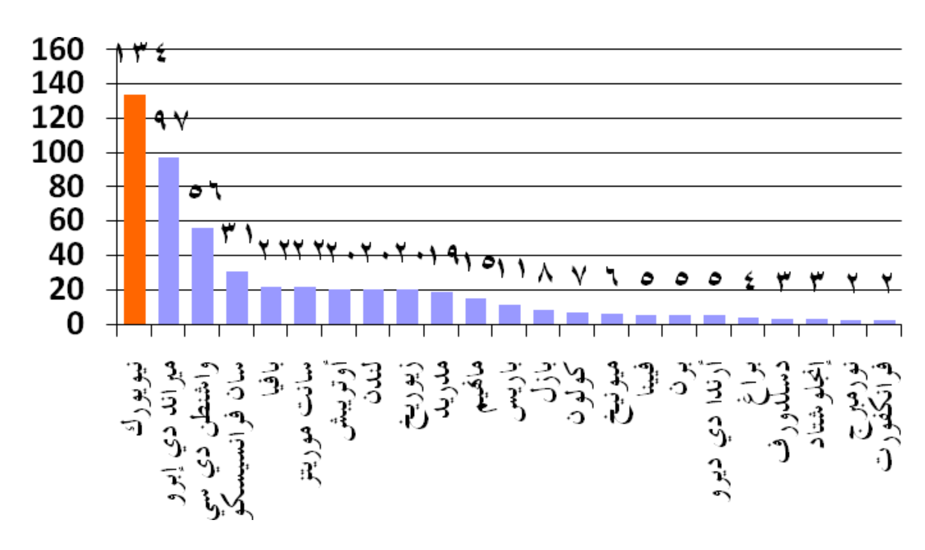
ويلاحظ من الجدول أن تعاطي الكوكايين تزيد نسبته كلما اتجهنا شمالاً حتى السوق الرئيسية في الولايات المتحدة. وكذلك يلاحظ الفرق الواضح بين نسبة البالغين المتعاطين في الولايات المتحدة مقارنة بالمعدل العالمي.

---

(١) World Drug Report ٢٠٠٧, Statistical Annex, Consumption, ٣,٥,١,٢ Cocaine, p: ٢٤٣.

في كل البلدان الموضحة عمر البالغين (١٥– ٦٤ سنة) فيما عدا انجلترا وويلز (١٦– ٥٩ سنة)، وإسرائيل (١٨– ٤٠ سنة)، والأحصاءات تمت في العام ٢٠٠٥ في كل البلدان الموضحة ما عدا انجلترا وويلز ففي عام ٢٠٠٥/ ٦، وفي كندا في عام ٢٠٠٤.

(٢) World Drug Report ٢٠٠٧, Executive Summary, p: ٢٠.



جدول يبين كميات الكوكايين في الماء العادم لثلاث وعشرين مدينة غربية في عام ٢٠٠٥/ ٦، كما يعبر عنها بخطوط الكوكايين/ يوم/ ١٠٠٠ ساكن (١٥- ٦٤ سنة)، ويمثل كل خط ١٠٠ مجم من الكوكايين[١]

ويلاحظ أن نيويورك (ملونة بالبرتقالي) بها أعلى كمية كوكايين مستخدم، إذ يعادل ١٣٤× ١٠٠= ١٣٤٠٠ مجم/ يوم/ ١٠٠٠ ساكن (١٥- ٦٤ سنة).

وقد أجرت إدارة خدمات إساءة استخدام العقاقير والصحة العقلية في الولايات المتحدة إحصاءً أسرياً في عام ١٩٩٩م، تبين منه أن ١٤,٨ مليون شخص يصنفون أنفسهم كمتعاطين حاليين للعقاقير الممنوعة. وأن حوالي ٨% من الشباب (١٢-١٧ سنة) من المتعاطين المنتظمين للماريجوانا، وأن نسبة تعاطي الكوكايين في نفس الفئة العمرية كانت ٤٩%[٢].

ويلاحظ أن معظم الدول الغربية لا تجرم تعاطي المخدرات، ولكنها تجرم التجارة فيها. بل إن هولندا قد سمحت قوانينها في عام ١٩٧٦م بحيازة كميات صغيرة من الماريجوانا والحشيش وأشباهه[٣].

فالمتعاطي -في معظم دول الغرب- لا شيء عليه، بل وتفرض العقوبات على الدول المنتجة للمخدرات، ولكنها لا تفرضها على الدول الغربية المستهلكة لها[٤].

---

[١] World Drug Report ٢٠٠٧, Methodology, p: ٢٧٢.

[٢] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Drug Dependence.

[٣] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, The Netherlands.

[٤] لاحظ أن هذا هو نفس التناقض في البغاء، ففي الدول التي تجرم البغاء تعاقب البغي فقط، أما الزاني بها -فهو في كل الدول سواء التي تجرم البغاء أو لا تجرمه- لا شيء عليه.

وهذا التعاطي الواسع للمخدرات يثير التساؤل؛ إذا كانت الحضارة الغربية -كما يزعم العلمانيون ومفكرو الحرب الصليبية- هي أمل البشرية، وأكثر مراحلها التاريخية نجاحاً، بل هي نهاية التاريخ عند بعضهم، وهي القدوة التي يجب على الجميع -بما فيهم المسلمون- أن يقتدوا بها، فلماذا هذا الإغراق في الغيبوبة والتخدير والهروب من الواقع؟؟

[و] تفكك الأسرة:

تشهد المجتمعات العلمانية عامة والغربية خاصة تفككاً أسرياً واضحاً، وسأشير هنا لأمرين:

"١" تدمير هيكل الأسرة.

"٢" ازدياد معدل الطلاق مع انخفاض معدل الزواج.

***

"١" تدمير هيكل الأسرة:

تتيح المجتمعات الغربية (الديمقراطية) صوراً مشوهة للأسرة، تدمر كيانها وكيان الإنسان والمجتمع. يقول الدكتور المسيري رحمه الله:

"يمكن القول بأن الأسرة أهم المؤسسات التي تُدخل الطمأنينة والسكينة على قلب الإنسان، وهي الإطار الذي يتعلم فيه الإنسان كيف يصبح كائناً اجتماعياً مركباً، عضواً في الجماعة وفرداً منفرداً في الوقت نفسه، ذلك لأن العلاقات داخل الأسرة علاقات مادية اجتماعية مفعمة بالحب والمودة. والمجتمعات العلمانية تضرب كل المؤسسات الوسيطة (وأهمها الأسرة) وتفكّكها حتى أصبحت الأسرة (كمؤسسة) لا تختلف عن بقية المجتمع: مكاناً للصراع والتناحر لا المأوى الذي يهجع إليه الإنسان. فالجميع داخل الأسرة الحديثة لهم علاقة بالسوق، فالأب يعمل والأم تعمل، وفي الدول المتقدمة يعمل الصبية أيضاً. وقد أصبحت الأسرة ترتيباً مؤقتاً، فحين يصل الأطفال إلى سن السادسة عشرة، فإنهم يتركون المنزل، وحينما يصل الآباء إلى سن التقاعد فإنهم ينتقلون إلى بيوت المسنين.

....

أما احتمال أن تنحل هذه الأسرة نفسها من خلال الطلاق احتمال قوي جداً (٦٠ %). واحتمال تكوين أسرة لا يرتبط أعضاؤها برباط مباشر (زوج وأطفال من زواج سابق مع زوجة وأطفال من زواج سابق...)، فقد أصبح عالياً بشكل مذهل. وفي واقع الأمر، فإن كل هذا يعني مزيداً من التمركز حول الذات ومزيداً من الإحساس بالعزلة ومزيداً من الانغماس في الآليات اليومية المادية التي تقضي على الدفء والحب والمودة والتراحم.

ويُلاحَظ أن العلاقة الزوجية، هي الأخرى، تنضوي تحت النمط الحركي التعاقدي الوظيفي نفسه. وقد أشرنا إلى ارتفاع معدلات الطلاق، ويمكن أيضاً أن نشير إلى ظهور

علاقات تعاقدية بين الذكر والأنثى تحل محل علاقة الزواج، فالزوجة في الإطار التقليدي شريكة جوانية في السراء والضراء، ولكنها في الإطار العلماني الوظيفي الرشيد تصبح رفيقة برانية تتواجد ما دامت تؤدي وظيفة: تحقيق اللذة والمنفعة وحسب (تماماً مثل السكرتيرة أو العشيقة أو المضيفة). ومن هنا، بدأت تتزايد ظاهرة التعايش (بالإنجليزية: كوهابيتيشان co-habitation)، أي أن يتعايش شخصان معاً فترة من الزمان (تتراوح طولاً أو قصراً حسب الظروف) دون أن يتزوجا، فالتعايش يعني الحركية والتعاقدية والنفعية (ومن ثم العزلة والغربة) بحيث يكون متاحاً لأي طرف في العلاقة أن يقطعها بشكل هادئ ومحايد إن ثبت له أنها لم تعد تأتيه بالمنفعة أو اللذة (على عكس العلاقة الزوجية التي يجب أن تستمر في السراء والضراء)، أي أن كل طرف في العلاقة يُحوسل الطرف الآخر ويعرِّفه في ضوء وظيفته ونفعه وكأنه عضو في جماعة وظيفية" [1].

ويقول أيضاً:

"وإذا كان الترانسفير قد انطبق على أمور لا يزال بعضنا يظنها جوهرية وطبيعية وفطرية مثل الجنس، فإنه ينطبق من باب أولى على التنظيم الاجتماعي. ويُلاحَظ أن الأسرة قد اختلفت أشكالها (تماماً مثل الميول الجنسية)، ففي الماضي كان هناك الأسرة الممتدة التي تضم ثلاثة أجيال ثم انكمشت إلى الأسرة النووية التي تضم رجلاً وزوجته وطفليهما (ويستحسن أن يكون الطفلان ذكراً وأنثى حتى يتمكن المجتمع من إعادة إنتاج نفسه). أما الآن، فقد أصبحوا (في الولايات المتحدة) يسمون الأسرة النووية ("الأسرة الأساسية" بالإنجليزية: كور فاميلي core family) ويشيرون إلى أنماط أخرى من الأسر. ويُلاحَظ أن هذه الأسرة الأساسية أصبحت أقلية إذ توجد أنواع أخرى، مثل: أب مع أطفاله – أم بمفردها مع أطفالها- أب وعشيقته مع أطفاله/ أو أطفالها أو أطفالهما- أم وعشيقها مع أطفالها/ أو أطفاله أو أطفالهما- أم وصديقتها مع أطفالها أو أطفالهما- أب وصديقه مع أطفاله أو أطفالهما. وقد قرأنا منذ عدة شهور عن أسرة من نوع الكور فاميلي الثابت الراسخ، إلا أن تعديلاً طفيفاً دخل عليه إذ انضم للأسرة عشيق الأب ووافقت الأم على

---

[1] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الخامس: الجماعات الوظيفية- الباب الثاني: الجماعات الوظيفية والحلولية والعلمانية الشاملة- المجتمعات العلمانية والعلاقات الوظيفية (التعاقدية)- آليات تحويل الإنسان التراحمي (أو الإنسان الرباني متعدد الأبعاد) إلى إنسان تعاقدي وظيفي ج: ١ ص: ٢٣٥ و٢٣٦.

ذلك (فمن الواضح أنها تتمتع بعقلية ترانسفيرية منفتحة) وأصبح تركيب الأسرة على النحو التالي: أم وأب وصديقه وأطفالهم (أي سقط المثنى وسقطت الثنائية والمركزية والمرجعية)" [١].

"٢" ازدياد معدل الطلاق مع انخفاض معدل الزواج:

تعد معدلات الطلاق في الدول الغربية مرتفعة، إلا أن معدلات الطلاق في الولايات المتحدة تعد من أعلى المعدلات في العالم.

الدولة	معدل الطلاق لكل ١٠٠٠ من الجمهور
بيلوروسيا	٤,٧١
الولايات المتحدة	٤,١٩
بريطانيا	٤,١٩
روسيا	٣,٦٥
أوكرانيا	٣,٥٩
كوبا	٣,٣٩
استونيا	٣,٠٩
لتوانيا	٣,٠٨
استراليا	٢,٦١
نيوزيلندا	٢,٦١
بلجيكا	٢,٥٨
الدانمرك	٢,٥٤
المجر	٢,٥٤
كوريا الجنوبية	٢,٥٢
جنوب أفريقيا	٠,٨٥
تركيا	٠,٤٩
تشيلي	٠,٤٢

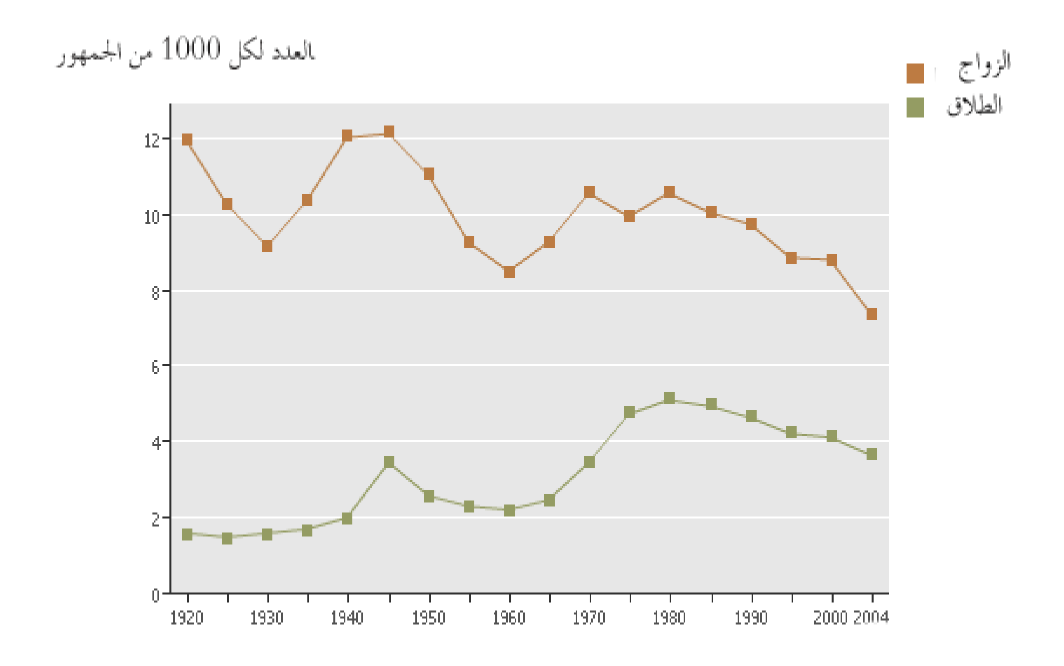
جدول يبين معدل الطلاق لكل ألف من الجمهور في عدد من الدول[١]

---

[١] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية– المجلد الأول: الإطار النظري– الجزء الرابع: العلمانية الشاملة– الباب الثامن: العلمانية الشاملة والإمبريالية– الترانسفير: رؤية معرفية ج: ١ ص: ١٩٦ و١٩٧.

وتبين إحدى التقديرات أن ٥٠,٣% من الزيجات في الولايات المتحدة تنتهي بالطلاق. وقد أخذت معدلات الطلاق في التزايد في أمريكا منذ عام ١٩٢٠م حيث كانت تعادل ثلث معدل الطلاق في عام ١٩٩٥م، ورغم أن معدلات الطلاق قد بدأت في الانخفاض من الذروة التي بلغتها في أوائل الثمانينيات، إلا أن معدلات الطلاق في الولايات المتحدة تعد من أعلى المعدلات في العالم[٢].

وبالإضافة لتزايد معدلات الطلاق في الولايات المتحدة فإن معدلات الزواج تتناقص، كما يبينها الرسم البياني التالي، الذي يلاحظ منه أن معدلات الزواج عامة في انخفاض ومعدلات الطلاق في ارتفاع.



رسم بياني يوضح معدلات الزواج والطلاق في الولايات المتحدة لكل ألف من الجمهور[٣]

[ز] تحريم تعدد الزوجات:

تحرم الديمقراطيات الغربية تعدد الزواج تحريماً باتاً متشدداً. ويعدد تعدد الزوجات جريمة في معظم الدول الغربية، بل إن تعدد الزوجات في الولايات المتحدة لا يمكن الدفاع عنه بناء على الحق في الحرية الدينية،

---

[١] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Divorce, V. DIVORCE IN OTHER COUNTRIES.

[٢] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, United States People.

[٣] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, United States People.

فقد حكمت المحكمة العليا في الولايات المتحدة في عام ١٨٧٨م بأن تعدد الزوجات –الذي تسمح به عقيدة طائفة المورمون– يعد جريمة جنائية[١].

بل لقد شنت الولايات المتحدة حرباً من أجل منع تعدد الزوجات. وموجز ذلك أن طائفة المورمون المسيحية كانت تجيز تعدد الزوجات، وقد سكنت هذه الطائفة ما يعرف اليوم بولاية يوتاه وما حولها.

وقد رفض كونجرس الولايات المتحدة ضم ولاية ديسيرت المورمونية في الاتحاد لعدة سنوات منذ عام ١٨٤٩م بسبب ممارسة المورمون لتعدد الزوجات.

وفي عام ١٨٥٠ قبلت المنطقة كإقليم تابع للولايات المتحدة، وسميت بيوتاه، ولكن حاكمها بريجهام يونج –زعيم طائفة المورمون وأول حاكم إقليمي لها– عُزِل عام ١٨٥٧م لأسباب منها تأييده لتعدد الزوجات[٢].

وفي عام ١٨٥٧م و١٨٥٨م أرسلت الحكومة الاتحادية الأمريكية جيشاً إلى يوتاه، نتيجة للتقارير التي وصلتها من هناك عن عدم إظهار الولاء للحكومة واستجابة للغضب العارم ضد المورمون لممارستهم لتعدد الزوجات، فشنت ما يعرف بحرب يوتاه.

وتبع تلك الحرب عدة قوانين ومساع قضائية لإجبار المورمون على الخضوع للعرف العام بالاقتصار على زوجة واحدة. فقد صدرت منذ عام ١٨٦٢م إلى عام ١٨٨٢م عدة قوانين لمنع تعدد الزوجات ومعاقبة من يمارسه، ونتيجة لذلك أدين وغرم وسجن العديد من المورمون، واضطرت زعامة كنيستهم للاختفاء، كما منع ١٢٠٠٠ من المورمون من حق التصويت لرفضهم الوعد بعدم التزوج بأكثر من زوجة.

ونتيجة لتلك الضغوط أصدرت كنيسة المورمون بياناً في عام ١٨٩٠م سحبت فيه تأييدها لتعدد الزوجات.

وبالتنكر لشريعة التعدد أزيلت العقبة الرئيسية من طريق اعتبار يوتاه ولاية في الولايات المتحدة. وفي عام ١٨٩٤م سن الكونجرس قانوناً يمكن ولاية يوتاه من أن تصدر دستورها، وطالب فيه الولاية بأن تنص فيه على تجريم تعدد الزوجات، وهو الدستور الولائي الوحيد في أمريكا، الذي ينص على ذلك، وفي عام ١٨٩٦م ضمت يوتاه للولايات المتحدة كالولاية الخامسة والأربعين.

ولم تنته المشكلة عند هذا الحد، بل لقد منع بريجهام روبرتس في عام ١٨٩٨م من الحصول على مقعده في مجلس النواب الأمريكي، لأنه من المعددين، وكذلك تعرض زعيم المورمون ريد سموت –الذي

---

[١] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Bigamy.

[٢] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Utah, VIII. HISTORY, G. Polygyny and Statehood, Mormon Polygyny.

انتخب كعضو بمجلس الشيوخ عام ١٩٠٣م- للتحقيق لمدة ثلاثة سنوات منع فيها من الحصول على مقعده، بسبب اتهامه بالتعدد[١].

وفي الوقت الذي تحرم فيه الديمقراطيات الغربية تعدد الزوجات، فإن معظمها تبيح الدعارة، ولا عقاب لديها على المومسات، بل إن المومس في بيت الدعارة المرخص لا تستطيع أن ترفض إتيان عميل لها لأنها لا ترغب فيه، وفي نفس الوقت فإن الزوجة التي يريد زوجها أن يعاشرها ليعف نفسه بغير رغبتها تعد ضحية، ويعد الزوج مجرماً منتهكاً لعرضها، لأنه في عرف القانون ليس (عميلاً دافعاً)، أما الزاني في بيت الدعارة المرخص فهو (عميل دافع)، يدافع القانون عن حقه في الحصول على لذة في مقابل ما دفع.

والمومس التي تعمل في محل مرخص تستطيع أن تعاشر من تستطيع يومياً حسب طاقتها ونشاطها ونهمها على المال، ولكن لو كان لهذه المومس زوج فليس من حقه أن يتزوج عليها!!

ويستطيع الرجل أن يعاشر من يشاء من عشيقاته وعاشقيه، ولا حرج عليه في عددهم وعددهن، ولكنه إن حاول أن يتزوج أكثر من زوجة فالسجن له بالمرصاد.

وهذا يذكر بالقصة المشهورة في تونس بأن رجلاً حول للقضاء بتهمة أنه تزوج زوجة ثانية، ولكنه أمام القاضي قال إنها ليست زوجتي، ولكنها عشيقتي، فبرئت ساحته!!

ثم هناك جانب آخر خطير في ذلك الانحراف، وهو أن تركيب أي شعب يظهر نمطاً معيناً من حيث نسبة الإناث والذكور، الذين يشكلونه. فعادة ما يولد ذكور أكثر من الإناث، والنسبة النمطية هي ١٠٥- ١٠٦ من الذكور لكل ١٠٠ من الإناث. ولكن من الناحية الأخرى فعادة ما يموت من الذكور أكثر من الإناث في كل الفئات العمرية بعد الميلاد.

وهذا يعني أن الذكور في سن الطفولة يزيدون على الإناث من نفس السن، ولكن هذا الفارق يتناقص مع تزايد السن، وفي نقطة معينة من عمر البالغين يتساوى الجنسان عدداً، ولكن مع تقدم السن يزيد عدد الإناث باطراد على الذكور. فمثلاً في أمريكا الشمالية وأوروبا فإن نسبة الإناث إلى الذكور فوق سن السبعين -في عام ١٩٨٥م- هي ١٠٠: ٦١-٦٣، وفي الاتحاد السوفييتي تبلغ النسبة ١٠٠: ٤٠[٢].

---

[١] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Church of Jesus Christ of Latter-day Saints, III. HISTORY, C. The Move To Utah, and Utah, VIII. HISTORY, E. Utah Territory and the Utah War; and ENCYCLOPEDIA BRITANNICA ٢٠٠٥ Delux Edition CD, Mormon, History, and Utah, Before and after statehood.

[٢] ENCYCLOPEDIA BRITANNICA ٢٠٠٥ Delux Edition CD, population, Population composition, Sex ratio; and Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Life Span.

وتتماشى مع هذه الحقيقة حقيقة أخرى، وهي أن متوسط العمر المتوقع يزيد في النساء عن الرجال، ففي اقتصاديات السوق الصناعية (أوروبا الغربية وشمال أمريكا واليابان وأستراليا ونيوزيلندا) تبلغ تلك الزيادة سبع سنوات، أما في الاقتصاديات غير السوقية مثل شرق أوروبا فتبلغ تلك الزيادة ثمانية سنوات[١].

إذن هناك دائماً زيادة في عدد النساء البالغات متوسطات العمر والأسن على عدد الرجال، فإذا لم تجد هاتيك النساء من يتزوجهن في مجتمع يدفع للإباحية والإغراق في اللذة وتجاهل الأخلاق بكل إعلامه وثقافته، فما هي النتيجة؟

ثم هناك نقطة أخرى خاصة بالمجتمع المسلم، وهي أن المجتمع المسلم بالإضافة لما يشترك فيه مع سائر المجتمعات البشرية من حيث نسبة الإناث للذكور، فإنه بالإضافة لذلك مجتمع مجاهد، يمارس الجهاد كشعيرة أساسية من شعائره، وسلوك أصيل من سلوكياته، وهذا ينشأ عنه نسبة من أرامل الشهداء وأيتامهن، يحتاجون لمن يكفلهم ويرعاهم.

ثم يتحدثون عن أن تعدد الزوجات يمثل صورة من صور ظلم الرجل للمرأة، ولا أتصور كيف يكون ذلك الظلم؟ أليست الزوجة الثانية امرأة أيضاً؟ فأي المرأتين ظلمت الأخرى؟ ثم لو افترضنا أن الزوجة الأولى -التي يزعمونها مظلومة- قد ترملت أو طلقت، ثم تقدم للزواج منها رجل متزوج، فهل ستكون ظالمة أو مظلومة؟ ثم لنفترض أن أرملة أو مطلقة في الغرب، عاشرت رجلاً متزوجاً، وهو أمر شائع، ثم إن هذا الرجل أراد إكرامها فقال لها، أذهب بك لبلد مسلم، فأتزوجك زوجة ثانية إكراماً لك، بدلاً من أن تكوني مخادنة، فهل ستقبل أم ترفض؟ وأسأل أيضاً لو أن امرأة عاشرت رجلاً متزوجاً، وأنجبت منه ولداً، فهل يفضل ذلك الولد أن تكون أمه عشيقة، أم زوجة ثانية؟

الظلم الحقيقي من الرجل للمرأة هو في الشذوذ الجنسي للرجال، الذي تجيزه وتحميه وتدافع عنه الديمقراطيات الغربية، وتعتبره من علامات التقدم والرقي. ففي ذلك الانحراف ينصرف الرجل عن المرأة، ويعرضها لأن تتنافس مع غيرها من النساء على الرجال، بأية وسيلة يسمح بها المجتمع، الذي يسمح بل ويشجع تعدد الفاحشة، ولكنه يحرم تعدد الزوجات.

(٣) حقوق الإنسان (الأبيض):

من الأصنام التي يدعو لها دعاة الحملة الصليبية الفكرية صنم يسمونه بحقوق الإنسان، ولكنهم لا ينطقون اسمه كاملاً، فاسمه الكامل هو حقوق الإنسان الأبيض أو الغربي.

وكل إنسان منصف لا يمكن أن يعترض على أن يحصل أي إنسان على حقوقه، ولكن ما هي تلك الحقوق وما مرجعيتها وما مدلول كلمة (حق) أو كلمة (عدل)، ومن الذي يقررها؟

---

[١] ENCYCLOPEDIA BRITANNICA ٢٠٠٥ Delux Edition CD, population, Mortality; and Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Life Span.

ولأن المقام هنا مقام الإيجاز، فسأتعرض -بعون الله- لحقوق الإنسان (الأبيض) تحت عنوانين:

(أ) حقوق الإنسان (الأبيض) نظرياً.

(ب) حقوق الإنسان (الأبيض) عملياً.

***

(أ) حقوق الإنسان (الأبيض) نظرياً:

من أهم الوثائق الدولية التي يشيد بها دعاة حقوق الإنسان (الأبيض) وثيقتان؛ النقاط الأربع عشر للرئيس الأمريكي ويلسون والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وسأشير لكل منهما بإيجاز:

[١] نقاط الرئيس الأمريكي ويلسون الأربع عشر:

[أ] في الثامن من يناير عام ١٩١٨م، ألقى الرئيس الأمريكي ويلسون خطاباً ذكر فيه نقاطه الأربع عشر المشهورة.

[ب] ولكن قبل أن أتطرق لتلك النقاط، أود أن أشير لأمرين هامين:

الأول: أن الرئيس ويلسون -وهو يعلن نقاطه أو مبادئه المشهورة- كان قد خرج هو وحلفاؤه منتصرين في الحرب العالمية الأولى، ولذلك فإن هذه المبادئ تعرض فلسفة وعقيدة ومصالح المنتصرين في تلك الحرب، ولا يمكن قراءتها في غير هذا السياق. ودعت تلك المبادئ إلى إنشاء عصبة الأمم، التي مثلت فلسفة وعقيدة ومصالح أولئك المنتصرين.

الأمر الثاني: أن الحرب العالمية الأولى قد واكبها إعلان وعد بلفور، وأعقبها تحطيم وإلغاء الدولة العثمانية. ولذلك كان الحرص على تحقيق وعد بلفور وعدم قيام دولة الخلافة الإسلامية هدفين مقروئين بين سطور تلك المبادئ لأي قارئ مدقق.

[ج] فما هو أهم ما ورد في تلك المبادئ أو النقاط؟

"١" تؤكد المادة الأولى على إلغاء الدبلوماسية السرية، وأن المعاهدات الدولية يجب أن تتم في العلن.

"٢" أكدت المادة الثالثة من تلك المبادئ على إزالة كل الموانع الاقتصادية، وتحقيق التساوي في الشروط التجارية بين كل الأمم الساعية للسلام.

"٣" ونصت المادة الخامسة من تلك المبادئ على التسوية العادلة لكل النزاعات الاستعمارية، بما يراعي -على قدم المساواة- مصالح الشعوب المعنية والحكومات المسيطرة.

"٤"كما نصت المواد التاسعة والعاشرة والحادية عشرة على تعديل حدود عدد من الدول (إيطاليا- النمسا- المجر- رومانيا- صربيا- الجبل الأسود والعديد من شعوب البلقان) بما يتفق مع متطلباتها القومية والتأكيد على حق تقرير المصير لبعضها.

"٥" وطالبت المادة الثانية عشرة بالآتي:

"أ" حصر سيادة تركيا على الأجزاء التركية من الدولة العثمانية.

"ب" القوميات الأخرى تحت الحكم التركي لا بد أن يضمن لها حق تقرير المصير.

"ج" ضمان حرية الملاحة الدائمة في مضيق الدردنيل للسفن التجارية لجميع الدول.

"٦" وطالبت المادة الرابعة عشرة بإنشاء عصبة للأمم تضمن الاستقلال السياسي وسلامة الأراضي لكل الدول صغيرها أو كبيرها على السواء.

"٧" أما خاتمة المواد الأربعة عشر فقد تضمنت قول ويلسون:

"إننا نعد أنفسنا شركاء أساسيين لكل الدول والشعوب المتضامنة سوياً في مواجهة الامبريالية" .

وكذلك تضمنت دعوته لألمانيا بأن تأخذ مكانها وسط شعوب العالم على أساس المساواة بين الشعوب، وليس على أساس السيادة.

وأن المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه برنامجه هذا هو:

" مبدأ العدالة لكل الشعوب والقوميات، وحقها في أن تعيش على أسس متساوية من الحرية والأمن مع بعضها البعض، سواء كانت قوية أم ضعيفة" .

وأضاف أيضاً أن مواطني الولايات المتحدة مستعدون من أجل تحقيق ذلك المبدأ:

"أن يضحوا بأرواحهم وعزتهم وكل ما يملكون" [١].

[د] فماذا يمكن أن نقرأ في تلك المبادئ؟

"١" بالنسبة للمادة الثالثة التي تؤكد على حرية التجارة العالمية. فهي تعني بوضوح سيطرة الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الأولى والمحتلين لمعظم إفريقيا وآسيا على الموارد الطبيعية وأسواق الدول الواقعة تحت احتلالهم والدول الأخرى التي ترهبهم، لأن تلك الدول لا تملك اقتصاديات منافسة لهم، ولا إرادة سياسية حرة مقاومة لهم، ولذا فإن إزالة الموانع التجارية تفتح مصادر ثروة وأسواق تلك الدول المستضعفة على مصراعيها للدول العظمى المنتصرة في الحرب العالمية الأولى.

"٢" وبالنسبة للمادة الخامسة التي أكدت على التسوية العادلة لكل النزاعات الاستعمارية، بما يراعي -على قدم المساواة- مصالح الشعوب المعنية والحكومات المسيطرة.

فهي تؤكد على تسوية النزاعات المتعلقة بالمطامع الاستعمارية للدول الغربية على أساس نتيجة الحرب العالمية الأولى، إذ أن من سيفصل في تلك النزاعات هو الأقوى، وثانياً فإن النزاعات بين الدول المنتصرة سيفصل فيها على أساس المصالح المتبادلة أو الاتفاقات المبرمة قبل نهاية تلك الحرب، وأهمها بالنسبة لعالمنا الإسلامي والعربي؛ وعد بلفور واتفاقية سايكس بيكو. أما ما ورد من النظر -على قدم المساواة-

---

[١] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Fourteen Points, Primary Sources, Wilson's Fourteen Points.

.

بين المستعمِر والمستعمَر، فهو تأكيد لحق المستعمِر في تحقيق مصالح له من استعماره، كما أن هذا التساوي عملياً لا يمكن أن يتحقق، فأية قوة تملكها الشعوب المستعمَرة في وجه محتليها المنتصرين في الحرب العالمية الأولى؟ وهو ما يكشف عن أن تلك المبادئ لا تضمن إلا حقوق الإنسان (الأبيض).

"٣" أما بالنسبة للمادة الثانية عشرة المتعلقة بالدولة العثمانية والقوميات الواقعة تحت حكمها فيتبين منها ما يأتي:

"أ" حصر سلطان الحكومة التركية على المناطق التركية من الدولة العثمانية، وهو ما يعني إنهاء الخلافة كرابطة بين المسلمين، وإحلال الانتماء القومي بدلاً منها، وتحويل دولة الخلافة العثمانية لدولة علمانية قومية تركية، وهو ما يعني فرض الفلسفة السياسية للدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى على عالمنا الإسلامي، وهي الفلسفة التي تدعو لقيام الدول على الأسس العلمانية القومية، وليس على الأسس الدينية، ناهيك عن الأسس الإسلامية.

وبهذا تخلصت الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى من خطر الخلافة، الذي ظل يهدد الغرب النصراني منذ قيام الإسلام، ثم استمر يهدد الغرب العلماني ذا النزعة الصليبية نتيجة لمقاومة دولة الخلافة العثمانية للمساعي الصليبية لاحتلال ديار المسلمين لمدة خمسة قرون، وبتحطيم دولة الخلافة العثمانية وتحويلها لدولة علمانية قومية محصورة في حدودها القومية، تكسرت بقايا القلعة، التي كانت تدافع عن البقية الباقية من بلاد المسلمين، وانطلقت دول الاحتلال الغربي لافتراس تلك البقية الباقية.

"ب" أما ما ورد في المادة الثانية عشرة عن منح القوميات -الواقعة تحت الحكم العثماني- لحق تقرير المصير، فهو كما يقال (خدعة الصبي عن اللبن).

{١} فمعظم تلك الدول كانت إما محتلة تحت سلطان الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الأولى، أي لم تكن تحت الحكم التركي عند صدور نقاط ويلسون، أو قد تم الاتفاق على تقسيمها واحتلالها قبل تلك الحرب:

{أ} فالمغرب العربي كان تحت الاحتلال الفرنسي والأسباني والإيطالي من قبل الحرب.

{ب} ومصر كانت تحت الاحتلال الإنجليزي من قبل الحرب.

{ج} ووعد بلفور -الذي أعلن في نوفمبر ١٩١٧م- وعد اليهود بدولة قومية في فلسطين[١]. وفيما يتعلق بوعد بلفور، فأشير للملاحظات الآتية:

-١- إن وعد بلفور يتناقض مع ما أعلنه ويلسون من منح حق تقرير المصير لعدد من الشعوب، وهو ما اشتهر عن نيلسون، بل لقد فُرِض الوعد على الأغلبية العظمى من أهل فلسطين المسلمين العرب فرضاً بالقوة والقهر والحرب.

---

[١] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Balfour Declaration.

-٢- إن الرئيس ويلسون من المؤيدين المتحمسين للصهيونية، بل إنه لقب (بأبي الصهيونية)، ونتيجة لصلاته القوية بالحركة الصهيونية أعلن تأييده لوعد بلفور فور صدوره[١].

-٣- تبنت عصبة الأمم -التي طالب ويلسون بإنشائها- وعد بلفور، وأدرجته في ٢٤ يوليو ١٩٢٢م في قرارها بإخضاع فلسطين للانتداب البريطاني[٢].

-٤- وفي مارس ١٩١٩م اقترح الرئيس ويلسون على المجلس الأعلى لمؤتمر الصلح بين دول الحلفاء (أمريكا- بريطانيا- فرنسا- إيطاليا) إرسال لجنة تحقيق للوقوف على رغبات المواطنين في فلسطين وسوريا ولبنان وشرق الأردن تمهيداً لتقرير مصير المنطقة. وتشكلت اللجنة من الأمريكيين اللذين سُمِّيت اللجنة باسميهما وهما: هنري كينج وتشارلز كرين بالإضافة إلى بعض المستشارين.

وأصدرت اللجنة تقريراً، وصف المزاعم الصهيونية بشأن "الحقوق التاريخية" لليهود في فلسطين بأنها لا تستوجب الاكتراث، ولا يمكن النظر إليها جدياً بعين الاعتبار. وبيَّنت اللجنة ما في تعهدات وعد بلفور من ازدواجية وتناقض إذ "لا يمكن إقامة دولة يهودية دون هَضْم خطير للحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين".

وقد قوبل تقرير اللجنة بالرفض التام من جانب فرنسا وبريطانيا والحركة الصهيونية. أما الولايات المتحدة -التي كان رئيسها صاحب فكرة إرسال اللجنة- فلم تُعر انتباهاً هي الأخرى لتوصيات اللجنة، رغم ما نص عليه تقريرها من أن المشروع الصهيوني يناقض مبدأ الرئيس ويلسون بشأن حرية الشعوب في تقرير مصيرها. وإذا وضعنا في الاعتبار أن ويلسون نفسه كان قد وافق على تصريح بلفور قبل إعلانه، فستتضح على الفور حقيقة الموقف الأمريكي وحقيقة أن تلك المبادئ لم تكن في الواقع إلا ستاراً للمصالح الاستعمارية[٣].

-٥- تضمن وعد بلفور عبارة تنص على أنه لن يكون هناك:

"ما يجحف بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية في فلسطين"[٤].

وفي هذا استخفاف بعقول المسلمين والعرب، إذ كيف تُنشأ دولة غريبة في وطن قوم ثم تقول أنك لن تمس بحقوقهم المدنية والدينية؟

---

[١] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد السادس: الصهيونية- الجزء الثاني :تاريخ الصهيونية- الباب الأول :تاريخ الصهيونية- تاريخ الصهيونية في الولايات المتحدة ج: ٦ ص: ٩٧ و٩٨.

[٢] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Balfour Declaration.

موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد السادس: الصهيونية- الجزء الأول: إشكاليات وموضوعات أساسية- الباب الرابع: وضع العقد موضع التنفيذ- الانتداب ج: ٦ ص: ٤٠.

[٣] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد السادس: الصهيونية- الجزء الأول: إشكاليات وموضوعات أساسية- الباب الرابع: وضع العقد موضع التنفيذ- لجنة كينج-كرين ج: ٦ ص: ٤٠.

[٤] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Balfour Declaration.

بل ويكشف هذا أيضاً عن أن حقوق الإنسان لدى الغرب هي ما يعتبره الغرب حقاً له، وهي حقوق الإنسان الأبيض الذي يرى نفسه مركز الكون، والبقية جماعات هامشية، وعن هذا يقول الدكتور المسيري رحمه الله:

"وحينما صدر وعد بلفور، وردت فيه إشارة إلى "الجماعات غير اليهودية"، أي سكان فلسطين من العرب البالغ عددهم آنذاك ما يزيد عن ٩٥% من عدد السكان، أي أن الغالبية الساحقة من سكان فلسطين تم تهميشها لصالح المستوطنين الصهاينة. ولا يمكن فهم عملية التهميش هذه إلا في إطار أن الصهاينة هنا هم ممثلو الحضارة الغربية التي تظن أنها تحتل مركز الكون والتاريخ، ولذا فإن حقوقهم في فلسطين حقوق مركزية مطلقة. أما حقوق غيرهم من البشر ممن أقاموا في هذه الأرض وزرعوها وحصدوا ثمارها وبنوا منازلهم فيها عبر آلاف السنين، فهي هامشية، وهم مجرد جماعات غير يهودية"[1].

{د} في مارس سنة ١٩١٦م عقدت معاهدة بطرسبرج بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية، والتي تعد معاهدة سايكس بيكو الموقعة في مايو ١٩١٦م الجزء الخاص التنفيذى لها، وقد قسمت تلك المعاهدة أملاك الامبراطورية العثمانية التركية وكانت أهم مبادئ هذه المعاهدة هي:

-١- تمنح روسيا الولايات التركية الشمالية والشرقية.

-٢- تمنح بريطانيا وفرنسا الولايات العربية في الامبراطورية التركية.

-٣- تدويل الاماكن المقدسة فى فلسطين.

وقد كان هذا الاتفاق سرياً إلى أن كشف عنه الروس البلاشفة[2].

{هـ} كذلك كان قد وُعِد الشريف حسين بن علي بأن يمنح له ملك دولة عربية تضم الشام والعراق والجزيرة في مقابل أن يخون الدولة العثمانية، ويتعاون مع قوات الحلفاء ضدها، ولكن الإنجليز -بوفائهم المعهود- وعدوا اليهود بفلسطين، والفرنسيين بالشام، ثم منحوا معظم جزيرة العرب لابن سعود!!

إذن فأي تقرير مصير هذا الذي يتحدث عنه ويلسون[3]!

---

[1] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- المقدمة- المصطلح ج: ١ ص: ٢٢ و٢٣.

[2] الموسوعة العربية الشاملة- حرف السين- سايْكس - بيكو، معاهدة،

ENCYCLOPEDIA BRITANNICA ٢٠٠٥ Delux Edition CD, Sykes-Picot Agreement; and Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Modern Palestine.

[3] راجع ما كتبه الشيخ الرئيس الشهيد -كما نحسبه- زليم خان يندربي عن ارتباط حق تقرير المصير بدين الشعب المحتل ومدى ولائه لقيم الدول الصليبية المتحكمة في العالم في: الباب الثالث: العودة للميدان/ الفصل الخامس: داغستان- الفرج بعد انقطاع السبب/ المطلب الأول: تأملات في أحوال القوقاز/ الفرع الرابع: المعاني السياسية والنفسية التي أبرزها الصراع بين روسيا والقوقاز المسلم.

{٢} أن بقية الدول لم يطلب منها منح القوميات الواقعة تحت حكمها حق تقرير المصير، كما طلب من الدولة العثمانية، فلم يطلب من أمريكا أن تمنح الهنود الحمر حق تقرير المصير، ولم يطلب من بريطانيا أن تمنح الأيرلنديين نفس الحق، بل لم يطلب من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا وروسيا أن تمنح الدول التي تحتلها حق تقرير المصير، لأن تلك الدول هي الدول المستعمِرة المنتصرة في الحرب، وبالتالي فإن مبادئ ويلسون تعبر عن مصالحها. وبذا يتبين أن ما ذكره ويلسون عن حق تقرير المصير والمساواة والعدالة بين الشعوب ليس إلا كذباً صرفاً.

لقد أقر ويلسون لبعض الدول التي من مصلحته إعطائها حق تقرير المصير بذلك، أما شعوب عالمنا الإسلامي، فلم يكن من نصيبها إلا الاحتلال والقهر.

وبهذا يتبين أن عبارات العدالة والمساواة ومقاومة الإمبريالية، التي حشى بها ويلسون بيانه لم تكن إلا تجميلاً للوجه القبيح لأطماع الحلفاء في الشعوب المستضعفة عامة وشعوبنا خاصة.

هذه كانت نظرة سريعة على مبادئ ويلسون التي اعتبرها كثير من العلمانيين فتحاً جديداً في التاريخ البشري.

[٢] الإعلان العالمي لحقوق الإنسان:

أتطرق الآن للمثال الثاني الذي يشيد به أنصار حقوق الإنسان (الأبيض)، وهو الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

[أ] أصدرت الأمم المتحدة في العاشر من ديسمبر لعام ١٩٤٨م الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

[ب] ولكن قبل أن أتطرق لذلك الإعلان أود أن أشير لأمرين:

"١" مثلت الأمم المتحدة إرادة المنتصرين في الحرب العالمية الثانية[١]، ولذلك فإن البيان العالمي لحقوق الإنسان الذي صدر عنها يمثل رؤية وفلسفة ومصالح تلك الدول، ولا يمكن أن يقرأ خارج هذا السياق.

"٢" كان من أهم نتائج الحرب العالمية الثانية قيام دولة إسرائيل -التي أيدها ودعمها ثم اعترف بها الحلفاء المنتصرون في الحرب العالمية الثانية- في الرابع عشر من مايو لعام ١٩٤٨م، أي قبل صدور البيان بسبعة أشهر، بل في الحقيقة لقد اعترفوا بشرعيتها بموافقتهم على قرار التقسيم الصادر عام ١٩٤٧م، بل حتى يمكن إرجاع الاعتراف بتلك الشرعية إلى وعد بلفور الصادر عام ١٩١٧م.

وقد صدر الإعلان المذكور عن مفوضية حقوق الإنسان في الأمم المتحدة، التي كانت ترأسها مندوبة الولايات المتحدة؛ إليانور روزفلت، أرملة الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت[٢].

---

[١] راجع لتفصيل كيفية نشوء الأمم المتحدة:

Microsoft Encarta ٢٠٠٨, II. CREATION OF THE UNITED NATIONS.

[٢] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Eleanor Roosevelt, V. ON HER OWN.

وهو المعروف بتأييده لقيام دولة إسرائيل وعلاقته الوثيقة بالتجمعات اليهودية، حتى أن ما بين ٨٥ و٩٠% من اليهود أعطوا أصواتهم لروزفلت في الفترة ١٩٣٣– ١٩٤٥[١].

كما أنه اتفق مع كل من ستالين وتشرشل في مؤتمر يالطا في فبراير عام ١٩٤٥ على ضرورة إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين، وعلى وجوب إزالة كل معوقات الهجرة اليهودية إلى فلسطين فوراً مقابل السماح للسوفييت بإقامة مناطق نفوذهم في أوروبا الشرقية[٢].

[ج] فما هو أهم ما ورد في ذلك الإعلان؟

تضمن ذلك الإعلان ثلاثين مادة تؤكد إجمالاً على:

– لا تفرقة في الحقوق والحريات المنصوص عليها في ذلك الإعلان بسبب العِرق، واللون، والجنس، واللغة، والدين، والرأي سياسي أو غيره، والأصل القومي أو الاجتماعي، والمِلكية، والميلاد، أو غيرها من الأحوال.

– الحق في الحياة والحرية والأمن الشخصي.

– الحق في حرية الضمير والديانة والرأي والتعبير والتجمع والاجتماع.

– الحق في الحماية من التوقيف العشوائي.

– الحق في محاكمة عادلة.

– الحق في الحماية من التدخل في الخصوصية الشخصية والسكن والمراسلة.

– الحق في جنسية.

– الحق في مجتمع آمن ومستوى لائق من المعيشة.

– الحق في التعليم. وأن يوجه التعليم نحو التنمية الكاملة للشخصية الإنسانية وتوكيد حقوق الإنسان والحريات الأساسية.

– الحق في الراحة والترفيه.

– الحق في الملكية الشخصية.

– الحق في اعتبار المتهم بريئاً حتى تثبت إدانته.

– الحق في مغادرة أي شخص لوطنه متى شاء وعودته له متى شاء.

– الحق في العمل تحت ظروف ملائمة.

---

[١] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية– المجلد الرابع: الجماعات اليهودية: تواريخ– الجزء الثالث: تواريخ الجماعات اليهودية فى بلدان العالم الغربى– الباب السابع عشر: الولايات المتحدة منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٧١– نهاية المرحلة اليديشية وظهور اليهود الأمريكيين (١٩٢٩–١٩٤٥) ج: ٤ ص: ٣٣٤.

[٢] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية– المجلد الثالث: الجماعات اليهودية: التحديث والثقافة – الجزء الأول: التحديث– الباب التاسع: الاشتراكية والجماعات اليهودية– البلاشفة والصهيونية ج:٣ ص: ١٢٤.

- الحق في المساواة في الأجر لنفس العمل.
- الحق في الانضمام للنقابات بحرية.
- الحق في الزواج وتكوين أسرة.
- تستحق الأمومة والطفولة عناية ودعماً خاصين.
- الحق في المشاركة في الحكومة وفي الحياة الاجتماعية[١].

[د] فماذا يمكن أن نقرأ في ذلك الإعلان؟

"١" أكد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على عدم التفرقة بين الناس على أساس من الفوارق العديدة مثل (العِرق، واللون، والجنس، واللغة، والدين، والرأي سياسي أو غيره، والأصل..... إلخ). ولكنه لم يتكلم عن التفرقة على أساسين:

"أ" الأساس الأول: التفرقة على أساس الوطن والجنسية:

التي تفرق بين الناس على أساس من الدولة القومية والجنسية، بل وتفرضها على غيرها كما حاولت فرنسا ضم الجزائر لها واعتبارها جزءاً من الوطن الفرنسي العلماني الغربي.

فالفرنسي مثلاً لا يتمتع في أمريكا بنفس الحقوق التي يتمتع بها الأمريكي الجنسية، حتى لو أقام في أمريكا عشرات السنين ودفع من الضرائب ملايين الدولارات، فسيظل لا يتمتع بنفس الحقوق طالما لم يحصل على الجنسية الأمريكية.

وهذا ناشئ من تصور العقيدة الغربية لقيام النظام الدولي على أساس الدولة القومية العلمانية، التي تفرق بين الناس على أساس الجنسية والوطنية، والتي لا تقيم للدين أي اعتبار.

وهذا التصور يعادي ويحارب الدولة الدينية، التي بالمقابل لا تعترف بالفروق القومية والجنسية والوطنية، ويستند الولاء فيها على أساس الدين. وقد تمكنت الدول الغربية من القضاء على تلك الدولة باحتلال أجزاء واسعة من الدولة العثمانية، ثم تقسيم البقية الباقية منها على الدول الغربية بعد الحرب العالمية الأولى.

وهذا التصور الذي لا يرى أية غضاضة من التفريق بين الناس على أساس جنسيتهم ووطنيتهم، يأبى -دون الاستناد على أي أساس عقلي أو خلقي- التفريق بين الناس على أساس الدين. مع أن الدين اختيار، بينما الفوارق التي ذكرت في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لا اختيار للإنسان فيها، وما بني على الاختيار، لا شك أنه أشرف مما بني على الوراثة وعدم الاختيار.

يقول الأستاذ الشهيد -كما نحسبه- سيد قطب رحمه الله:

---

[١] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Universal Declaration of Human Rights.

"وحين تكون آصرة التجمع في مجتمع هي العقيدة والتصور والفكر ومنهج الحياة. ويكون هذا كله صادراً من الله، لا من هوى فرد، ولا من إرادة عبد. فإن هذا المجتمع يكون مجتمعاً متحضراً متقدماً. أو بالاصطلاح الإسلامي: مجتمعاً ربانياً مسلماً.. لأن التجمع حينئذ يكون ممثلاً لأعلى ما في "الإنسان" من خصائص -خصائص الروح والفكر- فأما حين تكون آصرة التجمع هي الجنس واللون والقوم والأرض... وما إلى ذلك من الروابط.. فإنه يكون مجتمعاً رجعياً متخلفاً.. أو بالاصطلاح الإسلامي: مجتمعاً جاهلياً مشركاً.. ذلك أن الجنس واللون والقوم والأرض.... وما إلى ذلك من الروابط لا تمثل الحقيقة العليا في "الإنسان". فالإنسان يبقى إنساناً بعد الجنس واللون والقوم والأرض. ولكنه لا يبقى إنساناً بعد الروح والفكر!

ثم هو يملك بإرادته الإنسانية الحرة -وهي أسمى ما أكرمه الله به- أن يغير عقيدته وتصوره وفكره ومنهج حياته من ضلال إلى هدى عن طريق الإدراك والفهم والاقتناع والاتجاه. ولكنه لا يملك أبداً أن يغير جنسه، ولا لونه، ولا قومه. لا يملك أن يحدد سلفاً مولده في جنس ولا لون؛ كما لا يمكنه أن يحدد سلفاً مولده في قوم أو أرض.. فالمجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة هو بدون شك أرقى وأمثل وأقوم من المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمور خارجة عن إرادتهم ولا يد لهم فيه" [(١)].

وفي المقابل أيدت الدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية منشئة هذا الإعلان قيام دولة إسرائيل، بموافقتها على قرار التقسيم الصادر عام ١٩٤٧م، أي قبل صدور الإعلان العالمي بسنة، ودولة إسرائيل تقوم على التفرقة بين الناس على أساس الدين، وتمنح أي يهودي في العالم -بغض النظر عن جنسيته ووطنه ومكان مولده- الحق في أن يهاجر لإسرائيل، ويحمل جنسيتها، ويكون مواطناً فيها، طبقاً لقانون العودة وقانون الجنسية. والقانون الأخير يمنح اليهودي الجنسية الإسرائيلية حتى دون أن يهاجر إليها، بل وهو لا يزال في موطنه الأصلي، دون أن يتنازل عن جنسيته الأصلية، ويكفي أن تكون لديه النية للهجرة، وبينما يعطي هذان القانونان الحق لليهودي الذي غادر أجداده فلسطين منذ ألفي عام -كما يزعمون- في العودة لفلسطين، ينكر هذا الحق على الفلسطيني الذي غادر وطنه مضطراً تحت الإرهاب الصهيوني منذ عدة أعوام[(٢)].

---

(١) في ظلال القرآن- سورة الأعراف- الآيات١ إلى ٩- ج: ٣ ص: ١٢٥٤ إلى ١٢٥٩.

(٢) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- الجزء الأول: طبيعة اليهود في كل زمان ومكان- الباب الثاني: إشكالية الوحدة اليهودية والنفوذ اليهودي- الولاء اليهودي المزدوج ج: ٢ ص: ١٠ والجزء الثاني: يهود أم جماعات يهودية؟- الباب الثالث: إشكالية الهوية اليهودية- الهويات اليهودية والتناقض بين الرؤية الصهيونية والممارسة الإسرائيلية ج: ٢ ص: ١٤٠ و المجلد السابع: إسرائيل.. المستوطن الصهيوني- الجزء الأول: إشكالية التطبيع والدولة الوظيفية- الباب الأول :إشكالية التطبيع- التطبيع

ومن الجدير بالذكر أن إسرائيل ترفض عملياً الالتزام بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان على غير اليهود، كما ترفض الالتزام بالمواثيق الدولية، ومنها اتفاقيات جنيف في كيفية التعامل مع شعب الأراضي المحتلة. ولا توجد دولة في الأمم المتحدة صدرت بحقها قرارات إدانة في هذا المجال ومجال رفضها الالتزام بميثاق الأمم المتحدة وقراراتها كما صدر بحق دولة إسرائيل[1].

إذن فهذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان مبني على تصورات الدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية ومصالحها التي تتناقض أحياناً مع مبادئها دون أن يروا أية غضاضة في ذلك.

"ب" الأساس الثاني من التفرقة الذي لم يذكره الإعلان هو التفرقة بين الناس على أساس القوة، لأن واضعيه هم الخمسة الكبار في مجلس الأمن، الذين خرجوا منتصرين من الحرب العالمية الثانية، والذين أعطوا لأنفسهم حق قيادة العالم. وقسموا النظام العالمي في الأمم المتحدة لطبقتين: الأولى الخمسة الكبار في مجلس الأمن، والثانية بقية الدول، التي يتركونها تتصايح في الجمعية العامة.

"٢" أكد الإعلان على الحق في الحياة، ولكن المحافظة على الحياة في الإسلام واجب شرعي وليست مجرد حق.

وهذا الفرق راجع لفرق في أصل التصور للإنسان، فالإنسان عند العلمانيين هو سيد نفسه والكون عند بعضهم، أو هو أسير القوانين المادية الحتمية التي تسير الوجود المادي عند البعض الآخر، وكلا التصورين الباطلين ناتجين من إنكار وجود المولى –سبحانه وتعالى– أو من إنكار وجوب اتباع أمره.

أما في الإسلام فإن الإنسان مستخلف –في عمران الأمر وإقامة الشريعة– من المولى سبحانه وتعالى، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.................... ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ

السياسي والاقتصادي ج: ٧ ص: ١ والباب الثاني: إحلالية الاستعمار الاستيطاني الصهيوني– قانون العودة: قانون صهيوني أساسي ج: ٧ ص: ٥٨.

[1] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية– المجلد السابع: إسرائيل.. المستوطن الصهيوني– الجزء الأول: إشكالية التطبيع والدولة الوظيفية– الباب الأول :إشكالية التطبيع– السمات الأساسية للمشروع الصهيوني ج: ٧ ص: ٦.

وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

ولذلك فإن الإنسان محاسب ومسؤول عما استخلف فيه، أما عند العلمانيين فلا وجود للإله، وإنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع، أو أن الله قد خلق الكون ثم تركه، وهو تصور خرافي باطل يأباه الإسلام، يقول عز من قائل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ويقول أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، ويقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً﴾، ويقول سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

ولما كان الإنسان مستخلفاً ومؤتمناً على ما وهبه الله، فقد أكدت الشريعة على ضرورة المحافظة على أهم ما وُهِب للإنسان؛ وهي الضرورات الخمس (الدين والنفس والنسل والمال والعقل). يقول الإمام الشاطبي رحمه الله:

"فقد اتفقت الأمة -بل سائر الملل- على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس -وهي: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل- وعلمها عند الأمة كالضروري" [(١)].

والمحافظة على هذه الضرورات أمانة تحاسب الأمة كلها عليها. يقول الشيخ عبد الله الجديع عن الواجب الكفائي:

"وهو ما طلبَ الشَّارعُ حصولَه من جماعةِ المكلَّفينَ، بحيثُ لوْ قامَ بعضُهم برئتْ ذِمَّةُ سائرِهِمْ.

[(١)] الموافقات ج:١ ص: ٣١.

مثلُ: الجهادِ في سبيلِ اللهِ، والأمرُ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ، وتحصيلِ الأسبابِ لحفظِ الضَّروراتِ الخمسِ: الدِّينِ، والنَّفسِ، والمالِ، والعِرضِ، والعقلِ، كالتَّفرُّغِ للعُلومِ المتخصِّصَةِ في الشَّريعَةِ والحياةِ، وإدارةِ شؤونِ الحُكمِ والقضاءِ والسِّياسَةِ.

واجتمَاعُ النَّاسِ على التَّفريطِ بهذا الواجبِ اجتماعٌ على الإثمِ، ولا تبرأُ ذِمَمُهُمْ حتَّى يوجدَ فيهِمْ من يُحَقِّقُ الكفايَةَ لسائرِ المسلمينَ بتحصيلِ ذلكَ الواجِبِ."[1].

ولذا حرم الإسلام الانتحار، الذي هو عدوان على إحدى الضرورات الخمس (النفس)، التي أؤتمن عليها الإنسان. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، لأن الإنسان ليس من حقه أن ينهي حياته -التي أُمر بالمحافظة عليها- تحت ضغط اليأس والقنوط، بينما الانتحار في الديمقراطيات الغربية ليس جريمة[2]. لأنهم يعتبرون الحياة مجرد حق شخصي، بينما يعتبرها الإنسان استخلافاً في الأرض لإقامة حكم الله فيها ولعمرانها.

بل يعد المدافع عن نفسه ضد العدوان عليها شهيداً. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد"[3].

وإذا كان الإعلان قد تكلم عن حق الإنسان في الحياة فإنه لم يتكلم عن حق الشعوب في الحياة من باب أولى، فلم يتكلم الإعلان عن حق البشرية في الحماية من أسلحة التدمير الشاملة التي استخدمها واضعو الإعلان في الحربين العالميتين، ولم يشر التقرير للغازات السامة التي استخدمها الغرب في الحرب العالمية الأولى، ولم يشر التقرير للقنابل النارية التي استخدمها الحلفاء ضد الألمان واليابانيين في الحرب العالمية الثانية، ولا للقنبلة الذرية التي استخدمها الأمريكان ضد اليابان لأول مرة في التاريخ.

وكذلك لم يتكلم الإعلان عن منع إبادة الشعوب الأصلية، لأن أهم واضعيه قامت دولهم على إبادة السكان الأصليين فيها.

فتوماس جيفرسون مثلاً الرئيس الثالث لأمريكا وكاتب وثيقة الاستقلال، والذي يفخر به الأمريكان ويعتبرونه من أشهر دعاة الحرية والديمقراطية، ومن أكثر الناس ألمعية في التاريخ، والذي كان يعتبر أن حرية الديانة وحرية الطباعة وحرية الشخص من الاعتقال الغير قانوني وحقه في المحاكمة العادلة هي

---

[1] تيسير علم أصول الفقه ج: ١ ص: ١٦.

[2] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Suicide, VII. ATTITUDES TOWARDS SUICIDE.

[3] قال الضياء المقدسي رحمه الله: إسناده حسن. الأحاديث المختارة- مسند سعيد بن زيد-حديثان رقم: ١٠٩٢ و١٠٩٣ ج: ٣ ص: ٢٩٢.

المبادئ التي كانت تهدي مسيرة الثورة والإصلاح[١]. توماس جيفرسون هذا كان هو وجيله لا يعتبرون الهنود الحمر من مواطني الولايات المتحدة، الذين لهم الحق في التمتع بالحقوق التي يفخر بها الأمريكان، بل لم يكونوا يعدونهم بشراً، وكانوا يرون أن الهنود الحمر ليس أمامهم إلا خياران، إما أن يندمجوا في الولايات المتحدة، ويعيشوا كأمريكان متحضرين، أو أن ينفوا في أماكن العزل غرب نهر المسيسبي، بعيداً عن أوطانهم وأراضيهم التي استولى عليها الأمريكان المتحضرون[٢].

"٢" وتكلم الإعلان عن الحق في حرية الضمير والديانة والرأي والتعبير والتجمع والاجتماع.

وهذا الكلام من باب الخداع والإيهام، فالموقعون على البيان -وعلى رأسهم أمريكا- لا يسمحون بحرية الرأي إلا في حدود معينة. وقد مر بنا من قبل موقفهم ممن يعادي السامية أو ممن ينكر المحرقة النازية، أو من يعادي الشواذ.

أما كلامهم عن الحرية الدينية فخداع آخر، فقد مر بنا موقفهم من تعدد الزوجات والحجاب والنقاب، وهي أمور شخصية لا تتعدى إلى التدخل في شؤون المجتمع، وكذلك موقفهم من بناء المآذن، وهو شأن داخلي شكلي للمسلمين، لا يتدخل في شؤون الآخرين.

أما كلامهم عن الحرية في اختيار الدين فراجع لاختلاف المقدس والمدنس في تصوراتهم، فالدين والأنبياء والمولى سبحانه وتعالى ليسوا من المقدسات عندهم، ولذا لا بأس من تغيير الدين أو مهاجمته والسخرية منه، أما المحافظة على السامية والإيمان بالمحرقة النازية وحرية الشذوذ الجنسي فهي من المقدسات عندهم، ولذا لا يسمحون لأحد أن يغير رأيه من التصديق بالمحرقة النازية إلى التكذيب بها، مع أن المحرقة النازية حادث تاريخي، وليس عقيدة ولا ديانة. ولا يسمحون أيضاً لأحد أن يصرح بما يعتبرونه معادياً للسامية حتى لو كان سامياً قحاً من أمثال العرب، أو حتى من اليهود أنفسهم، فليس العرب وأمثالهم من الساميين هم الذين يمنعون معاداتهم، وإنما الساميون المدافعون عنهم هم (اليهود) سواء كانوا ساميين أو غير ساميين، وكذلك يعد النقاب والحجاب وتعدد الزوجات وبناء المآذن من المدنسات عندهم فلا يسمح بها، ولا يجوز الاحتجاج بحرية ممارسة الشعائر الدينية على القيام بها كما مر بنا. مع التذكير أنهم في الوقت الذي يجرمون فيه تعدد الزوجات، بل ويشنون الحرب على من يمارسه، يسمحون بصور عديدة مقززة من شطحات الشذوذ الجنسي، ويعتبرونها من الحرية الشخصية التي لا يجب أن تمس، بل ويعتبرون احترامها مقياساً على تقدم الأمم.

---

[١] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Thomas Jefferson, quotations.

[٢] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Native Americans of North America, VI. HISTORY, Removal Trends, ١٨١٥ to ١٨٧٠.

والأصل الذي تنبع منه كل هذه التصورات أن الدين الذي يدينون به هو (استبداد هوى الأغلبية)، فما حرمه صار حراماً، وما أحله صار حلالاً، بل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والأمم المتحدة كلها ليست بذات قيمة عندهم إذا خالفت هوى الأغلبية.

فبالرغم من سيطرة أمريكا على الأمم المتحدة، فإنها لم تنتظر قرارها حتى تغزو العراق، بل غزته، بينما الأمم المتحدة لا زالت تتباحث في أسلحة صدام للدمار الشامل، وفرق تفتيشها لا زالت تعمل في العراق، بل وزعمت أمريكا أن القاعدة على صلة بنظام صدام، واستندت في الدعاية لذلك على بعض الهراء الذي سمته أدلة، ومنه الاعترافات التي انتزعت -تحت التعذيب- من الشهيد -كما نحسبه- الشيخ ابن الشيخ الليبي رحمه الله. ثم ثبت أن كل دعاوى أمريكا عن العراق كانت كذباً في كذب، وكذلك أصدرت الأمم المتحدة عشرات القرارات التي تدين فيها إسرائيل، ولكن الدول الغربية الديمقراطية لا تأبه لها، وكذلك قرار الأمم المتحدة بإجراء استفتاء حول تقرير المصير في كشمير صدر منذ قرابة ستين عاماً، ولا زال راقداً في مقبرة الأمم المتحدة، ولا تأبه له أية دولة غربية ديمقراطية.

"٣" وتحدث الإعلان عن الحق في الحماية من التوقيف العشوائي، والحق في محاكمة عادلة.

ولكن لم يتحدث عما هي العدالة وما هو العدل؟ وهذا يرجع بنا للسؤال الأول الذي يتناقض فيه العلمانيون، حينما يتكلمون عن الحق والمبادئ والعدل.... إلخ. بينما هم لا يرجعون لا في تصوراتهم النظرية ولا في ممارساتهم العملية لأية قيم ثابتة.

فالعدل عندهم فردياً هو ما يراه كل واحد منهم عدلاً، وجمعياً هو ما يراه أغلبية النواب في البرلمان عدلاً، ويحق لأولئك النواب أن يفعلوا ما يشاؤون دون ضابط ولا رابط ولا حسيب ولا رقيب، إلا هوى الأغلبية، ولذا لما كان للحزب الجمهوري في أمريكا مثلاً الأغلبية في الكونجرس، وكان الرئيس منهم، شنت أمريكا حرباً مدمرة مجرمة على العراق بناء على حفنة من الأكاذيب، لم تكلف نفسها حتى عبء الاعتذار عنها!!

أما العدل عند المسلمين فهو ما شرعه المولى سبحانه وأمر به. يقول عز من قائل: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيراً﴾.

وهذا الشرع الإلهي يفصل بين الجميع: بين الضعيف والقوي والحاكم والمحكوم. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

"أَلَا إِنِّي وَاللَّهِ مَا أُرْسِلُ عُمَّالِي إِلَيْكُمْ لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ، وَلَا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ، وَلَكِنْ أُرْسِلُهُمْ إِلَيْكُمْ لِيُعَلِّمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسُنَّتَكُمْ. فَمَنْ فُعِلَ بِهِ شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ، فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ. فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِذَنْ لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ. فَوَثَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. أَوَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَعِيَّةٍ فَأَدَّبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ أَئِنَّكَ لَمُقْتَصُّهُ مِنْهُ؟ قَالَ: إِي وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ. إِذَنْ لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُقِصُّ مِنْ نَفْسِهِ"[1].

بل يفصل حتى بين المسلمين وعدوهم. يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

"٤" وتكلم الإعلان عن الحق في الجنسية، ولكنه لم يتكلم -كما أسلفت- عن حق المسلمين -بل واجبهم- في أن ينتموا لدولة الخلافة، التي لا تفرق بين الناس على أساس الجنسية، وإنما الرابطة التي تقوم عليها هي الدين، الذي أنكره الإعلان كفارق بين الناس، بينما اعترف به واضعو الإعلان أساساً لقيام دولة إسرائيل.

بل لم يتحدث الإعلان عمن يفرضون الجنسية على المسلمين، ففرنسا مثلاً اعتبرت الجزائر جزءاً من فرنسا، واعتبرت الجزائريين مواطنين فرنسيين، وفرضت عليهم اللغة الفرنسية، واعتبرتها لغة الجزائريين، وفرضت عليهم فلسفتها العلمانية القومية وقوانينها وأنظمتها الصادرة عن تلك الفلسفة المتناقضة مع إسلام الجزائريين، واعتبرتها الفلسفة والقوانين والأنظمة التي يجب أن يلتزموا بها، ونحت تماماً الشريعة الإسلامية واللغة العربية، وحرمت التعامل بهما. وقهرت المسلمين في الجزائر على ذلك بقوة الحديد والنار، رغم مقاومة مسلمو الجزائر لتلك السياسة بكل ما يملكون.

وما كان للتقرير أن يشير لذلك وكاتبه دبلوماسي ورجل دولة فرنسي[2].

"٥" وتكلم الإعلان عن الحق في الملكية الشخصية. والملكية في الإسلام ليست حقاً بل هي استخلاف. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. ولذا يحرم إضاعة المال وإتلافه والتبذير فيه. يقول الحق تبارك وتعالى:

---

[1] مسند أحمد- مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه- حديث رقم: ٢٨٦ ج: ١ ص: ٤١. قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: حسن الإسناد [الحرية أو الطوفان ص: ٨٣].

[2] الكاتب الأصلي للإعلان العالمي لحقوق الإنسان هو رينيه كاسين، وهو قانوني ودبلوماسي ورجل دولة فرنسي ومؤسس منظمة اليونسكو [Microsoft Encarta ٢٠٠٨, René Cassin].

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾.

ويجب إنفاقه في تعمير الأرض، وليس في تدميرها، وفي العمل الصالح، وليس في البغي والظلم والعدوان.

ولم يشر الإعلان إلى أن حفظ المال ليس حقاً بل هو واجب كما بينت شريعة الإسلام، يبلغ المقتول في الدفاع عنه مرتبة الشهيد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: "فلا تعطه مالك". قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: "قاتله". قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: "فأنت شهيد". قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: "هو في النار"[1].

وكيف يقرر الإعلان ذلك؟ وواضعوه هم أكبر السراق والنهاب في تاريخ البشرية، الذين بنوا رفاهيتهم على سلب ونهب آلاف الملايين من الشعوب المحتلة المقهورة، التي كانوا لا يزالون يحتلونها وقت كتابتهم للبيان، وما زالوا يحتلونها حتى اليوم، بصور مختلفة وتحت مسميات متفرقة.

وكذلك لم يتحدث الإعلان عن وجوب حماية الإنسان من الاستغلال المالي والربا أحد أبشع صوره، الذي يبتز الفقراء الضعفاء لصالح الأغنياء الأقوياء، والذي تطورت صوره وأشكاله، حتى أصبح يبيع الوهم للفقراء والعامة وصغار المدخرين، ويكتنز عن طريق ذلك البيع أموالهم وثرواتهم.

وأنى له أن يتكلم عن ذلك؟ واقتصاد واضعيه ومصالحهم والقوى المتحكمة في حكوماتهم تقوم على الربا، الذي تتحكم به قلة ضئيلة في أموال الكثرة الغالبة.

"٦" وتحدث الإعلان عن الحق في مغادرة أي شخص لوطنه متى شاء وعودته له متى شاء. ولكنه لم يتحدث عن حق الملايين الذين طردهم واضعو الإعلان في العودة لأوطانهم وممتلكاتهم التي طردوا منها، فلم يتحدث الإعلان عن حق الهنود الحمر في العودة لأراضيهم وممتلكاتهم التي طردوا منها لمناطق العزل، ولم يتحدث الإعلان عن حق شعوب القوقاز المسلمة في العودة لأوطانهم، التي طردها منهم الروس القياصرة ثم الشيوعيون، ولم يتحدث الإعلان عن حق الفلسطينيين في العودة لأراضيهم التي طردوا منها، والتي قامت فوقها دولة إسرائيل قبل صدور البيان بسبعة أشهر، التي أيدها ودعمها ثم اعترف بها واضعو الإعلان؛ الحلفاء المنتصرون في الحرب العالمية الثانية.

يقول الدكتور المسيري رحمه الله:

---

[1] صحيح مسلم- كتاب الإيمان- باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم في حقه وإن قتل كان في النار وأن من قتل دون ماله فهو شهيد- حديث رقم: ٢٠١ ج: ١ ص: ٢٠١.

"قامت إسرائيل كدولة صهيونية من خلال ما يُسمَّى بالشرعية الدولية المتمثلة في قرار الجمعية العمومية المتحدة في نوفمبر عام ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين، مع أن هذا القرار يتناقض مع المبادئ المنصوص عليها في ميثاق الأمم المتحدة، لأنه صادر إرادة شعب فلسطين وحقه في تقرير مصيره، فضلاً عن أن تهجير تجمعات بشرية إلى وطن يسكنه شعبه رغم إرادة هذا الشعب، ثم إعطاء هؤلاء المهاجرين حق سلب جزء من الوطن، عمل يتناقض مع الحقوق الطبيعية للشعوب التي نص عليها ميثاق الأمم المتحدة وإعلان حقوق الإنسان".[1]

"٧" وتكلم الإعلان عن الحق في تكوين الإسرة، ولكنه لم يتكلم عن حق الإنسان في حماية عرضه، وهو أحد الضرورات الخمس، التي أمرت الشريعة بالمحافظة عليها، وجعلت ذلك من الفروض الكفائية على الأمة المسلمة، كما تقدم.

ومن أهم وسائل حماية العرض؛ الحماية من الإغواء والفتنة والاستدراج للفاحشة، الذي تقوم به تجارة اللذة والمتعة، التي تعد من الركائز الاقتصادية الهامة، بل ومن المقاصد الاجتماعية الأساسية، التي تمارس على أوسع نطاق، وتقوم عليها صناعة ضخمة، تكتسب بسبب قوتها المالية قوة سياسية ضخمة في المجتمع الغربي.

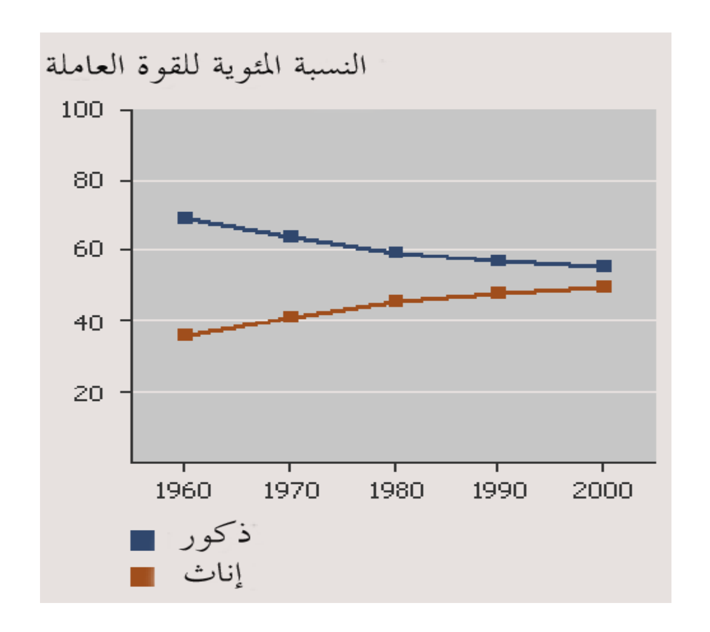
وهي صناعة تحط من كرامة الإنسان وشرفه، وخاصة النساء، اللواتي تدفع الكثير منهن ضرورة السعي على المعاش -في مجتمع لا يكفلهن، ولا يعرف قيمة للأخلاق والعفة- إلى التورط في تلك التجارة المهينة للبشر، بكل أشكالها وتنويعاتها.

"٨" وتكلم الإعلان عن دعم الأمومة والطفولة، ولكنه لم يتحدث عن حق المرأة في الكفالة أماً وبنتاً وزوجة وأختاً، وهو الحق الذي كفله لها الإسلام. لأن الإعلان نشأ من تصور غربي مادي، لا يؤمن بالعلاقة التراحمية التكافلية بين الأفراد، بل ينفض يده من كفالة المرأة، ويدفعها لسوق العمل، تكدح فيه وتنافس الرجال، لأنها لا تُكفل، وبالتالي فإذا لم تعمل وتكدح فستهلك، بل والأشنع والأسفل من ذلك أنه يستخدمها كسلعة تروج للبضائع، وتجلب الزبائن، وتقدم المتعة واللذة.

والخاسر على كل حال هم الأطفال والأسرة والمجتمع المتحلل. ثم بعد أن تستنفذ طاقتها في الكدح في سوق العمل، يحيلها أبناؤها -الذين لم تربيهم على التراحم، وألقت بهم لدور الحضانة ليحصلوا على الحنان بالأجر- لبيوت العجزة والمسنين لتموت هناك في هدوء بعيداً عنهم.

---

[1] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد السابع: إسرائيل.. المستوطن الصهيوني- الجزء الأول: إشكالية التطبيع والدولة الوظيفية- الباب الأول :إشكالية التطبيع- السمات الأساسية للمشروع الصهيوني ج: ٧ ص: ٦.



رسم بياني يوضح توزيع القوة العاملة بين الإناث والذكور في الولايات المتحدة في الفترة بين عامي ١٩٦٠م و٢٠٠٠م[١].

ويلاحظ من الرسم البياني المبين أعلاه تعاظم نسبة الإناث في القوة العاملة بالولايات المتحدة، حتى تكاد تقارب الخمسين بالمئة في العقد الأخير. فكم من النساء بقين في بيوتهن لرعاية أطفالهن؟

"٩" وتكلم الإعلان عن الحق في التعليم، وعن أن يوجه التعليم نحو التنمية الكاملة للشخصية الإنسانية، ولكنه لم يتكلم عن أن تنمية الشخصية الإنسانية تستوجب المحافظة على العقل، وهو أحد الضرورات الخمس التي ترى الشريعة ضرورة المحافظة عليها. وأنى للإعلان أن يتحدث عن المحافظة على العقل وواضعوه هم من تمثل تجارة تغييب العقل ركناً أساسياً من اقتصادهم. وقد مر بنا الحديث عن الخمر ومحاولة تحريمها في الولايات المتحدة، لأنهم اعتبروها شراً مدمراً للأسرة والمجتمع، ولا ينفك عنها عدد من الشرور المنحطة. بل من المخزي أن كثيراً من الأديرة النصرانية –التي تزعم أنها مراكز لترقية الإنسان عن شهواته الحيوانية– كانت ولا زالت تتنافس في صناعة أجود أنواع الخمر المعتق.

ولم يقتصر الأمر على الخمر، بل لقد خاضت بريطانيا وفرنسا الديمقراطيتان حربي الأفيون ضد الصين المتخلفة الرجعية (١٨٣٩م- ١٨٤٢م، و١٨٥٦- ١٨٦٠م)، لتجبر الأخيرة على السماح للتجار الغربيين بجلب كميات هائلة من الأفيون للصين، والتي حققوا منها أرباحاً طائلة، وكانت نتيجة تلك الحربين استشراء الإدمان في الصين بالإضافة لفقدان الصين لاستقلالها السياسي والاقتصادي[٢].

---

[١] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, United States People.

[٢] Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Opium Wars.

"١٠" وإذا كنت قد أشرت فيما سبق لبعض لحقوق التي تكلم عنها الإعلان، وعلقت عليها بذكر الحقوق التي لم يذكرها الإعلان مما يقاربها ويقارنها. إلا أني هنا أود أن أشير لحق تكتم عنه الإعلان تماماً، ولم يشر إليه، ألا وهو حق الإنسان في مقاومة الظلم، وحق المظلومين في مقاومة ظالميهم. وحق المقاومة للشعوب المظلومة المحتلة ضد الاستكبار الغربي، وما كان لواضعيه أن يتكلموا عن ذلك وهم أكابر المستكبرين المنتصرين في الحرب العالمية الثانية، الذين كانوا يحتلون أجزاء واسعة من آسيا وإفريقيا في وقت صدوره.

بينما الحق في مقاومة الظلم أصل أصيل في الإسلام. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ويقول سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام ليس حقاً فقط، بل هو فريضة كفائية، قد تصير عينية.

فعلى المستوى الفردي يمدح الشرع من قتل في سبيل الصدع بالحق، ويعده شهيداً، قال رسول الله T: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"[1].

وكذا يمدح من قاتل عن حقه ضد من سعى في العدوان عليه واغتصابه. فعن ابن عباس عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: "من قتل دون مظلمته فهو شهيد"[1].

---

[1] المستدرك على الصحيحين– كتاب الفتن والملاحم– حديث رقم: ٨٥٤٣ ج: ٤ ص: ٥٥١، مجمع الزوائد– باب الكلام بالحق عند الحكام ج: ٧ ص: ٢٧٢، سنن أبي داود– كتاب الملاحم– باب الأمر والنهي– حديث رقم: ٤٣٤٤ ج: ٤ ص: ١٢٤، سنن ابن ماجه– كتاب الفتن– باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر– حديث رقم: ٤٠١١ و٤٠١٢ ج: ٢ ص: ١٣٢٩ و١٣٣٠، مسند أحمد– مسند أبي سعيد الخدري–حديث رقم: ١١١٥٩ ج: ٣ ص: ١٩.

قال الترمذي: "وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه". [سنن الترمذي– كتاب الفتن– باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر– حديث رقم: ٢١٧٤ ج: ٤ ص: ٤٧١، كشف الخفاء– حرف الهمزة– حرف الهمزة مع الفاء– حديث رقم: ٤٥٧ ج: ١ ص: ١٧٣].

وقال الحسيني رحمه الله: "وقال في الرياض: رواه النسائي بإسناد صحيح، وكذا قال المنذري فالمتن صحيح". [البيان والتعريف– حرف الهمزة– الهمزة مع الفاء– حديث رقم: ٣٠٤ ج: ١ ص: ١١٨ و١١٩، السنن الكبرى للنسائي– كتاب البيعة– فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر– حديث رقم: ٧٨٣٤ ج: ٤ ص: ٤٣٥ ، فيض القدير– حرف الهمزة ج: ٢ ص: ٣١].

وقال ابن تيمية رحمه الله:

"ويجوز للمظلومين الذين تراد أموالهم قتل المحاربين بإجماع المسلمين، ولا يجب أن يبذل لهم من المال لا قليل ولا كثير إذا أمكن قتالهم. فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون حرمته فهو شهيد".

وهذا الذي يسميه الفقهاء الصائل، وهو الظالم بلا تأويل ولا ولاية. فإذا كان مطلوبه المال جاز منعه بما يمكن، فإذا لم يندفع إلا بالقتال قوتل، وإن ترك القتال وأعطاهم شيئا من المال جاز.

وأما إذا كان مطلوبه الحرمة، مثل أن يطلب الزنا بمحارم الإنسان، أو يطلب من المرأة أو الصبي المملوك أو غيره الفجور به، فإنه يجب عليه أن يدفع نفسه بما يمكن ولو بالقتال، ولا يجوز التمكين منه بحال، بخلاف المال فإنه يجوز التمكين منه، لأن بذل المال جائز وبذل الفجور بالنفس أو بالحرمة غير جائز.

وأما إذا كان مقصوده قتل الإنسان جاز له الدفع عن نفسه، وهل يجب عليه قتله أم لا؟ على قولين للعلماء في مذهب أحمد وغيره" [٢].

هذا على المستوى الفردي، أما على مستوى البلد والمجتمع بل وكل الأمة المسلمة، فإن التصدي للظلم والعدوان قد يصير فرضاً على كل مسلم، ومن أمثلة ذلك إذا داهم العدو بلدة للمسلمين وجب على أهلها الدفع وجوباً عينياً. وقال شهيد الإسلام -كما نحسبه- الشيخ عبد الله عزام -رحمه الله- عن حالات تعين الجهاد:

"الحالة الأولى: دخول الكفار بلدة من بلاد المسلمين:

ففي هذه الحالة اتفق السلف والخلف وفقهاء المذاهب الأربعة والمحدثون والمفسرون في جميع العصور الإسلامية إطلاقاً أن الجهاد في هذه الحالة يصبح فرض عين على أهل هذه البلدة -التي هاجمها الكفار- وعلى من قرب منهم، بحيث يخرج الولد دون إذن والده، والزوجة دون إذن زوجها، والمدين دون إذن دائنه، فإن لم يكف أهل تلك البلدة أو قصروا أو تكاسلوا أو قعدوا يتوسع فرض العين على شكل دوائر الأقرب فالأقرب، فإن لم يكفوا أو قصروا فعلى من يليهم ثم على من يليهم حتى يعم فرض العين الأرض كلها" [٣].

---

[١] قال الهيثمي رحمه الله: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد- كتاب قتال اهل البغي- باب فيمن قتل دون حقه وأهله وماله ج: ٦ ص: ٢٤٤].

[٢] دقائق التفسيرلابن تيمية- فصل في عقوبة المحاربين وقطاع الطريق ج: ٢ ص: ٤٠.

[٣] الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان ص: ١٠.

كان ما سبق نظرة موجزة في أهم وثيقتين يشيد بهما دعاة حقوق الإنسان (الأبيض)، ولا يتسع المقام لتتبع بقية وثائقهم، التي لا تختلف في روح كتابتها عما تعرضت له، ومن هذا يتبين أن حقوق الإنسان (الأبيض)، هي حقوق إنسان الحلفاء المنتصرين في الحربين العالميتين المستكبرين علينا، بتصوراتهم ومصالحهم وإرادتهم التي يفرضونها على غيرهم والمسلمين خاصة.

(ب) حقوق الإنسان (الأبيض) عملياً:

بعد التعرض لما يسمونه بحقوق الإنسان نظرياً، فلا بد من كلمة حول تطبيقهم لمبادئهم عملياً، وأظن أني لا أحتاج للتدليل بأن المستكبرين -وخاصة في الغرب- لم يلتزموا حتى بالمبادئ التي أعلنوها، وزعموا أنهم يسعون لتطبيقها، وأظن أن ما ذكرته في الفصول السابقة وما شاهده العالم كله ويشاهده في فلسطين والعراق وأفغانستان وجوانتانامو والسجون السرية والحرب على الإرهاب، بل وفي سجون حلفاء الغرب، الذين يتسلطون علينا، أظن أن كل ذلك كاف لكل عاقل ليوقن أن المستكبرين -من دول الغرب خاصة- يمارسون النفاق السياسي في أجلى صوره، ويعتبرون أنفسهم أعلى وأرقى من أن يلتزموا بمبادئ حقوق الإنسان (الأبيض)، التي يجب أن يلتزم بها الفقراء الضعفاء من غيرهم فقط.

(٤) الدولة القومية:

الصنم الرابع من أصنام الطاغوت الذي أشير له بإيجاز هو صنم الدولة القومية[١].

(أ) الدولة القومية نظرياً:

من الناحية النظرية تتناقض الدولة القومية مع العقيدة الإسلامية.

[١] فعلاقتها بالعلمانية علاقة تلازم متبادل، فالعلمانية والدولة القومية جزآن لا ينفصلان، فالعلمانيون إذا أرادوا أن ينشؤوا دولة فلا بد أن يستبعدوا الدين منها، فلن يجدوا أفضل من الرابط القومي الوطني الأرضي مرجعية لدولتهم، وكذلك إذا أراد القوميون أن يتخذوا لدولتهم مرجعيتها فلن يجدوا أنسب لها من العلمانية التي تستبعد الدين، حتى يهمشوا الدين كمرجعية قد تفرق قومهم.

[٢] وكذلك تجعل الدولة القومية نفسها بديلاً عن الدين كمرجعية، فهي المرجعية العليا، التي يجب أن ترجع التصورات والتصرفات إليها.

يقول الدكتور المسيري رحمه الله:

"ومع الثورة البورجوازية، يظهر الفكر القومي العضوي والدولة القومية المركزية العلمانية المطلقة، وهي دولة تجعل ذاتها موضع الحلول والكمون الوحيد، وأقصى تَركُّز له، والمركز (الموضوع) الوحيد الذي يلتف حوله المواطنون. فالدولة القومية تطلب من الجميع التخلي

---

[١] تعرف موسوعة إنكارتا الدولة القومية بأنها:

"إقليم تحكمه حكومة واحدة، ويقطنه شعب واحد، له ثقافة واحدة، تشكل هوية مواطنية".

[Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Nation-State].

عن هويتهم ليدينوا لها وحدها بالولاء، وعليهم التخلي عن مطلقاتهم الدينية (أو على الأقل إخفاؤها) داخل ما يُسمَّى بالحياة الخاصة خارج رقعة الحياة العامة أو المدنية، أي أن الحلولية الكمونية القومية تحل محل كل الحلوليات الهامشية، وضمنها حلولية أعضاء الجماعة الوظيفية، إذ يَتجسَّد المركز في الدولة المطلقة وعلى كل الأطراف اتباعه. وبسيادة الدولة القومية، وتَزايُد عمليات الترشيد في المجتمع، تتم حوسلة كل أعضاء المجتمع ويتوحد الجميع بالمبدأ الواحد والمطلق العلماني والركيزة النهائية (مصلحة الدولة)، ويدخل الجميع في علاقات تعاقدية نفعية وظيفية.

....

وهكذا، يسود الفكر العلماني، أي الفكر الحلولي الكموني المادي (وهذا ما سماه ماركس عملية "تهويد المجتمع"). وحين يسود هذا الوضع على المستوى العالمي، ويتم فرض الواحدية على شعوب الأرض كافة، فإننا ندخل عصر الحلولية الشاملة السائلة وما بعد الحداثة والنظام العالمي الجديد" [١].

ويضيف أيضاً:

"ونحن نذهب إلى أن المجتمع العلماني الحديث يستند إلى فكرة القانون الطبيعي/المادي والتعاقد ومبدأ المنفعة (واللذة). وتظهر الدولة القومية العلمانية المركزية التي تضطلع بدور الجماعة الوظيفية وتقضي على كل الجماعات والمؤسسات الوسيطة والجماعات الوظيفية وتحوِّل كل أعضاء المجتمع إلى مواطنين يتم توظيفهم وحوسلتهم لصالح الدولة القومية ولأي هدف يقرره القائمون عليها، ومن ذلك تحقيق المنفعة واللذة لأعضاء المجتمع. ولذا، يتحول كل البشر إلى بشر وظيفيين يشبهون، في كثير من الوجوه، المتعاقدين الغرباء الذين لا تربطهم علاقات جوانية تراحمية وإنما يدخلون في علاقات رشيدة محسوسة. ولعل هذا هو مصير الإنسان العلماني الذي يُعمل عقله في كل شيء وينزع القداسة عن كل شيء" [٢].

(ب) الدولة القومية عملياً:

---

[١] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظرى- الجزء الخامس: الجماعات الوظيفية- الجزء الخامس: الجماعات الوظيفية- الباب الثانى: الجماعات الوظيفية والحلولية والعلمانية الشاملة- الحلولية الكمونية الواحدية والجماعات الوظيفية ج: ١ ص: ٢٣١.

[٢] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظرى- الجزء الخامس: الجماعات الوظيفية- الجزء الخامس: الجماعات الوظيفية- الباب الثانى: الجماعات الوظيفية والحلولية والعلمانية الشاملة- الحلولية الكمونية الواحدية والجماعات الوظيفية ج: ١ ص: ٢٣٣.

فرضت الدولة القومية علينا كمسلمين قهراً وجبراً وكرهاً وغصباً، وذلك عن طريق حملة العالم الغربي العلماني الصليبي الهوى والنزعة على أطراف الدولة العثمانية وعلى الدول الإسلامية في الهند والقوقاز وما وراء النهر وشرق آسيا، ثم اكتمل هذا الاستيلاء باتفاقية سايكس بيكو التي أشرت لها، وبذلك تحولت ديار الإسلام إلى أكثر من خمسين دولة قومية متفتتة منفصلة، ولا زال التفتيت مستمراً.

يقول الأستاذ لويس عطية الله:

"لا بد من توضيح قضية مهمة وهي أن هذه الدول القطرية أو الدول "المركزية" الحديثة، مثل الدول التي نراها اليوم هي نماذج صنعها الغرب لتمكينهم من تثبيت مشروعهم الاستعماري الاستنزافي العام للمشرق الإسلامي.

وهذه الدول لا حقيقة شرعية لها ولا أسس تعطيها الحق في الوجود ولا سند شعبي لها، وقد فرضت فرضاً على شعوب المسلمين، وبقاؤها في الأصل مرتبطٌ بالقوى الغربية التي صنعتها، ولذا فإن الهدف العام للجهاد والمجاهدين هو ضرب أسس وبنية المشروع الاستعماري الغربي أو ما يمكن تسميته بالنظام الدولي، أو بعبارة أوضح هزيمة الصليبيين في المعركة الدائرة منذ أكثر من قرن تقريباً.

إن هزيمتهم ببساطة تعني إلغاء كل أشكال القطرية ليبقى الوجود الطبيعي المعترف به في الإسلام، وهو الكيان الإقليمي الذي يندرج ضمن الدولة الإسلامية الكبرى، إن إخراج المستعمر وطرده من بلاد المسلمين يعني ببساطة إلغاء الحدود وكل أشكال القطرية التي صنعها الغرب"[1].

٢- شبهات العلمانيين وأضرابهم:

أتعرض هنا بإيجاز شديد لأهم شبهات العلمانيين مع رد مقتضب عليها.

أ- الاستبداد السياسي:

يزعم العلمانيون (اللادينيون) أن الدين كان سبباً في الاستبداد السياسي، ولذا يجب فصله عن الدين. والجواب باختصار شديد:

(١) أن الاستبداد الذي مورس في تاريخنا كان خروجاً عن تعاليم الإسلام، ولم يكن اتباعاً لها[2].

(٢) وأقول لهم: رمتني بدائها وانسلت.

(أ) فإن القهر والتنكيل الذي تمارسه حكومات العالم العربي والإسلامي العلمانية القومية وتفننها في النكال بشعوبها، لا يترك لأي علماني بقية من حياء ليصم المسلمين بالاستبداد.

(ب) المستبدون في عالمنا العربي والإسلامي هم العلمانيون أصدقاء الغرب وحلفاؤه.

---

[1] حوار الأستاذ لويس عطية الله مع مجلة "صوت الجهاد"١٤٢٤ هـ.

[2] راجع لتفصيل الرد على هذه الفرية: العلمانيون والإسلام- الدين الحق ص: ٤٦ إلى ٥٥.

(ج) القهر الذي مارسته الدول الغربية العلمانية -التي يطالبنا العلمانيون باقتفاء أثرها- ضدنا وضد غيرنا، يمثل تاريخاً مخزياً، لا يشرف أي علماني.

(٣) إن الحكومة التي نطالب بها ليست حكومة البابوات، ولا حكومة الولي الفقيه، الذي يتحدث باسم الإمام الغائب في السرداب، ولكنها حكومة الخلافة الراشدة، التي تقوم على حاكمية الشريعة، وليس على هوى الأغلبية، والتي تختار الأمة فيها حكامها، الذين لا يتمتعون بأية عصمة أو قداسة، وتحاسبهم، وتعزلهم إن انحرفوا، وتشارك في صنع قراراتها وتحديد مصيرها في ضوء الشرع وفي هدي الكتاب والسنة.

ب- التخلف بين الدول:

يزعم العلمانيون أن الغرب قد تقدم في الحضارة والعلم لما تنكر للدين، وأقول لهم: ونحن تخلفنا عن الحضارة والعلم لما ابتعدنا عن الدين.

وقد يقول العلمانيون: دعونا من السرد التاريخي لظروف نشوء العلمانية في الغرب، لنكن أبناء اليوم، ولننظر في العلمانية كحل لإنقاذ البشرية.

وأقول لهم: لا بأس. ولكن يلزمكم أن تكفوا إذن عن المقولة المكررة: أن الدين سبب التخلف.

الدين عندنا تاريخياً كان سبب التقدم، وعند الغرب سبب التخلف.

فإذا أردتم أن نتوقف عن الكلام عن الخلفية التاريخية لعلمانياتكم فيلزمكم أيضاً أن تتوقفوا عن مقولتكم بأن الدين سبب التخلف. وتطرحوا اعتراضاتكم بعيداً عن نظرياتكم التاريخية المسروقة من الغرب.

ج- اضطهاد الأقليات.

ويزعم العلمانيون أن النظام الإسلامي يضطهد الأقليات، وأقول لهم لماذا لا تسمحون للأمريكي في فرنسا أن يكون رئيساً للجمهورية؟

إن الدول الديمقراطية تتباكى على حقوق الأقليات، وتتغافل أن عقيدتها أساساً قائمة على استبداد هوى الأغلبية وقهر الأقلية بمجرد الهوى والرغبة.

د- اضطهاد المرأة:

ويزعم العلمانيون وكتاب الحملة الصليبية الفكرية أن الإسلام يضطهد المرأة، وأقول لهم أيهما أشرف للمرأة والإنسانية؛ المرأة المضطهدة -في زعمكم- أم المرأة السلعة في سوقكم.

٣- الحل: دولة الخلافة.

في ختام هذا العرض الموجز لحملة التضليل الفكرية الصليبية، يبقى التأكيد على أن خلاص البشرية ليس في العلمانية المادية ولا هوى الأغلبية، ولا في الدين المحرف، وإنما في دولة الخلافة التي تقوم على الشرع المنزل الصحيح، والتي تنشر العدل وتبسط الشورى، وتختار حكامها وتحاسبهم، وتعزلهم إن انحرفوا، وتأمر

بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتجاهد لتحرير ديار المسلمين، ولتحرير البشرية كل البشرية من الظلم كل الظلم ومن الجاهلية كل الجاهلية. ﴿وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

***

كان هذا عرضاً موجزاً للرد على الأسس الفكرية لأباطيل الحملة الصليبية الفكرية، عسى أن يكون حافزاً لكل غيور على الإسلام أن يبذل كل ما يستطيع لكشف أباطيل أولئك الدعاة، الذين يسعون بأقلامهم وأقوالهم عبثاً ليطفئوا بأفواههم نور الإسلام الساطع، ليمهدوا لاحتلال ديارنا، ونهب ثرواتنا، وفرض التبعية والذل علينا. يقول الحق سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿ ٣١ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿ ٣٢ ﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

فَوَحَقِّ نِعمَتِكَ التي أوليتَني　　وَجَعلتَ قَلبِي وَاعِيَ القُرآنِ

لأجَاهِدَنَّ عِدَاكَ مَا أبقيتَني　　ولأجعلَنَّ قِتَالَهُم دَيدَانِي

ولأفضَحَنَّهُمُ عَلَى رُوسِ المَلا　　ولأفرِيَنَّ أدِيمَهُم بِلسَانِ

ولأحمِلَنَّ عَليهِمُ بعَسَاكِرٍ　　لَيسَت تَفِرُّ إذَا التَقَى الزَّحفَانِ

بِعَسَاكِرِ الوَحيَينِ والفِطَرَاتِ وال　　مَعقُولِ وَالمَنقُولِ بالإحسَانِ

حَتَّى يَبِينَ لِمَن لَهُ عَقلٌ مِنَ ال　　أولَى بِحُكمِ العَقلِ وَالبُرهَانِ

وَلأنـصَحَـنَّ اللهَ ثُـمَّ رَسُـولَـهُ　　وَكِتَـابَـهُ وَشَـرَائـعَ الإيـمَانِ

إن شَـاءَ رَبِّي ذَا يَكُونُ بِحَوِلهِ　　أو لَم يَشَأ فَالأمرُ للرَّحمَـنِ[1]

---

[1] الأبيات مقتطفة من نونية ابن القيم -رحمه الله- ج: ١ ص: ١٧٥ و١٧٦.

المبحث الخامس

التنبه للجانب السياسي لحرب الصليبيين الفكرية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ ١١٨ ﴾ هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿ ١١٩ ﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

أشير في هذا المبحث بإيجاز لبعض الأغراض السياسية الخطيرة التي تخفيها دعوات حملة الحرب الصليبية الفكرية، وأتناول ذلك -بعون الله- تحت العناوين التالية.

١- تمهيد.

٢- العلمانية والاستكبار[١].

٣- ما بعد الحداثة والنظام العالمي الجديد.

٤- ما هي الحرية والعلمانية التي يريدها الغرب منا؟

***

١- تمهيد:

الحرب على الإسلام التي يشنها أعداؤه منذ أن ظهرت رسالته حتى اليوم تهدف ليس فقط إلى الاستيلاء على دياره وثرواته، ولكن تهدف أيضاً لتحويل أتباعه لمنهزمين فكرياً، حتى يمكن استغلالهم وتسخيرهم في النظام الجاهلي المعادي للإسلام، وعن هؤلاء المنهزمين فكرياً يقول العلامة محمود شاكر

---

[١] أرى أن استعمال مصطلح (الاستكبار) أفضل من مصطلحي (الإمبريالية) أو (الاستعمار)، فالاستكبار لفظ قرآني استعمل وصفاً لمن يريدون علواً في الأرض وفساداً.

(في تقديمه لكتاب الظاهرة القرآنية– مشكلات الحضارة– مالك بن نبي–ترجمة د عبد الصبور شاهين–الهيئة العامة لقصور الثقافة):

"انبعثت الحضارة الأوربية، ثم انطلقت بكل سلاحها لتخوض في قلب العالم الإسلامي، أكبر معركة في تاريخنا وتاريخهم، وهي معركة لم يحط بأساليبها وميادينها أحد بعد في هذا العالم الإسلامي (...) لم تكن المعركة الجديدة بين العالم الأوربي المسيحي، وبين العالم الإسلامي، معركة في ميدان واحد، بل كانت معركة في ميدانين: ميدان الحرب، وميدان الثقافة، ولم يلبث العالم الإسلامي أن ألقى السلاح في ميدان الحرب، لأسباب معروفة، أما ميدان الثقافة، فقد بقيت المعارك فيه متتابعة جيلاً بعد جيل، بل عاماً بعد عام، بل يوماً بعد يوم، وكانت هذه المعركة أخطر المعركتين، وأبعدهما أثراً، وأشدهما تقويضاً للحياة الإسلامية والعقل الإسلامي، وكان عدونا يعلم ما لا نعلم، ويدرك من أسرارها ووسائلها ما لا ندرك، ويعرف من ميادينها ما لا نعرف، ويصطنع لها من الأسلحة ما لا نصطنع، ويجرى لهما من الأسباب القاضية إلى هلاكنا ما لا نحصى أو نلقى إليه بالاً، وأعانه وأيده أن سقطت الدول الإسلامية جميعاً مهزومة في ميدان الحرب، فسقط في يده مقاليد أمورها في كل ميدان من ميادين الحياة (...) والأساليب التي يتخذها العدو للقتال في معركة الثقافة، أساليب لا تعد ولا تحصى، لأنها تتغير و تتبدل وتتجدد على اختلاف الميادين وتراحبها وكثرتها، وأسلحة القتال فيها أخفى الأسلحة".

ثم يستطرد العلامة قائلاً:

"وقد كان ما أراد الله أن يكون، وتتابعت هزائم العالم الإسلامي، في ميدان الثقافة جيلاً بعد جيل، وكما بقيت معارك الحرب متتابعة سراً مكتوماً لا يتدارسه قادة الجيوش الإسلامية وجندها حتى هذا اليوم، بقيت أيضا معارك الثقافة على تطاولها، سراً خافياً لا يتدارسه قادة الثقافة الإسلامية وجندها، بل أكثر من ذلك: فقد أصبح أكثر قادة الثقافة في العالم الإسلامي وأصبح جنودها أيضاً، تبعاً يأتمرون بأمر القادة من أعدائهم، عارفين أو جاهلين أنهم هم أنفسهم قد انقلبوا عدواً للعقل الإسلامي الذي ينتسبون إليه، بل الذي يدافعون عنه أحياناً دفاع غيرة وإخلاص. لم يكن غرض العدو أن يقارع ثقافة بثقافة، أو أن ينازل ضلالاً بهدى، أو أن يصارع باطلاً بحق، أو أن يمحو أسباب ضعف بأسباب قوة بل كان غرضه الأول والأخير أن يترك في ميدان الثقافة في العالم الإسلامي، جرحى وصرعى لا تقوم لهم قائمة، وينصب في أرجائه عقولاً لا تدرك إلا ما يريد لها هو أن تعرف، فكانت جرائمه في تحطيم أعظم ثقافة إنسانية عرفت إلى اليوم، كجرائمه في تحطيم

الدول وإعجازها مثلاً بمثل، وقد كان ما أراد الله أن يكون، وظفر العدو فينا بما كان يبغي ويريد" [١].

وتزيد تشريل بينارد الأمر وضوحاً فتبين لماذا يجب أن يتدخل الغرب في الصراع الروحي والسياسي الدائر في العالم الإسلامي، فتقول:

"الإسلام المعاصر في حالة من الغليان، ومتورط في نضال داخلي وخارجي حول قيمه وهويته ومكانه في العالم. وهناك صور متنافسة منه تتنازع من أجل السيطرة الروحية والسياسية. وهذا الصراع له تبعات خطيرة وآثار اقتصادية واجتماعية وسياسية وأمنية على سائر العالم.

وبالتالي فإن الغرب يبذل جهداً زائداً ليصل لتفاهم ويفهم ويؤثر في نتيجة هذا الصراع.

وبالتأكيد فإن الولايات المتحدة والعالم الصناعي المعاصر بل -وفي الحقيقة- المجتمع الدولي يفضل عالماً إسلامياً متوافقاً مع بقية النظام؛ ديمقراطياً منتعشاً اقتصادياً مستقراً سياسياً ويتبع قواعد وأعراف السلوك الدولي. كما أنهم أيضاً يريدون منع (صدام الحضارات) بكل أشكاله الممكنة، من التوتر الداخلي بين الأقليات المسلمة والجماهير الأصلية في الغرب، إلى العسكرة المتزايدة عبر العالم الإسلامي بتابعيها؛ عدم الاستقرار والإرهاب.

ولهذا فإنه من الحكمة أن نشجع العناصر داخل التركيبة الإسلامية، التي هي أكثر توافقاً مع السلم العالمي والمجتمع الدولي، والميالة للديمقراطية والحداثة" [٢].

إذن فالمطلوب دعم العناصر المتوافقة فكرياً مع الغرب، حتى يتبع العالم الإسلامي قواعد وأعراف السلوك الدولي، ويصير أكثر توافقاً مع السلم العالمي والمجتمع الدولي، أي أن يكون تابعاً طيعاً منساقاً مستسلماً لا يعترض ولا ينتفض، ولا يقاوم سيطرة وهيمنة السادة الكبار والقوى العظمى، أو بعبارة أصرح أن يقبل بعضوية الجمعية العامة للأمم المتحدة، ليكون راضخاً لإرادة الخمسة الكبار، الذين يفرضون عليه ما يشاؤن من قرارات، ويلوحون في وجهه بالفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، فإن لم يرعوي وينزجر، فالجيوش الجرارة، والأساطيل الجبارة، والأسراب الهدارة على أهبة الاستعداد للغزو والقصف والقتل والحرق والتدمير، وخلع الحكومات وتنصيب الحكام الجدد بديمقراطية البي ٥٢ وحرية جوانتانامو وحقوق الإنسان في السجون السرية.

---

[١] أمريكا بدأت هجومها العام والشامل على الإسلام. ابن لادن- وليس أبو جهل و أبو لهب- هو الحل.

[٢] CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ix.

هذه هي أهداف حملة التضليل الفكرية الصليبية إذن، والتي سأحاول أن أشير لبعض معالمها بإيجاز –بعون الله– فيما يلي:

***

٢– العلمانية والاستكبار:

العلمانية هي واحدة من أهم العقائد التي تزينها حملة التضليل الصليبية، وتقدمها على أنها رمز التحضر والتمدن والترقي، ولكن ما تخفيه وتتجاهله هذه الحملة، أن تلك العلمانية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالاستكبار العالمي، بل إنه يعد أهم تجلياتها ومظاهرها السياسية والعسكرية، وقد بدا هذا الارتباط شديد الظهور في عالمنا الإسلامي خاصة، وسأحاول أن أشير لبعض ملامح ذلك الترابط بإيجاز عبر العناوين التالية:

أ– القوانين العلمانية مقدمة التدخل الأجنبي.

ب– العلمانية هي الإطار المعرفي للاستكبار الدولي.

ج– التوظيف السياسي للدارونية.

د– التوظيف السياسي للإعلام العلماني.

هـ– انهزامية الفكر العلماني العربي.

***

أ– القوانين العلمانية مقدمة التدخل الأجنبي:

لم تدخل العلمانية بقوانينها ونظمها بلاد الإسلام باختيار المسلمين وقناعتهم، ولكنها فرضت عليهم فرضاً بحديد الغازي المحتل وناره وقده وقديده. فلم تطأ أقدام المحتل الغازي بلداً من بلادنا إلا وسارع إلى إزاحة الشريعة الإسلامية وتنحيتها وإحلال القوانين الوضعية العلمانية محلها.

يقول الدكتور محمد عمارة عن ذلك:

"وفي كل موقع من بلاد الإسلام قامت فيه للاستعمار الغربي سلطة ودولة، أخذ هذا الاستعمار –شيئاً فشيئاً– يُحل النزعة العلمانية في تدبير الدولة وحكم المجتمع وتنظيم العمران محل "الإسلامية"، ويزرع القانون الوضعي العلماني حيثما يقتلع شريعة الإسلام وفقه معاملاتها.

- *ففي الجزائر وتونس، أخذ الاستعمار الفرنسي في إحلال القانون الوضعي العلماني محل الشريعة الإسلامية وقانونها –وكذلك صنعت انجلترا بمصر بعد أن احتلتها.. وعن هذا الغزو القانوني بالوافد العلماني يحدثنا عبد الله بن النديم (١٢٦١– ١٣١٣هـ ١٨٤٥–١٨٩٦م) فيقول: "إن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلداً شرقياً باسم الاستيلاء، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية، وتنادي أول دخولها بأنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد*

ثم تأخذ في تغيير الاثنين شيئاً فشيئاً.. كما تفعل فرنسا في الجزائر وتونس، حيث سنت لهم قانوناً فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامي، بل تنسخ مقابلها من أحكامه، ونشرته في البلاد، واتخذت لتنفيذه قضاة ترضاهم، ولما لم تجد معارضاً أخذت تحول كثيراً من مواده إلى مواد ينكرها الإسلام، توسيعاً لنطاق النسخ الديني، ولم نلبث أن جاريناها -(في مصر)- وأخذنا بقانون يشبهه.."!

فبالقانون العلماني يتم النسخ الديني، والمسخ لشريعة الإسلام!

....

• بل إن تسلل القانون العلماني الغربي، واختراقه لمؤسساتنا القضائية والتشريعية، قد سبق أحياناً الاحتلال العسكري المباشر والسلطة الاستعمارية السافرة، وذلك عندما رافق تزايد "النفوذ" الاستعماري في بلادنا، وتضخم الجاليات الأجنبية فيها.. فكان تسلله هذا تمهيداً للاحتلال والاستعمار؟!.

ففي مصر، على عهد الخديوي سعيد (١٢٣٧- ١٢٧٩هـ ١٨٢٢- ١٨٦٣م) صدرت "إرادة"؟! -في ١٢ شعبان سنة ١٢٧٢هـ ٨ إبريل سنة ١٨٥٥م- بإنشاء محكمة تجارية (مجلس تجار) مختلط من المصريين والإجانب، ليقضي في المنازعات التجارية التي يكون الأجانب طرفاً فيها".. فبدأ الاختراق العلماني لمؤسسة القضاء..

ومع تزايد النفوذ الأجنبي، أصبحت للأجانب الأغلبية في عضوية محكمة (قومسيون مصر)- ثلاثة مصريون، وأربعة أجانب؟!

وبعد أن تعددت "المحاكم القنصلية" -التي يقضي فيها قضاة أجانب بالقانون الأجنبي، في المنازعات التي يكون أحد طرفيها أجنبياً حتى بلغت -في ظل الامتيازات الأجنبية- سبع عشرة محكمة "نظمت هذه الفوضى" القانونية والقضائية سنة ١٨٥٥م بإنشاء "المحاكم المختلطة"- وهي التي تقضي في المنازعات بين المصريين والأجانب "بقانون نابليون" العلماني.. وباللغة الفرنسية، وأغلبية قضاتها أجانب، والرئاسة فيها للأجانب.. وفي دائرتها الجزئية ذات القاضي الواحد، ينفرد القاضي الأجنبي بالحكم، وكذلك في دوائر: الأمور المستعجلة، والوقتية، والبيوع، ونزع الملكية؟!.. فتم الاختراق العلماني لمؤسستي "القضاء" و"التشريع" معاً..، إذ "لم يقتصر النظام المختلط على إنشاء قضاء أجنبي نافذ الأحكام على الرعايا الوطنيين وعلى حكومة البلاد، بل خول للدول الأجنبية حق التدخل في التشريع الذي يسري على رعاياها.." ..

بل إن قاضياً هولندياً بهذه "المحاكم المختلطة" -"فان بملين" Von Belmmelen- قد وصف القضاء القنصلي بأنه "وليد الاغتصاب الواقع من الأقوياء

على حقوق الضعفاء" ووصف المحاكم المختلطة -وكان قاضياً بها- "بأنها ركن قوي من أركان السيطرة الأوربية على مصر".

ولم تجد في مقاومة هذا التسلل العلماني إلى القضاء والشريع المصريين "صيحة التحذير" التي أطلقها رفاعة الطهطاوي (١٢١٦- ١٢٩٠هـ ١٨٠١- ١٨٧٣م) عندما كتب (١٢٨٦هـ ١٨٦٩م) عن هذه المجالس التي رُتّبت في المدن الإسلامية "لفصل الدعاوى والمرافعات بين الأهالي والأجانب، بقوانين في الغالب أوربية" وعقب على هذا الاختراق القانوني العلماني، قائلاً: ".. مع أن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحالة.. ومن أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبواباً مستوعبة للأحكام التجارية كالشركة، والمضاربة، والقرض، والمخابرة، والعارية، والصلح وغير ذلك.. إن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي والري، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية، لأنها أصل وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع..".

لم تجد صيحة التحذير التي أطلقها الطهطاوي، في مواجهة الاختراق العلماني لمؤسساتنا القضائية والتشريعية بل جاء "عموم بلوى الاختراق" عندما احتل الإنجليز مصر (١٢٩٩هـ ١٨٨٢م).. ففي العام التالي، عمم الاحتلال القانون الأجنبي في عموم القضاء الأهلي المصري"[1].

ثم لما رحلت عساكر الغازي الأجنبي، لأن مدى قذائفها قد طال وزاد، ولم تعد بحاجة إلى أن تبقى في بلادنا، وبقي نفوذها، وتسمت دولنا بالمستقلة، فرضت الأنظمة -التي أسمت نفسها مستقلة- علينا الدساتير والقوانين العلمانية بالقهر والمعتقلات والانتخابات المزورة.

ب- العلمانية هي الإطار المعرفي للاستكبار الدولي:

ألغت العلمانية الأوروبية القيم الدينية والأخلاقية، وتبنت المادية، واعتبرت الإنسان مركز الكون، ولكن ذلك الإنسان الطبيعي، لا يعرف إلا المصلحة ولا يلتزم تجاه أخيه الإنسان بأية قيم، ولذلك بحث الإنسان الأبيض عن مصلحته، فسار في نهج الاستكبار والسيطرة على بقية البشر، ويشرح الدكتور المسيري -رحمه الله- ذلك فيقول:

---

[1] معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام- العلمانية ص: ٢٧ إلى ٣٠.

"ونحن نذهب إلى أن العلمانية (وحدة الوجود المادية والمرجعية المادية الكامنة) هي الإطار المعرفي النهائي للحضارة الغربية الحديثة. ولكننا نذهب أيضاً إلى أن الرؤية العلمانية هي في واقع الأمر رؤية حلولية كمونية مادية لا تفصل الدين عن الدولة وحسب وإنما تعزل القيم المطلقة (المعرفية والأخلاقية والإنسانية والدينية) عن الدنيا، بحيث يصبح مركز الكون كامناً فيه ويُردُّ الواقع بأسره (الإنسان والطبيعة) إلى مستوى واحد، ويصبح كله مجرد مادة محضة نافعة نسبية لا قداسة لها تُوظَّف وتُسخَّر. والهدف من وجود الإنسان في الأرض هو زيادة معرفة قوانين الحركة والطبيعة البشرية والهيمنة عليها من خلال التقدم المستمر الذي لا ينتهي، ومن خلال تَراكُم المعرفة وسد كل الثغرات وقمع الآخر إلى أن يخضع كل شيء (الإنسان والطبيعة) لحكم العقل وقانون الأرقام.

....

وقد تم تهميش الإله أو إلغاؤه باسم الإنسان ولصالح الجنس البشري. وبعد إلغاء أية مرجعية متجاوزة، تظهر المرجعية الكامنة فيصبح مركز الكون كامناً فيه، ويصبح الإنسان مركز الكون (دون أي استخلاف من الإله) وتظهر الحركة الإنسانية (الهيومانية). ولكن في إطار المرجعية الكامنة يُختَزل الإنسان ويُردُّ في كليته إلى الطبيعة/المادة، ويصبح إنساناً طبيعياً (مادياً).

....

والإنسان الطبيعي إنسان لا حدود ولا قيود عليه، يقف وراء الخير والشر، متمركز حول منفعته ولذته، لا راد لقضائه أو لرغبته في البقاء. وهو لا يلتزم بأية قيم معرفية أو أخلاقية أو أبعاد نهائية، فهو يتبع القانون الطبيعي.

....

فماذا في قوانين الطبيعة وقوانين الحركة وقوانين الضرورة يُلزمه بأن يتجاوز مصلحته الخاصة الضيقة وألا يُحوِّل الآخر إلى مادة تُوظَّف لصالحه؟

لكل هذا فإنه بدلاً من مركزية الإنسان في الكون تظهر مركزية الإنسان الأبيض في الكون، وبدلاً من الدفاع عن مصالح الجنس البشري بأسره يتم الدفاع عن مصالح الجنس الأبيض، وبدلاً من ثنائية الإنسان والطبيعة وأسبقية الأول على الثاني تظهر ثنائية الإنسان الأبيض من جهة، مقابل الطبيعة/المادة وبقية البشر الآخرين من جهة. ويصبح هم هذا الإنسان الأبيض هو غزو الطبيعة المادية والبشرية وحوسلتها وتوظيفها لحسابه واستغلالها بكل ما أوتي من إرادة وقوة، وهكذا تحوَّلت الإنسانية الهيومانية الغربية إلى إمبريالية.

....

وقد قام الإنسان الغربي بالفعل بذلك وحقق لنفسه مستويات معيشية مادية ورخاء مادياً لم ير مثله البشر من قبل.

....

وقد ظهرت هذه الرؤية الإمبريالية قبل أن تصبح الإمبريالية حقيقة تاريخية. ونشأت لدى الإنسان الغربي الرغبة في ضبط حياته وترشيد مجتمعه وذاته والتهام العالم قبل ميلاد رجل أوربا النهم. كانت جيوش أوربا الغازية تسير في عقل الإنسان الغربي وأحلامه قبل أن تطأ أقدام جنودها الثقيلة غابات أفريقيا الخضراء وجبال آسيا الشامخة وقبل أن يُباد الملايين من الأطفال والنساء والرجال من الشعوب الأصلية التي كانت تشغل الحيز الحيوي الذي كان يود أن يستولي عليه هذا الرجل النهم.

....

ولعل الاختلاف بين العلمانية والإمبريالية هو اختلاف في مجال التطبيق وليس في الرؤية نفسها، فالرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية تُعبّر عن نفسها من خلال عمليتين تاريخيتين متزامنتين متعاقبتين متشابهتين، وهما عمليتان متكاملتان لا يمكن أن نراهما كسبب ونتيجة (إلا لفترة مبدئية وجيزة) فالأسباب نتائج والنتائج أسباب. هاتان الظاهرتان هما الدولة (القومية) المطلقة والتشكيل الاستعماري الإمبريالي الغربي.

....

١. على مستوى العلمنة في الداخل (من خلال الدولة القومية المطلقة): قامت الحكومات العلمانية المطلقة في الغرب بترشيد البنية المادية والاجتماعية للمجتمعات

....

وقد استبطن الإنسان الغربي هذه الرؤية (الترشيد من الداخل) فارتفعت كفاءته في الأداء، أي أن الداخل الغربي تم غزوه وحوسلته تماماً.

٢. على مستوى العلمنة في الخارج (من خلال الإمبريالية العالمية): بعد ترشيد الإنسان الغربي من الداخل والخارج، ومع تَزايُد الترشيد في عمليات النهب والقرصنة في الخارج وتَزايُد التراكم الإمبريالي واتساع نطاق السوق حتى تَجاوَز حدود الدولة القومية المطلقة، بدأت مرحلة إمبريالية الخارج، فقامت الحكومات القومية العلمانية (المطلقة) بتكثيف طاقتها المادية والبشرية وتسخيرها في تجييش الجيوش، ثم قامت بإرسالها إلى كل أرجاء العالم لإخضاعه والهيمنة عليه وترشيده (من الخارج) وتوظيف موارده البشرية والمادية لصالح الحكومات والشعوب الغربية (وفيما بعد، لصالح قطاعات من النخب السياسية والثقافية

في العالم الثالث، باعتبار أنها شريكة للإمبريالية والعلمانية)، وذلك حتى تمت لها السيطرة على العالم بأسره وإحكام قبضتها عليه.

....

ولعله من المفيد، من منظور هذه الموسوعة، أن نشير إلى الاستعمار الاستيطاني باعتباره جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الاستعماري الغربي مع أن له خصوصيته المستقلة. لقد بدأ الإنسان الغربي ينزح عن قارته الأوربية في عصر نهضته وفي بداية مشروعه التحديثي العلماني، فاستعمر الأمريكتين حيث أسَّس مجتمعات استيطانية ضمت فيما بعد جنوب أفريقيا، فأستراليا ونيوزيلندا والجيب الاستيطاني في الجزائر، وأخيراً فلسطين. وقد قامت هذه المجتمعات الاستيطانية على أساس المنفعة واللذة بالدرجة الأولى.

....

ولهذا، ظهر في هذه المجتمعات الاستيطانية إنسان بلا تاريخ ولا قيم ولا تراث ولا هوية، فهو يقترب إلى حدٍّ كبير من الإنسان الطبيعي/المادي ذي البُعد الواحد الذي يدور تماماً في إطار المرجعية المادية. ولذا، فقد كان من الممكن إدارة هذه المجتمعات على أسس اقتصادية رشيدة إلى أقصى حد، لا تعوقها عوائق تاريخية دينية أو تراثية أو أي شكل من أشكال المطلقات. ومن هنا، فقد جاءت هذه المجتمعات مجتمعات علمانية نماذجية.

ويتبدَّى هذا بكل جلاء في الاستعمار الاستيطاني البروتستانتي (الأنجلو ساكسوني) حيث تمت إبادة السكان الأصليين إذ كان من المحال تحويلهم إلى مادة استعمالية عامة بسبب تراثهم الحضاري، واستُجلب العبيد إلى المزارع في الجنوب الأمريكي وإلى جزر الهند الشرقية، وحُطِّمت شخصيتهم الحضارية وعُزلوا عن كل المؤسسات الدينية وضمن ذلك المسيحية (في بادئ الأمر) حيث كانوا يُعامَلون بشكل محايد ويُنظَر إليهم من منظور الوظيفة وحسب دون أي اعتبار للجوانب الروحية أو الأخلاقية، أما الاستعمار الاستيطاني الكاثوليكي فلم يكن بهذا الرشاد. فقد بذلت الكنيسة جهداً غير عادي في مقاومة المستوطنين، ناظرة إلى السكان الأصليين باعتبارهم مادةً إنسانية ذات روح وقداسة وبالتالي لا بد من هدايتهم. ولهذا نجد أن معدلات العلمنة في المجتمعات الاستيطانية ذات الأصول البروتستانتية، مثل أمريكا الشمالية، أعلى بمراحل كثيرة منها في المجتمعات الاستيطانية ذات الأصول الكاثوليكية مثل أمريكا اللاتينية. وأكثر المجتمعات علمنة على وجه الأرض هو المجتمع الأمريكي الذي أباد السكان الأصليين تماماً ومحا آثارهم الحضارية ورفض تقاليد الحضارة الأوربية الثقافية والدينية وشيَّد مؤسسات رشيدة تماماً، والأمركة هي العلمنة الشاملة الحقيقية.

ونحن نقترح استرجاع الإمبريالية كمقولة تحليلية باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية، ومن ثم لا يمكن استبعادها من دراسة أية ظاهرة في الحضارة الغربية الحديثة.

ولنأخذ الديموقراطية على سبيل المثال. يُلاحَظ أن الدول الغربية الديموقراطية، وفي طليعتها إنجلترا وفرنسا، هي بلاد لها مشروعها الاستعماري الضخم حيث التهمت معظم أنحاء العالم وقمعت السكان الأصليين وسلبتهم حريتهم وحطمت مؤسساتهم الاجتماعية والثقافية. وقُل نفس الشيء عن هولندا وبلجيكا، وبدرجة أقل عن إيطاليا. وبعد أن استعمر الإنسان الغربي الولايات المتحدة وأقام فيها نظاماً سياسياً مستقراً، قام بعملية إبادة للسكان الأصليين، ثم دخلت الولايات المتحدة في تجربتها الاستعمارية فاحتلت بورتوريكو وهاواي والفلبين، ووضعت أمريكا اللاتينية تحت مظلتها بمقتضى مبدأ مونرو. وقد ترسخت الديموقراطيات الغربية عن طريق الإمبريالية إذ نجحت في تسريع التراكم الرأسمالي (الإمبريالي) من خلال نهب المستعمرات، الأمر الذي ساهم في تأسيس بنيتها التحتية المادية الضخمة المستقرة وتحقيق الرفاه الاجتماعي للمواطنين عن طريق تجريد بقية شعوب العالم من مصادرها الطبيعية والبشرية. وقد نجحت الحكومات الغربية في تصدير مشاكلها الاجتماعية حيث قامت بإرسال المجرمين والعناصر غير المستقرة اجتماعياً والفائض السكاني إلى الشرق، بل قامت بالتخلص من الجماعات والأقليات غير المرغوب فيها (مثل اليهود) عن طريق نقلهم إما إلى الشرق (في فلسطين) أو إلى الغرب (في أفران الغاز)، كما حلت مشكلة سوء توزيع الثروة من خلال نهب المستعمرات. ويكفي أن نعرف أن ما نهبته إنجلترا من الهند يزيد كثيراً عما أنتجته خلال الثورة الصناعية عامة، أي أن نجاح المجتمع الإنجليزي ومشروعه التحديثي لا يمكن رؤيته بمعزل عن التراكم الاستعماري، فالسلام الاجتماعي الداخلي الذي حققه المجتمع الإنجليزي قد تحقق من خلال تصدير مشاكل إنجلترا إلى خارجها ومن خلال تحقيق التراكم الرأسمالي (الإمبريالي) بما نهبه من الآخرين.

....

ولننظر إلى ظاهرتين تبدوان كما لو كانتا بعيدتين كل البعد وهما قيام الاستعمار الاستيطاني في أمريكا الشمالية في القرن السابع عشر بإبادة السكان الأصليين وقيام الدولة النازية بإبادة يهود أوربا في القرن العشرين. لو طبقنا نفس المنظور المعرفي الذي يُبيّن أن الرؤية العلمانية الإمبريالية هي الرؤية الكامنة وراء معظم الظواهر الغربية، فإننا سنرى الوحدة الكامنة وراء تلك الظاهرتين. وكما أسلفنا، فإن جوهر الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية

هو تحويل البشر والعالم إلى مادة نافعة. وانطلاقاً من هذه الرؤية، قام التشكيل الاستعماري الاستيطاني في الغرب بنقل ملايين البشر باعتبارهم مادة محضة تُوظَّف وتُسخَّر وتُنقَل وتُغزَى .فتم نقل الملايين من البشر من أوروبا إلى أمريكا لتوطينهم هناك، لزيادة نفعهم وتعظيم إنتاجيتهم، ولتسهيل عملية توظيفهم ولحل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية لأوربا. ولنفس السبب، تم استجلاب مادة بشرية يمكن تحويلها إلى طاقة عضلية رخيصة. وماذا لو حدث أن ظهرت عوائق تقف في طريق عملية زيادة المنفعة وتعظيم الإنتاج؟ ماذا لو كانت العوائق مادة بشرية أخرى؟ الإجابة سهلة ومباشرة: مثل هذه المادة البشرية ستكون غير نافعة ولذا لابد من إزالتها. وهذا ما حدث للهنود الحمر في الولايات المتحدة، حيث كان الإنسان الأبيض يبيد الهنود في أمريكا ويقوم في نفس الوقت باصطياد السود في أفريقيا ونقلهم إلى الأرض التي أبيد سكانها. ولا يمكن فهم هذا إلا في إطار التوظيف وتعظيم الإنتاج والتعريفات البيولوجية العِرقية الصارمة. فالسود يمكن استخدامهم بسبب عدم تماسكهم الحضاري وبسبب قوتهم العضلية ولأنهم بلا حقوق، أما الهنود فكانوا يُشكِّلون كتلة حضارية متماسكة ذات حقوق تاريخية (كما أن نظام المناعة الخاص بهم كان ضعيفاً جداً أمام الميكروبات التي حملها الإنسان الأبيض، ومن ثم كان من العسير استيعابهم في النظام الجديد)[1].

والإبادة النازية لبعض القطاعات البشرية في أوربا ليست سوى تطبيق متبلور لتلك الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية، ولكن في الغرب نفسه بدلاً من آسيا أو أفريقيا أو الأمريكتين"[2].

ج- التوظيف السياسي للدارونية:

لما كانت النظرية الدارونية من أكثر النظريات التي أثرت في الفكر العلماني، فقد تم توظيفها أيضاً توظيفاً استكبارياً، فظهرت الدارونية الاجتماعية، التي بررت الدولة القومية المطلقة والاستعلاء الاستكباري الدولي باعتبارهما حقان للإنسان الأبيض المتطور الأجدر بالبقاء من الأجناس الأخرى التي لا تستحقه.

---

[1] أشرت في المبحث السابق لرأي الرئيس الأمريكي الثالث جيفرسون ومعاصريه، الذين كانوا يرون أن الهنود الحمر ليس أمامهم إلا خياران، إما أن يندمجوا في الولايات المتحدة، ويعيشوا كأمريكان متحضرين، أو أن ينفوا في أماكن العزل غرب نهر المسيسبي، بعيداً عن أوطانهم وأراضيهم التي استولى عليها الأمريكان المتحضرون.

[2] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع :العلمانية الشاملة- الباب الثامن: العلمانية الشاملة والإمبريالية- الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية- ج: ص: ١٨٤ إلى ١٨٨. راجع أيضاً: الباب التاسع: العلمانية الشاملة: تاريخ موجز وتعريف- العلمانية الشاملة: تعريف ج: ١ ص: ٢١٤ و٢١٥.

يقول الدكتور المسيري عن ذلك:

"وقد وُظِّفت الداروينية الاجتماعية في تبرير التفاوت بين الطبقات داخل المجتمع الواحد وفي الدفاع عن حق الدولة العلمانية المطلقة وفي تبرير المشروع الإمبريالي الغربي على صعيد العالم بأسره. فالفقراء في المجتمعات الغربية وشعوب آسيا وأفريقيا (والضعفاء على وجه العموم) هم الذين أثبتوا أن مقدرتهم على البقاء ليست مرتفعة، ولذا فهم يستحقون الفناء أو على الأقل الخضوع للأثرياء ولشعوب أوربا الأقوى والأصلح.

....

وقد تبدَّت هذه المنظومة الداروينية بشكل واضح في الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية، من إنكار قيمة أي شيء أو أية مرجعية متجاوزة إلى تأكيد ضرورة التنافس والصراع والإصرار على حرية السوق وآلياته وعدم تدخُّل الدولة بحيث يهلك الضعفاء ولا يبقى سوى الأقوياء. والإمبريالية هي تدويل للرؤية الداروينية حيث أصبح العالم كله سوقاً، مسرحاً لنشاط الإنسان الأبيض المتفوق الذي أباح لنفسه قتل الآخر ضماناً لبقائه وتأكيداً لقوته.

....

والفكر العِرْقي الغربي هو فكر تطوري إذ يرى أن الإنسان الأبيض هو آخر حلقات التطور وأعلاها، ولذا فله حقوق معينة.

....

والفكر الصهيوني، مثله مثل الفكر النازي، ترجمة للرؤية الداروينية، فالصهاينة قاموا بغزو فلسطين باسم حقوقهم اليهودية المطلقة التي تَجُبُّ حقوق الآخرين، كما أنهم جاءوا إلى فلسطين ممثلين للحضارة الأوربية يحملون عبء الرجل الأبيض. وهم، نظراً لقوتهم العسكرية، يملكون مقدرة أعلى على البقاء. أي أنهم جاءوا من الغرب مسلحين بمدفعية أيديولوجية وعسكرية داروينية علمانية ثقيلة، وقاموا بتسوية الأمور من خلال الموقع الدارويني النيتشوي فذبحوا الفلسطينيين وهدموا قراهم واستولوا على أراضيهم، وهي أمور شرعية تماماً من منظور دارويني علماني، بل واجبة. ولعل تَأَثُّر معظم المفكرين الصهاينة بنيتشه أمر له دلالته في هذا المقام"[1].

والدارِونية الاحتماعية التي تبيح لنفسها الإبادة والسلب بالقوة والمكر والخديعة تبينها -أو تفضحها- خطبة بليغة ذكية لأحد زعماء الهنود الحمر.

---

[1] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري - الباب الخامس: مصطلحات تشير إلى تفكيك الإنسان وتقويضه- الداروينية الاجتماعية ج: ١ ص: ١٥٥ إلى ١٥٧. راجع أيضاً:

Microsoft Encarta ٢٠٠٨, Social Darwinism.

ففي عام ١٨٠٥م قدم من ماساتشوستس مبشر مسيحي أمريكي أبيض إلى منطقة بافلو، ودعى الهنود الحمر هناك لجلسة، حضرها العديد من زعماء قبيلة السينكا ومحاربيها، وأراد أن يبين لأولئك الهمج المزايا، التي سيجنونها من اعتناق المسيحية، وألقى عليهم محاضرة، شرح لهم فيها غرضه من دعوتهم، وأنه قد قدم لهم ليعلمهم كيف يعبدون (الروح الأعظم)، وأنه لم يأت ليحتال على سلب أرضهم وممتلكاتهم. وأن هناك ديناً صحيحاً وحيداً وهو المسيحية، التي لن ينالوا السعادة إلا باعتناقها.

وبعد أن أنهى خطبته اجتمع الهنود الحمر، وقرروا تفويض الزعيم البليغ المفوه (المعطف الأحمر) لإبلاغه بجوابهم.

فقام خطيباً وكان مما قال:

"الإخوة والأصدقاء، لقد كانت إرادة الروح الأعظم أن نلتقي سوياً في هذا اليوم، فهو المدبر لكل شيء، وقد منحنا يوماً بديعاً لهذه الجلسة.

....

أخي، لقد أضرمت نار هذا الاجتماع من أجلكم، وكان ذلك بناء على طلبك؛ أن نجتمع في هذا الوقت، وقد أنصتنا باهتمام لما قلت، وقد سألتنا أن نعبر عما في خلدنا بصراحة، وهذا من دواعي سرورنا.

....

أخي، لقد طلبت منا أن نجيبك قبل أن تغادر هذا المكان، وذلك أنك على مسافة بعيدة من منزلك، ولا نريد أن نعطلك، ولكننا سنلقي أولاً نظرة للوراء قليلاً، ونخبرك عما أخبرنا به أسلافنا، وعما سمعناه من القوم البيض.

أخي، أصغ لما نقول. فيما مضى كان أسلافنا يملكون هذه الجزيرة العظمى. وانتشرت مواطنهم من مشرق الشمس لمغربها. وقد منحها الروح الأعظم لمنفعة الهنود، وقد خلق الجاموس والآيل وغيرها من الحيوانات للطعام، وجعل الدب والسمور وجلودهم للباس، ونشرهم في البر، وعلمنا كيف نمسك بهم. كل هذا جعله لأطفاله الحمر، لأنه يحبهم. وكنا إذا نشأت بيننا أية نزاعات حول مناطق الصيد، نحلها عادة بدون سفك دم كثير. ولكن يوماً عصيباً أتانا، فقد عبر أسلافك المياه العظمى، ورسوا على هذه الجزيرة.

وكان عددهم صغيراً، ولقوا أصدقاء لا أعداء، فقد أخبرونا أنهم هجروا بلادهم خشية من رجال أشرار، وأتونا هنا ليمارسوا دينهم. وسألونا موضعاً صغيراً، وقد رفقنا بهم، ومنحناهم ما يطلبون، ونزلوا بيننا، وقدمنا لهم الحنطة واللحم، فكافئونا بالسم. ولما اكتشف الرجل الأبيض بلدنا، انتشرت الأنباء، وجاء العديد بيننا، ولكننا لم نرهبهم، واعتبرناهم

أصدقاء. وسمونا إخوة، وصدقناهم، وأعطيناهم موضعاً أوسع، وفي النهاية زاد عددهم جداً، وطالبوا بأراض أكثر؛ لقد أرادوا بلادنا.

وتفتحت أعيننا، وتوجست أنفسنا. ونشبت الحروب، واستُأجِر الهنود لمحاربة الهنود، وأبيد الكثير من قومنا، ولقد جلبوا أيضاً لنا شراباً قوياً، وكان قوياً وفعالاً ودمر الآلاف.

أخي، لقد كانت مناطقنا سلفاً شاسعة، وكانت مناطقكم صغيرة جداً، وقد أصبحتم الآن شعباً كبيراً، وبقي لنا موضع نبسط فيه بالكاد أرديتنا، لقد أخذتم بلادنا، ولكنكم لا تقنعون؛ فأنتم تريدون فرض دينكم علينا"[1].

د- التوظيف السياسي للإعلام العلماني

وهذه الاستكبارية العلمانية الشاملة -التي تبرر لها الدارِونية الاجتماعية ما تقوم به- تستخدم في نشر أفكارها بخبث وسائل من أهمها السينما الأمريكية، التي يقول عنها الدكتور المسيري:

*"وأعتقد أن من أهم آليات العلمنة البنيوية الكامنة في العالم هي هوليود، وخصوصاً أفلامها غير الفاضحة، مثل أفلام رعاة البقر المسماة "الويسترن **western**" وأفلام الحرب، فالرؤية العلمانية الشاملة كامنة فيها، بشكل يصعب على الإنسان اكتشافه. وأفلام الويسترن بالذات تنقل لنا رؤية علمانية إمبريالية عنصرية بشعة متحيزة ضدنا. فبطل الفيلم هو الرائد (بالإنجليزية: بايونير **pioneer**)، الرجل الأبيض الذي يذهب إلى البرية (أرض بلا شعب) ليفتحها ويستقر فيها ولا يحمل سوى مسدسه. وكلنا يعرف المنظر الشهير، حين يقف اثنان من رعاة البقر في لحظة المواجهة التي يفوز فيها من يصل إلى مسدسه "أسرع" من الآخر. إن هذا المنظر الذى انطبع فى مخيلتنا منذ نعومة أظافرنا، يعلمنا كل أسس الداروينية الاجتماعية: أن الصراع من أجل البقاء هو سنة الحياة وأنه لا يكتب البقاء إلا للأصلح، أى الأقوى أو الأسرع أو الأكثر دهاء ومكراً، وهى مجموعة من الصفات التى لا علاقة لها بأية منظومة قيمية، دينية كانت أم أخلاقية أم إنسانية. وحينما يظهر الهنود الأشرار، هؤلاء "الإرهابيون" أصحاب الأرض الأصليين الذين لا يتركونه وشأنه كى يرعى أبقاره ويبنى مزرعته، أى مستوطنته، على أرضهم وأرض أجدادهم، يحصدهم الكاوبوي برصاصه حصداً "دفاعاً" عن الفتاة البيضاء البريئة وعن حقوقه المطلقه. نستمتع بكل هذا دون أن ندرك أن الكاوبوي هو في واقع الأمر الرائد الصهيوني*

---

[1] Microsoft Encarta ٢٠٠٨. Native Americans of North America, F. Removal Trends, ١٨١٥ to ١٨٧٠, Sidebars: HISTORIC DOCUMENTS: Against Christian Missionaries.

(الحالوتس)[1]، وأنه الإنسان الأبيض الإمبريالي الذي نهب ديارنا وثرواتنا وأذلنا، وأن الهنود هم نحن، العرب والفلسطينيون، وأن البرية، هي، في واقع الأمر، العالم الثالث بأسره، أرض بلا شعب، أو شعب ينظر له الإنسان الغربي من خلال رؤيته العلمانية الإمبريالية الشاملة باعتباره مادة استعمالية يمكنه أن يحوسلها لصالحه. وهكذا نستوعب الرؤية العلمانية الإمبريالية الشاملة، بلا وعى ولا إدراك من جانبنا، فقد جاءت لنا مغلفة تغليفا أنيقا، جزءًا عضويًا كامنًا في بنية فيلم لذيذ مسل"[2].

هـ- انهزامية الفكر العلماني العربي:

سعيت فيما سلف لبيان الطبيعة الاستكبارية العدوانية الاستعلائية التي لا تنفك عن العلمانية المادية الغربية في ممارساتها السياسية والعسكرية.

ولكن لما اعتنق بعض بني جلدتنا الفكر العلماني المادي الغربي، كانوا حملاناً في مواجهة الذئاب الشرسة، حدثونا كثيراً عن الحرية والاستقلال، ولكنه كان استقلالاً عن الإسلام والدين فقط، أما أساتذتهم العلمانيون الغربيون فقد واجهوهم بانهزامية وتبعية وانكسار.

يقول الدكتور محمد عمارة عن المنبهرين بالثقافة الغربية:

"وإذا كان هذا "التغريب" أمراً قابلاً "للتفسير" دون "التبرير".. فإن الأمر الذي يبلغ في الغرابة حد "الكارثة" هو الموقع الذي قادت إليه العلمانية بعضاً من مثقفينا الذين تمذهبوا بمذهبها، موقع التبعية للحضارة الغربية الغازية، والولاء للمركزية الغربية العنصرية.. بل وإعلان التسليم والاستسلام لإرادة الغرب في استلابنا واحتوائنا وإلحاقنا بنموذجه الحضاري "في الإدارة.. والحكم.. والتشريع".. وإلا فماذا تعنيه كلمات الدكتور طه حسين (١٣٠٦- ١٣٩٣هـ ١٨٨٩- ١٩٧٣م): لقد "التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع. التزمنا هذا كله أمام أوروبا. وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال -(١٩٣٦م)- ومعاهدة إلغاء الامتيازات -

---

[1] «حالوتس» مفرد «حالوتسم»، وترجمتها العربية: «الرواد» ومفردها «رائد». ويُطلَق المصطلح في الكتابات الصهيونية على الصهيوني الذي يهاجر إلى فلسطين، ويستوطن فيها، ثم يكرس نفسه لبناء المستوطَن الصهيوني. [موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد السابع: إسرائيل: المستوطن الصهيوني- الجزء الرابع: النظام الاستيطاني الصهيوني- الباب الأول: الاستيطان والاقتصاد- الرواد الصهاينة (حالوتسيم- المسكوب) ج: ٧ ص: ١٣٣].

[2] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع :العلمانية الشاملة- الباب السادس: مصطلحات جديدة لبلورة النموذج الكامن- العلمنة البنيوية الكامنة- بعض الأمثلة- ٣- المنتجات الحضارية اليومية ج: ١ ص: ١٦١.

(١٩٣٨م)- إلا التزاماً صريحاً قاطعاً أمام العالم المتحضر بأنا سنسير سيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع؟" .

إن هذا الاعتراف العلماني "بالالتزام" بما ألزمنا به الغرب، من أن "نسير سيرة الآوربيين في الحكم والإدارة والتشريع" .. ينقل قضية تبني العلمانية في بلادنا إلى مستوى آخر.. فالقضية تتجاوز أحياناً دائرة الاختلاف في الفكر، لتصب -بوعي أو غير وعي- في خانة التفريط في الاستقلال؟!"[1].

وفي الوقت الذي كان فيه الإنكليز يحتلون البلاد العربية والإسلامية، ويرتكبون الفظائع من قتل وتدمير وإبادة وتجويع وتجهيل في العراق، والهند، ومصر، كان سلامة موسى يتغزل بالإنجليز فهم *"النظاف الأذكياء"* . وهم *"أرقى أمة موجودة في العالم، والخلق الإنجليزي يمتاز عن سائر الأخلاق، والإنسان الإنجليزي هو أرقى إنسان من حيث الجسم والعقل والخلق"* ، ثم دعا إلى التعاون معهم وهم يحتلون البلاد، ويقتلون العباد فقال:

"فنحن إذا أخلصنا النية مع الإنجليز فقد نتفق معهم إذا ضمنا لهم مصالحهم، وهم في الوقت نفسه إذا أخلصوا النية لنا، فإننا نقضي على مراكز الرجعية في مصر، وننتهي منها، فلنول وجوهنا شطر أوربا"[2].

ويزيد طه حسين الأمر وضوحاً، أو إن شئت فقل: يسقط القناع، ويكشف الوجه الحقيقي للرواد المنبهرين المنهزمين، فيقول في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر):

"إن سبيل النهضة واضحة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب"[3].

فليتأمل القارئ هذه التبعية وذلك التقليد الأعمى وهذا الجمود على اللهث وراء الغرب. إن طه حسين الذي كان يدعو للتحرر والانعتاق من القديم، وبلغ به الأمر أن شكك في القرآن، طه حسين نفسه يتحول لجامد مقلد أعمى متابع بلا عقل للغرب، يتقبل منه شره ومره ومكروهه ومعيوبه. ﴿سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾.

أليس ما يقوم به هؤلاء هو ما خطط له نابليون في رسالته التي بعثها من فرنسا، بعد فراره من مصر تحت جنح الظلام هرباً من الهزيمة، لخليفته كليبر، والتي جاء فيها:

---

(١) معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام- العلمانية ص: ٤١.

(٢) العلمانية وثقافة السلام.

(٣) قضية التنوير في العالم الإسلامي- منهج التغيير في حركة التنوير ص: ٢٥.

"اجتهد في جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخص من المماليك، حتى متى لاحت السفن الفرنسية تقبض عليهم في القاهرة أو الأرياف وتسفرهم إلى فرنسا. وإذا لم تجد عدداً كافياً من المماليك، فاستعض عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان، فإذا ما وصل هؤلاء إلى فرنسا يحجزون مدة سنة أو سنتين، ويشاهدون في أثنائها عظمة الأمة الفرنسية، ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا، ولما يعودون إلى مصر، يكون لنا منهم حزب يُضم إليه غيرهم.

كنت قد طلبت مراراً جوقة تمثيلية، وسأهتم اهتماماً خاصاً بإرسالها لك، لأنها ضرورية للجيش، وللبدء في تغيير تقاليد البلاد"[1].

ويقدم الدكتور المسيري تفسيراً لهذه الانهزامية بقوله:

"وقد يكون من المفيد أن نتوقف هنا لنشير إلى ظاهرة لاحظناها في العالم العربي وهي أن كثيراً من الباحثين ممن هُزموا من الداخل بدأوا يوظفون المؤشِّرات في دعم الهزيمة. وهذه ظاهرة بدأت مع العصر الحديث في العالم العربي. فبعد وصول القوات الغازية الغربية في أوائل القرن التاسع عشر، اهتزت ثقة الإنسان العربي في نفسه، وخصوصاً أنه لم يكن يعرف شيئاً عن الحضارة الغازية (فكرها- آلياتها- قوانينها- نقاط تصورها)، لم يكن يعرف مثلاً أي شيء عن تاريخ النهب الإمبريالي والتراكم الإمبريالي، فتصور واهماً أن الإنسان الغربي قد توصَّل إلى ما توصَّل إليه من نظام ورخاء من خلال إعمال عقله وبذل جهده وعمله لا من خلال استخدام عضلاته وتكنولوجيا الفتك المتقدمة وعمليات النهب المنظمة. وحينما ذهب الطهطاوي إلى باريس لم ير سوى الحرية والثقافة، ولم ير الجوانب المظلمة لهذه الحضارة رغم أنه ذهب إلى هناك عام ١٨٣٠، وهو نفس العام الذي كانت فيه المدافع الفرنسية تَدُك الجزائر الآمنة. وقد يكون من المهم مقارنة استجابة الطهطاوي باستجابة ذلك الشيخ الجزائري الذي قيل له إن عساكر الفرنسيين قد جاءوا لينشروا الحضارة والمحبة في ربوع الجزائر، فأجاب إجابة مقتضبة جداً: لم أحضروا كل هذه المدافع وكل هذه البارود إذن؟ وهذا هو السؤال الذي لم يسأله الطهطاوي ولم يسأله كثير من الباحثين ممن وقعوا تحت وطأة الهزيمة واستبطنوها تماماً. وبدلاً من اكتشاف الواقع الغربي بجوانبه المنيرة والمظلمة، جعلوا شغلهم الشاغل النقل عن الغرب كجزء من محاولة اللحاق به. وبالتدريج، وتحت شعار الموضوعية والواقعية، بدأوا يتجردون من مثالياتهم وتراثهم وإبداعهم وأصبح همهم تَقبُّل الوضع القائم وموازين القوى وأصبح الآخر هو المثل الأعلى. وقد أنتج هذا مجموعة من المؤشِّرات الموضوعية هي في الواقع تعبير عن الهزيمة.

---

[1] رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص: ١٠٨.

وقد حدث شيء مماثل بالنسبة لإسرائيل، فنحن في رصدنا لها لا نركز إلا على مواطن قوتها وتَقدُّمها وتَفوُّقها، وهذه هي الموضوعية والواقعية، أما إذا اكتشفنا نقط ضعف العدو وقصوره وتآكله، فإن هذا يُصنَّف باعتباره خداعاً للذات. إن الذات المهزومة تخضع تماماً للآخر ولا يمكنها أن تتصور أن من الممكن أن تتفاعل داخله عوامل الحياة والانتصار والموت والانكسار. وتدريجياً، يدمن الإنسان الهزيمة إدماناً كاملاً حتى تصبح رؤية للكون لا يستطيع المرء أن يحتفظ بتوازنه بدونها. ومع أطروحة الهزيمة الاختزالية، تحوَّل كثير من الباحثين إلى جند مجندة تخدم العدو بنزاهة موضوعية دون أن تدري، فهي ترصد مواطن قوته، وتُصدِّق كل ما يقوله وتتصرف في إطاره بأمانة مضحكة دون تمحيص، وكيف يتأتى لهم غير ذلك وهم المهزومون من الداخل؟" [1].

بل ويصرح الدكتور المسيري بأن منهم عملاء للنظام العالمي الاستكباري الجديد، فيقول:

"يمكن أن يتحول بعض قطاعات النخب الحاكمة والمثقفين في العالم الثالث إلى جماعات وظيفية (عميلة) تعمل لصالح الإمبريالية أو النظام العالمي الإمبريالي الجديد. فهؤلاء يمكن استيعابهم من خلال الشبكة الاقتصادية والثقافية الضخمة (شركات متعددة الجنسيات- مؤسسات بحوث- مؤتمرات علمية- مشاريع بحثية مشتركة... إلخ). وهذه القطاعات يتم عزلها عن مجتمعاتها بحيث تصبح غربية، فتكون داخلها ولكنها ليست منها. ويمكن أن تكون العزلة فعلية كأن يعيش أعضاء هذه القطاعات في منازل توجد على أطراف المدينة أو في أحياء خاصة ذات طُرُز معمارية معينة (عادةً غربية) أو يرتدون أزياء غربية ويتحدثون بالإنجليزية أو العربية المطعمة بالإنجليزية. كما أن شبكة المصالح العالمية تستوعبهم فتصبح مصالحهم الاقتصادية مرتبطة بالآلة العالمية وباستمرارها وباستمرار مؤسساتها الثقافية.

ولكن العزلة يمكن أن تتم بشكل أكثر تبلوراً وتركيباً فتأخذ طابعاً نفسياً فيحس المثقف بالعزلة عن مجتمعه وبعدم التجذر فيه وبالغربة عنه، ويحس عضو النخبة السياسية بعدم الانتماء لبلده، كما أنهما ينظران إلى أهليهما نظرة دونية حيث يشعران بتخلف المجتمع الذي يعيشان فيه وبحاجته إليهما (مركب الشعب المختار). كما أنهما يمارسان هذا الشعور عادةً بسبب إيمانهما بأيديولوجيا تُجسِّد نماذج معرفية وأخلاقية مستوردة متحيِّزة ضد واقعهما. ورغم أنهما قد يتحدثان بلغة بلدهما، إلا أن خطابهما السياسي يبدأ في التحول التدريجي حتى لا يفهمه سواهما ويصبح أداة للعزلة عن الجماهير لا للتواصل معها.

---

[1] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الثاني: النماذج كأداة تحليلية- الباب الثالث: النموذج الاختزالي والنموذج المركب- المؤشر بين النماذج الاختزالية والمركبة ج: ١ ص: ١٠٦.

ولا شك في أن أعضاء هذه الجماعة يتسمون بحركية شديدة. كل هذا يجعلهم كيانات مجردة وأدوات قمع في نظر مجتمعاتهم، تماماً كما أنهم لا ينظرون إلى مجتمعاتهم باعتبارها كيانات حية ينتمون إليها. فهم ينظرون إلى الفلاح الذي يرتدي جلبابه، مثلاً، باعتباره عبئاً لا بد من التخلص منه ومشكلة تحتاج للحل.

....

وقد وصف أحد علماء الاجتماع يهود البلاط بأنهم "مخصيون لم يتم خصيهم" وهو وصف دال أيضاً لأعضاء النخب الثقافية والسياسية في العالم الثالث الذين تم إعادة إنتاجهم على هيئة جماعة وظيفية عميلة تخدم النظام الإمبريالي العالمي الجديد. ونحن نرى أن النظام العالمي الجديد ينطلق من إدراك الدول الغربية صعوبة المواجهة العسكرية والأيديولوجية الواضحة مع شعوب العالم الثالث (وخصوصاً الشعوب الإسلامية)، وإدراكها أيضاً ظهور نخبة ثقافية محلية على استعداد كامل للتعاون معها والقيام على خدمتها، فقررت أن تلجأ إلى التفكيك الداخلي (من خلال النخبة المحلية العميلة) بدلاً من المواجهة المباشرة من خلال الجيوش وآليات الحرب التقليدية الأخرى"[1].

ومن اللافت للانتباه أن قضية فلسطين، وهي أهم قضايا العلمانيين القوميين باعتبارها قضية أهم أرض قومية محتلة، وهي أيضاً القضية التي يتعاطف معها اليساريون باعتبارها قضية تحرر وطني ضد الإمبريالية العالمية... إلخ. اللافت للانتباه أن قضية فلسطين هذه قد فضحت كل العلمانيين -فيما أعلم[2]. فكلهم يقبلون بوجود إسرائيل، ولكن النقاش فيما تبقى من فلسطين، وكان على رأس هؤلاء العلمانيين المضيعين لفلسطين؛ منظمة التحرير الفلسطينية، التي غيرت ميثاقها لتعترف بوجود إسرائيل.

لقد فضحت قضية فلسطين عقيدة العلمانيين وسلوكهم، فإن عقيدتهم التي لا تقبل أية مرجعية ثابتة، وتجعل كل شيء نسبياً، سمحت لهم بأن يقبلوا بما كانوا يعتبرونه -أو يعتبره بعضهم- خيانة، وفضحت أيضاً عبوديتهم للدولة القومية العلمانية (العبودية لسايكس بيكو). فلم تعد الأمة المسلمة أمة واحدة، وإنما هي أكثر من خمسين دولة قومية علمانية، وبالتالي فإن لكل دولة همومها، أو على الأقل فإن أهلها هم أولى الناس بحل مشاكلهم كما يرون، ولذلك لما قبل ياسر عرفات بوجود إسرائيل، وسقط في هوة اتفاقيات الاستسلام، كانت مقولة القوميين التحرريين الثوريين: "هل نحن فلسطينيون أكثر من الفلسطينيين؟".

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول- الجزء الخامس: الجماعات الوظيفية- الباب الثانى: الجماعات الوظيفية والحلولية والعلمانية الشاملة- أشكال جديدة من الجماعات الوظيفية فى المجتمعات الحديثة- ٦- النخب الثقافية والسياسية المرتبطة بالإمبريالية الغربية ج: ١ ص: ٢٣٨.

(٢) وأقول: "فيما أعلم" تحرزاً من أن يكون هناك شخص أو مجموعة ضئيلة تطالب بإزالة إسرائيل.

أما طارق حجي –الذي تفخر به مؤسسة راند على أنه من المسلمين العلمانيين؟! لأنه يعتبر نفسه ابناً للحضارة الغربية[١]– فيدعونا إلى الإيمان بحتمية الوصول إلى السلام مع إسرائيل، وعلينا أن نكافح لترسيخ ثقافة السلام بدلاً من ثقافة العدوان، وأن نسير على خطا السادات، لكي تتجنب المنطقة السقوط في العنف والماضوية والتخلف والفقر، وعلينا أن نقبل قيام دولة ديمقراطية لا دينية على كامل تراب فلسطين يتساوى فيها اليهود والمسلمون والمسيحيون[٢].

أما مراد وهبة فيفلسف للخيانة بل ولكل الخيانات بل أيضاً لكل الموبقات، لأن كل شيء في الوجود نسبي، بما في ذلك الحق والشرف والعدل والقيم والدين، فالعلمانية بنظره هي الحل لمشكلة الشرق الأوسط في فلسطين، ذلك أنه يعرف العلمانية بأنها: *"النظر إلى النسبي بما هو نسبي وليس بما هو مطلق"*، ويعني بذلك سيادة النسبية على كافة المستويات، وإقصاء المطلقات من الوجود، لأنه لا وجود لحقيقة مطلقة، والقول بها مجرد خرافة، وسيادة المطلق يهدد السلام العالمي[٣]، لأن المطلقات ستدخل في صراع كما هو الحال بين المطلقات الثلاثة الإسلامي واليهودي والمسيحي، وليس من وسيلة لحل هذا الصراع إلا بالقضاء على المطلقات، ويتم ذلك بنفي "الدوجماطيقية"، أي نفي علم العقيدة، لأن مفهوم الحرب كامن في هذا العلم.

لأن هذا العلم قائم على اليقين *"واليقين لا يمكن أن يكون إلا مغلقاً، ولهذا فهو يؤول في المنتهى إلى الدوغمائية التي تُترجَم تعصباً وتحزباً وربما عنفاً وإرهاباً[٤]"*، ومع أن هذا الكلام لا يرضي الناطقين باسم الغائب والمدافعين عن العقائد وحراس النصوص كما يقول الخطاب العلماني، إلا أنه يقرر ذلك ليؤكد على أن الصراع العربي الإسرائيلي في النهاية هو صراع مطلقات، والحل الوحيد في العلمانية لأنها المضاد الحيوي للأصوليات الدينية التي تغذي المطلقات وتتغذى منها، وعلى ذلك بدلاً من شعار "الإسلام هو الحل" تصبح "العلمانية هي الحل"[٥].

ولأن كل شيء نسبي فكل شيء معروض في السوق وللبيع والشراء والمساومة؛ شرفك دينك عرضك أرضك مالك عيالك بل حتى نفسك، فلم تعد الأمانة والصدق والوفاء والإخلاص والشرف والأخلاق والدين لها معنى محدد، بل كلها تتغير بحسب الهوى والرغبة والمصلحة.

---

[١] BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, p: ١٣٤ & ١٣٥.

[٢] العلمانية وثقافة السلام.

[٣] أي سلام إسرائيل وأكابر المجرمين الذين يتحكمون في الدنيا.

[٤] إنظر لهذا الدجل الذي يتعمد تجاهل أن العلمانية الأوروبية هي أكثر العقائد عنفاً وإرهاباً وفتكاً بالإنسان في تاريخ البشرية.

[٥] العلمانية وثقافة السلام.

هذا الاستخذاء العلماني العربي يقابله التوحش والافتراس العلماني اليهودي الصليبي، فاليهود مثلاً بمتدينيهم وعلمانييهم يرون القدس عاصمة أبدية خالدة لإسرائيل، ويعتبرون فلسطين هي (أرض إسرائيل)، ويصرون على بناء المستوطنات، ولا يقبلون بتاتاً بعودة المهاجرين الفلسطينيين.

وقد يزعم البعض أن هناك من العلمانيين من يصر على قيام دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس، ويرى أن هذه من الثوابت التي لا يمكن التنازل عنها، ولكن من يزعم هذا يتناسى حقيقتين، أنه قد اعترف مسبقاً بإسرائيل، فالدولة الفلسطينية التي يدعو لها العلمانيون، هي دولة الأمم المتحدة، التي تقوم جنباً إلى جنب مع إسرائيل. والحقيقة الثانية التي يتجاهلونها، أنهم مثل مراد وهبة وأشكاله يؤمنون بأن كل شيء نسبي، إذاً فممكن أن ينقلبوا من الشيء لضده، لأنهم يؤمنون بانعدام الثوابت في الكون.

وعن هذه الميوعة العقيدة، والتدني السلوكي للعلمانيين في قضية فلسطين يقول الدكتور المسيري رحمه الله- في كتابه (رحلتي الفكرية- الجذور والبذور والثمر):

"والنسبية بدأت تستشري في بلادنا أيضاً. ويلاحظ أن كثيراً من المثقفين اليساريين ممن اكتسحتهم النسبية تخلوا عن عقيدتهم الثورية وعن الإيمان بمقدرة الإنسان على التجاوز (فالتجاوز يفترض اختياراً، والاختيار يعني مفاضلة، والمفاضلة لابد أن تستند إلى معايير ثابتة) وأصبحوا من دعاة الأمر الواقع والتطبيع وقبول ما هو قائم، أي أصبحوا من عمد الرجعية الصلبة. ولكن، وهذا هو الغريب، يوجد فريق لا يزال متمسكاً بقيم مثل الخصوصية القومية المستقلة وضرورة مقاومة إسرائيل، ومع هذا تجده ينطلق من الإيمان بنسبية كل الأشياء، فمثل هؤلاء غير مدركين أنه إذا كانت حقاً كل الأمور نسبية (كما يدعون) فلا سبيل لتفضيل شيء على آخر، فالتغير يكتسح كل شيء في طريقه. فالالتزام في الأدب مثلا يفترض وجود قيم إنسانية ثابتة، لابد أن يدافع عنها الأديب الملتزم، فإن كانت كل الأمور نسبية، فالالتزام يصبح مساوياً لعدم الالتزام، والدفاع عن الإنسان يصبح مثل الهجوم عليه. وقد حضرت ندوة عقدت ضد التطبيع حضرها ممثلو الأحزاب المصرية، بما في ذلك اليساريون، الذين قدموا ورقة عن الهوية المصرية قالوا إنها كانت فرعونية ثم قبطية ثم عربية ثم حديثة!. وقولهم هذا يؤكد الصيرورة المستمرة، بل وتنتهي الهوية بشيء عام لا لون ولا طعم ولا رائحة له يسمى "حديثة". فأشرت إلى أنه مع هذه التغيرات المذهلة لم لا نتصور تحول هذه الهوية إلى هوية شرق أوسطية، كما ينادي الصهاينة! أليست كل الأمور نسبية؟ أليست كل الأمور متساوية؟ فاستشاط كاتب الورقة غضباً، وأصدر أصواتاً عصبية حيث كان يجلس"[1].

[1] بل هي حرب على الإسلام ص: ٩٢ و٩٣.

أما الشيوعيون فقد كانوا أول من فضحتهم قضية فلسطين، ومواقفهم من إسرائيل منذ إنشائها، ومن حرب عام ١٩٤٨م فضيحة تاريخية تليق بهم، ولا أرى داعياً لإعادة ذكرها بعد أن أصبحوا مثل فضيحتهم من بقايا التاريخ.

وهناك بعد أخر لانهزامية كثير من العلمانيين العرب، وهو اتصالهم بإسرائيل وتشجيعهم للتطبيع معها. ومن هؤلاء من يعدهم جميع العلمانيين سواء دعاة التطبيع أو مقاوميه من رموز الفكر ورواد التنوير وأعلام التقدم..... إلخ.

وعلى رأس هؤلاء يأتي نجيب محفوظ، الذي حاز جائزة نوبل لتعرضه للإسلام وللذات الإلهية ولتشجيعه التطبيع مع إسرائيل، حتى أن موشيه ساسون أول سفير لإسرائيل في مصر ذكره في كتابه عن سفارته في مصر، وقال إنه كان من أصدقائه، وأنه كان ينتقد من يعارضون التطبيع، ويقول إنهم يفعلون ذلك بسبب حاجتهم للمال.

وقد صرح نجيب محفوظ مبكراً بتشجيعه للسلام مع إسرائيل والتفاوض معها، فيقول:

"في أعقاب نكسة ١٩٦٧م جمع د. ثروت عكاشة (وزير الثقافة حينذاك) بعض المثقفين، وأصحاب الرأي لتبادل الأفكار وكان رأيي الذي أعلنته وقتها ضرورة العودة إلى الديمقراطية تمهيداً للتفاوض مع إسرائيل ثم ناديت بالسلام مع إسرائيل بجريدة الأهرام ، حضرها العقيد القذافي في أواخر ١٩٧٠م في بداية حكم السادات"[١].

ويقول أيضاً بمناسبة عرض قصته (ثرثرة على النيل) بالعبرية على أحد المسارح اليهودية:

"التطبيع الثقافي أمر هام؛ لأن فيه تلاقي الفكر في إطار من النقاء والصفاء، عند ذلك تذوب سحب التقاتل والصراعات التي تثير جواً من القلاقل وفقدان الثقة"[٢].

وأما توفيق الحكيم فكان يتلقى أموالاً من عائدات بيع كتبه في إسرائيل.

أما إذا انتقلنا من طبقة الرواد لطبقة الأتباع والتلاميذ فحدث ولا حرج، فلطفي الخولي الثوري اليساري رئيس تحرير مجلة الطليعة (الصادرة من الأهرام) سابقاً تحول لداع من دعاة التطبيع، وهالة مصطفى رئيسة تحرير مجلة الديمقراطية التي تصدر عن الأهرام أيضاً، استضافت السفير الإسرائيلي في مقر عملها. والإحصاء متعب.

***

٤- ما بعد الحداثة والنظام العالمي الجديد:

ذكرت فيما سبق أن العلمانية المادية والاستكبار الدولي (الإمبريالية) صنوان متلازمان. ولكن الآن بدأ أكابر المستكبرين، يتحولون من الخطاب الاستكباري، إلى خطاب جديد. خطاب النظام العالمي

---

[١] مات نجيب محفوظ وهذه بعض تركته.

[٢] كلمة صغيرة: حديث الحجارة.

الجديد، خطاب العولمة الشاملة، التي تسقط الحدود، وتزيل السدود، وتدول المعرفة، وتنشر الديمقراطية والحرية. فما السبب الذي حدا بالنظام العلماني الأبيض العنصري لأن يتحول لهذا الخطاب الناعم. يقدم الدكتور عبد الوهاب المسيري تحليلاً رائعاً لهذا التحول، يكشف الأهداف السياسية والاقتصادية وراءه، أستسمح القارئ أن أنقل عنه بشيء من الإسهاب.

يقول الدكتور المسيري رحمه الله:

"ونحن نذهب إلى أن ما بعد الحداثة هي أيديولوجية النظام العالمي الجديد، فبعد حرب فيتنام وتَصاعُد معدلات الاستهلاكية في العالم الغربي (وغير ذلك من الأسباب) اكتشف العالم الغربي والنظام العالمي القديم أن المواجهة المباشرة مع العالم الثالث وقوى المقاومة والجهاد أصبحت شبه مستحيلة، ولذا لابد من اللجوء للإغواء بدلاً من المواجهة فجدة النظام العالمي تكمن في الآليات وليس في الأهداف. ومن الصعب إغواء الشعوب المتماسكة ذات الرؤية القومية أو الدينية الواضحة، ولذا لابد من تسييل العالم والهجوم على الحدود المتعينة، حدود الذات (الوعي القومي- الذاكرة القومية- الرؤى القومية) وحدود الموضوع (السوق القومية- الدولة القومية- والمصالح القومية المشتركة). والنسبية الكاملة والقصص الصغرى وتَناثُر المعنى والنص المفتوح وما شابه ذلك من مصطلحات ومفاهيم هي خير آلية لتحقيق هذا"[1].

ويضيف أيضاً:

"يقول دعاة النظام العالمي الجديد إن ما يدعو إليه النظام هو شكل من أشكال تبسيط العلاقات وتجاوز العُقد التاريخية والنفسية والنظر للعالم باعتباره وحدة متجانسة واحدة. والنظام العالمي الجديد، حسب رؤيتهم، هو نظام رشيد يضم العالم بأسره، فلم يَعُد هناك انفصال أو انقطاع بين المصلحة الوطنية والمصالح الدولية وبين الداخل والخارج. وهو يحاول أن يضمن الاستقرار والعدل للجميع (بما فى ذلك المجتمعات الصغيرة)، ويضمن حقوق الإنسان للأفراد، وهو سينجز ذلك من خلال مؤسسات دولية (رشيدة) مثل هيئة الأمم المتحدة ومنظماتها الدولية والبنك الدولي وقوات الطوارئ الدولية. وبإمكان كل الدول أن تستفيد من الخبرة الدولية في إدارة شئون الداخل وتكييفه مع النظام العالمي الجديد. وسيتم كل هذا فى إطار ما يُقال له "الشرعية الدولية" التي تستند إلى هذه الرؤية، وإلى المقدرة على تحويلها إلى إجراءات، تماماً كما حدث فى حرب الخليج حينما تم صد العدوان العراقى على الكويت. والنظام العالمي الجديد لا يخلو من التناقضات، ولكنها

---

[1] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع :العلمانية الشاملة- الباب السابع: الثنائية الصلبة والسيولة الشاملة وما بعد الحداثة- السيولة الشاملة- (عصر ما بعد الحداثة)- ما بعد الحداثة ج: ١ ص: ١٧٨.

تناقضات (حسب رأيهم) يمكن حسمها دون حاجة إلى الصراعات العسكرية إذ أن ثمة إجراءات رشيدة يمكن من خلالها حل كل التناقضات. وهو نظام يدعو إلى تطبيق المُثُل الديموقراطية حيث يخضع كل شيء لما يُسمَّى "أخلاقيات الإجراءات"، أي الاتفاق على قوانين اللعبة وإجراءاتها دون الانشغال بالماهية أو بالأهداف. وعلى كل يرى دعاة النظام العالمي الجديد أن اللواء قد انعقد أخيراً لأخلاقيات الديموقراطية الليبرالية، بتأكيدها على دور المؤسسات وحقوق الإنسان وسيادة القانون داخل الدول وفي النظام العالمي ككل.

....

وهكذا تغيَّر النظام الإمبريالي القديم، المبني على توازن القوى والرعب الذي يصدر عن المنظومة الداروينية، أصبح دون مقدمات نظاماً عادلاً يدعو إلى الديموقراطية (رغم أنه كان يدك القرى في فيتنام منذ عدة سنوات، ولا يزال ينظر للجرافات الإسرائيلية بإعجاب شديد).

....

ويرى المدافعون عن هذا النظام أن الخطر الذى يتهدد الأمن لا يأتي من الخارج وإنما من الداخل، من قوى تقف ضد الديموقراطية وضد تأسيس المجتمع على أسس اقتصادية وعلى أسس التكيف مع النظام العالمي. هذه القوى هى التى تجر الداخل القومي إلى صراع مع الخارج الدولي بدعوى الدفاع عن الكرامة أو الاستقلالية أو الشخصية القومية أو الرغبة فى التنمية المستقلة. وهى تكلف الداخل ثمناً فادحاً. ومن المنطقي أن يتصوَّر المبشرون بهذا النظام أن القيادة فيه لابد أن تكون للقوة الاقتصادية العظمى، أى للمجتمع الصناعى الغربي وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية. ....

هذا الكلام البسيط الجميل لابد أن تكون وراءه رؤية معرفية كاملة، فهذه هي طبيعة الخطاب الإنساني. وهنا قد يتعلل دعاة النظام العالمي الجديد بأنهم "عصريون نسبيون" لا يميلون إلى إطلاق التعميمات، ولا يؤمنون بأية قيم ثابتة أو مطلقات، ولا يتوجهون إلى الأسئلة المعرفية الكلية ولا يعترفون بوجود كليات، فكيف يمكن أن تُحدَّد أبعاده المعرفية النهائية إذن؟. وقد يقولون: "إننا دخلنا عصر ما بعد الأيديولوجيا وما بعد الحداثة وما بعد التاريخ بل ما بعد الإنسان؛ عصر الما بعديات السائلة التى تحل محل الما قبليات الجامدة المطلقة، فثمة سيولة فكرية في الفكر الحديث تتناقض بطبيعتها مع فكرة النسق الفكري المتكامل والقيم الكلية".

....

ونرى أن ثمة منظومة معرفية قيمية متكاملة كامنة وراء هذا النظام الشامل السائل، شأنه في هذا شأن أي نظام آخر، منظومة تتجاوز ادعاءاته وديباجاته واعتذارياته. بل قد تكون حالة السيولة هذه وادعاء أن الدال ليس له علاقة قوية بأية مدلولات أو كليات هي أيديولوجيا هذا النظام، أي من الممكن أن يكون إنكار كل القيم هو قيمته الكبرى والنهائية، وتأكيد النسبية المعرفية والأخلاقية هي قيمته المعرفية والأخلاقية الكبرى والنهائية، وتأكيد أن العالم في حركة دائمة هو قانونه الثابت.

....

وقد أعلن الإنسان الغربي في عصر نهضته أنه هو الأنا المقدَّسة وأن العالم قد انقسم ببساطة إلى الأنا والآخر، والقوي والضعيف، الغازي والمغزو، المسلح والأعزل، الغرب وبقية العالم (بالإنجليزية: ذا وست آند ذا رست the west and the rest).

في هذا الإطار المعرفي وُلد ما يُسمَّى "النظام العالمي"، فالعالم لم يعرف نظماً دولية أو عالمية إلا بعد الثورة الصناعية وظهور التشكيل الإمبريالي الغربي بشقيه الاستعماري الاستيطاني والاستعماري العسكري. فقبل ذلك التاريخ، كان من الممكن أن تنشأ إمبراطورية في الصين وأخرى في الهند ثم تختفي دون أن تترك أثراً يذكر على سكان أوربا.

....

أما في عصر النهضة الغربية، فقد بدأ الإنسان الغربي يتسلل تدريجياً إلى أرجاء المعمورة ويستولي عليها، وبدأ يؤسس جيوباً استيطانية في بعض الأماكن. وقد استمرت هذه العملية إلى أن تحوَّل العالم بأسره إلى ساحة لنشاطه، خاضعة لهيمنته، تتبع قوانينه. ولذا، يمكن القول بقدرٍ كبير من اليقين أن النظام العالمي الجديد يضرب بجذوره في التشكيل الإمبريالي الغربي، وأن معالمه بدأت تتحدَّد مع منتصف القرن التاسع عشر حينما بدأ هذا التشكيل يعي ذاته كحركة مسرحها العالم بأسره، وحينما أدرك ضرورة أن يقسم العالم وأن يتحوَّل إلى مادة استعمالية: مصدر للموارد الطبيعية- مصدر للطاقة العضلية الرخيصة- سوق تباع فيه السلع- حيز يمكن أن تُصدَّر له المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسكانية الخاصة بأوربا. هذا يعني أن النظام الإمبريالي نظام عالمي (بمعنى أن مسرحه العالم) ولكنه نظام مغلق تم إغلاقه حتى يتسنَّى لصاحب النظام ومؤسسه أن يعظِّم من استغلاله للعالم باعتباره مادة واحدة .وتظهر العالمية المنغلقة لهذا النظام في المواجهة التي تمت مع محمد علي، أول من حاول تحديه حين حاول أن يدخل مصر والعالم العربي إلى العصر الحديث حسب شروطه، مع الاحتفاظ بمنظومة معرفية وقيمية مستقلة. بل حاول أن يبعث العافية في أوصال رجل أوربا المريض أو الرجل العثماني المسلم الذي كانت أوربا

تراقب مرضه باهتمام شديد حتى يمكنها تقطيع أوصاله واقتسامه ضمن ما اقتسمت فى العالم. وبالفعل، ضُرب محمد علي وبشراسة من قبل أعدائه وأصدقائه الغربيين وتم تقطيع أوصال الدولة العثمانية (وهى عملية لا تزال مستمرة فى البوسنة والهرسك وكوسوفو)، وتم اقتسام العالم مع الحرب العالمية الأولى، وتحقق النظام المغلق وأصبح واقعاً عالمياً فى عصرنا الحديث.

ومنذ أن قام هذا النظام العالمي باقتسام العالم، بدأ يصول ويجول، وبدلاً من أن ينشر الاستنارة والعدل، انغمس فى عمليات إبادة منهجية رشيدة لم يعرفها تاريخ البشر من قبل (إبادة سكان الأمريكتين)، وفي عمليات ترانسفير (نقل السود من أفريقيا إلى الأمريكتين، ونقل العناصر البشرية غير المرغوب فيها مثل المجرمين واليهود والفائض البشري والثوريين والفاسدين اجتماعياً إلى جيوب استيطانية). وقد خاض هذا النظام العالمي في الصين، حرب الأفيون الأولى ثم حرب الأفيون الثانية حتى يحقق أرباحاً اقتصادية ضخمة. وقام بنهب ثروات الشعوب بشكل منظَّم لم يعرف له التاريخ مثيلاً. ومع ظهور حركات التحرر الوطني فى المستعمرات، ابتداءً من الأربعينيات، قام النظام الإمبريالي العالمي بضربها بعنف شديد، ثم حاول فى الخمسينيات الالتفاف حولها بأن منح المستعمرات استقلالاً اسمياً وأسس نظماً سياسية عميلة مستعدة لأن تعطيه امتيازات يفوق عائدها ما كان يحصل عليه من الاستعمار العسكري المباشر.

....

قام هذا النظام الإمبريالي العالمي بغرس كل أنواع الاستعمار فى عالمنا العربي (الاستعمار العسكري فى مصر والسودان وليبيا والمغرب وتونس والصومال والعراق وجيبوتي وسوريا ولبنان وإريتريا- الاستعمار الاستيطاني فى الجزائر- الاستعمار الاستيطاني الإحلالي فى فلسطين)، وقام بنهب هذه المنطقة إما مباشرة إبان فترة الاستعمار العسكري المباشر أو من خلال التحكم فى أسعار المواد الخام (وخصوصاً البترول) وعن طريق بيع أسلحة ببلايين الدولارات لنظم يضمن هو بقاءها فى الحكم ويعلم جيداً أنها غير قادرة على استخدام هذا السلاح، كما أثبتت الخبرة التاريخية (التي يريدنا أن ننساها).

وتتضح هوية هذا النظام العالمي الإمبريالي المغلق فى ظهور الفلسفات العنصرية والداروينية والنيتشوية التي تقسم العالم وبحدة إلى الأنا والآخر، وتجعل الذات القومية هي المعيار الوحيد للحكم، وتجعل الغرب هو المركز، وتجعل الإنسان الأبيض هو صاحب المشروع الحضاري الوحيد الجدير بالاحترام والبقاء.

....

وفي هذا الإطار، ظهرت الفاشية والنازية ثم الصهيونية- وهي دعوة لحل مشاكل أوربا (المسألة اليهودية) عن طريق تصديرها للشرق. فحينما كان هرتزل يتحدث عن إنشاء دولة يهودية يضمنها "القانون الدولى العام" فإنه كان يعني "القانون الغربي الاستعماري" الذى يتحكم فى العالم ويقسمه حسب رؤيته ومشيئته. ثم صدر وعد بلفور في هذا الإطار، إذ أعطت بريطانيا الحق لنفسها في أن تمنح أرض فلسطين للفائض البشري اليهودي فى الغرب وأن تنقل من فلسطين سكانها الأصليين (تمت الإشارة إليهم باعتبارهم العناصر "غير اليهودية"، أي "غير الغربية"، ومن ثم فهم يقعون خارج نطاق الحقوق والمسئوليات). ثم قام النظام العالمي من خلال عصبة الأمم بوضع فلسطين تحت الانتداب لضمان تنفيذ هذا المشروع الاستيطاني الإحلالي، ثم قام النظام العالمي مرة أخرى من خلال هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين ومنح الوجود الصهيوني شرعية مستمدة من شرعيته الدولية هذه. ثم استمر النظام العالمي، متمثلاً فى شقيه الرأسمالي والاشتراكي، بالاعتراف بالدولة الصهيونية ودعمها إما بشرياً (عن طريق نقل المادة البشرية من شرق أوربا) أو مالياً وعسكرياً (عن طريق الدعم المالي والعسكري من غرب أوربا والولايات المتحدة) وهو دعم ظل يتزايد فى حجمه ونوعه يوماً بعد يوم حتى وصل إلى التحالف الإستراتيجي المعلن بين إسرائيل والولايات المتحدة، مؤكداً بذلك أن الغرب صاحب النظام العالمي هو المهيمن على العالم، وأن العالم هو المسرح، وأن الجنس البشري هو المادة التى وظَّفها لصالحه.

هذه رؤية ثنائية حادة تنكر تاريخ الآخر وإنسانيته ولا تقبله إلا كمادة استعمالية.

....

ولكن النظام الإمبريالي، شأنه شأن أي نظام حلولي كموني مادي، ينتقل من الصلابة إلى السيولة. وفي هذا الإطار لا يمكن أن تظهر أنا مقدَّسة أو غير مقدَّسة، فكل شيء نسبي لا يعرف الثنائية أو التجاوز.

وقد تبدت المرحلة السائلة في تحولات النظام العالمي القديم إذ حدثت تطورات تاريخية عميقة لا تشكل لحظة إفاقة أخلاقية تاريخية (وكيف يمكن أن نتوقع هذا من حضارة مؤسسة على أساس القانون الطبيعي والفلسفة النيتشوية والداروينية؟) وإنما تشكل لحظة إدراك ذكية من جانب الغرب لموازين القوى.

ونحن نلخص أسباب ظهور النظام العالمي الجديد فيما يلي:

١- أدرك الغرب عمق أزمته العسكرية والثقافية والاقتصادية، وأحس بالتفكك الداخلي وبعجزه عن فرض سياساته بالقوة.

٢ - أدرك الغرب استحالة المواجهة العسكرية والثقافية والاقتصادية مع دول العالم الثالث التي أصبحت جماهيرها أكثر صحواً ونُخَبها أكثر حركية وصقلاً وفهماً لقواعد اللعبة الدولية.

٣ - أدرك الغرب أنه على الرغم من هذه الصحوة، فإن ثمة عوامل تفكك بدأت تظهر في دول العالم الثالث، حيث ظهرت نخب محلية مستوعبة تماماً في المنظومة القيمية والمعرفية والاستهلاكية الغربية يمكنه أن يتعاون معها ويجندها، وهي نُخَب يمكن أن تحقق له من خلال السلام والاستسلام ما فشل في تحقيقه من خلال الغزو العسكري.

لكل هذا قرَّر الغرب أن يلجأ للالتفاف بدلاً من المواجهة، وبذا يستطيع حل إشكالية عجزه عن المواجهة ويتخلى عن مركزيته الواضحة وهيمنته المعلنة ليحل محلها هيمنة بنيوية تغطيها ديباجات العدل والسلام والديموقراطية التي ينقلها البعض ببغائية مذهلة.

....

كل هذا أدَّى إلى أن يتبنَّى الغرب إستراتيجية جديدة: الاستعمار العالمي الجديد الذي يلجأ للإغواء بدلاً من القمع. فالآلية الأساسية للقسر، أي سحق إرادة الشعوب، أصبحت مكلفة للغاية إن لم تكن مستحيلة تماماً.

....

فالنظام العالمي الجديد، كما أسلفنا، هو امتداد للنظام العالمي القديم، ومن ثم فهو تعبير جديد عن الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية التي تذهب إلى أن العالم مادة والإنسان أيضاً مادة لا يختلف عن بقية العالم، وهذه المادة مادة استعمالية بالدرجة الأولى.

....

وقد كانت المنظومة القيمية الغربية تسري على كل البشر، فالجميع مادة استعمالية. ومع هذا، فإن هناك ثنائية الأنا والآخر الصلبة

....

ولذا، عبَّرت هذه الرؤية عن نفسها في النظام الدولي القديم على هيئة خطاب عنصري يؤكد على التفاوت بين الأجناس كما يؤكد رسالة الرجل الأبيض. ولكن، نظراً للأسباب التي أدرجناها فيما سبق، بدأت منظومة التفاوت في التراجع وظهر بدلاً منها منظومة واحدية مادية سائلة تساوي بين الناس وتسوي بينهم، وأصبح كل البشر مادة متساوية (معرفياً على الأقل) وظهرت الاستهلاكية العالمية بديلاً عن الرأسمالية الرشيدة والاشتراكية العلمية.

وانطلاقاً من ثنائية الأنا والآخر العنصرية الصلبة، كان النظام الإمبريالى القديم يحاول أن يوقف عمليات التحديث فى أى مكان فى العالم حتى يصبح العالم الغربي متقدماً، منتجاً ومستهلكاً، ويصبح العالم الثالث متخلفاً بدائياً مصدِّراً للمواد الخام والعمالة الرخيصة ومستهلكاً ضعيفاً لبعض بضائع أوربا. أما النظام الإمبريالي الجديد في عصر السيولة (في عصر الاستهلاكية العالمية)، فيرى أنه من الضروري ترشيد العالم بأسره وتحويله كله إلى حالة المصنع والسوبر ماركت، ولذا لابد أن تتقدَّم شعوب الأرض بالقدر الكافي لتصبح شبه منتجة شبه مستهلكة. فالبدوي فى صحراء نجد والهندي الأحمر فى براري أمريكا والقروي فى الصعيد يشكّلون عائقاً يقف أمام النظام الإمبريالي الجديد (الاستهلاكية العالمية)، فهم ليسوا فى حاجة إلى الهامبورجر أو السيارة أو الفيديو، ومن ثم لا يمكن تجويعهم أو حرمانهم أو الضغط عليهم، وبالتالي فهم يشكلون ثغرة فى نظام يشبه الآلة لا يتحمل ثغرات، ويجب أن تكون أجزاؤه جزءاً من الكل الآلي. فمثل هؤلاء الفقراء مستقلون قادرون على الحفاظ على أبنيتهم الثقافية وقيمهم المطلقة وعلى اتزانهم مع الذات ومع الطبيعة، وهذا أمر يهدد النظام العالمي. ولذا، لابد أن "يتقدم" الجميع، حتى يدخل الجميع النظام العالمي، ويتم هذا من خلال بيع الأحلام الوردية عن الرخاء الاقتصادي وتعظيم اللذة (أو الوعد باللذة) والتصعيد المستمر للرغبات الاستهلاكية والجنسية. وهو تصعيد يتم من خلال البث التليفزيوني ووسائل إعلام الداخل والخارج. ولكن يجب أن يتم التقدم، تحت مظلة البنك الدولي وصندوق النقد، داخل إطار النظام العالمي الجديد الذى تحكمه بنية التفاوت والمنظومة القيمية الاستهلاكية. ومن ثم يجب ألا يُسمَح بإدخال التنمية المستقلة، لأنها تحدث ثغرة فى النظام الدولي أيضاً، فقد توقف توسع الشركات متعددة الجنسيات، وقد تعوق التنمية تحت مظلة البنك الدولي. وأما التنمية فى إطار النظام العالمي الجديد، فإنها ستضمن أن تكون شعوب العالم الثالث نصف منتجة ونصف مستهلكة حتى يستمر اعتمادها المذل على الغرب. ولا شك في أن عمليات تصعيد التوقعات الاستهلاكية، وعملية التسخين (الاستهلاكية الجنسية) التي تتعرض لها شعوب العالم الثالث، ستجعل من المستحيل تحقيق أي تراكم رأسمالي وستبدد الطاقة الثورية أولاً بأول وتختفي الرغبة في السمو وفي الجهاد.

....

وهكذا تغيَّر النظام الإمبريالي القديم، المبني على توازن القوى والرعب الذي يَصدُر عن المنظومة الداروينية، وأصبح دون مقدمات نظاماً عادلاً يدعو إلى الديموقراطية ولكنه يدعو لأشياء أخرى كذلك مثل السوق الشرق أوسطية التي تنكر تاريخ المنطقة تماماً، ويتحدث

عن الشعوب العربية وعن المنطقة. كل هذا يجعلنا ندرك تماماً أن دعوة النظام العالمي الاستهلاكي الجديد للديموقراطية لا تهدف إلى تمكين الجماهير من التحكم في مصيرها، وإنما هي أداته في فتح الحدود وإضعاف الدول القومية المركزية الصغيرة حتى يتسنى له ترشيد البشر وإزالة أية عوائق إنسانية أو أخلاقية، وحتى تصبح كل الأمور متساوية ونسبية ويسود تساو معرفي كامل هو في واقع الأمر عملية تسوية، وتُمحَى كل الثنائيات، فالأجساد مادة والعقول آليات والعالم عقارات والأوطان فنادق.

....

لكن رغم كل هذا الحديث العذب عن الديموقراطية والمساواة والسيولة يكتسب الغرب صلابة خاصة من ثقته من أنه الممثل الحقيقي لحالة الطبيعة، وأن طريقه (الغربي- الحديث- العلماني- الطبيعي/المادي) هو الطريق الصحيح، بل الوحيد، أي أنه بعد أن يؤكد غياب المرجعيات بشكل علني ويقوم بتسييل العالم، يتحرك في إطار مرجعيته الخفية الصلبة التي تمنحه مركزية في العالم. ولذا، فهو يقوم بفتح حدود الآخرين وتدعيم حدوده هو ويقوم بفك مدافع الآخرين (كما فعل مع محمد علي) وينصب مدافعه هو، فالمدفع هو مركز العالم الذي لا مركز له، هو الصلابة في عالم السيولة، وهو الركيزة في عالم لا ركائز له؛ مدفع يحمله إنسان أوربا الطبيعي والاقتصادي (المادي)، إنسان هوبز وداروين ونيتشه. هو مدفع ضخم صلب لا ريب فيه، ولكنه مع هذا يظل مختبئاً وراء آليات الإغواء وخطاب السيولة والنسبية والتعددية" [١].

وهذا الإغواء وخطاب السيولة والنسبية والتعددية يدفع بالعلمانيين المفلسين في اتجاه مغازلة إسرائيل، وهو توجه مقصود ترعاه السفارات الأمريكية، وقد لاقى ترحيباً من العديد من العلمانيين القوميين والاشتراكيين بعد أن أفلست مشاريعهم القومية والاشتراكية، وهذا هو التوجه العقائدي لعصر ما بعد الحداثة في العالم العربي والإسلامي، وعنه يقول الدكتور المسيري رحمه الله:

"ولابد من إعادة صياغة النخبة الثقافية والسياسية وإعادة تعليمها، وستأخذ هذه العملية شكل الترغيب والترهيب. أما الترغيب، فهو يأخذ شكل دعم ورشاوى ومراكز بحوث وصفقات وبرامج ثقافية تزيد معدلات الأمركة والعلمنة فى المجتمع والتلويح للنخب السياسية والثقافية بأنها ستُشارك بشكل مباشر في هذا التعاون الدولي وستجني ثمراته بشكل شخصي. أما الترهيب فهو تخويف الجميع من خطر الإرهاب الإسلامي. وقد نجح النظام العالمي الجديد فى هذا المجال، فكثير من المثقفين القوميين والاشتراكيين العلمانيين،

---

[١] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع :العلمانية الشاملة- الباب الثامن: العلمانية الشاملة والإمبريالية- النظام العالمي الجديد ج: ص: ١٨٨ إلى ١٩٤.

ممن وجدوا أنفسهم بلا أرضية ولا قضية، بعد حرب الخليج وبعد تراجع المنظومة القومية وبعد سقوط الاتحاد السوفيتي وتساقُط المنظومة الاشتراكية، يبحثون عن مبرر وجيه وموضوعي للتوجه للسفارة الأمريكية والسير في ركاب المنظمات الدولية (التي تدفع رواتب هي أقرب إلى الرشاوى منها إلى الأجور). وقد وجدوا مثل هذا المبرر أخيراً في الادعاء بالخوف على الداخل الديموقراطى من الداخل الإرهابي، ومن ثم فليستعينوا بالخارج الدولي، هذا الذي ساند كل الدول الإرهابية عبر تاريخه ولا يزال يساند طواغيت الأرض الذين ينهبون شعوبهم أثناء عمليات النهب ثم يحميهم بعدها، فهذا الخارج قد أصبح فجأة نصير الديموقراطية والمدافع عن العدالة. وبدأت تظهر بينهم آلهة محلية مثل "حورس" جزء من الماضي المتحفي (نسبة إلى متحف)، لتحل محل الماضي العربي الإسلامي الحي، وحتى تتصارع الآلهة المحلية الوثنية (هذا، إذا تم بعث آشور، واللات والعزى)، كما كان الحال فى الشرق الأدنى القديم قبل الفتح الإسلامي، وهذه هى تماماً الرؤية الصهيونية للمنطقة في عصر ما بعد الحداثة.

هذا هو الإطار المعرفي العام لحركة النظام العالمي الجديد وصهيونية عصر ما بعد الحداثة في الشرق العربي والإسلامي: إنسان اقتصادي مادي لا ذاكرة له- ينسى التاريخ والهوية- مرن- قادر على التفاهم مع الجميع حسبما تمليه عليه الحسابات الاقتصادية الرشيدة. وهو شرق عربي مرن، إجرائي، قادر على الدخول في علاقة طبيعية مع إسرائيل وعلاقة حميمة مع الغرب"[(١)].

وهذا الإغواء -المختبئ وراء مصطلحات الديمقراطية والليبرالية والتعددية والاعتراف بالآخر وحوار الأديان- لا يتصدى له إلا الإسلام، الذي يرى الإنسان خليفة لله في الأرض ليعمرها وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وليستعلي بإيمانه فوق قيم المنفعة واللذة. هذا الإسلام القادر بعقيدته وتوحيده أن يتصدى لإسرائيل التي تمثل علمانية الغرب، وعن هذا التصدي الإسلامي للنظام العالمي الجديد يقول الدكتور المسيري رحمه الله:

"ومن هذا المنظور، فإن العدو الأول للنظام العالمي ليس القومية العربية (الآخذة فى التراجع، وخصوصاً بعد سقوط الدول الاشتراكية وبعد حرب الخليج) وإنما هو كل من يقف ضد الاستهلاكية العالمية، أى الإسلام كأيديولوجيا إنسانية عالمية وكمنظومة قيمية. فمن المنظور الإسلامي، نحن لم نأت إلى هذا العالم كي نبيع أو نشتري وإنما لنأمر بالمعروف وننهي عن المنكر، وقيم الأمانة والكرامة لها ثقل في عقل هذا الإنسان المسلم، فالإسلام

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- الجزء الخامس: أزمة الصهيونية والمسألة الإسرائيلية- الباب الثالث: المسألة الإسرائيلية والحلول الصهيونية- ما بعد الصهيونية (صهيونية عصر ما بعد الحداثة والنظام العالمي الجديد) ج: ٧ ص: ٢٧١.

رؤية تجعل من العسير على الإنسان أن يرد نفسه إلى النشاطين الأساسيين: أي النشاط الاقتصادي والنشاط الجنسي، ثم يردهما كليهما إلى الطبيعة/المادة، فالإنسان المسلم ليس الإنسان الطبيعي (ذي البُعد الواحد) وإنما هو الإنسان المركب الذي استخلفه الله في الطبيعة كي يعمرها ويسخرها لنفسه وللأجيال القادمة بإذنه تعالى. وفي مواجهة هذه الأيديولوجية الإيمانية، تستعيد إسرائيل دورها التاريخى الذى كادت تفقده، وبدلاً من أن تكون مجرد قاعدة للاستعمار الغربي الرأسمالي، فإنها تصبح ممثلة للحضارة الغربية (الحديثة العلمانية) بشقيها الرأسمالي الحالي والاشتراكي السابق، حائطاً ضخماً يمثل الغرب في الشرق ويقف ضد الهمجية الشرقية، على حد قول هرتزل. فهناك الآن الجمهوريات السوفيتية الإسلامية السابقة التي أصبحت لها دينامية مستقلة نوعاً و"تتهددها" الأصولية الإسلامية، وهناك كذلك بعض النظم العربية التي ترى أن عدوها الأساسي هو هذه الأصولية الإسلامية" [١].

إن الإسلام اليوم لا يتصدى للعقيدة الغربية العلمانية الفاسدة المدمرة للإنسان بمواجهة عقائدية فقط، ولكنه اليوم هو المتحدي الأكبر للغطرسة الاستكبارية العالمية في ميدان الجهاد والقتال، وهو الذي ينزل بالغرب العلماني ذي الحقد الصليبي وبنظامه العالمي الجديد أفدح الخسائر البشرية والعسكرية والاقتصادية بعون الله وقوته، وهو الذي يحشد الغرب اليوم قواه ليواجهه في حرب صليبية معاصرة باسم الحرب على الإرهاب، سيلاقي فيها الغرب ما لاقاه في الحروب الصليبية السابقة بإذن الله، وصدق الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

***

[١] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية– الجزء الخامس: أزمة الصهيونية والمسألة الإسرائيلية– الباب الثالث: المسألة الإسرائيلية والحلول الصهيونية– ما بعد الصهيونية (صهيونية عصر ما بعد الحداثة والنظام العالمي الجديد) ج: ٧ ص: ٢٧٢. كان هذا هو آخر ما نقلته عن الدكتور عبد الوهاب المسيري –رحمه الله– في هذا الجزء من الكتاب، وأحسبه مسك الختام.

٥- ما هي الحرية والعلمانية التي يريدها الغرب منا؟

والآن بعد أن أشرت باختصار لأن العلمانية -التي يدعونا لها دعاة الحملة الفكرية للحملة الصليبية- لم ولا تنفك عن الاستكبار العالمي، وبعد أن أشرت باختصار أيضاً لأن النظام العالمي الجديد -الذي يدعونا له أولئك الدعاة- ما هو إلا امتداد للنظام القديم، يتبنى نظرية عبث ما بعد الحداثة، بعد أن بينت ذلك أود الآن أن أشير لما هي تلك العلمانية التي يدعونا لها أولئك الدعاة؟ هل هي مطلق العلمانية على ما فيها من بلاء؟ أم أنها نوع خاص من العلمانية يخدم مصالحهم؟ التي هي مقصدهم الأساسي من كل ذلك الضجيج والخلط الفكريين، والتي هي أساساً السيطرة على بلادنا ونهب ثرواتنا، وتغيير عقيدتنا، التي تهدد باطلهم[١].

إن المتأمل في كتابات دعاة الحملة الصليبية الفكرية يجدهم يصرحون بلا مواربة؛ أن التغيير العلماني الذي يدعون إليه ليس هو مجرد إعطاء الحرية المزعومة للمجتمعات العربية والإسلامية، ولكن التغيير العلماني -في نظرهم- هو إعطاء تلك المجتمعات الحرية في الخضوع لأمريكا وتحقيق مصالحها. أما إذا كانت هذه العلمانية ستعني معاداة أمريكا أو التمرد عليها أو تعطيل مصالحها فهي توجه يجب محاربته والتصدي له.

ولذلك حذرت تشيرل بينارد من العلمانيين والحداثيين لأن كثيراً منهم له توجهات يسارية. فتؤكد على أن العلمانيين أحياناً يكونون غير مقبولين بسبب ميولهم العقائدية الأوسع[٢]، وتقصد بها معاداة بعضهم لأمريكا. ولذلك تنصح بدعم العلمانيين بانتقائية، وتدعو لتثبيط التحالف العلماني مع القوى المعادية للولايات المتحدة على أسس مثل القومية والعقيدة اليسارية[٣].

وتذكر أنه رغم أن العلمانيين من المفترض أن يكونوا أقرب الحلفاء للغرب في العالم الإسلامي، لأن الغرب قد أسس على أساس علماني، ولكن كانت المشكلة ولا زالت أن كثيراً من العلمانيين المشهورين في العالم الإسلامي ليسوا متعاطفين -وأحياناً معادين- لهم (أي الأمريكان) على أسس أخرى غير العلمانية. وأن العقائد اليسارية ومعاداة أمريكا والقومية المغالية والأشكال الاستبدادية ذات المسحات

---

(١) راجع هنا ما نقلته عن الدكتور النفيسي في: الباب الرابع: العودة لأفغانستان/ الفصل الرابع: الغزوات المباركات/ المطلب الثالث: المعاني السياسية والفكرية التي أبرزتها الغزوات/ الفرع الثالث: آثار الغزوات المباركات. عن أن هدف أمريكا بعد الحادي عشر من سبتمبر هو تحقيق أمرين: ١- أكبر درجة من علمنة النظم السياسية، التي تقودها نخبة منفصلة عن أمتها تتجاهل الثالوث الخطير الذي تعاني منه الأمة (الطغيان السياسي وسوء توزيع الثروة والتحلل الاجتماعي). ٢- عولمة القمع، أي الحرب على الإرهاب بكل بشاعتها وقذارتها.

(٢) CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: x.

(٣) CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: xii & ٦٤.

الديمقراطية لا زالت بعض مظاهر (العلمانية الإسلامية!!) حتى اليوم[١]. ولذلك ترى وجوب دعم العلمانيين دعماً ينبني على أساس كل حالة على حدة[٢].

وفي الوقت الذي تعتبر تشيرل بينارد –وأشباهها من كتاب حملة الصليب الفكرية– من يدعو لتطبيق الشريعة متشدداً –كما ذكرت سابقاً– فإنها تشيد بالعلمانية التركية، التي فرضت على الأتراك بالقهر والعسف، وتعتبر أن تركيا –التي تعتبرها من أنجح الدول في العالم الإسلامي– بلغت ما بلغته من تقدم عبر العلمانية الشرسة، وأن من مظاهر تميزها أنها قد حولت نفسها في وقت قصير من الدولة العثمانية للدولة العلمانية[٣].

(١) CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٢٥.

(٢) CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٤٧.

(٣) CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, p: ٥

المطلب الرابع:

الرواية الأمريكية الرسمية عن الغزوات المباركات

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾

أصدر الكونجرس الأمريكي تقريره الشهير عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر، والذي يعد الرواية الأمريكية الرسمية عما حدث في ذلك اليوم.

وقد لاحظت أن هذه الرواية حوت كثيراً من المغالطات والأكاذيب، وسأشير في هذا المطلب -بعون الله- إلى بعضها باختصار.

١- الأصرار على خداع شعبهم في وصف الغزوات.

٢- تشويه عقيدة القاعدة.

٣- الخداع حول أهداف القاعدة.

٤- استخدام الكذب والدعاية الدنيئة للوقيعة بين المجاهدين.

٥- القاعدة والعراق.

٦- القاعدة وإيران وحزب الله.

٧- تسعة من المنفذين جاءوا من مناطق فقيرة في السعودية.

٨- أقوال المعتقلين كمصدر، وتواطؤ التقرير عن الجرائم التي ارتكبت بحق المعتقلين.

٩- ما لم يتحدث عنه التقرير.

***

١- الأصرار على خداع شعبهم في وصف الغزوات:

يصر الأمريكان والغرب من ورائهم على تصوير الغزوتين على أنهما مأساة حلت بأمريكا يجب عقاب مجرميها الذين لا يمكن أن يبرروا ما اقترفوا. جاء في التقرير:

"لقد كان ١١ سبتمبر ٢٠٠١ يوماً من الصدمة والمعاناة غير المسبوقتين في تاريخ الولايات المتحدة. كانت الأمة غير مهيئة. كيف حدث هذا؟ وكيف يمكن أن نتجنت مثل هذه المأساة مجدداً؟" [(١)].

ويصرون على إخفاء الوصف الحقيقي للغزوات وهي أنها جزء من القصاص العادل، الذي يستحقونه بسبب جرائمهم المتكاثرة المستمرة ضد المسلمين.

كان عليهم -إن كانوا أمناء مع أنفسهم- أن يعرضوا وجهة نظر عدوهم، بدلاً من إشارات عابرة لا تغني شيئاً، وخاصة أن عدوهم ليس أبكماً، ولكنه أعلن ويعلن مراراً وتكراراً عن وجهة نظره، قبل وبعد الغزوات.

ولكنه الإصرار على التعمية على الحقيقة، والغطرسة في عدم الإقرار بالخطأ.

***

٢- تشويه عقيدة القاعدة:

ذكرت من قبل -عند الحديث عن حرب التشويه والكذب- أن التقرير زعم أن معظم المسلمين يرفضون طائفية بن لادن العنيفة، وأن بن لادن وأتباعه يعرفون بين العرب بالتكفيريين[(٢)].

وهذا التشويه المتعمد في التقرير لعقيدة القاعدة، وزعمه بانصراف المسلمين عنها يتناقض مع ما أقر به التقرير من شعبية أسامة بن لادن والقاعدة في العالم الإسلامي في عدد من مواضعه.

يذكر التقرير في أحد المواضع:

"يتمتع العدو بشعبية واسعة في العالمين العربي والإسلامي عبر مطالبته بالثأر للمظالم السياسية" [(٣)].

ويذكر في موضع آخر:

"كيف استطاع بن لادن بدعوته لقتل الأمريكان بلا تمييز أن يكسب آلاف الأنصار ودرجة من القبول من ملايين أكثر؟

إن التاريخ والثقافة وبنية العقائد التي شكل منها بن لادن رسالته ونشرها ليست معلومة بدرجة كبيرة للأمريكان. إنه يَعِد بأن يستعيد العزة -للشعوب التي تعتبر نفسها ضحية السادة الأجانب المتعاقبين- عبر تركيزه على رموز المجد الإسلامي الماضي. إنه يستخدم

---

(١) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: xv.

(٢) الجزء الأول: التفاتة للماضي/ الباب الرابع: العودة لأفغانستان/ الفصل الرابع: الغزوات المباركات/ المطلب الثالث: المعاني السياسية والفكرية التي أبرزتها الغزوات/ الفرع الخامس: كيف يخطط الصليبيون لحرب المجاهدين فكرياً / المبحث الثاني: حرب التشويه والكذب.

(٣) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: xvi.

إشارات ثقافية ودينية إلى القرآن الكريم وبعض مفسريه. وهو يروق للشعوب التي تحيرت عندما واجهت تغيرات الحداثة والعولمة الهائلة. إن بلاغته تستند بانتقائية لمصادر متعددة من الإسلام والتاريخ وأمراض المنطقة السياسية والاقتصادية المزمنة. كما أنه يؤكد على مظالم الولايات المتحدة التي يتفق عليها الكثيرون في العالم الإسلامي، فهو يندد بوجود قوات الولايات المتحدة في السعودية أرض المقدسات الإسلامية، ويتحدث عن معاناة الشعب العراقي من العقوبات، التي فرضت بعد حرب الخليج، ويعارض تأييد الولايات المتحدة لإسرائيل" [1].

ويذكر التقرير في موضع ثالث أن:

"العديد من المتطرفين كان ولا زال لهم أتباعهم الخاصين، أما بن لادن فلا يزال جديراً بنيل إعجاب المجتمعات المليئة بالسخط، بينما تلاشت الرموز الآخرى. ولا زال بن لادن معدوداً رمزاً للمقاومة أساساً ضد الغرب وأمريكا. ويبقى قادراً على أن يقدم نفسه وحلفاءه على أنهم المقاتلون المنتصرون في تجربة القتال الإسلامي الجهادية الأفغانية المظفرة المجيدة ضد الروس. وبحلول عام ١٩٨٨ كانت له جاذبية مميزة لما ركز على مهاجمة أمريكا" [2].

ويذكر في موضع رابع:

"تجد رسالة بن لادن آذاناً صاغية، لأن العالم الإسلامي قد تخلف عن الغرب سياسياً واقتصادياً وعسكرياً في القرون الثلاثة الأخيرة، ولأن القليل من الديمقراطيات الإسلامية المتسامحة تقدم بدائل عصرية للمستقبل. إن رسالته تجتذب دعماً فعالاً من آلاف الشباب المسلم المعاني، وتتردد بقوة بين عدد أكبر من الذين لا يؤيدون بفاعلية وسائله. إن السخط من أمريكا والغرب عميق، حتى بين زعماء الدول المسلمة الناجحة نسبياً" [3].

ويذكر التقرير في موضع خامس:

"على الولايات المتحدة أن تقوم بالمزيد لتتواصل برسالتها. وقد تساءل ريتشارد هولبروك وهو يشير لنجاح بن لادن في الوصول للجمهور المسلم: "كيف يمكن لرجل في كهف أن يكون أكثر تواصلاً من مجتمع اتصالات العالم المتقدم؟" [4].

***

---

[1] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٤٨ & ٤٩.

[2] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٥٤.

[3] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٣٦٢.

[4] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT, p: ٣٧٧.

٣- الخداع حول أهداف القاعدة:

يلخص التقرير أهداف القاعدة، وخاصة فيما يتعلق بأمريكا بقوله:

"أما عن السؤال الثاني؛ ماذا يمكن أن تفعل أمريكا؟ فإن إجابة القاعدة هي أن على أمريكا أن تغادر الشرق الأوسط، وتتحول للإسلام، وتنهي الفسوق والكفر في مجتمعها وثقافتها.

إن بن لادن والإرهابيين الإسلاميين يعنون بالضبط ما يقولونه، فأمريكا بالنسبة لهم هي منبع كل الشرور (رأس الأفعى). ولا بد أن تتحول [للإسلام] أو تباد.

إنه موقف لا يمكن أن تساوم عليه الولايات المتحدة أو تفاوض. ليست هناك أرضية مشتركة -ولا حتى احترام للحياة- يمكن أن يبدأ عليها حوار. إنها فقط إما أن تباد أو تعزل تماماً" [1].

أنا لن أتحدث عن حجم الكذب والتضليل المتعمد في هذا الكلام، وقد وصفته بالمتعمد، لأن لدى الكونجرس متخصصون وعلماء ومستشرقون درسوا الشريعة الإسلامية، ويتابعون إصدارات القاعدة كلمة بكلمة. إذن فلا يمكن الاعتذار لهم بأنهم سطحيون أو جهلة أو متسرعون، كلا الذي أظنه أنهم متعمدون في نشر هذا الكذب والتضليل.

أقول أنا لن أتحدث عن بطلان هذا الكذب المتعمد، ولكني أدلف إلى المعاني الخطيرة وراءه، ولكن قبل ذلك أود أن أذكر الصهاينة سواء كانوا يهوداً أو مسيحيين أو غيرهم، من الذين لا أشك في أنهم قد شاركوا في كتابة هذا التقرير وتوجيه أفكاره، أقول لهم لو كان المسلمون يبيدون غيرهم، لأبادوا أسلافكم اليهود لما لجأوا لهم في الأندلس هرباً من محاكم التفتيش المسيحية، ثم كافأتم المسلمين أسوأ مكافأة، وهو أمر لا يستغرب منكم ومن أفكاركم وعقائدكم. ولو كان المسلمون يبيدون غيرهم لأبادوا نصارى الشرق، وعقدوا لهم محاكم التفتيش، كما عقد أسلافكم لأسلافنا.

يقول الشيخ أسامة بن لادن -حفظه الله- في خطابه للشعب الأمريكي في سبتمبر ٢٠٠٧:

"إن أخلاق ثقافة المحرقة هي ثقافتكم، وليست ثقافتنا، بل إن تحريق الكائنات الحية محرم في ديننا، حتى وإن صغرت كالنمل. فما بالكم بالبشر؟ فمحرقة اليهود قام بها إخوانكم في وسط أوروبا، ولو كانت قريبة من بلادنا لنجا معظم اليهود باللجوء إلينا، ودليلي على ذلك؛ ما فعله إخوانكم الأسبان، عندما أقاموا محاكم التفتيش الرهيبة للمسلمين واليهود، فلم يجد أؤلئك اليهود ملاذاً آمناً إلا باللجوء إلى بلادنا، ولذلك فإن الجالية اليهودية في المغرب هي من أكبر الجاليات في العالم، وهم أحياء عندنا، ولم نحرقهم،

[1] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT P: ٣٦٢.

ولكننا قوم لا ننام على الضيم، نرفض الذل والهوان، ونثأر من أهل البغي والعدوان، ولن تذهب دماء المسلمين هدر، وإن غداً قريب لمن انتظر. ثم إن إخوانكم النصارى يعيشون بيننا منذ أربعة عشر قرناً، ففي مصر وحدها ملايين النصارى، لم نحرقهم، ولن نحرقهم" .

وأعود لمعنى كلام التقرير عن أهداف القاعدة، فأتساءل ما معنى ذلك الكلام؟ معناه ببساطة أن القاعدة مجموعة من المهاويس أنصاف المجانين، الذين أعماهم التعصب، ويتعطشون لسفك الدماء، وأنهم قد وضعوا الشعب الأمريكي في وضع لا يمكن المساومة عليه، فإما أن يسلم وإما أن يباد، فماذا يجب على الشعب الأمريكي المظلوم المهدد المضطهد المدافع عن دينه وحرماته؟ إجابة هذا السؤال هي بيت القصيد هنا؛ يجب على الشعب الأمريكي أن يبيد القاعدة، لأنه لا حل معها إلا هذا.

ثم ليتأمل القارئ عبارة " *إن بن لادن والإرهابيين الإسلاميين يعنون بالضبط ما يقولونه*"، إن العبارة تعني أن بن لادن ليس هو وحده الذي يسعى لإبادة أمريكا، ولكن هناك طائفة أكبر تسمى (الإرهابيون الإسلاميون)، وإذا عرفنا أن أمريكا تسمي كل من يقاومها ويقاوم إسرائيل ومشاريعهما التوسعية الاحتلالية إرهابياً، إذن فالعبارة تحشد الأمريكان لحرب أوسع من بن لادن والقاعدة، حرب ضد كل من تسميهم أمريكا والغرب وإسرائيل إرهابيين إسلاميين. وهؤلاء -بما توحيه العبارة من أنه لا حل معهم بالتفاوض والحوار- يجب أن يبادوا.

إن الأساس الفكري الذي ينطلق منه ما ذكره التقرير هو نفس الأساس الفكري الذي انطلق منه الاستكبار العلماني الغربي وخاصة الإنجلوساكسوني الأمريكي منه، فحينما واجه الإنجلوساكسون المهاجرون الجدد لأمريكا أصحاب الأرض الأصليين من الهنود الحمر، كان الحل مباشرة هو إبادتهم، لأن المهاجرين العلمانيين الإنجلوساكسون (البروتستانت) كانوا يريدون أرض الهنود الحمر وثرواتهم، ولا يمكنهم أن يدمجوا الهنود الحمر في مجتمعهم، لأن لهم ثقافة وأصولاً أخرى، فلا بد من إبادتهم حتى لو اندمجوا في مجتمعهم، لأن المطلوب هو أرضهم وليس تغيير عقيدتهم.

وكان لا بد من تقديم المبرر لتلك الإبادة، وذلك بقلب الحقائق، وتصوير المستعمر الأبيض، على أنه رجل مسالم مسكين يزرع الأرض ويعمرها، ويرعى أطفاله وزوجته الأبرياء، وأن الهندي الأحمر المتوحش الهمجي -الذي لا يمكن الحوار معه ولا التفاهم مثل القاعدة والإرهابيين الإسلاميين- قد جاء ليقتل الأبيض المسكين المظلوم وأولاده، ويدمر بيته، ويحرق مزرعته، ولذا لا بد للأبيض المسكين -دفاعاً عن نفسه- أن يبيد الهندي الأحمر. ثم إن رأى من باب الرحمة والشفقة -التي يفيض بها قلب الأبيض المسكين- أن يعزل الهنود في مناطق العزل بعد أن يبيد معظمهم، فلا بأس، وهناك ممكن أن يعلمهم الحضارة بالتدريج، ويدمجهم عبر السنين الطوال في مجتمعه، كعالة عليه أو خدم أو سائلي إحسانه وإعانته.

وهو نفس المنطق ونفس الأساس الفكري الذي قام عليه سعي الغرب العلماني الصليبي والإنجلوساكسوني خاصة في إنشاء إسرائيل. ففلسطين هي أرض إسرائيل، والفلسطينيون الذين أقاموا فيها لآلاف السنين، هم مجرد "جماعات غير يهودية"، أي هوامش خارج السياق الأساسي، ولذا لا بد أن يبادوا أو يطردوا، بينما يمنح كل يهودي وأي يهودي الحق في الهجرة لإسرائيل والحصول على جنسيتها، حتى ولو لم يهاجر إليها. ولذا لا بد مرة أخرى من تقديم المبرر لذلك، وذلك بقلب الحقائق مرة أخرى، وتصوير اليهودي المحتل الغازي للأرض طليعة الاستكبار الغربي العلماني الصليبي على أنه إنسان مسالم مسكين يعتدي عليه العرب الهمج الرعاع المتوحشون، وأن المسكين لا حل له معهم -مثل بن لادن والإرهابيين الإسلاميين- إلا إبادتهم أو طردهم إن رأف بحالهم.

ويصبح -بالتالي أيضاً- منطقياً بل مطلوباً؛ أن تُمد إسرائيل بترسانة كاملة من أسلحة الدمار الشامل، لتدافع عن شعبها المظلوم، ضد الهمج البرابرة الظلمة المعتدين من العرب، وبالتالي لا يحق لأولئك الهمج مجرد السعي في تصنيع تلك الأسلحة، لأنهم همج متوحشون لا يحسنون استخدامها!!!

والآن أيها القارئ الذكي المنتبه قارن هذا التضليل المتعمد بكلام أسامة بن لادن حفظه الله:

"وبناء على ما تقدم يظهر بطلان مقولة بوش ولكن القول الذي تهرب منه، وهو جوهر نتائج استطلاعات الرأي بسحب الجنود هو؛ أنه من الأفضل ان لا نقاتل المسلمين على أرضهم ولا يقاتلونا على أرضنا. ولا مانع لدينا من إجابتكم إلى هدنة طويلة الامد بشروط عادلة، نفي بها، فنحن أمة حرم الله علينا الغدر والكذب، لينعم في هذه الهدنة الطرفان بالأمن والاستقرار، ولنبني العراق وأفغانستان، اللتين دمرتهما الحرب.

ولا عيب في الحل، لولا أنه يحول دون انسياب مئات المليارات إلى أصحاب النفوذ وتجار الحروب في أمريكا الذين دعموا حملة بوش الانتخابية بمليارات الدولارات. ومن هنا نستطيع أن نفهم إصرار بوش وعصابته على استمرار الحرب.

فإن صدقتم في إرادتكم للأمن والصلح فها قد أجبناكم، وإن أبى بوش إلا مواصلة الكذب والبغي فمن المفيد أن تقرؤا كتاب الدولة المارقة" [1].

وقارنه أيضاً بقوله:

"وإن من الاستهزاء بالناس واحتقارهم أيضاً أن تكون طائراتكم ودباباتكم تدمر البيوت فوق رؤوس أهلنا وأطفالنا في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وباكستان، ثم تبتسموا في وجوهنا، وتقولون نحن لا نعادي الإسلام، وإنما نعادي الإرهابيين، وندعو إلى التعايش السلمي والحوار بدلاً من صراع الحضارات.

---

[1] عرض الهدنة على الأمريكان- ذي الحجة ١٤٢٦هـ، يناير ٢٠٠٦م.

والواقع يكذبهم فساسة الغرب لا يرغبون في حوار إلا من أجل الحوار لاستغفالنا وتخديرنا لكسب الوقت، ولا يريدون هدنة إلا من طرفنا نحن فقط.

فقد علمتم ردنا مؤخراً على استطلاعات الرأي عندهم بعرض هدنة بيننا وبينهم بعد انسحاب جيوشهم وكف أذاهم عنا، فرفضوا كل ذلك، وهم مصرون على استمرار حملاتهم الصليبية ضد أمتنا واحتلال بلادنا ونهب خيراتنا واستعبادنا" [1].

عرض الشيخ أسامة بن لادن -حفظه الله- هدنة على الأمريكان وهدنة على الأوروبيين، فماذا كان الرد؟ السب والشتم. وقالوا: نحن لا نتفاوض مع الإرهابيين. ولو صدقوا لقالوا: مع الإرهابيين من العرب والمسلمين، أما الإرهابيون من اليهود الذين قتلوهم وفجروهم في فلسطين، فهم حلفاؤهم وأصدقاؤهم.

الغرب لا يريد هدنة مع القاعدة أو أية جهة تقاومه، لإن الغرب يعتبر أن مجرد الدعوة لمقاومته والسعي الجاد في ذلك -حتى دون ممارسة أي عمل ضده- جريمة عقوبتها الإبادة.

***

٤- استخدام الكذب والدعاية الدنيئة للوقيعة بين المجاهدين:

وقد ذكرت من قبل الاتهامات الدنيئة التي رددها تقرير الكونجرس حول مقتل الشيخ عبد الله عزام رحمه الله[2].

***

٥- القاعدة والعراق:

يزعم تقرير الكونجرس أن القاعدة كانت لها علاقات بالنظام العراقي، وهي أكاذيب كان المفترض أن يترفع عنها تقرير يمثل الأمة الأمريكية!! إن كان هناك ما يترفعون عنه.

فيزعم التقرير -بصدد نشاط بن لادن في التسعينيات- أنه كان راغباً في استكشاف احتمالات التعاون مع العراق. ولكي يخفي بن لادن علاقاته مع العراق قام الترابي بالتوسط في اتفاق يتعهد فيه بن لادن بالتوقف عن دعم الأنشطة ضد صدام.

ويزعم التقرير أن بن لادن قابل -عبر وساطة الحكومة السودانية- ضابط مخابرات عراقي عالي الرتبة في الخرطوم في آخر ١٩٩٤ أو بداية ١٩٩٥. ويقال أن بن لادن طلب مكاناً لإنشاء معسكرات

---

[1] كلمة: يا أهل الإسلام- ربيع الأول ١٤٢٧ هجرية ٤-٢٠٠٦ ميلادي.

[2] الجزء الأول: التفاتة للماضي/ الباب الرابع: العودة لأفغانستان/ الفصل الرابع: الغزوات المباركات/ المطلب الثالث: المعاني السياسية والفكرية التي أبرزتها الغزوات/ الفرع الخامس: كيف يخطط الصليبيون لحرب المجاهدين فكرياً / المبحث الثاني: حرب التشويه والكذب.

للتدريب، وكذلك معونة لشراء أسلحة، ولكن ليس هناك دليل على أن العراق قد استجاب لطلبله. ثم شهدت السنوات التالية جهوداً إضافية لتحقيق تلك العلاقة[١].

ثم يعلق التقرير في الحواشي على تلك المعلومات بأن ينسب لمذكرتين للسي آي إيه أن رئيس المخابرات العراقية وخبير عسكري في صنع القنابل قابلا بن لادن في مزرعته خارج الخرطوم في ٣٠ يوليو ١٩٩٦م. وزعم مصدرهم أن بن لادن طلب مساعدة -بل وحصل عليها- من خبير صنع القنابل العراقي، الذي بقى هناك يوفر التدريب حتى سبتمبر ١٩٩٦م. وهو الوقت الذي سربت فيه تلك المعلومات للولايات المتحدة.

ولأن حبل الكذب قصير، فيسارع التقرير للتشكيك في تلك المعلومات، ليس عن رغبة في تحري الحقيقة من مصادرها الموثوقة، ولكن لأنه اكتشف أن تقارير السي آي إيه، متضاربة مع الحقيقة، فبن لادن قد غادر السودان لأفغانستان في مايو ١٩٩٦م. وكان الأولى بكاتبي التقرير أن يرفضوا إدراج تلك المعلومات المتناقضة في التقرير، ولكنهم يجمعون الشاردة والواردة لتشويه صورة أعدائهم. ثم يعتذر التقرير بأن تلك المعلومات قد وصلت للأمريكان عبر ثلاثة وسطاء، ثم لا يستحي التقرير أن يعود فينقل عن نفس المصدر أن خبير صنع القنابل العراقي قد شوهد في مزرعة بن لادن في ديسمبر ١٩٩٥م[٢]!!

ثم يستمر التقرير في مزاعمه أو أكاذيبه فيزعم أن بن لادن في حدود عام ١٩٩٧م بعد وصوله لأفغانستان، أرسل البعض ليتحسسوا إمكانية التعاون مع صدام حسين. وفي مارس عام ١٩٩٨م سافر عضوان من القاعدة ليقابلا المخابرات العراقية. وفي يوليو ١٩٩٨م سافر وفد عراقي ليلتقي أولاً بالطالبان وثانياً ببن لادن. وتفيد المصادر أن أحد هذه الاجتماعات أو كلها قد تمت بوساطة نائبه المصري؛ الظواهري، الذي كانت له علاقاته الخاصة بالنظام العراقي من قبل!!! وأن لقاءات مماثلة قد تمت بين بن لادن أو معاونيه ومندوبين عراقيين في عام ١٩٩٩م، وأن العراقيين قد عرضوا على بن لادن ملجأ آمناً في العراق. ثم يضيف التقرير أنه -حتى كتابته- لم تظهر أية أدلة تفيد بوجود تعاون عملياتي مع العراق، أو الاشتراك في عمليات ضد الولايات المتحدة[٣].

ثم يناقض التقرير مزاعمه أو أكاذيبه حينما ينقل عن ريتشارد كلارك في كتابه (ضد كل الأعداء) أن الرئيس بوش طلب منه أن يبحث عن أي دليل عن تورط صدام في أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وأن كلارك وعد الرئيس بأنه سيراجع المسألة ثانية، ولكنه أضاف أن مجلس الأمن القومي والوسط الاستخباري قد راجعوا العلاقات السابقة بين القاعدة والعراق، ولم يصلوا أبداً لأية علاقة حقيقية[٤].

---

[١] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT P: ٦١.
[٢] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ٤٦٨.
[٣] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ٦٦.
[٤] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ٥٥٩.

ثم يتعرض التقرير لقصة مقابلة محمد عطا -رحمه الله- مع ضابط استخبارات عراقي اسمه (أحمد خليل إبراهيم سمير العاني)، ويفند التقرير هذه القصة، بل ويضيف أن العاني حالياً -في وقت كتابة التقرير- في أسر القوات الأمريكية، وأنه أنكر هذه القصة تماماً[١].

وبالرجوع لحواشي التقرير في المراجع، يتبين أن مصادره عن علاقة القاعدة بالعراق كلها جاءت من تقارير استخباراتية أمريكية، ومن تحقيق مع معتقل لم يذكر اسمه، بل ويضيف التقرير أن اثنين من أهم معتقلي القاعدة وهما خالد شيخ محمد وأبو زبيدة أنكرا تماماً وجود أية علاقة مع العراق.

ثم الأدهى من كل ذلك أن التقرير ظهر في أكتوبر ٢٠٠٤ أي بعد سقوط بغداد بقرابة سنة ونصف!! ولم يعثر الأمريكان على شبه دليل على مزاعم التقرير، والآن وبعد مرور أكثر من سبع سنوات على غزو الأمريكان للعراق، وبعد أن حرثوا العراق حرثاً، وقلبوا كل حجر فيه، وبعد أن سقطت المخابرات العراقية كلها في أيديهم برجالها ووثائقها وأرشيفها، لم يصل الأمريكان لشبهة واحدة تدعم ما ذهب إليه التقرير، مع أنهم كانوا في أمس الحاجة لشبهة دليل ليثبتوا صدق مزاعمهم عن علاقة القاعدة بالعراق، التي كانت أحد مبرراتهم لغزوه.

والغريب أن التقرير فند قصة لقاء محمد عطا -رحمه الله- بضابط المخابرات العراقي، ونفاها، فلماذا لم يفند كل القصص التي لم يستطع أن يجد عليها دليلاً واحداً، ولماذا لم يؤكد أن تقارير الاستخبارات (أو أكاذيبها) لم يسندها أي دليل بعد غزو العراق وإحراز كل وثائق الاستخبارات العراقية والتحقيق مع أعضائها؟

إنها الرغبة في تشويه الخصم، وتبرير العدوان عليه وإبادته.

***

٦- القاعدة وإيران وحزب الله:

يزعم التقرير أنه في عام ١٩٩١ أو ١٩٩٢م تمت مناقشات في السودان بين نشطاء إيرانيين والقاعدة وانتهت لاتفاق غير رسمي على التعاون في تقديم الدعم -أو حتى مجرد التدريب- للأعمال التي تشن ضد إسرائيل والولايات المتحدة. وبعد فترة ليست بالطويلة سافر عدد من أعضاء القاعدة ومدربيها المهمين لإيران لتلقي التدريب على المتفجرات، وفي خريف عام ١٩٩٣م سافر وفد آخر لوادي البقاع في لبنان للتدرب على المتفجرات والاستخبارات والأمن. وقد كان لبن لادن شغف بتعلم استخدام الشاحنات الملغومة مثل التي قتلت ٢٤١ من مشاة البحرية في لبنان عام ١٩٨٣م. ثم استمرت علاقات القاعدة مع إيران في السنوات التالية[٢].

---

[١] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ٢٢٨ & ٢٢٩.

[٢] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ٦١.

ويضيف التقرير في مزاعمه أنه قبل تفجير السفارة الأمريكية في نيروبي بشهور أُرسِل عدد من كبار أعضاء اللجنة العسكرية بالقاعدة ومن ضمنهم عدد من النشطاء العاملين في خلية كينيا إلى وادي البقاع في لبنان للتدرب[١].

وكل ما نقلته آنفاً عن التقرير من مزاعم (أو أكاذيب) يستند فيها التقرير -كما تبين حواشي مراجعه- على تقارير استخباراتية وإفادات جمال الفضل! وما أدراك ما جمال الفضل[٢].

وبعد أن قرر التقرير الأكاذيب سالفة الذكر بناء على مراجعه الواهية، انتقل لنوع آخر من الخداع، وهو النقل عن أقوال المعتقلين لديه في السجون السرية الذين لا يعلم أحد عنهم شيئاً، والذين تعرضوا جميعاً -باعتراف الأمريكان- للتعذيب وأشكال الإهانة والضغط المختلفين، والذين لا يعرف أحد على أي أساس قانوني أو حقوقي يحتجزون أو يسألون أو يعذبون.

ونقل التقرير عنهم أقوال مجملة ليست بنصوص محددة، وحاول أن يستقي منها شيئاً، ليلقي شبهات، إن لم يستطع أن يأتي بحقائق، وأنى له. ورغم ذلك تناقض التقرير فيما أورده.

فيضيف التقرير في مزاعمه أن المعلومات تؤكد على استمرار الاتصالات بين مسؤولي الأمن الإيرانيين وكبار أعضاء القاعدة بعد عودة بن لادن لأفغانستان.

وأن خلاد (توفيق بن عتش) قد ذكر في تحقيقاته أن إيران سعت منسقاً لتمتين علاقاتها بالقاعدة بعد الهجوم على المدمرة الأمريكية (كول) في أكتوبر ٢٠٠٠م، ولكنها جوبهت بالرفض.

وقد وصف هو وعدد من المعتقلين رغبة المسؤولين الإيرانيين في تسهيل سفر أعضاء القاعدة عبر إيران في طريقهم من وإلى أفغانستان. فمثلاً كان مراقبو الحدود الإيرانيون يطلب منهم عدم وضع الأختام على جوازات أولئك المسافرين. وهذه الإجراءات كانت مفيدة بالذات لأعضاء القاعدة السعوديين. ويزعم التقرير أن الأمريكان لديهم أدلة على أن ٨ إلى ١٠ من الأربعة عشر سعودياً المنفذين "العضلات" سافروا من وإلى إيران في الفترة من أكتوبر ٢٠٠٠ إلى فبراير ٢٠٠١م[٣].

ويذكر التقرير أيضاً أن خالد شيخ محمد وابن الشيبة أكدا أن عدداً من خاطفي ١١/ ٩ -على الأقل ٨ طبقاً لابن الشيبة- مروا عبر إيران في طريقهم من وإلى أفغانستان، مستفيدين من الإجراء الإيراني بعدم

---

(١) ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ٦٨.

(٢) ذكرته في: الجزء الأول: التفاتة للماضي/ الباب الرابع: العودة لأفغانستان/ الفصل الرابع: الغزوات المباركات/ المطلب الثالث: المعاني السياسية والفكرية التي أبرزتها الغزوات/ الفرع الخامس: كيف يخطط الصليبيون لحرب المجاهدين فكرياً / المبحث الثاني: حرب التشويه والكذب.

(٣) ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p:٢٤٠.

ختم الجوازات السعودية. وأنكرا وجود أي سبب آخر للخاطفين للسفر عبر إيران. كما أنكرا أيضاً وجود أية علاقة بين الخاطفين وحزب الله.

ثم يقول التقرير إنه بالمحصلة فإن هناك دليل قوي على أن إيران قد سهلت مرور أعضاء القاعدة من وإلى أفغانستان قبل ١١/ ٩، وكان بعض هؤلاء خاطفي ١١/ ٩.

ثم يؤكد التقرير أنهم لم يعثروا على أي دليل يثبت علم إيران أو حزب الله المسبق بالتخطيط لعمليات ١١/ ٩. وأنهم يعتقدون أن هذا الأمر يحتاج لبحث إضافي من حكومة الولايات المتحدة[١].

وبالتأمل فيما نقله التقرير عن المعتقلين، يتبين في النهاية أنها أقوال منتزعة تحت التعذيب، يمكن جداً أن يقدمها المعتقل ليرضي المحقق حتى يوقف التعذيب، أو لا يرجعه له مرة أخرى، وفضيحة الأمريكان مع أقوال ابن الشيخ الليبي -رحمه الله- عن علاقة العراق بالقاعدة معروفة ومشهورة، وهي المعلومات التي انتزعت منه بالتعذيب في مصر، وهلل لها الأمريكان، ثم اكتشفوا بعد ذلك أنها كانت كذبة كبرى، وأن ابن الشيخ أراد بها أن يوقف ما يتعرض له من تعذيب.

واستناد التقرير لأقوال المعتقلين المعذبين سأتعرض له لاحقاً بإذن الله، ولكن لنفترض أن ما نقله التقرير عنهم صحيح، فأي دليل فيها؟

ما قالوه عن أن مراقبي الحدود الإيرانيين كانوا لا يضعون أختاماً على جوازات أعضاء القاعدة غير صحيح، كانت الأختام توضع على جوازات جميع الجنسيات إلا السعوديين الذين يطلبون ذلك، وهو إجراء تتبعه إيران مع جميع السعوديين، الذين يدخلونها من أفغانستان وإليها أو من غيرها من الدول وإليها، إنه إجراء تتبعه إيران خدمة للشيعة في السعودية، وكل الذي تدل عليه أقوال المعتقلين المعذبين أن بعض أبطال الغزوات المباركات قد استفاد من هذا الإجراء، فماذا في هذا من دليل على العلاقة بين إيران والقاعدة؟ وخاصة أن التقرير قد نقل عن المعتقلين المعذبين أن سعي إيران المنسق لتمتين علاقاتها بالقاعدة بعد الهجوم على المدمرة الأمريكية (كول) في أكتوبر ٢٠٠٠م، قد جوبه بالرفض، وأن خالد شيخ محمد ورمزي بن الشيبة -فك الله أسرهما- أنكرا وجود أي سبب آخر للخاطفين للسفر عبر إيران سوى الاستفادة من عدم ختم الإيرانيين لجوازات السعوديين. كما أنكرا أيضاً وجود أية علاقة بين الخاطفين وحزب الله.

إنها محاولة من الأمريكان لتوريط إيران، ولتشويه صورة القاعدة، ولتخويف الأمريكان أن القاعدة متحالفة مع إيران وحزب الله ضدهم، وأن القاعدة لا يمكن التفاهم معها، وأن الحل معهم هو ما فعلوه بالهنود الحمر.

ولكن ليتأكد الأمريكان أننا لسنا -بفضل الله- هنوداً حمراً.

---

[١] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p:٢٤١.

***

٧- تسعة من المنفذين جاءوا من مناطق فقيرة في السعودية:

يحاول التقرير بالإيحاء أن يلقي شبهة أن بعض المنفذين للغزوات المباركات كان الفقر من دوافعهم، وهو لا يقول ذلك صراحة، بل ولا يذكر أيضاً أنهم كانوا فقراء، بل يذكر أنهم جاءوا من مناطق فقيرة [تأمل!].

فيذكر أن كلاً من أحمد الغامدي وسعيد الغامدي وحمزة الغامدي وأحمد الحزنوي جاءوا من منطقة الباحة، وهي منطقة متخلفة معزولة.

أما وائل ووليد الشهري وعبد العزيز العمري ومهند الشهري وأحمد النعيمي فقد جاءوا من منطقة عسير الفقيرة[١].

ويرد عليهم البطل الشهيد -كما نحسبه- عبد العزيز العمري ~ في وصيته:

"إنني حينما بذلت نفسي رخيصة في سبيل الله لم أفعل ذلك هروباً من ضيق العيش، كما يزعم من أضله الله. أو أنني لا أستطيع أن أعيش كما يعيش الناس، لا والله. إنني حين خرجت في أحسن زينتي في شبابي. خرجت باسم الله، آكل من أحسن أكل، وأشرب من أحسن شراب، وأسكن البيت الفاره، وأركب السيارة الجميلة، وتسنى لي العمل المغري. ولكنني قلت: ثم ماذا؟ والتبعة على ظهورنا والواجب في الذمة والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ {١٥} أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾" [٢].

٨- أقوال المعتقلين كمصدر، وتواطؤ التقرير عن الجرائم التي ارتكبت بحق المعتقلين:

يذكر التقرير أنه اعتمد على أقوال عشرة من المعتقلين لدى أمريكا ممن لبعضهم صلة مباشرة بأحداث الحادي عشر من سبتمبر، وأن تقدير مصداقية تلك الأقوال يحتاج لتثبت. وأن كل صلة أعضاء لجنة التقرير بالمعتقلين اقتصرت فقط على مجرد مراسلات استلمت من الأماكن التي جرى فيها الاستجواب، وأنهم (أي أعضاء لجنة التقرير) قد قدموا أسئلة لاستخدامها في التحقيق، ولكن لم يكن لديهم أي تحكم في هل استخدمت ومتى وكيف. ولم يسمح لهم حتى بالحديث مع المستجوبين، لأن هذا قد يمس بعملية الاستجواب الحساسة. ولكنهم (أي أعضاء لجنة التقرير) في النهاية قد قرروا إدراج تلك الأقوال من

---

[١] ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٢٣١& ٢٣٢.

[٢] شريط (الوصية الثانية لشهداء الغزوتين- وصية البطل الغازي عبد العزيز العمري).

المعتقلين في تقريرهم. وأنهم قد نظروا في تلك الإفادات بدقة، وحاولوا أن يجروها في سياق وثائق وإفادات الآخرين[١].

إذن فهم أوردوا إفادات أرسلت لهم من محققين لم يقابلوهم، ناهيك أن يقابلوا المعتقلين أصلاً، لأن ذلك يمس بعملية الاستجواب الحساسة (أي التي تقوم على التعذيب).

ويلاحظ هنا الصمت المريب والتواطئ من اللجنة عن التعذيب الشديد الذي تعرض له المعتقلون، والذي يتناقض مع دعوى اللجنة في الدفاع عن قيم أمريكا المزعومة، وما تبرؤ اللجنة من صدقية أقوال المعتقلين إلا محاولة مكشوفة للنأي بنفسها عن حقيقة التعذيب الذي تعرض ولا زال يتعرض له المعتقلون تحت سلطة أمريكا.

وزعم اللجنة أنهم لم يمكنوا من لقاء المستجوِبين يتناقض مع صلاحيات اللجنة، التي يصفها التقرير بأنها كانت شاملة، ويتناقض مع قانون تشكيل اللجنة، الذي يمكنها من بحث كل ما يتعلق بأحداث الحادي عشر من سبتمبر مما يرتبط بأي مجال تراه اللجنة مفيد لعملها بما في ذلك المرتبط بالاستخبارات وأجهزة الأمن[٢].

ومما لفت نظري في هذا التقرير؛ أنه لم ترد به كلمة (تعذيب: torture) مرة واحدة!! كما أن (كلمة حقوق الإنسان: human rights) لم ترد فيه إلا مرتين، مرة فيما يتعلق بطالبان[٣]، ومرة فيما يتعلق بالسودان[٤].

أما عن اتفاقيات جنيف فقد ذكر التقرير أن المزاعم بأن الولايات المتحدة قد أساءت للمعتقلين تجعل من الصعب بناء تحالفات دبلوماسية وسياسية وعسكرية تحتاجها الحكومة. وأن الولايات المتحدة يجب أن تعمل مع الأصدقاء لتطوير اتفاقات متبادلة ومتفق عليها حول قواعد الاعتقال والمعاملة الإنسانية للإرهابيين الدوليين المعتقلين، الذين لا يعتقلون حالياً تحت القانون الجنائي لدولة معينة[٥].

ويضيف التقرير أن الولايات المتحدة وبعض أصدقائها لا يقبلون التطبيق الكامل لمعاملة أسرى الحرب في اتفاقيات جنيف على الأسرى في حرب الإرهاب. وإن كانت تلك الاتفاقيات لا تنطبق تماماً على الإرهابيين، فإنها تشكل المعايير المقبولة عامة للمعاملة الإنسانية.

ثم يوصي التقرير بأن الولايات المتحدة يجب أن تشارك أصدقاءها في تطوير تناول مشترك للتحالف تجاه الاعتقال والمعاملة الإنسانية للإرهابيين المعتقلين. وقد تستنتج مبادئ جديدة من المادة ٣ من

---

[١] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ١٤٦.

[٢] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: xv.

[٣] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ١١١.

[٤] ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ٤٨٠.

[٥] يشير بذلك للمعتقلين في جوانتانامو وسجون أمريكا السرية حول العالم.

اتفاقيات جنيف بخصوص قانون الصراعات المسلحة. وقد صممت تلك المادة خصيصاً للحالات التي لا تنطبق عليها قوانين الحرب المعتادة. وإن معاييرها الدنيا تعد مقبولة عموما في كل العالم كقوانين دولية متعارف عليها[1].

هكذا ذراً للرماد في العيون؛ أن المزاعم بإساءة أمريكا للمعتقلين ستصعب بناء التحالف المطلوب مع الدول الأخرى، وأن على الولايات المتحدة أن تسعى مع غيرها لإعادة النظر في المادة ٣ من اتفاقيات جنيف، ولتطوير تناول مشترك لمعايير الاعتقال!!

متى سيتم ذلك؟ لا يعلم إلا الله.

أما ماذا حصل وكيف وأين فلا يهم معرفته، ولا داعي لمعرفته أو تغييره.

***

٩- ما لم يتحدث عنه التقرير:

ذكر التقرير أنه يخرج بتعاطف عارم مع ضحايا أحداث الحادي عشر من سبتمبر وباحترام متزايد للشعب الأمريكي[2].

ولكن لم يتطرق التقرير لمعاناة البشر عامة والمسلمين خاصة من أمريكا، إلا ببعض الجمل القليلة عن دعايات الإرهابيين ضد أمريكا.

ففيما يتعلق بفلسطين أشار التقرير في إشارة عابرة إلى أن اختيارات أمريكا السياسية لها عواقبها، وأنه سواء كان ذلك خطأً أم صواباً فإنه من الحقائق بصراحة أن السياسة الأمريكية فيما يتعلق بالصراع الإسرائيلي الفلسطيني وتصرفات أمريكا في العراق تعد من أهم مواضيع التعليقات الشعبية في العالم العربي والإسلامي. وأن هذا لا يعني أن اختيارات الولايات المتحدة كانت خطأً، ولكنه يعني أن هذه الاختيارات يجب أن تدمج مع رسالة أمريكا في توفير الفرص للعرب والمسلمين[3].

أي أن هذه السياسات التي لا يعدها التقرير خاطئة يجب أن تدمج مع بعض الرشاوى وفتات المساعدات للعرب والمسلمين، حتى يتناسوا ما فعلته أمريكا بهم.

إذن لم يتحدث عنه التقرير هو أسباب عداء المسلمين لأمريكا، فلم يتحدث مثلاً عن اغتصاب فلسطين وجرائم إسرائيل، بل هو غير مستعد أن يتحدث عنها أصلاً، لأنه يمثل وجهة النظر الصهيونية، بل تحدث عن معاداة السامية، وهو ما يظهر النزعة الصهيونية، أو الرغبة في إرضاء الصهيونية لدى كاتبيه ومموليه.

---

(١) ٩/ ١١ COMMISSION REPORT p: ٣٧٩ & ٣٨٠.

(٢) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: xvii.

(٣) ٩/١١ COMMISSION REPORT, p: ٣٧٦.

ولم يتحدث مثلاً عن احتلال ديار المسلمين، وقتل مئات الألوف منهم على يد الأمريكان، بل عن قتل الملايين في حروبهم المتعددة، بل عن إبادة أجناس مثل الهنود الحمر على أيديهم.

ولم يتحدث التقرير عن اغتصاب ثروات المسلمين.

وفي وقت كتابة التقرير كان الأمريكان وأعوانهم وعملاؤهم يعذبون أسرى المسلمين في أبوغريب وفي جوانتانامو والسجون السرية في مصر والأردن وأوروبا الشرقية والمغرب، ناهيك عن عمليات تسليم المعتقلين (rendition).

ورغم ولع التقرير بحقوق الإنسان (الأبيض) وتكرار حديثه عن العنف المزعوم للسلفيين والمتشددين لم يذكر كلمة واحدة عن تعذيب الأمريكان لأسرى المسلمين. سوى العبارة الغامضة عن أن المزاعم! بإساءة أمريكا للمعتقلين ستصعب بناء التحالف المطلوب مع الدول الأخرى.

ورغم إقرار التقرير بفشل الدعاية الأمريكية (الحرة وغيرها) وفيضان العالم الإسلامي بكراهية أمريكا، إلا أنه لم يطرح سؤال: لماذا يكره المسلمون الأمريكان؟

إذ أن الأمريكان من أشد الناس كراهية لكلمة (لماذا؟).

لم يتحدث التقرير عن سحق جنرالات فرنسا لتجربة الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر، التي صدقت خدعة الديمقراطية الغربية.

لم يتحدث التقرير عن عدم اعتراف الغرب بحكومة حماس المنتخبة، وعن فرض العقوبات عليها، واعتبار حماس منظمة إرهابية، رغم كل تنازلات حماس، وفي هذا درس لها.

لم يتحدث التقرير عن كل هذا، وما كان له أن يتحدث، وهو يتحدث بمنطق الإنسان الغربي العلماني الاستكباري، الذي يرى الحق في القوة، التي تعطيه الحق في أن يبيد الآخرين.

الفصل الخامس: القائدان الرفيقان الشهيدان

الفِتيَةُ البيضُ المَصا ... لِتُ أَشبَعوا حَزماً وَلينا
لَم تَبقَ أَنفُسُهُم وَكا ... نوا زينَةً لِلناظِرينا
فَمَكَثتُ بَعدَهُم وَكُن ... تُ بِطولِ صُحبَتِهِم ضَنينا[1]

لا أستطيع أن أنهي هذا الباب دون أن أذكر طرفاً من السيرة العطرة للأخوين القائدين الحبيبين الشهيدين أبي عبيدة البنشيري وأبي حفص القائد (القومندان).

أبو عبيدة البنشيري هو علي الرشيدي، أعطاه المولى سبحانه بسطة في الجسم، وطيبة في القلب، وابتسامة لا تكاد تفارقه، ودعابة حاضرة. حافظ لكتاب الله، مواظب على تلاوته.

كان يعمل مدرباً رياضياً بقوات الشرطة، اعتقل عقب اغتيال أنور السادات، وكان مرشحاً لأن يكون ضمن مجموعة الاغتيال، وكان زوج أخت الشهيد -كما نحسبه- عبد الحميد عبد السلام؛ أحد الأربعة الذين اغتالوا السادات وأمير مجموعة الاغتيال، وبعد الخروج من السجن هاجر لأفغانستان، وانخرط في الجهاد ضد الروس والشيوعيين في جبهات متعددة، لعل من أهمها رحلته لوادي بنجشير مع مجموعة من الإخوة العرب، وكانت الرحلة تستغرق شهراً وسط الثلوج وعبر الجبال، وهي الرحلة التي أكسبته كنيته، ثم مشاركته في معارك جاجي ضد القوات الروسية عام ١٩٨٧. وكذلك كانت له مشاركات كثيرة في الجهاد في جرديز وخوست.

---

[1] الأبيات للبيد بن ربيعة العامري- الموسوعة الشعرية- لبيد بن ربيعة العامري.

شارك في تأسيس القاعدة من أيامها الأولى، وأصبح اليد اليمنى للشيخ أسامة بن لادن حفظه الله، وأذكر أني سمعت الشيخ أسامة بن لادن في بشاور يقول: من نعم الله علي أن أتيت للجهاد الأفغاني حتى أتعرف على أبي عبيدة. وأشرف على معسكرات التدريب والإعداد، التي تخرج منها المئات، ولم يكتف بساحة أفغانستان بل وسع من نشاطه لقارات أخرى، فزار بلاداً عديدة بآسيا وأفريقيا، ولعل من أهم أنشطته مشاركاته في إنعاش الجهاد في شرق أفريقيا عامة والصومال خاصة. كان -رحمه الله- كثير الترحال والأسفار في سبيل الله، وكم عانت أسرته من غيابه. وقد استشهد غرقاً في بحيرة فكتوريا بتنزانيا في عام ١٩٩٦م، حيث انقلبت به عبارة ركاب تحمل عدداً أكثر من طاقتها.

كان محباً للوحدة بين المسلمين ساعياً لها بما يملك، وإن تعذرت الوحدة بين المجاهدين تنظيمياً أحياناً، كان يسعى لتطبيقها في الميدان، متخطياً حواجز التنظيمات وحساسيات الجماعات، كان الجميع يحس أنه قريب منه، يصغي للجميع باهتمام وإقبال، ويحاول أن يلبي مطالبهم بما يستطيع.

كان أبو عبيدة طاقة عمل لا تهدأ، وكان حريصاً على أن يبذل ما يستطيع لدفع عجلة الجهاد، وقد أكسبه نشاطه خبرة سياسية، وكان يعترف بفضل الجهاد الأفغاني في ذلك، فقد قال لي مرة: إن عمري قد زاد مائة سنة في أفغانستان.

ومن كثرة أسفاره أصبح خبيراً في إجراءات السفر وطبائع البلاد، سألني مرة هل معك دولارات من فئة الدولار والخمسة دولار، فقلت له أبحث لك، ولكن قد أجد من فئة العشرة أو الخمسين، فقال لي بمزاحه المحبب المعهود: لا. أريد من فئة الدولار، فهي عملتي في مطارات شرق أفريقيا، حتى أن موظفي المطارات قد عرفوني، وإذا رأوني ينادونني حتى ينهوا إجراءاتي ويحصلوا على الدولارات القليلة.

ومن طرائفه -رحمه الله- أنه كان قبل استشهاده بحوالي سنة كلما قابلني يسألني عن كلمات وعبارات إنجليزية تفيده، ثم يسجلها في مفكرة معه، وكنت أتعجب من اهتمامه الجديد باللغة الإنجليزية، وكان يقول لي إنه يحتاج هذه العبارات في السفر، ثم اكتشفت بعد وفاته -رحمه الله- أنه كان متزوجاً من زوجة ثانية كينية لا تعرف العربية.

كان من آماله توحيد جماعة الجهاد والقاعدة ، وقد سعى في ذلك حثيثاً، ولذلك ذكرته -رحمه الله- في كلمتي يوم الوحدة وتكوين جماعة قاعدة الجهاد، فقلت ما معناه:

"وفي هذا الحفل فإني لأذكر إخوة كراماً، كان يسرهم أن يكونوا بيننا اليوم، ليشهدوا هذا الحدث الكبير، وأحسب منهم أخانا الكبير الشهيد -ولا نزكيه على الله- أبا عبيدة البنشيري ~، فنم قرير العين يا أبا عبيدة فقد تحققت الوحدة التي كنت تأملها".

كان كلاً من أبي عبيدة وأبي حفص حريصاً على إنشاء وتطوير حركة جهادية عالمية، وكان أبو عبيدة بمثابة روحها المتدفقة، وكان أبو حفص مهندسها الهادئ. فكأن كلاًذ منهما يكمل أخاه.

أما رفيق درب أبي عبيدة؛ أبو حفص القائد -أو القومندان كما كان إخوانه ينادونه- صبحي عبد العزيز أبو ستة، فمثال الخلق والأدب الرفيع والحرص على مشاعر إخوانه، أعطي مثل رفيق دربه أبي عبيدة بسطة في الجسم مع وسامة، ولحية أسرع الشيب لها مبكراً.

وأبو حفص من محافظة البحيرة من قبيلة أبو ستة، وهي قبيلة عدنانية هاجرت من فلسطين لمصر.

كان شديد الحرص على الوحدة بين المسلمين، وقد ذكرت من قبل جهوده في إنشاء قاعدة الجهاد.

ومن غرائب الاتفاق أني كنت جاراً لهما، بل وأحياناً ما تركت لكل منهما سكني، وكذلك كنت طبيباً لهما مرات عديدات، وكان من أهم ما مر بي في ذلك مشاركتي في تطبيب أبي عبيدة من ملاريا خبيثة عنيفة كادت أن تودي به لولا لطف الله، وتحير المتخصصون في علاجها مدة، حتى أن بعض الإخوة بدأ يتحدث عن نظرية تسميم أبي عبيدة، ثم شفي منها وعوفي بفضل الله، وكذلك أجريت لأبي حفص عمليتين كانت أولاهما المشاركة في علاجه من جراحاته في معركة جلال آباد حيث أصيب بجرح نافذ في الصدر مماس للحجاب الحاجز، لكن لم يخترق البطن من قذيفة كسرت ذراعه وضلوعه.

كان أبو حفص مثالاً في الخلق الرفيع والأدب العالي والسماحة والكرم والزهد، وكان نافراً من الخلافات والمشاحنات مقبلاً على العمل والعطاء، وقد اكتسب خبرة عسكرية واسعة، بدأت من عمله بالجيش المصري كضابط احتياط، ثم تنامت مع حياته الجهادية المتطورة.

وقد بذل غاية جهده في تطوير القاعدة وتنظيم شؤونها حتى وصلت لما وصلت إليه من نمو واتساع مكنها من ضرب أمريكا ضربات بلغت أوجها بالغزوات المباركات.

وكان شديد الإعجاب بالإخوة المنفذين للغزوات، وخاصة بالقائد الغازي البطل الشهيد -كما نحسبه- محمد عطا، وقد ذكرت من قبل قصته مع محمد عطا عندما سأله: وماذا يمكن أن نعمل من أجل فلسطين؟ وقد ظل أبو حفص رحمه الله متذكراً لذلك السؤال ومتأثراً به.

استشهد رحمه الله في قندهار في بداية الغزو الصليبي لأفغانستان.

فرحمهما الله رحمة واسعة، وألحقنا بهما على خير.

يَقُولونَ لِي صَبراً وَإنّي لَصابِرٌ ... فَلَيسَ الّذي قَد غابَ عنّا بِمَيّتِ

أَلا في سَبيلِ اللهِ ما قَد أَصابَهُ ... وَجَنّاتُ عَدنٍ بالمَكارِهِ حُفَّتِ

وَما ماتَ مَن أَبقى كُهُولاً وفِتيَةً ... بِنَفسي وَأَهلي مِن كُهولٍ وفِتيَةِ

هُمُ عِندَنَا من أَكرَمِ النّاسِ شيمَةً ... وَهُم عِندَ رَبّ العَرشِ خَيرُ البَرِيّةِ

تَراهُم وَإن جَلَّ المُصابُ كَأَنّهُمْ ... بِمَكّةَ يَومَ الفَتحِ أَو بِالمَدينَةِ

مَصاليتُ بسَّامونَ وَالَموتُ كالِحٌ فوارسُ نَزّالونَ عِندَ الوَقيعَةِ

غِلاظٌ شِدادُ البَأسِ باعوا نُفوسَهُمْ إلى الله بالجَنَّاتِ في خَيرِ بَيعَةِ

فَمَا خارِجٌ إلاّ لنيلِ شَهادَةٍ وَمَا راجِعٌ إلا بِفَيءٍ وَجِزيَةِ

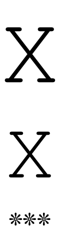
فَيا وَيلَ أَمريكا وَيا وَيلَ أَهلِها كَأَنّي بِقَاعِدَةِ الجِهادِ اِستَعَدَّتِ

لِيَومٍ عَصيبٍ كالثُلاثاءِ عِندَما سَفَكنَا دِماءَ الكافِرينَ فَطُلَّتِ[1]

---

(1) الأبيات للقمان البغدادي في رثاء أبي مصعب الزرقاوي رحمه الله- منبر التوحيد والجهاد- ملف لقمان البغدادي- ربح البيع أبا مصعب.

طُلَّ دمه: أي هُدِر دمه. [مختار الصحاح- باب الطاء- طلل].



***

وقد رتبتها ترتيباً أبجدياً. وذكرت فيها تفاصيل طبعة كل مرجع موجود في الكتاب، ليسهل الرجوع إليه لمن أراد، وأسأل القارئ المعذرة عما وقع فيها من نقص لظروف التنقل وقلة الاستقرار، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل، وقد نقلت عن بعض الموسوعات الإلكترونية والمواقع على شبكة المعلومات وأرفق بالهامش عنوانينها منعاً لتكرارها[1].

- إتحاف العباد بفضائل الجهاد لعبد الله عزام.

- الأحاديث المختارة لأبي عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، سنة ١٤١٠هـ، الطبعة الأولى. نقلاً عن: المكتبة الألفية للسنة النبوية.

- الأحزاب السياسية العربية وعلاقتها بتحركات الشارع العربي، قناة الجزيرة الفضائية، برنامج حوار مفتوح، المقدم: غسان بن جدو- الضيوف: الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح وحسين عبد الرازق وعبد الله الكوراني- تاريخ الحلقة: ٣/ ٣/ ١٤٢٥هـ.

- أحكام القرآن لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، دار الفكر، بيروت.

- أخبار أبي تمام لأبي بكر الصولي. نقلاً عن: الموسوعة الشعرية.

- أخبار القلم والسيف في رحلة الشتاء والصيف لمحمد السمرقندي.

- وأخيرا ترجل الفارس خطاب- تنسيق أبو أنس الطائفي- نقلاً عن موقع مفكرة الإسلام.

---

[1] عناوين الموسوعات الإلكترونية والمواقع على شبكة المعلومات:

- المكتبة الشاملة، الإصدار ٣,٨، http://www.shamela.ws

- المكتبة الألفية للسنة النبوية (الإصدار ١,٥)، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، عمان.

- مكتبة الأدب العربي، الإصدار الأول، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، عمان.

- مكتبة الفقه وأصوله (الإصدار ١,٥)- مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي- ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م- عمان.

- مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية، الإصدار الأول، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، عمان.

- مكتبة علماء الإسلام، الإصدار الأول، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م، مركز التراث لإبحاث الحاسب الآلي، عمان.

- مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية- الإصدار الثاني- ١٤٢١هـ الموافق ٢٠٠٠م- مركز التراث للحاسب الآلي- عمان.

- الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٣م.

Website: http://www.cultural.org.ae

- منبر التوحيد والجهاد.

http://www.almaqdese.com, http://www.tawhed.ws, http://www.alsunnah.info.

- موقع الدكتور محمد عباس.www.mhamadabbas.net, mhamadab@gawab.com

X

- إرهابي٠٠٧ من هو... كتاباته... انجازاته...ادخل لتعرف- شبكة الإخلاص الإسلامية/ المنتديات العامة/ منتدى الحدث (قضايا الأمة الإسلامية).

- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م. نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

- الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان. نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

- استهداف أمريكا (محاضرة صوتية لحوار مع الدكتور محمد المسعري)- تعليقات على أحداث سبتمبر- حوار في قضية- تسجيلات التجديد الإسلامية- موقع تنظيم التجديد الإسلامي. tajdeed@tajdeed.net.

- الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين للخالديين سعيد ومحمد ابني هاشم بن وعلة الخالدي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨م. نقلاً عن: الموسوعة الشعرية.

- إظهار الحق لرحمت الله بن خليل الرحمن الهندي. نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

- الإعجاز والإيجاز لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبي منصور الثعالبي. نقلاً عن: الموسوعة الشعرية.

- أعلام الموقعين عن رب العالمين لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بانن قيم الجوزية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ- ٢٠٠١م.

- إعلان الجهاد على الأمريكيين المحتلين لبلاد الحرمين لأسامة بن محمد بن لادن- أفغانستان- الجمعة ٩ ربيع الآخر ١٤١٧هـ الموافق ٢٣ أغسطس ١٩٩٦م.

- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية. نقلاً عن: مكتبة الأدب العربي.

- إفريقيا بين التنصير والتغريب لسالي هاني.

- أفغانستان والطالبان ومعركة الإسلام اليوم لعمر عبد الحكيم أبي مصعب السوري، سلسلة قضايا الظاهرين على الحق، مركز الغرباء للدراسات الإسلامية (١)، كابل- أفغانستان، ١٠/١٩٩٨.

- الأم لمحمد بن إدريس الشافعي أبي عبد الله، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ. نقلاً عن: المكتبة الألفية للسنة.

- إماطة اللثام عن بعض أحكام ذروة سنام الإسلام لرفاعي أحمد طه.

- الإمام المجدد والمحدث الشاه ولي الله الدهلوي- حياته ودعوته لمحمد بشير السيالكوتي، دار العلم، إسلام آباد، الطبعة الأولى، شعبان ١٤١٣هـ- يناير ١٩٩٣.

- الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق لمحمد حسنين هيكل، دار الشروق، الشركة المصرية للنشر العربي والدولي، القاهرة، الطبعة الخامسة، فبراير ٢٠٠٥.

- أمريكا بدأت هجومها العام والشامل على الإسلام. ابن لادن -وليس أبو جهل وأبو لهب – هو

الحل للدكتور محمد عباس. موقع الدكتور محمد عباس.

– الأمم المتحدة (S/٢٠٠٨/٣٢٤)– مجلس الأمن– ١٤ مايو ٢٠٠٨– رسالة مؤرخة ١٣ أيار/ مايو ٢٠٠٨ موجهة إلى رئيس مجلس الأمن من رئيس لجنة مجلس الأمن المنشأة عملاً بالقرار ١٢٦٧ (١٩٩٩) بشأن تنظيم القاعدة وحركة الطالبان ومن يرتبط بهما من أفراد وكيانات.

– أمن مصر القومي لمحمد حافظ إسماعيل.

– أميركا تعلن فشل مشروعها الإعلامي: إقفال قناة الحرة قريبًا– منتديات شبكة الحسبة/ القسم العام/ منتدى الاحتساب في السياسة الشرعية– ٢٧/ ٧/ ٢٠٠٨.

– الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل لعلي بن سليمان المرداوي أبي الحسن، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

– البداية والنهاية لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبي الفداء، مكتبة المعارف، بيروت. نقلاً عن: مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية.

– بابا روما وصهينة النصرانية لعبد الرحمن عبد الخالق.

– باكستانية نرويجية مسلمة!!! تدعو الى حرق القرآن– منتديات شبكة الحسبة/ القسم العام/ منتدى الاحتساب في السياسة الشرعية– ١٠– ٦– ٢٠٠٨. نقلاً عن جريدة الوطن السعودية.

– بل هي حرب على الإسلام لمحمد عباس، الطبعة الأولى : ٢٠٠٢، مكتبة مدبولى، القاهرة.

– بلاغ إلى هيئة الأمن القومي: مذبحة السودانيين تخطيط صليبي صهيوني للدكتور محمد عباس– موقع الدكتور محمد عباس.

– بيان إلى المسلمين من أبي قتادة عمر بن محمود أبو عمر تعليقاً على قرار محكمة اللوردات البريطانية بإقرار الحكومة في تسليمه إلى الحكومة الأردنية– منتديات الفلوجة الإسلامية/ المنتديات العامة/ منتدى الحدث (قضايا الأمة الإسلامية) بيان إلى المسلمين من أبي قتادة/ عمر بن محمود أبو عمر.

– البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، دار صعب، بيروت، سنة ١٩٦٨، الطبعة الأولى. نقلاً عن: مكتبة الأدب العربي.

– بيان من فضيلة الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي عما جرى في أمريكا من أحداث.

– البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف لإبراهيم بن محمد الحسيني، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٤٠١هـ. نقلاً عن: المكتبة الألفية للسنة النبوية.

– تأثير الحرب على الإرهاب على تنظيم القاعدة بعد ٥ سنوات على ١١–٩، ندوة ضمن التغطية الخاصة الخامسة لأحداث ١١–٩، قناة الجزيرة.

– تاريخ الأدب العربي– العصر العباسي الأول لشوقي ضيف، الطبعة السادسة عشرة، دار المعارف.

– تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك المحامي، دار النفائس، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ، الطبعة الثانية. نقلاً عن: مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية.

– تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن بن حسن الجبرتي، دار الجيل، بيروت، نقلاً عن: مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية.

– التحفة المقدسية في مختصر تاريخ النصرانية لأبي محمد المقدسي، منبر التوحيد والجهاد.

– تدمير المدمرة الأمريكية كول (شريط مرئي)، إنتاج مؤسسة السحاب للإنتاج الإعلامي.

– التعددية السياسية في الدولة الإسلامية لصلاح الصاوي، الطبعة الأولى، دار الإعلام الدولي، ١٩٩٢م.

– تنظيم الجهاد، جذوره وأسراره لمحمد مورو، الشركة العربية الدولية للنشر والإعلام.

– تيسير علم أصول الفقه لعبدالله بن يوسف الجُديع. نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

– الثمر المستطاب في سيرة القائد خطاب– كتائب النور. Aljabha١٤٢٠@hotmail.com

– الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبي عبد الله، دار الشعب، القاهرة، سنة ١٣٧٢هـ، الطبعة الثانية. نقلاً عن: المكتبة الألفية للسنة النبوية.

– الجامع الصحيح سنن الترمذي لمحمد بن عيسى أبي عيسى الترمذي السلمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. نقلاً عن: المكتبة الألفية للسنة النبوية.

– الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري، نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

– الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وسننه وأيامه (صحيح البخاري) لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري أبي عبد الله، نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

– جاهلية القرن العشرين لمحمد قطب، منبر التوحيد والجهاد.

– جدير بالشيخ القرضاوي أن يعود لمحمد مصطفى المقرئ، منبر التوحيد والجهاد.

– جريدة الشرق الأوسط– الأربعاء ٦ رجب ١٤٢٦هـ ١٠ أغسطس ٢٠٠٥م– العدد ٩٧٥٢.

– جريدة الوفد: الأربعاء ١٦ رجب ١٤٠٩هـ– ١٩٨٩/٢/٢٢.

– الجمعيات التنصيرية تثير مخاوف مسلمي البوسنة لإبراهيم القديمي، موقع الجزيرة نت، الصفحة الرئيسية: تقارير وحوارات، الجمعة ١٤٣٠/٣/٣ هـ– الموافق٢٠٠٩/٢/٢٧ م.

– جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام لأبي زيد القرشي– الموسوعة الشعرية– المجمع الثقافي– الإمارات العربية المتحدة– ٢٠٠٣م.

– جندي أمريكي للجنرال تومي فرانكس– القائد العام للقيادة المركزية للولايات المتحدة، جريدة

X

الشرق الأوسط: الحلقة الثانية- ١١ أغسطس ٢٠٠٤، الحلقة السادسة- ٢٠ أغسطس ٢٠٠٤، الحلقة الثامنة- ٢٥ أغسطس ٢٠٠٤.

- الجنوب.. مدخل الصليبية إلى السودان لمصعب الطيب بابكر- المسلمون والعالم العدد (١٧٣) المحرم ١٤٢٣- إبريل ٢٠٠٢.

- الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ، لمحمد خير هيكل، الطبعة الأولى، دار البيارق، بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

- الجهاد ماض ٢ (شريط صوتي) لعبد الله عزام.

- جهود المنصرين في كينيا.. أضواء على الخطط القائمة لاستئصال المسلمين لخلفان خميس إسماعيل- المسلمون والعالم العدد (٨٧) ذو القعدة ١٤١٥هـ- إبريل ١٩٩٥م.

- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبي العباس، دار العاصمة، الرياض، سنة ١٤١٤هـ، الطبعة الأولى. نقلاً عن مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية- الإصدار الثاني- مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي- ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م- عمان.

- حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير لمحمد عرفة الدسوقي، دار الفكر بيروت.

- حرب أكتوبر لسعد الدين الشاذلي، مؤسسة الوطن العربي للطباعة والنشر، باريس ١٩٨٠.

- حرب أكتوبر (١٩٧٣) دراسة ودروس لمحمد فوزي.

- حرب المستضعفين لروبرت تابر، تعريب محمود سيد الرصاص، مراجعة: المقدم الهيثم الأيوبي.

- الحرية أو الطوفان- دراسة موضوعية للخطاب السياسي الشرعي ومراحله التاريخية لحاكم المطيري، ٢٠٠٣م.

- الحصاد المر، الإخوان المسلمون في ستين عامًا لأيمن الظواهري، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

- حقيقة العلمانيين العرب لحامد بن عبد الله العلي- منبر التوحيد والجهاد- حامد بن عبد الله العلي.

- حقيقة مايجري وراء قضبان سجون الأمريكان لأبي يحيى حسن قائد- الأحد ١٤ شعبان ١٤٢٦هـ.

- حماس، الجذور التاريخية والميثاق لعبد الله عزام، الطبعة الأولى، نشر وتوزيع مركز الشهيد عزام الإعلامي، بشاور.

- الحماسة البصرية لأبي الحسن البصري صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن- الموسوعة الشعرية.

- حوار الأستاذ لويس عطية الله مع مجلة "صوت الجهاد"١٤٢٤ هـ- منبر التوحيد والجهاد- لويس عطية الله.

– خصوم الولايات المتحدة يحركون حملة إعلامية ضمن ما يسمى بحرب الأفكار– الجمعة ٢٧-١٠-٢٠٠٦– بيرند ديبسمان مراسل رويتر من واشنطن– نقلتها عن: منتديات شبكة الحسبة/ القسم العام/ منتدى الاحتساب في السياسة الشرعية/ خصوم الولايات المتحدة يحركون حملة إعلامية ضمن ما يسمى بحرب الأفكار– نخبة الإعلام الجهادي ٩/ ١٢/ ٢٠٠٦.

– الخطابي ومعركة أنوال لمحمد القاضي، مجلة (الجندي المسلم)، العدد١١٠، نقلاً عن: منبر التوحيد والجهاد.

– دعوة المقاومة الإسلامية العالمية لعمر عبد الحكيم أبي مصعب السوري.

– الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان لعبد الله عزام– منبر التوحيد والجهاد.

– دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبي العباس، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، سنة ١٤٠٤هـ، الطبعة الثانية. نقلاً عن: مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية.

– ديوان الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي. نقلاً عن: مكتبة الأدب العربي.

– ذكريات فلسطين لعبد الله عزام، نشر مركز الشهيد عزام الإعلامي، بشاور.

– رد المحتار على الدر المختار : شرح تنوير الأبصار لمحمد أمين، دار الفكر، بيروت، ١٣٨٦هـ، الطبعة الثانية.

– رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧.

– روايات ساخنة من أرض الشيشان لأبي بكر عقيدة أشرف عبد الحميد الشنتلي رحمه الله، ١٤١٧هـ– ١٩٩٦م، شبكة وإسلاماه الإخبارية، ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢م.

– زاد المعاد في هَدْي خير العباد لمحمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢م.

– سبل السلام شرح بلوغ المرام، لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، المكتبة الأثرية، لاهور.

– سنن ابن ماجة لمحمد بن يزيد أبي عبدالله القزويني، دار الفكر، بيروت. نقلاً عن: المكتبة الألفية للسنة النبوية (الإصدار ١,٥)– مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي– ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م– عمان.

– سنن أبي داود لسليمان بن الأشعث أبي داود السجستاني الأزدي، دار الفكر. نقلاً عن: المكتبة الألفية للسنة النبوية.

– السنن الكبرى لأحمد بن شعيب أبي عبد الرحمن النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ– ١٩٩١م. نقلاً عن: المكتبة الألفية للسنة النبوية.

– سير أعلام النبلاء لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ– ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت. نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

- سيناتور أمريكي يطالب "يوتيوب" إزالة تسجيلات الشيخ أسامة- شبكة الإخلاص الإسلامية/_ المنتديات العامة/ منتدى الحدث (قضايا الأمة الإسلامية)- أحمد هاجر- ٢٠٠٨-٠٥-٢١، سلطان الجزيري- ٢٠٠٨-٠٥-٢١.

- شفاء صدور المؤمنين- رسالة عن بعض معاني الجهاد في عملية إسلام آباد لأيمن الظواهري، ذو القعدة ١٤١٦هـ- مارس ١٩٩٦م.

- الشهيد عزام بين الميلاد والاستشهاد للدكتور أبي مجاهد، نشر مركز الشهيد عزام الإعلامي، بشاور.

- الشيشان- إعداد وترتيب أبي محمد الفلسطيني-

Scouba diver@hotmail.com

- الشيشان- السياسة والواقع لزليم خان يندربي، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

- الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد بن منيع أبي عبدالله البصري الزهري، دار صادر،بيروت. نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

- العالم ما بعد غزوة مانهاتن (سلسلة مقالات) للدكتور عبد الله النفيسي.

- عبر وبصائر للجهاد في العصر الحاضر لعبد الله عزام.

- العلمانية وثقافة السلام لأحمد إدريس الطعان، موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة ١- ٢٩ ج: ١٢ ص: ١١٣. نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

- العلمانية ودورها في إنشاء ديانة شمعية ميتة ليحيى هاشم حسن فرغل - منبر التوحيد والجهاد.

- العلمانية ودورها في تشويه العلاقة بين الدين والعلم ليحيى هاشم حسن فرغل- منبر التوحيد والجهاد.

- العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة لسفر بن عبد الرحمن الحوالي. نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

- العلمانيون والإسلام لمحمد قطب- منبر التوحيد والجهاد.

- عملاق الفكر الإسلامي لعبد الله عزام، الطبعة الأولى، ، نشر مركز الشهيد عزام الإعلامي، بشاور. نقلاً عن: منبر التوحيد والجهاد.

- غزوة ١١ سبتمبر: المستحيل إذا صار ممكناً لأبي عبيد القرشي، ضمن كتاب: غزوة ١١ سبتمبر: رؤية متكاملة للحدث الذي هز العالم- كتاب الأنصار- العدد الأول: رجب ١٤٢٣ هـ- سبتمبر ٢٠٠٢ م.

X

– غزوة نيويورك وواشنطن– قراءة تأصيلية لسيف الدين الأنصاري، ضمن كتاب: غزوة ١١ سبتمبر– رؤية متكاملة للحدث الذي هز العالم– كتاب الأنصار– العدد الأول: رجب ١٤٢٣ هـ– سبتمبر ٢٠٠٢ م.

– الفتاوى الكبرى لابن تيمية، دار المعرفة، بيروت.

– فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي رحمه الله، دار المعرفة، ، بيروت، سنة ١٣٧٩هـ. نقلاً عن: المكتبة الألفية للسنة النبوية.

– فتح القدير (شرح الهداية) لمحمد بن عبد الواحد السيواسي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية.

– الفصل في الملل والأهواء والنحل لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبي محمد، مكتبة الخانجي، القاهرة. نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

– الفوائد لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٣هـ– ١٩٧٣م، بيروت. نقلاً عن: مكتبة علماء الإسلام.

– في التربية الجهادية والبناء لعبد الله عزام، نشر مركز الشهيد عزام الإعلامي، بشاور— ١٩٩٢م— ١٤١٣هـ.

– في الجهاد فقه واجتهاد لعبد الله عزام، نشر مركز الشهيد عزام الإعلامي، بشاور.

– في السيرة عبرة لعبد الله عزام.

– فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، سنة ١٣٥٦هـ، الطبعة الأولى. نقلاً عن: المكتبة الألفية للسنة النبوية.

– في ظلال القرآن لسيد قطب، الطبعة التاسعة، ١٤٠٠هـ– ١٩٨٠م، دار الشروق، القاهرة– بيروت.

– في ظلال سورة التوبة لعبد الله عزام، نشر مركز الشهيد عزام الإعلامي، بشاور.

– القاعدة: التنظيم السري لعبد الباري عطوان، الطبعة العربية، الطبعة الأولى ٢٠٠٧، دار الساقي، بيروت، نُسخ عن طريق شبكة الحسبة.

– القاعدة تسببت في الأزمة المالية لأمجد شلتوني– الجزيرة توك– ١٥/١٠/ ٢٠٠٨.

– القدس.. وغزة.. وبغداد.. عروس عروبتكم للدكتور محمد عباس.

– القواعد الأربع التي تفرق بين دين المسلمين ودين العلمانيين لعلي بن خضير الخضير– منبر التوحيد والجهاد– علي بن خضير الخضير.

– قضية التنوير في العالم الإسلامي لمحمد قطب– منبر التوحيد والجهاد.

– كتائب الإرهاب الإعلامية الأمريكية لعبد الباري عطوان، صحيفة القدس العربي، ١٢ رمضان ١٤٢٥هـ الموافق ٢٦/ ١٠/ ٢٠٠٤ ص: ١.

– كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس لإسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٤٠٥هـ، الطبعة الرابعة. نقلاً عن: المكتبة الألفية للسنة النبوية.

– كلمة حق، مرافعة الشيخ عمر عبد الرحمن في قضية الجهاد، نقلاً عن: منبر التوحيد والجهاد.

– كلمة صغيرة: حديث الحجارة، مجلة البيان، رجب ١٤٢٢هـ، عدد: ١٦٧ ص: ١.

– لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى. نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

– لِمَ كل هذا التحامل على ديدات؟ لأحمد دعدوش، مجلة العصر، منتدى العصر، ٥/ ٥/ ٢٠٠٦. نقلها عن [مصر الحديثة لكرومر ج: ٢ ص: ٢٣٢].

– لماذا لا يعامل "بات روبرتسون" كإرهابي؟ لعبدالله صالح، مجلة العصر، منتدى العصر، ٢٦/ ٨/ ٢٠٠٥.

– ليس غريباً أن يكره العرب الغرب– موقع الجزيرة/ الصفحة الرئيسية/ جولة الأخبار/ فيسك– الأربعاء ١٤٣٠/١/١٠هـ – الموافق ٢٠٠٩/١/٧م.

– مات نجيب محفوظ وهذه بعض تركته لسعيد بن ناصر الغامدي، موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة ١-٢٩ ج: ٥٢ ص: ١٠٦. نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

– ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن علي الحسني الندوي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ– ٢٠٠٤م، دار القلم، دمشق.

– المتحدث بإسم القيادة المركزية الأميركية يقر بانتصار القاعدة إعلاميا– كلارك لـ"العربية.نت": ٤ آلاف موقع إلكتروني "إرهابي" يناصر بن لادن – العربية نت– السبت ١١ مارس ٢٠٠٦م، ١٠ صفر ١٤٢٧ هـ.

– مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٤١٥هـ– ١٩٩٥م. نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

– متن القصيدة النونية لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة. نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

– المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لأبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي، المكتبة العصرية، بيروت، سنة ١٩٩٥. نقلاً عن: مكتبة الأدب العربي.

– مجزرة سجن جانغي.. شاهدة على الإرهاب الغربي لروبرت فيسك.

X

– مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لعلي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث– دار الكتاب العربي، القاهرة– بيروت. نقلاً عن: المكتبة الألفية للسنة النبوية.

– مجموع الفتاوى لأحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبي العباس، مكتبة ابن تيمية، القاهرة. نقلاً عن: مكتبة الفقه وأصوله.

– المدخل للثقافة العسكرية لهانئ أحمد الدرديري– نقلاً عن: منبر التوحيد والجهاد.

– مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب، نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

– مذكرات الجمسي، حرب أكتوبر ١٩٧٣ لمحمد عبد الغني الجمسي، المنشورات الشرقية، باريس، الطبعة الأولى ١٩٧٩.

– مذكرات محمود رياض، الجزء الثالث: أمريكا والعرب لمحمود رياض، دار المستقبل العربي، الطبعة الأولى ١٩٨٦، القاهرة.

– مذكرات هنري كسينجر في البيت الأبيض ترجمة خليل فرحات.

– المستدرك على الصحيحين لمحمد بن عبد الله أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤١١هـ– ١٩٩٠م، الطبعة الأولى. نقلاً عن: المكتبة الألفية للسنة النبوية.

– المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٩٨٦، الطبعة الثانية. نقلاً عن: مكتبة الأدب العربي.

– المستقبل السياسي للإخوان المسلمين في مصر، برنامج بلا حدود، قناة الجزيرة الفضائية، مقدم الحلقة: أحمد منصور– ضيف الحلقة: د. محمد جمال حشمت عضو الكتلة البرلمانية للإخوان المسلمين في مجلس الشعب المصري– تاريخ الحلقة: ٢٠٠١/٠١/١٠.

– مسند الإمام أحمد بن حنبل أبي عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر. نقلاً عن: المكتبة الألفية للسنة النبوية.

– المصنف في الأحاديث والآثار لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي رحمه الله، مكتبة الرشد، الرياض، سنة ١٤٠٩هـ، الطبعة الأولى. نقلاً عن: المكتبة الألفية للسنة النبوية.

– معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي أبي عبد الله، دار الفكر، بيروت. نقلاً عن: المكتبة الألفية للسنة النبوية.

– المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بمصر، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، مكتبة الشروق الدولية.

– معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام لمحمد عمارة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م.

– الموسوعة العربية العالمية. نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

– المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني لعبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبي محمد، دار الفكر، بيروت– سنة ١٤٠٥هـ، الطبعة الأولى.

– مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج لمحمد الشربيني الخطيب، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٣٥٢هـ، ١٩٣٣م.

– مفاجآت شريط زعيم القاعدة– صحيفة القدس العربي– ١ نوفمبر ٢٠٠٤ ص: ١.

– المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، الكتاب الأول: الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية لمحمد حسنين هيكل، الطبعة الثالثة إبريل ١٩٩٦، دار الشروق، القاهرة.

– المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل لمحمد حسنين هيكل، الكتاب الأول: الأسطورة والأمبراطورية والدولة اليهودية، الطبعة الثالثة، دار الشروق، القاهرة، إبريل ١٩٩٦.

– المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل لمحمد حسنين هيكل، الكتاب الثاني: عواصف الحرب وعواصف السلام، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٦م.

– من اغتال أحمد شاه مسعود؟ برنامج مصور من إنتاج قناة العربية.

– من يعرف عن قضية الجبهة الإسلامية العالمية؟– شبكة الإخلاص الإسلامية/ المنتديات العامة/ منتدى الحدث (قضايا الأمة الإسلامية).

– منح الجليل شرح مختصر سيدي خليل لمحمد عليش، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ، ١٩٨٤م.

– الموافقات لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م. نقلاً عن: المكتبة الشاملة.

– الموسوعة الشعرية– المجمع الثقافي– الإمارات العربية المتحدة– ٢٠٠٣م.

– الموسوعة العربية الشاملة. نقلاً عن: المكتبة الشاملة، الإصدار ٣,٨.

– موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية للدكتور عبد الوهاب المسيري.

– النفحات لعبد الوهاب عزام.

– هذه حياتي سيرتي ومسيرتي لأحمد ديدات، منبر التوحيد والجهاد.

– هلم نخرج من ظلمات التيه لمحمد قطب– منبر التوحيد والجهاد.

– هؤلاء قتلوا السادات، أسرار المرافعات في تنظيم الجهاد لكمال خالد المحامي، دار الاعتصام.

– الهيمنة أم البقاء؛ السعي الأمريكي للسيطرة على العالم لنعوم تشومسكي، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ٢٠٠٤.

– الوصية الأولى لشهداء الغزوتين– البطل الغازي أحمد الحزنوي– شريط من إنتاج مؤسسة السحاب للإنتاج الإعلامي– ١٤٢٢هـ.

X

– الوصية الثالثة لشهداء الغزوتين– الغازي البطل سعيد الغامدي– شريط من إنتاج مؤسسة السحاب للإنتاج الإعلامي– رجب ١٤٢٤هـ.

– الوصية الثانية لشهداء الغزوتين– وصية البطل الغازي عبد العزيز العمري– شريط من إنتاج مؤسسة السحاب للإنتاج الإعلامي– رجب ١٤٢٢هـ.

– وفيات الأعيان وأنباء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، دار الثقافة، بيروت، سنة ١٩٦٨. نقلاً عن: مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية، الإصدار الأول ، ١٤١٩هـ– ١٩٩٩م، مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، عمان.

– وقفات مع فتوى القرضاوي حول القواعد الأمريكية لعبد الآخر حماد– منبر التوحيد والجهاد.

– يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور عبدالملك الثعالبي النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٩٨٣، الطبعة الثانية. نقلاً عن: مكتبة الأدب العربي.

– يعتبرون رضاها من رضا الرب: "المسيحيون الصهاينة".. في خدمة إسرائيل لعبدالله صالح، مجلة العصر، ٢٢/ ٥/ ٢٠٠٤.

- Beyond al-Qaeda. Part ١. The Global Jihadist Movement, by Angel Rabasa et al. Published ٢٠٠٦ by the RAND Corporation, Prepared for the United States Air Force.

- Blair: West could lose al-Qa'ida propaganda war, by Andrew Grice, Political Editor, The Independent, ١٨ April ٢٠٠٧.

- BUILDING MODERATE MUSLIM NETWORKS, by Angel Rabasa et al, RAND Corporation, CENTER FOR MIDDLE EAST PUBLIC POLICY, Published ٢٠٠٧ by the RAND Corporation.

- Bringing Peace to Chechnya? Assessments and Implications, by Jim Nichol. CRS Report for Congress. Congressional Research Service- The Library of Congress. Updated March ٣١, ٢٠٠٦.

- CBO TESTIMONY, Statement of Peter Orszag, Director, Estimated Costs of U.S. Operations in Iraq and Afghanistan and of Other Activities Related to the War on Terrorism before the Committee on the Budget, U.S. House of Representatives, October ٢٤, ٢٠٠٧.

- Can al-Qaeda Endure Beyond bin Laden, by Michael Scheuer, Terrorism Focus, Volume II. Issue ٢٠. October ٣١, ٢٠٠٥.

- Chechnya- Tombstone of Russian Power, by Anatol Lieven, Yale University Press, ١٩٩٨.

- CIVIL DEMOCRATIC ISLAM, Partners, Resources, and Strategies, by Cheryl Benard, RAND Corporation, ٢٠٠٣.

- Communication and Media Strategy in the Jihadi War of Ideas, by Steven R. Corman & Jill S. Schiefelbein, Report #٠٦٠١, April ٢٠, ٢٠٠٦, Consortium for Strategic Communication, Arizona State University.

X

- CURRENT Medical Diagnosis & Treatment, ٤٥TH EDITION, ٢٠٠٦, LANGE MEDICAL PUBLICATIONS.

- THE ECONOMIC COSTS OF THE IRAQ WAR: AN APPRAISAL THREE YEARS AFTER THE BEGINNING OF THE CONFLICT, bY Linda Bilmes, Kennedy School, Harvard University, and Joseph E. Stiglitz University Professor, Columbia University.

- ENCYCLOPEDIA BRITANNICA ٢٠٠٥ Delux Edition CD.

- Encyclopedia of Prisoners of War and Internment, Second Edition, Jonathan F. Vance, Editor, Grey House Publishing, Inc., ٢٠٠٦, USA.

- The Evolving Al-Qaeda Threat by James Phillips, Heritage Lectures, No. ٩٢٨, delivered February ١٦, ٢٠٠٦, published by the Heritage Foundation, March ١٧, ٢٠٠٦.

- Flawed ally III, by Steve Coll, The Frontier Post, p: ٧, Wednesday March ١٠- ٢٠٠٤.

- Harmony and Disharmony- Exploiting al-Qa'ida's Organizational Vulnerabilities, Combating Terrorism Center, Department of Social Sciences, United States Military Academy, Department of the Army, February ١٤, ٢٠٠٦.

- High-Tech Terror: Al-Qaeda's Use of New Technology, by Jarret M. Brachman, THE FLETCHER FORUM OF WORLD AFFAIRS, VOL. ٣٠:٢ SUMMER ٢٠٠٦.

- IMPERIAL HUBRIS: Why the West Is Losing the War on Terror, by Michael Scheuer, Brassey's, Inc, ٢٠٠٤.

- Internet Imams: Inside the Cyber-Jihad, Are we in danger of losing the war of ideas on the Web? By Christopher Dickey, Newsweek, July ٣٠, ٢٠٠٧ issue.

- Interview with Michael Scheuer in "Interview" program, BBC, ١١ am GMT, Saturday, ٨th July ٢٠٠٦.

- The Iraq Study Group Report, by James A. Baker, III, and Lee H. Hamilton, et al, Vintage Books, A Division of Random House, Inc., New York, ١st edition, ٢٠٠٦.

- Le langage d'Al Qaida, Un film de Asiem El Difraoui, channel Arte.

- THE MAN BEHIND BIN LADEN- How an Egyptian doctor became a master of terror, by Lawrence Wright, The New Yorker, Issue of ٢٠٠٢-٠٩-١٦.

- Microsoft Encarta Encyclopedia ٢٠٠٥.

- Microsoft Encarta ٢٠٠٨.

- Militant Ideology Atlas, Executive Report, editor & project director: William McCants, project coordinator: Jarret Brachman and CTC director: LTC Joseph Felter, Combating Terroism Center, U.S. Military Academy, Department of the Army, November ٢٠٠٦.

- Militant Ideology Atlas- Research Compendium, editor & project director: William McCants, project coordinator: Jarret Brachman and

CTC director: LTC Joseph Felter, Combating Terroism Center, U.S. Military Academy, Department of the Army, November ٢٠٠٦.

- THE ٩/١١ COMMISSION REPORT, Final Report of the National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States, OFFICIAL GOVERNMENT EDITION.

- The Origins of al Qaeda's Ideology: Implications for US Strategy by Christopher Henzel, Parameters, Spring ٢٠٠٥.

- THE OXFORD HISTORY OF MODERN WAR, edited by Charles Townshend, Oxford University Press, ٢٠٠٠.

- The Post-Madrid Face of Al Qaeda, by Rohan Gunaratna, The Washington Quarterly • ٢٧:٣, Summer ٢٠٠٤, p: ٩٩ & ١٠٠, by The Center for Strategic and International Studies and the Massachusetts Institute of Technology.

- THE POWER OF NIGHTMARES- THE RISE OF THE POLITICS OF FEAR, Part One: BABY IT'S COLD OUTSIDE, BBC.

- Pursue Prevent Protect Prepare, The United Kingdom's Strategy for Countering International Terrorism, March ٢٠٠٩, Presented to Parliament by the Prime Minister and the Secretary of State for the Home Department.

- Al-Qaeda's British propagandists, by Sean O'Neill, The Times, April ٢٤, ٢٠٠٧.

- Al-Qaeda Five Years On: The Threat and the Challenge by Maha Azzam, Chatham House, Middle East Programme, MEP BP ٠٦/٠٢, September ٢٠٠٦.

- Al Qaeda German mouthpiece resurfaces on the Web, by Mark Trevelyan, Security Correspondent, LONDON (Reuters), Friday, September ٢١, ٢٠٠٧.

- Al-Qaeda's Media Doctrine: Evolution from Cheerleader to Opinion-Shaper, By Michael Scheuer, Terrorism Focus, Volume ٤, Issue ١٥ (May ٢٢, ٢٠٠٧). Published by The Jamestown Foundation.

- Al-Qaeda's online media strategies: From Abu Reuter to Irhabi ٠٠٧, by Hanna Rogan, Norwegian Defence Research Establishment (FFI), ٠١,١٢,٢٠٠٧.

- Al Qaeda: Profile and Threat Assessment, by Kenneth Katzman; Specialist in Middle Eastern Affairs, Foreign Affairs, Defense, and Trade Division, CRS Report for Congress, August ١٧, ٢٠٠٥, Order Code RL٣٣٠٣٨, Congressional Research Service- The Library of Congress.

- Al Qaeda: Statements and Evolving Ideology by Christopher M. Blanchard, CRS Report for Congress, November ١٦, ٢٠٠٤, Order Code RS٢١٩٧٣, Congressional Research Service, The Library of Congress.

- Al-Qaeda's ٠٠٧, The extraordinary story of the solitary computer geek in a Shepherds Bush bedsit who became the world's most wanted cyber-jihadis, by Gordon Corera, The Times, January ١٦, ٢٠٠٨.

- Reading Their Lips: The Credibility of Jihadi Web Sites as 'Soft Power' in the War of the Minds, by Reuven Paz. Global Research in International Affairs (GLORIA) Center, The Project for the Research of Islamist Movements (PRISM) Herzliya, Occupied Palestine.

- The Road to Al Qaeda, The Story of Bin Laden's Right hand man, by Montasser al- Zayyat, Plutto press, London, ٢٠٠٤.

- Rogue State: A Guide to the World's Only Superpower, by William Blum, Zed Books Ltd, London. New updated edition, ٢٠٠٢.

- Scamming America- The Official ٩/١١ Cover-up Guide, by NY ٩/١١ TRUTH, www.ny٩١١truth.org.

- Seven Years After ٩/١١: Al-Qaida's Strengths and Vulnerabilities, by Richard Barrett, September ٢٠٠٨, The Future Actions Series, Future Actions is co-published by Eden Intelligence and the International Centre for the Study of Radicalisation and Political Violence (ICSR).

- SHORT TEXTBOOK OF PSYCHIATRY, by M. S. Bahatia, fifth edition, ٢٠٠٤, CBS PUBLISHERS & DISTRIBUTORS, New Delhi.

- Stealing Al-Qa'ida's Playbook, By Jarret M. Brachman & William F. Mccants, Combating Terrorism Center, United States Military Academy, February ٢٠٠٦.

- Terrorism Focus, Volume II. Issue ٢٠. October ٣١, ٢٠٠٥.

- Terror Goes Digital With Canadian Help, by Omar El Akkad, from Saturday's Globe and Mail, August ١٨, ٢٠٠٧, globeandmail.com.

- The War Behind Me- Vietnam Veterans Confront The Truth About U.S. War Crimes, by Deborah Nelson, Published by Basic Books, ٢٠٠٨.

- Word Drug Report ٢٠٠٧, UNITED NATIONS, Office on Drug and Crime, United Nations Publications, Sales No. E. ٠٧.XI.٥.

الفهرس

صدر للمؤلّف

١- تحقيق التوحيد بجهاد الطواغيت سنة ربانية لا تتبدل.
٢- رسالة بمناسبة استشهاد الأخ عصام القمري رحمه الله.
٣- الحصاد المر الإخوان المسلمون في ستين عامًا - الطبعة الثانية.
٤- الكتاب الأسود قصة تعذيب المسلمين في عهد حسني مبارك- الطبعة الثانية.
٥- شفاء صدور المؤمنين- رسالة عن بعض معاني الجهاد في عملية إسلام آباد.
٦- مصر المسلمة بين سياط الجلادين وعمالة الخائنين.
٧- الولاء والبراء عقيدة منقولة وواقع مفقود.
٨- ريح الجنة- رسالة عن أشرف قربات العبّاد؛ حملات الموت والاستشهاد.
٩- إعزاز راية الإسلام رسالة في تأكيد تلازم الحاكمية للتوحيد.
١٠- التبرئة- رسالة في تبرئة أمة القلم والسيف من منقصة تهمة الخور والضعف.
١١- الصبح والقنديل- رسالة حول زعم إسلامية دستور باكستان.



